الاستخبارات في

الحرب العالمية الثانية

obeikandl.com

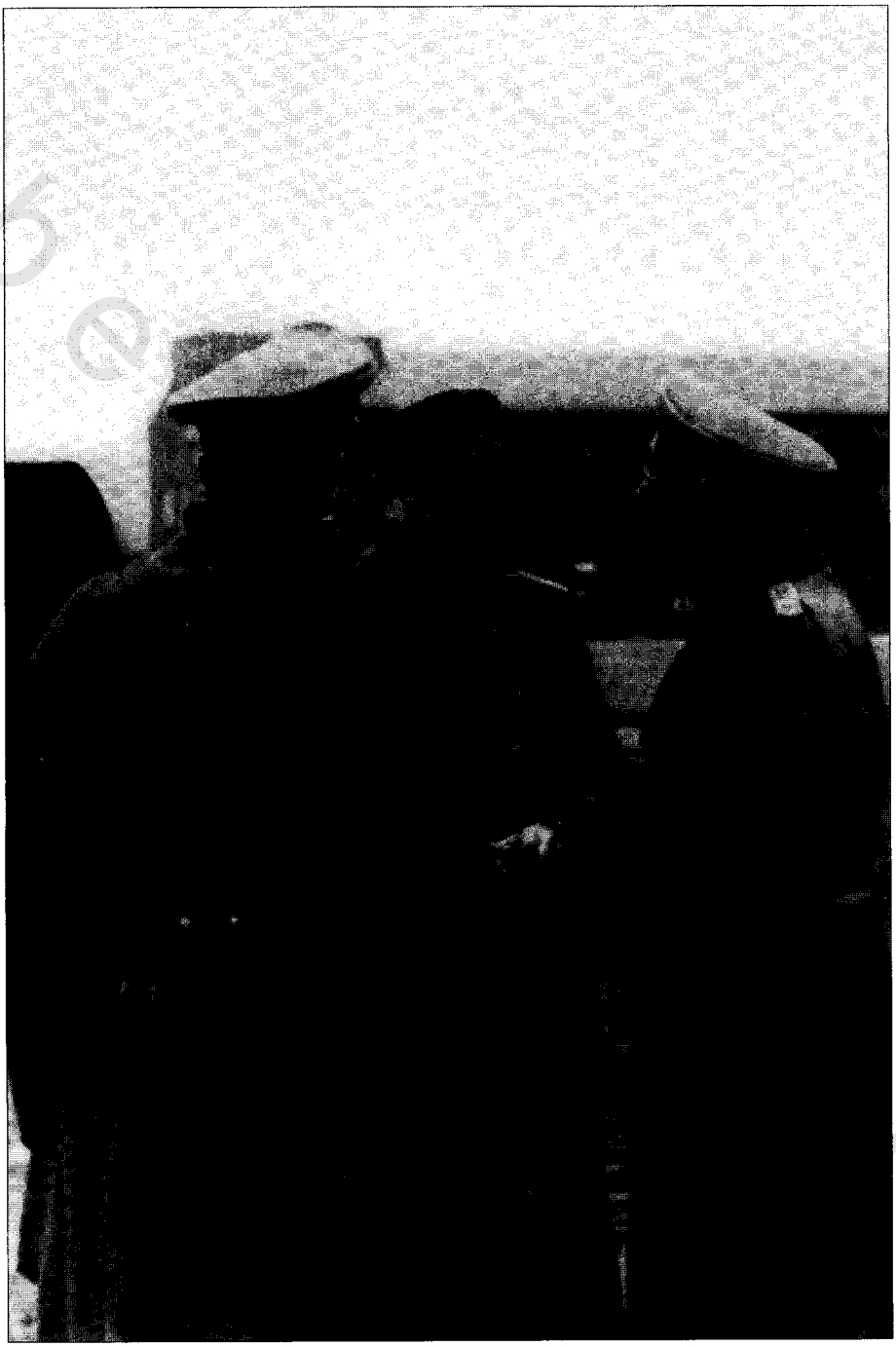

الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية

أكمله ووسعه بعد

فتح أرشيف الحلفاء السري

هانس بوشلر

مع 86 مصوَّراً ووثيقة وجدولاً وخريطة

فيلهلم ريتر فون شرام

تعريب

ميشيل كيلو

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

Original title:

Geheimdienste

im Zweiten Weltkrieg

by:

Wilhelm Ritter Von Schramm

Copyright © 2002 by F.A. Herbig Verlagsbuchhandlung GmbH,

ISBN 3 - 7766 - 2241- 5

All rights reserved. Authorized translation from the German language edition.
F.A. Herbig Verlagsbuchhandlung GmbH, München Germany

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع ف. آ. هربغ فيرلاغسبونها ندلنغ ـ ميونخ ـ ألمانيا.

© مكتبة العبيكان 1425هـ ـ 2004م

الرياض 11595، المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص. ب. 62807
Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1425هـ ـ 2004م

ISBN 9960 - 40 - 293 -2

ح مكتبة العبيكان، 1425هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شرام، فيلهلم ريتر فون

الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية. / فيلهلم ريتر فون شرام؛ ميشيل كيلو. - الرياض، 1425هـ

568 ص؛ 16,5 × 24 سم

ردمك: 2 - 293 - 40 - 9960

1 ـ المخابرات العسكرية 2 ـ الجاسوسية.

أ. كيلو، ميشيل (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 3432 , 355 1425 / 590

رقم الإيداع: 1425 / 590

ردمك: 2 - 293 - 40 - 9960 ISBN

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission of the publishers.

obeikandl.com

المحتوى

مدخل 29

1. الاستخبارات في أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها 47

صورة الواقع وحساب ختامي 49

2. في واجهة الحرب 61

الفصل الأول: مسرحية ألمانية ـ فرنسية 63

الفصل الثاني: بين حلفاء مقبلين 77

الفصل الثالث: موسكو والسرية الشاملة 83

المنظورات الجديدة 89

الفصل الأول: المخابرات بعيون بريطانية 91

الفصل الثاني: جهاز استخبارات دون جواسيس وعملاء مأجورين من أجل

حماية الحياد السويسري 107

الفصل الثالث: حول صدقية الجاسوسية 129

الفصل الرابع: انتقال نقاط الثقل 143

3. حالة الاستخبارات السرية السوفياتية الخاصة 165

الفصل الأول: التطهير الكبير 167

الفصل الثاني: النتائج حتى 1942 179

obeikandl.com

الفصل الثالث: خبير اللاسلكي يتدخل	185
4. وكالة أنباء العدو من 1939 وحتى 1945	191
الفصل الأول: الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية	193
الفصل الثاني: الاستطلاع البرقي الألماني يشارك في الاستماع	209
الفصل الثالث: من الممارسة الحربية التاريخية	233
الفصل الرابع: مكافحة اللاسلكي ـ العبء الثقيل	249
الفصل الخامس: ألاعيب اللاسلكي وخدعه	272
5. هتلر والاستخبارات السرية	289
الفصل الأول: هتلر والجاسوسية	291
الفصل الثاني: عملية الشريط الفضي	307
6. صراع الاستخبارات السرية سنة 1944	327
الفصل الأول: «أوفرلورد» أو المباغتة الناجحة	329
الفصل الثاني: هجوم الأردين: السرية الكاملة	359
الفصل الثالث: الصدمة	375
الفصل الرابع: معركة الأردين وتهاوي شخصية هتلر	385
7. برلين ضاعت في سويسرا	399
الفصل الأول: ضياع وحيرة	401
الفصل الثاني: المعزل والاستخبارات	409
الفصل الثالث: جهاز الاستخبارات الأميركي ومرحلة الحرب النهائية	417
الفصل الرابع: اضطراب وعي هتلر	425

obeikandl.com

الفصل الخامس: حلقات بحث التاريخ المعاصر 431

8. جهاز الاستخبارات في الشرق 439

طريقة عمل شعبة الجيوش الأجنبية شرق 441

ملخص 465

كلمة أخيرة 481

ملحق 487

المتنصت عليهم في الكوت لورين 1915/ 1916 489

obeikandl.com

obeikandl.com

حول طبعة عام 2002 الجديدة

(هانس بوشلر)

أوضح البروفيسور كريستوفر أندرو، أستاذ التاريخ المعاصر والأحدث في جامعة كامبردج ورئيس مجموعة دراسة الاستخبارات البريطانية، وهو أحد أشهر الخبراء العلميين العارفين بشؤون الاستخبارات، في ندوة عقدتها حلقة العمل المسماة «تاريخ الاستخبارات» بتاريخ الثاني عشر من أيار/مايو سنة 1995 في مدينة توتسينج قائلاً: «إن من يصف تاريخ القرن العشرين من دون أخذ نتائج المعلومات الاستخبارية بالاعتبار، سيعتبر ديناصوراً متخلفاً في وقت أقصاه سبعينيات هذا القرن». في الواقع، اكتسبت الاستخبارات أهمية جعلتها تسمو كثيراً فوق المكانة، التي عزتها حكوماتها إليها عند بدء الحرب العالمية الثانية. هذا ما أدركه فيلهلم ريتر فون شرام بحساسية رفيعة وخبرة وظيفية كبيرة في نهاية الحرب، وجسده في دراسته الموسومة «معرفة وعلم العدو». أدرك المؤلف في وقت مبكر التطور العاصف، الذي كان يحدث في مجال الاستطلاع اللاسلكي، من حيث تصميم وتطوير أجهزة يجب أن تعتبر أسلافاً للكمبيوترات المعروفة في أيامنا، جعلت بالإمكان فك الأقوال المشفرة المرسلة باللاسلكي، التي كانت شيفراتها تعد غير قابلة للكشف. بذلك، توصلت القوى المتحاربة إلى معلومات حول العدو لم يكن بوسع أفضل العملاء موقعاً الحصول عليها، وخاصة من حيث السرعة، ذلك أنه صار بمستطاع العدو قراءة الأقوال المرسلة باللاسلكي في الوقت عينه، الذي يقرأها فيه مستقبلها الأصلي.

يقول دايڤيد كاهن، وهو مؤلف كتاب مرجعي عن الاستخبارات الألمانية عنوانه «جواسيس هتلر» (لندن سنة 1978)، لم تتم للأسف ترجمته إلى اللغة الألمانية: «ليست المعرفة كافية بحد ذاتها، ولا بد من أن تكون مقترنة بالقدرة»، أي بالقدرة على صد هجوم العدو، الذي وصلتنا معلومات عنه عبر تدابير وإجراءات خاصة، أو بالقدرة على القيام بعمل استباقي ضده. وعلى سبيل المثال فإن إنزال مظليين ألمان في جزيرة كريت كان معروفا بأدق تفاصيله، بما في ذلك ساعته، بفضل فك شيفرات التخاطب الألماني باللاسلكي. لكن الإنجليز لم يكن لديهم في ذلك الوقت قوات احتياطية يستطيعون سحبها من شمال أفريقيا. وهكذا، لم تستطع المعرفة وحدها أن تساعدهم. والحق، أن الجيش الألماني لم يكن لديه منذ وقت أقصاه سنة 1942 أي مشكلة غير مشكلة امتلاك المعرفة والافتقار إلى القدرة، أي الافتقار إلى احتياطي يمكن زجه في الأماكن المهددة، لسد النقص في الوحدات المقاتلة. وثمة مثال يبين ما أرمي إليه، هو دخول القوات السوفياتية المسلحة إلى قوس بارانوف على نهر الفايكسل في كانون الثاني/ يناير من سنة 1945، الذي عرف الألمان بوقوعه، لكن هتلر لم يسمح بسحب بعض الفرق من الغرب لمواجهته. واليوم، نستطيع القول إن التفوق السوفياتي الهائل كان سيحول بين العدد القليل من الفرق الألمانية وبين منع انهيار الرايخ الثالث، حتى لو وصل في الوقت المناسب إلى الجبهة.

مر وقت طويل، قبل أن تسمح بريطانيا العظمى بنشر دراسات حول فك شيفرات اتصالات الألمان واليابانيين باللاسلكي خلال الحرب العالمية الثانية. من المعروف أن العلماء والتقنيين عملوا بنجاح ملحوظ في بلتشلي بارك من أعمال باكنغهامشاير، على فك شيفرات الاتصالات المعادية، التي أعطوها إسماً رمزياً هو «أولترا» في ما يخص الاتصالات الألمانية، و«ماجيك» بالنسبة إلى الاتصالات اليابانية. بعكس الرايخ الألماني، ركز

الإنجليز في بلتشلي بارك قواهم جميعها على فك الاتصالات المشفرة باللاسلكي، وهو مكان كان اختياره موفقاً، بما أنه يقع في الوسط بين كامبريدج وأكسفورد، غير بعيد من لندن في الوقت نفسه. وقد بلغ عدد العاملين فيه عند نهاية الحرب نحو عشرة آلاف شخص.

كان مشروعا «أولترا» و«ماجيك»، إلى جانب بناء القنبلة الذرية، أكثر الأسرار المحاطة بالسرية خلال الحرب العالمية الثانية. وكانت تعليمات السرية المتعلقة بهما صارمة إلى درجة سمحت لعدد قليل جدا من الأشخاص بمعرفة مصادر أخبارهما، التي كانت تتم صياغتها بطريقة تبقي مصدرها محجوباً تماماً، قبل نقلها إلى خارج حلقة عارفيها الضيقة. أما المصادر التي كانت المعلومات حولهما تنسب إليها فهي: القيادة العليا للقوات الألمانية، أو ديبلوماسي محايد أو ما شابه. بما أنه كان على ذكر المصدر أن يأتي متفقاً مع مضمون الخبر، فإننا لا نجد في وثائق الأركان العسكرية للقوات المسلحة البريطانية والأميركية أي إشارة إلى «أولترا» أو «ماجيك»، الأمر الذي كان من دون شك سبباً في نشوء الأساطير، التي عرفتها فترة ما بعد الحرب العالمية، التي يظهر فيها دوماً خائن ما في قيادة القوات الألمانية العليا أو في قيادة الجيش الألماني أو في مقر قيادة الفوهرر (القائد).

يعتبر المؤلف المرجعي، الذي وضعه الأساتذة هينسلي وتوماس ورانسوم ونايت، تحت عنوان «الاستخبارات البريطانية في الحرب العالمية الثانية» (لندن 1979 ـ 1984 في ثلاثة أجزاء) أول كتاب يخبر الرأي العام رسمياً بإنجازات بلتشلي بارك. هذا المؤلف لم يقيض لفيلهلم ريتر فون شرام أن يقرأه.

منذ ذلك التاريخ، ظهر عدد كبير آخر من المؤلفات حول «أولترا» و«ماجيك» وموضاعات استخبارية أخرى، كتبت بفضل قيام حكومتي أميركا

وبريطانيا برفع السرية عن وثائقهما. في هذا السياق، لا بد أن نذكر قيام الأميركيين سنة 1980 بإعادة وثائق القوات المسلحة الألمانية والمكتب الرئيس لأمن الرايخ، التي كانوا قد غنموها خلال الحرب، إلى ألمانيا.

إن نشر الوثائق أدى إلى ضرورة إعادة تقويم بعض الأحداث، وذكر أحداث أخرى كانت مجهولة، وتصويب غيرها واستكماله. لهذا، اعتقد الناشر، الدكتور فلايسنر، بضرورة أن تضم الطبعة الجديدة من هذا الكتاب آخر ما وصلت إليه المعرفة، من خلال تزويدها بملاحظات تسمو بها إلى سوية تتفق وأوضاع البحث في صورته الراهنة.

ثمة جانب مهم في أجهزة الاستخبارات الكلاسيكية لم يكن بوسع المؤلف إدراك أبعاده كاملة في عصره، يتعلق بالدعم الكثيف لحركات المقاومة، التي كانت تتشكل في المناطق التي تحتلها القوات الألمانية. لو لم تقم الاستخبارات الحليفة بإمداد هذه الحركات بكادر مدرب، وبمتفجرات وأسلحة، لما قيض لقتالها ضد الألمان أن يبلغ الحجم الذي وصل إليه، وسمم عن قصد وسابق تصميم، وبصورة عميقة، علاقاتهم بالسكان المدنيين، وأجبر قواتهم على إبقاء فرق كثيرة في المناطق المحتلة، كانت الحاجة إليها شديدة في مواقع الحرب الأصلية.

طرح فيلهلم ريتر فون شرام في كتابه سؤالاً حول ما إذا كان الاستطلاع الإلكتروني يلغي ضرورة أو فائدة العميل، مع أن جيهلن أخبره في آذار من سنة 1945 أن الجاسوس سيحافظ على قيمته الكبيرة، (انظر الملاحظة رقم 32)[1]، وكان محقاً في ما قاله. لن يوجد في مطلع القرن الحادي والعشرين جهاز استخبارات يستطيع الاستغناء عن الجاسوسية

(1) استخدمت في الطبعة الجديدة الحالية الأرقام الرومانية في ملاحظات المؤلف والعربية في ملاحظات المراجع.

الكلاسيكية. صحيح أن هناك كومبيوترات حديثة لدى الشرق والغرب، وأن إجراءات التشفيرغدت أكثر تعقيداً، وكذلك أجهزة فك الشيفرات، التي تتيح مشاركة الطرف الآخر قراءة ما يتبادله من معلومات. لكن العميل بقي كما كان دوماً: شخص لا يمكن الاستغناء عنه.

في فصل إضافي (التاسع) يأخذ المؤلف مثال «الجيوش الأجنبية شرق»، ليشرح كيف كانت تعمل قيادة الأركان العامة في الحرب، ويظهر بأي منهجية كان يتم تقويم المعلومات الواردة من القنوات الاستخبارية، وكيف كانت تجمع في عرض يظهر وضع العدو. ويقدم الفصل مقاطع من تقرير وضعه جيهلن ومساعدوه في تموز/يوليو من سنة 1945 حول أسلوب عمل قسمه، لفائدة الجيش الأميركي.

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الأولى

وضع هذا الكتاب باقتراح من الدكتور فلايسنر، صاحب مجموعة مطابع لانجن - موللر- هربيج في ميونيخ. وبينت المداولات الأولى مع مُراجع المجموعة العلمي، الدكتور نيبللنج، نقطة انطلاق مؤلفنا الرئيسة، وهي أنه كان ولا زال من الخطأ فهم الاستخبارات بوصفها جهازاً يقوم بأعمال محض تجسسية. ذلك أنه تناقصت بصورة متزايدة خلال الحرب العالمية الثانية حصة التجسس التقليدي في الحصول على معلومات عن الطرف الآخر، وتعاظم دور الوسائل التقنية والأساليب العلمية في جمعها والإفادة منها. من وجهة النظر هذه، كان مطلوباً إضاءة فصل هام من التاريخ الحديث وتاريخ الحرب الألماني، أهمله البحث والوصف إلى اللحظة إهمالاً شديداً، أو تركاه للتحقيقات الصحفية.

وقد ساعد المؤلف في بلوغ هدفه تجارب شخصية وانطباعات متنوعة كوَّنها خلال سنوات الحرب. وسهّل عمله، قبل كل شيء، الصلات الشخصية، التي كوَّنها أثناء الحرب، مع معظم الأشخاص المفاتيح، الذين كانوا على تماس مع استخبارات الجيش الألماني المتخصصة بالعدو، وحصوله خلال فترة وقوعه في الأسر على معلومات إضافية قيمة، أمده بها الجنرال كوسترنج، ملحق ألمانيا العسكري الذي أمضى فترة طويلة في موسكو، ورؤساء أقسام «الجيوش الأجنبية شرق» و«غرب»، وتيو هاينريش،

المدير السابق لشعبة مكافحة التجسس الثالثة في قيادة الجيش الألماني العليا، الذي تشده أواصر الصداقة إليه حتى يومنا، مثلما تشده إلى ضابطي استخبارات الأركان المختصين بالعدو: فيلهلم ماير- ديترنج، الذي عمل تحت إمرة قائد القطاع غرب الأعلى بين عامي 1942 و 1944، وهانس آدولف فون بلومرودر، الذي كان ملحقا بمجموعة جيوش فون مانشتاين (جنوب) على الجبهة الشرقية. هذه الصلات، مكنت المؤلف من الحصول على إجابات دقيقة عن تساؤلاته، استكمل ودقق بها تجاربه الشخصية خلال الحرب، وخاصة منها الصلة المثمرة جداً، التي استمرت سنوات طويلة مع خلفية الجنرال فيلجيبل، رئيس اتصالات القوات الألمانية، الجنرال المتقاعد البرت براون، الذي لم يكتف فقط بوضع مؤلفات كثيرة تكشف ثغرات تأريخ الحرب، بل ونشر مواد ومستندات كثيرة لم تكن معروفة من قبل. بفضل مساعدته، صار بوسعنا التعرف إلى الإنجازات، التي حققها لمصلحة الاستخبارات الاستطلاع الألماني باللاسلكي، الذي غدا في النهاية «مصدراً موثوقاً» لما كانت تعرفه عن العدو، بينما انهار التجسس في وقت لاحق انهياراً يكاد يكون تاماً، الأمر الذي عايشه المؤلف من موقعه الرفيع مرتين خلال سنة 1944 وثبته في فصل «مبارزة المخابرات»، وزامنه في مقر قيادة هتلر الرئيس، أثناء أسابيع الحرب الأخيرة، إبان الترويج لأسطورة «قلعة الألب». يود المؤلف أن يقدم هنا شكره الخاص إلى جميع مصادر المعلومات هؤلاء.

لكن المؤلف مدين أيضاً بشكر خاص إلى الشخصيات الأخرى الكثيرة، التي عملت في مجال الاستخبارات ضد العدو، وساعدته بالنصيحة والمعلومة، وعلى رأسها هاينس هيري، الذي عمل خلال الحرب لدى «الجيوش الأجنبية شرق»، ثم كرئيس لأركان الجنرال كوسترينج، قائد وحدات الشرق، وقرأ الفصول الأولى من هذا الكتاب، للتأكد من صحة ما

جاء فيها، مثلما قرأ الجنرال براون وهانس آدولف بلمرودر الفصل الخامس، في حين قدم السيد ماير ديترنج النصح لدى تأليف فصل «مبارزة الاستخبارات». لقد حصل المؤلف على معلومات أخرى، بفضل العناوين والإرشادات التي زوده هؤلاء السادة بها، كما حصل على بعض المعرفة خلال المحاضرات التي ألقاها في «الجيش الاتحادي» أو أمام «جمعية علوم الدفاع». أما مذكرات رؤساء الاستخبارات، التي ظهرت في السنوات الأخيرة، فقد أكملت صورتها الإجمالية، ومكنت المؤلف من الحصول على معارف هامة. إلى هذا، يشكر واضع هذا الكتاب العاملين في أرشيف فرايبورغ العسكري، ومديره د. شتال، بسبب ما وضعوه تحت تصرفه من وثائق مهمة، وموافقتهم التي أتاحت له نشر الوثائق الملحقة بالكتاب، وهي مواد شكلت تكملة ضرورية لمستندات أرشيفه الخاص.

كان تأمين المواد الثانوية وتقويمها ضروريين بدورهما لاكتمال الصورة، التي رغب المؤلف في تقديمها عن موضوعه. وقد ساعد مدير المكتبة فيندت، الذي يمتلك درجة رفيعة من المعرفة باختصاصه، وكذلك السادة شونك، شتاين وغلايكسنر، العاملون الممتازون في المكتبة الرابعة في ميونيخ، المتخصصة في مجال الدفاع، في تقديم المواد الأدبية المتخصصة، والصور الضوئية، والإرشادات، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. بدون هذه المساعدة العملية، ما كان هذا الكتاب ليرى النور إطلاقاً.

هذا، وقد تمت إعادة كتابة بعض الفصول مرات متعددة، للإفادة من معارف جديدة. هنا أيضاً، تلقيت العون من مساعدات مفعمات بنكران الذات، أذكر منهن السيدة ماري أويلر، والسيدة فون دير أوستن ـ ساكن، والآنسة ايزابي فون رابيناو، اللواتي أعبر عن خالص امتناني لهن. أخيراً، كان لزوجتي الغالية نصيبها من العمل في هذا الكتاب، طوال سنة ونصف،

ذكَّرتني فيها غالباً بالحكمة المنقوشة على راية أسرتها، أسرة فون يانسن، التي تقول: «إن لصبري أسباباً».

بيرناو على الشيمزي، عيد العنصرة 1973 فيلهلم ريتر فون شرام

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

إنه لتحدٍّ دائم للقارئ أن يكتب المرء عن الاستخبارات، ويقدمها من زاوية جديدة، وهو تحدٍّ قيِّض للمؤلف أن يمر به في هذا الكتاب.

عندما صدر كتابي في نهاية سنة 1974، كان رد الفعل الأول محيِّراً بعض الشيء، حيث اقتصر على شتم المؤلف. وصلتني رسالة السباب الأولى من سيدة من فرانكفورت، اعترفت فيها أنها «هتلرية»، ثم انهالت عليَّ بما جادت به قريحتها من شتائم. ثم تلقيت رسالة تحمل عنواناً كاذباً، كما تبين لي فيما بعد، تعتبر الجنرال براون «رجلاً نزَّاعاً إلى الحرب»، والكتاب «ثرثرة خرقاء».

في الختام، كان لا بد من مرور بعض الوقت، قبل أن تصل الرسائل والمراجعات الجدية الأولى، التي تلتها، بطبيعة الحال، محادثات هاتفية وزيارات شخصية، يدين المؤلف لها بإرشادات على درجة رفيعة من القيمة.

غير أنني أتوجه بشكري بالدرجة الأولى إلى شخصيات الاستخبارات القيادية، من كان منهم في العمل أو مُحالاً على التقاعد، الذين قالوا رأيهم في هذا الكتاب. لست بحاجة هنا إلى ذكر أسماء، فهؤلاء السادة يؤكدون بوضوح أن الاستخبارات العسكرية الألمانية كانت خلال الحرب العالمية الثانية تدين بمعلوماتها إلى الاستطلاع باللاسلكي أكثر مما تدين بها إلى التجسس، وخاصة على الجبهة الشرقية. وقد عبر آخر رئيس للإشارة في

استخبارات القوات المسلحة واتصالات الجيش، جنرال الإشارة المتقاعد براون، عن رضاه، بأن كتب إلى المؤلف قائلاً: «يسد هذا الكتاب نواقص في تأريخ الحرب، وإنني لأشكركم من أجل ذلك. وأنا اقرأه الآن للمرة الثانية، وأجد فيه دوماً تحفاً جديدة، كما أجدني معجباً بطريقة بحثكم في الوثائق، بدءاً بلائحة الخدمة العسكرية رقم 89 ج، ووثائق الطرف المقابل الكثيرة. إن هذا كله يدل على اجتهاد عظيم».

يشعر المؤلف بعرفان خاص جداً لهذا الاعتراف الذي خصَّته به جهة خبيرة، خاصة وأنه يفتقر، بعكس أصحاب الامتيازات من المؤرخين، إلى «جهاز» يضم مكتبة وأرشيفاً، وإلى الموارد وحتى إلى « عقد عمل كمستشار»، وهذا ما على كاهله عبء القيام بجهد هرقلي، تطلَّب منه التغلب، من خلال ورشة عمل تقتصر عليه، على مصاعب البحث ووضع تصور ملائم وتقويم مناسب للمواد، فضلاً عن إجراء مراسلات واسعة مع جهات متنوعة، فضلاً عن أن عمله رافقته هموم مادية، لم تساعده على تجاوزها أي جهة رسمية، أو أي دار نشر أو أي أصدقاء. إلى هذا، قدمت أخوية ماكس ـ جوزيف العسكرية البافارية ملاحظات مفيدة، ومثلها فعل زملاء حرب قدماء، ممن أفادت إرشاداتهم طبعة الكتاب الثانية.

أستطيع قول الشيء نفسه عن المناقشات، التي ظهرت تدريجياً في صحف كبرى كثيرة وبعض المجلات. هنا، جاءت البداية من جريدة المونشنر ميركور، تلتها النورنبرغر تستيونج والسود دويتشه تسايتونج، والفرانكفورتر ألجماينه والفيلت آم سونتاج. أما جريدة الكولنرانتزايجر، فنشرت صفحة كاملة عن الكتاب بعنوان «وقد أخفق الجواسيس».

بالمقابل، صمتت إلى اليوم احتكارات وسائل الإعلام الكبرى والتلفاز والراديو، باستثناء مناقشة متواضعة لمحتويات الكتاب. بدورها، لاذت

وسائل الإعلام السويسرية بالصمت، مع أن الكتاب يضم فصلاً خاصاً عن نشاط الاستخبارات في هذا البلد خلال الحرب العالمية الثانية، وإن كان العقيد المتقاعد موجه، وهو أحد المتخصصين المتميزين في الاستخبارات، قد كتب مقالة مسهبة في جريدة «جندي في الشعب»، يود مؤلف الكتاب تقديم شكره الخاص عليها، خاصة وأنه يمكن تصحيح مواضع مختلفة من نصه وتدقيقها، في ضوء إرشاداته.

هذه الطبعة الثانية هي، بمعنى ما، كتاب يكاد يكون جديداً كل الجدة، فقد أغنيته بمعلومات جديدة مهمة، وزودته بفصل جديد ومسهب جعلته بمثابة كلمة ختامية له. لكنني أود الإشارة بصورة خاصة إلى التحسينات، التي أجريت على الفصل الثالث من المقطع الرابع، الذي صار اسمه الآن: «خبير الراديو يتدخل»، وفيه بحث دقيق حول دور المارشال السوفياتي في الاستخبارات بيريسفكين، يهتدي بما ورد في رسالة بعث بها هاينس هونيس إلى الفرانكفورتر ألجماينه تسايتونج: صحيح أن المارشال لم يكن «المدير» في موسكو، إلا أنه كان على قدر من النفوذ على اللاسلكي ونظمه، وعلى قسمه الموجه إلى العملاء، التابع للادارة العامة الرئيسة لأركان القوات المسلحة العامة في الجيش السوفياتي، يشبه نفوذ الجنرال فيلجيبل في القوات المسلحة الألمانية.

تقدم الكلمة الختامية الجديدة لمحة عن التطور اللاحق لأجهزة الاستخبارات من سنة 1945 إلى اليوم، الذي يشير إلى التبدلات الكثيرة التي شهدتها، وخاصة منها الانتقال المتزايد لنقاط ثقل التجسس من المجال العسكري إلى المجالات السياسية والتقنية والصناعية.

في ما عدا ذلك، كان من المحال تقديم وصف يخلو من الثغرات والعيوب لعمل مجمل أجهزة الاستخبارات الأوروبية في الحرب العالمية

الثانية. ومن غير المستحسن كتابة مؤلف متخصص لخبراء، يقرأه المتخصصون وحدهم. لهذا السبب الأخير، ركز الكتاب على تاريخ إنجازات الاستخبارات الأوروبية، مع تركيز خاص على دور الاستخبارات الألمانية، وهو مجال توجد وثائق وتقارير كثيرة يمكن الحصول عليها حوله، كانت إلى الآن «أشياء أحكم إغلاق الأدراج عليها».

بذلك، يتحقق مطلب قديم لرجال الاستخبارات. وتسد ثغرة في تأريخ الحرب، وخاصة ما يتعلق منها بالاستطلاع عن طريق موجات الأثير. بالمقابل، تم الاستغناء عن كتابة وصف لتاريخ ملاك أجهزة الاستخبارات الشخصي، ولتنظيماتها التي تنتمي إلى الماضي.

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثالثة

لا يسع الكاتب وضع مقدمة الطبعة الثالثة بالسعادة ذاتها، التي كتب بها مقدمة الطبعة الثانية. صحيح، أن استقبال الرأي العام للكتاب كان إيجابياً، وأن الرسائل التي وصلته تكاثرت، وخاصة منها تلك التي بعث بها من سبق لهم أن عملوا في التنصت على اللاسلكي أو كانوا متخصصين فيه، ممن رأوا في الكتاب اعترافاً، ولو متأخراً، بجهودهم وإنجازاتهم. لكن ذلك التحول بالذات، الذي بذل المؤلف جل جهده لإيضاحه، لم يحظ بغير قليل من الاهتمام، عنيت الانتقال الناجح من التجسس التقليدي، الذي تعاظمت إخفاقاته، إلى صورة العدو، التي تم كسبها عن طريق وسائط علمية. هذا التحول يدين الجانب الألماني به قبل كل شيء إلى «المصدر الموثوق»، الذي مثله الاستطلاع باللاسلكي. لذلك، لم يكن من قبيل المصادفة أن هذا «المصدر الموثوق» أحيط بسرية شديدة، بعد أن عاد خلال الحرب العالمية الثانية على الاستخبارات الألمانية المتخصصة بالعدو بنتائج تزايدت دقتها وسرعتها، في حين تراجعت، بالمقابل، قيمة «مكافحة التجسس». بقدر ما أرى، لم يحظ هذا الخط العام بالاهتمام الذي يستحقه من ناحية التأريخ للحرب.

ويجد الكاتب نفسه مجبراً على التعبير عن خيبة أمل أخرى، تتصل بفصل الكتاب المسمى «مبارزة الاستخبارات سنة 1944»، الذي يشرح كيف

تغلبت الاستخبارات الحليفة على نظيرتها الألمانية وضللتها، عند قيام الحلفاء بإنزال قواتهم على السواحل الفرنسية، وكيف ثأرت الاستخبارات الألمانية لنفسها من خلال نجاحها في حجب هجوم الأردين حجباً تاماً عنها، مع أن هذا الهجوم عاد على ألمانيا بنتيجة سلبية استراتيجياً. إلى هذا، كان بالإمكان تلطيف الكارثة، التي بدأت سنة 1945 في مناطق ألمانيا الشرقية، لو تم الأخذ بتوصيات الاستخبارات، التي نصحت باستخدام الاحتياطي المدرع الميداني في الشرق وليس في الغرب. لكن هتلر رفض توصيتها، لأنه لم يكن يعترف بأي «مصدر موثوق» غير «حدسه» الخاص، الذي قاده أكثر فأكثر إلى أوهام عبثية.

برناو على الشيمسي، عيد الفصح 1979 فيلهلم ريتر فون شرام

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الرابعة

ظهرت الطبعة الثالثة لهذا الكتاب قبل نحو أربع سنوات، في عيد الفصح من سنة 1979. وإذا كانت تصدر اليوم طبعة رابعة موسعة، فلأن الكاتب والناشر عزفا أصلاً عن إصدار «كتاب رائج» يكون قصير العمر، ورغبا في كتاب مرجعي ينصب على الخصائص التكوينية لعمل الاستخبارات، التي طبعت الحرب العالمية الثانية بطابعها، وتعتبر نسيج وحدها في تاريخ أجهزتها، خاصة وأنها تخطت إطار التجسس المعهود. لكن هذا الكتاب يضم قبل كل شيء إشارات عملية تصلح للحكم ليس فقط على حال القدرات العسكرية، التي كانت موجودة خلال الحرب، بل كذلك على الوضع العالمي عامة. أما أن تكون الأحداث والسير قد نالت ما تستحقه من اهتمام، بما هي أساس أي وصف حي للتاريخ، فهذا أمر سيحظى قطعاً بتفهم من عاش تاريخ العالم بنفسه، شأنه في ذلك شأن كثيرين من معاصريه، لا سيما أبناء الجيل الأقدم منهم، الذين كتب هذا الكتاب لهم، ويؤكد كثيرون منهم أنه صار بالنسبة لهم عملاً مرجعياً مهماً لا غنى لهم عنه، وأنه يجب أن يصير كذلك بالنسبة إلى الجيل الأحدث أيضاً. وعلى كل حال، فإن السنوات الأربع، التي مرت على إصداره، تعتبر حقبة زمنية مهمة حفلت بأحداث حاسمة. فهي لم تمر ببساطة، خاصة بالنسبة إلى الجيل الذي بلغ من العمر عتياً، وغدت بالنسبة إليه سنوات خسارة شخصية، فمنذ سنة 1979 حصد الموت أصدقاء المؤلف القريبين والحميمين، الذين

أسهموا في ولادة هذا الكتاب. لكن أفدح خسارة نزلت به كانت وفاة زوجته آنيليز فون يانسن، يوم الثامن من كانون الأول/ديسمبر، بنوبة قلبية، فلم يقيض لها أن تشهد نجاح كتب شاركت في وضع المستلزمات العملية لتأليفها. لم يعد بيننا أيضاً تلك الشخصيات، التي وضعت أساس هذا الكتاب، وبالتحديد منها العقيد في الأركان العامة تيودور هاينريش، معلم المؤلف أثناء خدمته كضابط أركان ثالث لدى قيادة الجيش العليا 18، ثم رئيس الجيوش الأجنبية شرق، الجنرال راينهارد جيهلن، الذي كنت على صلة وثيقة به منذ النصف الثاني من الحرب سنة 1943 وحتى وفاته، ثم وقبل أي شخص آخر جنرال الاستخبارات براون، الذي يدين المؤلف له بالتشجيع المتنوع والدعم العملي، وبالمواد الأكثر أهمية التي أعانته لدى وضع كتابه، وما كان لمؤلفه أن يرى النور من دون «إسهامه». يدين الكاتب لرئيسه في الأركان خلال الحرب الثانية، الجنرال ليو هيب، بكتابة الكلمة الختامية حول آلة «إنيجما». مهما يكن من أمر، فإن الطبعة الرابعة من هذا الكتاب هي اكثر من مجرد تاريخ ؛ إنها نصب تذكاري مكرس لإنجازات خارقة. ولعله لا يوجد من كان يستطيع إعطاء هذا الجانب حق قدره مثلما تستطيع أورسولا فون دير اوستن ـ زاكن، السكرتيرة العامة لجمعية علوم الدفاع، التي توفاها الله مطلع سنة 1983، وكانت قد كتبت مبيضات أقسام كبيرة من الكتاب، فلها أحر عرفاني وامتناني.

في ختام هذه المقدمة، من الضروري الإشارة إلى أمر خاص: ظهرت قبل طباعة الكتاب مباشرة دراسة للمؤلف نشرت في الأرشيف العسكري بفرايبرج، كانت ثمرة أبحاث طويلة، وقد ظن كاتبها أنها فقدت منذ وقت طويل، هي مخطوطة «معرفة وعلم العدو»، التي كتبها مطلع سنة 1945 بتكليف من الجنرال يودل، عندما كان بين كانون الثاني/يناير من سنة 1944 وبداية آذار/مارس من سنة 1945 الضابط المراسل، الذي كان يساعده في

كتابة تقرير القيادة العامة للقوات المسلحة، الذي كان الجنرال فون جيهلن يقرأ أهم نقاطه أمام الفوهرر، بعد إعادة نظر نقدية فيها. غير أن هذا لم يحدث، وسقطت الدراسة إلى جانب أوراق أخرى في يد الجيش الأميركي، حيث بقيت سنوات طويلة في الأرشيف هناك، في أميركا، ثم عرفت طريقها قبل وقت قصير إلى فرايبرغ. وقد زودني الأرشيف العسكري هذه الأيام بنسخة منها. بيد أن تبييض الدراسة، التي تصعب قراءتها والطويلة جداً، ما كان ممكناً، لأسفي الشديد، إنجازه لهذه الطبعة، لذلك أطلب من أصحاب الاهتمام الخاص بتاريخ الاستخبارات انتظار الطبعة التالية، التي آمل أن تصدر في وقت غير بعيد.

بالمقابل، أود أن اعبر عن شكري الخاص لمساعدتي الأقرب والأفضل منذ سنة 1981، السيدة سيجريد جينت- ليشل، بمناسبة صدور الطبعة الرابعة، لما قامت به من تبييض وقراءة لمذكراتي الموسومة: «المتنصت عليهم في شواطئ اللورين سنتي 1915/ 1916»، التي قدمت بها الطبعة الحالية.

بادرايشن هال، آذار/ مارس 1983 فيلهلم ريتر فون شرام، عضو شرف جمعية كلاوزفيتز

obeikandl.com

مدخل

ليس هذا كتاب عن التاريخ المعاصر حلل الحرب العالمية الثانية في أوروبا على ضوء ما قامت به أجهزة الاستخبارات. هذا الكتاب هو محاولة أولى في هذا الاتجاه، لذلك، كان من الحتمي أن يتناول جوانب وحسب من موضوعه، خاصة وأن الاستخبارات تحيط بالسرية الممكنة وسائلها، وآليات اشتغالها، وتدابيرها، والعاملين لها. ينطبق هذا على التجسس، كما ينسحب على الجانب الآخر، الذي يتعلق بالبحث العلمي والاستقصائي لصورة العدو، ويعتبر الموضوع الأخص لهذا الكتاب، الذي يسعى إلى الإجابة عن مسألة رئيسة حول نتائج العمل الاستخباري في الحرب العالمية الثانية، تدور حول نقطة ثقله الرئيسة، وما إذا كانت الجاسوسية قد شكلت جانبه الرئيس خلال العمليات الحربية، وهل هي من حصل على المعارف، التي سهلت إدارة الحرب والقتال بطرق حديثة، وجعلتها ممكنة؟. ولأن هذا الكتاب ينكر قيام الجاسوسية بهذه المهام، فإنه كان سيصدر تحت عنوان آخر هو: «كم كان الأمر مختلفاً». كمن مركز ثقل الحصول على المعلومات السرية، أو مركز ثقل العمل الاستخباري خلال حرب سنتي 1939 -1945 بدرجة متزايدة في الجهاز، الذي أسماه الألمان «ضابط الأركان العامة الثالث». هذه هي الحقيقة التي سيؤكدها هذا الكتاب بالبينات، ذلك أن الجاسوسية والعاملين في مكافحة التجسس لعبوا دوراً ثانوياً فقط في الحصول على المعلومات الاستخبارية خلال سنوات الحرب الحاسمة، أي بدءاً من

سنة 1943، كما يتضح من الفصول الأخيرة لهذا السفر، التي تتضمن عصارة تجارب مؤلف خدم في الدوائر العليا والأعلى من قيادة الجيش، وأخيرا في قيادة القوات المسلحة، ويحتاج إلى فاصل زمني كاف من أجل أن يلقي نظرة عامة على الترابطات الكبرى للأحداث، ويشرحها بصورة نقدية. في سبيل هذا الهدف، واستكمالاً لمعلوماته، قام الكاتب بدراسة جميع الكتابات الموجودة حول موضوعه، وقوَّمها على ضوء الإدارة الألمانية للحرب.

لم ينتسب المؤلف إلى أي جهاز استخبارات. ولم يعمل لمصلحة شعبة مكافحة الجاسوسية، الذي أداره الأميرال كاناريس، لكنه درب في شعبة قيادية تابعة للقيادة العليا للجيش للقيام بعمل استخباري متخصص بالعدو، وعمل فيه بصورة فعلية. وقد نقل سنة 1941، ثم مرة أخرى من سنة 1943 إلى 1944 إلى الشعب القيادية لدى قيادة الجيش العليا، ومجموعات الجيش، حيث خدم كـ «ضابط أركان عامة ثالث» أو كضابط أركان عامة مكلف بدراسة وكشف أوضاع العدو. بذلك، اكتسب الأفكار والمنظورات الضرورية لوضع هذا الكتاب ولبلورة مقولاته، علماً بأنه عرف منذ سنة 1941 الأعمال التي قامت بها الاستخبارات للحصول على المعلومات في الشرق، والتي أحيطت بالسرية والكتمان الشديدين، كي لا تسد الأقنية التي تصلها بـ«مصادر موثوقة» معينة، بقيت بدورها سرية لم تتضمن أدبيات تاريخ الحرب، التي صدرت بعد نهايتها، أي أخبار حولها، وتوجد ثغرة لم يتم ردمها بعد في معارفنا عنها.

سيحاول هذا الكتاب سد هذه الثغرة قدر المستطاع، مما سيجعل بعض أحداث الحرب تظهر في ضوء جديد.

كيف كان يتم، قبل الحرب مباشرة، ثم خلالها، الحصول على معلومات استخبارية؟. أي مؤسسات كانت مكلفة، ومشغولة بذلك؟. وهل

كانت أعمالها تقتصر على الجاسوسية بمعناها الدارج؟. وهل كان قسم مكافحة التجسس التابع للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية نقطة ثقل العمل والمعارف المكتسبة؟. هذه الأسئلة ستتم الإجابة عنها، مع أننا نستطيع نفي السؤال الأخير منذ الآن، على أن نعلل أسباب النفي في سياق هذا الكتاب. بالمناسبة، كرست جهات ألمانية وأجنبية كتباً ودراسات كثيرة جدا لدراسة مكافحة التجسس، لذلك يعتبر تاريخها معروفاً ومأسويا. ليس ذنب الأميرال كاناريس وضباطه، أن شعبتهم غابت أكثر فأكثر في الظلال خلال الحرب، قبل أن تغرق في النهاية، فذلك كان أيضاً نتاج الظروف الخاصة، وشكوك القائد الأعلى، الذي لم يسمح بوجود قيادة موحدة لأجهزة الاستخبارات، بل كان يعمل دائماً وفي كل مكان بمبدأ فرق تسد.

لا يتحدث هذا الكتاب عن الاستخبارات السرية لقوات ألمانيا المسلحة وحدها، بل يروي إنجازات أجهزة الاستخبارات الأوروبية الأخرى وأنشطتها منذ سنة 1937. هنا أيضاً، توجد ثمة سلسلة من المفاجآت، وتبرز قسمات مضحكة وهزلية تستحق عرضاً خاصاً، على عكس ما نصادفه من جدية بهيمية في معظم الكتابات حول تاريخ الجاسوسية. بدورها، تنتسب ألاعيب اللاسلكي وخدعه، التي سأتحدث عنها، إلى هذا الفصل المسلي، بما أن جميع أجهزة الاستخبارات تقريباً نجحت في خداع اللاعبين الخصوم، أو تعرضت لخداعهم. وعلى وجه العموم، فإن الجانب الألماني حقق نجاحاً ملحوظاً في هذا المجال. ولعله ليس أمراً مجانياً أن الأنجلوساكسون يسمون الاستخبارات «انتليجانس سرفيس» مكتب الذكاء، فالذكاء هو في الواقع رأس مال رؤسائه ومعاونيهم، وقد أظهر كثير منهم ذكاء، كما سنرى تفصيلاً. وإننا لندين إلى نشاطهم بالفصول الأكثر إثارة للاهتمام من هذا الكتاب، الذي يتبع تسلسلاً منطقياً داخلياً، يصل به إلى «المبارزة الكبرى لأجهزة الاستخبارات» في أوروبا، التي بلغت ذروتها سنة 1944، وعرفت انتصارات وهزائم

الأذكياء، الذين كانوا يتصارعون عقلياً فوق ميادين المعارك. لم يعد هناك من رابط بين هذا الصراع الثنائي الصامت وبين الجاسوسية من النمط القديم، التي كانت تتم بأسلوب جيمس بوند، لذلك كان يمكن للعنوان الفرعي لهذا الكتاب أن يكون «كم كان الأمر مختلفاً». لماذا كان الأمر مختلفاً؟. ولماذا توفرت كل هذه الأشكال من جمع المعلومات السرية عن العدو، بينما كانت «الجاسوسية الجدة» تتراجع وتنزوي؟. لماذا اتخذت الاستخبارات مسارات أخرى على جبهة الحرب العالمية الثانية الأمامية، مغايرة لتلك التي كان يتصورها المستهلك العادي لروايات الجاسوسية؟. لأسباب جلية، هي أن روح العصر تغيرت، والتقنية حققت خطوات جبارة، ولأن الاستخبارات والتقنية عقداً قراناً لحمته وسداه العقل. هكذا، صار للاستخبارات ككل وجه آخر، يختلف عن ذاك الذي كان لها في الحرب العالمية الأولى. لم يعرف الرأي العام غير القليل عن هذا التطور، خاصة عبر التأريخ الرسمي والأصنافي للحرب. لذلك بقيت الكتلة الكبرى من معاصرينا لصيقة بالتصورات الموروثة، وفكرت بالجاسوسية وبالرجال الذين يعملون في مكافحتها، وبالعملاء والمراسلين، وبصناديق البريد الميتة والحبر السري، حين كان الحديث يدور عن الاستخبارات. ومع الإقرار بأن الجاسوسية انتعشت من جديد لفترة قصيرة بعد الحرب العالمية الثانية، بل واكتسبت حجماً هائلاً بعد بعض الوقت، إلا أن الأمر اختلف تمام الاختلاف في السنوات التي نصفها، حيث انتصر النزوع العلمي داخل أجهزة الاستخبارات السرية، بما في ذلك عند الألمان.

لا يريد كتابي هذا تدوين أو جمع تاريخ شامل لجميع أجهزة الاستخبارات الأوروبية. لو كان هذا قصدي، لكان قصداً غير عملي، بالنظر إلى عدم توفر وثائق كافية حول هذا الموضوع. هكذا، سيتم توضيح القضايا الرئيسة، وتكوين نقاط ثقل توضيحية، يمكن أن تمدنا بصورة عامة عن

موضوعنا، وتساعدنا، قبل كل شيء، على إزالة التصورات الخاطئة حوله، حتى لدى المهتمين بتاريخ العصر والحرب. ترى، من في الرأي العام الواسع يعرف شيئاً عن الخدمة، التي تسمى في لغة الاختصاص العمل الاستخباري حول العدو؟. ومن يستطيع أن يقول كيف ومن أين كان يحصل العاملون فيه على معلوماتهم؟. ومن يعرف شيئاً عن نتائج الاستطلاع باللاسلكي، خاصة ذاك الذي قام به الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الثانية؟. أين كمنت حدود وإمكانات ألعاب الأثير، التي أطلقها الجانب الألماني، ولم تتعامل أدبيات التاريخ إلا مع جزء منها وحسب؟.

من الضروري أن نرى في الاستخبارات المتخصصة بالعدو كلية واحدة، وإلا فإننا لن نتمكن من تعيين حدودها بدقة. لقد قربتنا مذكرات «كبار» رؤساء أجهزة المخابرات من هذا الهدف، رغم أنها أخفت بدورها أشياء كثيرة مهمة. ومع أنه يوجد ثمة مستندات وثائقية، فإن كتلة المواد الألمانية تبعثرت أو أتلفت قرب نهاية الحرب. أما ما بقي أو حفظ في أماكن سرية، لدى «الجيوش الأجنبية شرق» على سبيل المثال، فقد وقع في أيدٍ أجنبية، وانتهى أخيراً إلى أراشيف المنتصرين السرية، حيث بقي «مفرزاً» حسب التعبير الاختصاصي، أي بمنأى عن الاستخدام العلمي.

قبل بضعة أعوام، تم وضع قسم من الوثائق السرية بين أيدي الباحثين. ولكن، بما أن تحليله والتعليق عليه يتطلبان معارف عسكرية أولية خاصة، يفتقر مؤرخو العصر الحديث الشبان إليها، فقد بقيت هناك بقع رمادية وسوداء في تاريخ الحرب من الضروري إنارتها، لأن ذلك من شأنه وضع أحداثها تحت أضواء صحيحة. منذ سنة 1942، تمت على الجانب الألماني قبل كل شيء، موازنة بعض نقاط الضعف، وتم درء هزائم داهمة بمعونة وسائل استخبارية أو عمل استخباري. هذا ما سيبرزه هذا الكتاب بصورة

خاصة. بالمقابل، لم يعد للجاسوسية من النمط القديم غير أهمية تالية بالنسبة إلى القوات المسلحة الألمانية، التي بدأت تحصل عبر الاستطلاع اللاسلكي على معلومات سريعة، أكيدة وموثوقة حول العدو. لهذا، سأكرس لهذا الاستطلاع مقطعاً كاملاً من الكتاب.

واجه المؤلف مصيراً خاصاً خلال الحرب العالمية الثانية، مثلما سبق له أن ألمح. للبرهان على أهليته، سيقدم هنا الخطوط الكبرى لسيرته الذاتية خلال السنوات المقصودة، مستخدماً صيغة الأنا لدواعي التبسيط.

شاركت كضابط مشاة في الحرب العالمية الأولى، وقاتلت على الجبهة بين نيسان/ أبريل من سنة 1915 وتشرين الأول/ أكتوبر من سنة 1918، تاريخ إصابتي بجراح خطرة. بعد الحرب، درست الأدب الألماني والتاريخ وعملت صحافياً، بعد حصولي على الدكتوراه. بعد عشرة أعوام، وفي نيسان/ أبريل من سنة 1933، سرِّحت من جريدة مونشنر نويسته ناخريشتن لأسباب سياسية، بعد أن وضع النازيون يدهم عليها. لكنني وجدت سنة 1935 عملاً في دار أولشتاين، حيث قيِّض لي أن أتوجه منذ سنة 1937 إلى احتلال مقعد في واجهة مسرح التاريخ المعاصر، الذي أصفه هنا: حدث ذلك عندما صرت المحرر الرئيس لكتابات مجلة «المشاة الألمانية»، التي كانت تصدر عن مطبعة برلين الألمانية، التي كان اسمها سابقاً مطبعة أولشتاين. آنذاك، كانت الروح الحرة للزمن السابق تهب عبر دار النشر الكبيرة في شارع كوخ، التي أدين لها بالكثير. وكان لا يزال هناك أيضاً أصدقاء مدينيون كثيرون، يستطيع المرء إجراء تبادل حر للأفكار معهم، وأخص بالذكر منهم الزملاء بيتر بام، وباول فيتشر، وبرونو فيرنر في جريدة الدويتشه ألجماينه تسايتونج، وفالتر كياوليهن، الذي عمل في جريدة برلينر تسايتونج آم ميتاج، وكانت دعاباته وروحه تدخلان المسرة إلى نفوسنا. بعد

التغيير، تحولت من ناقد مسرحي وكاتب أدبي في جريدة مونشنر نويسته ناخريشتن إلى كاتب عسكري يتذكر تجاربه أثناء الحرب العالمية الأولى. وقد جعل مهمتي سهلة أن هيئة تفتيش المشاة أحاطتني برعايتها وتفهمها، وخاصة منها المفتش الأخير قبل الحرب، الجنرال الظريف أوط، الذين أدين له بالشكر حتى يومنا هذا. وبالمناسبة، فقد وسعت دار النشر الكبيرة في شارع كوخ أفقي السياسي الدولي، وقدمت لي فرصة إجراء مقابلات كثيرة، ففي الأول من آب/أغسطس سنة 1939 أدرجت ضمن قائمة قامت «بتأهيل دام ستة أسابيع» أمضيتها في فيينا لدى قيادة مجموعة الجيوش الموجودة هناك، قبل أن أدعى إلى قيادة الجيش الرابع عشر بإمرة الجنرال ليست. بذلك، بدأ فصل جديد من حياتي، مع أنني كنت في سن الحادية والأربعين.

نشأ الاحتكاك الأول بيني وبين الاستخبارات المتخصصة بالعدو في خريف سنة 1939، عندما قابلت الأميرال كاناريس. وكنت قد تلقيت تأهيلاً في سنوات السلام يجعل مني ضابط رقابة، كما تدربت في شعبة القيادة التابعة لقيادة الجيش الثامن عشر العليا (وكان مرابطاً في الجناح الشرقي للجبهة الغربية)، الذي نقلت إليه كضابط أركان ثالث، ثم وضعني الجنرال اريش ماركس، رئيس الأركان العامة لقيادة هذا الجيش العليا، في مكتب أركانه العامة. هذا الجنرال، وهو ابن مؤرخ حياة بسمارك، علمني كم يمكن للقضايا العسكرية أن تكون مفعمة بالغموض، إن رأى المرء فيها التزاماً فكرياً وسياسياً وأخلاقياً. وإنني لأدين بمعارف لا تنسى لرئيس شعبتي، المقدم ثم العقيد ثيودور هاينريش، الذي تولى بصورة مؤقتة في وقت لاحق إدارة شعبة مكافحة التجسس الثالثة، ولا زال صديقاً مقرباً إلى اليوم. غدوت في أيار/مايو سنة 1940، بصفتي ضابطاً مراسلاً لدى قيادة أركان الجيش، ضابط ارتباط مع مجموعة من الجيش البلجيكي بعد استسلامه، ومساعداً للمقدم هاينريش عند استلام دونكيرشن في الرابع من حزيران، وأخيراً ضابطاً مرافقاً

له ووسيطاً في المفاوضات، التي أدت إلى استسلام باريس عقب الصدامات المأسوية يوم 14 حزيران/يونيو سنة 1940. بعد الهدنة، كلفني الجنرال ماركس بتدقيق يوميات الحرب، التي كانت شعبة القيادة قد وضعتها. وأخيراً، نقلت إلى القيادة العليا للقوات المسلحة في برلين، حيث عملت في قسم دعاية القوات المسلحة/ جيش، وكان يقوده آنذاك الجنرال كورت هيسه، الذي تربطني به اليوم أيضاً علاقة وثيقة. ثم نقلت سنة 1941، عشية الحرب ضد روسيا، «ككاتب تقارير أعلى» إلى كتيبة كتاب التقارير في آمرية الجيش العليا، التي ضمت صحافيين ومؤلفين وكتاباً عسكريين مختارين، وكانت مستقلة عن وزارة الدعاية.

في تموز/يوليو من سنة 1941، صدر الأمر بنقلي إلى القيادة العليا للجيش السابع عشر في الشرق، وكان قائده الأعلى الرئيس السابق لشعبة «الجيوش الأجنبية» في أركان الجيش، الصديق المقرب من الجنرال لودفيج بيك جنرال المشاة كارل هاينريش شتولبناجل، الذي اتخذ منذ البداية موقفاً متشائماً من مجرى الحرب في الشرق. والحق، لقد تبين منذ معارك الحدود قرب راوا روسكا كم كانت معلوماتنا قليلة عن الجيش الأحمر، وقبل كل شيء عن سلاحه المدرع.

في الخريف، مرض الجنرال فون شتولبناجل، بسبب وحشية حرب الشرق. لقد كان إنساني النزعة وحساساً، وهذا شيء غير مألوف بالنسبة إلى جندي وقائد جيش في روسيا، فاختير فينسنس موللر، القوي البنية وكثير النشاط، كرئيس إلى جانبه. سنة 1942، تم تعيين شتولبناجل قائداً عسكرياً أعلى في فرنسا.

بدأ الشتاء سنة 1941 مبكراً بدرجة غير مألوفة، فقد بدأ هطول الثلج في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر، الأمر الذي لم يحدث طوال تاريخ أوكرانيا،

الذي يعيه الناس. في اعقاب خداع بارع باللاسلكي، نجحنا في عبور نهر الدنيبر عند كريمنتشوج دون مصاعب كبيرة، واحتللنا بولتافا، حيث أقيم مقر الجيش الرئيس، واستلم الجنرال هوث قيادته العليا من الجنرال شتولبناجل، بينما نزلت شعبة القيادة في المدرسة الحربية الروسية السوفياتية، وتلقيت أمراً بإلقاء نظرة على المكتبة، فوضعت سريري الميداني فيها. كانت المكتبة كبيرة ومتنوعة، ضمت عدداً من الكتب الألمانية المتخصصة، وتعليمات خدمة تغطي حقلاً واسعاً يمتد من قيادة الوحدات إلى كتاب كلاوزفيتز «عن الحرب»، الذي وجدت نسخاً كثيرة منه على رفوفها، باللغتين الألمانية والروسية.

أعاق هطول الثلج المبكر العمليات الحربية. وتوقف تقدم قواتنا، التي غاصت تماماً في الوحل، خلال أيام قليلة من ذوبان الثلوج، وغرقت خيولنا وسياراتنا في العفن اللزج. كان القوم في أركان القوات يتحدثون عن المعركة التي نشبت سنة 1709 قرب بولتافا، بين بطرس الأكبر وكارل الثاني عشر، وانتصر فيها السويدي، الذي بلغت غزوته ضد روسيا ذروتها في هذا المكان. وكنا نتساءل بدورنا، إن كان ثمة تشابه ما بين السويدي من فيتلسباخ وبين أدولف هتلر.

نقلت مطلع سنة 1942 كضابط ارتباط تابع لمجلة القوات المسلحة «الجيش»، إلى شعبة الفنون العسكرية في قيادة الجيش العليا. كانت المجلة تحرر وتطبع في برلين، ثم ترسل إلى قوات الجبهة، حيث توزع حتى مستوى الكتائب. وكان إيجاد صيغة حية للمجلة مهمة صعبة، بقيت دون حل مرض. إلا أنني كنت أقمت خلال رحلاتي نحو بروسيا الشرقية صلات مع شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، التي كانت تمدنا ببعض المواد. في برلين، كان رئيسي المباشر في العمل الجنرال ديتمار، الناطق الإذاعي باسم

الجيش، وهو رجل متنوع الثقافة والتأهيل، وجندي نبيل. وبما أنه كان مطبوعاً بطابع خدمته في القوات المسلحة، فقد كان واسع الاهتمام بالفكر، منفتح العقل، وعلى استعداد دائم لخوض نقاشات صريحة. وقد شرح لي بإسهاب الترابطات الاستراتيجية للحرب. وقد ذهب صيف سنة 1942 كمراقب الى القوقاز، حيث تداول مع الجنرال كوسترينج، «المكلف آنذاك بقضايا القوقاز»، وتنبأ بعد عودته بالمنعطف الذي شهدته الحرب فيما بعد، وقال: «إنه (أي هتلر) لا يأبه لقدرات روسيا، ولا يعرف ما ينتظرنا، مع أن فيه هلاكنا».

لقد كان على حق. بالمناسبة، فإن الجنرال كان كثير الإشارات إلى كلاوزفتز في حواراته. ملت سنة 1940، وخلال فترة طويلة تالية، إلى اعتبار القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية قائداً ميدانياً فذاً، إلا أنني تخليت عن رأيي عقب زيارة قمت بها صيف سنة 1942 إلى مقر القيادة العليا للجيش في مدينة فينيسسا الأوكرانية، حيث اطلعت على خرائط تبين وضع العدو. بعد الزيارة، طلبت نقلي إلى عمل غير الذي كنت أقوم به. إلا أنني نقلت مجدداً في آذار/ مارس من سنة 1943 بصفتي «كاتب تقارير أعلى» إلى مجموعة جيش فون مانشتاين في جنوب الجبهة الشرقية. في الطريق، كان علي تقديم نفسي إلى «مكلف الفوهرر بكتابة تاريخ الحرب»، العقيد فالتر شيرف، وهو شفابي غريب الأطوار، قال لي: «كن حذراً، فلا أحد غير الفوهرر يستطيع إحراز النصر». بعد ذلك بوقت قصير، قدر لي أن أكون شاهداً على الكيفية التي حققت بها عبقرية مانشتاين الميدانية ما كان يبدو غير ممكن التحقيق: فقد ترك الروس يتقدمون دون إزعاج، حتى وصلت طلائع هجومهم إلى بضعة كيلومترات من مقره في زاباروشه، قبل أن ينقض عليهم بفرق دباباته الجديدة، التي كانت قد وصلت لتوها من فرنسا، وجعل هو منها قوة صدم ذات قدرة قتالية رفيعة. بعد هذا، تقدم نحو الجنوب، حيث مزق أول الأمر

قوات الخدمة الخلفية للروس. توقف التقدم المعادي، وتجمد على الأرض وقد نفد منه الوقود، وتعرض الجيش المدرع الروسي لهزيمة ماحقة، واستعيدت خاركوف في آذار/مارس من سنة 1943، ودفعت الجبهة من جديد إلى دونيتز وميوس، حيث استقرت هناك بعد وقت قصير، وبدا وكأنه تم محو نتائج هزيمة ستالينغراد. شهدت هذه النجاحات الدرامية إلى جانب ضابط الأركان الثالث، العميد في الأركان العامة هانس ادولف فون بلومرودر، وعلمت «بالمصادر الموثوقة»، التي كانت قرارات المارشال تستند إلى معلوماتها. فقد أسهم الاستطلاع باللاسلكي في الانتصار الميداني الأخير على الجبهة الشرقية، بقدر ما أسهم لاحقاً في عمليات الإفلات الناجحة من حصاري تشيركاسي وكامينيس/بودولسك، حيث أثبت أنه ملاك منقذ بالنسبة إلى قوات الجبهة، وهو ما كان أيضاً حدثاً لا ينسى بالنسبة إليّ.

تلقيت صيف سنة 1943 مهمة أخرى ذات شأن، فقد دعيت إلى قيادة الجيش العليا لأعمل ملحقاً لفترة أسبوع بالمارشال رومل، وأكتب طبقاً للمعطيات التي لديه التقرير الميداني الختامي حول حملة أفريقيا، الذي قررت القيادة العليا نشره وإطلاع الرأي العام عليه. لم تكن المهمة سهلة، فقد كان عليّ أن أصف الحملة في قسماتها الكبرى، وأصوغ التقرير بطريقة تجعله متفقاً مع الحقيقة، «التي ندين بها لجنودنا»، كما قال المارشال رومل، الذي أمضيت أمسيات طويلة من الحوار معه، وكان يبدو في حالة معنوية سيئة، ويرفض تناول السيكت (مشروب كحولي)، الذي تقدمه مرافقته، ويتساءل إن كان المرء يستطيع الاحتفال بهزيمته، قبل أن يقوم بنقد موضوعي لاستراتيجية هتلر المغرقة في الخيال. كان رومل يبدي تفاؤلاً هادفاً فيما يتعلق بمجرى الحرب اللاحق، «شريطة أن يبدأ الفوهرر، أخيراً، بمعرفة أعدائه». وكان يتحدث عن كتيبة التنصت، التي قدمت له أفضل الخدمات عبر استطلاعها اللاسلكي، قبل أن يدحرها الهجوم البريطاني. إلا أنه رفض

ذكر هذه الحقيقة في التقرير، الذي كتب وأعيدت كتابته مرات كثيرة، قبل أن يقدم إلى يودل، ليضعه أمام هتلر. بدا يودل راضياً عن التقرير، لكن هتلر لم ينشره، لأنه كان مفرطاً في موضوعيته، كما قال يودل لاحقاً.

جاء مطلع سنة 1944 بنقلي إلى الجبهة الغربية، «ككاتب تقارير أعلى» في الأركان، وكضابط أركان ثالث للقائد الأعلى غرب، ولمجموعة رومل القتالية التابعة له. هكذا انعقدت أواصر الصداقة بيني وبين العميد الركن ماير ديترنج، الجنرال اللاحق، الذي قاد أحد تشكيلات جيش ألمانيا الاتحادية، وحرر كجنرال خارج الخدمة مجلة «علوم الدفاع». إلى هذا، تعرفت إلى الجنرال جيلمر، ضابط الإشارة الأول لدى قائد الغرب العام، وخلفه الجنرال أوبرهاوزر، الذي ذكرته في كتابي «انتفاضة الجنرالات»، واستأنفت صلاتي به بعد الحرب، وكان لا يني يكرر على مسمعي: كان الاستطلاع باللاسلكي أصعب بكثير في الغرب منه في الشرق، لذلك لم يعط نتائج تستحق الذكر إلا بعد بدء الإنزال، بفضل «كرم» الأميركيين قبل أي شيء.

تم الإنزال الأول، الذي قام به الحلفاء يوم 6/6/ 1944 من البحر والجو، ضمن ظروف مثيرة، ذلك أن أحداً لم يتوقعه، كما كان البحر هائجاً وبدا الوقت غير ملائم له. كان رومل يقوم بزيارة قصيرة إلى منزله في هيرلنجن قرب أولم، وكان قائد مجموعة الجيش الجنرال شبايدل قد دعاني ودائرة ضيقة من الضباط إلى عشاء، أعقبته محادثة مفتوحة شارك فيها أربعة أشخاص. ثم في وقت لاحق، ناقش الحاضرون كتاب يونجر حول السلام. بعد منتصف الليل بقليل، تم إبلاغنا عن حدوث إنزالات المظليين الأولى على شاطئ النورماندي. إلا أن قيادة جيش الغرب كانت لا تزال واثقة من أن إنزالاً ثانياً سيقع على شاطئ القنال، أشار إليه الاستطلاع الجوي واللاسلكي (وإن كان الأخير لم يقدم غير معلومات قليلة، لأن صمتاً

لاسلكياً تاماً كان يسيطر على إنجلترا). مع الإنزال، نجحت مناورة الحلفاء التضليلية، التي سيخصها هذا الكتاب بفصل خاص.

بعد شهر ونصف من ذلك، وبينما أنا في باريس ولاروش جيون، وقعت أحداث العشرين من تموز/يوليو، التي وصفتها في كتاب «انتفاضة الجنرالات». لقد كنت أعرف تماماً أسباب الانتفاضة، وفي مقدمها جهل هتلر بصورة العدو، الذي قاد إلى قرارات خاطئة رهيبة، وجعل إزاحته أمراً مشروعاً في نظر العارفين بالأمور. نقلت في مطلع سنة 1944، بعد وقت قصير من انتهاء الاحتلال الألماني لفرنسا، إلى بروسيا الشرقية، للالتحاق برئيس دعاية القوات المسلحة الجنرال هاسو فون فندل، في مقره بثكنة المدفعية في مدينة راستنبورج. وقد طلب الجنرال إليّ إعداد نفسي لكتابة تقرير القيادة العليا للقوات المسلحة، الذي يقتصر الآن على صيغ مستهلكة تفقده مصداقيته. وأخبرني أن الجنرال يودل يريد كاتباً يساعده، بما أنه مسؤول منذ وقت طويل بمفرده عنه، وأن هتلر استغنى عن ضرورة إجراء مراجعة مسبقة للتقرير، وإعطاء موافقة مسبقة عليه، وأن وزارة الدعاية الألمانية ليس لها أي نفوذ على كتابته. كان يودل يلح على ضرورة قول الحقيقة، على أن لا يمس قولها بمعنويات الجبهة والوطن. ذلك كان سنة 1944 ضرباً من تربيع الدائرة. كان العمل مرهقاً، وصار ضاغطاً أكثر فأكثر، لكن نوبة قلبية أصابتني في نهاية آذار/مارس من سنة 1945 وضعت له نهاية إجبارية. وقد أرسلني يودل للاستجمام والنقاهة في فندق «شيفسمايستر» على بحيرة كونيج قرب بيرشتيسجادن، حيث جمعتني بزوجتي الأولى لوته أيام قليلة أمضيناها معاً لآخر مرة، ذلك أنها توفيت أثناء وجودي في الأسر، وعلمت بوفاتها يوم عيد الميلاد سنة 1945، بعد أشهر من وقوعها، عندما رفع الحظر البريدي، الذي كان مفروضاً على رسائلي. «سينجح مرة أخرى في تدبير أموره»: هذا ما كانت تقوله عني في أيامها الأخيرة لأطفالنا.

لم يبدُ أنني سأنجح في تدبير أموري، عندما وقعت في الأسر يوم بطرس وبولس من سنة 1945. فقد تم اقتيادي أول الأمر إلى معسكر الجوع في آيبلينج، ثم جاء دور معسكر جارميش بالمعاملة المذلة التي عرف بها في البداية، ثم معسكر داخبودن في ثكنة المدفعية في فريزينج، حيث التقيت مرة أخرى بكثير من أعيان العصر النازي. بعد ثلاثة أسابيع من الحبس الإنفرادي، ومن التقصي المدقق في زنازين التحقيق قرب أوبراورسل، التي كان جورينج قد جهزها لاعتقال طياري الحلفاء الذين يتم إسقاط طائراتهم، نقلت إلى المعسكر الخاص القريب المسمى بيت آلاسكا. بدءاً من هذه اللحظة، أخذ الأسر يتحول إلى مدرسة عليا حقيقية بالنسبة إلى مؤرخ العصر، الذي كان بوسعه الحصول على كنز معلومات من نزلائه: المارشالات، الجنرالات، الوزراء، المبعوثون، الصناعيون السابقون وسواهم من معاصرينا المهمين، قيمته الكبرى باقية حتى يومنا هذا. ومع أنني سأعرِّج في نهاية هذا الكتاب على تفاصيله، فإنني أكتفي هنا بالإشارة إلى اللقاء المهم مع جنرال الفرسان إيرنست كوستربنج، الملحق العسكري الألماني في موسكو خلال سنوات كثيرة، الذي أدين لمحادثاتي معه بنظرات عميقة ليس فقط حول أحداث الحرب، بل كذلك في النفس الروسية. لكنني أدين بالقدرة على وضع هذا الكتاب إلى جنرال الإشارة خارج الخدمة ألبرت براون، الذي تكررت لقاءاتي معه في الستينيات من القرن العشرين في قيادة الدائرة الدفاعية السادسة في ميونيخ، حيث كنت أخدم. وقد دأبنا على عقد لقاءات متجددة بعد ذلك التاريخ. في سنة 1970، نشر الجنرال مقالة مهمة في جريدة العلوم الحربية[1] موضوعها «العوامل التي تم إهمالها في التأريخ للحرب»، اشتكى فيه بحق من أن أبحاث التاريخ الحربي أساءت معاملة

(1) انظر الصفحة 137/ 145.

هيئات نقل المعلومات في الحرب العالمية الثانية، وقال إن الوقت حان لإعطاء إنجازات الاستطلاع باللاسلكي، الميداني منه والتكتيكي، الأهمية التي تتفق ودوره.

بذلك، قدم الجنرال براون التشجيع اللازم والضوء الأخضر لكتابة الفصل الخامس من هذا الكتاب، الذي أمدني طرف ثالث بوثائق غير منشورة بعد حول موضوعه[1]. وكان قد ظهر سنة 1970 مؤلف أساسي حول الاستطلاع اللاسلكي البحري وضعه القبطان البحار خارج الخدمة هاينس بوناتس. كما كان هناك دراسة قيد الإعداد حول الاستطلاع اللاسلكي الجوي. لكنني كنت قد اتفقت مع الجنرال براون أن لا أضع كتاباً متخصصاً حول الاستطلاع باللاسلكي، وأن أركز اهتمامي قبل كل شيء على سد ثغرات تاريخ الاستخبارات المتخصصة بالعدو، لإلقاء الضوء على تاريخ الحرب العالمية الثانية، يستكمل بنظرات على الاستخبارات الأوروبية آنذاك. أخيراً، كانت هناك حاجة إلى إجراء دراسة متأنية تتفحص علاقة القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية مع الجاسوسية وأجهزة الاستخبارات.

هذا الكتاب يعتبر، إذن، تقريراً وتاريخاً في آن معاً. إنه لا يهزل في موضوع تاريخ الحرب، كما يهزل نموذجه التقليدي. لهذا السبب، هو أيضاً نوع من التحدي. لكن الحقيقة لا تكمن دوماً في المستندات، ويوميات الحرب، والوثائق، مع أنها بالتأكيد الأساس المطلوب لأي بحث. إن ما نعيشه كثيراً ما يكون أرفع منزلة، ويقدم بإسهامه الحقيقة كاملة.

(1) يتعلق الأمر هنا بالدراسات، التي وضعها المنتسبون السابقون إلى الاستخبارات لمصلحة القسم التاريخي، بإمرة الجنرال خارج الخدمة هالدر .وهي لم تنشر حتى الآن.

هذا ما قدر لي أن أعرفه في مجرى الحرب، بما في ذلك ما يتعلق منه بالاستخبارات الألمانية، الذي تبين لي أنه أشد تراكباً وتعقيداً مما اعتقدت حتى إبان سنة 1940، وأنه عرضة للتغيرات الجارية، فضلاً عن أنه لم يكن هناك، لأسباب مفهومة، وجهات نظر رسمية حول «أجهزة» الاستخبارات الكثيرة العدد، وليس هناك اليوم أيضاً وجهات نظر كهذه في متناول أيدينا. هنا يكمن سبب خطأ واسع الانتشار في الرأي العام الألماني، يساوي بين الاستخبارات عموماً ومجموعة مكافحة التجسس الأجنبي التابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة، التي يعتقد أنها كانت كل الاستخبارات الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. لكن الحقيقة، التي عرفتها من جهات عليا، تختلف كل الاختلاف عن ذلك، فمنذ حرب الجبهتين سنة 1941 كان هناك سبعة فروع كبيرة للقوات المسلحة الألمانية مكلفة بالعمل الاستخباري السري، توزعت سنة 1943/ 1944 على النحو الآتي:

1) الاستخبارات المتخصصة بالعدو، وكان «رأسها هو» شعبة «الجيوش الأجنبية»، أو شعبة القوات الجوية والبحرية الحربية في قيادة الجيش العليا، أو في القيادة العليا للقوى الجوية والقيادة العليا للقوى البحرية[1]. أما في الأركان العامة للقوات، فكلفت الأقسام الخاضعة لمن سموا ضباط شعبة الأركان الثالثة بتدبير المعلومات حول العدو وجمعها وتقويمها، وألحق بهم ضباط مكافحة التجسس في هيئات الأركان العليا.

2) الاستطلاع اللاسلكي، الذي سمي في وقت لاحق استطلاع الإشارة. وكان يعتبر مهمة خاصة من مهام وحدات الاشارة، نفذتها دوماً بنجاح متعاظم، وخاصة في الجبهة الشرقية. هذه الشعبة توزعت على فروع ثلاثة هي الاستطلاع الميداني والتكتيكي واستطلاع المعارك. أما أخبارها ومعلوماتها فكانت تمر بضباط شعبة الأركان الثالثة، وتصل حتى إلى

شعبة «الجيوش الأجنبية»، علماً بأن استطلاع الإشارة كان تابعاً من الناحيتين التنظيمية والتقنية لشعبة الإشارة في مجموعة اتصالات القوات المسلحة، التابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة. وكان يقف على رأس هذه الشعبة سنة 1944 جنرال متخصص في الاستطلاع اللاسلكي البعيد.

3) مكافحة التجسس باللاسلكي. وكانت مكلفة بمراقبة عملاء وأنصار العدو، العاملين في مجال الاتصالات وتحييدهم. وكانت تابعة لقسم الإشارة في اتصالات القوات المسلحة[2].

4) شعبة التشفير، وتتبع بدورها لشعبة اتصالات القوات المسلحة في القيادة العليا للقوات المسلحة. وهي مسؤولة عن شفرتها الخاصة ومكلفة بفك شفرات إشارات اللاسلكي، التي تلتقطها، وتعجز وحدة الاتصالات عن بعد عن حلها. بمواقع التنصت الخاصة بها، أخذت هذه الشعبة على عاتقها أيضاً ما سمي الاتصالات اللاسلكية بين الدول، فكانت تمارس إذن الاستطلاع «الديبلوماسي» باللاسلكي.

5) مجموعة متخصصة في مكافحة التجسس الأجنبي لدى القيادة العليا للقوات المسلحة، وكانت شعبتها الأولى مكلفة بالأجهزة السرية، أي بالجاسوسية. وتبع قسم مكافحة التجسس والتجسس المضاد لشعبتها الثالثة، في حين قامت شعبتها الثانية بالأعمال التخريبية والهدامة[3].

6) الاستخبارات الخارجية التابعة للمكتب السادس في مكتب أمن الرايخ الرئيس، التابع لقائد لواء الـ إس إس فالتر شيلنبرج. وقد تولى المكتب السادس شعبتي المكافحة الأولى والثانية باعتبارهما مكاتب عسكرية، بعد حل شعبة مكافحة التجسس في شباط/فبراير سنة 1944. بينما بقيت «شعب الجيوش الأجنبية» وغيرها على حالها، كمراكز لجمع المعلومات عن العدو، التي كانت عند نهاية الحرب بصورة تكاد تكون حصرية معلومات حصلت عليها مكاتب الاستطلاع عن بعد.

7) مكتب الأبحاث التابع لهرمان جورينج، الذي اختص بالاستماع إلى

المخابرات الهاتفية[4]. بسبب تنوع خدمتي في الجيش، وتقلدي مناصب تقع بين هيئة أركان قوة برية وبين القيادة العليا للقوات المسلحة وهيئات قيادة الوحدات، كنت معنياً بصورة مباشرة أو غير مباشرة بهذه «الأجهزة»، التي اقتنعت بإنجازاتها. وقد أهملها تاريخ الحرب إلى الآن، أو اهتم بها بكيفية تشوبها ثغرات كثيرة، اعتبرت سدها مهمة جليلة تساعد في تقويم ما قامت به الاستخبارات الألمانية من أعمال، وتثمينها بالطريقة التي تليق بها.

obeikandl.com

1

الاستخبارات في أوروبا
قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها

صورة الواقع وحساب ختامي

obeikandl.com

obeikandl.com

صورة الواقع وحساب ختامي

كيف كانت الاستخبارات تعمل في الميدان الأوروبي قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها؟. تغري الإجابة عن هذا السؤال بكتابة تاريخ الاستخبارات، وبعرض صلته بمجريات الحرب. غير أن هذا المشروع سيبقي مليئاً بالثغرات، لأن أجهزة الاستخبارات عصية ببساطة على التأريخ، فهو يستهدف التقاط الحقيقة كاملة، بينما تؤثر هي العمل في الخفاء، وتتستر على العاملين فيها، وتحرص أن لا تترك وراءها علامات تدل عليها، وأخيراً، لأن ما هو سري يخشى أنوار البحث.

تعتبر الينابيع، التي يمكن أن تمدنا بالمعلومات حول مجريات الحرب العالمية الثانية، شحيحة. وهي إما عكرة بدرجة ما أو تشوبها الألوان عن عمد، وعلى الأخص منها تلك التي تنبع من بلدان الكتلة الشرقية، حيث الوثائق نادرة، ولا يعرف المرء على الدوام إن كانت مزيفة ولأي قصد. هذا بالتأكيد هو السبب الذي جعل المؤرخين يخلون الساحة لكتَّاب التحقيقات والهامشيين، الذين يعجزون عن كبح جماح خيالهم.

ومع ذلك، يبدو أن بالإمكان إلقاء نظرة عامة على أهم إنجازات الاستخبارات في أوروبا، بمجرد أن تتم معرفتها بطريقة موثوقة. وهو ما سأحاول عمله هنا. تمارس الأحداث الجزئية سحرها في أغلب الأوقات، لأن الاستخبارات تتعامل مع ما هو إنساني، وفي حالات غير نادرة مع شؤون مفرطة في إنسانيتها. ولكن التمويه الذي يشوبها يمكن أن يزول،

فتصبح عندئذ حرة النظرة إلى خلفياتها، التي تستحق الملاحظة والرصد. وكما هو الحال في علم الجنايات، لا ينجح هذا دوماً، لذلك يبقى الغموض محيطاً بوقائع كثيرة. وللعلم، فإن الاستخبارات لم تجتذب فقط «الرجال الغامضين»، بل استقطبت كذلك طبائع «فاوستية». مثلما غدت في الحرب العالمية الثانية رسالة رجال على قدر عظيم من الذكاء. وعلى كل حال، فإنني لن أكتب سِفراً في علم نفس أو فلسفة الاستخبارات. ولن أحللها نفسياً، وإن كانت الفصول اللاحقة ستقدم بعض الملاحظات والمداخل الأولية إليها.

سيقتصر موضوعي على وصف الواقع وتقديم رصيد ختامي، مع نظرة عامة على ما صار معروفاً حول نقاط ثقل الأحداث الحربية. ما الذي حدث في السر، أو تم الحصول عليه بواسطة الجاسوسية، أو الخيانة، وترك أثراً في مجرى الحرب؟. ما هي الوسائل والطرائق، التي كانت أجهزة الاستخبارات المختلفة تفضل استخدامها خلال ذلك؟. كيف ولماذا بدت بعض هذه الوسائل والطرائق قديمة، بينما بدا بعضها الآخر تقدمياً وناجحاً؟. هذه هي الأسئلة، التي ستطرح ويجب أن يرد عليها قدر المستطاع. هذا الكتاب لن ينحاز لأحد، بل سيخدم الحقيقة. لكنه سيدحض قبل كل شيء الحكم المسبق الشائع، وسيبرهن أن العمل الاستخباري ليس، أو ليس في معظمه، جاسوسية، أي مغامرة وفراراً وأعمال عنف، أو «جنس وجريمة»، مع أنه على علاقة مع هذا كله، الذي يتم على هوامشه، بينما يتكون مركزه على الدوام من أفعال دقيقة، مجهدة ومنهجية، تتطلب من القائمين بها التمتع بضمير باحث ورهافة حس خبير جنائي وصبر جيولوجي يفك أسرار الآثار. بغير ذلك، لن يمكنه الوصول إلى نتائج مؤكدة، أي إلى صورة عن العدو تتفق مع حقيقته. وبذلك وحده يستطيع تقديم معلومات إلى القيادة السياسية والعسكرية، تجعل من المستحيل القيام بمغامرات سياسية وحربية. وإنه

ليمكن الإتيان ببراهين تؤكد أن شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» في قيادة أركان الجيش الألماني فعلت هذا كله بضمير ومسؤولية[5]، لكنها فشلت دوماً في إقناع هتلر بمعارفها.

ثمة لحظات ثلاث غيرت بصورة خاصة أجهزة الاستخبارات خلال الحرب العالمية الثانية، هي:

1 ـ تعاظم الخيانة الوطنية لأسباب وبواعث أيديولوجية / سياسية، التي جعلت بالإمكان الوصول إلى مصادر معلومات غنية، على هذا الجانب كما على ذاك.

2 ـ سفسطة تقنية الإشارة، التي جعلت الإبلاغ الفوري عن المعلومات ممكنا على أكثر المسافات بعداً.

3 ـ اختراق الاتصالات اللاسلكية المعادية، رغم ما بلغته فنون التشفير من تقدم.

بذلك، تراجعت أهمية الجاسوس من الطراز القديم، وتعاظمت بالمقابل أهمية التقويم والتفسير في المراكز الاستخبارية، حيث غدت معرفة البلدان الأجنبية، واللغات والشعوب، والنظم الأيديولوجية من متطلبات العمل الناجح، التي تزايدت أهميتها باستمرار. والحق، أن الاستخبارات تطورت خلال الحرب العالمية الثانية إلى ضرب من الاختصاص العلمي، فكانت تجمع مزق المعلومات المتناثرة في لوحة كلية مليئة بالمعاني، فاتحة بذلك الطريق إلى إلقاء نظرة عميقة على أسرار العدو الصميمية، بينما كانت أجهزة التنصت، واعترافات الأسرى تساعد في ميدان المعارك، وكان تقويم الوضع يتحول إلى فن من فنون التنبؤ. تلك كانت أهم منطلقات التطور، الذي حدث بعد سنة 1945.

غيرت اتصالات الجيش والطيران والبحرية اللاسلكية البيئة الاستخبارية تغييراً كبيراً. واستطاع الاستطلاع عن بعد تقديم معلومات ومعارف تزايدت

كماً ونوعاً في النصف الثاني من الحرب، جعلت منه «مصدراً موثوقاً»، بالمقارنة مع معلومات الجواسيس ومراكزهم المكلفة، التي تناقصت وشحت في هذه الأثناء، وكانت باهتة في أغلب الأحيان. وعلى كل حال، فإن المعلومات الجزئية التي كان يتم الحصول عليها من الأثير، لم تكن تتحول إلى معلومات ذات معنى، إلا عندما تؤكد أو تكمل أو توسع معارف سابقة. يقول العماد هالدر، رئيس الأركان العامة للجيش الألماني، في ملاحظة وثائقية غير منشورة، شيئاً سيبقى صحيحاً على الدوام حول الأهمية المتعاظمة للاستطلاع ولمكافحة التجسس باللاسلكي.

فهو يكتب سنة 1952: «تثبت تجربة الحرب العالمية الثانية في المجال الذي نتعامل معه هنا أن اتصالات اللاسلكي المعادية كانت أغنى وأفضل مصدر معلومات بالنسبة إلى مختلف مراتب القيادة الألمانية. وهذا ما لا يستطيع تغييره أعظم انضباط لاسلكي وأذكى فن تشفير، وإن كان يقدر أن يحد منه في أحسن الأحوال، علما بأن التدابير، التي قد تتخذ للحد منه، ستتناقص فاعليتها، بقدر ما يطول أمد الحرب. تحتاج القيادة العسكرية، في عصر المحرك، إلى معرفة الحركات التي تتزايد سرعتها باضطراد لواسطة تفاهم سريعة العمل. وسيكون على التقنية ابتكار وسائط تحمي الاتصالات اللاسلكية الخاصة وتحصنها ضد الجانب المعادي، أو تصميم طرائق جديدة كل الجدة لاتصالات لاسلكية عصية على التنصت وحصينة حياله». كانت الإشارة السبب الأول لتبدل نقاط ثقل العمل الاستخباري. لم يعلن أحد هذا السر خلال الحرب، لذلك تعيش إلى يومنا هذا رواية التجسس، كما يعيش فيلم التجسس في التصورات المتقادمة لرأي يجهل التبدل الذي حصل. وإننا لندين إلى استطلاع اللاسلكي في البر والجو والبحر بمعلومات كثيرة على أعلى درجات السرية، حصلنا عليها بين سنتي 1939 و1945، سكتت عنها مذكرات رجال الاستخبارات، أو ذكرتها بصورة عابرة ؛ نذكر منها، بالتوافق

مع مجرى الحرب، ما حصلت عليه القيادة الألمانية، ثم الروسية، بينما كان البريطانيون يطورون واسطة استطلاع إلكترونية تبين أنها كانت قاتلة بالنسبة إلى الغواصات الألمانية[6]. هكذا تمكنت القيادة الألمانية من الحصول منذ بداية الحرب سنة 1939 وحتى أيار من سنة 1940 على معلومات كثيرة من هذا المصدر الموثوق، كما يخبرنا قائد «الجيوش الأجنبية غرب»، الجنرال اللاحق ليس. بدورهم، استخدم الروس بدءاً من سنة 1942 هذه الوسيلة بنجاح متعاظم، كما كانوا يتركون في المناطق التي ينسحبون منها متخصصين في التنصت على اللاسلكي، ليخبروهم بتحركات القوات الألمانية، أو يرسلونهم في مهام استطلاعية وراء الخطوط الألمانية، قبل قيامهم بهجمات مضادة. لقد كان هؤلاء الجهة التي مهدت الطريق للانتصار النهائي الذي أحرزه الروس. كانت مكافحة التنصت الألمانية على علم بنشاط الروس، لكن عدد الرجال، الذين خدموا استخبارات ألمانيا في جميع جبهات وميادين القتال، وبلغ إثني عشر ألفاً، كان لا يكفي لمكافحتهم، ناهيك عن كشفهم. وعلى كل حال، فإن «نظرة عامة تغطي كافة الظروف» (كلاوزفتز) تشير إلى أن الاستخبارات كانت خلال الحرب العالمية الثانية من قوام مغاير لذاك الذي لا زال الناس يرونه أو يعتقدون عموماً بوجوده. تدين أجهزة الاستخبارات بأكثر معلوماتها أهمية للتقنية الجديدة وللطرق العلمية، التي رفعت المكانة الظاهرية لرؤسائها ولهيئات أركانهم، وزادت إنجازاتهم العملية، بما كانت تتطلبه من اجتهاد كبير، وذكاء مرهف، وموهبة تنسيقية رفيعة. أما في المراكز، فقد تحول العمل الاستخباري إلى علم تطبيقي، وهذا تطور يمكن متابعته اليوم بفضل أدب المذكرات الشخصية. وقد أخبرتنا بتفاصيله مذكرات رئيسي شعبتي «الجيوش الأجنبية» في الأركان العامة للجيش الألماني، الجنرال أولريش ليس عن «الجيوش الأجنبية غرب» والجنرال جيهلن عن «الجيوش الأجنبية شرق»، حيث يبدو العمل الاستخباري في ضوء جديد.

ثمة حكم مسبق واسع الانتشار، يرى أن العمل الاستخباري السري يحقق وظيفته الرئيسة عبر الحصول على معلومات سرية، تقدم كمواد إلى المراكز .هذا الرأي يجهل أن هذه المعلومات يجب أن تفحص وتقارن وتجمع، أو بكلمة أخرى، أن تقوّم، وإلا استحال تكوين الصورة العامة الضرورية لتحليل الوضع، التي تمكننا من الحكم على وضع العدو والتنبؤ بنواياه المحتملة. هذه التدابير تجعل العمل الاستخباري أنجح، بقدر ما تكون متقنة. لكن سؤالاً معذباً طرح نفسه خلال الحرب على الجانب الألماني، هو الآتي: ماذا يجب أن نفعل بالمعلومات التي حصلنا عليها؟. وما نفع تقويمات الأوضاع؟. هل تصل إلى القيادة الأعلى، فتتعين قراراتها وتتأثر بها؟. يجب أن تكون الإجابة بالنفي بالنسبة إلى هتلر، الذي أقلع الجهاز الاستخباري الممتاز، المسمى «الجيوش الأجنبية شرق»، عن العمل له، بعد تسريح هالدر في صيف 1942[7].

كان الروس أكثر نجاحاً في هذا الميدان من الألمان: عدوهم الرئيس في الحرب العالمية الثانية. وإن كانوا لم يحققوا نجاحاتهم إلا بعد إخفاقات شديدة تعرضوا لها في الفترة التي كانوا يعلقون خلالها أهمية كبيرة على الجاسوسية من النمط القديم. وعلى كل حال، فإن المعلومات التي كان يتم الحصول عليها، وتحليل الوضع الذي كان يتم انطلاقاً منها، كانا يرسلان بالتأكيد إلى ستالين، الذي كان يضع ما في تقارير الاستخبارات من معلومات مفيدة في خدمة القيادة العسكرية العليا بمجموعها. هذا ما كان عليه الأمر أيضاً في مقر قيادة أيزنهاور، الذي انتمى رئيس استخباراته سترونج إلى «الدائرة الداخلية» للمقر الأعلى لحملة القوات الحليفة، وتمتع بصلاحية الدخول دون موعد على القائد الأعلى، والتحدث إليه في أي مناسبة تتطلب ذلك. لم يتمتع رئيس مكافحة التجسس الألماني الأميرال كاناريس أو

الجنرالان ليس وجيهلن، بصلاحيات مماثلة[8]، لأن هتلر صار عديم الاهتمام تقريباً بوضع العدو، لأن قيادة الجيش الألماني العليا تبنت سنة 1939 رأياً إيجابياً حول قيمة الجيش الفرنسي وإرادته القتالية، ولأنه بدأ يزعم بعد نجاح الحرب الصاعقة في الغرب سنة 1940، أنه ينفرد بمعرفة الحكم على العدو، وأصر على مزاعمه هذه حتى النهاية الكارثية للحرب.

هذه النظرة العامة ليست سوى مقدمة لموضوعنا، ذلك أن نشاط أكثر أجهزة الاستخبارات الأوروبية أهمية خلال الحرب وتدابيرها يستحقان المقارنة بعضهما مع بعضهما الآخر، مثلما يستحقان دراسة تحليلة متأنية، خاصة وأن لهما جوانب متعددة، بقيت غامضة ومحاطة حتى في أيامنا هذه بأسرار كثيرة، يمكن لملخص أولي حولها أن يختصر في النقاط الآتية:

تتراجع أهمية الجواسيس والعملاء، بمقدار ما يطول أمد الحرب. لم تطور التقنية إمكانات جديدة تنقل الأخبار بسرعة وحسب، بل طورت كذلك وسائل سريعة للحصول عليها، وخاصة عبر ما يسمى الاستطلاع عن بعد. ويقدم فن فك رموز الاتصالات المعادية نتائج مثيرة، تجعل نقطة ثقل عمل الأجهزة الاستخبارية مرتبطة اليوم به.

رغم ذلك، لم يكن ممكناً بالنسبة للقوى التي كانت تخوض الحرب، التخلي عن الجاسوس من النمط القديم، أو عن «رجل الثقة». فقد أثبت المخبر في موقع كالقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية أنه شخص لا يمكن الاستغناء عنه. بهذه المناسبة، نذكر أنه لم يتم إلى اليوم كشف حقيقة ما كان يسمى «خط الفايكنج»، الذي ارتبط بالأركان العامة السويسرية، وما زال الغموض يلف أيضاً العلاقات التي بدأت سنة 1942 بين أرفع جهات الـ إس إس وبين آلن دالس من مكتب الخدمات الاستراتيجية الأميركية في سويسرا.

بالمقابل، أكد عملاء موثوقون أن بورمان، وكان منذ سنة 1941 أحد «نبلاء» الرايش الثالث، لجأ إلى السوفيات، لكن العثور على جمجمة في برلين اعتبرت «رسمياً» جمجمة مدير الرايش السابق، ألقى بعض الشكوك على صحة هذه الرواية. هل خان بورمان وكيف؟. إنها مسألة يحيط بها الشك[9]. بقي هجوم الأردين، وهو أهم حدث وقع سنة 1944، سرياً بالنسبة إلى الجهة الأخرى، لأن في العمل الاستخباري أنواعاً كثيرة من الخدع والتضليل وفنون الحجب، وفيه كذلك ضروب من خداع الذات وخيبة النتائج بالنسبة إلى طرفيه، حفل عاما 1944 و1945 بوقائعها.

من الضروري أن نميز مبدئياً بين جانب «رومانسي» وآخر علمي رصين يخالطان العمل الاستخباري، كما يؤكد كينيث سترونج، المتخصص في دراسة العدو داخل مقر أيزنهاور. أما الجانب الرومانسي، فيدور حول الجواسيس والعملاء، الذين يوجد بينهم دوماً «رجال شرفاء غامضون»، بينما يفضل جهاز الاستخبارات المتخصص بالعدو «المصدر الوثيق»، الذي تمثله أقسام الحصول على المعلومات فيه.

استغنت بعض أجهزة الاستخبارات عن الجواسيس والعملاء، قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها، وحصلت على معلوماتها بفضل أحاديث أديرت ببراعة، وتقويم منهجي انصب على مضمونها. إلى هذا، لجأت هذه الأجهزة كذلك إلى المصادر المفتوحة، كالصحف والمجلات المتخصصة (هذا ما كانت تقوم به بنجاح أيضاً شعبة «الجيوش الأجنبية»)، التي كانت الأعمال الاستخبارية الفسيفسائية تتكامل في مكاتبها، متى توفرت شروط بينها:

1 ـ أن يتحدث من يجرون التقويم لغة سكان البلاد التي يراقبونها.

2 ـ أن لا تنقطع علاقات حسن الجوار معها، حتى عند وقوع صراع. وهناك أمثلة مهمة على العمل الناجح، الذي تنجزه هذه المكاتب، نجدها في سويسرا حتى سنة 1945 وفي تشيكوسلوفاكيا حتى سنة 1939[10].

تشدد النظم الشمولية إجراءات السرية، لتجعل حصول الجانب المقابل على الأخبار شديد الصعوبة. ينطبق هذا على ألمانيا النازية وبدرجة أكبر على الاتحاد السوفياتي. لكنه يوجد أعداء معلنون لهذه النظم، يعيشون داخلها ويتعاطفون في الحرب مع عدوها، كانوا مصدر معلومات مهم بالنسبة إلى أجهزة الاستخبارات إبان الحرب العالمية الثانية. نذكّر هنا بالفرع الألماني من حلقة التجسس، التي كان تسمى «روته كابيله»، وبالمخبرين العاملين في خدمة «الجيوش الأجنبية شرق» داخل الاتحاد السوفياتي، أو «الكيزلنجيين» في بلدان أوروبية كثيرة.

على أن المسألة لا تتعلق فقط بالحصول على المعلومات «بذاتها»، بل ترتبط بدرجة أكبر بتقويمها في المركز، وبالصورة التي يصنعها العاملون فيه للعدو، من أجل القيادة، حيث تصل المعلومة السرية إلى كامل أبعادها. ثمة، على كل حال، سلسلة كاملة من الحالات تبين فيها أن هذه الصورة كانت عديمة القيمة، لأن «فوق» رفض أن يخصها باهتمامه أو رفض تصديقها. وقد كرست فصلاً خاصاً من هذا الكتاب لمعالجة هذه المشكلة، التي لا زالت أجهزة استخبارات كثيرة تعاني منها اليوم أيضاً.

يعمل جهاز الاستخبارات بطرق مختلفة في البلدان المختلفة. ويختار كل جهاز تدابيره العملية الخاصة به، ويتمتع بمزايا أو يعاني من نقاط ضعف، بحسب الوقت والشعب والنظام السياسي السائد ووضع المجتمع. وتتعين الأجهزة بالطابع القومي للأمة، والمنشأ التاريخي للدولة، و«روح

الشعب» (هيجل)، حتى إنه ليصدق القول: إن لكل جهاز مخابرات خطاً خاصاً به، ولكل عامل لاسلكي طريقته الخاصة.

لئن كانت الحرب النظامية والمفتوحة ميداناً للمصادفة، كما يؤكد كلاوزفيتز، فإن الحرب في الخفية، حرب الاستخبارات، هي هذا الميدان بامتياز. ذلك أن معارف مهمة أو أخطاء جسيمة تنجم هنا عن المصادفة: العدو الرئيس للعملاء، الذين كثيراً ما تفضحهم مصادفة غالباً ما تكون سخيفة. فلا مفر من أن يفكر هؤلاء بكل شيء بالمعنى الحرفي للكلمة، حين يغيرون هويتهم الشخصية.

هل استجابت «إدارة الاستخبارات» الألمانية لهذا المطلب، إذا كانت إنجازاتها الأكثر أهمية ترجع إلى مكافحة التجسس، أي إلى الشعبة الثالثة؟.

يلتزم الوكلاء بتعهد يجبرهم على الصمت مدى الحياة؛ وهو التزام ينطبق على رؤسائهم بصورة خاصة، فتراهم ضنينين بـ«كشف الأسرار»، وهي صفة تتساوى فيها مذكراتهم الشخصية جميعها. غير أنه يوجد هنا أيضاً عمل فسيفسائي يتيح لنا إلقاء نظرات أعمق على معلوماتنا، بمجرد أن نخضعه لتقويم شامل.

حققت استخبارات الاتحاد السوفياتي نجاحاً متميزاً خلال الحرب العالمية الثانية، وخاصة منذ سنة 1942، لأنها كانت تعرف جيداً الإمكانات الملموسة للحصول على المعلومات في بلدها الخاص. أما نجاحها، فيرجع أساساً إلى خبير في سلاح الإشارة، هو اللواء ثم العماد إيفان تيرنتييفتش بيريسيبكين، الذي رُفِّع سنة 1945 إلى مارشال في سلاح الإشارة اعترافاً بإنجازاته[11].

عندما يتأمل المرء الاستخبارات الأوروبية بين سنتي 1937 و 1945،

يجد أن طرقها ترجع إلى ظروف ما قبل الحرب ومجرياتها، وإلى التغيرات السياسية والتقنية والنفسية خلالها. وقد أثبتت الاستخبارات عموماً أنها تقدمية ومتعددة الجوانب وغنية بالأفكار، بحيث تستحق أن تكون مادة عرض إجمالي، سأقدمه للتو، لا سيما وأنه جاء وقت نزع الحجب قدر المستطاع عن الاستخبارات، وإبلاغ الرأي العام بما كانت عليه أمورها، علماً بأن الحقيقة كانت أشد إثارة من روايات وأفلام التجسس الرديئة، التي نقرأها ونشاهدها اليوم. فقد وقعت، وسط جدية السرية المبالغ كثيراً بها، ألاعيب وحيل لاسلكية أخذ المزاج البشري حقه فيها. وكانت هناك أيضاً مصادفات ونوادر تستحق الرواية، تتحدى غرابتها المحزنة أو الساخرة أي «خيال». والحق، إنه ينقصنا كاتب مسرحي من طراز جرابه، يستطيع تصوير بعض الأحداث في قالب «مفعم بالمعاني العميقة، سواء كان هزلياً أو ساخراً أو مضحكاً». نشر جميع رؤساء الاستخبارات الغربية على وجه التقريب، الذين لعبوا دوراً مهماً خلال الحرب العالمية الثانية، مذكراتهم الشخصية قبل نهاية سنة 1972، فقدمت أقوالهم مستندات مهمة وانضوت في الصورة الإجمالية التي نحاول تحليلها هنا. إن ما حجبه هذا وأفصح عنه ذاك كان غالباً غنياً بالدلالات بالنسبة لها. وساعدت في تشكيلها كذلك المعلومات الإضافية المؤكدة، والرسائل اللاسلكية التي تم الحصول عليها، ومنها تلك التي تبادلتها موسكو بين عامي 1941 و 1944 مع القائم بالأعمال السوفياتي في سويسرا، ويعتبر أمراً مثيراً للاهتمام مقارنتها بذكريات ألكساندر رادو، التي نشرت خلال الفترة الماضية في بوادبست تحت اسم «دورا»، لما تلقيه المقارنة من إضاءات لاحقة على أمور معينة، حتى إن بقي غيرها غارقاً في الصمت.

obeikandl.com

2

في واجهة الحرب

مسرحية ألمانية ـ فرنسية
بين حلفاء المستقبل
موسكو والسرية الشاملة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مسرحية ألمانية ـ فرنسية

1

ليس هناك استخبارات «بذاتها». وليس هناك طرق عمل نمطية، تتبع فيتم الحصول على معلومات حول الشؤون السرية للدول الأخرى. يرتبط كل شيء، في هذه المهنة المحاطة بالأسرار، بالوضع الملموس، الذي يتكون من إمكانات وفرص متاحة. إلى هذا، تتعين طرق العمل بظروف العصر والسياسة والطابع القومي، مثلما تتعين بالمواهب، أي بنجاح المسؤولين المعنيين ومعاونيهم أو فشلهم. وقد يحدث أيضاً أن يسرب المرء معلومات محددة إلى أعدائه، لا تكون خاطئة بالضرورة، ليحقق غرضاً نفسياً أو سياسياً، وهو أمر كان شائع الحدوث خلال الحرب العالمية الثانية. وثمة ممكنات أخرى تنشأ عن بواعث وأيديولوجيات سائدة، بما أن الكلمة الأخيرة في الحروب السرية هي للممسكين بالسلطة من رجال ومجموعات، الذين يستخدمونها بطرق دكتاتورية أو عشوائية. لئن كان كلاوزڤتز قد قال ذات مرة «لقد خاض التتار نصف المتمدنين، وخاضت جمهوريات العالم القديم، وخاض سادة الإقطاع، وخاضت مدن العصر الوسيط التجارية، وخاض ملوك القرن الثامن عشر، وخاض أخيراً الأمراء وخاضت الشعوب في القرن التاسع عشر... الحروب بطرق مختلفة، بوسائل مختلفة، ولهدف مختلف»، فإن هذه الفرضية تنطبق اليوم وستنطبق

غداً على الحروب المفتوحة، وكذلك على الحروب الخفية والسرية، التي تجري في العتمة والضباب، وتبقى فيها دوماً مكونات سياسية وقومية، حتى في عصر الأيديولوجيات العالمية. لكل جهاز مخابرات طرقه الخاصة به، هذا ما تؤكده الممارسة في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، وخاصة منذ 1936.

لنلق، بادئ ذي بدء، نظرة عامة على «الوضع الكبير»، الذي ساد آنذاك. كان مصير أوروبا وبقية أجزاء العالم، يتعين في ثلاثينيات القرن الماضي على يد دول ظهرت بعد القوى العظمى الأربع، التي ارتبط تاريخ العالم بها حتى سنة 1914، وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا (بصورة محدودة) والعملاق الروسي، الذي انتشر بين شرق أوروبا ومجموع المجال الشمالي للقارة الآسيوية. صحيح أن ثورة أكتوبر/تشرين الأول، التي قامت سنة 1917، غيرت بنى هذه الإمبراطورية العملاقة وسكانها أكثر بكثير مما غيرت الهزيمة والسقوط ألمانيا سنة 1918، لكن الروس بقوا في جوهرهم روساً، والألمان ألماناً، وإن في ظل علامات سياسية مغايرة، ومجموعات مسيطرة جديدة. بالمقابل، ظلت القوى الأوروبية المنتصرة، أي فرنسا وبريطانيا، بمنأى عن أي تغيرات عميقة، وهو ما قد يكون سبب التوترات السياسية الملحوظة، التي تعرضت لها، والانحسار الجلي في قدرتها على المبادرة، الذي اقترن بالأزمة الاقتصادية العالمية في ثلاثينيات القرن الماضي. وبينما كسبت ألمانيا المهزومة وروسيا الثورية قوة جديدة في ظل أيديولوجيات دكتاتورية، ونما نفوذهما القاري بمرور السنين، تراجعت بريطانيا العظمى الكونية وفرنسا القارية تراجعاً حثيثاً، فكان هناك ثمة ركود في جانب، وديناميكية وتوسع في جانب آخر، انعكسا على أجهزة استخباراتهما، يمكن متابعة آثارهما بتفاصيلها الدقيقة، من خلال المذكرات التي كتبها الملحقون العسكريون.

كان الركود السياسي واضحاً بصورة خاصة في فرنسا، التي أرهقت تضحيات الحرب العالمية الأولى الدموية والرهيبة شعبها، وأفقدته إرادة القوة والرغبة في تأكيد الهيمنة الأوروبية، التي كانت له قبل الحرب مباشرة، على الرغم من أنه تمت المحافظة على الألق الظاهري للديبلوماسية الفرنسية، التي بقيت على ألمعيتها، بينما كانت وتيرة تغيير الحكومات الضعيفة، وخاصة منها حكومة الجبهة الشعبية في الثلاثينيات من القرن الماضي، تعكس حقيقة الأمور. أمن قبيل المصادفة والعبث أن هتلر شن هجوماً نفسياً ضد إرادة الحرب لدى الفرنسيين، بينما كان ينتهز حتى سنة 1937 المناسبات جميعها من أجل تأكيد رغباته السلمية؟[1]. لقد كان الملايين من جرحى الحرب والمتضررين منها ينشدون السلام، وقد تصالحوا في قرارة أنفسهم منذ وقت طويل مع الألمان. وكان «السيد دوبونت» (لقب يطلقه المؤلف على المواطن الفرنسي!) يريد الهدوء من أجل صفقاته، وكانت البرجوازية الفتية والهرمة تنشد مختلف أنواع الاسترخاء من أجل غرامياتها. إلى ذلك، كان القوم راغبين في دفع ثمن مرتفع مقابل تأمين أنفسهم ضد جارهم الشرقي المضطرب، فوافقوا على بناء خط ماجينو وأنفقوا عليه المليارات. إلا أن كتلة الفرنسيين الأكبر واصلت النظر بارتياب إلى ما وراء نهر الراين، بمجرد أن وصل هتلر إلى السلطة. وقد كانت على حق في موقفها هذا، كما ظهر سنة 1939.

2

بقي الرايش الألماني بصورة دائمة في مركز اهتمامات فرنسا الاستخبارية بعد سنة 1871. وحافظ على موقعه هذا بعد هزيمة ألمانيا سنة

(1) خبر شخصي علم به المؤلف.

1918. تابع الفرنسيون بقلق وانتباه التسلح الألماني قبل، وخاصة بعد، سنة 1933، وكانوا على دراية بوجود الجيش «الأسود» وبالوحدات شبه العسكرية ـ ليس هذا عملاً خارقاً، لأن لجنة المراقبة الحليفة كانت تتجول في طول ألمانيا وعرضها، بينما كانت منطقة الراين محتلة (حتى سنة 1930) ـ. غير أن تدفق المعلومات تناقص بعد ذاك، إلى أن شح في ألمانيا ذاتها، وتراجعت أهميته بالمقارنة مع سنوات العشرينيات من القرن الماضي، حين استخدم التفوق العسكري بطريقة حاسمة، وتم ببساطة احتلال منطقة الرور سنة 1923. بما أن هذا الزمن كان قد انصرم، تمكن هتلر سنة 1935 من إعادة الخدمة الإلزامية العامة إلى ألمانيا، واحتلال المنطقة المنزوعة السلاح في بلاد الراين بعد سنة، وإن كان احتلالها قد تم بصورة رمزية أول الأمر، اقتصرت على ثلاثة أفواج من قواته، من دون أن يحدث رد عسكري مقابل، على الرغم من أن فعلته غيرت الوضع الاستراتيجي على الراين من أساسه، وقلبت الأمور رأساً على عقب: فلم يعد حصناً فرنسياً بل تحول إلى منطقة تجمُّع حرة بالنسبة إلى أي معتد ألماني محتمل. آنذاك، بدا أن مجموعات فرنسية كبيرة تصدق تأكيدات هتلر السلمية، التي كانت تلي كل عمل توسعي يقوم به.

ماذا كان موقف الاستخبارات الفرنسية؟. لقد أطلقت صفارة الإنذار، وأشارت إلى وتيرة التسلح الألماني السريعة، وبرهنت على وقوعه.

في هذا الوقت بالذات، تولى قيادة المكتب الثاني، مركز الاستخبارات العسكرية في وزارة الحرب الفرنسية، العقيد ثم الجنرال جوشيه[1]، الذي

(1) انظر أيضا جوشيه: مهمة وطريقة عمل المكتب الثاني، في مجلة علوم الدفاع، السنة العاشرة (1961)، ص 576-579.

كانت قد سبقته إلى عمله الجديد سمعته كرجل حذر متوجس، مع أنه كان في الحقيقة ممثلاً نموذجياً لنزعة الاسترخاء الفرنسية السائدة. يقدم سترونج، زميل جوشيه البريطاني ورجل الاستخبارات في وزارة الدفاع، الذي كثيراً ما عمل معه بين سنتي 1939 و1940، وصفاً عيانياً له يقول[1]: «إنه فرنسي نموذجي، مواطن ميال للراحة وموظف إداري ذكي أكثر منه جندياً بالمفاهيم الإنجليزية أو الألمانية. وهو لا يميل إلى الخروج من ذاته، إلا أنه على استعداد دائم للتعاون، إن كان يقدم معارف عملية. إلى هذا، فإن عينيه تشعان ذكاء من خلف نظارته، خاصة عندما ينخرط في حديث مهني. كما أنه رئيس جيد لمكتبه، الذي يفتقر طبعاً إلى عدد كاف من الموظفين ـ ربما فسر هذا تعلقه بالعمل المكتبي[12] ـ هذا هو رئيس المكتب الثاني الشهير في وزارة الحرب الفرنسية، الذي كانت مهمته شبيهة بمهمة الشعبة الثالثة (الجيوش الأجنبية) في الأركان العامة للجيش الألماني. يرى سترونج أن القوم في باريس ذهبوا بعيداً، تحت ضغط اندفاع ديكارتي نحو منهج ما، فغابت عنهم المسألة الرئيسة، لكثرة ما قاموا به من تأملات وحسابات ووضعوه من فرضيات وطروحات حول النوايا الممكنة للقوات المسلحة الألمانية، وخاصة حول السؤال عن ما تريده وحداتها المدرعة وما تستطيع القيام به. إلى هذا، يلاحظ سترونج ناقداً أن أعداد الوحدات الألمانية الكبرى، المعروفة أو المتوهمة، كانت على الدوام أعلى لدى الفرنسيين بـ 20٪ من أعدادها لدى البريطانيين. ويقول إن مبالغاتهم تركزت بصورة خاصة على سلاح الجو الألماني. وزاد الطين بلة أن العقيد جوشيه كان يحظى بصدقية تامة لدى الجنرال جاملان، المفتش العام للجيش الفرنسي ونائب رئيس اللجنة العليا للدفاع الوطني منذ سنة 1935، الذي مال بدوره

(1) سترونج، الجزء الثاني، ص 67 وما يليها.

إلى المبالغة في تثمين هذا المنهج، فشلت مبادرته وعطلتها تماماً سنة 1939.

كان جهاز الاستخبارات الفرنسية منظماً بطريقة تجعل الحصول على المعلومات من اختصاص المكتب الخامس، الذي كان يسمى «مكتب الاستعلامات». بينما كان المكتب الثاني يطرح المهام، ويجمع النتائج، ويقومها، وينقلها إلى الجهات العليا[1]. في ما عدا ذلك، كانت استخبارات فرنسا مطبوعة بطابع ثنائية غريبة في كل ما يتعلق بألمانيا، ترجع إلى أن الحكومة الفرنسية كانت تخاف هتلر وتستهين به في آن معاً، لأن سلوكه لم يكن متفقاً مع الأسلوب الديبلوماسي المألوف ـ كما كانت تبالغ منذ سنة 1936 مبالغة شديدة في تقدير قوة قوات ألمانيا المسلحة، وقدرات الرايش الحربية[13]. يرجع هذا إلى سبب غريب بدوره، هو أن المكتب الثاني لم يكن يحصل على معلومات قليلة أو غائمة ـ بحسب الشكوى الأبدية لسائر أجهزة الاستخبارات ـ بل كانت لديه معلومات كثيرة جداً، تصله مباشرة من العدو. هذا كان أمراً جديداً في هذه المهنة، جعل الفرنسيين يتجاهلون الواجب الأول لجميع أجهزة الاستخبارات، أعني الشك حتى تجاه المصادر «الأولى»، وتالياً التأكد بدقة من صحة المعلومات، بعد استشارة الحلفاء. من هنا، بدا خلال السنوات الأخيرة السابقة للحرب وكأن المكتب الخامس، الذي يمكن مقارنته بشعبة المكافحة الألمانية في ما يتعلق بالحصول على المعلومات، لا لزوم له، خاصة في ما يتعلق بسلاح الجو الألماني ـ وهذا حدث فريد في بابه ـ.

بقي هذا التطور الغريب غير مفهوم إلى ما قبل سنوات قليلة، عندما قدم تفسيراً له كتاب يضم ذكريات جنرال سلاح الجو الفرنسي اللاحق بول ستيلين، التي صدرت سنة 1946 في باريس تحت عنوان لافت هو مهمة في

(1) انظر سترونج، الجزء الثاني، ص67-108.

برلين، ثم ترجمت سنة 1965 إلى اللغة الألمانية وصدرت في برلين[1]. يقول الكتاب أشياء كثيرة، بما في ذلك أشياء تسكت عنها الوثائق، أو يمكن استخلاصها منه، إن نحن قومناه بطريقة ضباط شعبة الأركان الثالثة المجربة[1]؛ أشياء توضح بجلاء أن شعبة جمع المعلومات في سلاح الجو الألماني، وكانت طفل الرايش الثالث المدلل، لجأت في حينه إلى طرق لم تكن معروفة من قبل من أجل نشر المعلومات بأي ثمن، مع أن هدفها كان إحداث تأثير نفسي وتضليل معلوماتي، يبقيان فرنسا بعيدة عن الحرب قدر المستطاع، الأمر الذي استخدم الألمان الطريقة التالية في سبيل تحقيقه: ثمة انفتاح معين هو جزء من سجايا الألمان القومية، حتى إن جيل الألمان الأقدم كان يعتبر «الانفتاح والاستقامة» مستلزمات أولى للسلوك الأخلاقي. يستطيع المرء بطبيعة الحال استخدام هذا السلوك بطريقة هادفة، قد تكون ذات مرام وهمية أيضاً، ليبلغ بواسطتها مقاصد محسوبة. وهذا ما فعله الاشتراكيون القوميون وعلى رأسهم هتلر. أما هدف هذا «الانفتاح»، الذي ذكر في تقرير كتب سنة 1937 وكان يجب أن يحاط بالسرية والكتمان، فكان التأثير على الفرنسيين عبر التأكيد على قوة وحداثة وقدرة سلاح الجو الألماني الضاربة، وعبر المبالغة فيها، على أمل أن يتفق سلوكهم السياسي مع ما تريده ألمانيا. لم يترك الألمان هذه اللعبة للأجهزة الدنيا، بل قام بأدوارها الرئيسة جورينج نفسه، ثم مساعده الرئيس الجنرال بودنشاتس، وكذلك الجنرال أودت. ليس من المؤكد ما إذا كان الفرنسيون قد أدركوا ما كان يراد بهم، ولكن لنتأمل، في جميع الأحوال، ما كتبه آنذاك مساعد الملحق الجوي الفرنسي، كابتن بول ستيلين، الذي كان وسيطاً نقل من دون تردد بعض تلك التسريبات الهادفة، المعدة خصيصاً من أجل فرنسا.

(1) ستيلين: انظر قبل كل شيء مقطع: «جورينج، محيطه وأسرته»، ص 62-72.

بعد عيد الفصح بقليل، دعي ستيلين، الفرنسي الشاب اللطيف من أصل ألزاسي، الذي «كان يتقن الألمانية بدرجة خطيرة»، حسب قول الملحق العسكري الألماني في باريس العميد كولنهالت إلى رئيسه في برلين، في الدقيقة الأخيرة كبديل لمدعو آخر إلى عشاء شاركت فيه أيضاً السيدة ريجليه، ابنة جورينج المدللة. تلك كانت إحدى المصادفات اللصيقة بهذه المهنة. منح ستيلين مكاناً تشريفياً قرب السيدة ريجليه، فنشأت مسامرة حيوية بينهما، أغدق خلالها المديح على «خالق سلاح الجو الألماني». أعجبت السيدة ريجليه بما قيل، فدعت الكابتن إلى منزلها في اليوم التالي ـ ليجد جورينج شخصياً في انتظاره. بعد تحية قلبية حارة، انفرد مارشال الرايش بستيلين وقال له من دون مواربة، حسب رواية الأخير[1]: «لدينا، بالمقارنة معكم، ميزة أننا بدأنا من لا شيء. ليس لدي غير المساعدين الديناميكيين والمفعمين بالخيال الخصب من ذوي الأفكار الحديثة، الذين يمكّنهم وضعهم من ابتداع الجديد، وبناء طائرات كتلك التي يحتاج إليها المرء منذ سنة 1937. ولقد أبعدت عني كل من أراد إعادة ربط ألمانيا بالماضي، بسنة 1918، بينما لن تفعلوا أنتم الشيء ذاته». حاول الفرنسي، الذي عقدت المفاجأة لسانه، الرد بلطف، لكن جورينج ضحك، قبل أن يمسك بذراعه ويواصل حديثه بتبجح: «إذا لم تغيروا المسؤولين عندكم، فإن ما نمتلكه لن يكون له قريباً أي وجه شبه على الإطلاق مع ما تمتلكونه. اذهب إلى القواعد الجوية، تفرَّج على التدريبات، وقم بزيارة مصانعنا، فليس لدي ما أخفيه عنك، وستحصل على تصور أفضل حول أفضل أسلحتنا». كان توفير إمكانية كهذه للحصول على المعلومات، فرصة لا تعوض بطبيعة الحال بالنسبة إلى الكابتن ستيلين، الذي عرف كيف يفيد منها، ويقيم صلة دائمة

(1) ستيلين: المرجع ذاته، ص 68.

مع الجنرال إرنست أودت، وقبل كل شيء مع الجنرال بودنشاتس. ثمة صداقة نشأت بالتأكيد بين الشيخين والشاب، حتى صار بودنشاتس، «المنفتح والمستقيم»، أفضل مزودي المساعد الفرنسي بالمعلومات. هنا، توضح «النظرة العامة لمجمل الظروف»، التي لم نمتلكها إلا اليوم، ما كان يحدث آنذاك، وإن بدا أن ستيلين لم يدرك تماماً أبعاده حتى يومنا، لذلك يكتب وقد أدهشته وفرة المعلومات التي كانت تعطى له وقيمتها: «. . . كنت مقتنعاً بالقدر نفسه أن بودنشاتس كان يقول لي أحياناً، من دون وعي منه، أكثر بكثير مما كان يريد قوله. على كل حال، وبغض النظر عن الطريقة التي يمكن للمرء أن يفسر بها المعلومات السرية، التي كانت تقدمها شخصية ألمانية في موقع مسؤول إلى مقدم في الاستخبارات الفرنسية، فإنني لم أعتبر بودنشاتس في أي وقت مخبراً. لقد أراد أن يخدم بلده، وأرجح أنه كان يعمل ضد خطط هتلر الحربية، بالاتفاق مع جورينج .

هل هذا ما أراده الرجلان حقاً؟. لا شك في أنهما كانا على قدر من الصراحة حيال رجل الاستخبارات الفرنسي، لأنهما كانا يتوخيان تحقيق هدف مشترك هو: إبقاء فرنسا خارج حرب كان هتلر مصمماً على شنها، ووسيلتهما إلى هدفهما تعريضها لـ «سلوك باهر»، كما نقول اليوم. لقد أرادا الإسهام في جعل الصراعات الوشيكة على حدود الرايش الشرقية تقتصر عليها، كي لا تنشأ عنها حرب عالمية جديدة. فقد كان جورينج يعرف أن توسع النزاع سيؤدي إلى تحويله إلى حريق عالمي، فقرر أن يكون صريحاً مع الفرنسي، كي يمنع نشوبه. ـ عملياً، بقي بودنشاتس آنذاك ناطق حكومة هتلر المؤتمن، لأنه قدم إلى ستيلين معلومات لا تقتصر على سلاح الجو الألماني. ذلك ما يؤكده الحدث التالي، الذي يستحق أن يحظى بإبراز

خاص، للطريقة التي يصفه ستيلين بها[1]: حدث الأمر مجدداً بعد دعوة إلى العشاء، دعا إليها هذه المرة السفير الفرنسي فرانسوا بونسيه أعضاء من حكومة الرايش وبعض الضباط ـ الألمان والفرنسيين ـ بينهم بودنشاتس وستيلين. بعد تناول الحساء، أعطى بودنشاتس إشارة إلى ستيلين فانسحب الرجلان إلى زاوية هادئة في غرفة جانبية، حيث قدم جنرال سلاح الجو الألماني إلى مساعد ملحق سلاح الجو الفرنسي خبراً لا علاقة له بسلاح الجو، يتصل بإجراء استراتيجي ينصب على دفاع ألمانيا الأرضي: بعد إبراز سلوك ألمانيا وموقفها السلمي تجاه فرنسا، أكد الجنرال «إرادة الفوهرر التي لا تتزعزع» في التخلص من أي مادة صراع مع فرنسا، وأضاف حرفياً: «تريد حكومة الرايش البرهنة على سلوكها السلمي تجاهكم، بإقامة خط دفاعي يمتد من بحر الشمال إلى سويسرا، على طول الحدود الهولندية / اللوكسمبورجية / البلجيكية / الفرنسية، يضمن تحصين حدودنا الغربية من خلال عدد كبير من المخابئ»، ما لبث أن ذكر تفاصيل حول نوعها، وتحدث عن قوة العمل التي ستقيمها وأورد أرقاماً حولها، بينها عدد أفواج المهندسين، الذي سيبلغ 65 فوجاً، وتجاهل أن من غير الممكن أن تكون هذه الأفواج «حقيقية» كلها، وأنها تشمل وحدات من منظمة تودت (الموت)، لأن الجيش كان يمتلك سنة 1938 حوالي 65 فوجاً، حسب السجلات المتوفرة، كلف ربعها بمهام خاصة كبناء الجسور وما شابه. أخيراً، أكد بودنشاتس مرة أخرى بإلحاح: «ليس لدينا أي نوايا عدوانية تجاه فرنسا، ولن نمس فرنسا بأي حال من الأحوال. كل ما نريده هو ببساطة إقامة قاعدة تفاوضية إضافية معكم ومع الإنجليز، تجعلنا نثق من حيادكم عند اندفاعنا نحو الشرق، الذي سيكون اقتصادياً بالدرجة الأولى». هذا

(1) ستيلين، ص 92-99: التحصينات الألمانية في الغرب، خط سيجفريد.

التوضيح، الذي ندين بمعرفته لستيلين، مهم من أوجه ثلاثة: أولها أنه يتم إعلام الفرنسيين ببناء جدار الغرب بطريقة غير رسمية، ولكن من شخص رسمي رفيع المستوى يحتل موقعا قياديا في القيادة العسكرية الألمانية. وثانيها أنه يتيح التلاعب باستخبارات فرنسا، بتقديم معلومات مبالغ فيها لها، يتطلب التأكد من صحتها نفقات كبيرة. وأخيراً أن هتلر استخدم أسرع الطرق، طريق الاستخبارات السرية، ليخبر الحكومة الفرنسية بأسلوب مطمئن ما كان يفكر فيه وينفذه. فضلا عن ما تقدم، أضمر التوضيح، الذي اتخذ شكلا تصالحيا، تحذيرا صريحا لفرنسا: يخبرها أن جيشها سيجد حدود الرايش الغربية جاهزة دفاعيا، إن هي تورطت في مغامرة تدخل عسكري ضده، مع بدء توسعه الوشيك في الشرق (النمسا، بلاد السوديت، تشيكوسلوفاكيا). هذا كله فهمته باريس بصورة صحيحة، كما بينت الأحداث التالية.

حققت المعلومة السرية النجاح المرغوب، فقد حركت جهاز الاستخبارات الفرنسية، الذي سارع إلى حساب الفترة الزمنية، التي تحتاج ألمانيا إليها من أجل تأمين أهلية الجدار الغربي الدفاعية، واستعان في حساباته بالوثائق الألمانية حول بناء ما سمي خط سيجفريد أثناء الحرب العالمية الأولى، مثلما يخبرنا ستيلين. وقد وجد الفرنسيون أن الألمان احتاجوا سنة 1916/ 1917 إلى تسعة أشهر كاملة لإكمال الخط: «بمقارنة سائر العوامل المعروفة، كطول التحصينات وعمقها، وحجم قوة العمل المستخدمة في بنائها، ومواد البناء المطلوبة وغيرها كثير، توصل ملحقنا العسكري إلى نتيجة تقول إن الأعمال الجديدة ستتطلب قرابة اثني عشر شهراً، وستستمر حتى صيف سنة 1939». وهذا استخلاص كان صحيحاً في قسماته العامة. ومع أن بناء الجدار الغربي لم يكن قد انتهى على كل حال بعد، فإن الهدف الرادع منه كان قد تحقق، في نهاية صيف سنة 1939 .

هذه النتيجة، التي تمخضت عن تقويم المسائل المرتبطة بـ«جدار الغرب»، تم إبلاغها بسرعة طبعا إلى الجنرال غاملان. منذ تلك اللحظة، اخذت القرائن جميعها تشير إلى تأثيرها على خطط شعبة العمليات الفرنسية. لقد ضلل «جدار الغرب» فرنسيو ذلك الزمن، الذين كانوا يفكرون بأكثر المناهج كمالا، لأنهم كانوا عازفين عن تأدية ضريبة دم مرتفعة جديدة، سيتطلبها، وفق تصورات الحرب العالمية الأولى، هجوم جبهي هو الوحيد، في حال لم تستخدم المدفعية الثقيلة والأثقل. هكذا برز الميل إلى السلبية والترقب، ريثما تلحق إنجلترا وفرنسا بألمانيا، وتتسلحان على أفضل صورة. لم يدرك الفرنسيون أن الزمن كان يعمل لصالح النظام الديناميكي، الذي كان يحقق قفزات تسليحية لا تني تتعاظم، أقله خلال السنوات التالية، وأن هذا النظام كان دكتاتورية هتلر.

بفضل مثل هذه الصلات البرلينية الوثيقة، تم خلال السنوات الأخيرة السابقة للحرب إغراق الاستخبارات الفرنسية بصورة رسمية بالمعلومات، من دون أن يكون ثمة حاجة إلى عملاء أو جواسيس من النمط القديم. وكما سبق القول، تدفقت المعلومات من بودنشاتس وأودت وجورينج شخصياً. هذا التدبير الألماني، تطلب بطبيعة الحال دعوة الجنرال فيومان، القائد الأعلى لسلاح الجو الفرنسي، إلى برلين، ليكوّن شخصيا صورة عن تسلح ألمانيا في مجال سلاح الجو[1]. وبالفعل، زار الجنرال الرايش منتصف آب/ أغسطس من سنة 1938، قبل فترة قصيرة من اتفاقية ميونيخ، يصحبه وفد يتألف من خمسة خبراء، حيث أمضى أياماً خمسة. يخبرنا هذه المرة مفتش سلاح الجو الألماني العام، إدهارد ميلش، الذي توفي في كانون الثاني/ يناير سنة 1973، كيف قدم معلومات للوفد وخدعه. بعد خطب الترحيب وتبادل

(1) إيرفينج، ص 115 وما يليها.

الأنخاب في صحة المستقبل السلمي، ركّب الألمان واحدة من أكثر الخدع تأثيراً في التاريخ العسكري الأحدث: لقد استقدموا جميع طائراتهم المطاردة السليمة إلى مطار كبير في جنوب ألمانيا، حيث كان مقرراً أن يقوم الجنرال فييومان بهبوط قصير. أما في أوغسبرج، فقد أتيحت له فرصة التعرف إلى طائرة مسر شميدت ذات الطراز الأحدث، أعني طائرة مي 109. وبينما عرضت طائرة ها 111في معامل هاينكل في أورانيانبرج قدرتها العجيبة على المناورة حتى بمحرك واحد، ثم رتيب الأمور بطريقة مكنت قائد سلاح الجو الفرنسي الأعلى من الاستماع إلى أصوات عشرات طائرات ها111 الجديدة تماماً وهي في قاعة الاختبار. أخيراً، بلغ العرض ذروته في زيارة تفقدية قام بها إلى منشآت الدفاع الجوي في المصنع، حيث كان الألمان قد فكروا بكل شيء ورتبوه، بما في ذلك الأقلام العشرة المدببة الرؤوس، التي وضعت في متناول أعضاء الوفد. وقد تأثر الجنرال الفرنسي بما شاهد إلى حد أنه صرخ: «لقد سحقت». بعد الانتصار الخاطف في الغرب سنة 1940، حظيت شعبة «الجيوش الأجنبية» و«سلاح الجو الأجنبي غرب»، وشعبة العمليات في القيادة العليا للجيش، بفرصة نادرة مكنتها من معرفة النهج الفرنسي في تكوين صورة عن العدو: فقد تم الاستيلاء على قطار في محطة لاشاريته على نهر اللوار، محمل بكميات كبيرة من الوثائق والمستندات الخاصة بالمقر العام الفرنسي، بينها تقويمات للأوضاع أجراها جاملان[1]، أكدت ما كان معروفاً بالممارسة، وهو أن المعلومات التي سربت إلى الفرنسيين فعلت فعلها، وأن هؤلاء بالغوا في قوة جدار الغرب، وعدد الفرق الألمانية وأساطيل سلاح جو ألمانيا، حتى إن القائد الأعلى الفرنسي اعتقد أن جيشه عاجز عن القيام بهجوم ضد تحصينات ألمانيا في الغرب، لأسباب أهمها أن

(1) ليس، ص252 وما يليها.

لدى ألمانيا قدرة على استخدام ما مجموعه سبعة آلاف طائرة هناك. لقد حققت الحرب النفسية السرية نجاحاً عملياً ضد الفرنسيين، بفضل المعلومات «السرية» التي أمدت بها استخباراتهم، وإن كانت لم تنجح في إبقائهم خارج الحرب.

obeikandl.com

الفصل الثاني

بين حلفاء مقبلين

تطورت، خلال السنوات الأخيرة السابقة للحرب العالمية الثانية، صلات شخصية على مستوى الملحق العسكري أيضاً بين الاستخبارات البريطانية والألمانية، لكنها كانت من طبيعة مغايرة لتلك التي قامت بين الألمان والفرنسيين. هنا، لم تكن الكلمة الفصل لاستخبارات سلاح الجو الألماني، بل كانت للجيش المحافظ، الذي كان يعتبر «فريدريكيا»، مثلما كانت البحرية تعد «قيصرية». أما إذاعة هذه الأحداث، التي جرت وراء الكواليس ويعرفها عدد قليل جدا من «العارفين بالوثائق»، فترجع بدورها إلى شاهد رصين من دائرة الملحقين العسكريين هو: اللواء اللاحق كينيث سترونج، وكان آنذاك ملحق بريطانيا العسكري الثاني في برلين، الذي رفد مذكراته الموسومة: «الاستخبارات في الحرب والسلم» بكتاب ثان هو «حملة الأسرار»، ضمّنه كشوفاً تستحق الاهتمام[1]. كان سترونج، الذي عاش منذ سنة 1937 في برلين، يتحدث الألمانية بطلاقة، وقد تعلمها بعد الحرب العالمية الأولى، بدءاً من سنة 1919، حين كان في المقر العام لجيش الاحتلال البريطاني بفيسبادن، كضابط في استخبارات الجيش. وقد اكتملت معرفته باللغة الألمانية فيما بعد، بسبب ميله إلى يهودية ألمانية، يتحدث عنها باقتضاب وبلغة كثيرة المعاني، ذلك أنهما أحبا بعضهما كثيراً، لكنهما انفصلا، فبقي عازبا.

(1) سترونج. الكتاب الثاني، الذي يتضمن فصلاً خاصاً عنوانه «ألمانيا»، ص 109-156.

هناك معلومات كثيرة في ما يخبرنا سترونج به، خاصة وأن كل شيء كان مختلفاً آنذاك عنه اليوم. صحيح أنه لم يجد في برلين مخبراً سخياً كبودنشاتس، لكنه وجد محدثاً جذاباً هو الرائد أولريش ليس، ضابط شعبة الأركان الثالثة، ورئيس «الجيوش الأجنبية غرب»، الذي كان وضعه يمكنه من خوض نقاشات متخصصة. تجاوزت الصداقة بين ضابط الاستخبارات البريطاني ونظيره الألماني الحرب والكارثة الألمانية، واستمرت حتى وفاة ليس سنة 1967، فكانت ضربا من استباق للتحالف المستقبلي، الذي قام بين البلدين. كتب سترونج حول علاقته بصديقه:[1] «خلال إقامتي في برلين، كان الرائد أولريش ليس قائداً لشعبة في الأركان العامة هي «الجيوش الأجنبية غرب». وكان يعرف إنجلترا خير معرفة، وعلى درجة رفيعة من التأهيل. ومع أنني لم أكن أراه بالقدر الذي أتمناه، فإنني تعلمت أن أقدر صفاته، هو الذي كان يتفهم وضع العالم غير الألماني أيضاً. وقد أتيحت لي الفرصة لتبادل الخبرات معه بعد الحرب». يعرج سترونج في كتابه الثاني على ليس ويكتب عنه بتفصيل ويعتبره «رفيقاً محبباً إلى أبعد حد، متوسط القامة، غض لون الوجه، مرحاً ومحباً للعمل، هو من جوانب كثيرة ضابط ألماني نموذجي». «لكنه»، يضيف سترونج، «لم يكن من أسرة عسكرية، الأمر الذي يعد غير عادي على الإطلاق. كان ليس يتحدث بطلاقة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية، وزار إنجلترا مرات كثيرة، حيث ألحق سنة 1934 بالبطارية الميدانية السابعة للمدفعية الملكية، حيث كسب أصدقاء كثيرين».

يقدم سترونج كشوفاً تتخطى إعلانات الصداقة، وتلقي أضواء على الجانب الآخر من الاستخبارات، فيحدثنا عن الاتصالات الرفاقية بين ضباط

(1) سترونج، ص 118 وما يليها.

الاستخبارات البريطانية والألمانية في برلين. ويصف كيف كانت الأمور تجري خلالها. كما يزيح الستار عن معطيات يمكن فهمها إن هي ربطت بظروف ذلك العصر. ويكتب على سبيل المثال بسخرية مفعمة بالتفهم عن تدابير احترازية اتخذتها قيادة القوات المسلحة لمراقبة التواصل الاجتماعي بين الضباط الأجانب والألمان[1]: عندما كان يدعو ضابطاً ألمانياً إلى الطعام، كان هذا يحصل دوماً على موافقة رؤسائه المسبقة. هذه الموافقة كانت تمنح، في حالة سترونج، من دون صعوبة، لأنه كان يعتبر صديقاً لألمانيا. أما في الحالات الأخرى، فكان على المدعوين تقديم تقرير في اليوم التالي عن الأمسية، وكان هناك نقاط رئيسة عليهم ذكرها بالتفصيل كأسماء من شاركوا في العشاء، والموضوعات التي تطرقوا إليها، ثم أشياء خاصة كثيرة. يقول سترونج: «أحياناً، كانت تترتب على هذا نتائج مضحكة، إذ كان المرء يتعرض في المناسبة الاجتماعية التالية إلى أسئلة يطرحها عليه ضابط أعلى رتبة، لهدف جلي هو التأكد من صحة التقارير التي وصلته». بيد أن الأمور لم تكن دوماً على هذه الحال في غرفة الحرب الأمامية، حيث لم يكتف المرء دوماً بطرح أسئلة متحفظة وتلقي أجوبة ديبلوماسية، في محاولاته تعيين وجهته وتلمس دربه إلى الحقيقة. وعلى العموم، فإن هذا لم يكن ضروريا أيضاً. يخبرنا سترونج وستيلين أنهما كانا يتحركان بحرية واسترخاء نسبيين في ألمانيا، حيث كان باستطاعتهما التأكد من أشياء معينة، رغم أنهما كانا يخضعان للمراقبة من حين لآخر. من الجلي أن قيادة الدولة الألمانية كانت تميل آنذاك إلى إظهار سلاحها، والتبجح بقوتها الجديدة أكثر مما كانت تسعى إلى إخفائها. لكن الملحقين العسكريين النابهين والمتفهمين من أمثال سترونج كانوا يصطدمون، عندئذ، بظاهرة غير متوقعة: هي أن قوة ألمانيا

(1) سترونج، الكتاب الأول، ص 67 وما يليها.

المتعاظمة وقدرات قواتها المسلحة الضاربة كانتا هما بالذات ما أقلق بعض أصدقائهم الألمان. لقد قيِّض لهؤلاء الأغراب أن يحصلوا على نظرة مفاجئة داخل هذه الثنائية، التي اخترقت خلال تلك السنوات سلك الضباط، وخاصة منهم ضباط الجيش. وإنه لشيء على جانب كبير من الأهمية أن يكون شاهد هذه الظاهرة بريطانياً، لأن تقارير الضباط الألمان إلى رؤسائهم لم تكن تحمل دوماً حقيقة مسامراتهم الاجتماعية، ما دام تضمينها فيها يعني الانتحار، ولأن بعض الضباط الألمان، وبالأخص متوسطي العمر منهم، ممن شاركوا في الحرب العالمية الأولى، كانوا كثيراً ما يذهبون بعيداً جداً في اعترافاتهم، كما يكتب سترونج. كانت الكحول وجو الزمالة الرفاقية يطلقان العنان لألسنتهم، وكان يلعب دوراً في هذا السياق معرفتهم أنهم بصحبة رجال أحرار. وقد كانت هذه الأمور تحدث بصورة خاصة عند الناطقين بالألمانية من الإنجليز، حيث كان المرء يستطيع التنفيس عن كربه إلى ساعة متأخرة، ويقول أشياء مفاجئة، يخبرنا سترونج بعضها: «كان عدد من الأصدقاء، الذين هم في عمري ورتبتي (رائد) حريصين على التخلص من تحفظهم في أمسيات كهذه، وكانوا يناقشون المعلومات الشديدة السرية حول ألمانيا، التي كنا نجدها قيِّمة بدرجة لا يمكن تقديرها». لا شك في أن اعترافات هؤلاء كانت ثمينة قيِّمة، فقد أظهرت المزاج الحقيقي، في سلك الضباط المتوسطين قبل كل شيء. وكان سترونج راضياً إلى حد ما عن هذه الاعترافات، وراغباً في غيرها، لكنه كان أيضاً فرحاً وحائراً، لأن الألمان يفعلون من دون تحفظ ما كان إنجليزي سيحجم بالتأكيد عن فعله. هكذا سأل الرواد والمقدمين الألمان، وكان بعضهم قد بدأ يزوره منذ فترة قصيرة وحسب: لماذا يتحدثون بهذا القدر من الصراحة. عندئذ، كان يتضح أنهم كانوا لا يريدون حرباً جديدة، خاصة إن كانت حرباً عالمية. لقد كانوا يخافون الحرب خوفهم الجحيم، ولا يرون سببا لتقويض ما تم بناؤه بنجاح،

من خلال مغامرات حربية تفتقر إلى الشعور بالمسؤولية. لهذه الأسباب، أحسوا بالتضامن مع زملائهم من الإنجليز خاصة. يفسر هذا صراحة الأحاديث الألمانية، كما يشهد عليها السير كينيث. هكذا كان هناك، إذن، إفشاء غريب للأسرار قبيل الحرب، لا ينضوي تحت أي ترسيمة موروثة: لئن كان الألمان يفصحون عن دواخلهم بهذا القدر من الانفتاح، فلأنهم كانوا يتوقعون أن تنقل اعترافاتهم إلى الجهات المعنية. نعم، لقد قالوا بصراحة إنهم يريدون استنفار الحكومة الإنجليزية، لتتصرف وتقاوم بفاعلية التجبر والغرور المنفلتين من عقالهما. وقد أخبرنا سترونج أنهم اقترحوا المبادرة فوراً إلى وضع فرقة إنجليزية في فرنسا، لإظهار وحدة التحالف القلبي، عسى أن يعيد هذا هتلر إلى صوابه، ويمهد الطريق أمام التفاهم الأوروبي.

لكن هذه المحاولات، التي كان باعثها الأمل واليأس، بقيت دون جدوى، حتى تجاه الحكومة الإنجليزية، التي توصلت من خلالها إلى معلومات ومعارف أقرب إلى الوضع الحقيقي من تقارير السفير هندرسون، أسير سحر هتلر. لقد واصل قدر أوروبا مساره، ثم تنامى إلى مأساة نزلت بالغرب في صورة حرب جديدة، وإلى كارثة حلت بالرايش الألماني وشعبه.

obeikandl.com

الفصل الثالث

موسكو والسرية الشاملة

كيف كان وضع الملحقين العسكريين الأجانب في موسكو أثناء هذا الوقت؟. ليس بوسع المرء التفكير بتعارض أكبر من التعارض الذي كان قائماً بين ظروفهم الحياتية وشروط عملهم في العاصمة الألمانية والسوفياتية خلال تلك الحقبة، حيث لم تكن هناك معلومات سرية تسرب أو يتم تداولها في زوايا هادئة، أو حوارات مفتوحة حول مشكلات الحرب والسلام المشتركة. كان الملحقون العسكريون العشرون، الذين قبل الاتحاد السوفياتي اعتمادهم، يعيشون فعلياً في معزل (جيتو). وذلك ما كان عليه وضع الملحق العسكري الألماني، إرنست كوسترينج، الذي ذهب إلى هناك بمؤهلات ممتازة، لم تتوفر في أي من زملائه، من شأنها أن تمكنه من إقامة صلات شخصية مميزة. زار كوسترينج موسكو في مهمة عسكرية لأول مرة بين عامي 1931 و 1933، عندما كان عقيداً. وزارها مرة ثانية بين عامي 1935 و 1941، عندما كان عميدا. لقد كان يتقن الروسية كأي روسي، لأنه ولد في روسيا سنة 1885 وتلقى تعليمه في مدارس موسكو العليا. كما كان يعرف النفسية الروسية بدقة، ويميل ميلاً شديداً إلى الشعب الروسي، ويعرف ما يجب أن يعتقده حول السادة الجدد للإمبراطورية العملاقة. لهذه الأسباب مجتمعة، تحتل مذكراته أهمية خاصة، فضلاً عن أنها غطت فترة تمتد حتى نشوب الحرب مع بولونيا، واستكملت من خلال تقارير رسمية كانت قد أرسلت إلى وزارة الدفاع الألمانية، وإلى أركان الجيش العامة ووزارة

الخارجية (بين أيلول/ سبتمبر سنة 1935 وأيار/ مايو سنة 1936)[1]. أضف إلى ذلك أنها تضم رسائل خاصة تتصل بعمله كان قد أرسلها إلى رئيس المقر العام الرابع في أركان الجيش العامة، العقيد ثم العميد يور. ف. تيبلزكيرش، وبدءاً من أيار/ مايو 1944 إلى خلفه ماتسكه، تصف الواقع السوفياتي. إن قصة حياة وتقارير ورسائل كوسترينج هي مصدر ثر وموثوق للمعلومات عن الاتحاد السوفياتي وتطوراته في تلك السنوات، أكد هذا المراقب العليم والخبير فيها أن المرء لن يعثر هناك على «الأوضاع» القائمة في بلدان كثيرة، وبالأخص في البلدان الغربية، وعليه إعداد نفسه للتعامل مع ديناميكية شمولية وتطور متسارع التقدم، الأمر الذي غالباً ما عجز الزوار الأجانب عن رؤيته.

لم تكن إمكانية التحرك الحر نسبياً متاحة للأجنبي في الاتحاد السوفياتي، خاصة إن كان ملحقاً عسكرياً، فقد تمت مرافقة الملحقين أو مراقبتهم، عندما كانوا يقومون بجولات رسمية في البلد. ولم يجرؤ أحد على إقامة علاقات اجتماعية بهم، بما في ذلك أصدقاء ومعارف كوسترينج من زمن طفولته في موسكو. أما في اللقاءات الرسمية، والمآدب والاحتفالات، التي كانت تدوم إلى ساعة متأخرة من الليل، فكان يحدث أحياناً أن تُشرب أنخاب، وتحدث عمليات تآخ عاطفية، غير أنه لم تجر أبداً حوارات سرية. إن ما كان يحدث في الاتحاد السوفياتي وفي الجيش الأحمر، كان محاطاً بجدار من الصمت، مداخله القليلة تحت حراسة مشددة. كتب كوسترينج يقول: «كان الروس يعرفون من الصحافة الأوروبية كل أمر عسكري مهم، في حين لم نعرف نحن شيئاً من الصحافة السوفياتية»[2]، حتى بدا وكأنه لا وجود لجيش أحمر بالنسبة لها، وسكتت

(1) كوسترينج، ص 93.
(2) المرجع ذاته، ص86.

عن أي شيء يمت إلى العسكرية بصلة.

تضيء إحدى القصص، التي يرويها كوسترينج، أوضاع موسكو في تلك الحقبة: التقى كوسترينج خلال استقبال احتفالي بالذكرى السنوية لثورة أكتوبر، ضابطاً روسياً كبيراً تعرف إليه في فترة سابقة، وأمضى معه ساعات ممتعة إبان زيارة قام بها إلى وحدات عسكرية. بعد عودته من المقاطعة، حيى الروسي الجنرال الألماني بصوت مرتفع ومرح، وجاء به إلى حلقة صغيرة من الضباط الشباب. بما أنه كان يتحدث الروسية بطلاقة كبقية الموجودين، تعالت حماسة الحاضرين بعد قليل، وتم تبادل الأنخاب واختلط الصخب بالضحك، مما أثار غضب الجالسين حول الطاولات المجاورة. عندما ظهر رئيس البروتوكول، وقال شيئاً في أذن «رئيسنا»، تم قطع الاحتفال بفظاظة، وانتهى لقاؤنا إلى صمت يشبه الموت[1].

لم يكن التجسس واستقبال «العملاء» بين مهام الملحق العسكري، لذلك لم يرسل أحدا إلى داخل البلد لتنفيذ مهام كلفه بها، كما قال كوسترينج ساخرا. إن واجبات الملحق لا تنصب على مجالات كهذه، بل تنتمي إلى الصعيد العسكري / السياسي الأعلى، حيث سرعان ما عرف المراقب اليقظ كوسترينج بوجود ميل شديد إلى التسلح والقوة العسكرية، وقد حذر رؤساءه في برلين من الاستخفاف بالجيش السوفياتي، وأشار إلى قدراته العامة، وإلى صناعة السلاح والصناعة الثقيلة السريعة النمو، التي كانت لها الأولوية في الخطة الخمسية، وبعث بتقارير حولها، تبين الاهتمام الذي كرسه لمتابعة التطور التقني والعسكري العام، وللتأكيد على حدوث تحسن نوعي مستمر في قدرات الجيش الأحمر، طاول أسلحته وتدريباته. هكذا جاء في التقرير الأولي حول عرض الأول من أيار/مايو: «إن ثياب

3 كوسترينج، ص 174.

القوات وتسليحها كانا جيدين بصورة لافتة، وكذلك تحسن ثياب «البروليتاريا المسلحة» التي مرت أمام منصة العرض (نحو 8000 رجل)[1].

تحتل الأهمية ذاتها ملاحظات كوسترينج حول «تطهيرات» سنتي 1936 / 1937 الإرهابية، التي لم تقتصر على أعضاء في الحرس السوفياتي القديم من أمثال زينوفييف وكامينييف وبوخارين وراديك وسواهم من ثوريي الساعة الأولى، بل شملت، كما هو معلوم، المارشال توخاتشيفسكي، الذي مثل الاتحاد السوفياتي سنة 1936 في احتفالات التتويج الملكية في لندن. وقد سقط، إلى جانب هؤلاء، ما يربو على خمسة آلاف من كبار الضباط والموظفين ضحايا للتصفيات، التي كتب كوسترينج عنها قائلاً: «تم تطهير الجيش الروسي من العناصر الصديقة لألمانيا بثمن باهظ أخذ شكل خسارة فادحة في قدرته العسكرية الضاربة، لأن مزاج الحكومة السوفياتية كان موجهاً بصورة صريحة ضد ألمانيا»[2]. لكن كوسترينج يرى أن سنة 1936 شهدت إعادة إرساء سياسة الاتحاد السوفياتي الداخلية على خط قومي، وعلى الإستعداد «للحرب الوطنية». فضلاً عن هذا، يحق للملحق العسكري الألماني تسجيل نجاح استخباري في رصيده، يدين به إلى تضامن ملحقي الأسلحة غير الشيوعيين، الذي لا يدخل ضمن ترسيمة تصوراتنا العامة، يرجع إلى أن هؤلاء كانوا يبقون متكاتفين، عندما كانت حكوماتهم تتعارض سياسياً بعضها مع بعضها الآخر، لأن مصاعبهم المشتركة كانت تجعلهم حلفاء، يتبادلون العون عند الحصول على المعلومات، الذي كان قد صار صعباً بصورة خاصة، فقامت بعد حين بورصة أخبار نظامية في موسكو، تبادل القوم فيها المعلومات السرية مثلما كانوا يتبادلون المواد العينية، التي

(1) المرجع ذاته، ص 96.

(2) المرجع السابق، ص 136.

يحصلون عليها من هذا المصدر الشحيح أو ذاك، حسب مبدأ «خذ وأعط». هنا، كان يجري تبادل حيوي للأخبار، وإن كان لا يجوز على كل حال الخلط بين بورصة أخبار موسكو وبين الثرثرة، التي نشرها في سويسرا عند بداية الحرب العالمية الثانية صحافيون غامضون بوصفها مواد إخبارية سرية، سنورد فيما بعد أمثلة عليها.

نجح تضامن الملحقين العسكريين الغربيين إحدى المرات في تخطي ألاعيب السرية السوفياتية. بالنظر إلى النقص في المواد المصورة عن الجيش الأحمر، خطر لمحلق يطل مسكنه على الميدان الأحمر خاطر عظيم ـ لا يذكر كوسترينج اسمه أو جنسيته ـ: فبينما كان هو نفسه يشارك كما في كل سنة في استعراضات الميدان الأحمر، حيث لم يكن يسمح بالتصوير، كانت سيدة المنزل تصور بكاميرا يدوية طوابير الاستعراض من نافذة منزلها المفتوحة، بطريقة يصعب مراقبتها من الخارج. بما أن التصوير تكرر لسنوات متتابعة، فإن تقويم الأفلام المصورة أظهر بطريقة قاطعة تحسن سلاح وتجهيز الجيش الأحمر، وارتفاع قدراته الضاربة.

هذا الفيلم كان أكثر المواد الاستخبارية أهمية، التي جلبها كوسترينج معه من موسكو سنة 1939، وربما تكون أسهمت في التقارب الألماني / السوفياتي. ذلك أن كوسترينج قدم مطلع سنة 1939 إلى برلين، بأمر من ريبنتروب ـ الذي صار وزير خارجية ألمانيا منذ 4/ 2/ 1938 ـ ليقدم تقريرا حول ما في حوزته من أخبار. خلال المحادثة الودية في برلين باغته وزير الخارجية بالسؤال الآتي: «يقال إنك تعرف فورشيلوف جيداً» . . . «نعم. . . على كال حال. . . ولكن». . . «باستطاعتك إذن أن تتناول قدحا من الشراب معه، وتخبره أننا لسنا قوما جد أشراراً». بعد موعد مع كايتل، أمر كوسترينج بالذهاب إلى هتلر ـ إلى اوبرسالزبرج ـ، حيث قدم تقريراً دام نحو ساعتين،

أنصت هتلر إليه بهدوء واهتمام ظاهرين، لفت كوسترينج خلاله نظره إلى الفيلم الذي في حوزته، والذي يقدم معلومات مهمة عن الجيش الأحمر، بلقطاته التي أخذت خلال سنوات كثيرة. هذا الفيلم كان مثار اهتمام عظيم، فقد قصته أول الأمر «الجيوش الأجنبية شرق»، ليستطيع مفتشو الأسلحة المختلفون تقديم تقارير خبرة حوله، ثم أعيد لصقه من جديد وعرض في النهاية على هتلر، الذي بدا شديد التأثر بما رآه، وخاصة بشخصية ستالين. بدورها، حققت التحذيرات الأخرى نجاحاً جسده تقارب القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية صيف سنة 1939 مع موسكو، عبر صلات ديبلوماسية تمنحه التغطية الضرورية عند نشوب الحرب، التي كان ينوي خوضها ومن المستحسن إبقاء القوى الغربية بعيدة عنها، لذلك سربت إليها طوعاً المعلومات اللازمة جميعها حول قوة القوات المسلحة الألمانية، فإن تم ردعها وتخويفها من جولة قتال جديدة، يكون قد جاء وقت الغنيمة الكبرى، التي تمثلها مخازن قمح أوكرانيا.

3

المنظورات الجديدة

المخابرات بأعين إنجليزية
مخابرات بدون جواسيس وعملاء مأجورين
عن جدارة الجاسوسية
انتقال نقاط ثقل العمل الاستخباري

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

المخابرات بعيون بريطانية

أممية أخرى

إنه لأمر مجد أن نكب بدقة وجدية أكبر عن الأدبيات، التي جعلت من أجهزة الاستخبارات قبل سنوات الحرب وبعدها موضوعا لها. ذلك سيصل بنا إلى استنتاجات تستحق الاهتمام، وسيجعلنا نبلغ النتيجة المفاجئة، وهي أن أعلى حملة الأسرار في الغرب وأكثرهم أهمية كانوا يعرفون جميعهم على وجه التقريب بعضهم بعضاً، ذلك أنهم التقوا قبل الحرب، وانعقدت غالباً أواصر الصداقة بينهم، والتقوا من جديد بعد الحرب لتبادل التجارب، مع أنهم ـ وهذه هي الإثارة الحقيقية في القصة ـ تجابهوا كأعداء بين عامي 1939 و 1945. لم يكن هذا حال الجنرالين جيهلن وويديماير وحدهما، اللذين سيكون لدينا ما نقوله عنهما، بل هو ينطبق بصورة خاصة على الرجل الأول في الاستخبارات العسكرية الغربية الحليفة، السير كينيث سترونج وعلى خصمه الألماني حتى سنة 1943، اللواء اللاحق أولريش ليس، رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية غرب» في القيادة العليا للجيش الألماني.

كان هذان العسكريان الرفيعا المقام بالذات غريمين في لعبة واحدة، تقيداً بطبيعة الحال بقواعدها المشتركة، فربطهما ضرب من زمالة رياضية لم تستبعد التنافس بينهما، بل أعطته معنى اللعبة الصراعية، كما بلورها يوهان

هويزنجا بقوة في كتاب هومو لودنس[1]، الأمر الذي لم يسبق أن حدث مثيل له بين الجواسيس.

ثمة مفاجآت يحفل بها أدب المذكرات، المكرس للاستخبارات. منها، على سبيل المثال، أن أكثر الناس سرورا بالمنظور الإنسانوي هم أؤلئك الذين يسميهم الكتّاب حملة الأسرار، الذين كتب سترونج ملحقا خاصا بهم في مذكراته الموسومة رئيس استخبارات في الحرب والسلم، حيث وصف مرة أخرى بطريقة ملموسة شخص وإنجازات ليس في فصل «ألمانيا»[2]، وثمَّنهما بموضوعية. هنا، يعبر التعاطف المتبادل عن نفسه بسلاسة، وكذلك الرضى عن المعرفة المشتركة بأسرار الدولة والأسرار العسكرية، التي رفعتهما سوية فوق كتلة الضباط المماثلين لهما في المنصب. كتب سترونج يقول عن ليس: «وجدت فيه رفيقاً لطيفاً إلى أعلى درجة ومعجبا ببريطانيا العظمى والإمبراطورية البريطانية». من جانبه، كان سترونج يقدر الألمان، كما تشير إلى ذلك كتبه مراراً وتكراراً، وكان يحترم ضابط الاستخبارات الألماني، الذي كان ليس يجسده، ولا يخفي شعوره بالإعجاب حياله. وقد قال، في سياق التأكيد على عمل ليس ومعاونيه المثير للتعاطف: «كانت خطط إعلان التعبئة الفرنسية من أكثر أسرار فرنسا تمتعا بالحماية، وكان ليس وزملاؤه مهتمين بها بطبيعة الحال. وقد نجحوا بتكوين صورة صحيحة تقريبا حولها بفضل تحليلاتهم الدقيقة لردود الأفعال الفرنسية في الأزمات المختلفة، التي وقعت في سنوات ما بين الحربين، وتقصيهم المتقن للتغيرات التي شهدتها

(1) أشار الباحث الهولندي المهم في التاريخ وفيلسوف الحضارات يوهان هويزنجا (1872-1945) في كتابه الشهير الصادر سنة 1938 إلى طابع اللعب في الحرب التي يتم خوضها بفروسية. دائرة معارف روفولت الألمانية، الجزء 21، هامبورج 1956، ص 90-104: الفصل «اللعب والحرب».

(2) سترونج: الكتاب الثاني، ص 109-154.

شبكة السكك الحديد الفرنسية. وقد كان بوسعهم مراقبة أي تفصيل، عند إجراء تعبئة عامة في القوات المسلحة الفرنسية، واقتراح تدابير معاكسة ليست على قدر من الشدة يجعل لها تأثير الاستفزاز، وليست في الوقت نفسه على قدر من الضعف يجعلها عديمة القصد والهدف[1]. أو بكلمات أخرى: لقد تم بفضل حدة العقل والمنهج الصائب وموهبة الربط بين التفاصيل الحصول على معلومات تفوق تلك التي كان يمكن اكتسابها بفضل جموع العملاء، الذين كان يمكن تكليفهم بالتجسس على خطط التعبئة العامة الفرنسية. ويبرز سترونج في ليس أنه كان صديقا عظيما للخيول وعارفا خبيرا بها، وتاليا خيالا ممتازا ربح جوائز في 46 مباراة كبيرة. ويقول إن هذا الشغف النبيل أقاد خلال الحرب وحدة عسكرية أجنبية، كانت من الفرنسيين هذه المرة، ففي شباط/ فبراير من سنة 1939، سنة نشوب الحرب العالمية الثانية، تميز فريق مدرسة الفرسان الفرنسية سومور في مهرجان ركوب الخيل وقيادتها في برلين، وحصد الاستحسان والإعجاب بسبب رشاقة فنون الركوب وخفتها التي أظهرها. اشتبكت مدرسة الفرسان هذه يوم 19 حزيران سنة 1940 مع لواء الفرسان الألماني الوحيد، وأبدت مقاومة عنيفة على معابر نهر اللوار. بعد الهدنة، تدخل ليس، وكان لا يزال عقيدا، لدى قيادة الجيش العليا، وأقنعها بالسماح لضباط وخيالة وأحصنة مدرسة سومور للفرسان بالالتحاق بالمنطقة الفرنسية غير المحتلة، أي بعدم معاملتها كغنيمة حرب للمنتصر. كتب ليس عن هذه النتيجة: «بلغت علاقات الجيشين الألماني والفرنسي نقطة الذروة مع عرض «الإطار الأسود» لمدرسة سومور لتدريب الفرسان على الرقص الرباعي بالخيول في مهرجان شباط/ فبراير سنة 1939 في برلين، الذي أقنع عدو الخيول والفرسان هتلر بتأسيس مدرسة ألمانية مشابهة، كان يجب

(1) سترونج، الكتاب الثاني، ص 127.

أن توجد منذ سنوات. من كان يظن آنذاك أن لواء الفرسان الألماني الوحيد سيخوض بعد ستة عشر شهراً قتالا ضاريا ضد تلامذة ضباط سومور من أجل السيطرة على جسر اللوار. بعد الهدنة عبرت خيول التدريب والقفز التابعة لمدرسة فرسان سومور بطلب فرنسي خط الجبهة إلى موقع المدرسة الجديد في تارب على نهر البيرينه، مخترقة الجيش الألماني بالعرض، يقودها رئيس الفريق الكولونيل دوليساردبير، الذي كنا نعرفه جيدا من زمن السلم[1].

ليدل هارت والاستخبارات

كان يوجد ثمة أممية فروسية في حينه، واحترام متبادل معترف به بين الجنود، يتخطى الحدود، يشمل حملة الأسرار حتى خلال الحروب، خاصة منهم أصحاب المناصب الأعلى. فلا يستغربن المرء، إن هو قابل رجلا ينتمي إلى هذه المجموعة، مع أنه لم يكن، والحق يقال، على علاقة مباشرة مع الاستخبارات، مع أن عقله الأريب يجعله من المتخصصين في عملها، هو ليدل هارت، الكاتب العسكري البريطاني الأعظم، الذي ألقى يوم 24 تشرين الأول/أكتوبر سنة 1941، في حمأة الحرب العالمية الثانية، محاضرة حول جهاز الاستخبارات السري، كانت على درجة من الموضوعية والتسامي عن التحزب، جعلت مجلة الدفاع الألمانية الشهرية، المختصة في سائر مسائل الحرب، المسماة علوم الدفاع، تعيد نشرها بعد عشرين سنة[2] بالألمانية، من دون أن تغير كلمة واحدة منها، تأكيداً لتطابق رئيس بين التصورات الألمانية والإنجليزية في هذا المجال. يقول ليدل هارت في مطلع محاضرته: «يعرف كل من درس تاريخ الحرب بجدية أن أساتذة الجاسوسية من الرجال والنساء، الذين يلوح شبحهم في الحكايات الشعبية، لعبوا دوراً

(1) أولريش ليس: الجبهة الغربية 1939-1940 .بيكرمانجيموند 1959، ص51.

(2) علوم الدفاع، تشرين أول/أكتوبر 1961، ص645 وما يليها، وكذلك ص 648.

ضئيلاً نسبياً في الحروب الفعلية، وفي عمل أجهزة الاستخبارات حسنة الأداء. ذلك أن عدداً قليلاً من هؤلاء العملاء كان يمتلك المعارف العسكرية الضرورية، التي تمكنه من فهم ما يحصل عليه من أخبار. كما أن معظمهم كانوا غير موثوقين». كانت الحرب في عامها الثالث، حين كتب هذا النص. بالمناسبة، كان ليدل هارت على قدر من الاستقامة دفعه إلى تجاوز الأعمال العدائية الناشبة بين بريطانيا العظمى وألمانيا، والإقرار بأن العسكريين الألمان تعلموا منذ الحرب العالمية الأولى الكثير في مجال الاستخبارات السرية أيضاً، وجعله يؤكد في كل مناسبة على مؤهلاتهم العسكرية الرفيعة. من المعروف أن كل كتاب عسكري يصدر على سبيل المثال في إنجلترا سرعان ما يعرف في ألمانيا، ويثير اهتماماً أكبر بكثير مما يثيره في بلده الأصلي، كما يناقش الألمان كل إصدار جديد له. هذا الحاجة الحية إلى المعلومات ترجع طبعا بالفائدة على استخباراتهم، التي تعرف كيف تقوِّم أي كتاب جديد، فتبقى «دوماً متألقة». كمثال على ذلك، يقدم ليدل هارت حكاية مسلية يدين بها إلى الجنرال فوللر، الكاتب العسكري البريطاني الآخر الشهير: عاد فوللر مرة أخرى إلى ألمانيا، وهو ما حدث مراراً في فترة ما بين الحربين، حيث كان يعتبر ضيفاً مرحباً به في القيادة العليا للجيش، باعتباره صديقا لألمانيا وخبيراً متميزاً في القضايا المتعلقة بسلاح المدرعات. وقد زار القسم الذي كان يجمع معلومات من روسيا، المسمى «الجيوش الأجنبية شرق»، حيث عثر على ملف كبير الحجم عنوانه «فوللر»، جمع وسجل المعالج المختص المقالات، التي كتبتها الصحافة السوفياتية عن فوللر ونظرياته، مع تحليل مسهب لكل مقالة، يعرّف بما أثار اهتمام الروس أكثر من غيره فيها، واستخلاص انعكاساتها على تكتيك سلاح مدرعاتهم الفتي وتنظيماته. هذه الطريقة تركت انطباعاً عظيماً لدى فوللر، بحسب ما أخبر ليدل هارت مسمعيه به، بينما كان ينصحهم باتباعها.

ماذا يطلب ليدل هارت من ضابط استخبارات مجد؟. إنه يطلب شهوة المعرفة والعمل والمنهجية العلميتين. ويلخص مطالبته في نقاط خمس، أقدمها هنا باختصار لا يخل بمعناها. يتفق ليدل هارت عموماً مع النظرات الألمانية، فيطالب بـ:

1 ـ التمكن من اللغات الأجنبية، ومعرفة جدية بتاريخ وجغرافية واقتصاد البلد المراقب، ومعرفة روح شعبه، وطبيعته القومية، وعقيدته العسكرية، وقبل كل شيء ظروفه السياسية.

2 ـ القدرة على تجميع «مزق أخبار» وتكوين كل منطقي منها.

3 ـ الفضول وشهوة المعرفة الهادفة بما هي باعث رئيس «للبحث حول العدو». كان ليدل هارت يعتبر هذا كله المبدأ الديناميكي والرجولي للاستخبارات.

4 ـ دقة التحليل والسلوك النقدي حيال «المصادر»، مثلما هو الحال في تدوين التاريخ.

5 ـ موضوعية لا مفر منها في جميع الأحكام !. لا يحق لضابط الاستخبارات التراخي حيال أي تصورات رغبية، سواء أكانت تصوراته أم تصورات رؤسائه.

هذه النقطة الخامسة من طبيعة حاسمة غالبا، كما يؤكد تاريخ الحرب. لذلك، لا يكفي بأي حال أن ينجز ضابط أو ضباط الاستخبارات تحليلاتهم للأوضاع، ويقدموها بصياغات موفقة إلى الجهات الأعلى أو يقرأها في حضورها، بل يجب عليهم أن يجدوا آذاناً صاغية «فوق»، بقوة أحكامهم المعللة، وإن واجهوا المصاعب بسبب ذلك. ولا يجوز لهم بأي حال مسخ تقويمهم للعدو بتحويله إلى تقارير كيفية، كما كان يحدث غالباً، الأمر الذي يبين مرة أخرى كم يحتاج معالجو أوضاع العدو في هيئات القيادة العسكرية الأعلى إلى قوة الطباع والحنكة في عملهم. يمتلك ليدل هارت من النزاهة

1. هتلر والجنرال ألفرد يودل يدققان مخططات الجبهة السوفيتية.

2. تشرشل مع أنتوني إيدن (إلى اليسار) والجنرال جورج مارشال، والجنرال دوايت إيزنهاور، وخلفه برنارد ل. مونتغمري (واقفاً إلى اليمين).

obeikandl.com

3. ستالين مع أركان حربه.

4. ستالين وروزڤلت وتشرشل في اجتماع طهران سنة 1943.

6. الجنرال إريك مانشتاين في عربة قيادة معركة لينينغراد مع الجنرال شولتز والجنرال آيسمان.

5. الجنرال رومل على مصفحة في صحراء ليبيا سنة 1941.

7. الجنرال هاينتس غودريان في عربته يتفقد قواته في شباط/فبراير 1943.

8. الجنرال فالتر فون براوختش (إلى اليمين) والجنرال فراتز هالدر.

9. قائد سلاح الجو الجنرال فيلد مارشال إريك ميلش.

10. قائد البحرية الأدميرال إريك ريدر مع الأدميرال كارل دونيتز.

ما جعله يبين بمعونة حدث وقع خلال الحرب العالمية الأولى كيف تم التجني آنذاك على الحقيقة. وهو لا يراعي المارشال اللاحق دوغلاس إيرل أو هايج، قائد الجيوش البريطانية الأعلى في شمال فرنسا والفلاندرن، الذي لم يكن قليل الأهمية بين قادة الحرب العالمية الأولى، وسجل سنة 1917 نجاحات هجومية، توصل بنتيجتها إلى ضرورة القيام بهجوم بريطاني منفرد في الفلاندرن ـ من دون دعم فرنسي، وهي فكرة سرعان ما ملكت عليه لبه، وجعلته يرتكب خطيئة تتعارض وروح الاستخبارات. آمن العميد جون شارتيريس، رئيس استخبارات هيج، الذي كان من أركانه في الهند، برأي ساذج جعله يعتقد أن من واجبه دعم نوايا قائده الأعلى، أياً كانت. لذلك زود العميد هيج بأرقام مبالغ فيها حول خسائر الألمان، أخذها هذا معه إلى إنجلترا، حيث كان يريد إذنا بالهجوم المنفرد، وقام من جانبه بمزيد من المبالغة في خسائر الألمان، إلى أن زايد على نفسه وزعم أن الاحتياطي الألماني سينتهي في نهاية السنة. عندما تمت الموافقة على هجوم الفلاندرن، تجاهل هيج ورئيس استخباراته العوامل، التي يلح عليها ليدل هارت بصورة خاصة، وهي:

1 ـ المناخ: حسب المعطيات المناخية في السنوات الثمانين الأخيرة، لم يكن ممكناً توقع فترة من الطقس الجيد تتجاوز الأربعة عشر يوما في الفلاندرن.

2 ـ الأرض: كانت الأرض في الفلاندرن أرض مسير في معظمها مليئة بمصارف المياه. وكان من المؤكد أن نيران المدفعية، التي ستدمر مصارفها، ستحولها إلى مستنقع، سيجعل من الصعب استخدام «دبابات» السلاح المدرع الجديد، أو سيعيقه بدرجة كبيرة.

من المعروف أن هجوم الفلاندرن، الذي قام به هيج في تشرين الأول/ أكتوبر من سنة 1917، قد فشل: فقد غرق في مستنقعات بناشندال المخروطية. وبدلاً من أن يناقش الوضع بصورة شاملة، انصاع المخططون

للفكر الرغبي، ولم يدرك القائد الأعلى ورئيس استخباراته أهمية امتلاك تقويم دقيق للحقيقة في الحرب، ولم يفهما أن هذه يجب أن تقال بصراحة، ما دامت القضية لا تتعلق فقط بانتصارات أو إخفاقات عسكرية، بل بوقائع وحيوات بشرية. إن من يعالج أوضاع عدوه، يجب أن يراعي اللحظات المشخصة جميعها، التي يمكن لهذا الإفادة منها. ولا يجوز أن تتوقف حساباته عند قوته أو ضعفه العدديين. وعليه أن يأخذ في حسبانه الصعوبات المحتملة، قبل أن يقلّب القادة أو القائد الأعلى الأمور على أوجهها المختلفة، ويقرروا ما إذا كان باستطاعتهم، أو باستطاعة وحداتهم، تحقيق الأهداف المحددة، بما لديها من وسائط وقدرات.

لا شك في أن ليدل هارت كان شجاعا، حين بادر إلى الاعتراف بفشل قائده هايج، وحلل إخفاقه دون تحفظ. إنه لم يفعل هذا لرغبته في ممارسة نقد سلبي، بل من أجل استخلاص العبر مما جرى، ولإضاءة الوعي بالمسؤولية. يقول الكابتن ليدل هارت: «إن الثقة والقدرة على التقرير هما الصفتان الجوهريتان للقائد. لكنهما من دون أهمية وخطرتان بالنسبة لعمل رئيس استخباراته، حيث تتجسد الخدمة الجيدة، التي يقدمها إلى آمره، في الروح العلمية الصارمة والنهج العلمي الدقيق. إن تشجيع الآراء المسبقة، النابعة من ولاء مغلوط، هو الخدمة الأشد سوءاً التي يمكن للاستخبارات تقديمها». يكشف الإنجليزي بأقواله هذه الإشكالية الأصلية لجميع أجهزة الاستخبارات. وهنا تكمن جدارته التاريخية. إلى أي حد يستطيع نقيب أو رائد فرض نفسه في مواجهة جنرال، ولواء في مواجهة مارشال ميداني أو الآمر الأعلى؟. لم تخترع بعد الوصفة، التي تعطي الحق لمعالج معلومات من رتبة أدنى، وتمكنه من القفز فوق المبدأ العسكري الموروث، الذي يقول: الأمر هو الأمر، ومن إطاعة الأمر الوحيد الذي يوجد بالنسبة له: «أمر ضميره». إلى هذا، يؤكد الكاتب العسكري في محاضرته تأكيداً شديداً

على صفة أخرى، من الضروري أن يمتلكها كل ضابط استخبارات جيد، هي قدرة التصور الخلاقة. «إنها القدرة على رؤية ما يجري على الجانب الآخر من التل، ووراء خطوط العدو، وفي رأسه»، حسب تعبير ولينجتون. «إنها أكثر من موهبة ملاحظة ورصد الوقائع، وهي القدرة على جعلها حية، وعلى رؤية الوضع الذي ينشأ في الوقت المناسب، بحيث يمكن اعتراضه قبل أن يتطور إلى وضع جديد، غير ملائم»[1]. إن قدرة التصور الخلاقة هذه، تلد، متى قامت على أرضية علمية، ما يسمونه الحدس، أي «الإحساس الاستباقي بالحقيقة، الذي يوجه السلوك». هذا ما يقوله كلاوزيفتز عن هذا الموضوع، قبل أن يضيف محذرا: «إذا ما نسبت هذه الموهبة إلى الخيال، فإن هذا يكون تقريبا هو الخدمة الوحيدة، التي تطلبها الفاعلية الحربية من هذه الإلهة الطليقة، مع أنها تفسدها أكثر مما تفيدها»[2]. يقول كلاوزيفتز هنا كلاما صائبا بالمعنيين الإيجابي والسلبي.

في حالة هتلر، يصدق من دون تحفظ القول بتأثير الخيال المخرب على إدارة الحرب، التي لم تخضع لأي تفكير علمي، ولم تر إلا ما أرادت رؤيته، فخرجت أكثر فأكثر عن سكتها، وافتقرت إلى الثقل الموازن، الذي يمتلكه رئيس استخبارات يتمتع بالصلاحيات اللازمة ويكون مكانه «فوق». ولكن من كان يقدر أن يكون صنواً لهتلر، بعد انتصار سنة 1940 في الغرب، الذي ملأ طبيعته بالعناد؟. يقول كلاوزيفتز، هذا العارف العظيم بالبشر، ما نريد التأكيد عليه بإلحاح، استكمالا لأفكار ليدل هارت[3]: «ليس العناد خطأ العقل المدرك، بل هو معاندة ضد الفهم، لا يمكن أن تتكرس من دون تناقض داخل هذا العقل بما هو ملكته (الفهم). العناد هو خطأ الطبع. إن

(1) المرجع ذاته، ص648.
(2) كلاوزيفتز، ص 59.
(3) كلاوزيفتز، ص 57.

تيبس الإرادة، والإستثارة ضد ما يقوله الآخرون، يرجعان إلى نوع خاص من عشق الذات، يجسد أكثر من أي شيء آخر متعة السيطرة على الغير عبر فاعليه العقل الخاصة. ونحن سنعتبره ضربا من الغرور، مع أن الغرور يكفيه الظاهر، بينما يقوم العناد على التمتع بالأمر، فهو يصر على أنه على حق حتما، أو كان على حق حتما، كما أود أن أضيف.

يعاني ضباط الاستخبارات على الدوام من العناد والمكابرة. وعلى سبيل المثال، فإن الأميرال كاناريس، لم يكن يمتلك، سواء من حيث التنظيم أو من حيث الممارسة، المتطلبات التي يجب توفرها في رئيس استخبارات حقيقي يعمل في خدمة هتلر. وهو لم يعين في منصبه كي يمده بمعلومات صحيحة عن الوضع العام، ولم يكن بمقدوره إطلاقا القيام بهذه المهمة، بل عين من أجل إدارة جهاز الإبلاغ السري، الذي غالباً ما حصل على أخباره بطريقة مغامرة، أو عبر مشاريع مفعمة بالمغامرة، كتلك التي قامت بها الشعبة الثانية بمساعدة «البراندنبورغيين»، وحظيت بإعجاب هتلر، لأنها أثارت خياله، ولأن استراتيجيته مالت أكثر فأكثر إلى الوهم، مع أنه لم تنجم عنها في أي وقت نتائج تقارب ولو من بعيد تلك التي ترتبت على نشاط لورانس العربي إبان الحرب العالمية الأولى[1].

من مركز الاستخبارات البريطانية

مثلما وجد الألمان في شخصي الجنرالين ليس وجيهلن خبيرين بارزين في الاستخبارات الحديثة، امتلك الإنجليز بدورهم خبيراً متميزاً فيها هو اللواء السير كينيث سترونج، الذي حقق إنجازات خارقة، بمعونة مبادئ

(1) توماس إدوارد لورانس، 1886-1935، آثاري وباحث لغوي، نظم في الحرب العالمية الأولى كوكيل لبريطانيا ثورة العرب ضد الأتراك.

وطرق تقدمية. ومع أن ضربا من القرابة الاختيارية كان قائما بين الضابطين الألمانيين وقرينهما البريطاني، فإن الأخير وجد نفسه في موقع أفضل بمعنى الكلمة، لأن المنظمة، التي قاد استخباراتها العسكرية، بقيت متوطنة في التقاليد البريطانية، التي وهبت مجتمع الرجال الإنجليز أنماط سلوكهم الحرة، وجعلت الاستخبارات البريطانية الأفضل والأنجح بين استخبارات الدول الأوروبية المنخرطة في الحرب[15]، وهو ما نجم بالدرجة الأولى عن أنها كانت منظمة بأسلوب يكفل لها تحقيق مهام موزعة بطريقة عقلانية، وأن منسقها كان ديبلوماسيا يضع السياسة في أعلى سلم أولوياته، وله صدقية لدى الحكومة، التي لم تكن تتردد، من حين لآخر، في تجاهل المعلومات التي يقدمها إليها، ولأنه كان يجب على جهاز الاستخبارات السري أخذ ما هو إنساني ـ إنساني إلى أبعد حد ـ بالحسبان. إنها لإثارة ما بعدها إثارة أن نرى بأي تلقائية يخبرنا كتّاب المذكرات البريطانيون بهذا، وكيف يحجمون عن محاكاة الألمان في بناء «الأبطال» وفي إضفاء طابع مثالي على بواعثهم، وكيف تحتجب الأعمال الحقيقية في نور أضوائهم الباهرة.

إذا بحث المرء عن اسم بيل كافنديش ـ بينتينك في الأدبيات الشعبية حول أجهزة الاستخبارات السرية، فإنه لن يجده. كما أن هذا الاسم لا يذكر في مراجع تاريخ الاستخبارات السرية، التي وضعها ماكس جونسنهويزر[1]. بدوره، لا يذكره بوشهايت في نظرته الشاملة: القوة المغفلة. كان سترونج أول من ذكره في كتابيه، اللذين ظهرا منذ سنة 1968، وقدما للرأي العام العالمي[16]. وقد فعل هذه لسبب واضح هو أن كافنديش لم يرتبط بصلة مع الجاسوسية من النمط المثير، رغم أنه كان من الصف الأول بين حملة

(1) جونسنهويزر، ماكس: تاريخ جهاز الاستخبارات السري، تقرير عن أدبياته وبيبلوغرافيا. 434 صفحة، فرانكفورت على نهر الماين، 1968.

الأسرار. مهما يكن من أمر، فإن سترونج منحه أفضل شهادة، عندما أخبرنا عنه[1]: «عندما دخل بيل كافنديش إلى المنصة في تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1939، كانت الاستخبارات البريطانية عرضة لفوضى شديدة وتبحث عن قيادة ملائمة. وكان تولي كافنديش قيادتها إسهامه الأعظم فيها خاصة وفي المجهود الحربي عامة. .. فقد عرف بعد حين أنه يجب تطويرها على أسس تنظيم تخطيطي فعال، إذا كان يراد لها أن تؤدي وظيفة مفيدة في المجهود الحربي، وتلعب الدور اللائق بها». كمنت السمة الخاصة لمنسق جهود الاستخبارات البريطانية الفائق النجاح هذا خلال الحرب العالمية الثانية في بساطته وعدم ميله إلى الظهور. وقد بقي بعد نهاية الحرب وراء الكواليس أيضاً، فلم يكتب مذكراته أو يسمح بوضعه تحت أنظار الرأي العام، عبر المقابلات الصحفية. كل ما في الأمر أن أحد معاونيه، رجل ثقتنا سترونج، كسر الصمت المضروب حوله، ووصفه بالطريقة الحية التي ينفرد بها الأنجلوساكسون، ممن توجه خفة الدم ومعرفة البشر أقلامهم. إليكم الآن تخطيطا أوليا لصورة الرجل: «اكتشف زملاؤه فيه رئيسا ممتازا، تميز بالحصافة، والتلقائية، وحسن الطوية، يحرص، بنظرته الذكية الماكرة التي تخترق صميم الأشياء، على الاتكاء على ظهر مقعده وقد ضم رؤوس أصابعه بعضها إلى بعض، ليستمع بأناة، ويحافظ على موضوعية الأحاديث التي يتابعها، بالتدخل من وقت لآخر بطريقة تخالطها مسحة مزاح خفيف، يكسر بها حدة تعارضاتها. وبما أنه كان يمتلك تشاؤم ضابط الاستخبارات الجيد، فقد بقي دوماً متقدما على بقية أعضاء اللجنة بمسافة عظيمة».

رسم سترونج صورة حية عن زملائه أيضاً، تصحبها مسحة من السخرية بطبيعة الحال، تبرز بعض الشيء ما كان نموذجيا فيهم[17]. وهو يصف زميله من

(1) سترونج، الكتاب الثاني، ص 186.

سلاح البحرية بالطريقة الآتية: «تبنى رئيس استخبارات البحرية، نائب الأميرال جون جودفراي، السلوك التقليدي لاستخبارات سلاح البحرية البريطاني، الذي آمن دوماً بتفوقه على استخبارات الجيش وسلاح الجو. وكان حريصاً على النظر إلى رجال الاستخبارات ذوي الآراء المغايرة لآراء استخباراته كـ «بحارة مشاكسين» لا بد من معاقبتهم بشدة. لقد كان من دون شك الشخص المهيمن بين رؤساء استخبارات فروع القوات المسلحة الثلاثة، وأستاذ التعميمات. ومع أنه لم يكن هناك قضية واحدة من طبيعة بحرية صرف، فإنه رفض بحدة أي ميل إلى تجاهل نفوذ البحرية المحتمل عليها». يضيف سترونج أن بقية رؤساء الاستخبارات كانوا مجرد أفراد، بمن فيهم هو ذاته. لهذا السبب، كان على مؤهلات كافنديش الديبلوماسية أن تثبت جدارتها، ومع ذلك فقد حدث ما كان يعتبر في البداية مستحيل الحدوث: فقد سارع رؤساء استخبارات فروع القوات المسلحة الثلاثة، الذين انضم إليهم ممثل مدني من وزارة اقتصاد الحرب، إلى الاعتراف برئاسة مدني وديبلوماسي للجنتهم، مع أنه لم يكن يمتلك بالأصل أي خبرة في مجال العمل الاستخباري. وسرعان ما بانت فائدة وجود رئيس يقف فوق المصالح الجزئية، يمتلك فضلاً عن ذلك خبرات ديبلوماسية كبيرة، وصلات وثيقة مع وزارة الخارجية. بالمناسبة، كان هذا الحل الأفضل، لأن أي رئيس من رؤساء أجهزة الاستخبارات لم يكن مستعداً لقبول رئاسة واحد من زملائه![1].

أهم أعمال الاستخبارات البريطانية

بين 1939 و1943

يصمت سترونج عن طريقة جهاز الإبلاغ السري في بريطانيا العظمى،

(1) المرجع ذاته، ص 188.

المسمى الجهاز السري، في الحصول على المعلومات. فلماذا؟. ليس لدينا غير تخمينات ترى أن الصلات السرية، التي قامت في سنوات الحرب الأخيرة مع ألمانيا، لم تقطع تماماً، كما كان هناك شبكة من العملاء حسنة الأداء في بولونيا، قدمت معلومات كثيرة حول تحركات القوات الألمانية، وإلا لما صار كافنديش أول سفير بريطاني هناك بعد الحرب بفترة قصيرة. وعلى كل حال، فقد كانت الاستخبارات البريطانية على حق في خياراتها الكبرى الثلاثة، التي ارتبط بها وجود بريطانيا العظمى حتى سنة 1941، وهي غزو القوات المسلحة الألمانية للجزر البريطانية سنة 1940، والخطط الألمانية للاستيلاء على جبل طارق نهاية تلك السنة، وأخيراً توقيت ومآل حرب هتلر ضد روسيا سنة 1941. صحيح ان الأمر كان يتعلق بمسائل سياسية وعسكرية، إلا أن السياسي كافنديش طرح في كل حالة من هذه الحالات التشخيص الصحيح، حسب قول سترونج، فقد كان على صلة وثيقة مع وزارة الخارجية، حصل بواسطتها، كما نعتقد، على معلومات تفوق في أهميتها أهمية معلومات الجهاز السري، جمعها ديبلوماسيون أصدقاء لإنجلترا، موجودون في أماكن ومواقع كثيرة.

كان الجسم الديبلوماسي في العواصم الأخرى ولا زال مصدر أخبار سرية، خاصة أثناء الحرب. وكان هناك أيضاً صلات عرضية، فما يعرفه السفير (أ) من بعثة ديبلوماسية معينة لا يلبث أن يعرفه الملحق (ب) في بعثة أخرى، الذي يوصله بدوره إلى (ج) في سفارة أخرى. بهذه الطريقة كان من الممكن، مثلا، الحصول على أخبار مؤكدة من مدريد، تقول إن الجنرال فرانكو لن يسمح بجر إسبانيا إلى حرب جديدة، نزولا عند إرادة هتلر. وماذا بشأن الغزو الألماني للجزر البريطانية، الذي بدا أن الألمان يكثفون استعداداتهم له، وسيقومون به في صيف سنة 1940؟. لقد صار مستحيلاً، بعد أن ربح الإنجليز المعركة الجوية فوق القنال وجزرهم، وتحولت

هجمات سلاح الجو الألماني إلى ضرب من تدمير الذات. هذا ما تنبأ به كافنديش في الوقت المناسب، فقد كان يعرف، بفضل سترونج أو زملائه في سلاح الجو، الأعداد الدقيقة للطائرات الألمانية، وقدرة صناعة الطائرات في ألمانيا، وكان يعلم أن باستطاعة إنجلترا اللحاق بها وتجاوزها، و: «أن للأسد أجنحة»، حسب قول تشرشل[18].

ماذا عن هجوم هتلر ضد روسيا؟. إنه سيتيح للجزر البريطانية الوقت الضروري للبقاء. ترى، هل عرف سترونج بموعده من أصدقائه في ألمانيا؟. على الأرجح، وربما عرف به أيضاً عبر «الروته كابيله». إلى هذا، أعتقد أن وطنيين بولونيين كانوا يتابعون بدقة التقدم الألماني في الشرق، ويخبرون لندن عنه باللاسلكي. فقد كان جواسيس اللاسلكي يعملون كمراقبين استخباريين في كل مكان من الأراضي المحتلة، وكانت محطات رصد اللاسلكي الألمانية تعرف ذلك. لكن الانتصارات الخاطفة في بولونيا والغرب والنرويج ضخمت مهامها إلى درجة جعلت وسائلها وقواها غير كافية وغير قادرة على التقاط محطات العملاء جميعها، أو إبطالها. مهما يكن من أمر، فقد تلقت بريطانيا العظمى معلومات إضافية من جميع أنحاء أوروبا، تكفلت بإبقاء الاستخبارات الألمانية في موقع متوسط، رغم الجهد الذي كان يبذله جهاز جمع المعلومات عن العدو في أقسام القوات المسلحة الألمانية الثلاثة، وجهاز الإبلاغ السري في شعبة مكافحة التجسس. يقول سترونج حول هذه النقطة: «إن نوعية العمل الاستخباري المنصب على مكافحة التجسس كانت ممتازة»[1].

لم تنفرد الاستخبارات البريطانية بالتنظيم الأحسن والقيادة الموحدة، بل كان لديها أيضاً المخبرون الأفضل، حتى عندما كانت بريطانيا العظمى تقاتل

(1) المرجع ذاته، ص 113.

وحدها ضد هتلر. ثمة إشارة مهمة إلى ذلك لدى سترونج: عندما اقتضت مناسبة ملحة تأسيس وكالة المخابرات المركزية سنة 1947 في أميركا، كان الأميرال روسكو هيلنكوتر أول من دعي لترؤسها، فلماذا؟. لأن الأميرال كان بين 1940 وكانون الأول/ديسمبر من سنة 1941 ملحقاً بحرياً لدى حكومة فيشي، وقدم خدمات قيمة لقضية الحلفاء، كما يخبرنا سترونج.

كانت اللجنة، التي ترأسها كافنديش، في وضع يتيح لها الحصول على المعلومات من مصادر كثيرة، موثوقة في الغالب، مكنتها من أن تعرف في وقت مبكر:

1 ـ بالاستعدادات لغزو إنجلترا، بعد خسارة الألمان المعركة الجوية. ثم تعرف بتخلي برلين عن الغزو.

2 ـ أن مشروع «فيلكس»، أو الهجوم على جبل طارق في نهاية سنة 1940، لن يحدث، لأن فرانكو قاومه.

3 ـ أن الاستعدادات لمشروع بربروسا بدأت منذ خريف سنة 1940.

الفصل الثاني

جهاز استخبارات دون جواسيس وعملاء مأجورين من أجل حماية الحياد السويسري

بعد الاستخبارات البريطانية، يمكن للاتحاد السويسري أن يفخر بالإنجازات المميزة لاستخباراته خلال الحرب العالمية الثانية. طورت سويسرا منذ الثلاثينيات من القرن الماضي جهاز استخبارات تدبر أموره من دون جواسيس وعملاء مأجورين، وحصل مع ذلك على المعلومات التي كانت تحتاج إليها البلاد لحماية حريتها السياسية. ذلك كان، في الحقيقة، واحدة من سخريات التاريخ، بالنظر إلى أن سويسرا، البلد المحايد الذي يقع بين دول أوروبية تخوض صراعات حافلة بالمتغيرات وحروبا مدمرة بعضها ضد بعض، كانت تعج بالعملاء ومراكز الجاسوسية ورجال الطابور الخامس، العاملين لهذه أو تلك من الجهات المنخرطة في الحرب. لقد غدت وكالة ألكساندر رادوس معروفة عالميا، على سبيل المثال. إلا أنه كان هناك أيضاً تجار أخبار صغار، يبيعونها للصديق والعدو، حتى ليمكن القول إن سويسرا لم تتدخل بفاعلية ضد هذا النشاط غير الشرعي على أراضيها، مع أن سنة 1939 دفعتها إلى وضع عسير، فرض عليها حماية وجودها السياسي، والعمل ضد من كانوا يهددونه، أي ضد «قوى المحور». لا شك في أن غالبية السويسريين وقفت من حيث قناعاتها بوضوح إلى جانب الديموقراطيات، وقدمت الدعم لاستخباراتها،

رغم عمل صحفي مجد مثل «باكبو» لمصلحة الاتحاد السوفياتي، لأسباب يكشف عنها عنوان كتابه: لم يحدث الانضمام[1].

وجدت سويسرا نفسها قبل الحرب العالمية الثانية في وضع يفرض عليها قدرا من اليقظة يفوق مثيلتها قبل الحرب العالمية الأولى، التي لم تتعرض خلالها لأي تهديد. أما السياق الذي كان يجبرها على اتخاذ تدابير استباقية، فنجم عن حقيقة أنها لم تكن تملك بعد الحرب العالمية الأولى أي جهاز استخبارات يستحق هذا الاسم، لأن حيادها كان يجعلها بغنى عنه، فضلا عن أن علاقاتها بفرنسا كانت ودية تقليدياً وخالية من عناصر الصراع، بينما فقد الرايش الألماني، الذي تعاطف معه بين سنتي 1914 ـ 1918 القائد الأعلى الجنرال فيلله وغالبية ميليشياته، قوته منذ سنة 1919، فلم يبق من سبب للحذر، وصار بوسع سويسرا الاكتفاء بقسم استخباري متواضع تابع للفرع الخامس في شعبة الأركان العامة، يذكّر من بعض الأوجه بقسم الإحصاء في وزارة دفاع الرايش قبل سنة 1933. لا عجب أن موازنة القسم كانت صغيرة تراوح بين عشرين وثلاثين ألف فرانك سنوياً، وهو مبلغ يكفي بالكاد لشراء الصحافة العسكرية العالمية المتخصصة ولتقويمها. ولا غرابة أنه تم الاستغناء عن خدمات مكتب المراسلات السري، فسويسرا المحايدة لا يجوز أن تسمح لنفسها بامتلاك جهاز كهذا، وهي لم تكن بحاجة إليه، على كل حال، حسب اعتقاد من قرروا شؤونها في الثلاثينيات من القرن العشرين.

لكن التوترات الأولى بين سويسرا وبين جيرانها ما لبثت أن وقعت، مع صعود الفاشية في إيطاليا سنة 1922، وسيادة نظامين سياسيين مختلفين أشد الاختلاف في الدولتين، قام السويسري منهما على الحريات السياسية والمدنية، بينما استأثرت سلطة الدولة القومية، وتقويتها، باهتمام إيطاليا. في

(1) بونتر، أوتو: لم يحدث الانضمام. بيرن 1967.

ظل هذا التعارض، هاجر إيطاليون اتخذوا الحرية عقيدة لهم، بينهم شخصيات بارزة كالشاعر إيجناصيو سيلونه، إلى سويسرا، وفي نية عدد غير قليل منهم العمل ضد إيطاليا الفاشية. من جانبه، لم يخف نظام موسوليني رغبته في الاستيلاء على تيسين، حيث الإيطالية لغة السكان. لم تكن سويسرا دولة قومية، بل اتحاد قوميات أربع تعايشت طواعية منذ مئات السنين، وحمت دستورا مشتركا صان حريتها. وهذا ما بدا لبعض القوميين المعاصرين نشازا مستفزا، سوغ رفضه العالم التصوري للرايش القديم، الذي اعتقد أن فكرة الدولة القومية تسيطر على السياسة الأوروبية منذ الثورة الفرنسية ؛ وهو اعتقاد تبناه كثير من قوميي ألمانيا بعد استيلاء هتلر على السلطة سنة 1933، الذي سرعان ما وصلت نتائجه إلى سويسرا، بصورة مباشرة وغير مباشرة، مع فرار أعداد متزايدة من المهددين إليها، عبر بحيرة البودنسي، كاليهود والشيوعيين، والديموقراطيين الاجتماعيين، والليبراليين، والليبراليين اليساريين، والمواطنين الأحرار، ممن رفضوا ببساطة العيش في ظل حكم شمولي، وكان بوسعهم الإنفاق على أنفسهم في المهجر. من جانبها، وجدت سويسرا نفسها مجبرة على إظهار شيء من عدم الاكتراث حيال عدد غير قليل من هؤلاء المهاجرين.

بدأ القضاء على الحريات الديموقراطية في ألمانيا مع سنة 1933. وحدث شجار بين الصحافة السويسرية ذات النزعات الحرة ـ وفي مقدمها جريدة زيوريخ الجديدة ـ وبين الصحافة الألمانية «التي تم تنظيمها». ثم تصاعدت النزاعات بقدر ما حقق هتلر من نجاحات سياسية وغدت سلطته محسوسة وراء الحدود، وزاد أنصاره والمتعاطفون معه في سويسرا، إلى أن بلغت في السنوات الخمس التي تلت سنة 1933، حدا جعل الدولة الكبيرة في الشمال، التي كانت ذات يوم صديقة سويسرا، تتحول إلى عدو محتمل لحريتها، خاصة وأنها تطورت من دولة ضعيفة سياسيا ومتأخرة عسكريا إلى

بلد واثق من نفسه، تسلح بسرعة واكتسب وزنا سياسيا تعاظم من سنة لأخرى، بينما كانت قوة فرنسا تتفتت شيئاً فشيئاً، وتتكسر معها مطالباتها بالهيمنة الأوروبية، مع ما صاحب هذا كله من علامات مقلقة، تمثلت قبل كل شيء في إعادة التجنيد الإجباري العام إلى ألمانيا في آذار/مارس من سنة 1935، بعد سنة من احتلال بلاد الراين، الذي قلب الوضع الاستراتيجي في أوروبا رأسا على عقب، كما لا بد أن يكون قد أدرك السويسريون أيضاً.

في هذه الأثناء، لم تفعل فرنسا شيئاً غير تقديم احتجاجات ورقية، دلت على الضعف السياسي وعززت جموح هتلر إلى العدوان. بالمقابل، قررت سويسرا تكريس اهتمام نشط لأمنها، وتحديث دفاعها وجيشها، وجعلها تواجه سنة 1936 ثلاث ضرورات، بمنظار السياسة الدفاعية / الأمنية:

1 ـ إحياء روح الحرب نصف النائمة، قبل كل شيء لدى العمال وممثلهم السياسي الأكثر أهمية في سويسرا: الحزب الديموقراطي الاجتماعي.
2 ـ تحديث القوات المسلحة، واتخاذ تدابير دفاعية إضافية تزيد المخاطر، التي سيوجهها أي مهاجم محتمل.
3 ـ تأسيس جهاز استخبارات عالي الفاعلية، يمد سويسرا بمعلومات عن الأحداث والنوايا الحربية السياسية، خاصة لدى «الجار» الشمالي.

وقد حلت سويسرا هذه المشكلات، وقدمت إضافة إلى ذلك، وبطريقة غير مألوفة، مثالا على الفاعلية التلقائية، التي يمكن أن يقوم بها مكتب استخبارات «خاص». في هذا السياق، برز رجل لعب دور القوة الدافعة للعمل، رفض أن ينتظر الدولة والأحزاب الثقيلة الحركة أو حتى الجهاز الإداري، ووضع نفسه في خدمة الهيئة المجتمعية العامة بمجملها. من جهة

أخرى، دل قبول السويسريين بما قام به على حسهم السياسي ويقظتهم ومبادرتهم، وأكد أن أمرا كهذا لا يمكن أن يحدث إلا في بلدهم. أما الرجل الذي بادر إلى القيام بما كان ضروريا، وإلى الحصول على الأخبار على مسؤوليته الخاصة، فلم يتم تكليفه رسميا بالعمل، ولم يكن عسكريا أو سياسيا محترفا، بل كان «مجرد» مقدم في الميليشيا، وتاجر جملة باع واشترى أجهزة التصوير والأفلام والسلع المشابهة، حتى غدا الرجل الأول في هذا المضمار. إنه هانس هاوسمان[1]، الذي أيقظ خطوة خطوة إرادة الدفاع لدى السويسريين، وغداً أحد أهم الوجوه في أجهزة الاستخبارات الأوروبية.

ولد هانس هاوسمان سنة 1896، وسكن في تاوفن من أعمال بلاد الألبنتسيلر. وكان مواطنا ورجل دفاع معتدا بذاته، ومنظما ممتازا، غدا في الثلاثينيات من القرن الماضي الناطق باسم جمعية الضباط السويسرية ورئيسها الصحافي، فأيد في مقالاته ومحاضراته إعادة إحياء جاهزية سويسرا الدفاعية، واكتسب حماسته الأولى للدفاع عن البلاد ـ وكان بالمناسبة فارسا متحمسا ـ من مشروع الدفاع، الذي قدم يوم 24/ 2/ 1935 وفاز بأغلبية 75 ألف صوت، فكان الخطوة الأولى على طريق إعادة إحياء إرادة الدفاع السويسرية، التي ما لبثت أن تلتها خطوة ثانية، قد تكون أكثر أهمية منها، هي كسب الديموقراطية الاجتماعية السويسرية للدفاع عن البلاد. لقد كانت المهمة صعبة أول الأمر، بسبب أرجحية الميول السلمية والأممية آنذاك في أوساط العمال ومجموعات المثقفين المتعاطفين معهم. هذا الموقف تبدل بصورة صاعقة سنة 1938، نتيجة تقويم واقعي للوضع، بعد أن اختفت النمسا كدولة مستقلة من الخارطة وأعلن عن قيام الرايش الألماني الكبير. من الآن

(1) انظر باختصار: هانس رودلف: سويسرا مركز للأخبار، ص 21 –23، «مكتب هاوسمان».

فصاعدا، لم يعد العدو المحتمل في الشمال وحده، بل صار في الشرق أيضاً، في فورالربرج. ثم وقع حدث آخر كان من الصعب وقوعه في هيئة مجتمعية عامة أخرى، فقد نصح رئيس الإدارة العسكرية السويسرية، مستشار الاتحاد مينجر[1]، الديموقراطيين الاجتماعيين بمستشار عسكري وخبير دفاعي لطالما كان بعض الرفاق يعتبرونه «عسكري النزعة» هو المقدم هانس هاوسمان. قال مينجر: ليس هناك من يستطيع أن يعرض بطريقة أكثر إقناعا السبب الذي يحتم دعم الديموقراطية الاجتماعية الدفاع عن البلاد، أعني منع «ضم» سويسرا إلى ألمانيا. وأضاف: إذا ما قيِّض لمجموعات شمولية أن تصل إلى السلطة في سويسرا، فإن وصولها سيتعارض مع تقاليد الحرية، أي مع حقها في تقرير مصيرها السياسي بنفسها. عندئذ ستختفي الديموقراطية الاجتماعية في سويسرا، كما اختفت سنة 1933 في ألمانيا. ألح هاوسمان على هذه الحجة، التي قيِّض لها أن تكون حاسمة، جعلت قائد الديموقراطية الاجتماعية السويسرية، المستشار القومي هانس اوبريشت، الشخصية بعيدة النظر وذات المستوى الرفيع من الشعور بالمسؤولية السياسية، إلى مؤيد للدفاع عن البلاد، فنالت الفكرة ما كانت تحتاج إليه من وسائل، وحظيت ـ وهذا كان أكثر أهمية من أي شيء آخر ـ بالموافقة والدعم الفكريين.

أتاح هذا التعاون موارد إضافية وضعت تحت تصرف استخبارات هاوسمان الخاصة، وساعدت على تبلور قوامها بالتدريج، بعد أن صار بمقدورها إقامة صلات جديدة بالأممية الاشتراكية والرفاق القدماء في ألمانيا، الذين كانوا عرضة لتشويه السمعة والاعتقال، وفقدوا مراكزهم ووظائفهم، وطوردوا وألقي بهم على قارعة الطريق، لكنهم حافظوا على روابطهم

(1) الأسبوع السويسري، كانون الأول/ ديسمبر 1971: مقابلة مع هانس هاوسمان.

الشخصية القديمة، بما في ذلك روابطهم مع الرفاق القدماء في سويسرا، الذين ما لبثوا أن تلقوا منهم بعض المعلومات السرية عبر الحدود، أخذت غالباً شكل أخبار متفرقة كانت على درجة كبيرة من القيمة بالنسبة إلى مكتب هاوسمان، لأنها كانت تعادل أفضل ما كان يمكن الحصول عليه «بصورة رسمية».

مكتب «ها» يعمل

واجه الدفاع السويسري ورطة منذ سنة 1936. فقد امتلك شعبة أخبار عملت تحت إمرة عقيد منفتح العقل في الأركان العامة هو روجيه ماسون، أحد ضباط الجيش المحترفين القلائل. لكنه كان واضحاً أن بيرن تريد تفادي الحصول على الأخبار بطريقة غير شرعية، لأن حياد البلاد التقليدي يحظر القيام بأنشطة كهذه. من هنا، كان من الأفضل أن يقوم رجل خاص، هو هاوسمان بالذات، بهذا المسعى، على أن يجمع بطريقة منهجية جميع أنواع المعلومات السياسية والعسكرية، التي يستطيع ومساعدوه الحصول عليها خلال أسفارهم الأوروبية. يقول هاوسمان في مقابلة أجراها في كانون الأول من سنة 1971 مع مجلة الأسبوع السويسرية: «لم يكن باستطاعتي كضابط محترف القيام بالأنشطة ذاتها، التي كنت أقوم بها كضابط ميليشيا». ثمة لحظات أربع أفاد منها مقدم الميليشيا السويسري في بناء مكتبه «ها»، نستشفها من هذه المقابلة[1]، هي:

1 ـ حقيقة أنه تحدث الألمانية كألماني وكانت له صلات عمل وثيقة في برلين خاصة، وأنه دخل بالصدفة في علاقة مع رجال نافذين في الرايش الثالث، حافظ عليها بطبيعة الحال. «لم يكن هناك ممنوعات في

(1) الأسبوع السويسري، كانون الأول/ ديسمبر 1971: مقابلة مع هانس هاوسمان.

أحاديثهم، بل كانوا يتكلمون عن أكثر الأشياء سرية. ويرجح أنهم كانوا يعتبرونني متعاطفا، ولم يكن لدي أي سبب يجعلني أصحح خطأهم». هذا ما قاله هاوسمان حرفيا في الأسبوع.

2 ـ حقيقة أنه كان ضابطاً ورئيساً صحفياً لجمعية الضباط السويسريين منذ سنة 1935، فقد كانت صفاته هذه تجعل منه خبيراً مهتماً بالأمور العسكرية، دون أن يلفت ذلك الأنظار إليه. يضاف إلى ذلك أنه كان هناك آنذاك ضرب من تضامن الضباط الغربيين، كثيراً ما كان يفعل فعله في مجال الاستخبارات السرية أيضاً. هكذا دخل هاوسمان في علاقة مع ضابطين ألمانيين شاركا في دورة رمي تقديري في سامبلون، قبل سنة من نشوب الحرب. يقول هاوسمان حول هذا اللقاء: «منذ تلك اللحظة، ربطتني صلات جيدة بالرجلين. وكنت أتصل بهما من وقت لآخر أثناء زياراتي إلى برلين، التي كانت أسبوعية تقريبا في تلك الفترة، وأقمت صلات بواسطتهما بأشخاص آخرين، جعلتني عرفت فيما بعد أشياء ما كانوا بالتأكيد سيتحدثون عنها، لو عرفوا من أكون... لكنه كان مهما بالنسبة إلى سلطاتنا آنذاك أن تعرف ما يجري بعيدا عن الأضواء في الرايش الثالث»، وخاصة تسليح القوات الألمانية الجاري على قدم وساق.

3 ـ حقيقة وجود علاقة بينه وبين الديموقراطية الاجتماعية، أتاحت له صلات وروابط دولية إضافية، لم يكن بحاجة إلى البحث عنها لأنها كانت متوفرة بصورة تلقائية.

4 ـ لم تكن سويسرا المحايدة تستطيع أن تقيم، بغير هذا الطريق «الخاص»، علاقات بأجهزة الاستخبارات أو الوكلاء الأجانب، وأن تتبادل المعلومات على مبدأ «خذ وأعط» القديم. وقد قام هاوسمان بهذا العمل، فهو يذكر بين المتعاونين معه إنجليز وفرنسيين وأميركيين وقبل

كل شيء تشيكيين. ويزعم أنه كان قبل الحرب على اتصال وثيق بالمبعوث مازاريك.

كان هاوسمان رجل أعمال دولياً ووطنيا سويسريا في آن معا. وقد مارس الاستيراد والتصدير منذ الفترة التالية للحرب العالمية الأولى، فلم يكن بحاجة إلى تأسيس شركات وهمية، يقيم عبرها صلات لا تلفت الأنظار إليه، إلى جانب صلاته العادية. إلى هذا، كان عمله كتاجر موثوق وضابط ميليشيا ورئيس صحفي لجمعية الضباط السويسريين يمنحه رصيدا سياسيا وأخلاقيا، يجعله شخصا يأتمنه المرء على أسرار الدول والجيوش، التي يحجبها بالتأكيد عن غيره، فلم يكن بحاجة إلى شرائها أو تسقطها عبر الجواسيس، وكان يكفي ربط وتقويم تفاصيلها، التي تبلغ مسامعه. بمرور الزمن، عرفت الموهبة التآمرية الفطرية لدى «أصحاب المقامات» ضمن الاستخبارات السويسرية كيف تحصل على معلومات أكثر نفعا، في مناسبات شبيهة بلقاءات الملحقين العسكريين في سهرات برلين الذكورية، التي تحدثنا عنها في مكان آخر، تلقى هاوسمان خلالها معلومات كانت ستكلفه الآلاف، لو حصل عليها بواسطة الجاسوسية من الطراز القديم، علما بأن الكثير منها كان معلومات من الدرجة الأولى. عرفت سويسرا عددا كبيراً من الضباط الألمان حسني الطوية، الذين اعترفوا لهوسمان بتأنيب الضمير، أو عبروا تجاهه عن استيائهم من أن الآمر الأعلى، قائد ومستشار الرايش، وعد بالسلام والإعمار والتفاهم، لكنه توجه نحو حرب عالمية ثانية، كانت ذكرياتهم الحربية تجعل وقوعها أمرا مرعبا بالنسبة لهم. تمكن هاوسمان، شأنه في ذلك شأن سترونج، من إلقاء نظرة عميقة على ازدواجية العقلية الألمانية، التي ما لبث أن تعرف بعد برهة على جوانبها المضيئة والمظلمة، وعلى نقاط قوة وضعف الرايش الثالث ومجتمعه، وعلى الآمال والتعاطفات، التي أثارها في سويسرا أيضاً. لكنه عرف كذلك معلومات عن الإرهاب، الذي كان الممسكون

بالرايش الثالث يمارسونه في الخفاء. بذلك، كانت معرفته بألمانيا تبز منذ سنة 1939 معرفة معظم الألمان بها.

تشير سائر الظواهر إلى أن هاوسمان كان ذا موهبة طبيعية وفطرية في الاستخبارات، وأنه تصرف بالطريقة التي طلبها ليدل هارت من ضابط ناجح فيها، وافترضت امتلاكه شهوة المعرفة، وبعد النظر، وحدة الذهن والمكر في ظروف معينة، وموهبة القدرة على التخيل قبل كل شيء، فضلا عن السرية، التي تعتبر مطلبا أول بطبيعة الحال. وهي صفات كان هاوسمان يمتلكها، لذلك كان يستطيع تقمص وظيفته دون إزعاج، والتعلم من تجاربه. بالإضافة إلى ما سبق، أفاد هاوسمان بوضوح من أصدقائه التشيك، الذين بينوا له كيف يجب أن يقوّم بطريقة منهجية صحافة ألمانيا الإقليمية، ويعرف منها مواقع القوات المسلحة أو مطارات سلاح الجو الجديدة، وأطقمها وحامياتها. هذا كله، مكنه من إبقاء المكتب «ها» في إطار متواضع، وجعله يكتفي بنفقات قليلة على موظفيه، وهو الذي كان يشغل أول الأمر غرفاً ثلاث في تاوفن، ويشغل سكرتيراً دائماً وسكرتيرة «ثابتة» وعاملة تلغراف متقاعدة تسهر على الاتصالات اللاسلكية. لا يتحدث هاوسمان عن البث اللاسلكي، وعن المحطات التي كان يتم الاتصال بها. هذا الطاقم الأصلي بقي على رأس عمله طوال الحرب، وكذلك عندما انتقل المكتب إلى فيلا شتوتس في لوزان، وواصل عمله هناك تحت اسم «بلاطوس» وكان على مقربة من مركز تجميع الأخبار الأول... وحافظ على استقلاليته. تلقى هاوسمان منذ سنة 1939 عوناً ثميناً من العقيد التشيكي كاريل سيدلاشيك، الذي كان قد عمل قبل ذاك في موقع مفتاحي لمصلحة جهاز الاستخبارات التشيكي، وكلفته الآن حكومة المنفى التشيكية في لندن بالعيش في سويسرا، لمتابعة العلاقات ومصادر المعلومات الدولية، وسكن في جالن عند حماة هاوسمان، حيث عاش تحت اسم مستعار هو «العم توم»... من الممكن أن

يكون سيدلاشيك هو الذي درب الهاوي روسلر على العمل الاستخباري، لأن الأخير عمل لصالح الاستخبارات التشيكية، وسيدالشيك كان أول ملحق عسكري تشيكي لدى سويسرا بعد الحرب[1]. مهما يكن من أمر، فإن المكتب «ها» بقي مؤسسة فريدة من نوعها بين أجهزة الاستخبارات الأوروبية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية. فهو لم يعرف جهازاً وظيفياً متضخماً، ولم يقم بأعمال لا جدوى منها، واستطاع قبل هذا وذاك التخلي عن جمع المعلومات بواسطة العملاء المأجورين، وأفاد من ثلاثة أنماط سلوكية إنسانية، بل مفرطة في إنسانيتها، هي:

1 ـ الحاجة العامة إلى تلقي الأخبار، التي تشتد بصورة خاصة تحت ضغط النظم الشمولية.

2 ـ تبجح بعض حملة الأسرار، الذين لا يستطيعون الحفاظ على أسرار الدولة والأسرار العسكرية، ويميلون إلى الإفصاح عنها «تحت أربع أعين» أو «في صحبة جيدة».

3 ـ وجود متعاطفين سياسيين، عاش كثيرون منهم في سويسرا خلال فترة الرايش الثالث بالذات، وخاصة في المناطق المجاورة لها مباشرة في فورتمبرج، بادن، فورارلبرج. وقد عرف هاوسمان كيف يفيد من هذه المصادر.

هكذا تطور المكتب «ها» إلى ذلك المركز الاستخباري في أوروبا، الذي حقق من دون أي شك أعظم انجازات استخبارية بأقل قدر من الطاقات، محدثاً بذلك سابقة لا مثيل لها في تاريخ أجهزة الاستخبارات[20].

(1) كورتس، ص 25 وما يليها: «النشاط الاستخباري في منطقة سويسرا لمصلحة دول ثالثة وسويسرا».

المتعاطفون وجهاز الاستخبارات السويسري

لم يخرج جهاز الاستخبارات السويسري الرسمي صفر اليدين من هذا الوضع، فقد كان لديه منذ سنة 1938 مخبرين آخرين غير هاوسمان، وإن كان كلاهما قد لاحق من حين لآخر المسائل ذاتها. كان مخبرو هاوسمان ـ لم يعرفوا معظم الأحيان أنهم مخبرون ـ في أغلبيتهم رجال أعمال ومتعهدين وضباطا أو كوادر نازية رفيعة، فضلا عن ديموقراطيين اجتماعيين سابقين وموظفي نقابات فقدوا سلطاتهم. بسبب جهله بالطبيعة البشرية، اعتقد النظام النازي بقدرة الرعب والتخويف على «محو» البشر ومسخهم إلى آمعات بلا حول أو إرادة. وطبق سياسته هذه على الجنود المحترفين، العاملين وغير العاملين منهم، الذين عاشوا في الرايش الثالث واعتنق معظمهم تصورا عن السياسة والحق والعدالة مغايرا لما آمن به معظم كوادر الحزب النازي، بدءا بـ«القائد» آدولف هتلر. لقد اعتبر هؤلاء الضابط السويسري ندا لهم، في حين باعدت هوة بلا قرار بينهم وبين مدير إقليم كـ«قائد النساء» شترايشر، فكان من الطبيعي أن تعود واقعة كهذه بفوائد كثيرة على استخبارات الجيش السويسري، التي استغلتها بلا تردد، لعلمها بوجود مجتمع تعددي بكل معنى الكلمة تحت سطح التماثل الظاهري للنظام النازي. لقد كانت هناك أقسام من هيئة الضباط تعطي قيمة حاسمة لمفاهيم محددة كمفهومي «المسيحية وأوروبا»، تزعمها العماد بيك بلا منازع، حسب ما تؤكد ذلك دراساته، وخاصة دراسته حول الحرب الشاملة، يليه اللواء أوستر، رئيس شعبة «مكافحة التجسس المركزية».

لذا، لا يثير استغرابنا إن اعتبره بعضهم أحد مصادر معلومات السويسريين[21]، خاصة وأنه كان مؤمناً بالمثل الروماني القديم القائل: «يجب الحفاظ على المعاهدات». صحيح أن لهذه نسبيتها في الحقل السياسي، كما

اكتشف بسمارك، الواقعي والذرائعي الذي قال بضرورة الحفاظ عليها طالما كانت مفيدة لطرفيها، وعرف أطرافها المتساوون هذا وجعلوه موجها لسلوكهم. ولكن كيف يكون أمر المعاهدات بالنسبة إلى الجبابرة والضعفاء؟. كيف كان الأمر، مثلا، مع معاهدات عدم الاعتداء، التي عقدتها ألمانيا الهتلرية مع بولونيا، والأراضي المنخفضة، وبلجيكا؟.

وكيف كان مع التأكيدات والضمانات الاحتفالية حول احترام حياد سويسرا؟. ألم يكن هناك خطر أن يقوم بعض الناس باستخدام المعاهدات المعقودة كمناورة تضليلية؟. ألم يكن هذا يعني نهاية النظام الأخلاقي، الذي قام عليه الغرب؟.

الاستخبارات السويسرية وقوات ألمانيا المسلحة

لا مراء في أن الاستخبارات السويسرية أفادت من هذه المجموعات. يتضح هذا قبل كل شي من العرض نصف الرسمي، الذي قدمه هانس رودلف كورتس: سويسرا كمركز استخبارات / سويسرا في استخبارات الحرب العالمية الثانية[1]. فقد عرفت الاستخبارات العسكرية السويسرية أحسن من أي جهاز استخبارات آخر القوات المسلحة الألمانية: سواء تعلق الأمر بتنظيماتها، أم بسلاحها وتسليحها، أم بتحركاتها العملياتية وأهدافها. وكانت مدينة بمعرفتها إلى تلك المعلومات بالدرجة الأولى، التي لم تصلها عبر الجواسيس والعملاء، ولم تدفع ثمنا لها، بل جاءت من مصادر تدفقت عليها بطريقة تلقائية، امتلكها السويسريون في ألمانيا، بين الضباط أيضاً. وقد بلغت هذه الصلات وزارة حرب الرايش، ثم القيادة العليا للقوات المسلحة، وحتى مقر القائد الرئيس، حيث كان ضابط ألماني يبلغ السويسريين من حين لآخر

(1) كورتس، ص49.

بمعلومات جوهرية مأخوذة من الوثائق السرية، كما يخبرنا كورتس[22].

هل كان العقيد أوستر من شعبة المكافحة المركزية يقف وراء مثل هذه المعلومات؟. ليس بوسعنا رفض هذا الافتراض بصورة تامة، فقد كان حساسا مثل بيك حيال قيام ألمانيا بخرق معاهدة تضمن حياد سويسرا. كما كان يعتقد كبيك أنه في حالة وقوع الكارثة النهائية، التي كان قد تنبأ وبيك بحدوثها، لا بد من القيام بأفعال تثبت وجود ألمانيا أخرى، ومجموعة أخرى من الألمان، تختلف عن الموظفين النازيين، الذين كانوا يمارسون أي ظلم ويرتكبون أي جريمة، بمجرد تلقي الأمر بذلك.

بهذه الخلفية الفكرية، قام أوستر بتحذير هولندا عشية الهجوم في الغرب، عبر أصدقائه من مواطنيها، ومنهم على سبيل المثال ملحقها العسكري ساس.

الرائد فايبل وخط الفايكنج

يجب على كل جهاز استخبارات امتلاك خطط استباقية، تجعله بحاجة إلى ما يسمى عملاء - رؤيويين، يفكرون في الحالات المستقبلية الممكنة الوقوع جميعها، ويعدونه لملاقاتها. لم يكن من قبيل المصادفة بالتأكيد أن الأركان العامة السويسرية أرسلت سنة 1936 مقدما شابا للدراسة في أكاديمية الحرب ببرلين، حيث كان عليه أن لا يكتفي فقط بالتدريب على العمل في هيئة الأركان، بل أن يراقب ما يحدث لمصلحة الاستخبارات العسكرية في بلاده. هذا المقدم هو ماكس ڤايبل، الرجل الذكي والطريف والأريب، الذي كان مرشحا لتولي الأركان العامة، واستطاع استغلال الفرص التي أتيحت لاكتساب أرضية معرفية شرعية حول القوات المسلحة الألمانية، وقدر له أن يكون، بعد حين، على درجة عظيمة من الفائدة لبلده، لأنه تمكن من كسب أصدقاء، بفضل التضامن بين الضباط الأوربيين، على غرار ما فعله المقدم

ليس، الذي تولى في فترة لاحقة قيادة «الجيوش الأجنبية غرب»، خلال خدمته في إنجلترا. لكن فايبل نجح خلال فترته البرلينية في بناء ما سمي «خط الفايكنج»، الذي تكرر ظهوره في الأدبيات المختصة بالاستخبارات السويسرية.

ليس معروفاً إلى اليوم من كان وراء «خط الفايكنج». يقول كورتس: «يتعلق الأمر لدى خط الفايكنج بخط استخباري بناه الرائد فايبل شخصياً، كان فيه محطات أخيرة كثيرة وصلت إلى داخل مقر الفوهرر الرئيس في ألمانيا، وصبت عندنا في محطة «بفالس» الخارجية من مركز جمع المعلومات. هذه المحطة الأولى للمعلومات، التي كانت لوزان مقرها الرئيس، كانت تحت قيادة الرائد فايبل. أما خط الفايكنج، فلم يكن أحد يعرف عنه شيئاً، باستثناء المعنيين به مباشرة، كما يقول كورتس، وإن كثر الحديث عنه لاحقاً. «أما سر الجهة التي بدأ منها في ألمانيا، وكيفية عمله، فلا زال محفوظا إلى اليوم»[1]. من المؤكد، يضيف كورتس: «أنه لم يكن مدير ديوان هتلر، مارتين بورمان، كما تلمح إلى ذلك مذكرات راينهارد جيهلن». ماذا كان هذا الخط؟. تدل إشارات كثيرة إلى أنه لم يكن يتيح تدفق معلومات مستمر، بل كانت مجرد محطة إنذار، مهمتها تحذير سويسرا، متى تهددها خطر. يؤيد ذلك التحذير التالي، الذي يذكر كورتس أن الحظ أرسله يوم 18 آذار/مارس سنة 1943 إلى سويسرا:

1 ـ صارت سويسرا مادة للحديث ودخلت بذلك في دائرة الخطر.

2 ـ سنخبركم خلال أسبوع إلى أسبوعين حول ما إذا كانت قد وضعت مخططات عملية.

(1) كورتس، ص 68 وما يليها.

3 ـ أظهروا من خلال لفتة مناسبة أن سويسرا لا يمكن أن تؤخذ على حين غرة».

أخبر ماسون، رئيس الاستخبارات السويسرية، قائد فوج الـ ss شيلنبرج بهذا التحذير. وكان قد زار سويسرا بصورة متكررة، وأقام صلة شخصية مع ماسون، الذي سأله إن كان هذا التحذير صحيحاً. تلك كانت سذاجة لا تغتفر، بيد أنها تصبح قابلة للفهم، إذا ما أخذنا بالحسبان موقف الضباط المحافظين من أمثال ماسون. هذا السؤال كانت له فيما بعد نتائج يقول عنها كورتس[1]: «لفت السؤال أنظار خبير الاستخبارات الألمانية إلى حقيقة أن سويسرا تلقت معلومة إنذارية، وأقنعه بوجود خط استخباري غير معروف بعد، يمتد من ألمانيا إليها، ودفعه إلى بدء عملية بحث فورية عن مصادر الخيانة في ألمانيا، وإلى توقيف متهم يحتل موقعا مفتاحيا، بقي خمسة أسابيع رهن الاعتقال دون أن يتمكن من إثبات شيء ضده. كادت رعونة ماسون أن تحرم سويسرا من مصدر معلومات شديد الأهمية، وتؤدي إلى تسليم مساعديها المحبين إلى الشرطة السرية الألمانية».

هذه الوقائع حدثت في نهاية آذار/ مارس من سنة 1943. فهل كان لها علاقة «خفية» ببدء التحقيقات مطلع نيسان/ أبريل مع شعبة المكافحة الثانية في برلين؟. ألم يكن التحقيق، الذي قاده رئيس محكمة الحرب العليا رودر موجها في حقيقته ضد أوستر؟. لقد حدثت فضيحة لدى إلقاء القبض على القائد الخاص دوناني، تمت مداراتها بإعطائه إجازة إجبارية أول الأمر، ثم نقله إلى احتياطي الفوهرر، قبل تسريحه من الخدمة الفعلية في آذار/ مارس من سنة 1944، ووضعه منذ ذلك الوقت تحت رقابة صارمة. بذلك قام شيلنبرج بخطوة حاسمة أخرى قربته من هدفه، تمثلت في تولي قيادة الاستخبارات العسكرية، وضم مكتب أمن الرايش الرئيس إليها.

(1) المرجع ذاته، ص 70.

حالف التوفيق الاستخبارات السويسرية في القضايا الأخرى أيضاً، فلم تكن بحاجة إلا إلى القليل من المعلومات حول سلاح الجو الألماني، بدءا من لحظة زمنية معينة. يرجع هذا إلى مصادفة صرف، تذكر بحادثة العاشر من حزيران/ يونيو سنة 1940، لكنها بقيت، على النقيض منها، مجهولة: يخبرنا قائد الفيلق ألمتقاعد الفريد إرنست في عدد كانون الأول/ ديسمبر من المجلة العسكرية السويسرية العامة تحت عنوان «الاستخبارات السويسرية في الحرب العالمية الثانية»[1]، ما يأتي: «بما أننا كنا ننطلق في تقدير موجودات الدبابات والطائرات من القوائم التي كنا نعتمدها في السلام، فقد توصلنا إلى أرقام مبالغ بها، وخاصة في ما يتعلق بسلاح الجو. لم نكن نعرف على سبيل المثال أن معظم الأسراب لا تضم ثلاث مجموعات، بل مجموعتين وأحياناً مجموعة واحدة فقط من الطائرات. لكننا توصلنا مطلع سنة 1943، بضربة حظ، إلى معرفة التنظيم الحربي لسلاح الجو الألماني، فقد تاه «لقلق الفيزلر»، وهو طائرة من سرب المطاردات كانت تقصد سيسيليا، غير أنها هبطت اضطراريا في ساميدان (أنجادين). وكان قائد الطائرة يحمل معه وثائق الخدمة المتعلقة بالأركان، ووثائق تتعلق بتنظيم سلاح الجو بأكمله، رغم أن أوامر القيادة العليا لسلاح الجو كانت تمنع ذلك بشدة. هذه اللقية كانت مثيرة للدهشة إلى درجة جعلتنا نعتقد أول الأمر بوجود خدعة حربية، ثم سرعان ما تبين أننا لم نكن على حق في ما ذهبنا إليه»[23].

مخبرو روسلر

لا بد، في هذا السياق، من قول كلمة عن المخبرين في ألمانيا، الذين أوصلوا معلومات مثيرة للاهتمام إلى الناشر روسلر ـ اسمه الحربي لوسي ـ في سويسرا. فقد توصلت الأبحاث اللاحقة إلى أن «فيرتر» كان موجودا

(1) كورتس، ص 20.

بالفعل، لكنه لم يكن موجودا كفرد، بل يرجح أنه كان اسم عدد من المخبرين. وقد لفت النظر هنا تكرار استفسارات المدير في موسكو عن أماكن وجود الفرق الألمانية، التي كان يأتيه الرد عليها خلال أيام قليلة. وبالمناسبة، يؤكد تحليل الرسائل اللاسلكية الملتقطة أن معلوماتها لم تأت من مصادر من الدرجة الأولى، بل من مصادر الدرجة الثانية والثالثة، وإلا لما حفلت بالغموض وعدم الدقة، الذي شابها. أما الأشخاص، الذين أوصلوا أخبارا إلى روسلر من برلين، فيرجح أنهم انتموا إلى دائرة معارفه القديمة في المسرح والمطابع، التي شاركته رفض الرايش الثالث. لكن عدداً كافياً من هؤلاء كان يوجد دوماً بين العاملين في مجلات القوات المسلحة. هذا ما يعرفه المؤلف من معايشة شخصية، بعد أن عمل سنة 1942 كضابط ارتباط بين مجلة الجيش وشعبة الفنون العسكرية في قيادة الجيش العليا. كان الممثلون والصحافيون والكتاب لا يرون في موقف المعارضين شيئاً مأسويا، خاصة عندما كان نقد الآخر يتفق موضوعياً مع مواقفهم. لكنني أظن اليوم أن بعضهم ربما كان قد ذهب إلى أبعد من ذلك. لقد تم تحطيم «الروته كابيله» في خريف سنة 1942، فهل كان تحطيمها تاماً أم كان لها ضرب من منظمة لاحقة؟. كان العاملون في المجلات المذكورة يعرفون الكثير، وكان بوسعهم معرفة المزيد، بحكم عملهم الصحفي واختلاطهم اليومي بالجنرالات والكتاب العسكريين المتخصصين. وكان لعدد منهم حق الدخول إلى الموزعين، المحاطين بالسرية، حيث كان توزيع المجلات يتيح لهم معرفة عدد الألوية والفرق والتشكيلات الخاصة، ومسارح العمليات الحربية والمناطق التي تعمل فيها. بل إن العاملين في المجلات كانوا في وضع يمكنهم من امتلاك نظرات عامة تفوق في دقتها تلك التي يمتلكها المنتسبون إلى دوائر القيادة العليا، الذين كانوا يرون قطاعاً واحداً وحسب من الواقع. ما قلته لا يثبت أي شيء، لكنه يطرح احتمال أن تكون الأخبار، التي كان روسلر يتلقاها من برلين، وتحمل اسم «فيرتر»، جاءته من أشخاص ينتمون

إلى هذه الحلقة البرلينية، مع أن الأمر لا يتعلق هنا بجواسيس بالمعنى الموروث للكلمة[24].

مواقع رخوة في الاستخبارات السويسرية

تلقت سويسرا خلال الحرب العالمية الثانية كما هائلا من المعلومات، وصلها عن سابق تصميم أو عن غير قصد من ألمانيا. في هذا السياق، برز أحد الصحافيين كمصدر متميز للأخبار، التي وصلت إلى سويسرا، كما يخبرنا بالتفصيل كتاب إمينيجر الموسوم: ك.ن كان يعلم، حيث كان يختبئ تحت الاسم المستعار ك.ن الصحافي الاقتصادي دكتور ك. ج. ماير، الذي عمل في السابق لمصلحة جريدة زيوريخ الجديدة[25]، وكان يمتلك كهاوسمان صلات ممتازة بدوائر الاقتصاد والسياسة والقوات المسلحة المقررة في ألمانيا، عرف كيف يضعها بمهارة رفيعة في خدمة الاستخبارات السويسرية. تترك قائمة المخبرين التلقائيين، التي ينشرها إيمينجر، انطباعا عظيما لدى من يقرأها. وتطرح السؤال حول ما إذا كان هؤلاء قد ثرثروا بمحض اختيارهم، أم محضوا شريكهم ثقة مطلقة، في حال كانوا في صورة ما يجري، وهي أن معلوماتهم لن تحمي سويسرا فقط، بل ستجد طريقها إلى أجهزة استخبارات أخرى، بمجرد أن يتم تقويمها بطريقة ملائمة، الأمر الذي لم ينفه أحد.

ثمة هنا شيء يثير الاهتمام، هو التوقيت الذي بدأ فيه نشاط روسلر لمصلحة رادو، والتوقيت الذي توقفت فيه شبكة الأخير نتيجة تدخل السلطات السويسرية الاتحادية. فقد تزامن التوقيت الأول مع بداية نشاط دالاس خريف سنة 1942 في سويسرا، ووقع الثاني نهاية سنة 1943، عندما انتفت بالنسبة إلى الحلفاء الغربيين الأسباب الإضافية، التي كان من شأنها تسهيل تقدم الجيش الأحمر نحو الغرب. كما أنهم تخلوا بهذا القدر أو ذاك عن وكالة رادوس في هذا الوقت بالذات، لأنهم لم يعودوا بحاجة إليها، بعد

أن كسبوا في تلك الفترة مصادر معلومات أفضل بكثير تحتل أعلى المناصب النازية، مثلما يجب أن يكون دالاس نفسه قد كسب بعضها أيضاً. ازدهرت، منذ نهاية سنة 1943، الخيانة في الرايش الثالث، علما بأن الخونة لم ينتموا إلى دائرة حركة التجديد المحيطة بالعماد بيك، بل انتسبوا بصورة رئيسة إلى مصالح الـ إس إس، لسبب بسيط هو أن من يصعد بسرعة يميل دوماً إلى البقاء بين المنتصرين، وإن تخلى عما كان ينتسب إليه لفظياً حتى الآن، ومال إلى عبادة ما كان كفاحه موجهاً ضده من قبل. هؤلاء الخونة في المراكز النازية العليا، هم الذين ألغوا حاجة الحلفاء الغربيين إلى الجاسوسية التقليدية، وكانوا بالتأكيد أكثر مخبريهم أهمية في ألمانيا عند نهاية الحرب، رغم أنهم لم يعرفوا ولم يعايشوا كل شيء[26].

ثمة قصة تروى في هذا السياق، لا تفتقر إلى جانب ساخر. يخبرنا السويسري كورتس عن «ضابط مراسل» ألماني هو قطعا مراسل في مقر الفوهرر الرئيس، كان يبلغ السويسريين بالتنقلات المهمة في وقت مبكر. يقول كورتس حرفيا: «هكذا عرفنا على سبيل المثال بنقل مقر الفوهرر الرئيس إلى تسيجنبرج، وقد تم قبل بداية الحملة في الغرب». هنا، يجب على من كان يعرف الأمور أن يصيب السويسريين بخيبة متأخرة، لأن ما نقل إليهم لم يكن صحيحاً. صحيح أن بناء قصر تسيجنبرج غرب بادناوهايم في تاونوس كان قد استكمل ليكون مقرا رئيسا للفوهرر، من أجل حملة الغرب، لكن هتلر لم يسكنه أبدا، فقد سافر يوم 9 أيار/ مايو سنة 1940 عن طريق هامبورج إلى «عش الصخور»، الذي كان قد تم إعداده مقراً رئيسا له في روديرت قرب مونسترآيفل، ووصل إليه في الخامسة وثلاثين دقيقة من صباح يوم العاشر من أيار/ مايو[1].

(1) هيلجروبر، أندرياس: استراتيجية هتلر. السياسة وإدارة الحرب 1940/ 1941. فرانكفورت على الماين، 1965: «المرشد إلى هتلر بين 1 ـ 9 ـ 1939 ـ 31 ـ 12 ـ 1941. ص 671.

كان السويسريون يخصون قصر تسيجنبرج باهتمام خاص، لأنه كان قد جهز بالفعل كمقر رئيس لهتلر، ودمر مطلع سنة 1945 بفعل هجمات جوية شديدة شنها طيران الحلفاء الغربيين، لكن ملاجئه صمدت. لا يسع المرء أن ينفي احتمال أن تكون الاستخبارات الغربية في سويسرا قد علمت من «المواقع الرخوة» في الاستخبارات السويسرية، التي لم ينف أحد وجودها، بأهمية القصر كمركز قيادي، وحاولت القضاء عليه. لقد احترق القصر، الذي كان آنذاك مقر رئيس للقائد الأعلى في الغرب، وإن لم يصب أحد فيه بأذى، بفضل ملاجئه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

حول صدقية الجاسوسية

1

لوحظ في ثلاثينايت القرن الماضي ميل أنجبه العصر، عم إنجلترا وامتد فشمل أجهزة الاستخبارات جميعها في الدول الكبيرة، هو الميل إلى المنهجية والعقلانية والعمل العلمي. وكان قد أجري كشف حساب حول أجهزة الاستخبارات في الحرب العالمية الأولى، وتم تحديد وبلورة وتقويم النتائج والإخفاقات نقديا، وبدأ «نقد المناورات» يؤتي ثماره. أما النتيجة التي تمخضت عن ذلك، فكانت جلية: لم تعد الجاسوسية التقليدية مرضية، وعليها أن تتراجع. ومن الضروري أن يقوم استكشاف العدو على أسس علمية. بذلك، بدأت حقبة جديدة بالنسبة إلى الاستخبارات الأوروبية، أو أخذت تفرض نفسها تدريجياً.

ولقد تعلم المرء دروسا من نقاط ضعف أساليب الجاسوسية الموروثة، التي برزت بينها بدرجة أولى طرقها في إيصال المعلومات بما كانت تتطلبه من وقت طويل، وكثرة الإنفاق على العملاء، وكثرة أخطاء المصادر، الناجمة عن الإخفاق البشري، أو عيوب التقدير والحكم، والتزوير المقصود وإيصال أخبار وهمية إلى جانب معلومات مهمة يكون الزمن قد تخطاها عندما تصل إلى المركز. بينما كانت الاستفسارات، الضرورية في معظم هذه الحالات، تتطلب بدورها وقتا إضافيا. لئن كان اللاسلكي قد أنجز تقدما

عملاقاً، وتمكن من تخطي الزمان والمكان، فإنه غدا كذلك مصدر معلومات بالنسبة إلى الطرف الآخر أيضاً، حين كان ينجح في اختراق شيفرته وفك رسائله. غير أن الفارق الأكبر بقي ولا زال العملاء أنفسهم، أو ما سمي رجال ونساء الثقة، الذين كانوا لا يستحقون الثقة. ترى، من كان يعرف هؤلاء ويعلم بواعثهم؟. ومن كان يضمن موثوقية تقاريرهم، وماهية المعلومات التي يرسلونها؟. صحيح، أن ما كان يسمى «الجاسوسية الاجتماعية» من الدوائر الأولى، المحيطة بالأركان والحكومة، كان يقدم بعض الكشوف، لكن الثرثرة غالباً ما كانت ترجح فيها على الوقائع الجوهرية. ثم إنه لم يكن مستبعدا أبدا أن لا يتحول العملاء الناجحون والأذكياء بالذات، الذين كانت عيونهم وآذانهم في كل مكان، إلى عملاء مزدوجين يخدمون الطرف الآخر أيضاً. ثم، كم من جواسيس وعملاء ضاعوا في العدم، قبل أن يتمكنوا من إرسال أخبار !. وهل بوسع عميل ينشط في بلدان محددة أن لا يضع في حسبانه الحكم بالإعدام، وخاصة في أزمنة الحرب، إذا ما قبض عليه؟. ليس هناك إحصاءات حول نجاحات العملاء وإخفاقاتهم، ولا يوجد جهاز استخبارات واحد على استعداد للاعتراف بحجم خسائره، وما الذي أدت إليه عملياته. لذلك، نفتقر إلى أعداد ومستندات، مثلما نفتقر إلى تقديرات ذات صدقية. وللعلم، فإن واحداً من كل عميلين إما قبض عليه أو التحق بالعدو بين سنتي 1936 و1945، كما وقع بعضهم في قبضة العدو بينما كان يدخل الأرض الأجنبية. وكم من عميل غاب نهائياً في العتمة والضباب!. كلا. هذه الطريقة في جمع الأخبار ليست جديرة بأن يعتمد عليها، ولا بد من إيجاد طرق أفضل منها. وهكذا، حل التقصي بصورة متزايدة محل التجسس[1]، وصار على المرء أن

(1) هذه التأملات وجد المؤلف نفسه مشغولا بها خريف سنة 1939 أثناء خدمته كضابط أركان ثالث لدى قيادة الجيش العليا 18. إلى هذا، ثمة دراسة غير منشورة كتبها سنة 1945، عنوانها «معرفة وعلم العدو».

يجمع في السلام معارف استباقية عن الجيوش الأجنبية، خاصة تلك التي يمكن أن تكون عدواً محتملاً في الحرب. بذلك تطور علم الجيوش، وأسلحة الجو والبحر الأجنبية، وتم استخدام خبراء على درجة خاصة من التأهيل، يعرفون البلد المعني، ويتقنون اللغة، ويمتلكون أساسا راسخا من المعرفة بالنفسية الأجنبية. إن الرائد في حينه إرنست كوسترينج، المولود في روسيا، هو، على سبيل المثال، المؤسس الأصلي لشعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، التي قادها في وزارة دفاع الرايش العماد فون سيكت، فأكبت أول الأمر على مراقبة ودراسة الجيش الأحمر بطرق منهجية[1].

انبثقت الحاجة إلى جمع المعلومات عن غير طريق العملاء عن إكراهات عملية، فقد سادت مناطق الحكم الشمولي، وهي الاتحاد السوفياتي أولاً ثم ألمانيا بعد استيلاء الحزب النازي على الحكم سنة 1933، سرية صارمة، وسيطرت شرطة دولة سرية ذات حضور مطلق، جعلت ممارسة الجاسوسية التقليدية صعبة إلى أبعد حد، بل وتكاد تكون مستحيلة. لذلك لم يكن ممكناً الحصول إلا على معلومات شحيحة جدا من روسيا، كما يقول كوسترينج بصورة متكررة[2]. بدورها، وجدت الجاسوسية السوفياتية نفسها مجبرة على الانسحاب من الرايش الألماني، حيث كان عملها شديد الخطورة. عندئذ، بدأت تراقب ألمانيا من سويسرا وبلجيكا وفرنسا، بعد أن كانت تراقبها من تشيكوسلوفاكيا. بالمقابل، حصل قسم مكافحة التجسس الألماني على معلومات حول الجيش الأحمر والاتحاد السوفياتي من دول البلطيق، وخاصة من أستونيا، ومن المجر وتركيا وبلاد فارس[28]. فيما بعد، أضيفت رومانيا إلى القائمة، غير أن المعارف التي تم اكتسابها بهذه الطريقة بقيت جزئية.

(1) كرسترينج، مرجع سابق، ص 43.

(2) كوسترينج، ص 54: نشاطي العسكري في روسيا: 1931-1933.

ثمة لحظة سلبية أخرى، هي أن الجاسوس لم يكن عادة خبيرا عسكريا. ذلك أنه يوجد قانون غير مكتوب يطبق على كل حال في الغرب، يقول بعدم استخدام الضباط كعملاء، واشتغال الملحق العسكري في الجاسوسية[1]. أما الاتحاد السوفياتي فكان يبعث بالضباط ليكونوا جواسيس في البلدان الأجنبية، رغم أن غير العسكريين كانت لهم غلبة عددية في الجاسوسية السوفياتية أيضاً، وإن تلقوا فيما بعد رتبا عسكرية أو تم ترفيعهم، مكافأة لهم على خدمات ثمينة قدموها، حتى إن الكساندر رادو، الملقب بدورا، مدير البعثة السوفياتية في سويسرا، نال آخر الأمر رتبة عقيد في الجيش الأحمر، لكن هذا لم يحل دون بقائه هاويا من الناحية العسكرية، أرسل إلى موسكو بطريقة عشوائية إلى هذا الحد أو ذاك ما كان عملاؤه يبلغونه به.

انتقل السوفيات إلى الاستطلاع العلمي متأخرين بعض الشيء عن الألمان والحلفاء الغربيين. ولم يحققوا نقلتهم هذه إلا في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. إنهم شعب يحب السرية والتآمر، وسيبقى على حبه لهما، لهذا ظهر لديه عدد من المخبرين والعملاء لم يعرفه أي مكان آخر في العالم: هذه الصفة هي جزء من تقاليد الشعب وطبيعته، وقد فرضت نفسها بعد ثورة تشرين أول/أكتوبر سنة 1917، إلى أن غدت أشد سوءا وتفاقما مما كانت عليه في أي وقت سابق. وإن ديفيد داللين، أفضل عارف بروسيا السوفياتية، لعلى حق حين يقول: «لم يعرف التاريخ حكومة فاقت ثقتها بجهاز الاستخبارات السري ثقة الحكومة السوفياتية به، وعزت له أهمية أعظم من الأهمية التي أولته إياها[30]. ولم يكن هناك قط حكومة فاقتها جوعا إلى المعلومات حول البلدان الأخرى»[2]. هذا الجوع تؤكده فعليا

3 أنظر أيضا موسترينج، ص 55.

4 داللين، ديفيد: الجاسوسية السوفياتية، ص 7.

الرسائل اللاسلكية، التي نشرناها في هذا الفصل. وهي شديدة الفائدة، لأنها تبين بوضوح نواقص الجاسوسية التقليدية، التي سبق وصفها في مقطع سابق.

ما تشي به الاتصالات اللاسلكية بين موسكو وسويسرا

جاء الكساندر رادو، الشيوعي المجري القديم، سنة 1938 إلى سويسرا، فكان «عميلا صامتا»[1] أول الأمر، تخفى بصورة ممتازة في جنيف كمدير لمكتب الصحافة الدولية للخرائط، المسمى «جيوبرس»، ولم يبدأ بإرسال معلومات سرية باللاسلكي إلى موسكو إلا قبل نهاية سنة 1941، قبل فترة من اعتداء هتلر على روسيا. وكانت قد تأسست في سويسرا شبكة قوية من العملاء والمخبرين والمراسلين، وضعت تحت تصرف «دورا»، الذي أرسل آلاف الرسائل اللاسلكية خلال السنتين 1941 و1943، قبل أن يضطر للاختباء وتنكشف الشبكة.

خلال الحرب العالمية الثانية، كانت سويسرا المحايدة، شأنها في ذلك شأن تركيا والبرتغال، أرضاً ملائمة بصورة خاصة للجاسوسية بأسلوب «8/ 15»، إن كان لنا أن نسمح لأنفسنا باستخدام تعبيرات كهذه[31]. وقد كان في سائر المدن الكبيرة سوق نظامية لتجارة المعلومات السرية ـ أو التي ظن المرء أنها سرية ـ اقتصرت سلعها غالباً على أخبار أخذت من الصحافة السويسرية الحسنة الاطلاع وأعيدت صياغتها. لذلك كانت الأخبار التي بعثها دورا إلى موسكو شحيحة أول الأمر، ومع أنه أرسل فيما بعد أنباء هامة، فإن عدداً كبيراً من «المعلومات السرية» كان مجرد عموميات، يتضح ذلك

(1) ساندور رادو: الاسم السري دورا، ترجمه عن الهنجارية جوزيف فاركاس، شتوتجارت، 1972.

من مستندات الرسائل اللاسلكية المتوفرة، التي التقطها قسم التنصت اللاسلكي الألماني وفك رموزها[1].

للتدليل على صحة ما أقول، جمعت رسائل لاسلكية فكت شيفراتها، تتعلق بإيطاليا، جارة سويسرا، حيث لم يكن الاستطلاع وجمع المعلومات والأخبار صعبين. تبين هذه الرسائل بالذات نواقص معظم عملاء الجاسوسية، وعيوب مصادرهم المزعومة. يفسر هذا، لماذا كانت موسكو تكثر من استفساراتها، وتحذيراتها، وتكليفاتها، التي لا نملك، لأسفنا الشديد، ردود دورا على معظمها. لذلك، لا نعتبر هذه الرسائل اللاسلكية كاملة، وقد ألحقنا بكل واحدة منها تعليقاً قصيراً كتبه ضابط أركان سابق لدى دائرة «الجنرال الألماني المفوض لدى المقر الرئيس للقوات المسلحة الإيطالية»، يجعل فهمها أفضل. تقول الرسائل اللاسلكية، التي تنشر هنا لأول مرة، ما نصه:

21/ 9/ 1941

إلى المدير

أخبرنا الملحق العسكري السويسري، الذي وصل إلى هنا، عن توتر متعاظم بين الجيش الإيطالي والحزب الفاشي.

دورا

تعليق: هذا ما كان يعرفه كل إنسان (هذا ما كانت تعلنه زقزقة العصافير من فوق الأسطح).

21/ 10/ 1941

(1) في حوزة المؤلف نسخ من النصوص الأصلية.

إلى المدير

من سالتر

يركز الألمان قوات بين ميونيخ وبيرن خشية انقلاب محتمل في إيطاليا. يواصل الإيطاليون تحصين حدودهم الشمالية.

تعليق: المعلومات حول تمركز قوات ألمانية في المكان المسمى والزمن المعلن خاطئة، أو هي إشاعة هادفة نشرتها أجهزة الاستخبارات الخارجية.

1941 /12 /6

إلى المدير

تقول دوائر ديبلوماسية صينيه أن 400000 (!) ألماني يحتلون جميع النقاط الاستراتيجية في إيطاليا لضمان عدم قيام إيطاليا بعقد سلام منفرد. الأجواء في إيطاليا معادية للألمان بصورة متزايدة، ومعادية لشيانو (وزير خارجية إيطاليا الفاشية ـ المعرِّب) بصورة خاصة.

دورا

تعليق: الأرقام هراء.

قبل هذا، كانت هذه المعلومات وسواها من معلومات تلك الفترة، التي لا نمتلكها، قد بدت للمركز في موسكو عائمة وقليلة الصدقية. لذلك بعثت باستفسارات كالتالية (بعد سنة تقريباً).

1942 /11 /22

إلى دورا

نرجو بإلحاح التأكد من:

1) عدد الفرق التي أدخلت من ألمانيا إلى مناطق فرنسا التي لم تكن محتلة؟. أرقام هذه الفرق وأماكن تمركزها؟.

2) هل أرسلت ألمانيا وحدات مقاتلة إلى إيطاليا والبلقان؟. كم عددها وما هي أرقام القوات المرسلة؟.

3) كم عدد القوات التي أرسلتها ألمانيا إلى أفريقيا؟. أرقام هذه الوحدات؟.

4) انتبهوا جيدا إلى الوضع في جنوب أوروبا، وأخبرونا بصورة دورية عنه.

المدير

تعليق: حدث الدخول إلى الأراضي الفرنسية التي لم تكن قد احتلت بعد يوم 11/ 11/ 1942. بعد أحد عشر يوما من ذلك، كانت موسكو تجهل حجم تحركات القوات الألمانية، رغم شبكة الجاسوسية المتشعبة جدا، التابعة لها. وعلى كل حال، نحن هنا إزاء مسألة رقابية، لأن المدير بعث بالرسالة اللاسلكية الآتية:

13/ 12/ 1942

إلى دورا

راقبوا فوراً بواسطة مجموعة تايلور[1] المعلومات المهمة من جراو حول وصول محتمل لعشر فرق من قوات جيش فرنسا بقيادة الجنرال فون

(1) حسب تقرير كشف الحساب، الذي وضعه هانس رودلف كورتس: سويسرا كمركز أخبار، فراونفيلد وشتوتجارت 1972، كان تايلور = شنايدر الوسيط الذي ينقل المعلومات بين روسلر (لوسي) و«سيسي «=دوبندورفر، الذي كان يوصلها من جانبه إلى رادو.

فيتسليبن. رئيس أركان الجيش مايلاند. المدير

تعليق: كان المارشال فون فيتسليبن قد استبدل في شباط/فبراير من سنة 1942 كآمر أعلى للغرب، وحل مكانه المارشال رونشتيدت. وكان الآمر الأعلى قد أرسل وحدات كبيرة إلى إيطاليا، لكن عدد الفرق (10 فرق) كان مبالغاً به كثيراً.

1942/12/14

إلى دورا

1) ماذا كان جواب بوخارست على البيت الملكي الإيطالي، وماذا كان في رأيكم سبب السؤال؟.

2) كيف هو مزاج الشعب والحكومة والفاشيين وموسوليني والعسكريين في إيطاليا؟. ما عدد القوات الألمانية؟. المدير

تعليق: حول 1) يتعلق الأمر هنا بشائعات راجت آنذاك في الأوساط الديبلوماسية، من غير الممكن التأكد من صحتها.

حول 2): من الواضح أن المقر السويسري كان يفتقر إلى الاتصالات الضرورية، التي كان من شأنها أن تمكنه من القيام بتقويم دقيق للوضع في إيطاليا نهاية كانون الأول/ديسمبر من سنة 1942، أي قبل كارثة ستالينغراد.

أما سؤال يوم 1942/12/22 عن عدد القوات الألمانية فهو يتكرر بإلحاح يوم

1942/12/28

كم عدد القوات الألمانية وأي منها يوجد في إيطاليا ؟

المدير

ليس الجواب معروفا.

1943 /1 /8

إلى دورا

من يحضر للحكومة الجديدة في إيطاليا، ومن سيشارك فيها؟. وهل تشكل في إيطاليا وحدات جديدة لإرسالها إلى الجبهة الشرقية؟. مواليد أي أعوام يساقون إلى الخدمة في ألمانيا؟. كم عدد من بلغوا سن الخامسة والعشرين؟. المدير

تعليق: لم يكن باستطاعة أحد آنذاك الإجابة على السؤال الأول، إلا عميل يحظى بثقة الملك الإيطالي أو بثقة المارشال باداجليو. أما الجواب على السؤال الثاني فقد جاء غائما جدا. بينما كان يمكن تلقي جواب أفضل على السؤال الثالث من أسرى الحرب الألمان، لذا نعتبره سؤالا رقابيا.

أخيراً تفقد موسكو صبرها وتبرق:

1943 /1 /12

إلى دورا

ثمة شك في المعطيات التي تقدر عدد الفرق الألمانية في إيطاليا ب25 أو 30 فرقة. وليس مفهوما من أين تأتي هذه الفرق. نرجوكم فحص جميع مصادركم وموافاتنا بمعلومات أكيدة حول عدد الفرق الألمانية في إيطاليا، ما هي وأين تتمركز وعدد وحداتها. ألا يستطيع باكبو[1] الحصول على معلومات من الاستخبارات السويسرية، التي يجب أن يكون لديها الخبر اليقين؟. المدير

(1) حسب تقرير كورتس، كان باكبو، قائد مجموعة من مدبري الأخبار الغربيين، مورد الأخبار الأهم بالنسبة إلى رادو،

تعليق: يتكرر هذا السؤال في البرقيات الملتقطة للمرة الثالثة خلال قرابة فصل. أما ما كان دورا قد أبرق به إلى موسكو، فلم يكن معلومات استخبارية بل شائعات، في حين أن مطالبة دورا بالحصول على مستندات من الصحافي باكبو / بونتر من وكالة الأنباء السويسرية، تعد انتهاكاً لحياد سويسرا، وهي مطالبة طائشة، لأنه كان من شأن كشفها إعطاء ألمانيا ذريعة ضد سويسرا واستخباراتها.

تتجدد المطالبة بعد يومين:

1943 /1 /14

إلى دورا

على روت أن يقول من أين أرسلت ألمانيا ثلاثين فرقة إلى إيطاليا. ما وضع الاحتياطي في ألمانيا؟. المدير

تعليق: حدث هذا قبل قليل من استسلام الجيش السادس في ستالينغراد. لذا، يعتبر السؤال حول الاحتياطي الميداني مهم جدا بالنسبة إلى القيادة السوفياتية.

لم تتلق موسكو رسالة لاسلكية تشير إلى وصول رد مرض على سؤالها. ولم تكن لديها صورة صحيحة عن الاحتياطي الألماني، لأن وصول فرق الـ إس إس من الغرب إلى مجموعة جيش الجنوب (فون مانشتاين) في شباط/ فبراير كان مفاجئا بالنسبة لها.

بالمقابل، كانت المعلومة التالية صحيحة، لأن مصدرها كان متعاطفاً مع الشيوعية يعمل في مصنع أسلحة أورليكون:

1943 /1 /27

إلى المدير

من الأخ !

أ) زود مصنع أسلحة أورليكون الألمان سنة 1942 بمدافع من عيار 20 مليمتراً للدفاع الأرضي عددها 1185، وضد السفن عددها 1004، وضد الطائرات عددها 1230، وزودهم ب 1600 سبطانة احتياطية، و 8550 حاوية كبيرة، و700 متوسطة و8600 صغيرة.

ب) تم طلب 1000 مدفع مضاد للسفن، 10000 حاوية، 8 ملايين قنبلة من عيار 20 مليمتراً، ملايين كثيرة من صواعق قنابل 75 مليمتراً. دورا

لكن الرسالة اللاسلكية التالية تعد نموذجية في ما يتعلق بافتقار تقارير عملاء كثيرة إلى مضمون:

1943 /4 /3

إلى المدير

من فيرتر (هذه رسالة خرجت من القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية مباشرة)

الهجمات التي يشنها فون أرنيم[1] منذ الرابع من آذار/مارس يراد بها الاستيلاء على شمال تونس بأكمله.

تعليق: ذلك كان أمراً بديهياً. لم تكن موسكو بحاجة إلى عميل كي تحصل على «معلومة» كهذه.

يوجد ما يماثل هذه المراسلات اللاسلكية في مجالات الحرب

(1) اللواء فون أرنيم، القائد الأعلى للجيش المدرع الخامس في تونس.

الأخرى، فهي توضح التناقض بين ما يستطيع العملاء، وما لا يستطيعون الحصول عليه. وتؤكد مرة أخرى أن مراكز الأخبار، التي تعمل على رسم صورة عامة صحيحة حول القدرة الإجمالية لقوى العدو، هي التي تقوم بالعمل الأكثر أهمية في الاستخبارات السرية، وليس الجاسوس أو العميل، مهما اختلق التلفيق من إثارة حولهما أو تم تضخيم أنصاف الحقائق عنهما. هذه المراكز هي الجهة التي يرتبط نجاح العمل بها، فهي تحتاج، إذن، إلى معلومات دقيقة وموضوعية وتفاصيل صحيحة، خاصة حول وضع الاحتياطي الميداني.

هكذا تطور في غرب أوروبا تقسيم ثنائي لأجهزة الاستخبارات، اشترطته وظائفها المختلفة، تجسد في تدبير الأخبار وجمعها وتقويمها، علماً بأن للمهمة الأخيرة مهمة رئيس هي: أن تكون الدماغ الحقيقي ـ او بنك المعلومات، كما نقول اليوم ـ لجهاز الاستخبارات. وقد كان رأس وضمير هذا القسم ـ أول الأمر وبالدرجة الأولى ـ في ألمانيا الشعبة الثالثة من أركان الجيش العامة، التي حملت اسم شعبة «الجيوش الأجنبية»، وقسمت فيما بعد إلى الشعبة الثالثة والثانية عشرة، المسماة «الجيوش الأجنبية غرب» و«الجيوش الأجنبية شرق». وهي شعب كان هناك ما يماثلها لدى فروع القوات المسلحة هي شعبة «أسلحة الجو الأجنبية» و«البحريات الأجنبية». وقد تم إخبار الرأي العام حول القسمات العامة لعمل شعبتي «الجيوش الأجنبية غرب» و«الجيوش الأجنبية شرق»، بعد أن نشر رئيساها اللواء ليس ثم اللواء جيهلن مذكراتهما. صحيح أنهما لم يبوحا بكل ما في جعبتهما من أسرار، لكن مذكراتهما تسمح بإلقاء نظرة صائبة على عملهما. كانت تعليمات ومراسلات الخدمة الرسمية تسمي المهام التي تقومان بها في الحرب وكالة أنباء العدو، بينما سميت «المكافحة» وكالة المراسلات السرية. إذا ما نظرنا إليها بدقة، وجدنا أن وكالة المراسلات السرية كانت مجرد

مساعد ومعاون لوكالة أنباء العدو. لذا، من التضليل اعتبار «المكافحة» مساوية ببساطة لجهاز الاستخبارات الألماني، وقد جاء الوقت لنبين هنا التصور الصحيح، بعد مرور فترة تربو على جيل، منذ انتهت الحرب العالمية الثانية.

obeikandl.com

الفصل الرابع

انتقال نقاط الثقل

تعتبر الاستخبارات، في جميع الأحوال، ضرباً من الجاسوسية، لكنها جاسوسية بصورة جزئية ومشروطة. ولديها مصادر معلومات كثيرة، وستكتشف دوماً مصادر جديدة، ما دامت الرؤوس الذكية والمبتكرة تعمل في مختبراتها، بينها ما يسمى المادة المفتوحة، من أدب مختص وجرائد ومجلات وكتب، التي تبين أنها تنقل إلينا كما من المعارف أكبر مما نحصل عليه بواسطة مخبرين مرتفعي الأجر، وأننا نحتاج فقط إلى دراستها بعناية، ومعرفة كيفية تقويم إشاراتها ومعطياتها الجزئية. أذكر هنا أن مولتكه القديم، هذا الرأس العلمي بامتياز بين جنود القرن التاسع عشر القياديين، حسب سنة 1870 تقدم الجيش الفرنسي على الجبهة الشرقية بمعونة دليل سفر عادي، وأن «الجيوش الأجنبية غرب» في شعبة الأركان العامة في القيادة العليا للجيش الألماني توصلت إلى شيء مماثل بعد 69 عاما[1]. وأن تحقيق ذلك لم يكن بحاجة إلى «رجال ثقة» و«جواسيس وعملاء»[32].

ثمة، بطبيعة الحال، فارق كبير بين الحرب والسلام، في ما يخص حصول الاستخبارات على المعلومات. إن ما هو ممكن في السلام، كالانتقال الحر من بلد إلى آخر، يصير مقيداً أو محظوراً في الحرب، حيث تكون اليقظة أكبر، والرقابة أشد، وتنشأ جبهات يصعب اختراقها، وتهدد

(1) انظر: ليس، ص 96.

بعض البلدان الجاسوس بالموت، بما في ذلك سويسرا ذاتها، التي أصدرت 33 حكماً بالموت نفذت 17 منها خلال الحرب. تتدفق في السلام منابع المعلومات المفتوحة بثراء أعظم، بينما تشح أو تنضب تماماً في الحرب، مع أن الاستخبارات اكتسبت خلال الحرب العالمية قدرات جديدة، ترجع إلى وجود متعاطفين كثر مع النظم المعادية، عملوا ضد بلدانهم لأسباب أيديولوجية ـ أو خانوها بسبب افتقارهم إلى الحذر. وقد أفاد الرايش الثالث حتى سنة 1942 من هذه الظاهرة أكثر مما أفادت موسكو، وهذا أمر ليس معروفاً بعد على حقيقته، حتى إنه لم يسبق لوكالة أنباء عدو أن عرفت عن الجانب المقابل ما كانت تعرفه «الجيوش الأجنبية شرق» إبان الحملة على روسيا[33]. أخيراً، كسب الاستطلاع والتنصت اللاسلكي خلال الحرب أعداداً كبيرة من «المصادر الأكيدة»، سنتعرف إليها بالتفصيل فيما بعد. ذلك أحدث انتقالا في نقاط ثقل العمل الاستخباري.

مهام وكالة أنباء العدو

بعد حملة بولونيا سنة 1939، والنرويج والغرب سنة 1940، انكبت قيادة الجيش العليا مطلع سنة 1941 على إجراء فحص نقدي طال تجارب جمع المعلومات عن العدو وتقويمها، وصاغ توجيهات خدمة اتفقت مع النتائج التي استخلصتها. أقر رئيس أركان الجيش في حينه، العماد هالدر، في الأول من آذار/مارس سنة 1941 مشروع لائحة سرية للجيش، حملت اسم وكالة أنباء العدو، فغدت ملزمة لضباط شعبة الأركان الثالثة في القيادة، بدءاً من شعبة «الجيوش الأجنبية» في قيادة الجيش العليا إلى المختصين بالعدو في أركان الفرق. وقد استعين في وضعها بممارسي الخدمة الرئيسيين. لذلك، أثبت المشروع جدارته، ولم تنشأ خلال الحرب حاجة إلى استبداله بصيغة جديدة ونهائية.

لن أورد هنا تفاصيل فصول وأرقام اللائحة، فهي لا تخص غير الخبير. مع ذلك، تستحق بعض أجزائها اهتماماً عاما، وخاصة منها جزء المقدمة الأول، الذي يبين مهمة الوكالة. تقول الفقرة المعنية: «لوكالة أنباء العدو أهمية كبيرة بالنسبة إلى القيادة، فهي، تقدم، انطلاقا من مهامها الخاصة، المستندات الأكثر أهمية، الضرورية لتقويم وضع العدو ولاتخاذ القرارات، وتمد قادة القوات بصورة واضحة قدر المستطاع حول توزيع قوى ونوايا (وإمكانات)، وأساليب قتال العدو وقيمته العسكرية، فتسهل قيام القوات الصديقة بمكافحته بفاعلية». هذا ما يقوله البند الأول من لائحة الوكالة. أما أن الاستخبارات العسكرية الروسية عملت بطريقة مشابهة، فيتضح من استفسارات موسكو، التي استشهدنا بها في مقطع سابق. يتأكد هذا التطابق أيضاً من خلال المهام، التي كلف المدير «دورا» بها، الأمر الذي لم يكن وليد المصادفة، فقد زارت في نهاية العشرينات شلة من الضباط السوفيات أكاديمية الحرب الألمانية، رغم أنها كانت محاطة بالسرية آنذاك، ودأبت على متابعة أعمال الألمان المنهجية. وفي جميع الأحوال، تدل اللائحة على وجود حس متزايد بالطريقة والنزعة النقدية العلميتين، وتحذر حتى في مبادئها من الوهم الذي يقول بقدرة المرء بلوغ وضوح تام حول قوة العدو ونواياه. أما ضربات الحظ (كالرسالة اللاسلكية، التي بعث بها القائدان الروسيان حول نواياهما قبل معركة تاننبرج سنة 1914) فليس بالإمكان أخذها في الحسبان إلا في حالات استثنائية. وعلى الوكالة تحرير نفسها من الآراء المسبقة، وفحص ما تحصل عليه من معلومات بطريقة نقدية، واستغلال سائر الإمكانات من أجل كسب معارف جديدة. من الأهمية بمكان، أيضاً، معرفة الصفات القومية وبعض أنماط السلوك المحددة للجيوش الأجنبية، ومن المفيد كذلك تقصي طبائع قادة الجيوش الأجانب وسماتها (لكل واحد منهم خط مختلف كما يقول كلاوزيفتز). وتضيف

اللائحة أن على الوكالة فرض متطلبات عالية على ضباطها، الذين يحتاجون عادة إلى تأهيل وتدريب خاصين في الأركان العامة، لكن حاجتهم تبقى أكبر إلى أفكار خاصة بهم. وعليهم أن يعرفوا عن يقين أسس القيادة الخاصة بهم، وتلك التي لدى الأجانب، ويعرفوا بدقة الجيش الذي عليهم التعامل معه. عندئذ فقط يكونون في وضع يستطيعون معه تفسير ما يصلهم من أخبار ومعلومات بصورة صحيحة، ووضعه في السياق الملائم، وتحديد مهام ملائمة تتعلق بمتابعة استطلاع العدو. يقول المطلب الموجه إلى معالجي شؤون العدو في سائر صعد التراتب العسكري بلهجة قاطعة: «يتطلب الاستطلاع والتقويم عملاً مضبوطاً متواصلاً ومضنياً، يجمّع في أقصر وقت صورة متماسكة عن تنظيم العدو ونواياه، يستمدها من أخبار تفصيلية كثيرة، متناقضة جزئياً، توجد غالباً في أماكن خفية ولا تقبل التفسير بغير مشقة في معظم الأحيان». يلفت النظر في الرسائل اللاسلكية الأصلية، التي أوردناها أعلاه، كونها تحيل إلى مصدر واحد بصورة دائمة على وجه التقريب. هذا المبدأ ينطبق على سائر أجهزة الاستخبارات، ويتم التقيد به دون قيد أو شرط، فالمرء يريد أن يعرف مصدر معلومات معينة، ويعلم أن ورود إسم ما قد يعني ختماً يشهد على الجودة، حتى إن تعلق الأمر «باسم حرب» (أنظر الاسم السري باكبو في التكليف الأخير الذي طلبته موسكو). أما الاستفسارات والأسئلة الرقابية، الضرورية لتأكيد الأخبار، فهي هامة، ولا يمكن الاستغناء عنها بدورها في الغالب.

يقول نص اللائحة الحرفي أيضاً إن أفضل خبر يصير بلا معنى، إذا وصل متأخراً جداً إلى من يتلقونه. تكمن مهمة الوكالة الرئيسة، كما يتضح على كل حال من رسائل اللاسلكي المتبادلة بين سويسرا وموسكو، في استطلاع قوة وأماكن تواجد وتنظيم احتياطي العدو الميداني: فإن عرفها المرء، جعلت الخريطة حول وضع العدو نواياه التالية واضحة أغلب

الأحيان، مثلما تقدم تحركات نقل القوات بالسكك الحديد والطرق معلومات كثيرة حول خططه. لذلك، يحتل الاستطلاع الجوي أهمية خاصة، مع أن المناخ يحول غالباً دون القيام به. وكما هو الحال في بقية المجالات، من الضروري التمييز هنا أيضاً بين استطلاع عملياتي بعيد، واستطلاع تكتيكي وثالث قتالي.

ترسم اللائحة حدوداً واضحة بين مهام وكالة أنباء العدو ومهام وكالة المراسلات السرية، أي شعبة «المكافحة» في القيادة العليا للقوات المسلحة. وهي تعترف للأخيرة بكونها أحد أهم مصادر الأخبار في السلام. وتضيف أن نشاطها يصير «في الحرب» أكثر صعوبة بسبب تدابير العدو المضادة، وسقوط بعض العملاء، ومراقبة أو إغلاق الحدود المحايدة»، لذا، يتراجع عند نشوب الحرب بصورة خاصة عدد المعلومات، التي تصل عن طريقها. من جهة أخرى، تكون وكالة المراسلات السرية غالباً الوسيلة الوحيدة لاستطلاع مناطق العدو الخلفية، والوصول إلى عاصمته وإقامة صلات مع شعبه، حيث تشير التجربة إلى وجود مصادر معلومات وأخبار مهمة بصورة خاصة. من جهة أخرى، تؤكد اللائحة أنه «لا يمكن تحاشي ورود أخبار عديمة القيمة وغامضة، تختلط بأخبار الوكالة السرية»، ولا من معين ضد هذا غير التأهيل الجدي قبل كل شيء للمكلفين بالعمل في الوكالة، الذين يقودون العملاء ويحددون مهامهم. ثمة إنجازات ثلاثة لوكالة أنباء العدو تستحق أن تؤكد، صارت جميعها ذات أهمية مبدئية بالنسبة لقيادة الحرب على الجملة. ثمة، من دون شك، ظروف طيبة جداً يجب توفرها، حتى يكون العملاء في وضع يمكنهم من الحصول على مستندات نوعية القيمة، تتعلق بمعلومات عن:

ـ الرسائل اللاسلكية لوزارة الحرب الفرنسية من بداية الحرب سنة

1939 وحتى 10/ 5/ 1940.

- القوة الكاملة للجيش الأحمر، وأخيراً.

- خطة تسليح الولايات المتحدة الأميركية.

هذه إنجازات استطلاعية حققتها شعب «الجيوش الأجنبية» في القيادة العامة للجيش، تنصب الأولى منها على إنجاز حققه «الغرب»، بينما حقق «الشرق» الإنجازين الآخرين. أما التقارير حول هذه الإنجازات فيمكن أخذها من مذكرات رؤساء هذه الشعب: العقيد ضابط شعبة الأركان الثالثة ليس رئيس شعبة «الغرب» والعقيد ضابط شعبة الأركان الثالثة جيهلن رئيس شعبة «الشرق»، فالأمر يتعلق إذن بمعلومات حربية تاريخية من أول يد.

يقول ليس: سطعت الأضواء في تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1939 في استطلاع اللاسلكي، ثم ما لبثت أن وصلت إلى فرانكفورت رسائل برقية مشفرة، كنا قد وعدنا بها، تقول إنه تم الاستماع تدريجيا إلى الاتصالات اللاسلكية الموجهة من وزارة الحرب الفرنسية، الكائنة في شارع سان دومينيك، إلى مجموعات الجيوش، والجيوش، والسلطات الوطنية، وشمال أفريقيا وسوريا. ومع أن المفتاح الفرنسي كان يتغير مرة كل أربعة أسابيع، فإنه كانت تتم قراءة الرسائل البرقية بعد أيام قليلة من تغييره، باستثناء المفتاح، الذي أدخل يوم العاشر من أيار/مايو سنة 1940، فإنه لم يمكن كسره مطلقاً. لكن هذا لم يكن له أي تأثير يذكر، بفضل سرعة جريان الهجوم الألماني». أكدت الرسائل اللاسلكية تنظيم مجموعة الجيوش الفرنسية الثانية، وكذلك الجيش الثامن في منطقة الراين الأعلى. فيما بعد أمكن تأكيد وجود شعبة الجيش (أ)، وفي مطلع السنة تبين قدوم جيوش فرنسية أخرى. إلى ذلك، قدمت الرسائل اللاسلكية معلومات ثمينة، بينها تأسيس مجموعات قوات جديدة. هكذا تكاملت بمرور الوقت صورة إجمالية

من «مصدر وثيق»، وتمكنت وكالة المراسلات السرية، التي انتعشت تدريجياً من جديد، الشروع باستطلاع لاحق طال تفاصيل كثيرة، مكنت الألمان من الحصول على صورة دقيقة للعدو، قبل بدء الهجوم الكبير في الغرب يوم 10 أيار/ مايو 1940.

من الضروري أن تستأثر باهتمام أكبر عملية «الجيوش الأجنبية شرق»، التي استطلعت القوة العددية للجيش الأحمر سنة 1942، ونفذت كلها بفضل الجهد العقلي وحده. كان الألمان يتخبطون في الظلمة أول الأمر، للأسباب المعلومة إياها، وحتى خبير روسيا الجنرال كوسترينج، الذي كان في حينه ملحقا عسكرياً في موسكو، لم يستطع تقديم أي مساعدة، مولتكه (رئيس أركان الجيش البروسي في نهاية القرن التاسع عشر، الذي هزم النمسا وبافاريا وفرنسا ـ المعرب) العجوز يقول: ليست الاستراتيجية إلا منظومة أعمال مساعدة. لقد كان على وكالة أنباء العدو أن تعرف كيف تساعد نفسها، حين تفشل وسائل الاستطلاع الأخرى. وبما أنها كانت تمتلك سنة 1942 أساساً وطيداً تستطيع الانطلاق منه، هو نتائج التعداد السكاني السوفياتي سنة 1939، فقد كان عليها أن تفكر بشيء خارق، هو التقويم المنهجي للإحصاء السكاني في الاتحاد السوفياتي، مع استبعاد الأموات وقتلى الحرب منذ سنة 1939. كرس جيهلن في مذكراته صفحات كثيرة لهذه العملية المعقدة[1]، التي انتهت مطلع سنة 1942، وجعلت الوكالة تقدر قوة الجيش السوفياتي العددية بستة إلى ستة ملايين ونصف مليون رجل، وهو تقدير أكدته معلومات جاءت من مصدر أكيد هو الإذاعة السوفياتية، التي نقلت إعلان لستالين في نهاية آذار/ مارس من سنة 1942 يقول: «. . . وعلي

(1) جيهلن، ص32 وما يليها.

تلبية حاجات جيش من ستة ملايين مقاتل». كما أكد ديبلوماسي أجنبي الرقم ذاته، فصار لدينا هنا أيضاً الشاهدان الشهيران، الضروريان لإعلان الحقيقة.

كانت معرفة الخطط الإجمالية لتسلح الولايات المتحدة أسهل بكثير من تقدير قوة الجيش السوفياتي العددية. فقد أمكن إعادة بنائه بفضل تقويم متأن للصحافة الأمريكية، وتم تقديمه مطلع سنة 1942 إلى القيادة العليا الألمانية لأخذ العلم به[34]. يروي جيهلن قصة طريفة في هذا السياق، تبين الإلفة التي سادت بين زملاء العمل الاستخباري، عندما كانوا يلتقون من جديد في السلام[1]. «سنة 1960، روى لي الجنرال ويديماير، الذي درس في الأكاديمية الحربية الألمانية بين سنتي 1936 و1938، وكان واحداً من أكثر الشخصيات القيادية الأميركية موهبة من الناحية العملياتية خلال الحرب العالمية الثانية، أنه لم يتضح في أي وقت بأي طريقة وصلت هذه الورقة الشديدة السرية إلى الصحافة. كان الجنرال آنذاك ضابط الأركان الأول في شعبة العمليات الأميركية، وعاش أثناء هذه القضية أكثر ساعات حياته إثارة، لكنه خرج من التحقيقات من دون أن توجه إليه أي تهمة. وقد وصف لي القصة... بوضوح شديد: «لقد حفظ الجنود سرهم. لكن مجريات البحث أدت إلى الاشتباه بأن «الموقع الرخو» كان موجوداً في الدائرة المقربة من الرئيس روزفلت».

وهتلر؟. كيف تصرف هتلر تجاه خطط التسلح الأميركية، التي انكشفت وغدت معروفة؟. لقد تصرف بالطريقة التي اعتمدها في الحالات الأخرى أيضاً: فقد اتسم رد فعله بالأحكام المسبقة والآراء الجاهزة، وأعلن خلال أحاديث المائدة[2] أن صناعة السلاح الأميركية ليست في وضع يمكنها

(1) المرجع ذاته، ص 22.

(2) هنري بيكر: أحاديث هتلر على المائدة في مقر الفوهرر الرئيس، شتوتجارت 1977.

من الإسهام في تعويض البريطانيين عن الخسائر في سفنهم، وأن الملايين الثلاثة والعشرين من العاطلين عن العمل (وعديمي الموارد) في أميركا هم مصدر مصاعب دائمة بالنسبة لحكوماتها ولجهدها التسلحي، بالنظر إلى أنهم يعتبرون أنفسهم بروليتاريا تجسد طبقة جديدة. وذكر أنه نجح في إعادة دمج الملايين السبعة، الذين كانوا عاطلين عن العمل عند توليه السلطة، في سيرورة الإنتاج، لأنه نقل الشعب الألماني إلى وضع مثالي إلى أبعد حد بفضل الحركة الاشتراكية القومية. وقدر أن أميركا لن تنجح في إزالة البطالة عبر عملية تسلح واسعة النطاق. وبالمناسبة، فقد بالغ مبالغة دعائية في عدد العاطلين عن العمل من الأميركيين والألمان.

بالمقابل، كان «حملة الأسرار» يبذلون الجهد من أجل الوصول إلى معارف موضوعية. وقد حققوا نجاحاً كبيراً في عملهم، على هذا وذاك الجانب من المرتفع.

تنظيم الاستخبارات الألمانية

لم تكن الاستخبارات الألمانية ككل منظمة بالطريقة الهادفة التي كانت عليها الاستخبارات الإنجليزية والفرنسية. وكانت تفتقر في ظل هتلر إلى رأس موحد قبل كل شيء، وتتكون من منظمات ثلاث يستطيع «الفوهرر» التلاعب بها الواحدة ضد الأخرى، ساعة يشاء. وهو ما فعله آنذاك وفيما بعد. كان هناك بادئ ذي بدء شعبة مكافحة التجسس، أي مكتب الخارج / المكافحة في قيادة القوات المسلحة العليا، التي اكتسبت تحت قيادة الأميرال كاناريس سمعة أسطورية، شاعت في الداخل أكثر من الخارج، مع أنها كانت قد غدت موضع خلاف. مهما يكن من أمر، لا يجوز اعتبار شعبة «المكافحة» كل الاستخبارات الألمانية: فقد كانت إلى جانب وظيفتها المهمة: مكافحة التجسس في المجال العسكري، مكلفة بجمع معلومات غير

شرعية، أي عبر المراسلات السرية، في لغة الجيش. لكن التقويم الأصلي للمعلومات، التي كانت تحصل عليها، وكذلك الاستطلاع البرقي والمصادر الأخرى الشديدة التنوع، الظاهرة منها والخفية، كان يتم في شعب «الجيوش الأجنبية»، التابعة لقيادة الجيش العليا، أو في الشعب المماثلة الملحقة بفروع القوات المسلحة، وهي «البحريات الأجنبية» و«أسلحة الجو الأجنبية»، حيث كانت نقطة ثقل الاستخبارات السرية في الحرب. أخيراً، كان هناك مكتب أمن الرايش الرئيس، والاستخبارات الخارجية، التي أدمج فيها بعد إعفاء كاناريس من منصبه سنة 1944 شعبة الحصول على الأخبار العسكرية، وشعبة المكافحة الأولى، وسميت «المكتب العسكري». تباينت طرق عمل ومناهج هذه الفروع الثلاثة من شجرة المعرفة الاستخبارية في ألمانيا الهتلرية، وأثبتت مناهج وطرق عمل «الجيوش الأجنبية شرق» أنها الأكثر نجاحاً، حتى بعد نهاية الحرب سنة 1945. وكان السبب في تعيين رئيسها اللواء راينهارد جيهلن أول رئيس لاستخبارات جمهورية ألمانيا الاتحادية ـ يا لها من سيرة وظيفية مثيرة للاهتمام ـ !.

ماذا تعني وكالة أنباء العدو؟

ماذا تعني وكالة أنباء العدو؟. ميزت لائحة الخدمة في الجيش خلال الحقبة المذكورة بين الوكالة ووكالة المراسلات السرية. وكلفت الأولى بوضع صورة كاملة ودقيقة ومعللة علمياً عن العدو، بينما أسندت إلى الثانية مهمة جمع المعلومات الضرورية لذلك بالطرق السرية. هكذا، كمن الفارق بينهما في اختلاف طرق عملهما ومناهجه. وهو ما يتضح من العملية، أو بالأحرى من التسلسل الذي كان يتبعه ضباط الأركان العامة المختصين، عند قراءة تقاريرهم حول وضع العدو أمام الدوائر القيادية العليا.

كانت نتائج الاستطلاع الجوي أول ما يتم الإعلان عنه عادة، سواء

تعلق الأمر بتحركات العدو على الجبهة أم في مناطقه الخلفية. وكانت النتائج تستكمل بنتائج المراقبة الأرضية. ثم يأتي دور الاستطلاع البرقي، بمعلوماته العملياتية والتكتيكية. ثم كانت تقدم تقارير إجمالية تستند على ما يتم الاستيلاء عليه من وثائق معادية أو اعترافات الأسرى، التي كانت تنتزع لغرض محدد. وأخيرا، كانت تأتي المعلومات، التي يقدمها العملاء والفارون من صفوف العدو. وقد سارت الأمور على هذا النحو ذاته في مركز الجبهة الشرقية الألماني، وكذلك لدى «الجيوش الأجنبية شرق»، حيث كانت ترسل إلى هناك بصورة يومية تلك الأنباء، التي يتم اختيارها بعناية من قبل ضابط شعبة الأركان الثالثة، بينما كانت الأنباء الهامة ترسل بصورة فورية.

هذا النظام كان قابلاً للتطبيق في الحرب دون غيرها، لأنه كان يشترط وجود «احتكاك مع العدو»، وعلاقة قتالية مع الخصم. لكنه كان قد أعد قبل الحرب، في أوقات التوتر، حيث كان يتم أيضاً تنفيذ الاستطلاع الجوي على أعلى ارتفاع، وكذلك الاستطلاع البرقي. لا بد من الإشارة في هذا السياق إلى «مكتب الأبحاث» التابع لهيرمان جورينج، الذي عرف كيف يخترق أحاديث الديبلوماسيين، وإلى ما كان يأتي من معلومات سرية بواسطة الديبلوماسيين المحايدين. لا داعي للقول: إن وزن هذا كله كان يفوق وزن التجسس التقليدي بواسطة «الرجال الثقة»، إلا عندما كان هؤلاء على اتصال مع أعلى الجهات الاجنبية. وفي النهاية، كان تبادل المعلومات الموثوقة بين الممثليات الديبلوماسية في البلدان الأجنبية يجلب معلومات لا نعرف إلى يومنا هذا غير القليل جداً عنها.

نصل حديثنا هذا بما كنا قد قلناه سابقاً، ونؤكد مرة أخرى أن من الضروري إعادة النظر بالآراء التقليدية حول الاستخبارات. وأنه حان وقت

القيام بذلك. تم قبل الحرب العالمية الثانية، وخلالها أيضاً، السير غالباً على خطين وامتطاء جوادين: فكان هناك من جهة الجاسوسية المألوفة، المعروفة منذ أقدم العصور، التي حاولت التغلغل إلى أسرار العدو بواسطة العملاء والرجال الموثوقين، ومن جهة أخرى وكالة أنباء العدو، التي لها هدف مماثل، لكنها تستخدم وسائل أخرى في الحصول على المعلومات والأخبار. لئن تم جمع معارف إحداهما بواسطة أشخاص أساسا، فإن معارف الأخرى جمعت بطرق مختلفة أو تمت بلورتها عبر عمليات تقصي اتسمت بالمنهجية. وللعلم، فإن الأمر أكثر أهمية في الحالتين كان بلوغ صورة إجمالية عن العدو. هكذا، كان هدف شعبة مكافحة التجسس الأعلى هو الحصول على وثائق من خزائن العدو المصفحة، أو معلومات مباشرة من مراكزه القيادية. بينما استقت وكالة أنباء العدو أخبارها من كافة المصادر التي يمكن الوصول إليها، كي تعرف إجمالي قوة العدو، وتوزع قدراته، وحقيقة نواياه. أما وظيفتها، فكانت إلى جانب تقويم الوضع بصورة دورية، التنبؤ بالعمليات المحتملة التي يمكن أن يقوم العدو بها. غير أن نقطة ثقل جمع المعلومات والأخبار انتقلت خلال الحرب انتقالا متزايدا إلى وكالة أنباء العدو، أي إلى ضباط شعبة الأركان الثالثة وشعب «الجيوش الأجنبية» في القيادة العليا للجيش، حيث برز نجاح شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» المميز في جمع أخبار سرية وتقويمها، بينما كانت شعبة «مكافحة التجسس» في قيادة القوات المسلحة لا تمتلك إطلاقا أي دائرة تقويم.

ظلم تاريخ الحرب والتاريخ المعاصر، وظلمت وسائل الإعلام وكالة أنباء العدو وأسلوبها في تدبير الأخبار. ثمة أسباب صحافية لذلك، فالعمل والبحث والعمل من جديد لا تثير الاهتمام الذي تثيره مغامرات الجواسيس والعملاء. لذا، كان على رؤساء أجهزة الاستخبارات أن يتحدثوا بأنفسهم، في سبيل إحداث تحول هنا ونقل تصور صحيح حول جهاز الاستخبارات

السري بمجمله. منذئذ، صار بالإمكان ـ أخيراً ـ مواجهة العدد الذي لا يحصى من التحقيقات والتلفيقات بسلسلة رصينة من الذكريات، كتلك التي دونها أولريش ليس عن شعبة «الجيوش الأجنبية غرب»، والسير كينيث سترونج عن الحلفاء الغربيين، وألن ويلش دالس عن الولايات المتحدة الأميركية، وجوشيه عن فرنسا، وأخيراً مذكرات جيهلن، التي صدرت سنة 1971 حول جيش الشرق الألماني في الحرب العالمية الثانية، وكذلك تلك التي نشرها رادو.

ثمة بطبيعة الحال نقطة غالباً ما تحفّظ رؤساء الاستخبارات بصددها: تنصب على جمع الأخبار بواسطة الاستطلاع البرقي. صحيح أنهم يذكرونه، ويتحدثون عن أهميته بصورة عامة جدا، لكن المعطيات الدقيقة حول نتائجه تبقى نادرة لديهم. هذا التحفظ، المستمر إلى اليوم، يرجع إلى الرغبة في عدم إيقاظ الكلاب النائمة كما يقال، لدى الجيوش التي شاركت في الحرب العالمية الثانية. من الواضح، أن السرية المطلقة خلال الحرب، بقيت مؤثرة في المجال الألماني خاصة، مثلما تؤكد استطلاعات الرأي المتكررة، بعد أن أمر بند من لائحة وكالة أنباء العدو بما نصه: «عند إبلاغ نتائج الاستطلاع البرقي، يجب أن يبقى مصدرها خفياً على الدوام»[1].

تخبرنا اللائحة ذاتها بأسباب هذا الطلب، حين تصف قيمة الاستطلاع البرقي وتفسره في بند آخر نصه: «الاستطلاع البرقي مصدر أخبار على درجة خاصة من الثراء والقيمة، لا سيما بالنسبة إلى دوائر القيادة العليا، فهو غالباً ما يمكننا من إلقاء نظرة داخلية على تنظيم قوة العدو الإجمالية وتوزيعها، ويسمح بتقدير انعكاسها على نواياه الميدانية. كما يسمح، عند وقوع عمليات حربية سريعة، بمتابعة التبدل في صورة العدو دون تضييع الوقت. أما أخباره

(1) اللائحة معروفة من قبل المؤلف منذ صدورها.

فلها ميزة المباشرة والوضوح، وحتى عندما تفشل في فك رموز الرسائل البرقية المعادية، يستطيع الاستطلاع البرقي، بالمراقبة المتأنية لاتصالات العدو وعمليات سبر لعلاقاته، جلب كشوف حول تنظيمه ومقرات دوائره القيادية. في حين تؤدي المقارنة مع نتائج مصادر الأخبار الأخرى في حالات كهذه إلى معارف إضافية غالباً، علما بأن تغيير مفتاح العدو البرقي يمكن أن يغلق هذا المصدر الإخباري بصورة مؤقتة أو دائمة، وأن العدو سيحاول حجب اتصالاته البرقية بصورة مدبرة، وسيقوم بمناورات تضليلية لخداع استطلاعنا». صدرت لائحة الجيش المسماة وكالة أنباء العدو في الأول من آذار/ مارس سنة 1941. وهي نقطة زمنية لم يتم اختيارها عشوائيا، فقد تأكد أن إنجازات وكالة المراسلات السرية، أي شعبة «المكافحة»، لن تكون كافية في حرب مستقبلية. ومع أنه كان يتم تكديس السلاح بسرية مطلقة منذ خريف سنة 1940 من أجل عملية بربروسا، أي من أجل الحملة العسكرية ضد روسيا، كانت معرفة الجيش الأحمر ضئيلة. وكان لدى الجيوش الألمانية، التي تحشدت شيئاً فشيئاً، معلومات شحيحة حول العدو، الذي عليها منازلته. من المعلوم أنه لم يكن ممكنا ممارسة الجاسوسية في الاتحاد السوفياتي، مثلما كانت تمارس في الغرب على سبيل المثال، وكان من المحال كذلك تغطية هذا البلد العملاق بشبكة من الرجال الموثوقين. بالمقابل، فإن الشيء الوحيد الذي كان معروفا، هو أن الجيش الأحمر يتجدد بسرعة بعد نزيف 1936/ 1937، وأن ستالين والمارشالات السوفيات الموالين له كانوا يفعلون ذلك بنشاط كبير في السنوات الأخيرة، لكنه كانت تنقص تفاصيل عن إعادة التسلح وبرامجه، وحتى الاستطلاع الجوي السري، الذي كان يقوم به سرب العقيد روويل، لم يجلب إلا نتائج مليئة بالثغرات.

هذه الأسباب حتمت التغيرات الجذرية في الاستخبارات الألمانية: مع الحملة ضد روسيا انتقل مركز ثقل العمل الاستخباري أكثر فأكثر من وكالة

المراسلات السرية، التي كان يقودها الأميرال كاناريس،إلى شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» في قيادة الجيش العليا، أي إلى استخبارات بالجيش، التي ستحمل من الآن فصاعداً العبء الرئيس في جمع الأخبار، وخاصة في تقويمها. وسيكون عليها تقديم معلومات وأخبار وتقارير دورية إلى قيادة الجيش. طبيعي أن شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» عملت بالتعاون مع شعبة «المكافحة»، لكسب مساعدتها لدى إلقاء نظره داخل عمق مناطق روسيا الخلفية، ومراكزها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية، بما أن الاستطلاع الجوي والأرضي لم يكونا كافيين حتى ذلك الوقت، في حين أخفق الاستطلاع البرقي واللاسلكي، لأن دائرتي الاستطلاع هاتين كانتا تستخدمان أعقد طرق الترميز، أو أنهما كانتا لا تبرقان إطلاقاً.

بنظرة إجمالية، كان لاستخبارات الجيش تاريخ مزدوج. فهي لم تتغير فقط تبعاً لوضع الحرب ولساحتها، بل ستستخدم على الجبهة الشرقية، وفي الغرب عامي 1944 / 1945 وسائل أخرى، ستجعل عملية الحصول على الأخبار خالية من العيوب. لقد عرفت الاستخبارات كيف تؤقلم نفسها مع مهمتها، لذلك كانت منذ سنة 1941 نسيج وحدها، بينما توارت «المكافحة» في الظل، وتزايدت إنجازات وكالة أنباء العدو مع تنامي الخبرة الحربية. وبالمناسبة، يجب أن نؤكد، من أجل الحقيقة التاريخية على الحقيقة الآتية: لئن وجدت في محيط القيادة العليا للقوات المسلحة مواقع رخوة، تسربت منها أسرار الدولة والأسرار العسكرية، فقد وجدت في مراكز موسكو أيضاً مواقع مماثلة لها، لأسباب أملاها، بدوره، النفور من النظام الشمولي المسيطر. ثمة إشارات إلى ذلك يمكن العثور عليها، بين أشياء أخرى، في مذكرات فون جيهلن[1]. بيد هذا الضرب من الخيانة الوطنية لم يكن حاسما

(1) المرجع ذاته، ص 72.

بالنسبة للحرب، سواء في ألمانيا أم في روسيا. لم يتم كسب الحرب العالمية الثانية بواسطة الجاسوسية، الناشطة في سويسرا أو موسكو. هذا ما أكدته مذكرات ألكساندر رادو، مدير مركز التجسس السوفياتي في جنيف بين عامي 1939 و 1943.

من الضروري القول هنا: إن بعض الأشياء كانت سيئة في مقرات الفوهرر الرئيسة في برلين، وفي «ملجأ الذئب» في بروسيا الشرقية وفي بيرشتيسغادن، حيث كان يمكن إدارة الحرب بطريقة أفضل، وربما تحاشي نهايتها الكارثية، لو ان القائد الأعلى أصغى إلى معلومات ومعارف وكالة أنباء العدو، واستخلص النتائج اللازمة منها. أؤكد على هذه النقطة، لأن الوحدات وقادتها عرفوا كيف يفيدون من معارف الوكالة، التي لم تقومها القيادة الأعلى وتضع في ضوئها استراتيجية سياسية وعسكرية عقلانية، بل رفضتها بفظاظة، كما نعلم. لو أخذت نتائج الوكالة بالاعتبار، وتوفرت قيادة عقلانية للقوات المسلحة الألمانية، لأمكن إنهاء الحرب في روسيا بتوازن مصالح روسية ألمانية، شريطة تحرر الألمان والروس من دكتاتوريهما. لقد فر ملايين الروس من ستالين سنة 1941/ 1942، وفشلت محاولة قتل هتلر سنة 1944.

تحولت الشعبة الثانية عشرة في أركان الجيش العامة إلى مركز لوكالة أنباء العدو خلال حملة روسيا. وقد شهدت هذا التحول بعد أن تولاها العقيد في الأركان راينهارد جيهلن، مساعد العماد هالدر، يوم 1/ 4/ 1942[36]. لقد عرف رئيس الأركان تمام المعرفة الشخص الذي اختاره لذلك، فقد كان العقيد والعماد يرتبطان بتوافق آخر غير الاتفاق العسكري الصرف. نمت مهام شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» السياسية نموا متعاظما منذ بداية حملة روسيا، ثم غدت مركز طموحات أرادت إنهاء حرب الشرق

سياسيا، إن أمكن. ومع أنه كان على هذه الطموحات أن تتخفى، فإنها وجدت تفهما بل ودعما لدى بعض المارشالات وكذلك لدى شعبة التنظيم في الجيش، وخاصة لدى عقيد الاستخبارات شتيف والرائد شتاوفنبرج. وهنا كمنت بواعث العمل الذي قام به الأخير في العشرين من تموز سنة 1944[37].

عدا ذلك، لا بد من التأكيد بصورة خاصة على ما يقوله جيهلن حول عمل شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»[1]: «لم يكن سحرا محاطا بالأسرار ما أنجزه العاملون معي». إن الاجتهاد، والإتقان، والمعرفة المتخصصة، والسرعة أهلتنا للوصول إلى مقولات صحيحة حول أوضاع العدو ونواياه. هذه النتائج لم تتفق غالباً مع التفكير الرغبي لهتلر، الذي قرأت في حضرته أربعة تقارير فقط، لأن قراءة التقارير كانت مهمة رئيس أركان الجيش، العماد هالدر، ثم تسايتسلرس وأخيراً جودريان... أستطيع أن أؤكد فقط بأي قدر من الحدة دأب رؤسائي على العراك مع هذا الرجل، ليحولوا دون استخلاصاته التي كان خطأها واضحا... وكان وضع العدو النقطة الأكثر أهمية في هذه التجاذبات. أما المعارف التي تم اكتسابها في إطارها، فقد اعتبرت، بحدتها التي تفاقمت أكثر فاكثر في مجرى السنين، انهزامية، وتخريبا لما ينوي فعله.

تطور الاستخبارات بين 1938 و1945

لم أصف إلى الآن الترابط الذي وسم تطور أجهزة مخابرات أوروبا في الفترة بين 1938 و1945. يرتبط هذا بأحداث الحرب وبالمادة المتوفرة، المليئة بالثغرات. مع ذلك، بوسعنا تكوين نظرة إجمالية غنية حول هذا التطور، بمراحله الخمس الكبرى، التي يمكن التمييز بينها، انطلاقا من وجهة النظر

(1) المرجع ذاته، ص61.

الألمانية، وعرضها بالطريقة على النحو الآتي تقريباً:

1 ـ فترة التوتر على عتبة الحرب العالمية الثانية. وقد صحبها نشاط مكثف للاستخبارات الأوروبية، التي أخذت تستعد لصراعات حربية محتملة. وقد تم في ألمانيا تكثيف الاستطلاع الجوي واللاسلكي بصورة خاصة، وبذلت جهود في برلين للتأثير على الملحقين العسكريين الغربيين عبر برامج التسلح الألمانية، التي قدمت بصورة مبالغ فيها.

2 ـ فترة الحملة الصاعقة بين 1939 و1941، التي كان الجانب الألماني قد استعد لها جيدا من الناحية الاستخبارية. أما نتيجتها فهي معروفة: خروج الدول الكبرى والأصغر من الحرب: بولونيا، هولندا، بلجيكا، النرويج، فرنسا، البلقان واليونان، لذلك لم يبق على شعبة «الجيوش الأجنبية غرب» من تراقبه غير إنجلترا[38]، وكذلك الحال بالنسبة إلى «المكافحة»، التي لم يحالفها التوفيق مع عملائها هناك. من المعلوم أن فيدكون كيسلنج، وزير الحرب النرويجي السابق، قدم أهم المستندات الاستخبارية، التي أفادت حملة ألمانيا ضد النرويج. بينما لم يوجد شبيه له لدى الحلفاء.

3 ـ فترة الانتصارات الألمانية في الشرق (وفي شمال أفريقيا)، التي جلبت ملايين الأسرى والفارين إلى الألمان، والمتعاونين الذين قدموا طواعية معلومات غزيرة ومن الدرجة الأولى. وقد شكلت معركة ستالينغراد سنة 1943 نقطة انعطاف في هذه الفترة.

4 ـ فترة الدفاع بدءا من 1943، وقد جفت خلالها ينابيع معلومات كثيرة، بينما كسب أعداء هتلر مصادر أخبار جديدة. وتعتبر سنة 1943 سنة نجاحات المقر السوفياتي في سويسرا، الذي أقامه ألكساندر رادو الملقب دورا[39].

5 ـ القتال الألماني النهائي عامي 1944 و1945، وكادت وكالة

11. الجنرال ليوتنانت برنارد ل. مونتغومري في شمال أفريقيا سنة 1942.

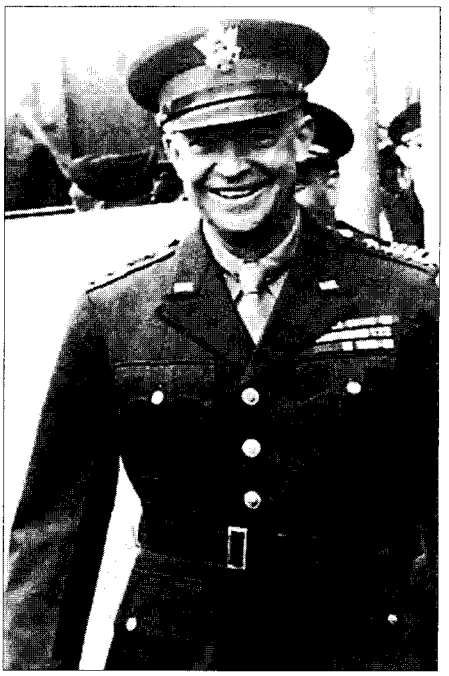

12. الجنرال دوايت أيزنهاور قائد قوات الحلفاء في أوروبا.

13. الجنرال دوايت أيزنهاور والجنرال جورج سميث سنة 1944.

15. المارشال السوفيتي ج. ك. شوكوف في بوستدام سنة 1945.

14. الجنرال موريس غوستاف غاملين في فرنسا شباط/فبراير 1940.

16. فيلد مارشال مونتغومري والمارشال شوكوف والجنرال أيزنهاور والجنرال كونغ في برلين سنة 1945.

17. ميجور جنرال راينهارد غيهلن سنة 1944.

18. قائد جهاز إس. إس. الخارجي فالتر شللنبرغ 1940 (أسفل).

19. الأدميرال فلهلم كناريس مع قائد جهاز إس. إس. راينهارد هايدريش في برلين سنة 1936.

20. ج. أولريش ليس.

21. ج. غيرهارد فيسيل.

22. الجنرال إريك فيلغيبل 1944.

المراسلات السرية أن تصاب خلاله بالموت، بينما قامت استخبارات الحلفاء بأنجح مناورة تضليلية عرفها تاريخ الحرب الأحدث. بالمقابل، دان هجوم الأردين، الذي شنه هتلر في كانون الأول/ديسمبر من سنة 1944، بنجاحه التكتيكي المفاجئ إلى السرية التامة على الجانب الألماني. ازداد في هذه الفترة اعتماد القيادة الالمانية على الاستطلاع الجوي، الذي عمل بصورة ممتازة حتى نهاية الحرب. أما في الشرق، فقد تلاعب عملاء اللاسلكي السوفيات، العاملين وراء خطوط القوات المسلحة الألمانية، بالتنصت اللاسلكي الألماني.

تصف هذه المراحل تبدل الوضع بين عامي 1938 و1945، وتعد رائزاً لإنجازات شعبة «المكافحة»، التي قامت بعمل جيد وحصلت على معلومات مهمة كثيرة قبل الحرب، قومتها غالباً شعبة «الجيوش الأجنبية»، لكن نجاحها اقتصر فيما بعد على مهام المكافحة في المناطق المحتلة المتزايدة الاتساع، عبر مكافحة الجواسيس والعملاء ومجموعات المقاومة المعادية. لكن العمل ما لبث أن تجاوز بمرور الوقت قدرتها، خاصة وأن «قيادتها الداخلية» فشلت، مما وفر سببا موضوعيا لاستبدال كاناريس، وكان بداية نهاية استقلاليتها.

معلومات سرية لا فائدة منها

التلصص، الإصغاء، الحياة المكلفة، المغامرة وقصص النساء: هذا هو التصور السائد حول الاستخبارات (العمل السري). لكن الحقيقة اختلفت عن ذلك في الحرب العالمية الثانية، حيث لم يعد يكفي، على سبيل المثال، أن يصور «شيشرون» أثناء الليل وثائق سرية مهمة، بل كان يجب أن تصل الصور إلى الجهة الصحيحة وأن تؤدي إلى قرارات. إن التاريخ، الذي ندونه هنا، سيثبت أن هذا لم يحدث دوماً في الواقع، وأنه لا ينطبق منذ سنة 1942 في ألمانيا إلا على دوائر القرار العليا، لأن هتلر كان يرفض معرفة الحقيقة

عن العدو، وقام بطرد جيهلن في نيسان/أبريل من سنة 1945 بتهمة الانهزامية، حين أخبره بوضع العدو الفعلي على الجبهة الشرقية دون تجميل (أو تزوير). غير أنه كانت هناك «أعطال» على الجانب الآخر أيضاً، وإلا لماذا رفض ستالين تصديق الأخبار حول انقضاض هتلر الوشيك على روسيا السوفياتية؟. ولماذا استخلصت استنتاجات خاطئة من بقايا أوراق ضابط المراسلات الألماني، الذي اضطر للقيام بهبوط اضطراري في بلجيكا يوم العاشر من كانون الثاني/يناير سنة 1940، واعتبرت القضية مناورة تضليلية ألمانية؟. كيف أمكن أن يصيب الألمان الإنجليز والإنجليز الألمان بالجنون، بـ«ألاعيبهما اللاسلكية»؟. ولماذا بقي الكثير بلا تفسير، مثل «خط الفايكنج»، الذي امتد من قيادة القوات المسلحة الألمانية إلى سويسرا؟. وما حكاية مارتن بورمان، وفالتر شيللنبرج؟. ويد من كانت في اللعبة، حين اختفت سنة 1944/ 1945 في دوائر الخدمة ببرلين أهم الرسائل اللاسلكية التي تبادلها «دورا» «والمدير»، والتي تم فك مفتاحها؟. من هو المخبر في وزارة الخارجية ببرلين الذي تعامل مع دالس، مفوض روزفلت الخاص آنذاك في سويسرا، وتمكن من تبادل البطاقات البريدية معه بين 1942-1945؟[40]. من استطاع هذا أن يشتري في المكتب الرئيس لأمن الرايش؟. ربما كانت الأجوبة عن هذه التساؤلات لن ترى النور أبدا، ذلك أنه يوجد في مكتب الأخبار السري عدد قليل وحسب من الوثائق، يشي بمكنوناته، بينما يلتزم حملة الأسرار بالصمت إلى نهاية حياتهم، ولا يتم إعفاؤهم من هذا الالتزام إلا في حالات استثنائية. ثمة هنا حد طبيعي للبحث، الذي يمكن مع ذلك أن يبلغ شيئاً واحدا، هو اقتناع الرأي العام بحقيقة أن الاستخبارات السرية تستطيع التأثير في سير الأحداث الحربية، والإسهام في النصر أو الهزيمة، لكنه لا توجد بعد حرب حسمتها الاستخبارات، ناهيك عن الجاسوسية: حاملتها الثانوية جداً بعد سنة 1941.

ستدور الفصول التالية، وخاصة منها الفصول التي كتبت عن الاستطلاع اللاسلكي، حول هذا الموضوع.

بيد أنه لا بد، بادئ ذي بدء، توضيح مشكلة أخرى كبيرة تنضوي في الإطار الأوروبي، هي مسألة الاستخبارات السرية السوفياتية، التي لاحقت أهداف الاستخبارات الأخرى ذاتها أو أهدافا مشابهة لها، في ميدان القتال الأوروبي، لكنها بقيت حالة خاصة بكل معنى الكلمة، في كل ما يتعلق بتاريخها وتطور طرائقها ومصير العاملين فيها، ويبقى من الضروري والمفيد، على كل حال، التعرف إليها عن كثب.

obeikandl.com

obeikandl.com

4

حالة الاستخبارات السرية السوفياتية الخاصة

التطهير الكبير

نتائجه حتى سنة 1942

خبير اللاسلكي يتدخل

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

التطهير الكبير

ليس هناك من ترسيمة مسبقة للاستخبارات السرية، لذلك تختلف أبنيتها وطرقها وأعمالها من دولة لأخرى، وتتعين قبل كل شيء بالأشخاص الذين يقودونها، وبطباعهم، وقدرتهم على العمل. وتسهم الأيديولوجية والسياسة إسهاما كبيراً في هذا الاختلاف، وكذلك يكون إسهام نمط الوجود والسلوك التقليدي للشعب المعني. لذلك نجد القواعد الأساسية لنشاط أجهزة الاستخبارات السري تتعين بنمط كل منها، فهي لدى الصينيين غيرها لدى الروس، وعند الألمان أو الأنجلوساكسون أو الفرنسيين مختلفة عنها لدى الصينيين والروس. باختصار، يفصح الطابع القومي عن نفسه في العمل الاستخباري أيضاً، وقد سبق أن رأينا أن الأمم الغربية، وخاصة منها الإنجليز والألمان، تعطي قيمة خاصة للنهج العلمي، بينما يعتمد الفرنسيون عموما على العمل المنهجي. ويميل الروس إلى تصعيد العمل السري، ويقومون بذلك في كل مكان. على من يدوّن التاريخ أن يراعي هذه الميول، مثلما تراعيها أجهزة الاستخبارات، عندما تتلمس بعضها البعض بصورة متبادلة. وكما سبق القول، كان النزوع إلى معرفة العدو المحتمل في الزمن الذي أترسم خطاه هنا هو قوة شعبة «الجيوش الأجنبية» في القيادة العليا للجيش الألماني المميزة، وقوة البريطانيين، الذين لعبوا منذ سنة 1942 دورا قياديا في هذا المجال بالنسبة للحلفاء الغربيين، تحدد بالاتجاه المؤسس علميا ومنطقيا

ونفسيا، الذي اعتمدته أجهزة استخباراتها العسكرية، وأحرزت به نجاحات كبيرة في النصف الثاني من الحرب.

اختلفت الأمور، وكانت أكثر تعقيدا لدى السوفيات، كما يخبرنا قبل كل شيء المنشقون عنهم والفارون منهم. إنهم لم يكونوا فقط أساتذة في التمويه والسرية الشاملتين، وهو ما تنجح به الدكتاتوريات دون غيرها، بل كان لهم ميل تقليدي إلى تكوين عصب سرية وإلى العمل تحت الأرض بوجه عام. وهم متنكرون أفذاذ، يحبون الظهور بوجهين ويستمدون مجمل إحساسهم بالحياة من أدوار مزدوجة يلعبونها، يوجد في «شياطين» دوستويفسكي إشارات كثيرة إليها. في هذه السمة، يوجد تشابه قوي بين الروس واليهود، الذين احتلوا موقعا خاصا آنذاك في استخبارات موسكو، لكن الأمر تغير اليوم. ربما كان نزوع الروس إلى العمل السري يرجع إلى عصر التتار، الذي اضطهدهم طوال قرون، ثم إلى حكم القياصرة المطلق، الذي افرط في فرض الرقابة الأمنية: في الداخل على يد الشرطة السرية، وفي الخارج بواسطة الاستخبارات السرية، التي أنفقت مبالغ طائلة لهذا الغرض. كانت الجاسوسية الروسية ناجحة قبل سنة 1914، نذكر هنا بخيانة ريدل، العقيد في هيئة أركان صاحب الجلالة الملك والقيصر. لكن الاستخبارات كسبت الحرب العالمية الأولى بقدر ما حالت الأورخانا دون قيام ثورة تشرين أول/أكتوبر سنة 1917. نؤكد على هذه الملاحظة، لكونها تبين بصورة نموذجية حدود إنجازات أجهزة الاستخبارات جميعها، التي تسهم، من دون شك، في الانتصار أو الهزيمة، لكن ما يحسم الحرب هو عوامل أخرى يجب أن تتوفر على أعلى المستويات، هي قبل كل شيء الاستراتيجية السياسية ثم العسكرية للقيادة الأعلى أو للحركات الثورية.

إلى ذلك، لكل جهاز استخبارات تاريخه الخاص، ومصيره، وذراه

ومنخفضاته. وله أيضاً ضحاياه في كل مكان، فهو يتعامل مع الأسرار السياسية ويمكن تاليا أن يقع في طاحونة صراعات داخلية تطحن قادته الرئيسيين، خاصة في النظم الشمولية. هذا كان، على سبيل المثال، مصير الأميرال كاناريس وعدد من معاونيه في شعبة المكافحة الألمانية. لكن ما حدث في ألمانيا يبقى مجرد حالات خاصة، إذا ما قورن بما حدث في الشعبة الرابعة من رئاسة أركان الجيش الأحمر[1]، التي تعرضت لعمليات تطهير قام بها ستالين سنة 1937/ 1938، أصابتها في الصميم، وأدت إلى تغيير قيادتها وتنظيمها وتركيبها الشخصي، وجعلتها تفشل في غرب أوروبا ووسطها من سنة 1941 إلى 1943، حين وجب عليها تحمل هزائم ثقيلة، ولم تنجح في استعادة قواها من جديد إلا مع عملية «القلعة» في صيف سنة 1943.

هذا التدهور، الذي ما لبث أن أعقبه صعود جديد، يرتبط ارتباطا وثيقا إلى أبعد حد بعمليات التطهير، التي قام بها ستالين، وقلبت الجيش الأحمر، وخاصة دوائره القيادية واستخباراته، رأسا على عقب، بما صاحبها من ظواهر رهيبة. ذلك أن حكم الرعب، الذي أطلقه ستالين سنة 1937/ 1938 من عقاله بالتطهير، هز الاتحاد السوفياتي من أقصاه إلى أدناه. وكان له، كما يقول ليونارد شابيرو[2]، هدف إرهابي صريح في مرحلته الأولى، هو سحق جمهور الشيوعيين القدماء، الذين كانوا يتخذون موقفاً نقدياً معارضاً من ستالين، واستبدالهم بستالينيين يتلقون الأوامر وينصاعون لها من دون اعتراض أو نقاش. بينما يصعب تفسير المرحلة الثانية، لأنها انصبت بالدرجة الأولى على الجيش الأحمر. فلماذا؟.

لم يكن هناك، في اعتقادي، أي سبب للتشكيك بولاء الجيش، الذي

(1) أنظر: هاينس هونه: كلمة التعارف مدير. فرانكفورت 1972، ص 28.

(2) ليونارد شابيرو: التطهير الكبير، في: الجيش الأحمر، جمعه وأنجزه الكابتن ليدل هارت، بون، ص 71/ 79.

انقض ستالين عليه بمكر ووحشية. يقول بالوتشي هورفاث، الخبير في الشؤون السوفياتية في دراسته عن خروتشوف[1]: «عمل ستالين ومعاونوه بقدر كبير من السرية. وقد اشترك بعض الكوادر القياديين قبل يوم من اعتقالهم، بل وحتى يوم اعتقالهم، في لقاءات علنية مهمة، فوقف المارشال توخاتشيفسكي (وزير دفاع روسيا الأشهر قبل الحرب العالمية الثانية) مثلا أثناء عرض أيار/مايو سنة 1937 إلى جانب ستالين مباشرة على ضريح لينين. بعد أيام ألقي القبض عليه، ثم عرف الناس يوم 12 حزيران/يونيو أنه أعدم. لقد كان ستالين يصدر أوامر الاعتقال في آخر دقيقة». حسب شابيرو وتقارير أخرى ذات صدقية، سقط الجيش الأحمر ضحية التطهير: الذي قتل ثلاثة من خمسة مارشالات، على رأسهم مارشال توخاتشيفسكي، وثلاثة عشر من خمسة عشر آمرا للجيش، و57 من 85 جنرال قائد، و 110 من 195 قائد لواء، و220 من 406 قائد فوج، والأحد عشر مفوضا حربيا جميعهم، وأخيراً 75 من 80 عضوا في اللجنة العسكرية العليا، كانوا في الخدمة خلال شهر أيار/مايو من سنة 1937. هذا يعني أنه تم تصفية 90٪ من الجنرالات، و80٪ من العقداء إبان ذلك العدوان الرهيب على البنية القيادية للجيش الأحمر[41]، الذي أباد قدماء مقاتلي الحرب الأهلية بالقدر نفسه من انعدام الرحمة، الذي تمت به تصفية آخر الضباط القادة، ممن ترجع أصولهم إلى الجيش القيصري. قدم الجنرال كوسترينج، ملحق ألمانيا العسكري لدى موسكو في تلك السنوات، يوم 25/12/1938 تقريراً إلى رئيس المقر العام الرابع في أركان الجيش العامة، فون تيبيلزكيرش، حول عمليات التطهير يقول[2]: «في حزيران/يونيو من سنة 1937 فرقعت الطلقات ضد أكثر قادة الجيش شهرة ـ

(1) بالوتشي هورفاث: خروتشوف، فرانكفورت على الماين، ص 117.

(2) كوسترينج، ص 188.

فأصغى العالم. كم ضابطا اختفى قبل ذلك، أو استبدل سلاحه بعصافير الدوري في السهوب والغابات، هذا ما نعرفه الآن شيئاً فشيئاً، من خلال التسريبات حول التعيينات الجديدة ؛ هناك جيوش بدلت قادتها مرات كثيرة خلال بضعة أشهر، وليس تعيين مقدمين كقادة أفواج وملازمين كقادة كتائب غير واقعة تحكي بطلاقة قصة ما يحدث».

ماذا أراد ستالين بالإرهاب؟. من الصعب على المعايير العقلانية لفكر عادي فك أسرار ذلك الإرهاب. لكنه من الواضح أن المعايير الثورية الروسية من طبيعة مختلفة، وأن العمليات الدموية كانت تدابير وقائية ضد محاولات انقلابية محتملة، جعلت الخوف يدفع بالعسكريين الذين نجوا إلى إبداء طاعة غير مشروطة للدكتاتور، ورسخت الميل إلى الخضوع، الذي ينزع إليه الشعب السلافي بطبيعته. إلى هذا، كسب ستالين بهذه الطريقة الوحشية جيشا متجانسا ستاليني الهوى، رأى قادته، الذين رقاهم وميزهم تعسفيا، في أنفسهم صنائع له. تصرف هتلر بطريقة مشابهة، لكنها أقل دموية وإرهابا، وإن لم تكن أقل انفلاتا، كلما كانت الأمور تتطلب ذلك. يكفي أن نفكر بما فعله بالعماد فون فريتش. لقد أراد للجيش أن يسير من أعلاه إلى أدناه كالأعمى وراء الدكتاتور، وهو أمر بقي حلما رغبيا في ألمانيا، لكنه أوشك أن يتحقق في روسيا، وإن على حساب الهزائم الشنيعة لسنتي الحرب 1941 و1942، قبل أن يقود «الرجل الفولاذي» الجيش الأحمر إلى النصر الساحق على القوات المسلحة الألمانية.

هل يمكن عزو سقوط توخاتشيفسكي وأنصاره إلى مؤامرة حبكتها الشرطة السرية الألمانية؟. يقول الجنرال كوسترينج في مذكراته[1] إنه: «عرف من كتابات نشرت بعد الحرب أن موظف الشرطة السرية الألمانية هايدريش -

(1) كوسترينج، ص 99.

رئيس مكتب أمن الرايش الرئيس -، الذي ذاع صيته في مسائل لا تشرفه، ربما يكون تسبب في «التطهيرات»، من خلال رسائل مزورة «تبادلها» ضباط قادة ألمان وسوفيات، أوصلها هو بواسطة بينيش (رئيس تشيكوسوفاكيا آنذاك ـ المعرب) إلى ستالين. إذا كانت هذه المعلومة صحيحة، يكون ثمة مع ذلك أمر غير قابل للفهم، هو أن هذه «الفعلة» أطلقت حملة «تطهير» نتج عنها تدابير هائلة، لم تشمل فقط الساسة الأكثر شهرة والضباط السامين، بل طالت كذلك مئات آلاف كوادر الحزب في المدينة والريف، وسائر الفئات الاجتماعية، وعمالا وفلاحين... وعلى كل حال، فقد علمت مؤخرا أن هايدريش طلب من كاناريس تزويده بنسخ أصلية من رسائل تبادلتها شخصيات ألمانية وروسية. فهل تسمح الكتابات حول هذه الأحداث بالقول: إن هايدريش حاول بأمر من هتلر تسليم هيئة ضباط الجيش الأحمر القيادية إلى السكين، لكن محاولته تمت بوسائل غير ناجعة، بما أن ستالين كان سيسدد ضربته في جميع الأحوال، ومن دون مساعدة الألمان»[42].

أصيبت الاستخبارات العسكرية السوفياتية، التي سميت لاحقا (ج. ر. أو) في الصميم. تقدم الكتابات المتخصصة بإصداراتها المختلفة القائمة التالية بمن تمت تصفيتهم، التي جمعها هاينس هونه ونشرها في تقريره الموسوم «كلمة التعارف مدير»[1]:

رئيس (ج. ر. أو) جنرال يان بيرسين.

خليفته س.ب. اوريتسكي، الذي شارك في سهرة لدى كوسترينج في شباط/ فبراير من سنة 1936، عرض خلالها فيلما عن رحلة قام بها حول العالم[2].

(1) مرجع سابق، ص 60.

(2) كوسترينج، ص 166.

الملحق العسكري في لندن، فيتوف بوتنا.
قادة المقرات الغربية دون أي استثناء.
إينياز رايس، رئيس الاستخبارات العسكرية في غرب أوروبا، الذي قتل في سويسرا.
منظما اللجان أوسيب بياتنيتسكي ونائبه ميروف أبراموف، والرئيس الأعلى لشعبة العلاقات الدولية في الكومنترن في الغرب، الذي كان مكلفا بالاتصال مع عملاء الاستخبارات وتأمين أوراق مزورة لهم.

بالمقابل، واجه الإرهاب الستاليني بعض الأعطال، كما يحدث بصورة دائمة على وجه التقريب في مثل هذه الحالات: فقد فر رئيس مقر أوروبا الغربية الجنرال فالتر كريفيتسكي إلى الولايات المتحدة، وتبعه رئيس الاستخبارات السرية الجنرال أورلوف، فعرف الأميركيون، وأجهزة استخبارات أخرى متعطشة إلى المعرفة، الكثير مما أرادوا معرفته، من مصدر ثقة. لا بد من الموافقة على حكم هاينس هونه، عندما يقول عن التطهيرات الستالينية: «تحطمت منظمة أوروبا التابعة للاستخبارات السوفياتية، وسجنت نخبة جواسيس روسيا في أقبية موت الشرطة السرية». لا مراء في أن الخسارة الفادحة، التي نزلت بالاستخبارات العسكرية، والتي لا تعوض، كانت تصفية رئيسها يان بيرسين، الرجل الذي استخدم الكومنترن في بنائها، ونشر بواسطته شبكة جاسوسية محكمة التنظيم فوق أوروبا بأسرها، دافعا بقادة الأحزاب الشيوعية في غرب أوروبا خاصة إلى تقديم معلومات من كل نوع إليه، وإلى تزويده بعملاء وجواسيس رخيصي الأجر.

والحال، كانت الاستخبارات العسكرية السوفياتية حتى سنة 1936 أفضل جهاز استخبارات دولي وصولاً إلى المعلومات، بما أنه لم يكن لدى أي جهاز غربي عدد مماثل من العملاء، علما بأن هذه القوة هي التي أقلقت

ستالين، لا سيما وأن الجهاز لم يسمح لأحد بالدخول إلى أسراره، وكان قد تحول إلى نوع من دولة داخل الدولة. من هنا بدا تحطيمه وكأنه تدبير وقائي، وغدت تصفية قادته لمصلحة قادة تابعين، مسألة ضرورية في ظل عدم الثقة الذي ميز ستالين، حيث لم تشفع لأحد إنجازاته، ولم توجد «ظروف مخففة» أو مراعاة. هذا ما كانته مأساة يان بيرسين الشخصية، فيما وراء أي أيديولوجية سياسية.

من كان هذا الرجل؟. لقد وضع حجر الأساس لاستخبارات الجيش الأحمر، وينتمي شخصه والطابع المميز لتدابيره إلى سياق هذا الكتاب[43].

بنى يان بيرسين الاستخبارات العسكرية وقادها إلى نجاحات خارقة. لقد كانت خليقته، التي وظف نصف عمره في صنعها. كما سبق القول، لم يكن هناك حتى بداية الثلاثينيات من القرن الماضي أي جهاز استخبارات عسكرية دولي يمتلك معلومات أفضل أو أغنى من الشعبة الرابعة في الأركان العامة للجيش الأحمر في موسكو. ارتبط هذا بقيام الشيوعي القديم بيرسين باستعمال الكومنترن كمنظمة رديفة للجاسوسية السوفياتية، حتى في ميدان العلاقات العسكرية. لذلك، كرس جونتر نولاو في دراسته الرئيسة «الأممية» فصلا خاصا لموضوع «الكومنترن والاستخبارات السوفياتية»[1]. بهذا التدامج، الذي اعتبره بيرستن من طبيعة الأشياء، كان أمراً ذا دلالة أن لا تنشأ في ألمانيا احتكاكات داخل الحزب الشيوعي، وأن يشهد الحزب الشيوعي الفرنسي، بالمقابل، صراعات داخلية جدية. وإننا لندين لبرسين بالوصف الذي تقدمه الأدبيات التاريخية للغرب، حول واحد من هذه الصراعات.

لم يكن بيرسين يظهر نحو الخارج بصفته رئيس ومدير الاستخبارات

(1) جونتر نولاو: الأممية، كولن، 1959، ص 142-146.

العسكرية السوفياتية. حتى إن الجنرال كوسترينج، الملحق العسكري الألماني في موسكو، المولود في روسيا والذي يتقن الروسية كأحد أبنائها، لا يذكره ولو مرة واحدة في مذكراته أو تقاريره الرسمية الخاصة. لقد تحول الرفيق بيرسين بسرية تامة إلى القائد وأخيراً إلى الجنرال، الذي مثل المرجعية الاستخبارية للجهاز العسكري السوفياتي في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، وقدم الكومنترن الألماني له جميع أنواع العون السري الذي طلبه، ولم يوجد في غير الحزب الشيوعي الفرنسي تيار رفض التعاون معه، وهو ما أدى إلى استدعاء هنري باربي، قائد مكتبه السياسي النافذ والناطق باسمه، إلى موسكو، لتسوية هذه التباينات في وجهات النظر. لكن مثول باربي بين يدي بيانيتسكي ومانويلسكي بقي بلا نتيجة، فكان لا بد من أخذه إلى الجنرال بيرسين. يصف باربي هذا اللقاء قائلا:[1] «في صبيحة اليوم التالي اصطحبني ضباط الجيش الأحمر إلى فندق لوكس. لقد اخترقنا موسكو بالسيارة، إلى أن بلغنا أخيراً بناء ضخما يقع على ميدان كروبوتكين، لا يحمل أي لوحة أو علامة تشير إلى الجهة التي تعمل فيه. ذلك كان مركز الاستخبارات العسكرية السوفياتية ومقرها الرئيس. اقتادني مرافقي إلى قاعة كبيرة، تزين جدرانها خرائط عملاقة لأوروبا وآسيا، وقف وراء مكتب في وسطها رجل في الخمسين وقد ارتدى بذة عسكرية زينها وساما الراية الحمراء على الليتيفكا، يدل مظهره على قوة مفرطة، ويبلغ طوله نحو 1،75 متر، وقد حلق شعر رأسه، تفيض من عينيه الزرقاوين نظرة نفاذة مفعمة بالحيوية. لقد وجدت نفسي في مواجهة الجنرال بيرسين، رئيس المخابرات العسكرية في الجيش الأحمر، الذي يتحدث الفرنسية بطلاقة، الذي كان متوترا وعصبيا بعض الشيء. حياني بيرسين بحرارة، وهز يدي وطلب شايا

(1) استشهاد مقتبس من هاينس هونه، ص 28، و نولاو، ص 143.

ومعجنات. ثم بدأ محاضرة طويلة حول أهمية العمل من أجل الأخبار والمعلومات، التي تكفل الدفاع عن الوطن السوفياتي. وجعلني أفهم أنه يعرف موقف قادة الشيوعيين الفرنسيين من استخدام أعضاء الحزب في العمل مع الاستخبارات السوفياتية، واعترف أن هذا يمكن أن يسبب لنا حرجا، لكنه ليس في وضع يستطيع معه الاستغناء عنه». لم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد أزاح الجنرال اعتراضات وتحفظات قادة المكتب السياسي الفرنسي جانبا، وقدم لهم عرضا لا لبس فيه، يطلب منهم الدخول في علاقة وثيقة مع الشعبة الرابعة في الجيش الأحمر، والقيام بعمل استخباري لمصلحتها. كان باربي كمن تلقى ضربة على أم رأسه، فأفهم محدثه أن الامتناع عن ممارسة التجسس هو من تقاليد الحركة العمالية الفرنسية، التي تضع مصالح وطنها الخاص فوق مصالح «الوطن الاشتراكي»، أي الاتحاد السوفياتي. ثم ختم حديثة من جديد بنداء وجهه إلى الجنرال بيرسين، يناشده التخلي عن تجنيد جواسيس من الحزب الشيوعي الفرنسي. عندئذ، حدثت مجادلة حيوية بين الفرنسي وجنرال الاستخبارات السوفياتي، «الذي أوحى لي وقد احمر وجهه غضبا، أنني ربما كنت لا أود فهم أهمية العمل، لكن آخرين سيدركونها... وعند الوداع، طلب إلي التفكير مرة أخرى بالأمر». يصف هذا النص الجنرال سنة 1931. لكن الرجل مات بعد ست سنوات. وكان قد عمل خلال الحرب الأهلية الاسبانية مستشارا أول لحكومة مدريد، قبل أن تطلق عليه النار ويقتل سنة 1937[44].

لقي خلف بيرسين، الجنرال سميون بيتروفيتش أوريتسكي، ومساعد بيرسين الكساندر كورين، المصير ذاته في موسكو. ذلك أدى إلى تصفية الاستخبارات العسكرية القديمة، وأصاب الجديدة بالشلل لسنوات كثيرة. كان للضربة، التي مزقت الجيش الأحمر، نتائج سياسية دولية كبيرة وعميقة، وساعد تطهير شعبة أركانها العامة الرابعة هتلر، بصورة مباشرة أو غير

مباشرة، على إحراز نجاحاته الخارجية الكبيرة في السنوات التالية، بدءا من ميونيخ سنة 1938. فقد أقصي الجيش الأحمر أول الأمر كأحد عناصر القوة الأوروبية، حتى إن القضاء على هيئة ضباطه العليا جعل فرنسا تقلع عن اعتباره عنصرا من واجب سياستها الخارجية أخذه بالحسبان. هنا، كانت لا تزال حية في الذاكرة محادثات المارشال توخاتيفسكي مع الأركان العامة الفرنسية، وقد دارت آنذاك، في سنة 1936، حول معاهدة التعاون الفرنسي / السوفياتي. بدوره، كان الملحق العسكري السوفياتي في لندن، الجنرال بوتنا، قد دعي إلى المشاركة في هذه المحادثات، لكن الرجلين أعدما في الفترة السابقة، بينما حل ضعف شديد بالجيش الأحمر. هكذا، تشككت فرنسا في وصول مساعدة سوفياتية إليها، فكان تشككها احد الأسباب التي جعلت رئيس وزرائها دالاديه يقبل الذهاب إلى ميونيخ في أيلول/ سبتمبر من سنة 1938.

كان للتطهير، الذي قام به ستالين سنة 1937/ 1938 نتائج أخرى بالنسبة إلى الاستخبارات العسكرية السوفياتية. فقد رفض كثير من منتسبيها إطاعة أوامر موسكو بالذهاب إليها «لتقديم تقرير» هناك. صحيح أنه كان هناك من استسلم كالأعمى مثل رئيس ب. ب بورده، قائد جاسوسية الاستخبارات العسكرية السوفياتية في اسكاندينافيا (بورده: «أنا ذاهب إلى الموت، لكنه لا خيار آخر لدي»)، إلا أن هناك، بالمقابل، من طلب اللجوء في الغرب، ودفع ثمن ذلك: كشف ما لديه من معلومات. لقد هتك هؤلاء حجاب السرية الشاملة، فعرفت أجهزة استخبارات الغرب الكثير حول طرق وأشخاص ومعلومات، كانت معرفتها تتطلب تجنيد مئات العملاء، إن قيض لهم الحصول عليها أصلا. هكذا خدمت التطهيرات الكبرى الغرب، وأعتقد أن هذا السبب هو الذي دفع الاستخبارات العسكرية السوفياتية إلى الانسحاب من ألمانيا.

في هذا السياق، يلفت النظر بصورة خاصة مصير الجنرال كريفتسكي[1]، الذي جاء بالأصل من الشعبة الرابعة في أركان الجيش الأحمر العامة، واعتبر تلميذا فذا لبرسين. لقد كان في مطلع العشرينيات من القرن الماضي ملازما ثانيا وكان احد كوادر الضباط السوفيات، الذين أرسلوا إلى ألمانيا، للإعداد لاستيلاء الشيوعيين على الحكم، أي للحرب الأهلية. في ذلك الوقت، كان هناك منظمات ثلاث تنشط تحت الأرض هي: استخبارات الحزب الشيوعي بقيادة الشعبة الرابعة، ومنظمة تعد كوادر للجيش الأحمر الألماني المقبل، وأخيراً مؤسسة مهمتها اختراق جيش الرايش والشرطة بطريقة منهجية ومنظمة، بهدف تحطيم معنوياتها أو أقله «لإثارة الاضطراب في صفوفها». من المعروف أن العملية فشلت، لأن كتلة العمال الكبرى رفضت تأييد التجربة الثورية. لكن الملازم السابق كريفيتسكي اكتسب «خبرته الأولى» خلالها، ثم عادت إنجازاته الاستخبارية عليه برتبة جنرال، قاد مكتب الاستخبارات السوفياتية في الغرب. هذا الرجل اختار الحرية، حين تلقى الأمر بالعودة من باريس إلى موسكو، ونشر مذكراته سنة 1940، ثم وجد، بعد فترة قصيرة، ميتا في غرفة فندق في واشنطن، وقيل إنه انتحر. ثمة رجل استخبارات آخر خدم موسكو في الغرب هو الجنرال ألكساندر أورلوف، العميل الذي كان يقود مكتبها في إسبانيا، وفر بدوره إلى الغرب فنجا من مطاردات زملائه السابقين، وكتب في الفترة المنصرمة كتبا مهمة عن ستالين والاستخبارات العسكرية السوفياتية. أما قائد مكتب الاستخبارات السوفياتية السابق في تركيا، ج.س.آجرابوف، الذي نشر سنة 1930 في برلين كتابا عن الاستخبارات السوفياتية، فقد توارى عن الأنظار في بلجيكا، إلى أن تم العثور عليه واختطف إلى موسكو، حيث أعدم.

(1) بوخهايت، جيرت: القوة المغفلة. فرانكفورت 1969، ص 149.

الفصل الثاني

النتائج حتى 1942

يقدم دالين كشف الحساب الآتي في كتابه «الجاسوسية السوفياتية»: «عندما خمدت العاصفة سنة 1938، وحل بيريا محل يشوف، كان ضعف شديد قد أصاب روسيا، الواقعة بين دولتين قويتين هما ألمانيا واليابان. لقد كانت استخباراتها محطمة، وكانت تفتقر إلى احتياطي دماء طازجة يمكن حقنها به»[1]. وكان ثمة ثقب كبير في جسم سفينة الاستخبارات السوفياتية عشية الحرب العالمية الثانية، جعلها عاجزة عن المناورة لفترة طويلة. بينما تلقى الجيش الأحمر بدوره من الضربات ما جعله عديم الوزن خلال أزمة السوديت سنة 1938، وأجبر السوفيات على الاكتفاء بدور المتفرج عند توقيع اتفاقية ميونيخ. لكنه أمكن منذ سنة 1938 التخلص شيئاً فشيئاً من عقابيل التطهير الستاليني للجيش، الذي فشل مع ذلك في حرب الشتاء ضد فنلندا سنة 1939/ 1940. في حين كانت أمور الاستخبارات خلاف ذلك، حيث ساد حتى في الأعوام الأولى من الحرب الألمانية / السوفياتية نقص في الخبراء، الذين يمتلكون المعارف الرئيسة الضرورية عن الجيش الألماني، وافتقر الجيل الذي تم إعداده بسرعة وسطحية إلى الخبرة، التي تمكنه من التفريق بين «التبن والقمح»، وبين المعلومة والهذر. في هذا الوضع، وجدت الاستخبارات نفسها مضطرة للاعتماد بصورة رئيسة على أعضاء الكومنترن في

(1) دالين: مرجع سابق، ص 65.

الخارج، الذين نجوا من التطهير، وافتقروا إلى معارف عسكرية. غير أن المشكلة الرئيسة كانت افتقار المركز إلى رجال ذوي خبرة عملية، مما يفسر النكسات الثقيلة التي عرفتها حتى سنة 1942 شبكاته في الغرب، وتتلخص في أنه:

1 ـ لم يتخذ أي تدابير لتأمين أجهزة إرسال قصيرة الموجة في برلين، مست الحاجة إليها عند نشوب الحرب. كما كان هناك افتقار شديد إلى عمال لاسلكي مؤهلين[45].

2 ـ جند عملاء غير ملائمين وغير مدربين، أهمل تأهيلهم، ولم يوفر لهم قادة موصوفين، فكانت النتجية أن انتهكت مجموعة شولتسه/ بويزن البرلينية قواعد العمل السري انتهاكا فاضحا ويستحق العقاب[46]، ودفعت دزينة من الوجوه الجانبية حياتها ثمنا له.

3 ـ ارتكب أخطاء غير قابلة للتصحيح، منها مثلا ذكر ثلاثة عناوين برلينية صحيحة في رسالة لاسلكية، أدت إلى تسليم مجموعة برلين الرئيسة شولتسه / بويزن، وأرفيد هارناك، وآدام كوخهوف إلى الشرطة السرية الألمانية .؛علما بأن اعتقال شولتسه / بويزن أسقط الخبير العسكري الأكثر أهمية لدى السوفيات في يد الألمان.

4 ـ افتقر المقر السويسري بقيادة ساندور رادو، الذي تأسس بالأصل ليكون شبكة احتياطية وحسب، إلى مدير مؤهل من الناحية العسكرية[47]، وهذا ما برزت نتائجه، عندما سقطت جميع الشبكات الأخرى على وجه التقريب في الغرب. لكن الوضع تغير في نهاية خريف سنة 1942[1]، عندما

(1) أنظر شرام: الخيانة في الحرب العالمية الثانية. الطبعة الثانية. دوسلدورف 1969، الفصل الرابع: «فيرتر ـ شخص أم ظاهرة ؟» تنامت أبحاثنا منذ ذلك التاريخ. وهناك شك قوي =

تم تجنيد خبير عسكري للعمل مع روسلر وظهر «فيرتر». صحيح أن بعض قادة العملاء المؤهلين عسكريا أرسلوا سنة 1939 إلى الغرب، بيد انه كان من الصعب التأكد من طبائعهم، بسبب تقدمهم الوظيفي السريع. هكذا سقط رجال مهمون كـ«بوتي شيف» وكنت وفيكتور سوكولوف فريسة إغراءات «الحياة الحلوة». قبل شرح أطروحاتنا، وخاصة الرابعة منها، ثمة شيء يقال. بعد التطهير، تم تعيين قادة مقرات جدد في الغرب، كانوا، كما سبق القول، أعضاء منذ سنوات طويلة في الكومنترن، ولديهم خبرات في العمل السري ووظائف ممتازة يتخفون وراءها. هكذا كان مثلا ألكساندر رادو مدير مطبعة جيوبرس، وليوبولد تريبر مدير شركة كبيرة للاستيراد والتصدير. لكن هؤلاء كانوا عاجزين تماماً عن القيام بالمهام، التي تطرحها الحرب، لأنهم كانوا غير محترفين عسكريا. هذا النقص كان واضحا قبل كل شيء لدى المقر السويسري، حيث تبين المواد التي تم تلقيها أو فك رموزها[1]، أنه تم بين 1941 وخريف 1942 إرسال برقيات كثيرة جداً إلى موسكو، لم تكن غير مجرد ثرثرة بلا معنى. على أن الوضع تحسن فيما بعد بصورة لافتة. كما تدل الأمثلة الآتية.

= في أن ضابط الاستخبارات التشيكية السابق العقيد كاريل سيدلاشيك (الياس سميسون) كان في خريف سنة 1942 مستشاراً لروسلر، القليل الخبرة عسكريا. حسب كتاب هانس رودولف كورتس: سويسرا كمركز أخبار، ص 23، سكن سيدلاشيك في سانت جالن لدى حميه هاوسمان، الذي كان على صلة مع لوسي - روسلر عبر د.فالنر. بعد الحرب، عين سيدلاشيك أول ملحق عسكري تشيكي لدى سويسرا. ويلفت النظر أن روسلر كان يعمل آنذاك أيضاً في خدمة استخبارات براغ.

(1) نسخ هذه النصوص في حوزة المؤلف.

6 أيلول/ سبتمبر 1941

إلى المدير

تقول أوساط ديبلوماسية صينية أن ألمانيا توافق على قيام فنلندا بعقد سلام خاص، بعد الاستيلاء على لينينجراد، لأن ذلك سيؤدي إلى تقصير الجبهة الألمانية، وتحرير قوات ألمانية، وتسهيل تموينها ونقلها.

دورا

التعليق: ذلك كان إشاعة هادفة نشرتها الاستخبارات، وتم تداولها في برلين آنذاك.

وفي اليوم ذاته:

إلى المدير

حسب قول ضابط ألماني رفيع مقره في بروتاني، تم سحب حتى عشر فرق من الغرب وإرسالها إلى الجبهة الشرقية.

دورا

(تحمل البرقية الرقم 207)

التعليق: لم تحدد البرقية الزمن الضروري لإرسال هذه الفرق إلى الشرق، وأي وحدات كبيرة أو تشكيلات جديدة يحتمل أن تحل محلها. بذلك كان من الصعب الإفادة من معلوماتها الغائمة.

يوم 6/ 8/ 1942 أبرق المدير في موسكو موبخا

إلى دورا

أصبت بالدهشة لأن «باكبو» لم يقدم بعد معطيات حول المكان الذي

يوجد فيه حاليا مقر قيادة هتلر

المدير

التعليق: كان مقر قيادة هتلر موجودا ذلك الوقت في فينيسسا في أوكرانيا. وهو أمر كان معروفا في الدوائر الداخلية للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية (ومنهم المؤلف). هذا يعني أن باكبو لم يتلق معلومات من هذه الدائرة.

وفي آب من سنة 1942 كان على المدير أن يبرق إلى دورا:

لا نستطيع الإيمان بصحة معلومات تايلور الأخيرة. عليكم حتما إيضاح مصدرها. أليس من المحتمل أن يكون في الأمر استفزاز؟. هل يضمن تايلور موثوقية مصدره؟. أقيموا دون إبطاء صلة مباشرة مع هذا المصدر[48].

(في موسكو كان يهب منذ بعض الوقت هواء آخر).

obeikandl.com

الفصل الثالث

خبير اللاسلكي يتدخل

ليس هناك من لا يمكن الاستغناء عنه، بمن في ذلك الجنرال بيرسين وهيئة أركان معاونيه القدماء الماكرة. ومع ذلك، كان لا بد من مرور سنوات، قبل أن تستعيد استخبارات الاتحاد السوفياتي العسكرية كامل قدرتها من جديد. وعند نشوب الحرب سنة 1941، كان جليا أن هذا لم يكن حالها بعد، وخاصة في مقراتها الغربية، وإن كان الوضع أفضل من ذلك في المركز الموسكوفي، الذي استعاد استقلاليته من جديد، بالنظر إلى اقتراب الحرب العالمية الجديدة.

وقد دعي إلى هذا المركز، بدءا من سنة 1938، عدد متعاظم من الضباط الشبان، ممن تربطهم بستالين علاقة شبيهة بتلك التي ربطت رفاقهم في الوظيفة بهتلر في ألمانيا، أعني علاقة الخضوع والانضواء والولاء. صحيح أنهم كانوا لا يجيدون بعد جميع أحابيل العمل الاستخباري، وخاصة منه قيادة العملاء، وأنهم ارتكبوا أخطاء ترتبت عليها نتائج وخيمة، لكنهم كانوا متعطشين إلى التعلم كمعظم الروس الشبان، واكتسبوا قدرا متزايدا من المعرفة حول القوات المسلحة الألمانية، تفصح عنه استفسارات المدير الموجهة إلى رادو. لقد بدأت الاستخبارات العسكرية تتدارك سنة 1942 ما كان قد فاتها.

ثمة سبب آخر خدم إعادة بناء الاستخبارات واستكمال قوامها: إنه

قدوم البديل وجيل موظفيها اللاحق من سلاح الإشارة بالدرجة الأولى، الذي كان يمتلك عددا كبيراً من المواهب التقنية، ويرأسه منذ سنة 1941 رجل تبين بعد حين أنه ضرب من «فيلجيبل» سوفياتي، ما لبث أن اكتسب نفوذا حاسما على مجمل سلاح الإشارة في الجيش الأحمر بوجه عام، وعلى الاستخبارات بشكل خاص، هو مارشال سلاح الإشارة اللاحق إيفان تيرنتييفيتش بيريسبكين.

وكان قائد أو رئيس الأركان قد أقام في هذه الأثناء وليمة للملحق العسكري السابق في برلين، الجنرال أورلوف، الذي يقول كوسترينج عنه في رسالة بعث بها من موسكو يوم 28 آذار/مارس سنة 1938: «أما بهاء الروس فكان أورلوفنا، وهو الآن قائد فرقة ورئيس شعبة المعلومات، شيء يشبه كاناريس عندنا، اصطحبه سيد البيت (السفير الأميركي. ملاحظة للمؤلف) إلى باب المنزل، حين غادر[1]. خلف العميد آ.ب .بانفيلوف من سلاح المدرعات، أورلوف في تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1941، في أعقاب الفشل الجلي للاستخبارات السوفياتية. لكن الرئيس الجديد لم ينجح بدوره، فتم تعيين «مدير» جديد سنة 1942 هو العميد إيفان ايفانوفيتش إيلييتشوف، الذي كمنت قوته في جانبه السياسي، بدليل تعيينه بعد الحرب مفوضا أعلى وسفيرا سوفياتيا لدى فيينا. صمد المدير الجديد عاما واحدا في منصبه، قبل أن يظهر على رأس الاستخبارات العميد فيودور فيودوروفيتش كوزنيتسوف، القادم من الإدارة السياسية الرئيسة[2]، الذي بلغت الاستخبارات العسكرية للجيش الأحمر ذروة إنجازاتها تحت إدارته، وكان مسؤولا بهذا القدر أو

(1) كوسترينج: مرجع سابق، ص 198.

(2) نتابع هنا معطيات هانه، ص 63 وما يليها، ورسالته إلى جريدة فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج بتاريخ 15/8/1974 «بيريسيكين لم يكن رئيس الجاسوسية».

ذاك، عن تجفيف موارد مقر ساندور رادوس في سويسرا، وجعل محطات اللاسلكي التابعة لعملائه مورد معلوماتها السرية الرئيس[49]، بعد أن قدم سلاح الإشارة الوسائل التقنية والكادر المدرب، وتعاون تعاونا وثيقا مع الاستخبارات العسكرية، شأنها في ذلك شأن السلاح ذاته في القوات المسلحة الألمانية، الذي تعاون بدوره مع وكالة أنباء العدو في الجيش.

لم يعد التجسس بأنواعه المختلفة نقطة ثقل العمل الاستخباري الحديث، بعد أن انتقلت إلى اللاسلكي باستخداماته المتنوعة، إلى عملائه واستطلاعه، وغدت الحاجة ماسة إلى تنظيم أقوى للتخابر باللاسلكي. لنستمع إلى ما يقوله خبير عالي التأهيل في تقرير غير مطبوع حول هذه الناحية، هو العقيد راندیفیج، الذي كثيراً ما سنستشهد به في هذا الكتاب: «كانت أساليب اللاسلكي الروسية محكمة وسديدة. ومع أنها كانت بطيئة بعض الشيء بالنسبة إلى المفاهيم الغربية، فإنها كانت متكيفة مع ذكاء عامل اللاسلكي الفرد. وكان ممكنا التأكد بعد حين من أن الروس يعملون بمنظومات رموز تراسل بسيطة ومنهجية، تسمح بالتعرف السريع إلى الترابطات التكتيكية. كذلك كان الأمر مع المجموعات المركزية في كل رسالة، التي سهلت عمل استطلاعنا. و« لكن»: في 1/ 4/ 1942 حسَّن الروس أساليبهم تحسينا جذريا، زاد أمن اتصالاتهم البرقية، فتراجعت لفترة طويلة عوائد استطلاعنا. . .»[50].

ثم يلخص العقيد راندیفیج مؤكدا: «وعلى كل حال، فإن علينا الاعتراف بأن الإدارة العليا للاسلكي الجيش الروسي بذلت جهودا امتدت طوال الحرب لتطوير نظامه وترقيته، وإن كان تطبيقها عمليا تأخر بعض الوقت». هذا التحديث المستمر، يجب أن يسجل في رصيد إنجازات خبير اللاسلكي بيريسيبكين. صحيح أنه لم يكن «المدير»، كما افترض مؤرخو

العصر الألمان أول الأمر، لكن نفوذه تزايد باضطراد على الاستخبارات العسكرية، التي بدأت تستعيد اعتبارها منذ سنة 1939، حين غدت مسؤولة من جديد عن مكافحة التجسس، وكانت حتى ذلك الوقت من اختصاص شرطة أمن الدولة. تولت الاستخبارات العسكرية أيضاً استطلاع العدو في المناطق العسكرية القريبة من الحدود. وأقامت دورات تعليمية لشعبة اللاسلكي الخاصة في مدرسة البرق والراديو في موسكو. وأسست شعبة ترميز خاصة بها، تولى إدارتها خبير مجرب هو العقيد كرافتشنكو. لئن كان اللاسلكي السوفياتي لم يبلغ الذروة في هذا كله، وكانت القوات تتعامل بخفة مع أجهزة التخاطب اللاسلكي، فإنه عوض عن نواقصه بمزايا أخرى، منها التحسين المتواصل خلال الحرب لاستخدام اللاسلكي من أجل استطلاع العدو، الذي ترتب على جمع مختلف الخدمات وتنسيقها بواسطة الاستخبارات العسكرية، التي كان ستالين يصغي إلى رؤسائها، بعكس هتلر، الذي كان يضرب عرض الحائط بالمعلومات «من أول مصدر».

بوجه عام، علينا إعطاء بيرسيبكين الأهمية ذاتها التي نعطيها لفيللجيبل لدى الألمان. أرسى رئيس الإشارة الألمانية في السلام مستلزمات نجاح الاستطلاع الألماني للعدو، وسهر على تحسينه حتى النهاية الكارثية للحرب، التي كان قد تنبأ بها، لكنه لم يشهدها، إذ أعدم بطريقة مهينة بعد 20 تموز من سنة 1944[1]. مر بيرسيبكين بتجربة معاكسة، فقد دان بصعوده إلى «تطهيرات» ستالين العنيفة، ثم عايش إخفاقات جسيمة في مجال اللاسلكي بالذات، الذي كان مسؤولاً عنه كرجل استخبارات أعلى، قبل أن يقرر التقيد بنصيحة لينين «إفهم وتجاوز»، ويعمل على استغلال إمكانات هذا السلاح الاستطلاعي الأخرس بطريقة هجومية. ذلك جعل من بيرسيبكين الرئيس

(1) يوم 4/ 9/ 1944.

الذي انفرد دون جميع الرؤساء «العظام»، الذين يرد ذكرهم في هذا الكتاب، بتحقيق أعظم قدر من النجاح: فقد رقي إلى مارشال سلاح الإشارة ومنح أعلى الأوسمة الحربية، بينما صفي كاناريس وأوستر وفيللجيبل، وصرف الرئيس الناجح لشعبة «الجيوش الأجنبية شرق» جيهلن من الخدمة برتبة لواء، وكذلك السير كينيث سترونح، رئيس الشعبة الثانية الناجح والمجد لدى أيزنهاور، الذي حقق مفاجأة الغزو وتلقى لقب النبالة وهو برتبة لواء.

obeikandl.com

obeikandl.com

5

وكالة أنباء العدو من 1939 وحتى 1945

الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية
الاستطلاع اللاسلكي الألماني يشارك في الاستماع
من ممارسات تاريخ الحرب
مكافحة التنصت ـ إجهاد شديد
ألاعيب وخدع لاسلكية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية

1

لا مراء في أن الحرب العالمية الثانية شهدت سلسلة من حالات التجسس، أثارت اهتماماً عالميا واسعا، منها على سبيل المثال حالة زورجه في اليابان، والروته كابيله في ألمانيا وغرب أوروبا، ومركز الجاسوسية السوفياتية ساندور رادوس في سويسرا، وحالة شيشرون في تركيا، وهذه جميعها حالات حظيت بعمومية غير عادية. كما كان هناك، فضلا عنها، قضايا تجسسية لا حصر لها أكبر أو أصغر منها، مارست وسائل الإعلام الإثارة من خلالها، ومنحت لقب «الجاسوس الفذ» بسخاء، حتى تحول إلى لقب شائع في الحديث عن الجواسيس والعملاء جميعهم، الذين قيل إنهم عرفوا أعمق أسرار الدول والجيوش على الجانب الآخر، وأسهموا في الانتصار الحاسم أو الهزيمة النهائية لهذا الطرف أو ذاك. وزعم مخبران صحافيان فرنسيان أنه تم كسب الحرب في سويسرا[1] ـ بفضل المعلومات السرية، التي بعث بها من هناك إلى موسكو لفيف من العملاء.

لكن الحقيقة كانت خلاف ذلك: إن قسما كبيراً من الخدمات الاستخبارية،

(1) هذا ما تقوله سلسلة المقالات في مجلة أسبوع العالم السويسرية، التي كتبها سنة 1965 بيير آكوكو وبيير كي. وقد نشرت فيما بعد ككتاب حمل عنوان موسكو عرفت كل شيء، زيوريخ 1966.

التي كانت القوى المحاربة تعلق أهمية حقيقية عليها، كان يتم، بوجه عام، من دون جواسيس وعملاء. نؤكد مرة أخرى على هذه الفكرة، فقد عرف المجال الاستخباري معارف عظيمة وغنية بالنتائج، تم الحصول عليها بوسائل أخرى، من دون أي تدخل من الجاسوسية، يجب أن تعزى إلى اكتساب معرفة كلية، لا تستند على هذا الخبر السري أو ذاك، بل على المعلومات الجارية. هذه الخدمات الاستخبارية بقيت طوال الوقت لصيقة بالعدو. ترى، كم كان طول، أو بالأحرى، قصر الزمن، الذي نشط فيه «الجواسيس الأفذاذ» المذكورون أعلاه، بالمقارنة مع أزمنة نشاط هذه الخدمات؟. كُشف زورجه في نهاية سنة 1941، بمجرد أن بدأت الحرب الألمانية / السوفياتية. وكُشفت الروته كابيله في ألمانيا في أيلول/ سبتمبر من سنة 1942. أما بالنسبة إلى مقر ساندرو رادوس في سويسرا، فهناك إثباتات تؤكد أنه لم يرسل معلومات قيمة إلى موسكو إلا سنة واحدة فقط، امتدت من خريف 1942 إلى خريف 1943، اضطر رادو بعدها إلى التواري عن الأنظار. وتبددت حالة شيشرون، لأن هتلر لم يبد اهتماماً كافيا بالوثائق التي جلبها خادم الغرفة. إن النتائج الفعلية، التي ترتبت على أعمال الجاسوسية، ليست هي التي جعلت هذه الحالات مهمة بالنسبة إلى الرأي العام، بل جعلها كذلك جانب المغامرة، والغموض والخطر، أو الفسحة المفعمة بالأسرار التي جرت فيها. وما أثار اهتمام القارئ أو المتفرج، وحرض حس الإثارة لديهما، كان ظروف جمع المعلومات وليس مضمونها الحقيقي. بنظرة شاملة، وتقويم ينصب على قيمة ما جمعه من معلومات، نجد أن الجاسوس أو المخبر من النمط القديم كان شخصا هامشيا خلال الحرب العالمية الثانية، التي لم تعرف حالة تشبه حالة عقيد الأركان العامة ريدل سنة 1912. وبالنظر إلى أن الحجم الإجمالي لما أريد معرفته أو لما عرف حقا عن العدو، كان قد تطور كثيراً، فإن أعين وآذان الأفراد لم تعد كافية، مهما كان عددهم كبيرا، لإلقاء النظرات الضرورية على مسار، قوة، وعمليات، وتسليح، ونوايا الطرف الآخر.

لهذا، لم يحمل أساتذة الاستخبارات الحقيقيون في الحرب العالمية الثانية اسم زورجه، روسلر أو شيشرون، بل بقوا مجهولين تقريبا، إلى أن كتبوا مذكراتهم، أو برزوا بطريقة أخرى بعد الحرب. لقد أبقى هؤلاء أشخاصهم خارج أي عمليات تجسس، واكتفوا بإعطاء مهام، أو بتلخيص معلومات، أو بتحليلها وتقويمها. بذلك أمكنهم التنبؤ معظم الأحيان بنوايا العدو، استنادا إلى مستندات ومعطيات جمعتها مراكز خارجية وقاموا هم بمعالجتها. لقد كانوا الرجال الذين قادوا مراكز الاستخبارات، وأعطوا «مهام البحث»، وهم في أوروبا قبل كل شيء «المدير» وكينيث سترونج، وراينهارد جيهلن، وأولريش ليس، وآلان دالاس، وقد كان لهم جميعهم نفوذ على مسار الحرب، وإن حالف الحظ هذا أكثر أو أقل من ذاك. وهم جميعهم يستحقون مكانا بارزا في تاريخ الحرب والعصر[51]. إذا كنا لا نذكر الأميرال كاناريس في هذه السلسلة من الرجال، فبسبب الأوضاع المأسوية، التي ارتبطت ليس فقط بشخصه بل كذلك بتسريحه وأخيراً بإعدامه: ذلك أن «شعبة مكافحة التجسس الألمانية» لم تكن منظمة أو مجهزة بشريا بما من شأنه أن يمكنها من تحقيق إنجازات خارقة. غير أن العطب الأسوأ كمن مع ذلك في واقعة أن «مكتب المراسلات السرية»، الذي قاده كاناريس، عانى بصورة خاصة من توزيع المهام، وقيام مؤسسات استخبارية كثيرة إلى جانب بعضها البعض، حيث كان هناك مكافحة و«جيوش أجنبية»، اختصت إحداهما بالقيادة العليا للقوات المسلحة، والثانية بالأركان العامة للجيش[52]. وكان هناك استطلاع بالإشارة على الجبهات ومكافحة لاسلكي في المناطق المحتلة بدأت عملها منذ سنة 1942، لكنه لم يكن هناك مركز سنة أو أعلى يجمع المعارف[1] التي تحصل مجتمعة عليها، وتلك التي تحصل عليها فروع

(1) يمتلك المؤلف نسخة من المحاضرة، التي كتبها هالدر أثناء عمله في قسم التاريخ بكارلسروه.

القوات المسلحة الثلاثة أيضاً ـ وكان لدى البحرية وسلاح الجو استخبارات خاصة بهما ـ ويضعها أمام قائد الحرب الأعلى. من جانبه، لم يهتم هتلر بالاستخبارات، على عكس ستالين وأيزنهاور[53]. لذلك، تحول كاناريس وأوستر وغيرهما من ضباط المكافحة إلى انهزاميين بالضرورة، وشعر عدد غير قليل من المنتسبين إلى المكافحة بالإحباط، وكيف لا يصابون به إن كانوا يخدمون في مؤسسة تقادمت وتناقص مردودها باضطراد.

تقادمت خدمة المراسلات السرية، لأنها اعتمدت أساسا على أشخاص ومخبرين شخصيين، وجمعت معلومات غائمة معظم الأحيان، وتعاملت دوماً وفي كل مكان مع قضايا إنسانية / فائقة الإنسانية. غير أن التقدم التقني طور أداة جديدة لهذا المجال أيضاً، تستطيع تخطي الزمان والمكان بسرعة الفكر، وتضييق ما هو ذاتي وإلغائه، هي اللاسلكي بوظيفته المزدوجة: كأداة اتصال و«مصدر موثوق» للمعلومات، يمكن أن، يشارك في الاستماع إلى رسائل الطرف الآخر البرقية وفي قراءتها[54]. هنا، أود أن استشهد مرة أخرى بالعماد هالدر، رئيس أركان الجيش الألماني بين 1938 و1942، الذي قال: «أظهرت تجربة الحرب العالمية الثانية في المجال الذي نتحدث عنه أن اتصالات العدو البرقية هي أفضل وأغني مصدر معلومات. وأن أفضل نظام برقي وأكثر تدابير الشيفرة دهاء لن تستطيع تغيير هذه الحقيقة، وإن نجحت في تلطيفها، في أحسن الأحوال، مع أن قدرتها على تلطيفها تتناقص بتعاظم أمد الحرب. في عصر المحرك، تحتاج القيادة العسكرية، للسيطرة على التحركات المتزايدة السرعة باضطراد، إلى وسيلة تفاهم سريعة الأداء. وعلى التقنية أن تجد، إذن، وسائل تحمي التواصل البرقي الخاص، بنمطه المعروف في أيامنا، ضد الجانب المعادي، أو أن تبتكر طرقا جديدة للتفاهم بوسائل لاسلكية حصينة تماماً ضد التنصت».

حقق تقدم تقنية اللاسلكي خطوات حاسمة في ممارسة الحرب، سواء

في مجال القيادة التكتيكية أو العملياتية، أو في مجال الاستخبارات السرية. فقد اكتشف طرقا جديدة لإيصال الأخبار بصورة مباشرة إلى مسافات متزايدة البعد بواسطة الموجات القصيرة، أتاحت التخلي عن طرق معقدة تتطلب زمناً طويلا لنقل المعلومات والأوامر والأخبار، وجعلت بالمستطاع إيصالها طازجة إلى المركز. بسبب سرعة تغير الأوضاع في الحرب، تفقد الأخبار قيمتها، إلا ما كان منها جديدا أو مضى عليه ساعات قليلة، ويمكن متلقيه من اتخاذ تدابير يواجه بها العدو. بدوره، كان المبرق الناطق وسيلة اتصال محببة على الجبهة الشرقية منذ سنة 1942، ومصدر معلومات موثوقة بالنسبة إلى الطرف الآخر، وإن ضمن ظروف معينة على أي حال. تناقصت قدرة المكافحة على مجاراة هذا التغلغل في أسرار الخصم، وربما كان المدير في موسكو قد تخلى نهاية سنة 1943 لهذا السبب عن مركز التجسس ساندور رادوس في سويسرا.

منذ سنة 1942، غدت اتصالات العدو اللاسلكية في الشرق خاصة مصدر رئيسا لمعلومات مختلف مراتب القيادة الألمانية، باستثناء قائدها الأعلى. هذه الحقيقة ليست معروفة بعد بالقدر الذي تستحقه. والحق، إن نتائج الاستطلاع اللاسلكي، الذي سمي منذ سنة 1944 استطلاع المعلومات، فاقت أكثر فأكثر نتائج المكافحة، التي لو قومناها بدلالة نتائجها، لوجدنا ما يبرر إلغاء استقلاليتها سنة 1944 ووضعها تحت إشراف الاستخبارات في مكتب أمن الرايش الرئيسي. أما فن فك الرموز وكتابة الشيفرات الصعبة، قد أوصلته شعبة الترميز في القيادة العليا للقوات المسلحة إلى درجة رفيعة من التطور، بينما استطاع استطلاع تشكيلات الجبهة، من الفرقة فما دون، قراءة رسائل برقية كثيرة، بما امتلكه من خبراء متخصصين. بذلك، صار الاستطلاع سلاح مكتب المعلومات السرية الرئيس، خاصة على الجبهة الشرقية. وكان غالباً العون الوحيد، والفاعل، في أوضاع بدا وكأنه لا أمل

يرتجي منها. وستثبت النتائج، التي سنتحدث عنها في الفصول التالية، صحة ما نقول.

احتاج الأمر، على كل حال، إلى أعوام، قبل أن يدرك المرء في ألمانيا إمكانات هذا السلاح الاستطلاعي في الأثير، ويقوم باستخدامه. بل إننا ما زلنا نجده إلى يومنا خارج التصورات العسكرية الموروثة، التي تطرح أسئلة مثل: ألا يتنصت هؤلاء الجنود بدل أن يقاتلوا، ويكتبون بدل أن يطلقوا النار، ويعزلون أنفسهم بدل أن يعززوا الجبهة؟. وقد شكا آخر رئيس للاتصالات في القوات المسلحة ولشعبة المعلومات في الجيش جنرال سلاح الإشارة البرت براون من أن هذا المجال لا زال يعامل بإهمال عند كتابة التاريخ الحربي. وأكد في دراسة تحمل العنوان ذاته أن: «كتاب أرشيف الرايش الموسوم الحرب العالمية من 1914 إلى ...1918 اعترف أن الجيش الألماني لم يتخذ، بعكس الجيشين النمساوي والفرنسي، أي استعدادات قبل الحرب لمراقبة اتصالات العدو اللاسلكية، بقصد استطلاعها وفك رموزها وتقويمها تكتيكيا. وحين وصل إلى قائد الجيش الثاني، الجنرال فون هندنبورج، نص الأوامر الكاملة الصادرة عن قائدي الجيشين الروسيين المعاديين، الجنرال رينكامب قائد جيش نيمن، والجنرال سامسونوف قائد جيش ناريف، بينما كان هو منهمكا في الإعداد لمعركة تاننبورغ، التي وقعت يوم 25 آب/ أغسطس سنة 1914، سجل كتاب أرشيف الرايش باستخفاف: «كان هذا حسن ضربة حظ خاصة... . ترى، ألم يكن من الأفضل القول إنه لأول مرة في تاريخ الحرب قامت وسيلة استطلاع عصرية هي الاستطلاع اللاسلكي، بتحرير القائد من جزء من «قلقه» (كلاوزيفيتز: عن الحرب)؟. يخلوالكتاب من مقارنة بين تزود الروس السخي باللاسلكي وتزود الألمان غير الكافي به، ولا نجد فيه ذكرا للعب فرسان الجيش الألماني غير الحذر

باللاسلكي أمام باريس، واستخدام هذا الجهاز بيقظة من قبل الفرنسيين». ثمة سبب كاشف، جعل قيادة فرسان الألمان العليا (فون دير مارفيتز) على الجناح الأيمن لجيش الألمان الغربي، تكثر من الإبراق، هو أن ضابط الأركان العامة المختص نسي في حمأة الحرب أخذ مستندات الشيفرة الألمانية معه. فلم يكن هناك بد من استخدام اللاسلكي بكثرة، حصل الفرنسيون معها على معلومات عظيمة الأهمية لعملياتهم، عرفوا كيف يفيدون منها. وقد روى الجنرال اللاحق جيفيير، قائد مركز التشفير في أركان الجيش الفرنسي العامة، ذلك بالتفصيل[1]. هذا الإخفاق على الجانب الألماني كان كاشفاً بالنسبة للتجاهل الذي تم إبداؤه آنذاك خيال اللاسلكي، بما في ذلك ضمن أوساط الأركان العامة للجيش.

2

في مقابل إهمال اللاسلكي في الجيش الألماني القديم قبل الحرب العالمية الأولى كان هناك حس أكيد في ملكية الدون بإمكاناته، حتى بالنسبة إلى العمل الاستخباري. وقد راقب مركز المكتب العسكري السري، مكتب القيادة القيصري الملكي، الاتصالات البرقية للإيطاليين خلال الحرب الإيطالية / التركية سنة 1911، وفك رموز رسائلها السرية، ولعب دورا مقررا في هذا التقدم رئيس المكتب اللاحق، اللواء ماكس رونجه، الذي ندين له بكتاب مهم صدر سنة 1930 بعنوان الحرب والجاسوسية الصناعية[2]. كما وجد المكتب في شخص العقيد فيجل محلل رموز أسطوري الصيت، أظهر

(1) مقطع من كتاب الجنرال مارسيل جيفيير: في خدمة الشيفرة، 18 عاماً من الذكريات 1907-1925، أميان 1930، الفصل الخامس عشر: «نصوص الرسائل البرقية الألمانية خلال شهر أيلول/ سبتمبر سنة 1914».

(2) ماكس رونجه: الحرب والجاسوسية الصناعية، فيينا 1930، ص 311.

براعة فائقة في فك رموز الرسائل السرية الروسية والصربية والرومانية، حاكت براعته في فك رموز الرسائل الإيطالية. وقد قال الإيطاليون عن الاستطلاع النمسوي خلال الحرب العالمية الأولى: «يكفي أن نشير إلى المستوى الرفيع لقسم التنصت بالراديو، الذي استكمله قسم رائع لفك الرموز، نجح حتى أثناء التراجع (بعد معركة كارفرايت في تشرين الأول/أكتوبر سنة 1917) في اختراق محطات الراديو التابعة لنا وفك رموز برقياتنا، ومعرفة الخط الذي سنتراجع إليه. وقد علمنا من الوثائق التي غنمناها بعد الهدنة أن العدو فك جميع شيفراتنا تقريبا، بما فيها الأكثر سرية وتعقيدا». كانت ظروف الروس في الحرب العالمية الأولى مماثلة لتلك التي سادت لدى النمسويين، فقد أدركت هيئة أركانهم في مرحلة مبكرة أهمية النظام البرقي بالنسبة للقيادة، بعد أن لفت الفرنسيون أنظارهم إلى ذلك. وكتب الجنرال الروسي السابق نوسكوف دراسة حول هذا الموضوع، نشرتها مجلة سلاح الإشارة سنة 1938 (الدفتر السادس). تقول الدراسة: «تطلعت الأركان العامة الروسية في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى إلى امتلاك معرفة صحيحة بأهمية النظام البرقي في الحروب المستقبلية، وعملت على توزيع محطات لاسلكي خفيفة على أركان فرق المشاة، ولأن هذا كان صعب التحقيق بسبب النقص في الكادر المدرب، اقتصر نشر محطات اللاسلكي على فرق الفرسان. ما إن بدأت الحرب، حتى كانت جميع وحدات الجيش المرابطة في مناطق الحدود قد تلقت محطات لاسلكي خاصة بها. وإذا كان الروس متقدمين في هذا المجال بالمقارنة مع الألمان، فإنه من الضروري مع ذلك التأكيد أن كادرهم لم يكن في حالات كثيرة أهلا لمهمته، بما أن شريحة المتعلمين، الذين كان يمكن تشغيلهم في النظام الجديد، كانت قليلة إلى أبعد حد، مما جعل التدريب يتطلب وقتاً طويلاً. كما أن الحاجة الكبيرة إلى وسيلة الاتصال

الجديدة في الأركان حالت دون إعطائها الاهتمام الكافي. صحيح أن الروس كانوا أفضل تجهيزا بالتقنية من الألمان، لكنهم لم يبدأوا تدريب الكادر الضروري إلا قبل فترة قصيرة من نشوب الحرب، فعانوا طوال الحرب من هذا النقص، وكانت طريقة الكتابة السرية تسبب لهم دوماً أعظم قدر من الصعوبات، ولم يكن بمستطاعهم تبديل مفتاحها بصورة مستمرة، مما أفضى إلى فك رموز رسائلنا البرقية بسهولة نسبية». ربما كان ما سبق يفسر استخدام الروس نصا صريحا في إذاعة أوامر الهجوم يوم 25 آب/أغسطس 1914. يقول الجنرال نوسكوف: «كنا نرى في الجيش الثامن الألماني (فون هندنبورج) عدواً يحاول الفرار بأقصى سرعة إلى ما وراء الفايكسل، بعد فشله في القتال، فاعتقدنا أنه لا خطر في أن يعرف «الهارب» أكثر قليلا عن عدوه مما «يحق له معرفته» في العادة.

3

كان لهذه الأحداث في مجال اللاسلكي نتائج إيجابية بالنسبة إلى التطور والتجهيز اللاحق لقوات سلاح الإشارة الألمانية[1]، فقد تعلم فون دير موريتس، ضابط الإشارة المسؤول في القيادة العليا للفرسان، منها، واستخلص النتائج العملية التي ترتبت عليها. كما قاد ايريش فيلجيبل بذاته مكتب الترميز في وزارة حرب الرايش بين سنتي 1929 و1931، قبل أن يصير رئيس أركان تفتيش سلاح الإشارة، ويغدو مفتشه العام في الأول من تشرين الأول/أكتوبر سنة 1934، حيث قيض له أن يبنيه ويستكمله فعليا، قبل نشوب الحرب. لم يعِ فيلجيبل أهمية اللاسلكي كوسيلة اتصال فقط، بل

(1) أنظر ألبرت براون: حول النص الصريح والوثائق السرية، في فيهرفيسنشافتليشه روندشاو، السنة 1968، الدفتر السابع، ص 399-415.

أدرك قيمته كمصدر أكيد للمعلومات، لذا، أشرف على وضع لائحة مكتب الجيش السرية رقم 17، التي شرحت تدابير الاستطلاع عبر وسائل نقل الأخبار وحددتها، وكرس الدفتر الأول منها للاستطلاع التكتيكي القريب، بينما اختص الثاني بالاستطلاع الميداني البعيد، لتتحدد بذلك متطلبات شكل ثالث من جمع المعلومات: حيث الأول هو التقويم المنهجي للمعلومات «المفتوحة»، المنشورة في صحف وأدب وإذاعة الجانب الآخر، والثاني المعلومات التي يجمعها المتعاطفون، أما الثالث فالاستطلاع بواسطة وسائل نقل الأخبار، الذي احتل أهمية متزايدة خلال الحرب، وفاق في النهاية أي شكل آخر لجمع المعلومات. مهدت اللائحة الطريق إلى ذلك، وأقرت قيادة الجيش العليا، مكتب الجيش العام، التفتيش 7 (سلاح الإشارة)، مسودتها بعد فترة قصيرة من ضم النمسا مطلع سنة 1938، وفوضت فيلجيبل بتوقيعها.

لحق الاستطلاع البرقي الألماني بالآخرين، فدخل سنة 1939 مسرح التاريخ الحربي والمعاصر، ثم أظهر قدراته في مجرى الحرب العالمية الثانية، وبين أنه لم يعد بمستطاع مختلف مراتب القيادة الاستغناء عنه، بدءا بقيادات الفرق. صحيح أن الاستطلاع البرقي لم يلعب دورا حاسما في حملتي بولونيا والنرويج الصاعقتين، لكن عمل فيلجيبل البعيد النظر ما لبث أن أكد جدارته بصورة ممتازة في حملة الغرب.

كان فيلجيبل رجلا استثنائيا[1]، يصعب قياسه كجندي بالمعايير التقليدية، التي كان يقاس بها زملاؤه في السلاح. وقد ولد في سيليزيا لأحد ملاك الأرض، لكنه نشأ في مقاطعة بوزنان، وذهب ككثيرين ممن لا ينتمون إلى شريحة النبلاء إلى وحدة تقنية هي فوج التلغراف الثاني في فرانكفورت

(1) انظر سيرة حياته: إيريش فيلجيبل، استاذ الاتصالات المعلوماتية الميدانية. إسهام في تاريخ سلاح الإشارة. إصدار كارل هاينس فيلدهاجن، هانوفر 1970.

على نهر الأودر، ليصبح ضابطا محترفا، حيث تبين أنه موهوب تقنيا وشامل الاهتمامات. بعد تجاربه السلبية في قيادة الفرسان العليا سنة 1914، اكتسب الضابط الشاب معارف إيجابية حول إمكانات الاستطلاع البرقي في الشرق لدى النمسويين، حيث كان سنة 1916 مقدما وقائداً للاتصالات البرقية في جيش ماكنزن ورئيس أركانه الجنرال فون سيكت، الذي أثار فيلجيبل اهتمامه، فأرسله إلى دورة تعليمية مخصصة لضباط الأركان، نجح فيها بامتياز. بصفته مقدما في الأركان العامة، صار فيلجيبل معالج معلومات عن العدو (ضابط شعبة أركان ثالثة) في شعبة فون سيكت من قيادة الجيش العليا: بهذا التعيين، ضم سلاح الإشارة إلى مهامه مهمة جديدة. ثمة نقاط تشابه بين مسار صيرورة فيلجيبل و«زميله» اللاحق وخصمه الرئيس السوفياتي بيرسيبكين، مع فارق مهم هو أن الروسي لم يعرف نهاية فيلجيبل المفجعة.

في الأول من كانون الثاني/ يناير سنة 1929 عين فيلجيبل رئيس مركز الترميز في مكتب وزير حرب الرايش ببرلين، فبدأ بتنظيم رقابة منهجية على الخدمات البرقية الأجنبية، واضعا بذلك حجر الأساس لاستطلاع المعلومات اللاحق. كان مركز الترميز يقدم أيضاً أفضل الفرص لبناء خدمة رقابية واستطلاع برقي في السلم، ويجعل بالإمكان تحويلها إلى أداة فاعلة في يد القيادة العليا. لم يفهم رؤساؤه جميعهم مبادرته هذه آنذاك. كما لم يثمنها تاريخ الحرب إلا في كتابين تخصصين هما: البرت براون: جندي في سلاح المعلومات والإشارة، وإيريش فيلجيبل: اساتذة اتصالات المعلومات الميدانية، إسهام في تاريخ سلاح الإشارة 7. لئن كان تأثير هذين الكتابين يعد قليلا على الرأي العام الواسع، وتاليا على مؤرخي الحرب، فإن هذا الفصل من مكتب المعلومات السري ربما يكون حظي ببعض الشيوع، وتمت ملامسته من الخارج، إلا أنه لم يحظ بعد بالاهتمام الذي يستحقه. ثمة طبعا أسباب مفهومة لذلك: «فالرسالة البرقية، والرسالة عن بعد، والبرقية

بالكابل، والشيفرة، وآلة التشفير، وفك الشيفرة، والرصد البرقي، والسبر البرقي، وتحديد الأمكنة البرقي، والصورة البرقية هي مفاهيم غائمة بالنسبة إلى المؤرخين، تبقى العمليات المرتبطة بها عجائب مفعمة بالأسرار في نظرهم، يجهلون كيف يقوِّمون إمكاناتها وحدودها وأخطارها. فلا غرابة أن يرتابوا في المواد التي تنقلها وتجمعها هذه التقنيات، بما تحمله غالباً من أخطاء جسيمة في الحكم على الوثائق التاريخية وفي تقويمها»[1].

4

لا نفكر في هذا العرض بتاريخ الحرب المقبلة فقط، بل كذلك بالتاريخ المعاصر عموما. ثمة اهتمام واسع بالاستخبارات ونشاطها في الحرب العالمية الثانية. وقد ظهر عدد كبير من الكتب عنها. بالمقابل، لم يستطع ماكس جونتسنهويزر، مفهرس كتب الاستخبارات السرية، أن يذكر في الملخص[2] الذي أصدره سنة 1968، غير اثني عشر عنوانا فقط حول اللاسلكي، معظمها مقالات نشرت في المجلات، وهو ضرب من النشر الشحيح يتعارض كل التعارض مع أهمية الاستطلاع البرقي وإنجازاته قبل وخلال الحرب، الذي كان سنة 1943 أعظم بكثير مما أنجزه سائر أساتذة التجسس مجتمعين من سنة 1937 إلى 1945.

ليس رؤساء الاستخبارات بريئين أيضاً من هذا التقصير: تشير المستندات من 1/ 7/ 1944 إلى 4/ 12/ 1944 كم حرص هؤلاء على حجب «مصادر معلوماتهم الأكيدة»، وأحجموا عن الحديث حول سلاحهم السري،

(1) طبعة خاصة من أنباء تاريخية عسكرية، الرقم 2/ 68، ص 158. النص للدكتور يورجن روهر.

(2) ماكس جونتسنهويزر: تاريخ مكتب المعلومات السرية، تقرير أدبي وفهرس، فرانكفورت 1968.

الذي تعاظمت أهميته بالنسبة لاستخباراتهم. وكم خشوا كذلك إفشاء الأسرار، التي قد توقظ «الكلاب النائمة». وإننا لنفهم هذا جيدا، لا سيما وأن المرء يغرف غالباً، أو فقط، في هذا المجال الخاص لجمع المعلومات من أخطاء، وإهمالات، وروتين الطرف الآخر، وكذلك من الخيانة والضياع أو من التخلي عن مفتاح اللاسلكي. ينسحب هذا كله كخيط أحمر عبر التاريخ غير المرئي لمكاتب المعلومات السرية. والحق، فإن أعظم خيانة كمية ونوعية لأسرار الدولة وللأسرار العسكرية قد ترتكب بسبب إهمال المبرقين أو الأجهزة التي تراقبهم. ويفوق عدد هذا النوع من الخيانات كثيراً عدد الخيانات التي ترتكب بدوافع أيديولوجية، والتي لم تتم دراستها بعد أيضاً. وللإنصاف، فقد رفع الخبراء الحجاب عن نجاحات الاستطلاع البرقي الألماني، وقام ليو هيب بالبداية سنة 1954 مع «الروندشاور العلمي العسكري»، ثم تبعه الجنرال ألبرت براون، الذي كان هيب رئيس أركانه سنة 1944/ 1945، في مذكراته «جندي في سلاح المعلومات والإشارة»، الذي صدر سنة 1965، وبعد خمس سنوات تبعه كارل ألبرت مونجه، أحد القادة الستة المميزين في الاستطلاع المعلوماتي، فكتب إسهامات متنوعة حول مذكرات فيلجيبل، وقال بين أشياء أخرى: «كان الأمر شبيها بالاستطلاع البرقي عن بعد، الذي دعمه المفتش بقوة في السلم، ثم أثبت جدارته في بولونيا، وحسَّنه تحسينا متواصلا، فحقق إنجازات مميزة، خاصة في سنوات الحرب الأخيرة، عندما انتفى تقريبا الاستطلاع الجوي بسبب تفوق الطيارين المعادين، وعمل الاستطلاع بالعملاء لمصلحة العدو غالباً أكثر مما عمل لقيادته الخاصة.

تحتل الفصول المكرسة للجانب الآخر من الاستخبارات السرية أهمية خاصة بالنسبة إلى علم الشعوب، لأنها تبين نقاط ضعفها وقوتها. وعلى سبيل المثال، فإن الألمان لا يملكون نزوعا خاصا إلى العمل السري وموهبة

فيه، بعكس الروس. لكنهم قوم صلابة واجتهاد ودأب، حين يتعلق الأمر بحل مهام صعبة كفك الرموز، وهم لا يستريحون حتى ينجزوها. لذلك، تستحق إنجازاتهم أن تقارن بإنجازات علماء الآثار، الذين يتقدمون بصورة منهجية إلى طبقات الحضارات القديمة، قبل أن يركبوا صورة كاملة من اللقى الجزئية. إن الميل إلى العمل العلمي المنهجي من جهة، ونظام العمل والإبراق السائد من جهة أخرى، أفادا الاستطلاع البرقي خصوصا والاستخبارات عموما. أما المصاعب بدرجاتها المختلفة، فقد اجتذبت الطبائع القوية، مثلما يحدث عند صعود الجبال وفي الملاحة. أما العمل فقد كان عائده مجزيا، حتى إن فك رموز بعض الرسائل كان له أهمية العون الذي يمكن أن تقدمه أفواج وألوية. لذا، غدا من المحال أن تستغني عنها أي قيادة أريبة في سنوات الحرب الأخيرة، كما سنبين لاحقا.

كان قائد الحرب الأعلى الوحيد الذي رفض أن يعرف شيئاً عن معلومات المصادر الأكيدة[55]. لقد أصدر سنة 1940 حكما صحيحاً على الفرنسيين، بالاعتماد على «حدسه»، بينما بالغت أركان الجيش العامة كثيراً في قدراتهم ـ فأصر منذ تلك الواقعة على أن حدسه يصيب دوماً كبد الحقيقة، رغم أن «الأرواح الخيرة» فارقته لدى اتخاذ قرار الحرب في الشرق، ثم تتابعت الأخطاء القيادية الاستراتيجية، التي نبعت من استهانة كارثية بقوة العدو المتنامية. كان الاستطلاع البرقي يقدم دوماً مستندات جديدة موثوقة حول أوجه هذه القوة ـ ولكن من دون جدوى. ومع أنها كانت معلومات مفيدة، من غير الممكن الاستغناء عنها حتى في مستوى قيادة مجموعة جيوش، فإن هتلر وحده رفض الاكتراث بها، فأثار سلوكه امتعاض المسؤولين عن جمعها وتقويمها؟. لقد استاء ليس فقط كاناريس وأوستر، بل كذلك فيلجيبل وتيله، وغيرهما من كبار ضباط سلاح الإشارة، الذين عرفوا أن هتلر يقود الرايش إلى الكارثة، وانقلبوا بمرور الوقت من جنود موالين

إلى أعداء لرجل كان يدمر بنية أوروبا، إلى أن آمنوا في النهاية بضرورة إزاحته. بيد أنه تبين أن الرجال من أمثال بيك وشتاوفنبيرج واولبريش لم يكونوا أساتذة في التآمر، فسقطت مع فيلجيبل ومعاونيه أفضل رؤوس الإشارة ضحايا لنزعة هتلر الثأرية ـ هناك تشابه يثير القلق في التدابير الشمولية، انضم هتلر فيه إلى ستالين، على ان روسيا قامت ببداية جديدة سنة 1938، بينما كان سنة 1944 يعني نهاية ألمانيا، فقد أعدم يوم الرابع من أيلول/سبتمبر من سنة 1944 في بلوتسنزي فيلجيبل ونائبه الجنرال تيله، ورئيس أركانه العقيد هان، وانتحر بإطلاق النار على نفسه قائد مركز الاستطلاع في قيادة القوات المسلحة العامة فون دير أوستن، بعد أن استدعته الشرطة السرية إلى التحقيق.

عين العميد براون خلفاً لفيلجيبل في الوظيفة التي ربما كانت أكثر وظائف القوات المسلحة الألمانية صعوبة[1]. وكان قبل ذلك قائد فرقة المشاة 277 في الغرب، فنجا بتعيينه من الورطة التي كانت ترتسم على هذه الجبهة أيضاً. نجح براون في واحد من تدابيره الوظيفية الأولى في رفع منصب مدير الاستطلاع الاستخباري إلى رتبة لواء، واختار له العقيد بوتسل، الذي كانت تسبقه سمعته كخبير مجد وجندي يتسم سلوكه بالفروسية والإبداع. في هذه الأثناء كانت معلومات الاستخبارات المتخصصة بالعدو، المخصصة للأركان العليا، تأتي بنسبة تصل إلى 80٪ وأكثر من الاستطلاع البرقي وحده.

(1) أنظر البرت براون: جندي في سلاح الإشارة والبرق، فورتسبورج. وخاصة الفصل «رئيس استخبارات الجيش 1944 / 1945» ص 218-256.

obeikandl.com

الفصل الثاني

الاستطلاع البرقي الألماني يشارك في الاستماع

1 ـ الاستطلاع البرقي وجمع المعلومات

لا بد، بادئ ذي بدء، من ملاحظة عامة هي أن جميع الجيوش والقوات المحاربة، التي شاركت في الحرب العالمية الثانية في البحر والبر والجو، كانت تخوض أيضاً الحرب على الأثير، وحققت جميعها نجاحات وعانت إخفاقات في معاركها السرية والصامتة، وانتصرت أو تعرضت لهزائم. لقد اتخذ كل طرف تدابير تمكنه من مراقبة الاتصال البرقي لدى الجانب الآخر، والاستماع إليه وقراءة مضامينه، ومعرفة من أبرق وماذا تم إرساله، وفك رموز الكتابة السرية المستخدمة، سعى بواسطتها إلى الحصول على معلومات سريعة وأخبار موثوقة من مصدرها الأول. بالمقابل، عمل كل جانب بجميع الوسائل لحماية اتصالاته البرقية الخاصة من الاختراقات المعادية. تلك كانت حرباً صامته موضوعها كشف الأسرار وحمايتها، ميدانها الأثير. هذه الحقيقة معروفة بقسماتها الكبرى، وقديم الصمت عن نتائجها إلى اليوم، وإن بصورة جزئية، فلا يتحدث رؤساء أجهزة الاستخبارات الكبيرة في مذكراتهم عنها بغير لغة التورية والتلميح وحدها.

هذا كله له نتائج سلبية أيضاً بالنسبة إلى تقديم تاريخ الحرب. هكذا يحدث، مثلا أن الأدبيات الجدية تساوي أغلب الأحيان بين شعبة «المكافحة» في القوات المسلحة الألمانية وبين الاستخبارات الألمانية عموما. لذا، من

الضروري التذكير مرة أخرى بحقيقة أن لوائح الخدمة الألمانية السرية ميزت خلال الحرب العالمية الثانية بين وكالة أنباء العدو عموما ومكتب المراسلات السري للمكافحة. لنستشهد هنا مرة أخرى بلائحة خدمة الجيش المسماة مكتب معلومات العدو (تاريخ 1/ 3/ 1941)، وخاصة منها الفقرة 16، التي تقول: «مكتب المراسلات السرية هو في السلم أحد أهم مصادر المعلومات. ويواجه عمله في الحرب صعوبات ترجع إلى تدابير العدو في المكافحة، وسقوط العملاء، والرقابة، وإغلاق الحدود المحايدة. ومن الطبيعي أن يتراجع في بداية الحرب خاصة عدد المعلومات التي ترد عن هذا الطريق». يتحدث هذا النص عن تجارب المكافحة الألمانية، مع أن وسائل أخرى لاستطلاع العدو كانت متوفرة في بداية الحرب، كان الاستطلاع البرقي ولا زال أهمها على الإطلاق. هذا ما يجب أن يعرفه الرأي العام، كي يتخلى عن تصورات قديمة كثيرة حول أهمية الجاسوسية بالنسبة لحسم الحرب. ومن الضروري أن يعرف أخيراً أن المكافحة لم تكن تحمل، عند بداية الحرب، العبء الرئيس في جلب المعلومات السرية، بل قام الاستطلاع البرقي بذلك. لم يكن الاتحاد السوفياتي خاصة ميدانا يعج بالجواسيس، لكن الجيش الأحمر كان يستخدم اللاسلكي، ويفرط في استخدامه بطريقة غير منضبطة أحياناً، حسب الضرورات. ذلك كان كعب آخيل، الذي مكن الاستطلاع البرقي الألماني من اختراق أسراره، وإيصال آذانه إلى مقرات السوفيات الرئيسة، ومناطقهم الخلفية، وقبل كل شيء مواقع قادتهم القتالية، رغم أن وكالة أنباء العدو في الجيش كانت تستطيع أن تغرف من بحر، بعد قليل من بداية الحرب يوم 22/ 6/ 1941، بفضل اعترافات الأسرى والوثائق التي غنمتها، وكان بوسعها تكوين صورة صحيحة عن العدو، تظهر تنظيمه وقوته، وتبين نواياه المسبقة. غير أن هذه الموارد شحت أكثر فأكثر منذ سنة 1943، إلى أن نضبت بصورة تامة تقريبا، بينما

كان الاستطلاع البرقي يؤدي وظائفه، ويجلب معلومات غنية من «مصدر موثوق». فكيف تمكن من تحقيق هذا، واستطاع ملء الفراغ، الذي خلفه مكتب المراسلات السرية وراءه؟. وماذا يعني هذا الإنجاز؟. هذا ما سنحاول الإجابة عنه. ثمة أساس نفسي يستحق بالتأكيد أن نوليه اهتماماً خاصا في هذا السياق، هو الحادثة الأولى التي عاشها فيلجيبل عند بداية الحرب سنة 1914. لقد كانت نوعا من الكابوس بالنسبة إلى المفتش العام اللاحق للاستخبارات، هي أن النظام البرقي الخاص قد أخفق آنذاك، وأمد الفرنسيين بمعلومات على درجة كبيرة من الأهمية، قرأ عنها بعد الحرب في كتاب الجنرال الفرنسي مارسيل جيفيير. إلى هذا، فإن نجاحات النمسويين، التي تعرف إليها خلال خدمته في جيش ماكنزن، كانت حوافز قوية بالنسبة له، دفعته إلى العمل على محو جراح 1914. هذه المحرضات القوية نقلها فيلجيبل إلى سلاح الإشارة، فأنجبت الجذرية الألمانية وأوقات تدريب جنود جيش الرايش الطويلة كادرا متخصصا من الطراز الأول، وصار هناك عند بداية الحرب سنة 1939 متخصصون رفيعو التأهيل في اللاسلكي، وهيئة سلاح إشارة قيادية مدربة تدريبا تقنيا شاملا. أما أساس نجاحات الاستطلاع الألماني في الحرب، فيرجع بصورة خاصة إلى خدمة التنصت الممتازة للاستطلاع البرقي.

هذا لا يعني أن الأعداء لم يحققوا نجاحات بدورهم. لقد بلغوا هم أيضاً شأوا رفيعا في تقنية اللاسلكي، جعل من الإنجليز، على سبيل المثال، نموذجا يستحق التقليد، في كل ما يتعلق بنظام تشغيل اللاسلكي، مع أنهم لم يطوروا مطلقا، ولم يكونوا بحاجة إلى تطوير، نظامهم في التنصت، كي يصير سلاح المكافحة عندهم فاعلا كالاستطلاع اللاسلكي الألماني في الشرق منذ سنة 1942[56]. من الضروري التأكيد، من وجهة نظر تاريخ الحرب، على دور الاستطلاع الألماني، ووصف إنجازاته بالتفصيل، التي

كانت مؤثرة إلى درجة عوضت غالباً عن النقص في الاحتياطي البشري، وأمكن بفضل معلوماتها القضاء مراراً وتكرارا على نوايا العدو الهجومية في مهدها، وتشتيت تجمعاته.

شهدت الحرب العالمية الثانية توسعا دائما في بناء الاستطلاع اللاسلكي الألماني، وفي تحسينه. وما إن جاءت سنة 1943، حتى كانت كتائب كثيرة متخصصة في الاستطلاع بالراديو والاستطلاع القريب قيد الاستخدام، خاصة على الجبهة الشرقية، حيث تم تجميعها في شعب استطلاع قائمة بذاتها داخل الجيوش، بينما كان لدى كل مجموعة جيوش قائد استطلاع، ينسق عن كثب مع ضابط شعبة الأركان الثالثة، المكلف بتقويم أوضاع العدو. لنستمع إلى ما يقوله بهذا الصدد خبير على درجة رفيعة من التأهيل هو العقيد راندیفیج، الذي سنقتبس نصا من تقرير غير منشور له[1]: نسق ضابط شعبة الأركان الثالثة في الجيش مع ضابط الأركان العامة في شعبة القيادة، المكلف بمتابعة وضع العدو، ومع شعبة الاستطلاع العاملة في قطاع الجيش، وتم التنسيق بنجاح متزايد منذ سنة 1943، ذلك أنه كان يكلف الشعبة الأخيرة بالمهام المتعلقة بالمناطق ونقاط الثقل، المطلوب منها رصدها، وبمهام الاستطلاع، ويتلقى من كتيبة الاستطلاع القريب نتائج الرصد والتنصت التكتيكي في قطاع الجيش، وتصله من كتيبة الاستطلاع البعيد نظرة إجمالية عن المجريات العملياتية لدى العدو. بما أن الكتيبة كانت في وضع يمكنها من فك مفاتيح الشيفرات البسيطة، فإن النشرة البرقية اليومية كانت تحتوي معلومات كثيرة، يتم جمعها من رصد الاتصالات المعادية وسبرها، ومن مضمون رسائل العدو البرقية، التي أمكن قراءتها.

(1) مخطوطات كونيبرت راندیفیج: تجارب لدى رصد خدمات العدو البرقية (110 صفحات). وهو في عهدة المؤلف.

كانت المواد التي تصل إلى مجموعات الجيوش أكثر ثراء وغنى، فقد كان يضاف إليها تقويم مضمون الرسائل البرقية المعادية، التي كانت صعوبة ترميزها تتناسب وأهميتها، لكن رموزها سرعان ما كانت تفك[57]. هكذا نشأ غالباً تعاون وثيق بين قائد الاستطلاع وضباط شعبة الأركان الثالثة، ارتفع إسهامه حتى سنة 1943 إلى 75 ٪ من إجمالي المعلومات التي كان يتم الحصول عليها، وبقي على حاله إلى نحو سنة 1944، عندما جلبت وحدات الاستطلاع، بما في ذلك الاستطلاع البعيد، 95 ٪ من إجمالي المعلومات الاستخبارية، فغابت الجاسوسية التقليدية بصورة فعلية. هذا ما أدركه في مرحلة الحرب الأخيرة الجنرال المارشال الميداني كيسلرنج، قائد الجبهة الغربية الأعلى. فلا عجب أن صار من مألوف معظم الجيوش أن يقدم قادة استخباراتها ذاتهم تقارير شفهية تتضمن نتائج الاستطلاع البرقي لـ«الوضع»، كما يخبرنا راندیفیج.

سمح جمع المعلومات من الأثير بتكوين نظرة دائمة عن النوايا المعادية. لذلك يمكن أن يوافق المرء على الحكم الإجمالي والخبير للكابتن خارج الخدمة هاينس بوناتس، الذي يقول[1]: «ليس بالإمكان التفكير بوسيلة استطلاع أسرع وأوثق وأرخص من استطلاع لاسلكي ناجح»، حيث يجب التمييز، من حيث المبدأ، بين التنصت، وفك رموز النصوص المشفرة، وأخيراً التقويم.

أخيرا، كانت المعلومات السرية تصل جميعها إلى مقر القيادة في القيادة العليا للقوات المسلحة، حيث كانت أصعب الرسائل المشفرة تقرأ من قبل المختصين، وكان مضمونها ينقل بصورة فورية إلى شعب «الجيوش الأجنبية». أما التعاون بين الشعب والقيادة فكان يضمنه ضباط ارتباط تابعون

(1) هاينس بوناتس: استطلاع البحرية الألمانية البرقي 1914–1945. دارمشتات 1970، ص 31.

لها. كما كانت المعلومات الأكثر أهمية، الآتية من «مصدر موثوق»، تقدم بصورة دائمة إلى رئيس أركان قيادة القوات المسلحة، أو تقرأ عليه. وقد انفرد هتلر، القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية، وقائد الجيش الأعلى منذ عيد الميلاد سنة 1941، برفض تلقي هذه المعلومات[58]. ولم تغير موقفه الهزيمة أمام موسكو، وكارثة ستالينجراد وأفريقيا، وضربات «القلعة» المعاكسة الشديدة في صيف سنة 1943. لقد كان على القيادة الأعلى أن تتخذ من بلاغات «الجيوش الأجنبية شرق» أساسا لقراراتها، خاصة وأن هذه أخبرتها في وقت مناسب بجميع تحركات ونوايا العدو المسبقة، استنادا إلى معلومات استقتها من الاستطلاع البرقي[59].

من الضروري الإشارة في هذا السياق إلى مصدر سري آخر للمعلومات، أكملت معلوماته في مجريات الحرب معارف الاستطلاع البرقي وعمقتها، مع أن تأريخ الحرب لم يعره أي اهتمام على وجه التقريب. إنها المواقع الخارجية لقيادة القوات المسلحة العليا، وخاصة منها شعبة «الاقتصاد والتسليح»: التي عملت بخبرات رفيعة ذات تأهيل تقني خاص، كانت مهمتها قبل كل شيء فحص الأسلحة التي يتم غنمها، والتحقيق مع فنيي العدو ومهندسي وحداته الذين يقعون في الأسر. عندما كان التحقيق يجري كمحادثة تلقائية بين خبيرين، ويدور في إطار إنساني تواصلي، فإنها غالباً ما كانت تأتي بمعارف مفاجئة.

كان الموقع الخارجي للقيادة العليا للقوات المسلحة في مجموعة جيش الجنوب على الجبهة الشرقية تحت قيادة العميد الأمير رويس البارعة والناجحة، الذي حظيت كفاءته الخاصة باعتراف عام، وإن كانت إنجازاته قد نالت تثمين شعبة قيادة مجموعة الجيش أكثر مما لقيت القبول لدى قيادة القوات المسلحة العليا، حيث حال الروتين دون ملاحظتها. بالمقابل، كانت الجيوش الأجنبية شرق تشعر بالعرفان للأمير، بسبب المعلومات التي يحصل

عليها خلال التحقيقات، وتصلها بصورة فورية، فتكمل وتوسع وتعمق الصورة الإجمالية عن القدرة التسليحية السوفياتية[1].

2 ـ نتائج عملية

على عكس القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية، استخلص قادة مجموعات الجيوش والجيوش فوائد عملية كثيرة من وكالة أنباء العدو، بعد أن أثبتت نتائج الاستطلاع اللاسلكي العملياتية والتكتيكية قدرتها على إمدادهم بعون هائل، من الضروري إسناد قراراتهم وأوامرهم القيادية إليها. أصغى المارشال فون رونشتيدت، قائد أعلى مجموعة جيش الجنوب منذ سنة 1941، إلى قائد الاستطلاع التابع له العقيد كونيبرت رانيدفيج، لمعرفته بالقيمة الرفيعة للمعلومات، التي كان يقدمها إليه بصورة مستمرة[2]. والحق، أنه أمكن خلال التقدم الألماني في أوكرانيا الشرقية قراءة كل رسالة برقية للعدو على وجه التقريب، بما أن مستوى تأهيل جنود اللاسلكي الروس لم يكن يتيح لهم استخدام شيفرة صعبة آنذاك، ولأنهم انتقلوا في حمأة الاشتباك إلى الكلام الصريح، طلبا للراحة أو بسبب ضغط المعركة. عند الاستيلاء على كييف، وجد الألمان مفاجأة شريرة بانتظارهم، هي انفجارات شديدة دوت في المدينة وكبدتهم خسائر جسيمة. كيف حدثت هذه الانفجارات؟. واجه الألمان أحجية صعبة، قبل أن يكشف خبير استطلاع برقي من سلاح الإشارة أنها تفجيرات لاسلكية عن بعد تعمل بالموجات الصوتية. لقد فات وحدات التنصت الألمانية ملاحظة النبضات الخطيرة، بسبب انهماكها التام في الاستطلاع العملياتي. لذلك تقرر تخصيص سرية خاصة لها، ترصدها

(1) معلومة شخصية عرفها المؤلف من العميد هانس ـ آدولف بلمرودر، ضابط الأركان الثالث السابق في مجموعة جيش الجنوب[60].

(2) مخطوط راندیفیج: الاستطلاع البرقي الألماني ضد روسيا، الذي قامت به مجموعة جيش الجنوب. غير منشور، ص 14.

وتشوش على ترددها. بعد محاولات أولية فاشلة، استهدفت شل النبضات المفجرة للصاعق والحيلولة دون اشتغال غيرها، تحقق النجاح المطلوب. صحيح أن وسطي تدريب كتلة الجنود الروس كان لا يزال أدنى من مستوى تدريب جنود اللاسلكي الألمان، لكن الجيش الأحمر كان يمتلك أيضاً خبرات فائقة وتقنية لاسلكي متطورة، تماثل ما لدى أي واحدة من الأمم الصناعية القديمة.

حدث، في نهاية سنة 1941، أول تباين في تقويم الوضع بين قيادة القوات المسلحة وبين مجموعة جيش الجنوب، عندما ظهرت من جديد في الرسائل البرقية التي تم فك رموزها أرقام الفرق، التي كان يعتقد أنه تم تدميرها. في الوقت ذاته تقريبا، تم التقاط شبكة لاسلكي قصيرة الموجة في العمق الروسي، كان من الواضح أنها تستخدم في الاتصالات بين مرافق التسليح. اعتبرت أركان قيادة القوات المسلحة هذا النبأ مناورة تضليلية روسية، بيد أن الاتصال البرقي كان يشير في الحقيقية إلى انبعاث الجيش الأحمر، بعد هزائم أشهر الحرب الأولى الشديدة. إلى أي حد وصل هذا الانبعاث؟. هذا ما ظهر قرب نهاية السنة، وكان مفاجأة للقيادة الألمانية، التي أجبرتها قوة الهجمات السوفياتية على إخلاء روستوف في جنوب الجبهة الشرقية، بينما اكتشف الاستطلاع البرقي الألماني في تشرين أول/أكتوبر عشر وحدات كبيرة وهي تحتشد في مناطق البلاد الخلفية. لم يول «فوق» أي أهمية لهذا النبأ، جريا على عادته في الحالات الأخرى أيضاً. لذا، كتب العماد هالدر حول محاضرة الفوهرر يوم 6 كانون الأول/ديسمبر سنة 1941: «إنه ـ هتلر ـ لا يقبل الحديث عن النظرة التي تهتم بالجانب العددي من علاقات القوى»[1].

(1) نقلا عن فارليمونت، ص 256: «اعتقد عن العدو ما أعجبه الاعتقاد به، ورفض غالبا مجرد الاستماع إلى ما لم يعجبه».

بالمقابل، تعلم الجيش الأحمر من الأخطاء التي ارتكبت سنة 1941 في مجال الاتصالات اللاسلكية. اتضح هذا صيف سنة 1942: خلال الهجوم الألماني في تموز، الذي انقض على الدونيتز بأسره، ووصل إلى الدون بين روستوف وفورونيش، بينما بقي الاستطلاع الألماني غير مجد: «لقد بدا وكأن الفرق الروسية تتفادى المعركة بالإحجام عن استخدام اللاسلكي، فلم تعد ممكنة ملاحقة اتصالات القيادة العليا البرقية، التي كانت خاضعة للرقابة الدائمة إلى الآن. أما في جبهة الدون الشمالية، فبدا وكأن شخصية خارقة تشرف على قيادة الاتصالات البرقية الروسية هناك»[1].

هذه الصورة تغيرت في آب/أغسطس من سنة 1942، حين: «أفلح الألمان في كشف رموز قسم كبير من الرسائل البرقية السرية، التي تم كشف مضمون أكثرها من جديد. يفسر ذلك توزع القوى على جبهة ستالينغراد الجديدة التشكيل على جسر الدون ـ الفولغا الأرضي. لم يتوقع الألمان الحصول على نتائج شاملة عبر نجاحاتهم هذه، في أعقاب تجارب مطلع الصيف. أما تفسير موقفهم هذا، فنجده في رسالة برقية روسية تقول إن العدو لم يستطع الالتزام بالتقييد المطلوب لاتصالاته اللاسلكية، بسبب النقص في اتصالاته السلكية. لقد كان الاستطلاع الألماني مجبرا على استخدام اللاسلكي من أجل إيصال تقويمه لوضع العدو، الذي يبدو أنه كان يعرف بدقة ضعف الجيشين الروماني والإيطالي، وبالثغرة الحساسة بينهما»[2].

هكذا جرت حرب الأثير سنة 1941/ 1942 لدى مجموعة جيش الجنوب التابعة للمارشال روندشتيدت.

(1) مخطوط راندیفیج، ص 10وما يليها.

(2) راندیفیج، ص 11.

جلبت سنوات الحرب التالية نقاط ثقل أخرى معها، فقد حصل تطور مأسوي في حملة أفريقيا خاصة، التي قادها المارشال اللاحق رومل، حيث أثبت الاستطلاع اللاسلكي أنه أسرع وأفضل طريقة للحصول على المعلومات عن العدو. وحدث شيء مماثل كذلك، عندما شن الجيش المدرع الأول هجوما في آذار/ مارس 1944 كسر به طوق كامنس بودولسك، بفضل المساعدة التي قدمها له الاستطلاع البرقي. والحق، إنه كان يمكن تحقيق إنجازات أكبر، لو أن القائد الأعلى، هتلر، كان يقبل الإصغاء إلى معلومات الاستخبارات السرية.

3 ـ رومل والاستطلاع الاستخباري في أفريقيا

كانت الحملة الألمانية في أفريقيا تضم عند انطلاقها من ليبيا في شباط/ فبراير سنة 1941 سرية تنصت واحدة، تم بطلب من رومل توسيعها إلى كتيبة، في سياق حرب الحركة الناجحة، التي بدأت فيما بعد. وقد ألحق بهذه الكتيبة خبراء في فك الشيفرة، جمعوا خبرتهم من التعامل مع الاتصالات اللاسلكية البريطانية. منذ تلك اللحظة تلازم اللاسلكي و«ثعلب الصحراء»، الذي عرف كيف يستخدمه كأداة قيادة واستطلاع، وهو الذي كان يفضل القيادة من موقع أمامي يضع العدو تحت عينيه مباشرة، ويمتلك استعدادا دائما لاستغلال أي بارقة نجاح تلوح له، ولتكوين نقاط ثقل مفاجئة. إنه لم يكن، ببساطة، مغامرا، بل كان سريع البديهة بمعنى الكلمة الحرفي، يعتمد، بعد تجاربه في حملة الغرب، على سرعة إدراكه الخاطفة للوضع، مع أنه لم يكن يأخذ قراراته من دون العودة إلى مستندات أكيدة، كان يتلقاها من استطلاعه البرقي، الذي تحسن وازداد أهمية من شهر لآخر، خاصة وأن تفوق سلاح الجو البريطاني كان يتعاظم من دون توقف، إلى أن بلغ سنة 1942 حدا من القوة مكنه من الحيلولة بين سلاح الجو الألماني وبين

إلقاء نظرة على ما كان يجري وراء خطوط القتال. في هذا الظرف، عمل الاستطلاع البرقي على سد هذه الثغرة، وكسب ـ أول الأمر ـ حرب الأثير.

يجب أن يسجل جزء كبير من نجاح رومل عند بداية الحرب في أفريقيا على رصيد سلاح الاستطلاع السري هذا: إنه نتيجة الاستطلاع الذي قامت به كتيبة التنصت، التابعة لجيش أفريقيا الألماني، التي كانت مؤهلة من الناحية التقنية لتلبية متطلبات حرب الصحراء الخاصة، ومستعدة من الناحية التكتيكية لتحقيق مطالب رومل. كان نظام اللاسلكي التابع للجيش الثامن البريطاني يعاني آنذاك نقاط ضعف كبيرة، زاد منها أن استخفاف العاملين عليه بالاستطلاع البرقي الألماني، الذي أفاد من افتقار الوحدات، التي جاءت من مناطق الحماية ومستعمرات التاج البريطانيين، إلى انضباط لاسلكي.

من الطبيعي أنه كان هناك ثغرات في معلومات الألمان. لكن «ثعلب الصحراء» كان يعرف دائما قسمات وضع العدو العامة، وأحياناً تفاصيلها، ويعرف كذلك نواياه وتحركاته. كما أن بعض ضربات الحظ عملت لمصلحته[61]، منها مثلا شخص اسمه «جرينهورن»، وهو ضابط ارتباط أميركي مع الجيش البريطاني الثامن، استخدم الراديو الخاص به بكثافة شديدة وبث بحماسة نوايا حليفه البريطاني في الأثير، فشارك رومل في قراءتها عبر كتيبة التنصت التابعة له[62]، واستطاع اتخاذ تدابيره المضادة، والاحتفاظ بالمبادرة.

لم يصل أي شيء عن إنجازات كتيبة التنصت إلى الأعلى، لأن رومل كان يعرف ازدراء هتلر للاستطلاع البرقي. ذلك كان سببا إضافيا لبقاء إنجازاته في الظل، ولإحجام تاريخ الحرب عن ذكرها. حسب شاهد ثقة[1]، لم تعرف الحرب العالمية الثانية كتيبة تنصت أخرى على الجانب الألماني،

(1) معلومة شخصية أدلى بها الجنرال براون إلى المؤلف.

تعاونت بهذا القدر من القرب والنجاح مع قائدها الأعلى، مثلما لم يعرف موقع آخر ترجمت فيه المعلومات الاستخبارية إلى قرارات بالسرعة التي شهدتها حملة أفريقيا.

ثمة ضربة حظ أخرى دعمت هذا التعاون الوثيق: فقد أسرت غواصة ألمانية صيف سنة 1942 سفينة تجارية معادية في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. عند تفتيش الغنيمة العائمة، عثر الألمان على المفتاح البرقي الخاص بتموين أقسام القوات المسلحة البريطانية جميعها: من جبل طارق إلى مصر. لحماية المستندات القيمة وتقويمها، تلقت الغواصة الأمر بالعودة إلى مرفئها اليوناني الأصلي، فأمكن طوال أربعة عشر يوما قراءة جميع الرسائل البرقية الخاصة بشبكة التموين، واتخاذ تدابير مضادة في البحر والجو. ذلك أفاد قبل كل شيء الإمداد الألماني نحو شمال أفريقيا، علما بأن الجانب الآخر لم يعلم ما كان يجري، ولم يقطع اتصالاته البرقية طوال الأسابيع الستة، التي تطلبها وضع مفتاح جديد، وتزويد المعنيين جميعهم به بواسطة سعاة البريد.

كسب رومل، صيف سنة 1942، جولتي حرب الأثير الأوليين. لكنه لم يتبجح أو يتباهى بذلك، بل اكتفى بأن تكون في حوزته مستندات أكيدة يرسم بمعونتها تكتيكه الغني بالخيال والذكي وعملياته الشديدة المكر؛ مستندات لطالما أكملها هو نفسه بالاستطلاع البصري. عندما كان يجتاز المسافات في عربة القيادة، كان يأمر بإيصال ما يتوفر من معلومات عن العدو إليه دون إبطاء. ولأن هذا كان أمرا بديهيا في نظره، فإنه لم يؤكد عليه في مذكراته الموسومة «حرب دون حقد».

بالمناسبة، تأكد الاستطلاع البرقي ذات مرة من واقعة غريبة، هي وجود فوج ألماني يرابط في الموقع الصحراوي بير حكيم، إلى الجنوب الغربي من

طبرق، يضم شيوعيين ألمانا ويقوده لودفيج رين، الذي كتب تقريراً أثار اهتماماً واسعا تحت عنوان الحرب، وكان اسمه الحقيقي هو ارنولد فيث من مدينة جلوسناو. هذا الفوج الشيوعي بعث نداءات مساعدة ملحة عبر الأثير، إلى أن انهار مع الاحتلال الفرنسي بقيادة الجنرال كونيج.

تزايدت أهمية الاستطلاع البرقي في أفريقيا مع تزايد فشل سلاح الجو الألماني، وتعزز قوة الجيش الثامن البريطاني. كان التفوق الجوي البريطاني يأخذ أشكالا مقلقة أكثر فأكثر، هددت قنابلها القوات والأركان العليا، وقبل هذا وذاك الإمداد من البر والبحر. غير أن هتلر رفض تصديق هذه المعلومات، وأصر على شن هجوم أخير في العلمين باتجاه القاهرة، بنتيجته السلبية المعروفة: رغم أن المفتش العام لسلاح الجو الجنرال ميلش كان قد اعترف أمام مساعديه بـ«أن الحرب يمكن كسبها بسلاح الجو وحده، وأن أي حرب يجب أن تعتبر في حكم الخاسرة، إذا لم يكن التفوق الجوي نقطة الثقل والارتكاز، في المواقع التي تمس الحاجة فيها إليه ـ ليس في المجال الجوي بأسره، بل في المواقع الأكثر أهمية –، وأنه ليس بمستطاع القوات البرية إحراز النصر من دون تفوق جوي، أو سيطرة جوية»[1].

هذا ما خبره رومل بدوره في المرحلة الثالثة من حملة أفريقيا، حيث اكتملت هزيمة العلمين بكارثة إضافية هي فقدان كتيبة التنصت، مع جميع النتائج المترتبة عليه. هكذا، لم يخسر رومل المعركة على الأرض فقط، بل خسر معركة الأثير أيضاً، إذ جعل التفوق الجوي البريطاني قيادته عمياء، وكان ضياع الكتيبة قد جعلها صماء. من الآن فصاعدا، لن تكون أذن رومل في مراكز قيادة العدو، فحدث الإنزال الأميركي والبريطاني في تشرين الثاني/

(1) إيرفينج: مأساة سلاح الجو الألماني، ص 251.

نوفمبر سنة 1943 على أراضي المغرب والجزائر بطريقة فاجأتة[1]. في ظروف كهذه، كان من شأن استراتيجي حقيقي أن يأمر بالتراجع، لإعداد أوروبا نفسها للدفاع، لكن استراتيجية استباقية وبعيدة النظر كهذه لم تكن جزءاً من رؤية القائد الأعلى لقوات ألمانيا المسلحة.

4 ـ الكتيبة الضائعة[2]

ارتكب رومل بدوره خطا مصيريا، حين استخدم كتيبة التنصت كوحدة مقاتلة في موقعة العلمين، عندما وضعه نقص المشاة لديه في وضع عصيب. عوض أن تبقى قرب أركان القيادة، أمرت الكتيبة بالانتشار مباشرة وراء قطاع يدافع عنه الإيطاليون. هذا القرار كان خاطئا، بما أن الكتيبة كانت أضعف بكثير من أن تستطيع تحقيق المهمة التي أسندت إليها. في نهاية تشرين الأول/أكتوبر سنة 1942، تم اختراق الجبهة عند هذا الموقع، ودحرت الكتيبة، بعد أن أبدت مقاومة يائسة خسرت خلالها مئة رجل، وأسر قائدها المقدم سيبورن، الذي أصيب بجروح خطيرة ومات بعد قليل في مشفى بالقاهرة. كما كان الاختراق مفاجئا إلى درجة أن الكتيبة لم تتمكن من تدمير أجهزة التنصت، فغنم المهاجمون ليس فقط تقويم الألمان لتطورات الفترة الأخيرة، بل كذلك مستندات اللاسلكي الألمانية والإيطالية ومفاتيحها، التي مكنتهم من معرفة أخطاء وإهمالات مبرقيهم وقادتهم. وقد عبروا عن سعادتهم بنجاحهم في البرامج التي بثتها إذاعة القاهرة باللغة الألمانية: «لقد وقع المقدم العظيم سيبورن في الأسر وقد أصيب بجروح شديدة. ونحن نشكركم على المواد الممتازة والواسعة، التي وقعت في يدنا»[63].

---

(1) حسب معطيات أست هامبورغ كان هناك معلومات حول الإنزال، لكن قيادة القوات المسلحة العليا لم توزعها.

(2) نتابع هنا إلى جانب المعلومات الشخصية التي أبلغني إياها جنرال براون مخطوط راندیفیج، قسم «أفريقيا ـ الشرق الأدنى».

بخسارة معركة الأثير في أفريقيا، زادت كثيراً صعوبات الانسحاب الألماني، الذي كان سينفذ بسهولة أكبر وستكون آثاره السلبية أقل، لو بقيت كتيبة تنصت حملة أفريقيا قائمة، ولم تقع مستندات مفاتيحها في يد الجيش الثامن البريطاني. من تلك اللحظة فصاعدا، لم يكن باستطاعة رومل التفكير بقيادة مرنة وشن ضربات معاكسة خاطفة، مثلما حدث في المراحل الأولى من حملة أفريقيا. ولا شك في أن الإحباط الناجم عن الوضع الجديد لعب دوره في مرضه.

عندما ألحق مؤلف هذا الكتاب في حزيران/يونيو من سنة 1943 بالمارشال، عقب خسارة أفريقيا، كي يدون المعطيات التي سيتضمنها تقرير ختامي موجه إلى الرأي العام، ألمح رومل إلى دور الهزيمة في مرضه. أما التقرير، فهو لم ينشر أبدا، لأنه اختفى في أدراج مكاتب هتلر.

كانت إبادة كتيبة التنصت الأفريقية ضربة شديدة بالنسبة لمجمل الاستطلاع اللاسلكي الألماني، الذي لم يفقد فقط كتب شيفرات سرية وتجهيزات قيمة مقاومة للحرارة، بل خسر قبل هذا وذاك خبراء راديو لا يمكن تعويضهم. صحيح أنه كان لا يزال هناك كتيبة تنصت في أثينا، واصلت رصد الوضع العام في مصر والشرق الأدنى، لكن الرصد التكتيكي في شمال أفريقيا، وخاصة ذاك الذي مورس على الشاطئ الشمالي الغربي، زال لحظة غدت الحاجة فيها إليه شديدة، فلا عجب أن حدثت مطلع تشرين أول/أكتوبر مفاجئة أخرى في هذه المنطقة، عندما نزل الحلفاء الغربيون بقوى كبيرة بين الدار البيضاء ووهران. صحيح أن الألمان عرفوا عبر استطلاعهم اللاسلكي أن الأميركيين أرسلوا قوات كبيرة إلى إنجلترا، لكنهم لم يعرفوا هدفهم من ذلك، الذي بقي غامضا بالنسبة لهم، خاصة وأن شائعات منهجية وخدع برقية هادفة كانت تحجبه عنه.

من جانبها، خدعت لجنة الهدنة الألمانية في الدار البيضاء، على الرغم من ضباط شعبة المكافحة الذين كانوا قد ألحقوا بها. يقول الجنرال فارليمونت، نائب رئيس أركان قيادة القوات المسلحة الألمانية في تقريره الموسوم في المقر الرئيس للقوات المسلحة الألمانية[1]: «وكان هناك نقص في المستندات المقدمة من الاستخبارات الألمانية، وفي مستندات القيادة الإيطالية العليا، التي لم نعرف آراءها المنسجمة والمعللة إلا في وقت لاحق. وللعلم، فإن وقت الإنزال الوشيك لم يقدر بصورة صحيحة في الحالتين ـ مع أن أسطول الإنزال كان يتجه نحو الشواطئ الأفريقية ـ».

وصل أيزنهاور، حسب تاريخ الحرب العالمية الثانية، الذي وضعه تبلسكيرش، يوم 5 تشرين أول/أكتوبر إلى مقر قيادته المؤقت في جبل طارق. وكان مطار القلعة الصخرية قد امتلأ حتى التخمة بأسراب المقاتلات والقاذفات. لكن شعبة المكافحة الألمانية لم تلاحظ هذه الدلالة الأكيدة على قرب تنفيذ عملية الإنزال الكبرى، رغم العلاقات الجيدة، التي كانت تربط الأميرال كاناريس والإسبانيين. أم تراه كان هناك من خشي أن يناقض رأي القائد الأعلى المسبق، الذي اعتقد أن الإنزال في شمال أفريقيا ضرب من الاستحالة بسبب الغواصات الألمانية[64]؟

5 ـ الاستطلاع يساعد على إنقاذ جيش

تكوَّن آنذاك وضع فريد من نوعه بوجه عام، فالقائد الأعلى أراد ببساطة عمل كل شيء بطريقة مغايرة للطريقة التي كانت متبعة، بواسطة «قيادة للحرب ذات قطبيبة مضادة»، على حد تعبير اللواء شيرف مكلف الفوهرر بكتابة تاريخ الحرب. هذا ما قاله شيرف للمؤلف عندما قدم نفسه في مقر

(1) مرجع سابق، ص 279.

الفوهرر الرئيس في آذار/مارس من سنة 1943. كان هتلر يعتقد أن هذا نمط قيادة الحرب الجديد سيمكنه من استكشاف طرق جديدة للنجاح، تتيح له انتهاك المعاهدات الدولية، وتقوم على عدم التخلي عن موطئ قدم واحد من الأرض. إن الدفاع المستميت عن موضوعات ما، الذي أثبت جدواه إبان الحرب العالمية الأولى، في ظروف مختلفة تماماً عن ظروف الحرب العالمية الثانية، غدا منذ ذلك الوقت فصاعدا «بقرة هتلر المقدسة»، التي لم يسمح بأي نقاش حولها. بذلك نشأ في الأشهر الأولى من سنة 1944 وضع غريب جنوب الجبهة الشرقية، فبينما كان الجناح الأيمن صامدا في حوض الدنيبر الأدنى، كان الجناح الأيسر معلقا في الهواء جنوب مستنقعات بريبييت، فامتد قوس الجبهة الواسع، الذي اخترق أوكرانيا في اتجاه غربي شمال / غربي، بطريقة خطيرة، دفعت الجيش الأحمر إلى القيام بعملية تطويق جديدة. قبل حدوث الأزمة، تنبأت «الجيوش الأجنبية شرق» بقيادة الجنرال جيهلن بتوقيت الهجوم السوفياتي، الذي أمر قائد الجبهة الأوكرانية الأولى المارشال جوكوف بحشد القوات الضرورية له[65]. لقد كان واضحا من صورة العدو، التي قدمها الاستطلاع اللاسلكي الألماني، أن هناك قوات روسية قوية وجيوشاً مدرعة تتجمع للقيام باختراق في جنوب الجبهة الشرقية، وأن الجبهة الألمانية، التي غدت قليلة القوات، تفتقر إلى الاحتياطي العملياتي اللازم لصدها.

وبالفعل، اخترق جيش الحرس المدرع الثالث السوفياتي يوم 15 آذار/مارس 1944 الجيش المدرع الألماني الرابع غرب شيبتوفكا، نقطة تقاطع السكك الحديد المهمة، وتقدم جنوبا، ثم قطعت الطرق الخلفية للجيش المدرع الألماني الأول ـ آمره الجنرال هوبه ـ، وطوقت خمساً من وحداته من ثلاث جهات. ونجح جيشان مدرعان سوفياتيان آخران هما الرابع والأول حتى الخامس والعشرين من آذار/مارس في تحقيق تقدم عميق إلى الغرب

من كامنيز بودولسك بين نهري زبروتش وسيريث، وإلى الجنوب الغربي أيضاً وتوغلا إلى الجنوب، واجتاز الجيش المدرع السوفياتي الاول نهر الدنيبر وواصل تقدمه في اتجاه تشيرنوفيتز، بينما استدار الجيش الرابع شمال الدنيبر في اتجاه الجنوب. وكان مقدرا للطوق أن يضيق أكثر على الألمان، بفضل الهجمات اللاحقة لجيشي حرس سوفياتيين في الشمال، لكنه تم سحقهما. هكذا غدا وضع المدافعين الألمان في منطقة كامنيز بودولسك الكبيرة مهددا، وبدا أنه يصير ميؤوسا منه بمرور كل يوم.

لإبقاء جميع حالات الانسحاب نحو الجنوب ممكنة، شكل الجنرال هوبه مجموعة قتالية احتلت رأس جسر على ضفتي الدنيبر قرب هوتين. لكنه أولى اهتماماً خاصا قبل كل شيء لعدم بقاء جيشه ساكنا، لاعتقاده أن الحركة وحدها تتيح له اختراق الطوق.

سيتدخل المؤلف هنا ليروي مشاهداته. فقد ألحق بين آذار/ مارس 1943 وبداية آذار/ مارس 1944 بشعبة قيادة مجموعة جيش الجنوب ـ بقيادة المارشال الميداني فون مانشتاين ـ. ثم أرسل موقتا إلى الغرب، ثم ما لبث أن أمر بالعودة إلى الشرق، حيث عايش الخروج الناجح للجيش المدرع الأول من طوق كامنيز بودولسك، وكان أول الأمر في مقر مجموعة الجيش الرئيس قرب لامبرغ، ثم مع الجيش المدرع الأول. وكتب تقريراً رسميا عن كسر الطوق وزع على أعلى أركان مجموعة الجيش.

تعرف المؤلف آنذاك إلى أهمية الاستطلاع اللاسلكي الكبيرة بالنسبة إلى القرارات العملياتية، وتعلم تقديرها، وتحدث عنها في أحيان كثيرة مع ضابط شعبة الأركان الثالثة في مجموعة الجيش، العقيد بلومرودر، الذي كان مكلفا بمعالجة وضع العدو.

منذ فقدان المبادرة الألمانية، الذي أعقب لبعض الوقت فشل عملية «القلعة» في صيف سنة 1943، تحول الاستطلاع اللاسلكي إلى شيء يستحيل

الاستغناء عنه، لأنه لم يعد هناك منذ ذلك الوقت أسرى أو وثائق مستولى عليها، وقبل كل شيء عدد كبير من الفارين الراغبين في الكلام. وقد فكر المختصون الخبراء في الاستطلاع اللاسلكي ببديل، وكان قد سهل عملهم استرخاء المبرقين السوفيات وما نجم عن ذلك من أخطاء، تعاظمت مع نجاحات الجيش الأحمر الميدانية.

هكذا كان لمجموعة جيش مانشتاين في منعطف سنة 1943/ 1944 «جواسيس أفذاذ» في المقر الرئيس للجبهة الأوكرانية الثانية وكذلك في معظم المواقع القتالية لقادة الجيش الأحمر. لقد كانوا يعرفون عمليا كل شيء يجري هناك ويوصلونه دون إبطاء إلى وجهته. وقد أعلم مانشتاين، مثلما أعلم رومل في حينه، بطريقة سريعة وأكيدة بكثير من أوامر الطرف المعادي ونواياه. ولاحقت شعبة قيادة مجموعة جيش الجنوب تفاصيل تقدم الجيشين المدرعين غرب طوق كامنيز بودولسك، وأخبرت مانشتاين بمجرياته أولا بأول. كان التعاون في شعبة القيادة وثيقا، وتم التنصت بصورة متواصلة على راديو المقر الرئيس للجيشين السوفياتيين في الغرب، وفكت شيفراته، فعرف الألمان بدقة وضع الخدمات في المناطق السوفياتية الخلفية، بل إن ضابط شعبة الأركان الثالثة كان في وضع مكنه من تحديد عدد الدبابات الجاهزة للاستعمال في كل كتيبة سوفياتية مدرعة، ومسار الهجمات السوفياتية وأهدافها، عندما كان يقدم تقريره عن حال العدو ظهر كل يوم ومساءه.

لهذه الأسباب، يخلص باول كاريل في تقريره «أرض محروقة»، الذي يدور حول موضوعنا، إلى الاستخلاص الآتي: «يتأكد هنا مرة أخرى أين توجد في الحرب منابع المعلومات المهمة والموثوقة، ويتأكد أنها تبز في نوعها وكمها معلومات أي مستطلع أو جاسوس، هذا إذا نحن تجاهلنا

المباشرة والسرعة، اللتين تجتاز المعلومات بهما الجبهات. إن أي جاسوس لا يستطيع المنافسة هنا، مهما كان فذا»[1].

في آذار/ مارس سنة 1944، أثبت السلاح الصامت لاستطلاع اللاسلكي في الشرق أنه أداة مساعدة لا مثيل لها، حين أشار إلى الطرق الصحيحة لكسر الطوق المضروب حول الجيش المدرع الأول، وقدم عوناً حاسماً في إنقاذ ربع مليون جندي من الهلاك. بفضل فن القيادة الذي أبداه المارشال فون مانشتاين خارج الطوق، وتصميم الجنرال ذي اليد الواحدة هوبه داخله، أمكن تفادي ستالينغراد ثانية، واستقرت الجبهة الشرقية من جديد في إطار ما هو ممكن، وتحولت مرة أخرى كارثة مهددة إلى نجاح دفاعي، رغم الخسائر الرهيبة في الدبابات والمدافع والسيارات.

شهد المؤلف هذه الأحداث، بعد أن عاد أواسط آذار/ مارس مرة أخرى من فرنسا وانضم مجددا إلى شعبة قيادة مجموعة الجيش، التي كانت آنذاك في مدرسة زراعية قرب لامبرغ. وكان يرى، في شعبة الاستخبارات التي عمل فيها دوما، خريطة تبين حال العدو يوما بيوم، ويقرأ تقارير آتية «من مصدر وثيق». وغدا شاهدا على الصراع من أجل تقرير مكان الاختراق. فقد أراد الجنرال هوبه ورئيس أركانه القيام أول الأمر بمحاولة لفك الطوق في الجنوب، باتجاه رومانيا، لأن الطوق حول الجيش لم يكن قد أغلق بعد تماماً هناك. لكن مانشتاين رأى مساوئ هذا الخيار ومخاطره بمنظار مزدوج: فقد كانت هناك طلائع دبابات روسية تقوم بإحكام الطوق الحديدي في الجنوب، لتصل من هناك إلى معبر الدنيبر. وكان سينشأ ثقب هائل في الجبهة الشرقية الألمانية، في حال نجح الاختراق، سيفتح طريق السوفيات نحو غاليسيا في اتجاه الغرب. وهذا ما كان يجب الحيلولة دونه

(1) باول كاريل: أرض محروقة، ص 396.

بأي ثمن. لذا، رغبت قيادة الجيش العليا أن يتم الخرق في اتجاه الشمال الغربي للانضمام إلى الجناح الأيمن للجيش المدرع الرابع، الذي كان مستعدا للقيام بهجوم معاكس في منطقة تقع جنوب غرب تارنوبول. بما أنه كانت ستنشأ في هذه الحالة فجوة كبيرة مع مجموعة الجيش (أ) (جنوب أوكرانيا)، توصلت قيادة مجموعة الجيش إلى قرار منطقي هو إصدار الأمر بالاختراق في اتجاه الغرب. صحيح أنه كانت هناك تحفظات ضد هذا القرار، بينها إشارة هوبه إلى وجود أنهار كثيرة تجري نحو الجنوب، سيكون من المحتم عبورها، إلا أن هذه العقبات اعتبرت في النهاية أهون الشرور، التي يجب مواجهتها، خاصة وأن الاستطلاع اللاسلكي أكد وجود «مواضع رخوة» في هذه المناطق من الطوق السوفياتي، حيث إن كتلة المشاة الروس الكبيرة، التي كانت تتبع الوحدات المدرعة القوية نحو الجنوب، كانت لا تزال في المؤخرة، ولم يكن بوسعها بعد فتح الجبهة. إلى هذا، اذاع الألمان رسالة برقية أرادوا بها إقناع المارشال جوكوف أنهم سيقومون بالاختراق في اتجاه الجنوب، وأعطوا عمليتهم هذه اسما سرياً هو «ليتزمان»، فاعتقد جوكوف أن الاختراق الألماني لن يتم في اتجاه الغرب.

في نهاية شهر آذار/ مارس، كان الطوق قد أغلق حول الجيش المدرع الأول الألماني. وفي الثاني من نيسان/ أبريل وصلت رسالة برقية إلى أركانه العليا تطالبها بإلقاء السلاح، ختمت بالجملة الآتية: إن سائر الضباط، الذين يقلعون طوعا عن المقاومة، سيوهبون بنادق قديمة وأوسمة ووسائط نقل!»، ثم جاء تصحيح يقول: «في الحادية عشرة وصلتكم برقية شوهت معنى اقتراح قائد الجبهة، مارشال الاتحاد السوفياتي جوكوف، وهو أن الجنود الألمان، الذين يلقون أسلحتهم طوعا، سيحظون بمعاملة لائقة، وسيقتل رميا بالرصاص أمام قواتهم قادة الوحدات الذين تلقوا عرض المارشال، إن هم رفضوا إيقاف المقاومة العبثية حتى مساء هذا اليوم. إنهم سيقتلون رميا

بالرصاص عقابا لهم على هدر دماء الجنود الذين ائتمنوا عليهم». التوقيع، قائد الجبهة المارشال جوكوف.

عندما أخبر الاستطلاع الألماني اللاسلكي المارشال مانشتاين والجنرال هوبه، الذي رفع إلى رتبة عماد بعد نجاح الاختراق، بالبرقية، قاما بخداع المارشال السوفياتي، ونجح الاختراق نحو الغرب. وقد أشار الاستطلاع إلى طرق الاختراق الملائمة، حيث كانت توجد ثمة «مواضع رخوة»، كما تم التغلب على العوائق النهرية. هكذا غلب ذكاء القيادة، وتماسك قوات الجبهة ومبادرتها، وأخيراً استطلاع وحدات التنصت الكم السوفياتي المهاجم، حين قام الفوج 48 وفوج الـ إس إس المدرع الثاني بهجوم من الشمال الغربي في اتجاه قوات الاختراق، واتحدا معها، لتتوطد الجبهة من جديد أواسط شهر نيسان/ أبريل على جانبي البخشاش على نهر الستريبا.

هل عرف السوفيات الجهة التي أبطلت انتصارهم في الدقيقة الأخيرة؟. إنهم لم يركنوا إلى الراحة، بل أرسلوا عملاء مزودين بأجهزة برقية وأنصارا مكلفين بمهام محددة إلى ما وراء خطوط الألمان. وقد قتل واحد من هؤلاء رميا بالرصاص قائد الاستطلاع اللاسلكي لدى مجموعة جيش الجنوب العقيد بارشيفيتز، الذي ذهب كي يتنزه، جريا على عادته اليومية، داخل حديقة في لامبرغ، فأتته الرصاصات القاتلة من الخلف، وتمكن قاتله من الفرار.

هل كان هذا مجرد قاطع طريق، أطلق النار بالمصادفة على بارشيفيتز، كما كان سيطلقها على أي ضابط ألماني آخر يمشي وحيدا؟. أم أن الأمر كان مهمة؟. وهل تقصى القاتل عادات العقيد، وكان الطرف الآخر يعلم أنه رجل يتسم بالجد والاجتهاد؟. ليس بوسعنا اليوم الإجابة عن هذه الأسئلة، وإن كنا نعرف شيئاً بعينه، هو أنه إذا كان للألمان استطلاع لاسلكي يوجه خطواتهم بصورة مستمرة، فإن من كان يقوم بهذا العمل لدى السوفيات هم

جموع من العملاء المزودين بالأجهزة البرقية وبالمتجسسين، المنتشرين وراء الخطوط الألمانية، ممن يعرفون الظروف المحلية، بل ويتحدرون غالباً من المنطقة ويعيشون بين سكانها كما يعيش السمك في الماء». كان هؤلاء يبعثون رسائل لاسلكية عن أي شيء يرونه أو يسمعونه، قبل أن يتلقوا مهام جديدة عبر اللاسلكي. في وضع كهذا، لماذا يحتاج المرء إلى وكالة رادو في سويسرا؟.

من الممكن أن يكون مقر جوكوف الرئيس قد عرف مهام العقيد بارشيفيتز. وربما كانت جهة أخرى عرفتها، فأصدرت أمرا بتصفيته. لم تنته الأمور بطريقة مأسوية بالنسبة إلى العقيد وحده، بل انتهت كذلك بالنسبة إلى قائد الجيش المدرع الأول الأعلى، وإن لأسباب مختلفة. فقد أمر هوبه بالذهاب إلى مقر الفوهرر الرئيس في بيرشتسجادن، كي يتلقى وسام الفارس. وكان هو راغبا في زيارة زوجته الشابة في برلين. في ضباب الصبح قامت الطائرة، التي كان يقودها طيار لا يعرف المنطقة، «باحتكاك غير إرادي بالأرض» ـ كما يقول التعبير التجميلي ـ على حافة مطار آيرينج قرب باد رايشنهال، فسحق هوبه في المقصورة التي كان يجلس فيها، بينما اقتصرت إصابة بقية الركاب على جروح وحسب.

وكان المؤلف قد زار هوبه قبل أيام قليلة من موته في مقره الرئيس في بخشاش. لقد كان في السرير بسبب حمى أصابته خلال الاختراق، لكنه كان في مزاج طيب وممتلئا بالفخر لقيامه بإنقاذ جيشه. أما مانشتاين، فهو لم يستمتع بفرحة النجاح الدفاعي، الذي لعب دورا مهما في قيادته: فقد تلقى أمرا في تلك الأيام الصعبة بالذهاب إلى بيرشتسجادن، حيث التقى بهتلر متردداً. لقد كان من العبث إقناعه بنتائج الاستطلاع اللاسلكي، مثلما كان يعرف مانشتاين ومرافقوه، لكنه أمكن انتزاع موافقته على القيام باختراق

الحصار في اتجاه الغرب. تلك كانت آخر إنجازاته القيادية، قبل ان يعفيه قائده الأعلى من منصبه يوم 30 آذار/ مارس، بينما عملية الاختراق جارية على قدم وساق، من دون أن يكون هناك أي سبب واضح لذلك، بل وبعد منحه وسام فارس قال هتلر خلال تسليمه له «لقد انقضى زمن العمليات. لست بحاجة اليوم إلا إلى من يصمدون»[1]. إن الصامد، الذي كان هتلر يحتاج إليه، كان المارشال الميداني مودل، الذي خلف مانشتاين كقائد أعلى لمجموعة جيش الجنوب. وقد كان مجدا، شجاعا ودوماً على الطريق. لكنه عجز هو أيضاً عن إيقاف الطوفان الأحمر، الذي تدفق بقوة متزايدة من الشرق نحو ألمانيا. وكانت طلائعه، أي العملاء المزودون باللاسلكي، وراء الجبهة الألمانية، يتلمسون نقاط ضعفها.

(1) إيريك فون مانشتاين: انتصارات ضائعة. بون 1953، ص 615. انظر أيضاً فارليمونت، ص 449.

obeikandl.com

الفصل الثالث

من الممارسة الحربية التاريخية

1

هناك قصص كثيرة تستحق الملاحظة في تاريخ الاستطلاع اللاسلكي خلال الحرب العالمية الثانية. لقد بقيت مجهولة إلى الآن، مع أنها نقلت إلينا من رجال ثقة، بينهم قبل كل شيء الجنرال براون والعقيد راندیفیج - بينوا لنا أنه كان هناك في مجال عمل الاستخبارات السرية مصادفات سعيدة، إلى جانب اليقظة والدأب والنهج الصائب، وان هذا أدى بضربة واحدة في الغالب إلى كشف أسرار الجانب الآخر العسكرية. حدث هذا في مجال الاستطلاع اللاسلكي، الذي سمي الاستطلاع العملياتي، مثلما حدث في الاستطلاع القريب والقتالي.

يميل الكتاب، الذين يشتغلون على قضايا الجاسوسية، إلى إعطاء الأولوية في اهتمامهم لظروفها المفعمة بالمخاطرة، ويسألون عن وزن المعلومات، التي أتت بها، ويبالغون في نتائجها ويرون أنها كانت حاسمة بالنسبة للحرب. رغم ذلك، لا تقدر معلومات الجاسوسية أن تصمد إلا في أندر الحالات بالمقارنة مع المعلومات، التي حصل عليها الاستطلاع الألماني البعيد والقتالي عبر سنوات كثيرة. وعلى سبيل المثال، فإن المعلومات السرية، التي أرسلها ألكساندر فوته باللاسلكي من سويسرا إلى موسكو بين 1941 و1943، ليست شيئاً يستحق الذكر بالمقارنة مع معلومات الاستطلاع.

كان فوته هاويا من الناحية العسكرية. وكان معظم من قرأوا كتابه «مرجع للجواسيس» أغراراً بدورهم. وإذا كانت قد نشأت تصورات مغلوطة تماماً في هذا المجال، فلأن الرجال الذين قادوا عمليات الاستطلاع اللاسلكي صمتوا - في ذلك الوقت أيضاً -. لقد حان وقت تصحيح هذه التصورات، وهو هدف تريد القصص التالية خدمته، علما بأنها أخذت في معظمها من تقارير لم تنشر بعد، ندين بمعرفتها لشخصيات قيادية في هذا الميدان، ويؤسفنا أن عدونا خلال الحرب لم يضع في تصرف الرأي العام مادة مساوية لموادنا في القيمة والحجم.

كان هناك على الجبهة الشرقية، بدءاً من سنة 1942، غنائم حصل عليها الاستطلاع اللاسلكي القتالي، قبل أي جهة أخرى، بصورة يومية تقريبا. وقد كان أمرا ملموسا آنذاك أنه تم فرض الانضباط اللاسلكي لدى السوفيات، الذين كانت حاجتهم إليه شديدة، بفضل نفوذ العماد بيريسبكين، الذي عرف نقاط ضعف الاتصال اللاسلكي العملية لدى وحدات الجبهة، وهي أن الروس يفرطون في استخدام اللاسلكي، بسبب فرحتهم البدائية بهذه اللعبة التقنية من جهة، والبنية التحتية لبلادهم من جهة أخرى، باتصالاتها اللاسلكية والطرقية الشديدة التخلف. كانت شبكة وسائل الاتصال السوفياتية هزيلة، إذا قارناها بمثيلتها في وسط أوروبا وغربها. لذلك انطلق الجيش الأحمر في بناء جهاز معلوماته من متطلبات أعلى مما كان بحاجة إليه، وأعطى الاتصالات اللاسلكية الأولوية على الاتصالات السلكية. هذا الميل ساد في الحرب العالمية الأولى، وتعزز في الثانية. غير أن هذه النزعة التقنية التقدمية لم تتطابق مع معرفة تأهيل المبرقين ومستواهم، فغلب استخدام اللاسلكي في حمأة الاشتباك بطريقة مفتوحة أو تم ترميزه كيفما اتفق، وغلب الميل إلى استخدام جهاز التخاطب البرقي، مما أتاح لاستطلاع الألمان اللاسلكي الفرص للاستماع والقراءة، التي استغلها بكل ما أوتي من قوة. أضف إلى

هذا أن الجنرال فيلجيبل، بخبراته الغنية منذ سنة 1914، أسهم بقوة في التطور اللاحق، الذي مكّن الاستطلاع اللاسلكي من الحصول على معلومات حاسمة بالنسبة إلى الحرب. لكن القائد الألماني الأعلى لم يدرك أهمية الفرص المتاحة، بسبب افتقاره إلى تأهيل حربي علمي، ولم يقدر معلومات المصدر الوثيق السرية حق قدرها، كما لم يطلب القيام بمهام استطلاعية، وإن كان قادة جيشه ومارشالاته قد عرفوا كيف يستخدمونها بنجاح، واستخدمها بفاعلية أيضاً قادة فرقه وجنرالاته القادة[66].

تحول الاستطلاع القريب والقتالي بدءا من سنة 1942 إلى السلاح السري الجديد، بفضل وحدات التنصت اللاسلكي، وخاصة منها تلك التي كانت تنشط على الجبهة الشرقية، والتي لم يكن ممكنا من دون معونتها بلوغ ولو توازن وقتي وجزئي مع القوة المفرطة والمتعاظمة للجانب المقابل. إن موزاييك المعلومات، التي تم جمعها من قطاعات الجبهات المختلفة، كان يتحول في شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» إلى صورة عامة حول الجيش الأحمر وحول توزعه على الجبهة، كان من المحال أن يأتي بها أي جاسوس، مهما بلغ من البراعة. هنا، كانت تتطابق تقريبا خرائط الوضع في مقرات السوفيات الرئيسة مع خرائط أوضاع العدو في الأركان الألمانية، وكان يعرف بدقة كبيرة احتياطيه الميداني، بشهادة الجنرال جيهلن، الذي قال في مذكراته[1]:

«... عاد الاستماع إلى الاتصالات البرقية القريبة على الجبهة، التي لم تكن بالضرورة مشفرة على الدوام، بنتائج قيمة جدا. وكان رصد الشرطة الميدانية السوفياتية، المتحمسة كثيراً لعملها، مغريا وناجعا بصورة دائمة... إن ما أنجزه معاوني لم يكن إذن أعمالا سحرية محاطة بأسرار غامضة، بل

(1) جيهلن: مرجع سابق، ص 60.

مقولات صحيحة عن وضع العدو نواياه تمكنوا من الحصول عليها بالاجتهاد، والدقة، والمعرفة المتخصصة، والسرعة». استمع الألمان، من خلال استطلاعهم القريب المنهجي، إلى معلومات كثيرة عن العدو، كانت تخضع لسرية شديدة تجعل من المحال وصول أي جاسوس إليها. وقد ظهر أن أجهزة اللاسلكي ناقل جيد لهذه الخيانة الطوعية، ذلك أن رغبة الروس في الكلام دفعتهم إلى استخدام وسيلة الاتصال هذه لأغراض الخدمة من جهة، وللأحاديث الشخصية من جهة أخرى. كان الألمان يستمعون إلى الشتائم فيعرفون مزاج القوات، والوضع الشخصي ومزاج آمري الوحدات، فيعلمون أين يواجه إيفان المشكلات. إن مشكلة قوات الاستطلاع الألماني لم تكن نقص معلومات، بل كانت وفرتها والتعامل مع الكم الهائل منها، الذي كان يفرض مستلزمات رفيعة على المترجمين أيضاً، وهي مشكلة ما كان بالإمكان التغلب عليها، لو لم يوجد في فرق ألمانية كثيرة روس راغبون في المساعدة، سدوا هذه الثغرة، وكانوا يسمون الهيفيز، أسر الألمان معظمهم سنة 1941، أو مكنوا هم الألمان من أسرهم، ثم تم دمجهم في أقسام الإمداد والتموين، وتحولوا، مع شيء من المعاملة الودية، إلى مساعدين مخلصين لوحداتهم. لقد تعلم عدد غير قليل منهم الألمانية بسرعة، صاروا فيما بعد مترجمي الاستطلاع اللاسلكي على قطارات التنصت. كتب ألبرت براون، آخر رئيس اتصالات في استخبارات القوات المسلحة وخليفة فيلجيبل، وكان في هذا الوقت قائد الفرقة 129 مشاة على الجبهة الشرقية، في تقرير عن منطقة رشيف لدى مجموعة جيش الوسط ما تؤكده تجارب عشرات قادة الفرق الآخرين[1]:

«أتت وسيلة استطلاع جديدة مخصصة للاستطلاع القتالي بنتائج رائعة.

(1) البرت بروان: جندي في قوات الإشارة والاستخبارات، ص 188.

كان الروس قد تلقوا عبر معونات «الإعارة والتأجير» الأميركية عددا كبيراً من أجهزة التخاطب اللاسلكية، استخدموها بطريقة تخلو إلى أبعد حد من الحذر، فمكنتنا أخبارهم، وأوامرهم، ومسامراتهم اللاسلكية المفتوحة، التي تمت قربنا مباشرة، من الحصول على معرفة فريدة في بابها وموثوقة، ليس فقط عن الوضع الذي يجب أن يوجه نيراننا الخاصة، بل كذلك عن نواياهم، التي أمكن اعتراضها بتدابير مضادة سريعة.

كان هناك مستقبلان موجهان نحو الترددات الروسية المعروفة، يديرهما لاسلكيون من شعبة المعلومات، يساعدهم مترجمون طوعيون راغبون في المساعدة. وقد كان ضابط شعبة الأركان الثالثة، الملازم أول بيرنيوس، يرفع صوته ليبلغني بالألمانية ما يقوله الروس في أحاديثهم، التي كانت غالباً ما تحول عند وصولها إلى نقطة من الموقع إلى نيران مركزة يطلقها فوج المدفعية، الذي كان قائده العقيد فوستنهاجن يقف إلى جانبي. وقد استمعنا في معظم الأحيان إلى أحاديث حول أهداف هجوم وتقدم عسكري واستطعنا اعتراض طريقها». هكذا نجحنا بصورة متكررة في شل التفوق السوفياتي.

كان وضع الجبهة الشرقية يشبه منذ سنة 1942 وضع الفرقة 129، فوحدات استطلاعها الاستخباري القريب كانت تعرف دوماً نوايا الطرف المقابل. طبيعي أن هذا القائد التكتيكي أو ذاك كان يعجز عن استغلال الفرص المتاحة، التي يتقن الإفادة منها القادة الميالون إلى اتخاذ القرارات، لكن المتنصتين على اللاسلكي أنفسهم كانوا متحمسين أشد الحماسة لعملهم، وقد برعوا في التنصت إلى العدو وتزايدت نجاحاتهم، حتى إنهم كانوا يبلغون غالباً الجبهة المهددة بنمط التغطية النارية الملائمة، التي تحتاج إليها في وضعها الحرج.

2

لم يكن الأمر هكذا في سنوات الحرب الأولى. وقد أثبتت الحرب أنها تختصر الوقت وتسرع التطور في هذا المجال أيضاً. يقول تقرير لم ينشر بعد عن الاستطلاع القريب[1]: «لعبت ضربات الحظ، التي حققتها قطارات الاستطلاع الاستخباري، التابعة لشعبة استخبارات الفرقة، دورا ثانويا تماماً على مستوى الفرقة في بداية الحرب. لكن الوضع تغير بصورة جذرية منذ سنة 1943 على وجه التقريب، وأخذ استطلاع الفرقة الاستخباري يقدم إسهامات مهمة عن العدو، وشرع ضابط شعبة الأركان الثالثة يتلقى يوميا مواد مثيرة للاهتمام من قسم تقويم التشفير في كتيبة الاستطلاع القريب التابعة للفرقة. إلى هذا، أتت التعميمات البرقية الدورية بنتائج مهمة في إيطاليا والغرب، إلى جانب ما أسسته معظم الفرق المقاتلة على الجبهة من مجموعات استطلاع استخباري قريب، سرعان ما تأكد أنه لا يمكن الاستغناء عنها. لقد جعل هذا كله قيادة المعارك سهلة بدرجة لم تكن معروفة من قبل، علما بأن نتائج عمل مجموعات الاستطلاع كانت محدودة بالضرورة في حرب المواقع، حيث كان العدو يستطيع استخدام اتصالاته الشخصية والبرقية البعيدة، والمحافظة على الانضباط اللاسلكي». ينطبق هذا على الغرب قبل فترة سنة 1944 أساسا، التي كانت فترة تعلم وتدريب أيضاً بالنسبة إلى مجموعات الاستطلاع الاستخباري، استغلتها للتعرف إلى تدابير العدو البرقية، ولإتقان التنصت، ولتدريب التنظيم الصغير ومترجميه. في هذه الفترة، تم إنجاز عمل مجموعاتي كثير في صمت تام، لا زال تاريخ الحرب يجهله إلى اليوم. كما كان من الأهمية بمكان على الدوام إقامة تعاون وثيق مع الأركان، وكسب تفهم القادة وضباط الأركان العامة صعودا إلى القادة في

(1) مخطوط في الأرشيف الخاص بالمؤلف.

المراكز العليا والرؤساء، مع وجود تفاوت أكيد في تصرفات هؤلاء، يجعل هذا نزّاعا إلى الانفتاح أكثر من ذاك، بحسب التجارب الشخصية ومهارة قادة الاستطلاع الاستخباري وصلاتهم. وللحق، فإن رؤساء الأركان لم يمتلكوا جميعهم تفهم العماد هايدر، الذي بعث هتلر به «إلى الصحراء» في شهر أيلول/ سبتمبر من سنة 1942». يعبر تقرير مختصر عن تجارب استطلاع الألمان اللاسلكي في روسيا على النحو الآتي: «إن اتساع البلاد، والنقص في طرقها الثابتة، وضخامة ميادين التحركات وعمليات الإمداد من جهة، والنقص في خطوط الهاتف والهواتف من جهة أخرى، فضلا عن النقص في أجهزة وخطوط الهاتف لدى الجيش الأحمر، أجبر الروس على استخدام اللاسلكي خلال الحرب بدرجة فاقت مثيلتها في الدول الأوروبية المصنعة. يفسر هذا، لماذا تركز نقطة ثقل العمل الاستخباري الألماني، خلال عامي الحرب الأوليين: 1941 و1942، على الاستطلاع عن بعد، الذي عاد على القيادة الألمانية بنتائج مهمة ومعارف قيمة عن العدو، رغم الصعوبات الجمة التي واجهته، قبل أن يتم الحصول منذ سنة 1942 على كتلة أخرى من المعلومات بواسطة الاستطلاع اللاسلكي القتالي.

كان الروس يعرفون هذا، بطبيعة الحال، وكانت معلومات كثيرة عنه تصل إليهم. وتم الاستماع إلى محادثات برقية كثيرة، تبادل طرفاها تحذير بعضهما بعضا، أو أنهياها بالإشارة إلى ضرورة الحفاظ على السرية والتقيد بها. والحقيقة، أنه كانت لدى الجنرال الأعظم ستالين نفسه خبرة خاصة تتعلق بنواقص النظام البرقي العسكري السوفياتي، حصل عليها حين كان مفوضا حربيا لدى جيش الفرسان بوديوني. ويقال إنه هو الذي حرض على تحسينه وطالب بتطبيق انضباط صارم فيه، وأن تأسيس أكاديمة تقنية للاسلكي في الاتحاد السوفياتي يرجع إلى مبادرته ومطالبة بيريسبكين. غيَّر الروس مرتين خلال الحرب نظامهم البرقي، فجعلوا عمل الاستطلاع الاستخباري

الألماني شديد الصعوبة. كانت المرة الأولى في الأول من نيسان/أبريل سنة 1942، لأن فاراً من وحدة تنصت ألمانية أبلغهم على الأرجح عن نجاحات الاستطلاع الألماني. أما محاولة التغيير والتصعيب الثانية فارتبطت بكارثة ستالينجراد، التي غنم السوفيات خلالها تجهيزات تنصت ألمانية. منذ ذلك الوقت، تكاثرت عندهم الأوامر والنواهي والتهديدات بأقسى العقوبات. ولكن ماذا يستطيع هذا كله أن يغير، إذا كانت تنظيمات كثيرة وراء الجبهة لا تتقيد بالانضباط اللاسلكي، وكان وضع وحدات الجيش، التي وزعت على نقاط الثقل الحربية، شبيها بذلك. إن توزيع هذه الوحدات على مساحات واسعة، كان يجبرها على الإفراط في استخدام اللاسلكي. وبالنظر إلى أنها لم تكن تستعمل المفاتيح صعبة الحل، اعتمدتها دوائر قيادتها العليا، بل استخدمت مفاتيح وحدات دنيا سهلة الحل، فقد أفشى عملها بأسرار كثيرة. وللعلم، حصلت شبكات المدفعية وراجمات القنابل، التابعة للقيادة العليا، على معلومات مهمة حصلت عليها من خلال الصور الشبكية وعمليات الرصد والسبر، التي حددت بواسطتها عدد الجيوش والفرق، ومجالات استخدامها وحدودها. كما عرف القوم من المصدر ذاته، حين كانت وحدات كبيرة تضاف إلى ما هو موجود من قوات. وحصل الاستطلاع البرقي بطريقة أخرى على معلومات، مثلما حدث مثلا لدى مجموعة جيش الجنوب، التي حصلت على معلومات مهمة من ضابط استخبارات روسي كبير أسره الألمان. فقد أجرى «زميله» الألماني معه محادثة متخصصة في أجواء ودية، كأنهما كانا في مناورة مشتركة. سأل الألماني عن سبب قيام الجيش الأحمر بإجراء اتصالات برقية كثيرة، فأكد الزميل من الجانب الآخر ما كان الألمان يعتقدونه دوما، وهو أن الروس يفتقرون إلى عدد كاف من الكوابل الهاتفية، والهواتف الميدانية والتوصيلات البريدية، وأن السبب في النقص يرجع إلى اتساع البلاد وضخامتها.

بفضل هذه المحادثة، تمت منذ سنة 1942 معرفة توقيت كل هجوم روسي كبير في الوقت المناسب. فقد كانت وحدات الحماية من الحزم النارية تجري اتصالات برقية مكثفة على الدوام، وكان وصولها إلى الجبهة يعتبر دليلا قاطعا على قرب وقوع هجوم كبير. بينما كان وصول وحدات مهندسي الجيش يشير إلى هجمات مدرعة مرتقبة، يبني هؤلاء لها الطرق والجسور، ويفتحون قبل كل شيء الممرات في حقول الألغام.

إليكم بعض الأمثلة العملية: في تشرين الأول/أكتوبر والثاني/نوفمبر من سنة 1941 تمت ملاحظة شبكة ظاهرة حول فلاديمير على بعد مئتي كيلومتر إلى الشرق من موسكو، وشبكة أخرى في شرق روستوف، علم من اتصالاتهما البرقية أن هناك تشكيلات مقاتلة كثيرة جديدة تشكل وتدرب، قدرت الشبكة الأولى منهما بأربعة جيوش، والثانية بعشر فرق. وقد أكد الهجوم الشتوي، الذي شنته الوحدات الجديدة في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر وبداية كانون الأول/ديسمبر من سنة 1941 على روستوف وفي منطقة موسكو، صحة معلومات استطلاع الألمان اللاسلكي، التي استندت إليها تقديرات شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» حول نوايا العدو.

قبل ستالينغراد، استنتج الاستطلاع البرقي الألماني إشارات أولى تدل على قرب وقوع الهجوم، من اتصالات عبّارات نهر الفولغا، التي كانت تحتاج إلى ست ساعات من أجل عبور ليلي للنهر المتجمد، فتشير المعلومات الصادرة عنها إلى الإمدادات الضخمة، التي كانت تشير بدورها إلى قرب وقوع هجوم كبير. إلى هذا، كان الاستطلاع الألماني يستمع إلى معلومات عن القوة اليومية للوحدات المستخدمة في الجبهة، ويستنتج، عندئذ، أن الإمدادات الكبيرة لا يمكن أن تكون مخصصة لفرق المواقع التي أنهكها القتال، بل للوحدات التي وصلت حديثا أو كانت في سبيلها

إلى بلوغ الجبهة. من جانبها، كانت المعلومات عن النقل بالقطارات غنية إلى أبعد حد بالمعلومات والدلالات. في بعض الحالات، كان يمكن متابعة الإمدادات المرسلة من داخل المجال الروسي، الذي تشكلت فيه الوحدات الجديدة، وصولا إلى الجبهة، حيث كانت تعرف أيضاً أماكن إيوائها.

نجح الاستطلاع اللاسلكي على الجبهة الشرقية في التحول إلى مصدر المعلومات الرئيس، فقد نجح منذ سنة 1943 في تقديم معلومات سرية، سريعة وموثوقة، إلى مختلف مراتب القيادة. وزاد من سهولة عمله كم الشبكات والرسائل البرقية المعادية الكبير، حيث كانت يستطيع أن يرصد أكثر من 300 موقع لاسلكي على جبهة لا يتجاوز عرضها 40 كيلومترا، قبل وقوع أي هجوم كبير.

3

كيف كان الوضع على مسارح الحرب الأخرى؟. كان الاستطلاع اللاسلكي يجري هناك أيضاً بطريقة مشابهة، وإن في ظروف أكثر صعوبة ونتائج أقل بكثير. ومهما يكن من أمر، فقد شهدت الحرب عددا من الحوادث، منها على سبيل المثال أزمة واجهها الاستطلاع البرقي في إيطاليا في آذار/مارس من سنة 1944، ترجع إلى تهور مراسل حربي، وإلى نقص الرقابة. خلال القتال في صقلية، ظهرت في الصحافة الألمانية مقالة اكدت الاستطلاع الاستخباري وأكدت نجاحاته، بثتها الإذاعة في ألمانيا. بعد أيام، لاحظ الاستطلاع اللاسلكي الألماني أن شيئاً سلبيا يحدث، أدى إلى نضوب معظم مصادره الموثوقة، ثم علم أن البث كان بمثابة تحذير للعدو، الذي انتقل إلى استعمال مفاتيح جديدة صعبة، جعلت من الصعب معرفة حتى تنظيم القوات من شبكات الاتصالات.

لكن المصادفة السعيدة ساعدت هنا مرات كثيرة، فقد تم مثلا معرفة موعد الهجوم ضد الجبهة الدفاعية في منطقة نابولي، بسبب صمت لاسلكي مريب ساد لدى الجانب المقابل، التقطت وحدة إمداد صغيرة أثناءه رسالة لاسلكية قصيرة حول تسليم المنطقة في يوم محدد، فأصاخ ضابط اللاسلكي الألماني المسؤول السمع، لعلمه أن البريطانيين كانوا يحرصون قبل شن هجوم على تسليم المنطقة إلى القوات المهاجمة. وقد تم تحذير المدافعين، الذين اتخذوا تدابير مناسبة. أعقبت ذلك مصادفات سعيدة أخرى، فقد سمع الألمان في شبكة لم تلتقط من قبل جملة تقول: «إن الإيطاليين لا يجوز أن يستخدموا إلا كندَّل (كخدم) وتجار بطاقات تذكارية». ذلك كان طبعا رسالة برقية لا معنى لها، إلا أنها أكدت وجود الوحدة الأميركية في المكان، الذي كان المرء يظن أنها موجودة فيه. كما تم أيضاً العلم بوجود فرقة كندية من خلال رسالة برقية بعث بها إلى زميل له كندي ناطق بالفرنسية عن مغامراته العاطفية في نابولي. هذا الجندي لم يكن يعلم أنه يرتكب جريمة خيانة الأسرار بالإهمال. كان الكنديون والبولونيون فرقا هجومية معروفة، يمثل ظهورهم على الجبهة وانتشارهم في قطاعات ضيقة منها، علامات أكيدة على قرب وقوع هجوم في منطقة معينة. إليكم مثالا آخر على دور المصادفة في الاستطلاع الاستخباري عبر اللاسلكي. انتقل مركز ثقل الاتصالات المعادية مطلع سنة 1944 من البحر المتوسط إلى إنجلترا، ورافق ذلك اختفاء وحدات بريطانية وأميركية على درجة رفيعة من التأهيل، كان يمكن ملاحظتها إلى ذلك الوقت في الجنوب، منها مثلا فرقة إنزال جوي أميركية كانت ترابط في جنوب إيطاليا، ثم انعدمت أي إشارة لاسلكية إلى مكان وجودها. لكن المصادفة الشهيرة مدت يدها بالعون بعد نحو أسابيع ثلاثة، فقد كانت شبكة معينة في إنجلترا، لم يكن قد تم قبل ذاك التعرف إليها، تبحث عن جندي معين، لسبب خاص إلى أبعد حد: هو أن آنسة رفعت دعوى قضائية ضده

في الولايات المتحدة، تزعم فيها أنه أب وليدها، وكان البحث جار عنه لاستجوابه. بما أنهم كانوا يذكرون رقم هذا الجندي في وحدته، علم الألمان أنه ينتمي إلى الوحدة المفقودة. طبيعي أن هذا النبأ نقل دون إبطاء إلى مركز الاستطلاع الاستخباري القيادي لدى رئيس استخبارات الجيش في أركان الجيش العامة.

بيد أن الغرائب أضيفت الآن إلى المهازل، لأن هذا المركز القيادي، الذي كان يقوم بتقويم نهائي مركزي، استخلص من المستندات المتوفرة أن فرقة الإبرار الجوي نقلت إلى إنجلترا، الامر الذي لم تشكك أركان قيادة القوات المسلحة فيه، وإنما رفضته جملة وتفصيلا، بحجة أن الفرقة لا يمكن أن تكون قد نقلت بغير الغواصات، وإلا لكان لاحظ انتقالها أحد. رغم رفض الأركان، أصر مركز القيادة على رأيه، ثم تأكد فعلا وجود الفرقة في إنجلترا، بل إنها كانت من الوحدات الأولى، التي نزلت يوم 6 حزيران/ يونيو على ساحل النورماندي، بواسطة الإبرار الجوي، مما يفسر فشل التدابير الدفاعية، التي كانت قد اتخذت في جبل طارق[67].

ثمة حالة أخرى يجب ذكرها، لم يصدق المرء خلالها الاستطلاع البرقي الألماني، وترتبت عليها نتائج وخيمة هذه المرة أيضاً. من المعروف أن القيادة العليا الألمانية كانت تعتقد صيف سنة 1944 بحتمية حدوث إنزال حليف ثان على ضفة القنال في فرنسا. بما ان توزيع فرق الحلفاء في إنجلترا كان يبدو وكأنه يشير إلى ذلك، فقد ترددت في نقل الاحتياطي المتوفر، وخاصة الوحدات الكبيرة المتحركة للجيش الخامس عشر في شمال أفريقيا، وزجه على جبهة النورماندي، علما بأن النقل كان صعبا جدا، بالنظر إلى سيطرة الأميركيين الجوية المطلقة، ولأن جسور السين المؤدية إلى باريس كانت قد دمرت جميعها. ماذا كان الصواب في ظرف كهذا؟. لقد طلب من

رئيس مركز قيادة الاستطلاع البرقي غرب أن يأخذ موقفا من هذا السؤال ويعلل تقويمه للوضع، فأجاب أن الألمان يعرفون عدد الوحدات المستخدمة في جبهة النورماندي، ويعرفون عدد الوحدات الموجودة في إنجلترا أيضاً. بما أن معظم هذه الوحدات منخرط في القتال، بينما تمس الحاجة إلى ما تبقى منها، لتعزيز جبهة الغزو، فإنه لن يكون هناك، حسب تقديره، إنزال حليف آخر. هذا ما توصل إليه أيضاً تقويم أجراه رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية غرب»، لكن أركان القوات المسلحة كان لها رأي آخر. حسب ملاحظات الجنرال فارليمونت (في المقر الرئيس للقوات المسلحة الألمانية بين 1939 ـ 1945)، شاع اعتقاد راسخ بوجود إنزال ثان على ضفة القنال. ذلك كان رأي أيضاً المارشالين رونشتيدت، القائد الأعلى للغرب، وروميل، القائد الأعلى لمجموعة الجيش (ب)، الذي اعتقد المرء أول الأمر أن إنزال النورماندي لم يكن غير مناورة تضليلية.

ثمة حالة واحدة فقط فرضت نتائج الاستطلاع اللاسلكي نفسها فيها: فقد ألقيت في ليالي الغزو الأولى دمى على البروتانيه، أريد بها صرف الأنظار عن المظليين. منذ ذلك الوقت، اعتقد هتلر بإمكانية غزو ثان هناك. لكن الاستطلاع البرقي كان يستطيع البرهنة على خلو المجال المعني من أي اتصالات لاسلكية، ويقول إن الإنزال غير محتمل في هذه المقاطعة، وهو قول كانت تشاركه فيه هيئة أركان القوات المسلحة.

في هذه الأثناء، أنجزت مجموعات الاستطلاع البرقي القريب في فرق جبهة النورماندي عملا مجدياً، أسوق عليه المثال الآتي: في مطلع آب/ أغسطس 1944 هاجمت الفرقة المدرعة الخامسة الإنجليزية قطاع فرقة المشاة الألمانية 277 غربي توري ـ هاركورت. وقد قدمت مجموعات الاستطلاع البرقي القريب خدمات ممتازة إبان المعركة الدفاعية، فالتقطت الأخبار البرقية

للاستطلاع الجوي الإنجليزي حول التحركات الألمانية وانتشارهم الموقعي في مختلف الأماكن، ومكنت الفرقة من الإفلات. استطاعت المجموعات أن تستمع كذلك إلى ما كانت تقوله أطقم الدبابات الإنجليزية في أحاديثهم اللاسلكية حول مواقع انتشار المهاجمين ونتائج استطلاع وأهداف الهجوم، فصار ممكنا تعريض مواقع الانتشار المعادي، التي تم التعرف إليها، إلى ضربات نارية مركزة. وقد سمع جنود الاستطلاع الألمان الإنجليز وهم يقولون: «لقد تعرف فريتز (لقب الألماني في أوروبا) علينا، لذلك لن نهاجم اليوم، بل سنعود إلى المواقع التي انطلقنا منها». لم يتمكن الاستطلاع الجوي الألماني من اختراق جبهة الغزو سنة 1944، لأنه كانت للحلفاء سيطرة جوية مطلقة. لكن استطلاع الألمان اللاسلكي نشط هنا، وكان يستطيع التمييز منذ وقت طويل بين الكنديين والبريطانيين والأميركيين، وتحديد قطاعات هجومهم. كما كشف في الوقت المناسب نيتهم القيام باختراق قرب أفرانش، وكذلك عملية التطويق، التي أدت إلى ضرب الحصار على الألمان في منطقة فاليز. إلى ذلك، جمع الاستطلاع البري تجارب ثمينة في الغرب، جعلت الوحدات القتالية المجربة أشد حذرا بكثير في استخدام اللاسلكي من الوحدات الجديدة. لم يلتزم الأميركيون بالانضباط البرقي قدر التزام الإنجليز به، فكان من الممكن التقاط اتصالاتهم بسهولة أكبر. كما أن وحداتهم بعثت في مرحلة الغزو الأولى بنصوص برقية صريحة كثيرة. وكان جيش باتون أكثر جيوشهم على الجبهة الغربية انكشافا، أما أكثرها تغطية فكان الجيش السابع، الذي نزل في جنوب فرنسا وتقدم نحو الشمال، وكان قد قاتل في أفريقيا وصقلية وجنوب إيطاليا، وحصل على تجارب مع الاستطلاع الاستخباري الألماني.

من الضروري قول كلمة أخرى حول جمع المعلومات الاستخبارية خلال هجوم الأردين الألماني. فقد تقيد الألمان بصمت لاسلكي مطلق

أخفى نواياهم الهجومية. كان الوقت آنذاك شتاء، وكان الشتاء قاسيا عرف هطلاً ثلجياً متكرراً وسماء مغطاة بالغيوم، فلم يستطع أحد التعرف من الجو على مواقع الانتشار الألماني، سواء منها مواقع الجيش الخامس المدرع أو مواقع جيش الـ إس.إس المدرع السادس. من جهة أخرى، كان قادة القوات الألمانية يعرفون أن انتشار العدو قليل في القطاعات، التي كان عليهم مهاجمتها. لقد أحس الأميركيون بالأمان، فلم يتخذوا تدابير وقائية خاصة، مع أنه لم يكن لديهم احتياطي عملياتي هنا. كشف استطلاع الألمان اللاسلكي هذا كله، وحين حدث الهجوم الألماني المفاجئ، بدا أول الأمر كلكمة غير متوقعة أصابت وجه الأميركيين. هذا ما تؤكده رسائل برقية كثيرة تحدثت يوم 16 كانون الأول/ديسمبر عن خسائر فادحة وتراجع اضطراري، ونداءات الاستغاثة وطلب العون التي لم تتوقف. لقد بدا الاختراق الألماني وكأنه نجح، بيد أنهم التقطوا شبكة لاسلكي الشرطة العسكرية الأميركية، التي كانت تستخدم شيفرة سهلة الحل تخالطها نصوص صريحة كثيرة، علموا منها أن التعزيزات تتدفق من جميع الجهات، وعرفوا أن الغلبة المطلقة ستكون خلال أيام للأميركيين. وقد كان ضربا من الرضا المأسوي عن الذات بالنسبة إلى الاستطلاع البرقي الألماني، أن ينهي تقريراً حول النهاية في الغرب على النحو الآتي: إن التطورعلى جبهة الغرب، الذي تواصل حتى نهاية الحرب، لم يعد يسبب أي صعوبات بالنسبة إلى الاستطلاع الاستخباري، الذي أعلم القيادة دوماً وفي الوقت المناسب بحشود العدو، على رأس جسر ريماجن على سبيل المثال، وباتجاهات هجمات وحداته المدرعة، فكانت تعرف دوماً في أي اتجاه ينوي الجنرال باتون شن هجماته، وأي فرق ستكون بإمرته خلالها، بعد أن تخلى المهاجم تماماً عن الانضباط اللاسلكي، بسبب إحساسه بتفوقه المتعاظم، وأعلن نواياه بوضوح في برقياته. كانت القيادة الألمانية تعرف بدقة ما يجري، وبقيت معلومات

الاستطلاع مهمة بالنسبة إلى المارشال كيسلرنج، ومفيدة بالنسبة إلى شعبة القيادة. بل إنها كانت في الأشهر الأخيرة من الحرب المصدر الوحيد تقريباً لأخبار العدو، بعد أن توقف الاستطلاع الجوي، ولم يعد هنالك أسرى يقبض عليهم، أو وثائق تغنم، أو جاسوس ألماني واحد وراء خطوط الجبهة المعادية. لقد حمل استطلاع اللاسلكي العبء الكامل للعمل الاستخباري السري، وظل فاعلا حتى النهاية لدى معظم الجيوش الألمانية. طبيعي أن معارفه، التي كانت تقدم صورة واضحة عن العدو، بقيت أكاديمية صرفا. وفي حين كان يحسن بالمرء الاستماع إليها في السابق، فإن الوقت لذلك كان قد تأخر الآن كثيراً.

في الختام، تؤكد المستندات المتوفرة أن وحدات الاستطلاع الاستخباري في الجيش الألماني كان لها القوة التالية حتى نهاية الحرب تقريباً:

جنرال استطلاع استخباري مزود بمركز قيادي	250
6 قادة للاستطلاع الاستخباري مع مراكز تقويم	1200
10 أركان شعب استطلاع استخباري	500
5 مراكز استطلاع استخباري ثابتة	750
10 كتائب استطلاع استخباري عن بعد	3500
15 كتيبة استطلاع استخباري عن قرب	4500
كادر جيش لدى وحدات وقائية وشعبة التشفير	1300
المجموع	12000

الفصل الرابع

مكافحة اللاسلكي ـ العبء الثقيل

1

عرفت القوات المسلحة الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية استطلاعا ناجحا باللاسلكي، وكذلك مكافحة لاسلكية متعددة الجوانب، حققت بدورها إنجازات تستحق الاهتمام، زاد من قيمتها أنها تمت في مواجهة أعداء نشطاء إلى أبعد حد، متفوقين تفوقا عدديا كبيراً عليها. هذه الإنجازات في الحرب الصامتة لأجهزة الاستخبارات السرية ليست معروفة بالقدر اللائق بها، ولم تثمن بعد من منظور تاريخ الحرب.

ثمة أسباب جلية ومن طبيعة مزدوجة لذلك: من جهة، يكرس تاريخ الحرب للمعارك والحملات، ويترك الاستخبارات في الظل. وتهتم وسائل الإعلام، من جهة أخرى، بقصص الجاسوسية «القوية»، بـ«جواسيسها الأفذاذ» ومغامراتهم. بينما تفتقر حرب الأثير الصامتة إلى الكثير مما تستطيع تقديمه هنا، مع أن تاريخ مكافحة اللاسلكي كان مليئا بالأحداث المأسوية خلال الحرب العالمية الثانية.

ثمة حدثان أطلقا مكافحة اللاسلكي، حظي كلاهما باهتمام عالمي واسع. أما أولهما فكان ما سمي «الروته كابيله (الجوقة الحمراء)، وهي شبكة متشعبة من عملاء السوفيات والمتعاطفين معهم، غطت المناطق الغربية

المحتلة، ونشطت أيضاً في منطقة الرايش. وكانت شعبة مكافحة اللاسلكي هي التي كشفت محطتها البرقية، وتتبعتها وحددت موقعها، بعد أن كلفوها في 14 كانون الأول/ديسمبر في الكشف عن مبرق عميل في بروكسل، وتحفظوا على مواد برقية كثيرة. وقد أعقب هذا أشهر من البحث عن كتب مفاتيح الشيفرة، إلى أن عثر عليها عبر صدفة سعيدة، وتم فك شيفرات الرسائل البرقية المتوفرة، وقراءة تلك التي كانت قيد التداول. نتيجة ذلك، كشفت مجموعة: خورو في برلين، وكان يقودها، كما هو معروف، هاري شولتسه - بويزن، وإرفيد هارناك وآدام كوخهوف. قد يأسف المرء لاعتبارات إنسانية على ضحايا أيديولوجية هؤلاء، لكنه لا يستطيع إنكار حقيقة أنهم كانوا يتجسسون لمصلحة الاتحاد السوفياتي وخانوا بلدهم.

بينما كانت الثانية، التي حظيت بشهرة عالمية واسعة، هي حالة ما سمي «الثلاثة الحمر»، أي أجهزة إرسال العملاء السوفيات الثلاثة، الذين كانوا يبعثون ببرقياتهم من سويسرا إلى موسكو، ويتلقون تعليماتهم من «المدير». هؤلاء أيضاً، كشفتهم شعبة مكافحة اللاسلكي، من خلال سبر عن بعد حدد موقعهم. إن القضاء عليهم لم يكن ممكنا بطبيعة الحال[68]، لكنه أمكن التقاط قسم كبير من الرسائل البرقية بين سويسرا وموسكو، وتم لاحقا فك رموزها. غير أن 500 رسالة منها بقيت محفوظة أو عرفت مؤخرا، بفضل مذكرات ساندور رادو، الذي كان آنذاك رئيس المقر السوفياتي في سويسرا. إلى هذا، مهد العمل الاستطلاعي لمكافحة اللاسلكي الدرب أمام لعبة إنجلترا، التي أخرجها في هولندا الرائد جيسكه ورئيس المباحث شرايدر.

بوجه عام، أفلحت مكافحة اللاسلكي في تحديد مواقع عملاء نشطوا لحساب السوفيات ضمن منطقة الحرب الغربية، وأمكن القضاء عليهم، حتى

بدا نهاية سنة 1942 وكأنه تم كسب حرب الأثير ضد الجيش الأحمر في غرب ووسط أوروبا ووسطها.

كانت مكافحة اللاسلكي ناجحة أول الأمر في الشرق، وحققت نجاحا مماثلاً على وجه التقريب في الغرب أيضاً، حيث يسجل في رصيدها تحديد موقع منظمة العملاء «أركو» والقضاء عليها. إلى ذلك، تمكنت من تحقيق نجاحات أخرى، لكنها عجزت منذ سنة 1943 عن السيطرة على كتلة عملاء السوفيات اللاسلكيين، مثلما عجزت بصورة متزايدة عن التصدي لعملاء الحلفاء في فرنسا، الذين تكاثر عددهم باضطراد، وإن كانت قد حققت هنا نجاحها الكبير الأخير، باعتقالها من سمي الرئيس الصغير «للروته كابيله» في مارسيليا، الذي كان يعمل تحت اسم حربي هو «كنت»، فاستمالته وجعلته يعمل لمصلحتها.

تم العثور على مواد سرية مهمة، في حالتي «الروته كابيله» و«الثلاثة الحمر». ويقدم النص الصريح للرسائل البرقية الخمسمئة، التي أرسلتها المنظمة أو تلقتها، وتم فك رموزها[1]، معلومات مهمة حول ما عرفته موسكو خلال الحرب، وما أرادت معرفته. كما كشفت الرسائل طرقا معينة تظهر نمط عملها الاستخباري السري بين 1941 و 1943. وقد أخفى موظف في مكافحة البرق هو ف. فليك، الرسائل بطريقة غير شرعية قرب نهاية الحرب، لغرض واضح هو المتاجرة بها. لكن تحقيقين روائيين كتبا مطلع الخمسينيات من القرن الماضي في سويسرا عن القسم الأكثر أهمية منها، ونشرا باسم فليك، جعلا لهذا الاستغلال الفردي نتيجة إيجابية، هي معرفة الرأي العام بوجودها، وإلا لكانت اختفت حتما في أراشيف سرية ما.

(1) يوجد نسخ منها في أرشيف المؤلف الخاص.

2

بالأصل، لم يكن لدى قوات ألمانيا المسلحة أي جهاز متخصص بمكافحة اللاسلكي. لم يكن هناك أيضاً ضرورة لجهاز كهذا، لأن مراقبة الاتصالات اللاسلكية في منطقة الرايش كانت من اختصاص شرطة حفظ النظام، المكلفة كذلك بمنح التراخيص لهواة اللاسلكي وبتسجيل أسمائهم في قيودها. وكان هؤلاء منظمين قبل الحرب العالمية الثانية في نادي هواة اللاسلكي الألمان، الذي ترأسه الجنرال خارج الخدمة ساكس، القائد السابق لمدرسة استخبارات الجيش[69]. وفي حين أعاقت تعليمات البيروقراطية تطور اتصالات الهواة اللاسلكية، كان الأميركيون عمليين أكثر، لذلك كان لديهم عند نشوب الحرب كادر مدرب أكبر بكثير من الكادر الألماني، فشل الألمان في امتلاك ما يماثله، بسبب نزعتهم إلى احتباس كل شيء في قالب جامد، أو بكلام أوضح، بسبب البيروقراطية الخرقاء لإدارات القوات المسلحة. لذلك، كان محالا خلال الحرب تغطية الحاجة المتزايدة إلى مبرقين وخبراء لاسلكي من صفوف هواة اللاسلكي. مع ذلك، حقق استطلاع وحققت شعبة مكافحة اللاسلكي المعادي نجاحات كبيرة، تفسرها إلى حد كبير النوعية المهنية الرفيعة للكادر الأصلي، الذي مكنه تأهيله العالي وتعلقه بعمله من تحويل الهواة المجندين إلى محترفين حقيقيين، بعد فترة تدريب طويلة. مندئذ، قام عناصر الوحدة الاستخبارية جميعهم بتنظيم أجهزة الإرسال الغريبة باقتناص حماسي، بل هوسي، ولم يهنأ لهم بال قبل القضاء عليها. هذه الحماسة في اصطياد الغرباء أفادت في مكافحة اللاسلكي، هذا النمط من العمل الاستخباري، الذي صادف هوى لدى معظم الألمان فاق ذاك الذي كانوا يخصون به الجاسوسية التقليدية.

تغير الوضع بصورة جذرية في هذا المجال أيضاً، بنشوب الحرب سنة

1939، بما أن الحملات الخاطفة كانت تؤدي إلى فتوحات جديدة، ومجال السيطرة الألمانية كان يتعاظم بصورة متزايدة حتى سنة 1942. لكن قوى المقاومة المعادية تعاظمت بدورها، وتزايدت معها أجهزة الإرسال غير الشرعية. لذلك غدت مكافحة اللاسلكي ضرورية وحتمية لحماية القوات المسلحة، بدءاً من سنة 1940، وتم اختراع سلاح مكافحة الحرب في الأثير، الذي عمل بثقة أكبر، بمرور الوقت، حسب الترسيمة الآتية:

1 ـ جهاز التنصت والرصد عن بعد، الذي كان عاما أول الأمر في القطاع المعني، ثم كان يتم توجيهه نحو أغراض محددة، حين كان يتم التعرف إلى محطة ما ويعين موقعها.

2 ـ تقويم المعارف المكتسبة في ما يتعلق بمكان الاتصال ونوعه.

3 ـ استخدام ميداني قريب يحدد بدقة موقع أجهزة الإرسال غير الشرعية.

4 ـ إبطالها بمشاركة الشرطة العسكرية السرية في الميدان، أو شرطة الدولة السرية في منطقة الرايش.

5 ـ تقويم نهائي لسائر المعلومات المكتسبة وإبلاغ شعبة المكافحة، أو شعب «الجيوش الأجنبية» في القيادة العليا للجيش، بها.

كان الرأي العام يعرف هذه المهام، الملموسة في تحقيقي فليكه، اللذين يصفان الحقيقة. «أتيحت إمكانات أخرى للعب من خلال الإمساك بعملاء لاسلكيين معادين وتحويلهم إلى عملاء لنا. وقد كان لمكافحة اللاسلكي إسهامها الكبير في ذلك، الذي يمكن قراءة نجاحاته والظواهر الرائعة التي رافقته في تقارير عيانية كتبها المستشار الجنائي شرايدر (من كتاب: تلك كانت لعبة إنجلترا، الذي راجعه المؤلف) والملازم أول جيسكه

(الجواسيس يخدعون الجواسيس)، تنصب على الغرب، حيث غدت السماء أكثر شفافية، كما يقال، بعد أن تبعت الهدنة هناك الحرب وانفردت القوات المسلحة الألمانية بالسيطرة.

كان الأمر خلاف ذلك على مسرح الحرب الشرقي، حيث كانت تضج المعارك، منذ 22 حزيران/يونيو 1941، ونما عدد أجهزة إرسال العملاء والمتعاطفين من شهر لآخر، في حين كانت شعبة المكافحة تفتقر إلى قوى كافية، وحدثت منذ سنة 1943 مشكلات غير قابلة للحل. من الواضح أن تزايد عدد أجهزة إرسال العملاء والمتعاطفين يرجع إلى مبادرة العماد بيرسبكين، الذي برز كاختصاصي مميز في اللاسلكي، وضع تحت تصرف هؤلاء كل ما كان ضروريا لعملهم، لأن ستالين كان يصغي إليه ويتفهم مطالبه ويلبيها. على النقيض مما كان يحدث في الغرب، سيطر العملاء الحمر أكثر فأكثر على الجبهة الشرقية، حتى ليمكن الحديث منذ سنة 1943 عن سيطرة لاسلكية سوفياتية، وإن اقتصرت، على كل حال، على المنطقة الواقعة وراء الخطوط الألمانية.

نورد في ما يأتي تقريراً عن مثال يبين ذلك من تاريخ الحرب[1].

3

في شباط/فبراير سنة 1942، وبعد نجاح حرب شتاء سنة 1941/1942، التي تعرض فيها الجيش الألماني لأول هزيمة، قامت قيادة الجيش الأحمر بمبادرات نشطة على جميع الجبهات. في هذا السياق، نجحت الاستخبارات العسكرية السوفياتية في تجنيد ضباط بولونيين كانوا قد نجوا من كارثة كاتين

(1) نتابع هنا تقرير فليكه: عملاء يبرقون نحو موسكو. كرويسلنجن 1954، الفصل الثامن «أركو» ص 203-214[70].

أو مروا بها، أعلن اثنان منهم هما المقدم السابق ستانيسلاف أرشيفسكي والملازم السابق جوزيف ماير، عن استعدادهما للعمل كمخبرين لموسكو في المناطق البولونية الواقعة وراء خطوط الألمان، بعد تلقيهما التدريب الملائم. تلقى هذان أمراً بتأسيس شبكة من العملاء هناك، وإرسال المعلومات التي يحصلون عليها إلى موسكو باللاسلكي. وكان الإمداد الألماني بواسطة النقل بالقطارات يحظى بالأولوية في اهتمام المدير، وكذلك النقل العسكري الإجمالي بالقطار في كلا الاتجاهين. أما خط الفصل العام بين قطاعي الاستطلاع الشمالي والجنوبي فكان يقع بين وارسو وأوريل، علما بأن القطاع الجنوبي أسند إلى «أركو»، الذي يخبرنا فليكه عنه ونتابع أقواله هنا حسب معناها[1]:

انطلقت ليلة الثاني عشر من شباط/فبراير سنة 1942 من مطار ليبسك قرب موسكو ـ وهو معروف من بعض قدماء الطيارين الألمان ـ طائرة نقل روسية، عبرت الخطوط الألمانية واتجهت نحو جوميل، ثم استدارت قرب ليكوف واتجهت نحو كالفاريانبيرج، حيث انفصلت عنها مظلتان غاصتا في الظلام العميق، قبل أن تهبطا قرب حظيرة نصف متداعية، دفن الرجلان مظلتيهما قربها، وقصدا بثياب البولونيين المحليين مدينة جارفولين الصغيرة القريبة، حيث انفصلا، فواصل أرشيسفسكي سفره بالقطار إلى وارسو، بينما اتخذ ماير أوتفوسك مقراً رئيساً له، ركز جهاز إرساله في منطقة مستنقعية قريبة منه، وسرعان ما شرع يستخدمه، بما أن قطار وارسو ـ لوبلين كان يخترق الموقعين. بعد برهة قصيرة، بدأت معلومات مهمة تصل إلى مركز القيادة في موسكو. لكن شعبة مكافحة اللاسلكي لم تبق دون فعل في هذه الأثناء، ففي الرابع عشر من كانون الأول/ديسمبر، بعد بدء عملها مباشرة،

(1) فليكه، ص 208.

تمكنت كتيبة التنصت الألمانية من كشف 15 محطة إرسال لاسلكي معادية شمال خط وارسو ـ أوريل، وها هي محطة جنوبية تضاف الآن إليها.

ساعدت الظروف الخاصة «بالحكومة العامة» ـ اسم بولونيا تحت الاحتلال الألماني ـ العميلين السوفياتيين، اللذين سرعان ما وجدا مخبرين ضليعين بين موظفي ومستخدمي وعمال السكك الحديد البولونية، وضعوا أنفسهم تحت تصرف إدارة سكك حديد الرايش الألمانية، التي رحبت بهم كخبراء متخصصين، بسبب افتقارها إلى كوادر للسكك الحديد، الذي كان يتعاظم بتعاظم امتداد المناطق المحتلة نحو الشرق. كانت المساعدة البولونية ضرورية في نقاط تقاطع ومحطات تحويل القطارات، وخاصة في لوبلين، وبراغا قرب وارسو، ورادوم، وبرزميسل، ولمبرغ، وبرست ليتوفسك، ولوكوف، حيث صار عدد من العمال عملاء للروس ومخبرين متحمسين للجيش الأحمر، رغم العداء لروسيا، الذي كان شائعاً آنذاك في بولونيا، ورغم ما كانوا يظهرونه من حمية حقيقية في خدمة الألمان، «ويبدونه من اجتهاد ودأب في مواجهة مستلزمات العمل، الذي طلب الألمان منهم القيام به، بمعونة آلاتهم ودفاتر ملاحظاتهم، وأدى إلى انتشارهم الدائم على خطوط السكك الحديد». كانت الأركان العامة الروسية تريد معرفة كل شيء حول عمليات النقل الألمانية.

وقد تلقت ما كانت تريده بمعونة أرشيسيفسكي وماير ومستخدمي السكك الحديد البولونيين المتحمسين، الذين أمكن توظيفهم من جديد، لسعادة الإدارة الألمانية. وبينما كان ماير يشغل جهاز إرساله قرب أوتفوسك، كان أرشيسفسكي يكمل بناء شبكة التقاط المعلومات الخاصة به. وما حلت سنة 1942، حتى كان لديه في كل نقطة تقاطع سكك حديد، وفي كل محطة تحويل وإدارة خطوط، رجلاً أو امرأة يقدمان له تقارير حول ما يجري.

24. الجنرال كِنِث سترونغ.

25. وليام ج. دونوفان.

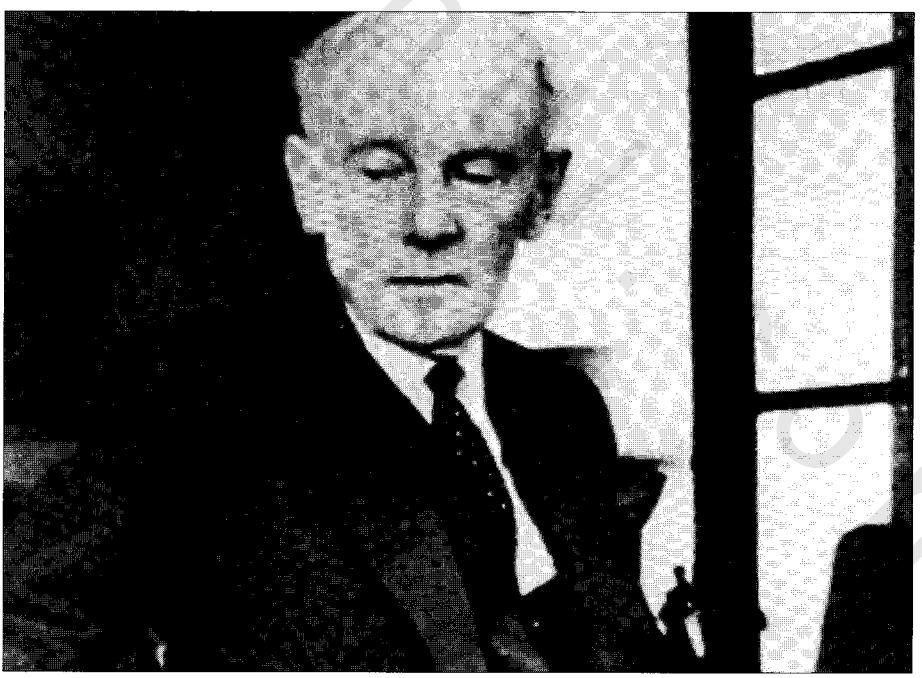

23. ستيوارد منزيس رئيس الاستخبارات السرية البريطانية من 1939 حتى 1951.

26. آلن دبليو. دلس.

28. ماكس فايبل.

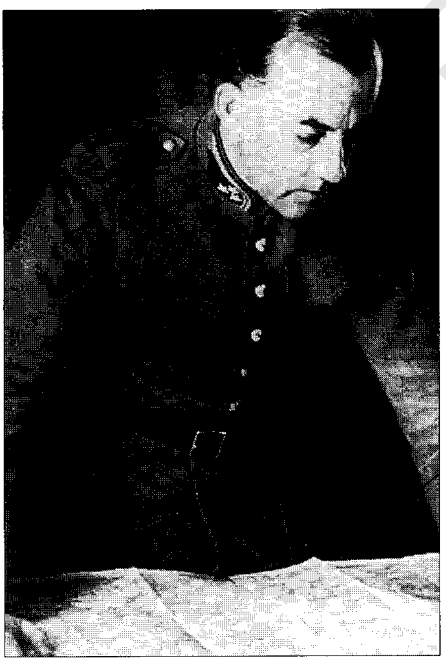

27. روجر ماسون.

obeikan.com

29. هانس هاوسمان.

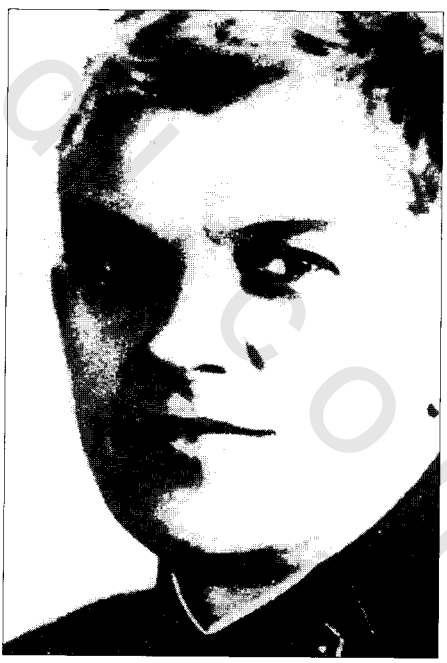

30. لافرنتخ بريجا.

31. جان برسين.

32. تشرشل في زيارة للقوات البريطانية على شاطىء القناة الانكليزية.

33. هتلر على الشاطىء الفرنسي للقناة، ربيع 1940.

بدأت عمليات النقل الألمانية تجري خلال هذه الفترة ضمن منطقة حشد خاركوف، حيث كان سينطلق هجوم كبير مطلع سنة 1942. طبيعي أن الألمان فعلوا كل ما يلزم لمنع العدو من معرفة أي شيء، فقد التزموا صمتا لاسلكيا صارما، غير انه لم يساعدهم كثيراً، لأن حركة قطارات النقل، التي كانت كثافتها تتزايد، كانت تجتاز بولونيا المحتلة، أي منطقة «الحكومة العامة»، كانت تعبر ليلا ونهارا كييف وتشيرنيجوف وكونوتوب في منطقة كريمينشوف وبولتافا وأختيركا، محملة بالقوات والدبابات والعربات والذخائر والمدافع والقواذف. ذلك أن الأمر كان يتعلق بحشد هائل ضم الجيش المدرع السادس، ومجموعة دبابات فون كلايست، والجيش السابع عشر مع وحدة سلوفاكية سريعة الحركة، والجيش الحادي عشر مع فوج فرسان وفوج جبلي رومانيين، وقد تجمعوا لشن الهجوم الكبير، الذي أريد به من جديد حسم الحرب في الشرق.

كانت الأركان العامة السوفياتية قد بدأت تعرف في هذه الأثناء بدقة وقائع هذا الحشد، بعد أن ركبت نظرة عامة شاملة من جمع الموزاييك الكثيرة، التي تكون منها، ووصلتها عن طريق مجموعة عملاء «أركو»، وأكملها الاستطلاع السوفياتي الجوي والبرقي وعلى الجبهة. عندئذ، حدثت مصادفة، فقد التقطت شعبة المكافحة الألمانية جهاز الإرسال، الذي كان يعمل جنوب بولونيا ويتصل مع موسكو، أعني جهاز «أركو». وتم بعد برهة رصده وتحديد موقعة بين غابات ومستنقعات منطقة أوتفوسك، ثم إبطاله وإلقاء القبض على قائدي العملاء: ماير وأرشيسفسكي، خلال غارة صاعقة. كانت الغنيمة ثمينة، لأن المفاجأة لم تترك لهما الوقت لإتلاف المستندات التي كانت بحوزتهما.

وصلت هذه المواد في الرابع من أيار/مايو سنة 1942 إلى قيادة ومركز

شعب التقويم في مكافحة اللاسلكي ببرلين. وتألفت من نصوص ما مجموعه 538 رسالة لاسلكية، لكن الغنيمة الأكثر أهمية كانت الرواية، التي استخدمت كمفتاح وزودها ماير بملاحظات دونها على هوامشها، فتم العثور معها على الشيفرة الرئيسة، التي فكت بمعونتها الرسائل اللاسلكية وترجمت، وكانت تحمل جميعها توقيع «أركو». لم يعرف أحد في البداية ماذا يجب أن يفعل بالمواد، التي تكونت أساسا من أرقام وأسماء أمكنة وكلمات تغطية، كان من الجلي أنه تم الاتفاق عليها مع المركز: ويشير وجودها إلى حنكة القيادة في المركز الموسكوفي. بيد أن العرض البياني ساعد هنا كما سبق له أن ساعد في حالات كثيرة أخرى، فقد تم، أول الأمر، رسم أسماء الأماكن المذكورة في البرقيات على خريطة ذات مقياس كبير، فاكتشف المرء أن جميع الأرقام تقع بين 0001 و 2400، أي أنها يمكن أن تكون نوعا من تقسيم الوقت إلى ساعات. بينما أشارت مجموعات الأعداد الثلاثية إلى نوع قطارات النقل وحمولتها. هكذا حلت الأحجية ببطء، وتبين أن البرقيات أبلغت المركز بجميع عمليات نقل القوات والذخيرة والتموين، التي كانت جارية على قدم وساق في القوات المسلحة الألمانية، وأن أركان الجيش الأحمر العامة كانت تمتلك صورة دقيقة عن حشد الهجوم الألماني الوشيك وقوته، وعن توقيته أيضاً، وأنها كانت في وضع مكنها من اتخاذ تدابيرها الضرورية المضادة.

في هذه الأثناء، قام مركز مكافحة اللاسلكي في ميدان كنيسة متى ببرلين بشيء آخر: فقد قارن نتائج «أركو» العامة مع مواد: «الحمر الثلاثة»، بقدر ما كان قد نجح حتى ذلك الوقت في حل شيفرتها، كما أدخل استفسارات المدير، الموجهة إلى «دورا» في التحليل، فتبين أن معلومات مراكز العملاء تكاملت أو كان يراد لها أن تتكامل. عندئذ، تم فهم سبب الأسئلة الرقابية المتكررة، التي وجهها المدير إلى دورا. لم يعد الأمر يتعلق هنا بجاسوسية من النمط القديم، بل ببحث متأن ومعرفة أكيدة حول العدو،

مارستهما الأركان العامة السوفياتية، مثلما مارسهما الألمان بدورهم.

كيف كان رد فعل القيادة العليا لقوات ألمانيا المسلحة؟. يكتب فليكه[1]، الذي تتبعنا تقريره في قسماته الكبرى، عن «الدهشة المربكة»، التي أثارها التقويم النهائي للمواد البولونية في مركز شعبة المكافحة الألماني، خاصة وأن العاملين هناك لم يكونوا يعرفون بعد الطرائق العلمية للعمل الاستخباري السري، فضلا عن أنه بدا وكأنهم لا يعرفون «الوضع الكبير» بالقدر الضروري، المتفق مع أهداف هذا العمل. هذا ما كان عليه الحال في ظل السرية المبالغ فيها لقوات ألمانيا المسلحة: ولو وقف من يقومون بالتقويم لدى مكافحة اللاسلكي الألمان مرة واحدة فقط أمام خريطة العدو، التي وضعتها شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، لربما كانت دهشتهم أشد، فهذه الخريطة كانت موضوعة على أساس الملاحظات والمستندات جميعها، بدءا بملاحظات مستندات الاستطلاع الجوي والبرقي الميداني. لكن تبادل المعلومات كان ممنوعا منعا باتا بالأمر رقم واحد، الذي أصدره الفوهرر يوم 10 كانون الثاني/يناير من سنة 1940، فلم تعرف اليد اليسرى ما تفعله اليد اليمنى، وخاصة في مجال الاستخبارات السرية. أما الرؤية العامة لوضع الحرب، فكان يجب أن تبقى حكرا على هتلر ودائرة ضيقة من قادة النظام النازي. هذه السياسة التي كانت تقطّع الحقيقة وتجزئها، لا زالت تفعل فعلها اليوم أيضاً، وتؤدي إلى أحكام خاطئة، غالباً ما يرتكبها المشاركون في الحرب.

كانت النتائج السلبية لهذه السياسة ظاهرة للعيان آنذاك، خلال عامي 1942 و 1943، كما هو جلي اليوم. من ذلك على سبيل المثال أنه حدثت مبالغة شديدة في مضمون رسائل جنيف ولوزان البرقية، التي تم التقاطها أو تمت المشاركة في قراءتها. لم يعرف المرء ببساطة، كم كان عدد المعلومات

(1) فليكه، مرجع سابق، ص 213.

الغائمة، نصف الحقيقية والمضللة، التي كان يتلقاها. ذلك أنه لم يصل إلى ميدان كنيسة متى في برلين غير الرسائل البرقية، بينما كان وضع العدو معروفا بالجملة لدى شعبة «الجيوش الأجنبية»، حيث صبت جميع المعارف، التي جمعتها سائر مصادر المعلومات. بدوره، كان مشروع «أركو» سيمد الشعبة بإشارة واضحة إلى نوايا السوفيات المحتملة، لو نظر إليه بارتباطه مع معلومات أخرى.

يستحق ظرف صاحب ظاهرة «أركو» أن نخصه بذكر خاص: اعترف الضابطان البولونيان السابقان أنهما تلقيا رأس مال من أجل إطلاق مشروعهما الكبير، اقتصر على ألفي دولار أميركي فقط. بالمقارنة مع الإنفاق المعروف في الاستخبارات السرية، كان هذا المبلغ تافها إلى أبعد حد، يفسره نفور البولونيين من المحتلين الألمان. هذا الظرف، أفاد منه قائدا العملاء كلاهما، اللذان كان بوسعهما ليس فقط العيش بنفقات محدودة وسط السكان البولونيين، بل الحصول في الوقت نفسه على آلاف المعلومات المتفرقة، التي لم تكلفهما غالباً أكثر من ثمن كأس شراب. لذلك، لا بد من الموافقة على ملاحظة فليكه، التي يقول فيها: «هنا انتقمت أمة لنفسها من حملة سنة 1939» - ومن سياسة الاحتلال النازية التالية لذلك، كما أود أن أضيف. لقد حذر الجيش والأركان العامة من هذه النتائج، واعترض عليها على سبيل المثال العماد بلاسكوفيتز، أول قائد عسكري في «الحكومة العامة»، في مذكرة حادة كتبها خريف سنة 1939، فما كان من هتلر، الذي كان يمنع مثل هذا التدخل من عساكره في قراراته السياسية، إلا أن أعفاه من منصبه. لكن الجندي الألماني شعر منذ سنة 1942 بالنتائج المخيفة وهي تضغط عليه بقوة متزايدة، رداً على ذلك، أطلقت شعبة «الجيوش الأجنبية» شعار «التحرير بدلاً من الاحتلال».

مهما يكن من أمر، فقد شهد يوم 12 أيار/ مايو من سنة 1942 الحدث

الذي كانت الشعبة قد تنبأت به: إنه الهجوم الوقائي، الذي شنه المارشال السوفياتي تيموشنكو ضد مجموعة جيش الجنوب بقيادة المارشال فون بوك. انقض السوفيات على القطاع الأوسط من الحشد الألماني غير المكتمل، الذي كان بوسع الأركان العامة السوفياتية متابعته بدقه نهاية نيسان/أبريل، بفضل معلومات «أركو». غير أن انقطاع سيل المعلومات في تلك اللحظة، ألحق ضررا فادحا بالمهاجم السوفياتي، كما تبين بعد ذلك مباشرة، إذ فشل الروس في تدمير الوحدات الهجومية الألمانية، قبل أن تبلغ قوتها الهجومية التامة، لأن الألمان كانوا أفضل خبرة وأكثر تجربة في الحرب، ولأن قيادتهم كانت أكثر مرونة ودهاء. صحيح أنه حدثت أول الأمر مشاكل على الجانب الألماني، لكن الوحدات السوفياتية الكبيرة، التي قامت بالاختراق ما لبثت أن قطعت عن غيرها، وطوقت وأبيدت، وتركت في ميدان المعركة حطام 1250 دبابة و1200 مدفع غنمها الألمان. وكانت مكافحة اللاسلكي الألمانية قد جففت في الوقت المناسب نبع «أركو» للمعلومات، فأسهمت بذلك في إقامة الشروط الاستخبارية اللازمة لنجاح الألمان الدفاعي. بالمقابل، لم يمكن القيام بالهجوم، الذي كان سيتم شنه في اتجاه الدون والفولغا، إلا في الرابع من تموز/يوليو سنة 1942، مما أضاع أسابيع ستة ثمينة من الطقس الجيد.

4

لم تبلغ المكافحة الألمانية كامل تطورها رغم إنجازاتها هذه، لأنها عانت، كما يقول تقرير وضعه ضابط مسؤول[1]، من تلازم وتداخل الوحدات، والمهام، ومراكز الخدمة، والدوائر، والرؤساء. لقد كانت تابعة من جهة لسلاح الإشارة، وتعمل بإمرة رئيس الاتصالات الاستخبارية في

(1) المخطوط بحوزة المؤلف.

القوات الألمانية المسلحة. بينما كانت تتولى، من جهة أخرى، مهام كبيرة في مجال مكافحة العملاء، وتقدم تقاريرها ومستنداتها إلى مكافحة الأميرال كاناريس وإلى شعبة «الجيوش الأجنبية»، التابعة لقيادة الجيش العليا. في حين كانت جهات أخرى تقوم بعمليات إبطال أجهزة إرسال العملاء، مع أنها تأسست بالأصل لدعم مجموعة مكافحة / الخارج في قيادة القوات المسلحة، غير أنها ألحقت لأسباب تقنية بالمجموعة الثالثة من شعبة مكافحة الأثير، التي كانت وبقيت مجموعة صغيرة، ومكتب تصنت وحسب تم «تنظيفه» بصورة متكررة، فبقي عاجزا عن مواجهة الأعباء الثقيلة، بالنظر إلى عدد أجهزة إرسال العملاء السريعة التزايد وراء الجبهات.

لم تبلغ المكافحة كامل قدرتها على العمل إلا مطلع سنة 1942، حين عينت لها برلين، أخيرا، رئيسا مختصا بالإحاطة والتقويم، أتبع بالقيادة العليا للقوات المسلحة / شعبة الاتصالات لدى الاستخبارات العسكرية / الشعبة الثالثة لاسلكي، مثلما نصت تسميتها الرسمية. مع ذلك، فإن العاشر من أيلول/ سبتمبر سنة 1940 كان يوم مولدها الحقيقي، المبكر، كما يجب القول، لأنه تم في هذا اليوم تعيين المقدم والمهندس هانس كوب قائدا لها. وكانت لديه معارف وخبرات ممتازة في الاتصالات، لكنه لم يكن رجل استخبارات سرية[71]. بسبب عزوف قائد الحرب الأعلى عن الاهتمام بها، تطلب «وقوف» مكافحة اللاسلكي على قدميها عاما آخر. وللعلم، كان لدى الجيش ساعة قيامها كتيبتي رصد لاسلكي، امتلكتا أول الأمر موقع رصد ثابتاً في الدنمارك. ثم قامت كتيبة ثالثة مطلع سنة 1942، جاءت في الربيع إلى الشرق واستخدمت في مكافحة أجهزة لاسلكي الأنصار. وكان لدى سلاح الجو أيضاً كتيبتا رصد لاسلكي، فضلا عن سرب من 9 طائرات ثم من 12 طائرة فيلزر شتروشه مزودة بأجهزة سبر. أما شرطة النظام ـ وكانت مكافحة اللاسلكي تعتمد على التعاون معها ـ فكانت تمتلك من جانبها 7 مواقع مسح

برقي وقوة سبر قتالي قريب. في حين نمت المواقع الخارجية للمكافحة اللاسلكية حتى سنة 1944 إلى ثمانية مواقع رصد عن بعد، وعشرة مواقع سبر عن بعد، و17 قطار مكافحة ميدانية عن قرب، توزعت على مجال السيطرة الألمانية بمجمله. حتى في بلغاريا ورومانيا، وسردينيا وصقلية كان هناك قطارات مكافحة ميدانية عن قرب، لأنه لم يكن بوسع المرء أن يعرف... أخيراً يقول التقرير، «... لإعطاء هذا الجهاز إطارا عسكريا ملائما يعزز العمل، ويضمن تدريب الأجيال التالية، ويغلق بعض الشيء على الأقل الثغرات التي تسبب بها «الأبطال المزعومون»، تم بداية سنة الحرب الأخيرة، بشيء من التأخير ودون أخذ شرطة النظام بالحسبان، تشكيل فوج رصد لاسلكي من ثلاث شعب (قائد الرصد اللاسلكي لدى قيادة القوات المسلحة العليا)». لم يكن كادر وتنظيم رصد اللاسلكي ومكافحته كافيين في أي وقت من الأوقات، مع أن مهامه نمت وغدت أكثر صعوبة .، فحمل على الدوام أعباء أكبر من قدرته. يقول التقرير الذي بين أيدينا: إنه عمل في مكافحة اللاسلكي حتى نهاية الحرب نحو ألفي ضابط وموظف وصف ضابط وجندي ومساعدة. وأن شرطة النظام كانت تؤدي مهامها بضعف هذا العدد من العاملين. لكن أجهزة الإرسال التي استخدمها العملاء في المناطق المحتلة أخذت حجما لم يكن بوسع أحد التفكير فيه سنة 1940. صحيح أنه أمكن إبطال 550 جهازا، لكنه كان هناك سنة 1943/ 44 خمسمئة جهاز آخر في مقابل هذه الأجهزة، أمكن كشفها وتحديد مواقعها. بينما بقي بلا عدد الكم المضاعف في أقل تقدير من مواقع لاسلكي العملاء الغامضة. هذا ليس كل شيء بعد، لقد كانت المواقع تشبه رؤوس الهيدا: كلما قضي على واحد منها، حل بعد حين إثنان محله. تلك كانت الحال في منطقة الحرب الشرقية خاصة، حيث أمكن سنة 1943 / 1944 رصد مواقع 140 مركز لاسلكي وراء الجبهة وتحديدها. بالمقابل، كان الأثير فوق الرايش خلواً من العدو، بعد

كشف الروته كابيله، مع أنه أبقي فيما بعد على الرصد المعزز، وخاصة في برلين، التي تم تمشيطها بأجهزة تحسس وبحث ميداني تعمل عن قرب، دون نتيجة. أخضع المرء أيضاً مقر الفوهرر الرئيس لرصد لاسلكي، بعد قراءة الرسائل البرقية، التي كانت تذهب من سويسرا إلى موسكو. هذا التدبير بدا ضروريا، لكنه بقي بدوره من دون نتيجة.

يكتب الجنرال براون في مذكراته[1]: «لا بد أن نلاحظ من جهة أخرى كيف أمكن لأخبار حميمة أن تنتقل منذ فترة طويلة خلال ساعات قليلة من مقر الفوهرر الرئيس إلى راديو الحلفاء في كاليه أو لوكسمبرج. لقد نشرت كتيبة رصد حول مقر الفوهرر الرئيس، استمع إلى مرسل سري، لكن هذا لم يأت بنتيجة». وقد قيل عندئذ إن عمال هواتف هتلر كانوا يصيخون السمع إلى محادثاته، أو أن بعض غير المخولين دخلوا على خطوطه. لذلك تم احتلال توصيلات هواتف مقر الفوهرر الرئيس بطريقة مباغتة، لكنه لم يتم العثور على شيء»[72].

ثمة إشارة أخرى ندين بها إلى براون، يجعلنا إمعان التفكير فيها نؤمن بصحتها: زعم مدير الرايش بورمان سنة 1944 أن اتصالاته البرقية الكتابية مع مدراء المحافظات ليست كافية، وطلب شبكة برقية خاصة به. لكن الجنرال براون كان يرفض وضع شبكة كهذه تحت تصرف المدنيين، بسبب الخطر الذي يمكن ان يترتب على إساءة استخدامها. إلى هذا، لم يكن الجيش يستطيع آنذاك الاستغناء عن الأجهزة البرقية أو الكادر الضروري لتشغيلها. عندئذ تدخلت البحرية الحربية ووضعت الشبكة البرقية المطلوبة بتصرف بورمان. كانت البحرية قد خزنت أجهزة لاسلكية للغواصات، وضعتها الآن في متناول من يرغبون فيها، لأن الغواصات لم تصنع أبدا. كما كان لديها

(1) براون، مرجع سابق، ص 224 وما يليها.

عمال لاسلكي بعثت بهم إلى ديوان الحزب وليس إلى الجيش، حيث كانت الحاجة إليهم ماسة أكثر. ليس معروفا ما إذا كانت قد تمت مراقبة أو رصد شبكة اللاسلكي لدى مدير الرايش، حيث نشأت بالتأكيد منطقة مظلمة.

5

لنعد مرة أخرى إلى مكافحة اللاسلكي المعادي، وخاصة نشاطها على الجبهة الشرقية. استخدمت كتيبة مراقبة اللاسلكي الثالثة ضد أجهزة لاسلكي الأنصار، فلماذا تكاثر هؤلاء إلى الدرجة التي كانت لهم؟. ولماذا بعثوا منذ مطلع سنة 1942 قدرا من الاضطراب في مناطق ما وراء الجبهة، وخاصة بالنسبة لمجموعة جيش الوسط، جعل التموين المنظم للوحدات أمرا غير مؤكد؟. كانت شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» تمتلك صورة دقيقة عما يحدث. وقد حذرت دوماً من المس بكرامة شعوب الشرق، لمعرفتها بما يمكن ان يترتب على ذلك، وإيمانها بسياسة تقوم على: التحرير لا الإخضاع، والتحالف لا الفتح. كان الجنرال كوسترينج، الملحق العسكري السابق في موسكو، يدعم هذا التوجه، الذي أكده فيما بعد شاهد غير متحيز هو الأميركي دالين، عندما وضع كتابا عن سياسة الاحتلال الألماني في روسيا[1]. لكن هتلر لم يكن يقبل التعلم، فكانت النتائج منذ سنة 1942 مؤذية بصورة متعاظمة: فقد تزايدت مقاومة الجيش الأحمر في «الحرب الوطنية»، وعزف شعب المنطاق المحتلة عن التعاون مع الألمان، وأسس عصابات مقاتلة قامت بفضل إعادة تجميع الجنود السوفيات، الذين كانوا قد تشتتوا خلال العمليات العسكرية، وخافوا الوقوع في الأسر الألماني، وطوروا تكتيك حرب أنصار خاص بهم، فهم في النهار مواطنون بسيطون، وفي

(1) دايفيد دالين: السيطرة الألمانية في روسيا 1941 ـ 1945، نيويورك 1958، بالألمانية، دوسلدورف 1958.

الليل مقاتلون وزارعو ألغام، يعيشون وفق نظرية ماوتسي تونج الشهيرة «كالسمك في الماء»، بين سكان يتحدثون لغتهم ويتعاطفون معهم. في هذه الأثناء، دخل المركز الموسكوفي على الخط، وزودهم بقادة مجربين ومبرقين مميزين، ألقى بهم وراء خط الجبهة بالمظلات وهم يحملون أجهزة لاسلكية خاصة، فزادوا بصورة مضطردة عدد عملاء اللاسلكي السوفيات وراء جبهة الألمان.

حدث الاستخدام الكثيف الأول لهؤلاء الراصدين، الذين كانت لهم عيون وآذان في كل مكان، منذ مطلع سنة 1942، في جنوب الجبهة الشرقية. بحسب نموذج سنة 1812، أغرت القيادة العليا السوفياتية المعتدين ـ وهي تبدي مقاومة متواصلة ضدهم كبدتهم خسائر فادحة ـ بالتوغل عميقا في أبعاد الشرق اللانهائية، باتجاه الفولغا والقوقاز، ليبتعدوا أكثر فأكثر عن قواعدهم التموينية. في هذه النظرية الكلاسيكية للحرب، كان يجب على الألمان أن ينهاروا تحت وطأة الجهود التي يبذلونها، فيصير من السهل دفعهم، عندئذ، إلى نهايتهم الحتمية. وبالفعل، تم هجوم السوفيات المعاكس، عندما بلغت قدرة الألمان على الهجوم ذروتها وبدأت تنقلب إلى إجهاد وضعف.

لم يكن السهب المفتوح جنوب الجبهة الشرقية ملائما لحرب الأنصار. بيد أنه كانت هناك طرق أخرى لإلحاق الأذى بالمعتدي. هكذا ترك في جميع النقاط المهمة من المناطق التي تم إخلاؤها عملاء يديرون أجهزة لاسلكي، بينهم خبراء متخصصون في التنصت والراديو، جمعوا معلومات عن المهاجم أوصلوها برقيا إلى المركز. استخدمت مكافحة اللاسلكي ضد هؤلاء أيضاً، ولاحقتهم عن كثب وتمكنت من رصدهم وتحديد مواقعهم. ولكن هل ساعد هذا، إذا كان قد تم كشف 90 جهاز إرسال وإبطاله سنة

1942، و169 سنة 1943 و 170 سنة 1944؟. وكانت مكافحة اللاسلكي غير قادرة على التدخل في أكثر من 1000 حالة تم رصدها، لأنها كانت تفتقر إلى القدرات الضرورية لذلك، وإلى وحدات الشرطة الضرورية للتدخل[73]. كانت الإمكانات تتناقص وتزداد ندرة في كل مكان منذ سنة 1943. ويتذكر المؤلف محادثات كثيرة محبطة حول هذا التناقص، جرت في دوائر قيادية كثيرة على الجبهة الشرقية.

ألقيت منذ سنة 1943 أعباء إضافية على كاهل مكافحة اللاسلكي الألمانية، بسبب ظهور ما سمي مجموعات الاستطلاع العملياتي في الجيش الأحمر، التي كانت وحدات خاصة بقوة 8 إلى 12 رجلا، تضم خبراء رصد مدربين يقودهم رجال لديهم مؤهلات مميزة. وقد أرسل هؤلاء عبر الجبهات الألمانية التي لم تعد مغطاة بصورة كثيفة بالقوات، ليرصدوا وراء خطوطها مخازن قطع التبديل، ومستودعات الذخيرة والتموين، وأوضاع الطرق، وتغطية المناطق بالقوات، وملاجئ الأركان العليا، ويخبروا قياداتهم مباشرة بذلك. إلى هذا، كان عليهم الإغارة على المراسلين في الطرق. ويذكر المؤلف أنه تمت في شباط/فبراير من سنة 1944 الإغارة عند حلول المساء على مراسل تابع للمقر الرئيس لمجموعة جيش الجنوب في كريفويروك، على بعد ستين كيلومتراً وراء الجبهة المتقدمة، وأنه خنق بسلك وسرقت حقيبته بما كان فيها من أوراق سرية[1]. هذه أيضاً كانت طريقة في الحصول على المعلومات. في منعطف سنة 1943/1944، رصد الألمان وراقبوا مجموعة استطلاع الرائد الروسي ناخمونوف طوال أشهر في منطقة فيتبسك وراء جبهة الجيش المدرع الألماني الثالث، دون أن يتمكنوا

(1) وضع تقرير حول هذه الواقعة اضطلع المؤلف عليه، بحكم نقله آنذاك إلى أركان قيادة مجموعة جيش الجنوب.

من إلقاء القبض عليها، مع أنهم كانوا يعرفون أنها بعثت بواسطة اللاسلكي معلومات لا حصر لها إلى الشرق، وأن محطاتها اللاسلكية كانت اليوم هنا وغدا هناك.

غير أن هذه «الصرعة الأخيرة» لاستطلاع الجيش السوفياتي الأرضي وراء الجبهة الألمانية، قدمت لشعب «الجيوش الأجنبية شرق» معارف مثيرة للاهتمام، وإن بطريقة غير مباشرة. ذلك أن تحديد مواقع اتصالاتها اللاسلكية كان يسمح، لدى مراقبتها بصورة منهجية، باستنتاجات بعيدة الأثر، كانت صحتها تتأكد في العادة: لقد كانت الاستخبارات الألمانية تستخلص من عملها إشارات أكيدة تدل على اتجاه ونقاط ثقل الهجوم السوفياتي التالي، وكانت أركان الجيش العامة تعرف ما سيحدث. وقد رسم راينهارد جيهلن في مذكراته[1] لوحة غنية عن عمل مجموعات المستطلعين السوفيات من 1/ 11وحتى 30/ 11/ 1944، وقارنها بمثيلتها في هجوم الشتاء السوفياتي من 1/ 11/ 1944 إلى 25/ 1/ 1945، حيث استخدمت من الشمال إلى الجنوب 15 مجموعة استطلاع على الجبهة الروسية البيضاء الثالثة، و8 على الجبهة الثانية و 19 على الجبهة الأولى، وأرسلت الجبهة الأوكرانية الأولى 19 مجموعة استطلاع والجبهة الرابعة 8 مجموعات أمامها، في اتجاه سلوفاكيا. بينما أرسلت أركان الجيش الأحمر العامة بدورها ما لا يقل عن 26 مجموعة استطلاع بعيداً وراء الخطوط الألمانية، وخاصة إلى منطقة سيليزيا العليا الصناعية، ومنطقة دانتسك، بعد أن كلفتها بمهام خاصة. هذا ما يقوله جيهلن. وكانت شعبته تمتلك حتى في المرحلة النهائية من الحرب معرفة مدهشة عن الاستخبارات السوفياتية، أسهمت مكافحة اللاسلكي بقسط وافر فيها، أقله على صعيد الرصد وتحديد المواقع.

(1) مرجع سابق، ص 90 وما يليها.

6

انطلق من مكافحة اللاسلكي في قيادة القوات المسلحة العليا تأثير غريب لاحق، استمر الشعور به إلى اليوم. ذلك أنه كانت تتم المبالغة كثيراً في قيمة الرسائل البرقية وأهميتها، التي كان يتم فك رموزها في مركزها، الذي كان يعتقد أنها تتضمن أسراراً عسكرية تخص أعلى مراتب القيادة، مثلما أكد مراراً وتكراراً الكساندر فوته، أحد مبرقي «الحمر الثلاثة» في سويسرا، في تحقيقه «مرجع مختصر للجاسوسية». هذه الخرافة انتقلت إلى أدبيات الجاسوسية، التي دارت حول «الروته كابيله» وشبكة ساندور رادوس. وقد سقط فليكه، الهاوي العسكري، ضحية لها، بل ان ضباط المكافحة أنفسهم اعتقدوا أن الرسائل تحتوي معلومات من الدرجة الأولى، على الرغم من أنها كانت غالباً تلخص مضامين أحاديث تجري في الكازينوات، تختلط فيها الحقيقة بالإشاعة اختلاطاً عشوائياً، لكنهم خدعوا بها في ميدان كنيسة متى ببرلين، واعتبروا مضمونها صحيحاً لا تشوبه شائبة.

في حوزتنا تقرير غير مطبوع يكشف خطأ هذا التقدير، ويقيم بكل جدية رابطة بين الخيانة الوطنية الناجمة عن الإهمال و«ثرثرات الكازينوات»، التي غالباً ما كانت مصدر معلومات غنيا في نظر مراكز الاستخبارات السويسرية، وبين 20 تموز/يوليو من سنة 1944، جاعلا من مرتكبي خيانة النظام خونه لبلدهم أيضاً !. وملمحا أيضاً إلى احتمال أن يكون الجنرال فيلجيبل وجنرال تيله على صلة بهذه الألاعيب، أو التزموا الصمت تجاهها[1]. هذه المصادر هي منبع الأسطورة التي زعمت أن رودولف روسلر، الذي كان مهاجرا في سويسرا، كان يتلقى بصورة مستمرة معلومات من «زملاء حرب قدماء». بهذه الطريقة كانوا يريدون إسقاط هتلر !. نحن

(1) مخطوط غير منشور كتبه ضابط سابق في مكافحة اللاسلكي. الأرشيف الخاص بالمؤلف.

نعلم اليوم أن روسلر كان على اتصال مع عدد من الجواسيس في ألمانيا، حتى بعد انهيار الفرع البرليني من «الروته كابيله»، لكن هؤلاء لم يكونوا ينتمون إلى الحلقة الداخلية من قيادة القوات المسلحة العليا، بل يجب البحث عنهم على أطرافها: في حلقات محرري مجلات الجيش وعمالها، التي كانت تصدر في برلين، حيث كان يوجد ثمة أصدقاء أو معارف قدماء له. من الممكن أن يكون هؤلاء قد أرسلوا معلوماتهم إلى كونستانس، حيث أوصلها عابرو الحدود السويسريون إلى روسلر[74]. هذا ما قاله رادو سنة 1945 للجاسوس الألماني هانس إيبللر، عندما كانا معا في معسكر اعتقال بريطاني قرب القاهرة[1]. بينما دلت تحريات أخرى أنه لا يمكن قبول الفرضية التي تزعم أن: فيرتر لم يكن شخصا حقيقيا[2]، وأن روسلر كان يتلقى معلوماته من المصادر السويسرية حصرا. تشير معارفنا الراهنة إلى أن روسلر تلقى معلومات من الدوائر المذكورة، كانت على كل حال متفاوتة إلى أبعد حد في قيمتها، ولم تكن أبدا من مصادر درجة أولى. أسهم الاستطلاع البرقي الألماني إسهاما عظيما في توضيح هذه «الحالة»، حين التقط وفك رموز القسم الأكبر من الرسائل البرقية المتبادلة بين سويسرا وموسكو. بذلك، بقيت مواد دراسية مهمة بانتظار تحليل نقدي لأنشطة الاستخبارات خلال الحرب العالمية الثانية، ما كان يمكن القيام به قبل صدور الجزء الثالث من تاريخ تنظيم الجيش الألماني سنة 1969 تحت عنوان حرب الجبهتين، بقلم بروكارت موللر -هيلدبراند، الذي قدم المستندات الضرورية عن تكوين جميع فرق الجيش وقتالها في الحرب العالمية الثانية. أما استطلاع الاستخبارات، فهو بالتأكيد أصعب المسائل وأكثرها استهلاكا

(1) خبر شفهي أبلغه إيبللر للمؤلف.

(2) فون شرام: الخيانة في الحرب العالمية الثانية، ص 173.

للوقت، التي يطرحها تاريخ الحرب على المؤرخ، لذا يتم تفاديها في الغالب، كأنه لم يوجد قط جمع سري للمعلومات والأخبار.

لم تقم بعد نهاية الحرب يوم 8/ 5/ 1945 قائمة لمكافحة اللاسلكي الألمانية. لقد عجزت عن تأدية خدمتها، بعد أن أضاعت تدريجيا مراكزها الخارجية، حتى لم يعد لديها بعد شباط/ فبراير 1945 مواقع صالحة للاستخدام، وصار من العبث أن تحدد في أشهر الحرب الأخيرة مواقع الأجهزة المعادية ومحطات العملاء البرقية، لأنه لم يكن بمستطاع الألمان مكافحتها. هكذا سقط الشراع، وانحلت المكافحة اللاسلكية يوم 30 نيسان/ أبريل 1945، فنقل قسم من منتسبيها إلى وحدات أخرى، وسرحت المساعدات العاملات لديها، ولم يبق لدى قائد سلاح الاستطلاع الاستخباري، العقيد بوتسل، أي إمكانية لاستخدام هذه الأداة الفائقة الأهمية بالنسبة إلى قيادة الجيش. بذلك، اختفت المكافحة من دون ضجيج من تاريخ الحرب الألماني، فكان اختفاؤها مصيرا لا تستحقه.

الفصل الخامس

ألاعيب اللاسلكي وخدعه

إمكانات وحدود

1

اتسم تاريخ الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية بكثرة تقلبه. إلا أنه لم يكتسب طابعه الخاص بفضل حالات التجسس الكبيرة، بغض النظر عن الاهتمام الذي يمكن لبعض تفاصيلها أن تثيره، بل بسبب العمل المتواصل لجمع الأخبار سرا من اتصالات العدو اللاسلكية، الذي بدأت به حقبة جديدة من عمل استخباري لا يتعلق بتفاصيل يتم تجسسها من حين لآخر، وتدور حول هذه الوثيقة الورقية أو تلك، بل انصب على امتلاك معرفة مستمرة حول قوى العدو جميعها ونواياها المحتملة. تحولت الحرب العالمية الثانية إلى أول حرب سرية شاملة في الأثير. أما الاستطلاع اللاسكي، التكتيكي أول الأمر، فقد انفتح على إمكانات جديدة جعلته قادرا على تكوين نقاط ثقل له في القطاعات المهددة، بينما تابع الاستطلاع العملياتي تفاصيل عمليات الحشد، المكرس للقيام بهجمات كبيرة، على سبيل المثال. في هذه الظروف، كان الصمت اللاسلكي كأداة مضادة يتحول إلى علامة تثير الشبهات. وعلى كل حال، كان العمل الاستخباري الموجه إلى العدو، يمكّن القوات المسلحة الألمانية من الأخذ باستراتيجية مرنة حتى في حرب

متعددة الجبهات، بفضل أداته الرئيسة، التي جسدها الحصول على الأخبار «من مصدر موثوق». غير أن الاستراتيجي الهاوي هتلر لم يكن كفوءا لهذه الفرصة، لافتقاره إلى معيار يقيس به ما يقبل التحقيق، وإلى ما يتفق معه من تأهيل عقلي. هكذا أخفق كقائد أعلى منذ سنة 1941 خاصة في التعرف إلى إمكانية الحصول على نظرة عامة إجمالية عن «الوضع الكبير»، والعمل في الوقت المناسب لملاقاة الأخطار الناجمة عنه، بفضل الاستخبارات المتخصصة بالعدو. حقق استطلاع الألمان اللاسلكي إنجازات متميزة، وأسهم في تخطي أزمات تكتيكية وعملياتية كثيرة على الجبهة الشرقية بصورة خاصة، وكان بوسعه ممارسة تأثير استراتيجي على مجرى الحرب، لو لم يحل موقف هتلر بينه وبين لعب دور كهذا.

رغم ذلك، تمكن الاستطلاع البرقي الألماني من تسجيل نجاحات كثيرة سنتي 1942/ 1943، لم تقتصر فقط على تحييد شبكات عملاء معادية، بل تجلت كذلك في اعتماد ألعاب (سجالات) لاسلكية مارسها طوال أشهر وسنوات كثيرة، دون أن يتمكن الجانب المعادي من اكتشاف ما كان يتعرض له من خداع، فبدا أن الألمان يحققون أعظم النجاحات في هذا المضمار، ولا يعانون فيه إلا من أقل قدر من الهزائم، بسبب جذرية تدابيرهم ودقتها. هنا وليس في الجاسوسية التقليدية، كان الألمان أساتذة. تستحق اثنتان من الخدع، او من مجموعات الخدع، اللاسلكية، أن تحظيا بإبراز خاص، لما نجم عنهما من نتائج بعيدة الأثر، كانت أولاهما ما سمي لعبة القطب الشمالي، التي بدأها مع لندن انطلاقا من هولندا وأدامها الرائد آنذاك جيسكه، العامل في مكافحة اللاسلكي، والمستشار الجنائي شرايدر، ثم ألعاب اللاسلكي المضادة، التي صدرت عن «الروته كابيله»، بعد أن تم تجنيدها لمصلحة الألمان، وكانت قد بدأت في فرنسا نهاية سنة 1942، وأمكن مواصلتها قرابة سنتين آخريين، بنتائج على أعلى قدر من الإيجابية

بالنسبة إلى القوات المسلحة الألمانية، أدت إلى إرباك شديد في خريطة موسكو عن العدو، أكده كم كبير من الرسائل البرقية، كما سنرى بعد قليل.

صارت معروفة مجريات ونجاحات لعبة القطب الشمالي و«الروته كابيله»، إذ أصدر المسهمان الرئيسان في اللعبة الأولى، جيسكه وشرايدر، قبل سنوات كتابين حولها. وكرس هاينس هونه عرضا مسهبا ودقيق المعالجة لد «روته كابيله»، يمكن متابعة تفاصيل الأحداث فيهما. لذلك سأكتفي هنا بتقديم ملخص عنهما: ألقي القبض في هولندا على مبرق قفز بالمظلة من أجل أن يلتحق بصفوف المقاومة الهولندية، قبل أن يبدأ البث اللاسلكي نحو إنجلترا. وقد نجح الألمان في إقناعه بالعمل لمصلحتهم، وجعلوه يطلب إرساليات دورية من الأسلحة والذخيرة والتموين، زعموا أنها مخصصة لحركة المقاومة الهولندية، لكنها نزلت جميعها في الأماكن المتفق عليها، حيث كانوا بانتظارها. هذه اللعبة، التي استمرت حتى فرار المبرق، أعاقت حرب الأنصار في هولندا، لكنها جنبت الهولنديين أعمال قمع لا ترحم، أمر الفوهرر القوات المسلحة والـ إس إس والبوليس السري باستخدامها ردا على المقاومة.

كانت حالة الـ«روته كابيله» أكثر درامية من ذلك بكثير. فقد نجحت مكافحة اللاسلكي الالمانية بالتعاون مع البوليس السري في تفكيك منظمة العملاء السوفيات هذه في الغرب بأسره، وقبضت على مبرقيها وصادرت أجهزتهم. غير أن هذا لم يكن هو الأمر الحاسم. فمثلما حدث بالنسبة للهولندي لاورس، تم هنا بالتتابع والتتالي القبض على من سمي الرئيس الصغير كنت وأتباعه في مرسيليا، وعلى الرئيس الكبير ليوبولد تريبر، المسمى جيلبرت، في باريس مع جمهرة من معاونيه. وكان قد قبض قبل ذلك في بلجيكا على المبرق يوهان فينسل، الملقب بـ«البروفيسور»، وأرغم

على البوح بما لديه. وأكد التحقيق نجاعة التعامل المليء بالإنسانية والأمل والتهديد، الذي طبق على من قبض عليهم. كمن التهديد في إخافة المعتقلين من تسليمهم إلى البوليس السري، الذي كان سيعني موتهم الأكيد. بينما كمن التغرير والأمل في إقناعهم بأنهم سينجون، وسيعيشون في شروط مريحة إن هم تعاونوا. وقد قبل بذلك أناس هامشيون، كما قبله كذلك من «الروته كابيله» في الغرب الرئيس الكبير تريبر، والرئيس الصغير فيكتور سوكولوف، الملقب بكنت، فضلا عن كثير من معاونيهما اليهود. ذلك كان الفصل الثاني من اللعبة. أما فصلها الثالث، فانطبع بطابع العمل المشترك مع المتعاونين الجدد في شروط تكاد تكون مريحة، حيث سكن رئيس «الروته كابيله» وأتباعه في فيللا في نويللي، عند الحد الغربي من باريس، كانوا يتحركون بحرية في حديقتها، ويتمتعون بنعم حياة مليئة بالامتيازات وسط الحرب، مثل السماح لهم بالذهاب إلى السينما بصحبة مرافقيهم. وقد تواصل بمساعدتهم الاتصال اللاسلكي مع موسكو، «بعد تشويش تقني» على الأجهزة الآمنة والخطوط الموجهة، واتخاذ الاحتياطات، التي تجعل من الصعب حدوث مشكلة، كإرسال تحذير إلى موسكو. كان على آمبلاتزر، خبير اللاسلكي في الشرطة السرية، أن يمنع أي عميل من وضع أصابعه على المبرقة، ويسهر على قيام مبرقين موثوقين بإرسال تلك الصور وحدها إلى موسكو، التي تفحص وتكتب بـ«الخط اليدوي» المناسب. هكذا وقع ما لا يصدق، فلم تشك موسكو في ما كان يجري، بينما كان يجري تشغيل ستة ثم خمسة أجهزة تحمل أسماء تغطية خاصة هي «سبنديانة»، «شوح»، «صفصافة»، «دغل ـ باسكال». بعد تصفية منظمة الجاسوسية الحمراء في فرنسا، تم استخدام لعبتين لاسلكيتين إضافيتين[1]، هما أيفيل واحد وأيفيل

(1) هونه: مرجع سابق، ص 255.

أثنان، جمعتا فيما بعد في لعبة لاسلكية واحدة هي مارس ـ ايفل، حيث مارس يعني مارسيليا، للإبقاء على وهم أن كنت كان يبعث برسائله منها، بينما كان قد أرسل منذ وقت طويل إلى باريس مرورا بشارع برنس ألبرت في برلين. في حين استخدمت حبيبته مارجريت باركسا كطعم[1]، قبل أن يعود إلى العيش مجددا معها في باريس.

في تشرين الأول سنة 1942 بدأ كنت ـ سوكولوف، ثم تريبر ويوهان فينسل يشاركان في اللعب اللاسلكية باعتبار أنها ألعاب مضادة يقوم بها الجانب الالماني. وقد بقي تريبر حتى فراره في 13 أيلول/ سبتمبر سنة 1943 أداة في يد المكافحة الألمانية، في حين بقي كنت ـ سوكوف كذلك حتى النهاية المرة، وكانا مسؤولين عن أرسال كميات هائلة من المواد التضليلية إلى موسكو. لو تصرف الرئيسان طبقا للايديولوجية الشيوعية، لكان عليهما قتل نفسيهما، بدل التعاون مع الالمان. لكن العملاء الحمر هم بدورهم بشر ويأملون بالحصول على فرصة تمكنهم من إنقاذ أنفسهم في النهاية. وقد نجح تريبر في إنقاذ نفسه. وكان الالمان قد لاحظوا أن المعاملة الحسنة تقود إلى الهدف أكثر من التهديد والابتزاز، وأنها مكنت فرقة اللاسلكي من مواصلة العزف لفترة طويلة على خمس آلات، كأنها لا تزال الـ«روته كابيله» القديمة عينها.

ترى، من أي شيء تتكون «مادة اللعب»؟. في الرسائل البرقية، التي بعث بها المدير من موسكو إلى رادو في سويسرا، وبقي لنا جزء منها، تتكرر دوماً عبارات معينة مثل «لدينا خبر» أو «راقبوا»، لأن موسكو أكثر تحفظا من أن تقبل معلومة دون أن تفحصها، وأكثر حذرا من أن تتخلى عن

(1) فليكه: روته كابيله، ص 341–376، وص 374. «واليوم (نهاية سنة 1942) تمارس سبع محطات الاتصال التضليلي مع المركز».

الرقابة المضادة. هكذا كانت تتوجه إلى رادو، كما سبق أن توجهت إلى مارس ـ ايفل، لمعرفة أشياء معينة منه، تحددها الرسالة رقم 28 بتاريخ 31 أيار/ مايو 1943، التي يطلب المدير فيها معلومات دقيقة حول ما إذا كانت قوات الاحتلال تعد لحرب غازات. «هل توجد مخزونات قنابل غاز في المطارات. إذا كان الجواب بنعم، ففي أي مطارات... أنقل إلي في أسرع وقت ممكن جميع المعلومات المتوفرة حول الغاز والمواد السامة».

كان ضابط شعبة الأركان الثالثة للقيادة العليا غرب في وضع صعب وحالة إضراب!. حتى إن القيادة في فرنسا كتبت إلى برلين حول ما يجري: «يذهب موقف القيادة العليا غرب إلى أن المحطة الرئيسة في موسكو تطرح منذ بعض الوقت قضايا من طبيعة عسكرية محددة، تجعل استمرار اللعبة اللاسلكية ممكنا وحسب، إذا ما أجيب عليها بطريقة محددة أيضاً، وإلا كشف المرسل الرئيس في موسكو اللعبة. غير أن أسبابا عسكرية كانت تمنع القائد الأعلى غرب من الإجابة ضمن صيغة مواد اللعب على الاسئلة المحددة التي تطرحها موسكو وتطلب فيها معطيات دقيقة حول أرقام الفرق وأسماء قادتها. وأصر القائد الأعلى غرب على وجهة النظر التي ترى أن الوضع العسكري في المنطقة الغربية يلغي مصلحة ألمانيا في تضليل المرسل الرئيس في موسكو».

بذلك ذوى مشروع «روته كابيله» بمرسله الرئيس مارس ـ ايفل، بعد فرار ترتيبر. لكن الألعاب مع المقاومة السرية الفرنسية تواصلت. وقد ترك كلاهما آثاره في الرسائل التي تلقاها رادو في سويسرا من المدير في موسكو. وهذا أحد أكثر الاكتشافات إثارة للاهتمام، فيما يتعلق بموضوع هذا الكتاب. إليكم فيما يلي أمثلة على ذلك:

1942 /10/20

إلى دورا

لدينا معلومة تقول إنه يتم تدريب جيش شتوي خاص من نصف مليون جندي في محافظة شتيتين / فرانكفورت على نهر الأدور. تأكدوا بالسرعة القصوى:

1 ـ إن كانت المعلومة صحيحة.

2 ـ إن كان هناك تمركز قوات في المناطق المذكورة.

3 ـ كيف سيكون هذا الجيس متراتبا من الناحية التنظيمية ؟

4 ـ أرقام الوحدات.

5 ـ عدد الجنود، لأن رقم 500000 يبدو مثيرا للشكوك.

التعليق: كان جيش الشتاء إشاعة هادفة نشرتها الاستخبارات. ومن الواضح أن خط مارس ـ ايفل تولى تعميمها «كمادة تضليل».

1942 /11 /26

إلى دورا

من الملح أن تراقبوا إن كان الألمان يعتزمون حقا سحب قوات نخبة من الجبهة الشرقية، وماذا يعنون بمصطلح «قوات نخبة». أي وحدات تنتمي إلى قوات النخبة، وماذا تعرفون عن تشكيل كتائب متطوعين؟.

التعليق:

كان يفهم بقوات النخبة: فرق الحرس المدرع المسمى «ألمانيا

العظمى»، وكانت تقاتل منذ أيار/ مايو 1942 في الشرق، ثم قوات الحرس الشخصي لأدولف هتلر، وقد نقلت في حزيران/ يونيو من سنة 1942 إلى فرنسا، وشاركت في هذه الأثناء في احتلال جنوب فرنسا، ثم فرقة الـ إس إس المسماة «الرايش»، التي استخدمت بطريقة مشابهة، وأخيراً فرق الـ إس إس المدرعة، المسماة «رأس الأموات»، وهي فرق ثلاث كانت قد جمعت في قيادة عامة خاصة بوحدات الـ إس إس المدرعة.

في 30/ 11 كلف المدير رادو بمهمة رقابية أخرى:

راقبوا وأبلغونا بسرعة إن كانت بعض القوات قد سحبت من الشرق إلى الغرب. إذا كانت قد سحبت، أبلغونا أرقام الوحدات وعددها.

يرجع التكليف التالي إلى «مادة تضليلية» على الأرجح:

13/ 12/ 1942

راقبوا فورا عبر مجموعة تايلور خبر جراو المهم حول وصول مفترض لجيش الجنرال فون فيتسليبن، مع عشر فرق تابعة لأركان جيش ميلانو، من فرنسا إلى شمال إيطاليا.

التعليق:

كان المارشال فون فيتسليبن قد ترك منصبه في شباط/ فبراير من سنة 1942 بسبب المرض. في هذه، وفي غيرها من المعلومات التضليلية، يبرز الميل إلى إعادة قادة الجيش الذين انتهت خدمتهم إلى دائرة الضوء، بعد تزويدهم بمراكز قيادية جديدة. هذا ما جرى أيضاً لجودريان.

بلغت لعبة «الروته كابيله» غرضها الرئيس في شتاء 1942/ 1943، عندما تمكنت من منع استطلاع فرنسا بطريقة منهجية، وحجبت الاحتياطيات التي كانت موجودة هناك، وشوشت صورة موسكو عن عدوها الغربي. هكذا بقي

نقل مجموعة الـ إس. إس. المدرعة، الوحدة ذات القدرات القتالية الخاصة، التي تضم الفرق الثلاث «الحرس» و«الرايش» و« رأسِ الأموات»، من الغرب إلى الشرق في كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير من سنة 1943، مجهولا، مع أنها قامت بالجهد الأكبر في الهجوم الدوري جنوب الجبهة الشرقية في شباط/ فبراير وآذار/ مارس من السنة نفسها. أما أن موسكو لم تحسب حساب هجوم كهذا، فيثبته تكليف يوم 6/ 2/ 1943 إلى رادو

إلى دورا

أطلبوا من لوسي معلومة ملحة حول ما إذا كان الألمان يخططون لشن هجوم مضاد في القطاع الجنوبي قرب ستالينو، وأين هي الآن المجموعة المدرعة الأولى.

التعليق: أثناء هذه الرسالة البرقية كانت الفرق الثلاث تتجمع، لتبدأ هجومها الدوري، الذي شنته يوم 14 آذار/ مارس من أجل استعادة خاركوف، وانتهى باستقرار الجبهة الألمانية يوم 20 من الشهر ذاته على الدونيز والميوس.

هل تلقى لوسي ـ روسلر مواد تضليلية أيضاً؟

ثمة مؤشرات محددة تبين أن واحدا من أجهزة الإرسال الخمسة، التي كانت تشغلها الـ«روته كابيله» المزورة، كان يمد مصادر روسلر الغربية بالمعلومات. بغير ذلك، يكون من المحال تفسير المعلومات المضللة الكثيرة، التي أوصلها في الأشهر الاولى من سنة 1943 خاصة إلى موسكو، والتي لم يحصل عليها من قيادة القوات المسلحة في برلين. إنها معلومات لافتة إلى درجة جعلتها تستدعي استفسارات في معظم الأحيان، وأدت في حالة معينة إلى تلقي توبيخ شبه رسمي من المدير. إذا ما نظرنا إلى معلومات روسلر من جهة مضمونها، استبعدنا ان يكون ضباط القيادة العليا للقوات

المسلحة السامين بين مخبري لوسي - روسلر الدوريين، الذي كانت لديه، على كل حال، مصادر معلومات متنوعة، ولو كان اكتفى بذكر «فيرتر» واحد فقط، كان في الحقيقة مجرد وهم، لم يوجد قط كشخص فرد وكمخبر، الأمر الذي يبدو أن معارف أخرى تؤكده[1]. مهما يكن من أمر، فإن تحليل رسائل المدير البرقية إلى دورا يصل إلى نتائج مثيرة للاهتمام. وهنا بعض أمثلتها الفاقعة:

1942/10/27

إلى دورا

1) من أي مصدر حصل تايلور على معلومته حول الجيش الالماني على الجبهة الشرقية؟. من أحاديث أم من وثائق؟.

2) تأكدوا إن كان جودريان موجود حقا على الجبهة الشرقية، وماذا إذا كان تحت إمرته جيشان أو ثلاثة.

3) هل سيصبح الجيش المدرع الرابع مجموعة جيش بإمرة يودل، وهل تنتمي أم ستنتمي إلى هذه المجموعة جيوش مدرعة أخرى؟. وما هي أرقامها؟.

4) أي طريقة في الترقيم تعتمد القيادة العليا للقوات المسلحة؟. نرجو إجابة سريعة.

المدير

(1) للمعلومات المنسوبة إلى «فيرتر» قيمة متباينة أشد التباين، تثير أحيانا الاستغراب، منها على سبيل المثال برقية يوم 6 تموز/يوليو سنة 1943 حول عملية «القلعة»: «لم تكن قيادة الجيش العليا راغبة في شن هجوم، فقد افترض الألمان أن الروس سيعزون الهجوم إليهم، ليتمكنوا من استغلال ذلك دعائيا لدى الجنود الالمان.

تشير هذه الأسئلة إلى سلسلة كاملة من معلومات خاطئة أوصلها إلى موسكو تايلور ـ شنايدر، الوسيط بين روسلر ـ لوسي وسيسي ـ رادو. طبيعي أنه لم يكن يستطيع أخذها من وثائق، بل من مداولات وأحاديث شفهية. ترى، هل تلقاها روسلر من المقاومة السرية الفرنسية، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة؟. إذا كان هذا قد حدث، فإنه يكون من ألاعيب الـ« روته كابيله المزورة». يؤيد ذلك أن العماد جودريان كان قد نقل في كانون الأول/ديسمبر 1941 إلى احتياطي الفوهرر، وأنه كان مغضوبا عليه نهاية سنة 1942، فلم يعد إلى العمل إلا في آذار/مارس من سنة 1943، حيث عين مفتشا عاما للقوات المدرعة. إلى هذا، كان الجيش الرابع المدرع في الوقت المذكور جزءا من مجموعة جيش (ب) في القاطع الجنوبي من الجبهة الشرقية[1]، وكان نحو نصفها مؤلفا من وحدات رومانية. ولم يكن ممكنا بأي حال أن توضع تحت إمرة يودل، لأنه كان رئيس أركان القوات المسلحة، ولم يمتلك يوما إمرة مباشرة على جيش أو مجموعة جيش.

تلمح رسالة يوم 9/ 12/ 1942 إلى أن عملية تطويق الجيش الألماني السادس قرب ستالينجراد قد انطلقت، فهي تعلن أن أهم مهمة في الفترة المقبلة هي متابعة الاحتياطي الألماني في عمق ألمانيا.

لكن هذا بالضبط هو ما حال دونه التضليل اللاسلكي، الذي مارسته الـ«روته كابيله» في الغرب. فقد تهربت عندما طرحت أسئلة محددة، مثلما حدث يوم 30/ 10/ 1942

من المدير

إلى دورا

(1) يوميات الحرب للقيادة العليا للقوات المسلحة (أركان قيادة القوات) ص 1385: «تنظيم الجيش الألماني 15/ 11/ 1942».

تأكدوا وأبلغونا بسرعة إن كانت قوات قد سحبت من الشرق إلى الغرب. إن كان الرد بنعم، أبلغونا أرقام الوحدات وأعدادها.

في اليوم ذاته:

تثيرالمعلومة حول مجموعة فايكس حديثة التشكيل بتركيبتها وعدم تحديد موقعها شكوكا جدية، خاصة وأن الوحدات المذكورة تقاتل على قطاعات أخرى من الجبهة الشرقية. لدينا مؤشرات تدل على أن مجموعة فايكس لا تزال على تركيبتها القديمة. افحصوا هذه المسألة مرة أخرى، وابعثوا الرد بأقصى سرعة ممكنة. من أين أتت هذه المعلومة؟.

لم يحفظ الرد، للأسف. وإن كان ممكنا قول ما يلي حول هذا الموضوع: كانت مجموعة فايكس هي مجموعة الجيش (ب)، التي انتمى إليها الجيشان 2 و 6 والجيش الرابع المدرع، وقائدها الأعلى العماد فرايهر فون فايكس. وهي التي حملت هجوم الألمان الصيفي إلى الدون ووصل جيشها السادس إلى الفولغا. من الجلي أن رادو نقل مادة تضليلية إلى المدير، لأنه كان يجهل طبيعتها.

يجب أن نقرأ رسالة 2/ 12/ 1942 بطريقة مشابهة. فقد نصت على:

شكرا لعرض المحاضرة. لكن توزع وتركيب المجموعة غرب بقيادة روندشتيدت، اللذين كانا قائمين يوم 25 تشرين الأول/ أكتوبر، لم يعودا راهنين. أرجو بإلحاح أن تتأكدوا وتخبرونا بسرعة عن:

1 ـ توزيع مجموعة الجيش غرب وتركيبها يوم 25 تشرين الثاني/ نوفمبر.

2 ـ توزيع جميع القوات التي وصلت إلى جنوب فرنسا.

3 ـ تركيب الفرق الموجودة وتوزيعها وأرقامها حاليا في ألمانيا والنمسا، وتلك الموجودة في البلقان، إن كنتم تستطيعون معرفة ذلك. بكلمات

أخرى: المهمة الكبيرة للفترة المقبلة هي: التأكد بدقة من الاحتياطي الألماني داخل ألمانيا.

يرجح أن تكون موسكو قد طلبت الشيء ذاته من الـ«روته كابيله»، وأن القيادة الألمانية عرفت ما كان عليها حجبه من كل بد. ويبدو أن مهمة 30/ 1/ 1943 تشير إلى معلومة مضللة أخرى بعث بها خط مارس ـ ايفل:

كلفوا مجموعة لوسي بالتأكد من دون إبطاء إن كان يوجد في القوات الألمانية المسلحة فرق مشاة تحمل الأرقام 326/ 334/ 347/ 343/ 65. وما إذا كانت قد نظمت من جديد، وأين ومنذ ومتى توجد حيث هي حاليا، وما إذا كانت فرقتا المشاة 196 و199 قد بقيتا في النرويج. لدينا معطيات حول قدوم هاتين الفرقتين إلى الجبهة الشرقية.

يذكر موللر ـ هيلبراند في كتاب الجيش 1933-1945، الجزء الثالث، حرب الجبهتين (فرانكفورت على نهر الماين 1969)، مواقع فرق المشاة على النحو الآتي[1]:

كانت فرقة المشاة 326 لا تزال في الغرب.

وفرقة المشاة 334 في شمال أفريقيا منذ كانون الثاني/ يناير 1943.

وفرقة المشاة 347 في الغرب

وفرقة المشاة 343 في الغرب (بريست)

وفرقة المشاة 65 في الغرب منذ تشكيلها سنة 1942، وانتقلت منذ آب/ أغسطس 1943 إلى الجنوب الغربي.

وكانت الفرقتان 196 و199 في النرويج. ويرجح أنه تم التصريح بأرقام

(1) المرجع ذاته.

هذه الفرق ذات القدرات القتالية المتباينة، إلى خط مارس ـ ايفل من أجل إعطاء الانطباع بوجود احتياطي قتالي كبير في الغرب.

تبرز الرسالة البرقية الآتية أن المعلومة التي تلقاها لوسي ـ روسلر من رجله في قيادة القوات المسلحة الألمانية العليا وأوصلها إلى موسكو، كانت تضليلية بدورها:

1943 /2 /5

تثير معلومة «فيرتر» حول تركيب مجموعة الجيش (أ) و (ب) تحفظات كبيرة. نسمح لكم بإبلاغ لوسي الملاحظة الآتية، وبمطالبتها بتوضيح سريع:

1 ـ يخبرنا «فيرتر» أن المجموعة (أ) بقيادة كويشلر تضم 25 او 24 فرقة. لكن معلوماتنا تقول إنها لا تضم أقل من 41 فرقة. فضلا عن أن فرق المشاة 33/ 44/ 117/ 243/ 543 والفرقة 19 المحمولة لا وجود لها في الجيش الألماني. كما لا وجود للفرق 83 و267 وفرقة المشاة المحمولة 25، ولا تنتمي الفرقتان المدرعتان 8 و12 إلى المجموعة (أ).

كانت معطيات المدير، التي ضمت فهرسا دقيقا حول الفرق الألمانية التي تم التعرف إليها، وحول استخدامها، إلى جانب خريطة وضع العدو، صحيحة إلى حد ما، لكن الحقيقة كانت أكثر تعقيدا من ذلك: فالفرقة 33 مشاة كانت قد تحولت سنة 1940 إلى فرقة مدرعة، وفرقة التحصين 41 اللاحقة لم تكن قد تشكلت بعد. أما الفرقة 117 مشاة فلم تكن موجودة، بينما تشكلت الفرقة 243 مشاة في صيف سنة 1943 في الغرب، وتشكلت فرقة الحرس 543 سنة 1944، وكانت الفرقة 19 المؤللة إعلانا كاذبا.

هذا كله كان مادة تضليلية نموذجية، بعضها صحيح تماماً وبعضها الآخر صحيح بطريقة جد مشروطة، أما الباقي فخطأ. كما لم يكن مصدره

«جهة موثوقة» أو دوائر متخصصة في قيادة القوات المسلحة العليا. والحق أن «فيرتر» يصبح محل شك، لأن هذه المعلومات تعزى إليه. أما أهليته كمخبر رئيس مزعوم فهي تواصل الاهتزاز في نص البرقية رقم 22 بتاريخ 6/ 2/ 1943، الذي يقول:

يخبرنا «فيرتر» أن المجموعة (ب) بقيادة كلوجه تضم 33 فرقة، لكننا نعلم علم اليقين أنها لا تضم أقل من 91 فرقة. كما نرى أن الفرق 12/ 61/ 161/ 162/ لم توجد مطلقا في عداد القوات المسلحة. ونعلم أن فرق المشاة 12/ 61/ 161و162 ليست من المجموعة (ب)، وتوجد في جبهات أخرى. على لوسي إخبارنا، بعد الأخذ بهذه التصحيحات، كيف أمكن أن يوجد هذا الفارق الكبير في تقدير عدد الفرق في المجموعة (أ) و (ب).

ربما كان الأمر ينصب هنا على نص فاسد جزئيا، خاصة وأن الحقيقة كانت على النحو الآتي:

كانت الفرقة 12 مشاة من ملاك مجموعة الجيش وسط.

وكانت الفرقة 61 مشاة من مجموعة الجيش شمال.

وكانت الفرقة 161 في الغرب خلال الفترة المذكورة.

وكانت الفرقة 162 في الشرق.

وكانت مجموعة الجيش وسط تضم يوم 1/ 1/ 1943 أكثر من 80 لواء ومجموعات ألوية، أي أن وحداتها الكبيرة كانت أقل من العدد الذي افترضته موسكو. وقد أكد الاستفسار بصورة قاطعة أنه لم يكن لدى «فيرتر» مخبر رئيس في قيادة القوات المسلحة العليا، وإلا لكانت معلوماته أفضل.

حدود التضليل اللاسلكي

لكل تضليل لاسلكي مضاد حدوده. إنه ليس مشروطا فقط بفرار المتعاونين كفنتزل وتريبر، اللذين اختفيا ببساطة من دون أن يقوما بتحذير موكلهما السابق، بل كذلك بتكاثر المعلومات، التي يأتي بها استمرار الحرب لفترة طويلة، لمصلحة الجهة المتفوقة خاصة، مثلما حدث مع السوفيات الروس بعد فشل «القلعة» صيف 1943. إلى هذا، ليس بوسع التضليل أو اللعب اللاسلكي الصمود لأمد طويل امام أسرى راغبين في قول ما لديهم، ينتمون إلى فرق مختلفة تنتشر على قطاعات مختلفة من الجبهة، ووثائق ملائمة يتم غنمها، لا سيما وأن اللعب اللاسلكية تفتضح عاجلا أم آجلا، متى توفرت مستندات صحيحة.

استمر لفترة طويلة القيام بألعاب لاسلكية «غير دقيقة» في الغرب. وقد بقي لنا واحد من أمثلتها الأخيرة، حدث يوم 6/ 4/ 1944، ويعد دليلا على محاولة بث الاضطراب في صورة الخصم عن عدوه، ومواجهته بمشكلات جديدة. هنا أيضاً، تعلق الأمر بخليط من معلومات صحيحة، ونصف صحيحة، ومبالغ بها وخاطئة، منها، على سبيل المثال، أنه لم يوجد قط لواء مدرع يحمل الرقم 79، وان إحدى الكتائب الجبلية في البيرنيه اعتبرت لواء جديداً. كما بذلت محاولات لتحقيق أهداف مشابهة من خلال مؤثرات تضليلية واتصالات برقية، كاستخدام بيارق القيادة للإيحاء بوجود وحدات كبيرة، لكن قيادة الغرب العليا لم تعول كثيراً على محاولات تضليلية كهذه، لأن الخصم كان يعرف الحقيقة بسرعة، ما إن يحدث «احتكاك بينه وبين عدوه». بلغ إجمالي اللعب اللاسلكية المستخدمة نحو 160 لعبة، كان النجاح الذي تحقق بواسطتها لا يني يتناقص. في سنوات الحرب الأخيرة، غدت اللعب ضربا من رياضة لاسلكية بالنسبة لمكتب أمن الرايش الرئيس، المكتب العسكري، أي لمكتب المكافحة السابقة. أما شعبة «الجيوش الأجنبية

شرق»، فاتخذت منذ وقت طويل موقفا يتسم بالريبة تجاه الألعاب، لأن قدرتها على تضليل العدو كانت تتضاءل باستمرار، مع تزايد قدراته الرقابية، بفضل الأسرى والفارين والوثائق المغتنمة. لذلك يدعو بلاغ رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، اللواء جيهلن، الذي وجه يوم 14 آذار/ مارس سنة 1945 إلى قائد سلاح الجو، شعبة قيادة الاستخبارات، حرفيا إلى القيام بمهمة استطلاع جوي، تتعلق بلعبة لاسلكية جديدة انطلقت من موقع برسبورج، تطالب بتحديد مواقع المطارات في منطقتها ونوعية القوات المرابطة حاليا فيها، هدفها «إيصال أقل ما يمكن من مواد محايدة إلى الاستخبارات السوفياتية». أما السبب، فهو توفر قدرة سوفياتية واسعة في هذا القاطع بالذات على التأكد من صحة المواد الملعوبة، بواسطة عملائهم الكثر وعصاباتهم الكثيرة، وكذلك السكان المدنيين.

إنهار التضليل اللاسلكي انهيارا تاما في سنوات الحرب الأخيرة. وكان قد تم تخطي خط الفصل بين التضليل والخداع. لئن كان المرء في السابق يستخدم التضليل في مواضيع تتعلق بوضع الاحتياطي العملياتي أو قوة مجموعات الجيش، لدفع العدو إلى اتخاذ قرارات خاطئة، فإنه شرع الآن يقوم بمحاولات يائسة بهذا القدر أو ذاك للتظاهر بوجود قوة أو استعداد دفاعي، حيث لم يكونا متوفرين منذ وقت طويل، أو كانتا تتناقصان يوميا. هذا هو السياق، الذي يجب أن نفهم فيه توجيه القيادة العليا لمجموعة جيش فايكسل، بتوقيع رئيس أركان الجيش لامردينغ، وقائد مجموعة الـ إس إس وعميد سلاح الـ إس. إس، الصادر يوم 28/ 2/ 1945، حول ضرورة أن يثير التضليل اللاسلكي المضاد الانطباع بوصول إمدادات وفيرة والانتهاء من بناء خط دفاعي عميق. لكن هذه الخدع بواسطة ألاعيب لاسلكية مضادة كانت قد فقدت منذ وقت طويل تأثيرها على قرارات المهاجم المفرط التفوق، وعلى سير القوات المسلحة الألمانية نحو كارثة لا يمكن وقفها.

6

هتلر والاستخبارات السرية

هتلر والجاسوسية
عملية شريط الفضة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

هتلر والجاسوسية

امتلك هتلر حاسة خاصة تجاه الاستخبارات، ولكن في صورتها كجاسوسية. إن ما أثار خياله دوما، لم يكن المعرفة الموضوعية حول العدو، بل مغامرة الحصول على المعلومات السرية. هذا العامل هو الذي حدد علاقته بكاناريس: الشخصية الكتومة، التي عرفت كيف تربط خيوطا سرية في كل مكان، وتركت انطباعا إيجابيا واضحا عليه، في سنوات السلام الأخيرة وسنوات الحرب الأولى. لقد كان الأميرال يتنقل بصورة دائمة، ملاحقا المهام الاستخبارية، وهاربا من ذاته، كما تؤكد مرغريت بوفيري[1]. في الأصل، اعتقد هتلر أن رئيس مكافحته قادر على فعل أشياء كثيرة، كأن ينظم في العالم بأسره انتفاضات لمصلحة الألمان. وحين لم يحدث شيء من ذلك، تكدرت علاقاتهما أكثر فأكثر.

وكان واضحا مع بداية حملة روسيا أن كاناريس فقد ثقة هتلر، الذي لم يستقبله إلا في حالات استثنائية قليلة. لكنه دأب على القيام بزيارات روتينية إلى الفيلد مارشال كايتل، رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة، كي يتلو تقريره الرسمي على مسامعه. يقول فالتر فارليمونت[2]: «كانت زيارات

---

(1) أنظر مقطع كاناريس في كتاب مارغريت بوفيري: الخيانة في القرن العشرين. الجزء الثاني، ص43 وما يليها حول كاناريس.

(2) في مذكراته / في المقر الرئيس للقوات المسلحة الألمانية، الملاحظة في الصفحة 191.

رئيس الشعبة في وكر الذئب» تقتصر على رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة، الذي كان يحافظ بدوره على الصلة مع الدوائر التابعة له، ويسافر أيضاً إلى برلين. كان كاناريس يأتي بصورة دورية تقريبا بصحبة رؤساء شعبه الثلاث، «كي يفرغ ما في قلبه» كما كان يقول غالباً، دون أن يصل الأمر مع ذلك إلى ما هو أكثر من محادثة تدار بالتلميحات حول هموم الجانبين». بالمناسبة، يقول هيلجروبر عن كاناريس في كتابه «استراتيجية هتلر، سياسته وقيادته للحرب 1940/ 1941: [1] «بعكس التقويم المتفائل لقيادة القوات المسلحة العليا حول إمكانية إنهاء حملة الشرق بسرعة، كان الأميرال كاناريس يتبنى رؤية متشائمة حيالها. هذا ما تتفق عليه جميع المذكرات، لكنه لا توجد، بالمقابل، مصادر تثبت أن تقويمه كان يصل إلى هتلر».

نشأت التناقضات بين هتلر وكاناريس منذ بداية الحرب سنة 1939، ونجمت عن تصورات مختلفة لمفاهيم أخلاقية رئيسة، ولأنماط السلوك في الميدان. إذا كان المؤلف قد عرف الحقيقة من محادثاته خلال الأسر[2] مع الجنرال فون لاوسن، فهو يستطيع أن يؤكد أن الخلافات برزت لأول مرة عندما طرحت فكرة استخدام بذات عسكرية معادية في هجمات الألمان، وكان هتلر مهووسا بها، في حين اعترض كاناريس عليها بأكثر التحفظات جدية، ولم يقبلها في النهاية إلا نزولا عند أمر عسكري، طلب إلى الشعبة الثانية من المكافحة تأمين البذات الضرورية[75]. ثم افتتحت الحرب العالمية الثانية بمسرحية شبه قاتلة، فكانت علامة سوء ميزت انطلاقها.

لا زال ما حدث في ذاكرة الناس: فقد ارتدى رجال مشبوهون يتحدثون اللغة البولونية ثياب الجيش البولوني، التي تم الحصول عليها

(1) مرجع سابق، ملاحظة على الصفحة 511.

(2) تم استجواب لاوسن كشاهد في محاكمة نورنبرج، وزج به بعد ذلك لبعض الوقت في معسكر التوقيف المسمى «بيت ألاسكا».

بطريقة غير شرعية، وقاموا باعتداء كاذب على إذاعة جلايفتز، اعتبره هتلر ذريعة برر بها أمره بـ«الرد على إطلاق النار» في الأول من أيلول/ سبتمبر سنة 1939. وكان قد حدث في السادس والعشرين من شهر آب هجوم مشابه تم في ظروف تضليل اتسمت بأحط أنواع الخداع، لكنه فشل فبقي الناس أقل معرفة به من حدث أيلول/ سبتمبر اللاحق. ذلك كان التدبير الهجومي الأول من الجانب الألماني، الذي لم ينجم عن استفزاز، لكن البولونيين نسبوه فيما بعد إلى «ألمان بولونيا المناصرين لهتلر»، الذين تجرع كثيرون منهم كأس الندم المر، حين انصب الغضب الشعبي البولوني عليهم بعد الواقعة، وبدأ التصعيد العنيف.

ما الذي حدث[1]؟. من المعروف أن هتلر كان قد أصدر أمرا بالهجوم على بولونيا يوم 26 آب/ أغسطس سنة 1939، فكان على الجيوش الالمانية، المنضوية في مجموعتي جيش، أن تعبر فجر صبيحة هذا اليوم الحدود بين بحر الشرق وبيسكيدن. لكن السفير البريطاني هندرسون تدخل قبل ظهر يوم 25، فأمرت القوات بالتريث مرة أخرى لإعطاء السياسة فرصة أخيرة. كان هتلر مجبرا على قبول العرض البريطاني، لحفظ ماء وجهه أمام الرأي العام الدولي. لكنه نشأ، آنذاك، وضع خطير بالنسبة إلى سلاح الإشارة الالماني، خاصة واتصالات القوات لم تكن قد بلغت بعد الكمال الذي صارت عليه في الحقبة التالية، وألفت التعاون في ما بينها، نتيجة لافتقار وحدات الإشارة إلى تدريبات عامة. فهل كان ممكنا، في وضع كهذا، إيصال الأمر بالتريث إلى كل مكان؟.

في هذه اللحظة الحرجة، ظهرت جدارة الجنرال فيلجيبل، رئيس

(1) كان المؤلف آنذاك جزءا من أركان قيادة الاستخبارات في قيادة الجيش الرابع عشر (العماد ليست)، وعلم بالأحداث من مصادرها الأولى.

اتصالات قوات الرايش المسلحة وإشارة الجيش، الذي أمسك بزمام القيادة بهدوء الواثق من نفسه، وحقق بطريقته ما كان «خبراء» كثيرون يعتقدون أنه غير قابل للتحقيق: إيقاف القوات حيث كانت مرة أخرى. وقد وصل الأمر بذلك قبل منتصف الليل حتى إلى الشعب المتقدمة، فكان وصوله دليلا بيّن المستوى التدريبي الرفيع لوحدات سلاح الإشارة، الذي ما لبث أن ظهر في سائر المجالات الأخرى أيضاً. ثمة حالة واحدة فقط أخفق فيها هذا الجهد، وفشلت الإشارة في إيصال أمر التريث إلى مجموعة قتالية ذات مهام خاصة، فانتهكت السلام يوم 26 آب/ أغسطس سنة 1939. هذه المجموعة، التي بلغ كثيرها خمسين رجلا، وقادها ملازم ثان اسمه هيرتسنر، كانت مكلفة بشن هجوم لاحتلال نفق ممر يابولانكه واستخدامه في نقل القوات الألمانية. كانت المجموعة تتكون بصورة رئيسة من بولونيين أو ألمان ناطقين بالبولونية. وقد اجتازت في سرية تامة الحدود السلوفاكية / البولونية ليلة 26 آب/ أغسطس. وكان الملازم هيرتسنر يحمل جهازا لاسلكيا، يؤمن ارتباطه مع اللواء السابع (البافاري)، المستعد للهجوم انطلاقا من منطقة شمال سيليزيا. لكن الجهاز لم يعمل في المنطقة الكثيفة الغابات، ولم يمكن الوصول إلى مجموعة هيرتسنر أو إيقاف هجومها، فبدأت في عتمة الصباح حربها ضد بولونيا واحتلت ممر يابولانكا والنفق، كما احتلت بعد معركة نارية قصيرة، محطة قطار موستي الحدودية الواقعة إلى الشمال من الممر، وأسرت جنود قطار نقل كان موجودا فيها. أما العمال البولونيون، الذين أرادوا السفر إلى عملهم في منطقة اوسلا، فقد احتجزوا دون إبطاء في مستودع للتجهيزات.

ماذا حدث بعد هذا؟. لم يتحرك اللواء السابع، الذي كان يجب أن يقوم بالهجوم، فبدا هيرتسنر ورجاله الخمسون وكأنهم معلقون في الهواء، بينما تزايد اضطراب الأسرى. تذكر القوم، عندئذ، هاتف محطة القطار،

الذي كان يعمل لحسن الحظ، فتم بعد بعض الوقت الاتصال مع محطة قطارات كاديا السلوفاكية الحدودية، ومنها مع أول ضابط أركان من اللواء السابع، الرائد رايشلت، الذي أمر الملازم هيرتسنر ورجاله بانسحاب فوري وغير ملحوظ قدر المستطاع. فيما بعد، نسف البولونيون نفق يابولانكا، وإن اقتصر النسف على أحد مداخله[76]. ترتبت نتيجة مأسوية على هذه العملية، إذ توجه البولونيون بغضبهم إلى مواطنيهم من ذوي الاصل الألماني، بسبب انتهاك السلام، الذي اعتبروهم مسؤولين عنه.

اهتم هتلر باستخبارات المكافحة أكثر مما اهتم بعمليات الكوماندو والتخريب وما شابه من مغامرات، وأصغى باستمتاع إلى قصصها على هامش قيادة الحرب. وكان يغرق في الضحك، عندما كانت تروى له. لكنه كان سرعان ما يدعو إلى صرامة باترة، عندما يعلمونه بوقوع أعمال تجسس في ألمانيا، كما يستشف من أحاديث المائدة، حيث حكى يوم 17 أيار/ مايو 1942[1]، على عكس مألوفه، بإعجاب صريح عن الجاسوسية السوفياتية، التي اعتبرها «متفوقة تماما»، وساعدتها التنظيمات الشيوعية الأممية على إظهار نفسها ببراعة لا حد لها، بما هي موضوع من موضوعات النظرة الشيوعية إلى العالم. ماذا كان تقويم هتلر لد «مكافحة»؟. إنه لم يفصح عن آرائه حيالها، لكن نقده كان مبثوثا بين الأسطر، حين قال «إننا لم نكن جاهزين تماماً لسلاح المدرعات الروسي»، لأننا لم نعرف شيئاً عن دبابة ت34 الروسية الجديدة، التي كانت مفاجأة غير سارة على الإطلاق بالنسبة إلى المهاجمين الألمان، الذين لم تكن قوات بلادهم قد تزودت جميعها سنة 1941/ 1942 بالمدافع القادرة على مكافحة تصفيحها القوي، وافتقروا إلى سلاح بوسعه مقاتلتها غير مدفع ال 8،8 المضاد للطائرات.

(1) هنري بيكر: أحاديث هتلر على المائدة، ص 351.

قام هتلر يوم الثاني والعشرين من أيار/مايو بجولة في سوسيولوجيا الجاسوسية، وقال[1]: ثمة اليوم مجموعتان من البشر، يمكن أن تشاركا في الجاسوسية: ما يسمى «المجتمع المنعم» ومجتمع البروليتاريا. أما الطبقة الوسطى فلديها تصورات راسخة حول الجاسوسية. فإذا أراد المرء مكافحة الجاسوسية بفاعلية، كان عليه التصرف بكيفية تقنع من يمارس التجسس بأنه لن ينجو بجلده، إن إلقي القبض عليه. هذا ما فعلته جميع الدول الشمولية، بل ان سويسرا المحايدة نفذت خلال الحرب أحكام إعدام بتهمة الجاسوسية. عاد هتلر مرة أخرى يوم 7 حزيران/يونيو إلى هذا الموضوع، عند تناول طعام الغداء في «وكر الذئب». وقال إنه أوضح لجونتر[2]، وزير العدل في الرايش، مرة واحدة وألى الأبد أن قراره الذي لا تراجع عنه هو إرسال مجموعات من الـ إس إس لإحضار كل خائن لبلده، تصدر عليه المحاكم النظامية حكما مخففا، وإعدامه، لأن خيانة البلاد جريمة فكرية يجب معاقبة مرتكبها بالموت، بغض النظر عن الضرر الذي تسبب به. بهذه المرارة الوحشية، تصرف هتلر مدفوعا بعقدة «الخيانة العظمى» بعد العشرين من تموز/يوليو سنة 1944، وفي الحالات التي لم تقترف فيها خيانة عظمى، أو يتأكد اشتراك مباشر فيها، بل اقتصر الأمر على العلم بمحاولة اقترافها. وقد أصابت تدابيره وكالة أنباء العدو وسلاح الإشارة، أكثر مما نزلت بـ«المكافحة»، وسقط كثير من قادتهما بين يدي الجلاد، على رأسهم الجنرال فيلجيبل.

(1) المرجع ذاته، ص 371.
(2) المرجع ذاته، ص 392.

معرفة الجيش الأحمر كانت سنة 1941 هزيلة

لماذا انخرط هتلر في مغامرة هي الحملة على روسيا؟. لماذا اعتقد أن النظام البلشفي سينهار تحت الضربات الشديدة الأولى لقوات ألمانيا المسلحة؟. لعب نقص المعلومات حول القدرات السوفياتية دوره هنا، فقد كانت المعلومات السرية عن الجيش الأحمر، التي امتلكها الألمان عند بدء الحرب، هزيلة جدا، كما سبق لنا القول[1]. وباستثناء الصورة العامة حول النمو المتواصل للاتحاد السوفياتي، التي قدمها الملحق العسكري الجنرال كوسترينج، لم ينجح الألمان في الحصول على معلومات واضحة حول قدرة وتنظيم قوات السوفيات المسلحة وإمكاناتهم التسليحية[77]، في حين شابت التناقضات ما استطاعت المكافحة تدبيره من مستندات، ولم تحصل شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» أول الأمر إلا على معلومات قليلة «موثوقة المصدر»، استقتها من الاستطلاع اللاسلكي. بدورها، نشرت الاستخبارات العسكرية السوفياتية قبل الهجوم الألماني أخبارا موجهة، تعمدت تقديم قوة الاتحاد السوفياتي الحربية في صورة جعلتها أكثر ضعفا وتأخرا مما كانت عليه في الواقع، بدا أن هزال نجاحات السوفيات في حرب الشتاء ضد فنلندا سنة 1939 / 1940 يؤكدها، قد تكون استهانة هتلر بالجيش الأحمر راجعة إليها[78]. صحيح أنه كان يمتلك انطباعا إيجابيا عن الجاسوسية السوفياتية وأساليبها، وتحدث معظم الأحيان بإيجابية عن ستالين، وبشيء من حب يخالطه الكره، لكنه اعتقد أن البلشفية سريعة العطب، وعرف كيف ينقل قناعته إلى المشاركين في مناقشات الوضع، وهذا يبين كم كان تأثيره كبيراً آنذاك، حتى إن القائد الأعلى للجيش، المارشال براشيتش،

(1) معلومة شخصية من العقيد السابق تيودور هاينريش، ضابط الأركان الثالث لدى قيادة الجيش العليا والمدير اللاحق لشعبة المكافحة الثالثة.

وصف يوم 1/ 5/ 1941 مجرى عملية «باربروسا» على النحو الآتي: «سيكون هناك على الأرجح معارك حدودية عنيفة، ستستمر حتى أربعة أسابيع، ثم ستشهد الفترة اللاحقة مقاومة ضعيفة وحسب». أما تقويمه الجندي السوفياتي، فكان على النحو الآتي: «سيقاتل الروسي حتى النفس الأخير، حيث يكون ظهره إلى الحائط». أكد هذا التعميم خطأ النبوءتين. كان الألمان يمتلكون آنذاك مستندات قليلة يستطيعون انطلاقا منها تأسيس حكم معلل، ويفتقرون إلى جهاز الاستخبارات القادر على جمعها. إلى هذا، ما كان لوفرة المعلومات أن تحدث التأثير المطلوب لدى هتلر، أو لتغير قراره. أما هو، فلم يتردد ربما إلا عند إعلان الحرب ضد الولايات المتحدة الأميركية يوم 11 كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1941، عندما رفض الاستماع إلى ما كان ينتظره. يروي الجنرال كوسترينج القصة الآتية[1]: «كان ملحقو الأسلحة الألمان يستدعون مرة في العام إلى برلين لتلقي توجيهات ناظمة لعملهم اللاحق. وكانت ذروة هذا اللقاء دعوة إلى الغداء على مائدة هتلر في رئاسة وزارة الرايش، يقتصر حضورها على الملحقين العسكريين. هنا، كان هتلر ينفرد بالحديث ويقدم أفكاره السياسية... وكنت أجلس إلى جانبه، بصفتي أقدم ملحق عسكري، من دون أن يكترث بي على الإطلاق. لقد كان يوجه حديثه إلى الملحقين الآخرين، غير أنه وجه إلي سنة 1936 السؤال الآتي: أليست خدمتك في روسيا رهيبة، أيها السيد الجنرال؟. فأجبته بأنني أحظى بمعاملة لائقة وودية إلى أبعد حد من الروس. هذه الإجابة لم تمثل بالنسبة له حافزا يدفعه إلى تعميق السؤال، بل تخطاها وعاد إلى توجيه كلامه إلينا جميعا». يتفق الشهود جميعهم على أن هتلر كان قليل الاهتمام بجمع معلومات موضوعية من الآخرين، وأنه لا

(1) أندرياس هيلجروبر: استراتيجية هتلر: السياسة وقيادة الحرب 1939-1941، ص 509.

يقيم وزنا إلا لحكمه المبني على حدسه الخاص. هذه المبالغة في تقدير الذات، التي انتقلت إلى محيطه، تفسر مسودة التوجيه رقم 32 استعدادات لزمن ما بعد باربروسا[1]، التي بقيت دون توقيع، لكنها كتبت بطلب منه، وتبدأ بالجمل الآتية: «سوف تسيطر ألمانيا وإيطاليا سيطرة عسكرية تامة على البر الأوروبي - دون شبه الجزيرة الأيبيرية بصورة مؤقته، بعد تحطيم القوات المسلحة السوفياتية. عندئذ، لن يكون هناك أي تهديد أرضي من أي نوع كان للمجال الأوروبي، وستكفي لحمايته ولشن العمليات الهجومية، التي يجب أخذها بالاعتبار، قوة من الجيش أقل بصورة جوهرية من القوى التي حافظت عليه حتى الآن. لهذا السبب، ستنتقل نقطة ثقل التسليح إلى البحرية وسلاح الجو».

هتلر والحدس

كيف وصل الأمر إلى هذا التشخيص المغلوط المفعم بالغرور؟. كيف أمكن أن تصل الأمور إلى هذا الحد؟. إن أحد أسبابه الرئيسة، التي لعبت دورا بالنسبة إلى أركان القوات المسلحة أيضاً، كانت نقص المعرفة بالعدو. فالاستخبارات السرية لم تكن تعرف إلا القليل عن الجيش الأحمر، وكان هذا القليل متناقضا، بينما كانت شعبة الجيوش الأجنبية شرق: تتخبط آنذاك في الظلام[79]، فلم يبق غير عامل واحد حسم الأمور هو: حدس الآمر الأعلى وسيد الحرب. وقد اقتنع الجنرالات والمارشالات، الذين كانوا ميالين في السابق إلى الشك في قدرات القائد الأعلى، بامتلاكه قدرات خارقة تجعله يرى الأمور بصورة صحيحة في نهاية الأمر، وأشير في محادثات لا عدد لها جرت قبل الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو سنة 1941 في دوائر

(1) فالتر هوباتش: توجيهات هتلر حول قيادة الحرب 1939 -1945. فرانكفورت على الماين 1962، ص 129 وما يليها.

القيادة العليا، إلى ما حدث قبل حملة الغرب[1]، عندما كان القوم متشائمين سنة 1939 / 1940، وأبدى جميع من شاركوا في الحرب العالمية الأولى من دون أي استثناء تحفظات قوية ضد الهجوم، وحذروا من القدرة القتالية للجيش الفرنسي ومن شجاعة البوالو، حين يتعلق الأمر بمصير فرنسا، ومن وطنية الفرنسيين المتأججة. وقالوا إن الهجوم الألماني سيخمد بسرعة، والألمان سيهزمون بعد تكبدهم خسائر عبثية. لكن هتلر أصر على هجومه، الذي تم تأجيله المرة تلو الأخرى، حتى إن هالدر ومقربين منه فكروا في نهاية سنة 1939 بإزاحة هذا «المريض بالهذيان». ثم تبين بعد العاشر من أيار/مايو سنة 1940 أن هتلر انفرد وحده بتقويم صحيح للفرنسيين، وأنه كان وحده الأب الروحي للحرب الخاطفة في الغرب. فيما بعد، نشأت عن هذه الخبرة تلك الأسطورة، التي قيض لها أن تقود الألمان إلى الهلاك. منذ حملة الغرب، سمى «منافقو البلاط» والصحافة النازية العريف السابق «أعظم قائد حربي عرفته العصور».

كان هتلر مقتنعا بعبقريته الاستراتيجية، بعد الانتصارات الخاطفة الأخرى واحتلال كريت من الجو. لكنه سقط في الحقيقة ضحية للغرور، باعتقاده أنه لا يوجد ما لا يستطيع الجندي الألماني القيام به، تحت قيادته طبعا. بسبب هذا الغرور، قرر إخضاع الاتحاد السوفياتي أيضاً، وضرورة أن يعقب الانتصار في الغرب انتصار أكبر في الشرق، لتصبح أوروبا بأسرها رعية له. لكن أسابيع قليلة بعد بدء حملة الشرق كانت كافية لإثبات أن حدس القائد الأعلى لم يكن غير مغامرة خاطئة مثيرة للقلق. عندئذ بدأت الاستخبارات المتخصصة بالعدو عملها، بدءا من ضابط شعبة الأركان الثالثة

(1) كان المؤلف قد نقل منذ مطلع حزيران/مايو 1941 إلى أركان قيادة الاستخبارات لدى قيادة الجيش السابع عشر العليا في الشرق.

في الفرق صعودا إلى استخبارات الجيوش ومجموعات الجيوش، لتنتهي أخيراً بالتقويم التالي الذي قدمته شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»: تكتسب نقاط قوة وضعف الجيش الأحمر معالم محددة. لقد عرف الألمان الآن العدو وقدراته الحربية على حقيقتها[80].

عرف الألمان أسرار العدو بمساعدة الجنود الذين أداروا ظهورهم لجيشه الأحمر - وهي ظاهرة غير مسبوقة في تاريخ الحرب -. إن «الاحتكاك بالعدو» لم يمزق فقط الستار السميك المضروب حول الاتحاد السوفياتي، بل كشف كذلك هشاشة النظام السوفياتي، التي كانت موجودة حقا آنذاك. مع ذلك، فإن قوى وعوامل كثيرة مجهولة كانت تعمل لمصلحته، كان على الاستخبارات المتخصصة بالعدو أن تفسرها بصورة دائمة، وتفسر معها وضع العدو، الذي يقوم بمفاجآت متجددة على الدوام. هكذا كان على الاستخبارات الألمانية أن تنهمك في عمل دائب منذ بداية الحرب، لتقوّم اعترافات الأسرى والفارين الروس، وتغربل الوثائق المكتوبة التي غنمتها. أما الصورة الشاملة التي نجمت عن ذلك، فكانت مثيرة للقلق، فقد أكدت أن القيادة السوفياتية لن تركع في وقت قريب، رغم الهزائم الشديدة التي نزلت بها. هذا الجرد الأولي تم إيصاله إلى «فوق» طبعا، فبدا هتلر نفسه متأثرا به لبعض الوقت، خلال خريف سنة 1941، حتى إنه أخبر لوشيانو، وزير خارجية إيطاليا ما معناه: لو كنت أعرف الحقائق، لما بدأت الحرب ضد روسيا. مع ذلك، فإنه لم يستخلص أبدا النتائج التي كان يجب استخلاصها من ذلك. في تقرير لم ينشر بعد كتبه العقيد راندیفیج[1] حول إنجازات الاستطلاع اللاسلكي على الجبهة الشرقية، يقول الكاتب: «انفرد القائد الأعلى للقوات المسلحة وللجيش برفض هذا الاعتراف، رغم الهزائم

(1) مخطوط في حوزة المؤلف.

التي نزلت بنا أمام موسكو وفي ستالينجراد وأفريقيا، نتيجة تقويمه الخاطئ للعدو، وتشكيكه في صحة تقارير الاستطلاع الاستخباري، التي توصلت إلى استنتاجات متزايدة الوضوح، ارتكزت على مستندات موثوقة تتعلق بتفوق قوة العدو وأهدافه العملياتية، بعد الإنزال في فرنسا سنة 1944 في الغرب، وقبل فترة طويلة من هجوم بارانوف في كانون الثاني/يناير من سنة 1945 من الشرق. بل ان الأمر وصل سنة 1944/ 1945 إلى حد أنه كان يرفض ما يسميه نمط التقارير ذات اللون الواحد، في كل مرة كان رئيس الأركان العامة أو رئيس شعبة «الجيوش الاجنبية شرق» ينقلان إليه أنباء مزعجة كهذه».

فقد هتلر صوابه قبل الكارثة بوقت طويل، أي بعد الهزائم الأولى، كما يخبرنا تقرير راندیفیج. لقد جاءته من جديد مواد «من مصادر موثوقة» تبين قوة السوفيات المتنامية، وتتحدث عن عملياتهم المحتملة، وتحدد أرقام إنتاجهم المتزايد باضطراد من الدبابات والمدافع، لكن هذا لم يترك أي أثر لديه، بل دفعه إلى القول، كما كتب راندیفیج: «إنني أرفض أن تقوم الأركان العامة بعمل كهذا. إن معرفة نوايا العدو واستخلاص نتائجها بالنسبة إلى القيادة هما عملان يقدر عليهما العباقرة وحدهم. والعبقري لن يرضى أبدا بعمل يدوي صغير من هذا النوع». هذا الموقف يؤكده فالتر فارليمونت، نائب رئيس أركان قيادة القوات المسلحة الألمانية خلال الحرب، عندما يقول عن هتلر[1]: «كان يكتفي من الأفكار حول العدو بما كان يرضيه، وكان غالباً ما يرفض ـ أيضاً ـ حتى مجرد الاستماع إلى ما لا يعجبه. وكان المكان والزمان لا يعنيان بالنسبة إليه غير مفهومين غائمين، من غير الجائز أن يعترضا طريق إرادة تعي أهدافها». هذا التصور تبناه أيضاً كايتل، الذي كان يميل كقائد أعلى للقوات المسلحة إلى الحديث عن «مناورات تضليلية»

(1) فارليمونت: مرجع سابق، ص 256.

و«ألاعيب لاسلكية»، حين كانت اتصالات الجيش البرقية تستمع إلى الاتصالات اللاسلكية للوحدات السوفياتية الكبيرة، أو كانت تحدد مواقع تجمعات قوى ضخمة. في هذه الحالات، كان «فوق» يعلن ببساطة أن الفرق ليست غير أفواج. بينما كان هتلر يرفض تصديق المعلومات حول تزايد التفوق العسكري السوفياتي وتعاظم خطره. ولأنه كان يرفض الاستماع إلى تشخيص وتحذير استخباراته المتخصصة بالعدو وتحذيراتها، فإنه كان يمتنع عن إصدار أوامر باتخاذ التدابير المضادة الضرورية، وهكذا تتابعت الهزائم منذ سنة 1943 الواحدة تلو الأخرى، إلى أن وقعت الكارثة العسكرية والسياسية الشاملة. إن الضرورة المطلقة، بل والحق التاريخي في الدفاع الشرعي ضد من أصابه الغرور والعمى، كما حاول الأمير شتاوفنبرج ممارسته يوم 20 تموز/يوليو سنة 1944 (يوم محاولة اغتيال هتلر بقنبلة وضعت تحت طاولته، نجا منها بأعجوبة ـ المعرب) يبدو في ضوء أشد سطوعا بفضل هذه المحاولة: إذ لم يكن أمرا قليل الأهمية أن جميع المشاركين في المؤامرة كانوا ينتمون إلى الحلقة الداخلية من قيادة القوات المسلحة العليا والقيادة العليا للجيش، ويعرفون ما يكفي من معلومات دقيقة حول وضع ألمانيا الحقيقي والحرج. هذه العتمة العقلية من جانب، والنشوة المصطنعة من جانب آخر، التي زادت منها مخدرات الطبيب الخاص المشبوه دكتور موريل، صعدت سلوك هتلر وحولته في النهاية إلى جنون بمعنى الكلمة الحرفي، قاد الرايش إلى الهاوية.

استقبل هتلر رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، رجل القرار في الاستخبارات المتخصصة بالعدو، أربع مرات فقط بين سنتي 1942 و1945[1]، فلم تتح له الفرصة لشرح تقاريره السرية ومصادرها الموثوقة غير

(1) جيهلن، مرجع سابق، ص 61.

هذه المرات الأربع، التي قوبل خلالها بالشك والرفض، وأخيراً بالغضب. وقد «طرده» هتلر من منصبه يوم 9 نيسان/ أبريل من سنة 1945، بعدما وصف إشارته إلى الهجوم العام الوشيك على برلين «بالغبية تماما». لم تعرف الحرب العالمية الثانية قائدا أعلى وصلته معلومات سرية أفضل من تلك التي وصلت إلى القائد الأعلى للقوات الألمانية المسلحة، وجمعت القسم الأكبر منها مصادر من الدرجة الأولى، كانت تعمل في مراكز قيادة العدو، فلا يجوز أن نتجاهل ما كان بوسع قائد حرب حقيقي فعله بمعلومات كهذه[81]. كانت قيادة الحرب ولا تزال فنا يتطلب موهبة خلاقة، ترى تصورات الألمان أنها يجب أن تقوم على أرضية علمية، وتخضع لاختبار العقل ورقابته. هذا الموروث داسه هتلر بقدميه.

لم تستخدم الاستخبارات المتخصصة بالعدو الجاسوسية إلا في حالات خاصة، لأنها أثبتت منذ سنة 1941 جدارتها وتميزها في الشرق قبل كل شيء. من ذلك أنه وصلت يومي 4/ 12/ 1942 و 21/ 2/ 1943 أنباء مهمة من موسكو، جمعها الاستطلاع المضاد، تسمح بمعرفة نوايا الروس حول مجريات الحرب اللاحقة[82]. نجحت الاستخبارات المتخصصة بالعدو، عموما، في تطوير نظام محكم من الطرق المساعدة، يعرف كيف يلتقط الإشارات ويقومها بذكاء. حدث هذا بفضل لائحة الخدمة المسماة الاستخبارات المتخصصة بالعدو، التي أوعز هالدر بها، فظهرت في الوقت الملائم وشرفت هذا الرأس العلمي، بأن أكدت قبل كل شيء على ضرورة أن تبقى الاستخبارات بمنأى عن الآراء المسبقة، وتفحص بدقة مضمون جميع المعلومات التي تصلها، وتستخدم كل أمكانية من إمكانات الإعلام لجمع المعلومات عن العدو أو لفحص المعارف المتوفرة حوله وتعميقها. وقد حددت اللائحة فرص الاستطلاع اللاسلكي البعيد في المجالين التكتيكي والعملياتي، وكذلك الفرص الأخرى، التي توزعت بين الاستطلاع الجوي

والبري مرورا باستنطاق الأسرى وصولا إلى الخطة الإجمالية لاستطلاع الحرب، الذي يشمل المسائل الآتية:

الحشد
قيادة العمليات
التنظيم الحربي
التسليح
الإجراءات القتالية
القيمة القتالية
نظام النقل وإمداد الجيش الميداني
نظام تعويض الخسائر

وأدرجت في عداد الأوراق التي يجب الحصول عليها، لأهميتها بالنسبة للعمل التركيبي الذي تنجزه الاستخبارات المتخصصة بالعدو: الأوامر، والوثائق، والخرائط، والتوجيهات، والمسودات، والرسائل، وبطاقات البريد، ودفاتر الملاحظات، واليوميات، ودفاتر الحسابات، والصور الضوئية، وأشرطة الأفلام، وأشرطة التلغرافات، والمفاتيح السرية، وكتب الإشارة، والأسماء السرية، وعلامات النداء.

هذه المواد، وقعت بكميات هائلة حتى سنة 1943 في أيدي الألمان في الشرق. وقد انصرف مئات المترجمين والمتخصصين في شؤون العدو إلى غربلتها وتقويمها، كما تعاملوا مع معارف وصلتهم من الاستطلاع اللاسلكي وجزئيا من شعبة التنصت، التي كانت مكلفة بتقويم المخابرات الهاتفية التي تم الاستماع إليها. بذلك يستطيع المرء القول: إنه تم اختراق جميع أسرار الجيش الأحمر على وجه التقريب، وكذلك أسرار التسليح السوفياتي اللاحق ولكن هذا حدث بعد بدء الحرب سنة 1941. كما تم الاعتراف أيضاً برغبة

ملايين كثيرة من الرعايا السوفيات في التحرر، من خلال مفاوضات تضع نهاية سياسية للحرب في الشرق[1]. وكان أمرا مفهوما أن يأتي تصور التحرير السياسي من شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» في قيادة الجيش العليا، التي كان العاملون فيها الجهة الأكثر انهماما بهذه المسألة، التي استمعت إلى أكثر الأصوات تنوعا حولها. وقفت الشعبة كذلك وراء عملية «الشريط الفضي»، التي كان يراد لها أن تكون الخطوة الأولى نحو تراض سياسي متبادل. لكنه كان على الألمان إخفاء قصدهم هذا، بسبب مقاومة هتلر، الذي كانت أهدافه مختلفة كل الاختلاف عن ذلك.

(1) انظر شتريكفيلد شتريك: ضد ستالين وهتلر، الجنرال فلاسوف وحركة الحرية الروسية، الطبعة الثانية، ماينز 1970.

obeikandl.com

الفصل الثاني

عملية الشريط الفضي

هل كان من الضروري أن تقود حرب الشرق إلى كارثة؟. ألم يكن بإمكان العقل تدارك العبث العسكري والفجور السياسي، ولو في وقت متأخر؟. ثمة ما يدفعنا إلى الافتراض بأن هذه الأسئلة طرحت أول الأمر على العاملين في الاستخبارات المتخصصة بالعدو، الذين عرفوا نقاط ضعف النظام السوفياتي ونقاط قوة الروس في آن معا، وكفلت الموضوعية ما نقلوه وقوّموه من أنباء ومعلومات، وكانت ضمانة عملهم الآن أيضاً، وهم يحاولون القيام بخطوة أخرى، واستخلاص النتائج العملية لنشاط استخباراتهم المتخصصة بالعدو، الذي يجب أن نراه من زاوية الموضوعية في الشرق أيضاً، حيث لعبت لحظة نفسية مهمة دور حاملها هنا، وتجسدت في ما يأتي: من يتعامل لفترة طويلة ومكثفة مع العدو، ويأخذ بمناهج علمية في تعامله معه، يقلع عن كرهه، ويبدأ في فهمه وإدراك طبيعته ومصالحه الحياتية، فيتضاءل بمرور الوقت الاستقطاب الذي يقسم البشر إلى صديق وعدو، وتبرز في جميع الأحوال نظرة ترى أن عدو اليوم هو صديق أو حليف الغد المحتمل، على غرار ما يحدث في عالم السياسة. هذه اللحظة بالذات تنكرها جميع النظم الشمولية، لأنها تجعل مطلبها الرئيس، الذي يقول «ب» كل شيء أو لا شيء»، «الرضوخ أو الإبادة»، مطلبا عبثيا، خصوصاً وأنه لا توجد بالنسبة إليها تسويات وحلول وسط استراتيجية، فإن

وجدت، اقتصرت في أحسن الأحوال على التكتيك.

كانت شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» تلح على موضوعية الحكم. وكان هذا يغضب هتلر، لشعوره أنه يثيره ويحرجه. وكانت طبيعة هذا المتشرد لا تطيق التوافق والتوازن، لذلك نحت الجنرال كوسترنيج، عندما شعرت بميله إلى الروس، بينما ضمته شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» إلى صفوفها مستشارا ودليلا، ثم عينته نهاية أيلول/سبتمبر من سنة 1942 «جنرالا مكلفا بشؤون القوقاز»، وجعلته يوم 13 حزيران/يونيو 1943 مفتشا للوحدات التي تضم أبناء الشعوب التركية، وفي الأول من كانون الثاني/يناير 1944 جنرال وحدات المتطوعين في قيادة الجيش العليا. وقد عبر الارتباط الوثيق بينه وبين شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» عن نفسه من خلال مبادرة قيادة الجيش العليا إلى تعيين العقيد هيرره من هذه الشعبة رئيس أركان له[1]. ثمة هنا ما يجب أن يقال حول هذه الوحدات: أسهم جنود الجيش الأحمر السابقون سنتي 1941 / 1942 في توضيح معظم ما له علاقة به، وقدموا المعلومات عن تنظيمه الحربي، وسلاحه، وطرقه وقيمته القتالية، ونظم النقل والتعويض فيه. وكان هؤلاء قد فروا سنة 1941 بالآلاف أو استسلموا من دون مقاومة جدية، فتجاوز عدد الأسرى الروس المليون حتى مطلع خريف تلك السنة، وبلغ في الأول من أيار/مايو سنة 1942 رقما لا مثيل له هو 3.6 ملايين. ينفرد النظام الشمولي، الذي لا يتردد في اتخاذ أي تدابير عنيفة، بقدرته على تحمل انهيارات كهذه. وقد قال كثيرون من هؤلاء الأسرى، وكان بينهم ضباط مرتفعو الرتب وخبراء، بصورة طوعية ما كانوا يعرفونه، بينما كانت الغنائم من الوثائق هائلة الحجم، الأمر الذي لم يسبق أن عرفت مثيلاً له أي حرب بين القوى العظمى الأوروبية. إلى هذا، كان هناك ظاهرة أخرى غير

(1) جيهلن، : مرجع سابق، ص 111.

مسبوقة في تاريخ الحروب، جسدها المتطوعون، وهم جنود سوفيات سابقون أرادوا الانخراط في القوات المسلحة الألمانية. لم يكن الألمان بحاجة هنا إلى تدابير إقناع أو تضليل خاصة، كما لم يكونوا بحاجة إلى استخدام العنف. عندما يفكر المرء بوفرة المعلومات التي أوصلها هؤلاء إلى الاستخبارات المتخصصة بالعدو، يعرف لماذا امتلكت بعد حين معارف متميزة عنه، ويدرك تفاهة ما نقلته «روته كابيله» من معلومات إلى الجانب الآخر. لكن دائرة إعلامية واحدة داخل القوات المسلحة أو خارجها لم تبادر إلى نشر هذه الحقائق، فاقتصرت معرفتها على حلقة ضيقة من المتخصصين، فضلا عن القوات المقاتلة، التي شهدت بين 1941 و 1944 اخوة سلاح روسية ألمانية واسعة، حظيت باعتراف صامت، وقامت على الاختيار الحر لمئات آلاف الجنود الروس، الذي بلغ أوجه دون أمر من فوق، حين أعلن الجنرال السوفياتي فلاسوف عقب أسره على الفولشوف استعداده للقتال إلى جانب الألمان في إطار جيش تحرير روسي قومي[1].

وقع حادث الشريط الفضي الأسطوري سنة 1942، لكن الوقت كان قد فات بعد «القلعة» سنة 1943، حين كانت الهزيمة الألمانية قد صارت مؤكدة. قبل هذا الحدث، كان هناك إمكانية لإعطاء حرب روسيا العبثية معنى، بإيجاد نهاية سياسية لها يتم بلوغها عبر تحويلها إلى حرب تحرير روسية. اتضح، في الفترة الماضية، أن قوات هتلر المسلحة وحلفاءها ليسا في وضع يمكنهما من إملاء السلام على روسيا، إلا بقدر ما تمكن جيش نابليون العظيم من إملاء سلامه عليها سنة 1812. بدورهم، لم يتمكن الروس من هزيمة الألمان سنة 1941/ 1942، لأنهم لم يكونوا قد أتقنوا بعد قيادة العمليات العسكرية الكبيرة. ثم إن سنة 1945 كانت أشد سوءا بالنسبة

(1) انظر ستريك ـ ستريكفيلد وجيهلن، ص 93-116.

للألمان مما كانت سنة 1812 بالنسبة إلى جيش نابليون، لأن الكارثة النهائية ابتلعت خلالها مجموع الأقاليم الشرقية الألمانية وسكانها. بالمناسبة، كان هناك إشارة كلاسيكية إلى احتمال إيجاد مخرج من خلال إنهاء الحرب سياسيا: فقد لفت جنرال ديتمار، وكان آنذاك الناطق الإذاعي باسم الجيش، نظرنا في صيف سنة 1942 إلى مقطع لدى كلاوزيفيتز، كان صحيحاً بالأمس مثلما هو صحيح اليوم، طلب إلينا قراءته، يقول: «ليست الامبراطورية الروسية بلدا يستطيع المرء الاستيلاء عليه رسميا، أي إبقاءه محتلا، أقله ليس بقوى الدول الأوروبية الراهنة... إن بلدا كهذا لا يمكن قهره إلا من خلال ضعفه الخاص، أو عبر المؤثرات الناجمة عن انقساماته التناحرية الداخلية. للوصول إلى مواقع ضعف وجوده السياسي، من الضروري إحداث زلزال يصل إلى قلب الدولة»[1]. هذا الزلزال كاد الألمان يحققونه سنة 1941/ 1942، خاصة في أوكرانيا ثم في بلدان البلطيق، التي احتلها ستالين، ولدى عشرات آلاف المنتمين إلى شعوب أجنبية، ممن خدموا في الجيش الأحمر ورأوا في الألمان محررين يجب الترحيب بهم، الأمر الذي أحدث تشققات وفوالق في «صورة العدو»، وجعل من المنطقي أن يطرح المتخصصون به شعار التحرير بدلاً من الاحتلال، الذي لم يطرحه فرد بعينه، بل جرى تداوله ببساطة من فم إلى آخر، بينما كانت القوات تعمل بصمت في هدي هذا الهدف، وتدمج أسرى الحرب الروس، الذين يبدون رغبتهم في التطوع، ضمن الوحدات الألمانية، إلى أن تشكلت، بعد حين، وحدات خاصة بكل بلد في مناطق الشرق المحتلة، أقامت الأمن داخله، بل ان هتلر نفسه أمر بعد معركة تطويق أمان سنة 1942 في أوكرانيا بترك أسرى الحرب الأوكرانيين يعودون إلى بلدهم، ليعملوا في الزراعة. لم يعرف أحد بدقة

(1) كلاوزفيتز: عن الحرب، كتاب جيب، طبعة ثانية، بفافنهوفن 1969، ص 235.

عدد هؤلاء المتطوعين، لكن جيهلن كان قريبا من الحقيقة في مذكراته[1]، حين قدر عددهم صيف سنة 1942 بـ 700 ألف إلى مليون رجل. كانت «وحدات الشرق» تتكون من 176 فوجا و30 كتيبة مستقلة، وكان جيش روسي كبير يقاتل فعليا إلى جانب قوات الألمان المسلحة. لذلك اعتقد مساعدون كثيرون لجيهلن أن الخطوة التالية يجب أن تكون الإعداد لحكومة روسية قومية، وجعلوا ما سمي لجنة سمولنسك تنجز الأعمال التمهيدية لذلك، فكان العقيد شتيف والرائد شتاوفنبرج من شعبة تنظيم الجيش يدعمان هذه الخطط بما أوتيا من قوة، حتى توصلا في خريف سنة 1942 إلى الحصول على ترخيص بتشكيل «شعبة دعاية روسية»، كان أهم شخص فيها خبير روسيا وصديقها المقدم ستريك ـ ستريكفيلد، نسقت خطط شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» وشعبة الدعاية في القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة[2]. وقد حدث هذا كله قبل ستالينجراد. من الصعب أن نتجاهل كيف كانت الصياغة السياسية الجديدة لأوروبا المهدأة ستتحقق، لو قيض لهذه التطورات أن تستمر، لأن تحققها كان يتطلب وجود رجل دولة ألماني يحتل التوازن السياسي مكانة أرفع لديه من القوة العسكرية والمغامرة. ولأن مثل هذا الرجل لم يكن موجودا، اقتصر العمل من أجل هذا الهدف على قادة الاستخبارات المتخصصة بالعدو، الذين شاركهم طموحهم الفاعلون الرئيسون من رجال العشرين من تموز/ يوليو سنة 1944. هذه هي الطريقة التي يجب أن نرى في ضوئها ترابط أحداث تلك الحقبة، التي عرف الساخطون فيها ما كانوا يريدون، وخاصة منهم الأمير شتاوفنبرج. لكن هتلر بقي عصيا على التعلم، شأن سائر الأيديولوجيين المتعصبين، ورفض التسوية

(1) جيهلن، مرجع سابق، ص 106–110. كان المؤلف يعرف بصورة دائمة هذه الوقائع.
(2) يعرف المؤلف هذا شخصيا. انظر: ستريك –ستريكفيلد، ص 97 وما يليها.

السياسية في الشرق، مثلما رفض معرفة أي شيء عن الانبعاث المتعاظم للجيش الأحمر منذ نهاية سنة 1941، بفضل جهود ستالين الحثيثة. لهذا السبب، ضاعت تحذيرات شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» قبل ستالينجراد، وكانت قد عرفت بالحشد السوفياتي من الاستطلاع اللاسلكي[83]. لم يبد هتلر أي استعداد للقيام ببعض «الإشارات» التصالحية إلا بعد ستالينجراد، وقبل مشروع الهجوم الأخير، المسمى «القلعة»، لكنه وافق عليها في صورة خدعة أخذت شكل منشور طالب الروس بالفرار من الجيش. والحق، أنه تمت مناقشة هذا الموضوع يوم 8 حزيران/يونيو 1943، وأن نص المناقشة المختزل بقي سليما لحسن الحظ، يظهر مدى العمى الذي كان قد أصاب القائد الأعلى الألماني. أقدم فيما يلي نصا مختصرا جداً لنقاش 8/ 6/ 1943[1]:

كايتل: انطلاقاً من نظرة إجمالية، تطرح بالنسبة إلي مسألة التعامل مع أسرى الحرب، والمتطوعين والأفواج التابعة لبلدانها في الشرق على النحو الآتي في اللحظة الراهنة... إن مجمل دعاية فلاسوف، التي طورها من نفسه كما يقال، تقدم أرضية للدعاية الكبيرة الجارية تحت كلمة سر «الشريط الفضي»، هي الدعوة إلى الفرار من الجيش الأحمر. وقد خرجت من هناك مناشير اتفقنا على مضمونها مع وزير الرايش روزنبرج، وكذلك مع وزير الشرق آنذاك. لقد ناقشناها كلمة كلمة، فأقرها ووافق عليها، لتبدأ أول أيار/ مايو ما أود اعتباره عملية شاملة.

تشيتسلر: وقد تعلق قسم منها بالتعامل السليم مع الكتلة الكبرى.

كايتل: عندما يفرون إلينا، فإنهم سيحظون بمعاملة خاصة. هذا هو المنشور رقم 13.

(1) هلموت هايبر: نقاشات هتلر للوضع، كتاب جيب دت ف 120/ 121، ص 109 وما يليها.

الفوهرر: لقد رأيت المنشور رقم 13.

كايتل: لقد اتخذنا تدابير لاستقبال الفارين في معسكرات خاصة، ولمعاملتهم بطريقة لائقة تماما.

الفوهرر: هذا كله حسن.

كايتل: وحرصنا أن يتمكنوا بعد ذلك من اختيار خيارات مختلفة، كأن يصبحوا عمالا عاديين، وثانيا متطوعين، وثالثا ربما أعضاء في وحدات تابعة لبلدانها.

الفوهرر: هذا ليس مذكورا في المنشور.

تشيتسلر: كلا، ليس مذكورا في المنشور رقم 13.

كايتل: لقد قيل هذا فيما بعد في التحديدات التمهيدية. وهم سينقلون إلينا بعد فترة معينة. هذا ما أعلنه جنرال قوات الشرق، كما نمي إلي. عندما سيثبتون أهليتهم بعد فترة اختبار معينة، يستطيعون اختيار ما يريدون استخدامهم فيه، وسيسمح لهم، في شروط معينة، بممارسة ما وقع اختيارهم عليه، أي أنهم سيصيرون إما متطوعين أو جنودا في وحدات تابعة لبلدانهم. هذه الدعاية الكبيرة اعتمدت على المنشورات، التي حملت توقيع اللجنة القومية أو اللجنة القومية الروسية، وتضم الأمر الرئيس، المحوري، الذي يجب علي إبلاغهم به مرة أخرى، ويضاف إلى الأشياء الأخرى الكثيرة، التي نقولها دوماً ـ ستتلقون طعاما جيدا، وستلقون معاملة حسنة، وسيكون لديكم عمل، وستعودون إلى وطنكم، وبالنسبة للمستقبل: لن يحافظ الرايش الألماني فيما بعد على النظام السوفياتي، ولن يحافظ على تأميم الأرض... الخ، وكذلك: تعالوا إلينا. عندما تأتون إلينا، ستستطيعون الدخول في جيش الحرية القومي الروسي. هذا مكتوب فعلا في المنشور.

الفوهرر: كان يجب إطلاعي على المنشور من قبل.

كايتل: علينا تصحيحه الآن في هذا الاتجاه. هذه واحدة من النقاط، التي ليست بالتأكيد حاسمة بالنسبة إلى هؤلاء الناس، لكنها لعبت على كل حال دورا ما.

الفوهرر: لسنا بحاجة إلى جعل الأشياء مأسوية. أنا أرى اليوم شيئاً واحدا في هذا كله، هو بالنسبة إلي الأمر الحاسم: علينا أن نتجنب تشكل رأي خاطئ لدينا نحن. وعلينا أن نفرق بين الدعاية، التي أوجهها إلى هناك، وبين ما نفعله نحن في نهاية الأمر.

كايتل: ما نفعله وراء جبهتنا.

الفوهرر: وما نعتقده قبل كل شيء. يجب أن نتحاشى ترسيخ رأي لدينا يظن أنه يمكن عمليا عن هذه الطريق، لنقل، إيجاد تسوية...[1] هذا هو الخطر اليوم. يستطيع المرء القيام بالأشياء الأخرى أيضاً، شريطة أن لا تستخلص منها أي نتائج، مهما كانت قليلة الأهمية، وعلى أن نتفادى، قبل كل شيء انتشار مزاج حولنا، وجدته للأسف لدى بعض السادة، كما وجدت صدى له مرات كثيرة لدى كلوجه أيضاً: «إننا نخفف الأمور على أنفسنا، إذا ما بنينا جيشا روسيا». استطيع أن أقول هنا شيئاً واحدا فقط: لن نبني أبدا جيشا روسيا، فهذا وهم من الدرجة الأولى...

كايتل: اسمح لنفسي بالقول في هذه الحالة: إننا ننظر إلى صاحب هذه المنشورات الدعائية، أي إلى اللجنة القومية، التي يوقع الجنرال فلاسوف باسمها، كأداة دعائية صرف.

(1) لنص مكثف جدا (بعد أجزاء الحديث أهملت أو تم القفز عنها)

تشيتسلر: علينا وضع خط فصل كبير هنا. بوسعنا فعل كل شيء، إن كان سيذهب إلى العدو. أما في الداخل فالأمر مختلف تماما. هذا خط فصل.

تبخرت عملية المنشورات، بسبب وضع الحرب في الشرق خلال شهر أيار/مايو من سنة 1943. وقد كان توقيتها متأخرا على كل حال. جاءت ستالينجراد بالتحول النفسي بالنسبة إلى الجيش الأحمر، مثلما جاءت سياسة الاحتلال النازي بالتحول عينه بالنسبة إلى الروس والأوكرانيين في منطقة الاحتلال الألمانية. ومع أن أخبار ما جرى اجتازت الحدود، فقد كان من الضروري القيام بالمحاولة، أقله من أجل تقديم حل سياسي إلى هتلر، بهذا الطريق، حتى إن اقتصر هدفه على معرفة رد فعله. وضع العقيد السابق مسودة المنشور رقم 13، وأقره رئيس أركان الجيش الجنرال تشيتسلر. لكنه لم يأت متفقا مع أرادته شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، فبقي كضربة في الماء، خاصة وأن الهجوم ضد قوس كورسك، أو عملية «القلعة»، التي كان سيلقى به من الجو خلالها، قد تأجلت المرة تلو الأخرى، وأنه ألقي به كعمل معزول ليلة 6 / 7 أيار/مايو 1943، فلم يجلب نتائج تستحق الذكر، ولم يصل إلى الخطوط الالمانية غير بضع مئات من الفارين، كان عددهم ذاته علامة على وقوع التحول. بذلك ضاعت فرصة سياسية من الطراز الأول.

أذكر في هذا السياق أن للاستخبارات المتخصصة بالعدو مهام سياسية أيضاً، منها التفاوض معه حول تبادل الجرحى ونقلهم، وإرسال ضباط هدنة[1]، عندما يتوقف إطلاق النار مكانيا، ومنها كذلك قيادة مفاوضات الهدنة، واستكشاف إمكانات السلام المحتملة. وقد كرس جيهلن فصلا

(1) كان المؤلف، كضابط نظامي لدى استخبارات قيادة الجيش العليا، واحدا من 18 ضابط هدنة أداروا مفاوضات تسليم باريس يوم 13/ 14 حزيران سنة 1940.

خاصا من كتابه لعوامل الحرب السياسية والعسكرية والنفسية، قال فيه إلى جانب أشياء أخرى[1]: «في مجرى الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، اتضح بصورة متزايدة منذ مطلع سنة 1942 على أبعد تقدير أن الجنود يعملون أكثر فأكثر لتجريد الحرب من طابعها الحصري كفعل عنف، ولتفعيل العنصر السياسي من خلال مشاركة الشعوب الروسية الإيجابية في الصياغة، التي يجب جعلها ممكنة لأهدافها. على عكس هذا السلوك، رفضت القيادة ـ هتلر ـ بعناد جميع المتطلبات، التي حملت هذا الطابع... أقفل هتلر أبوابه أمام أي حل سياسي. لا يسعنا التأكيد بما فيه الكفاية أن الجندي ـ بصورة غير واعية إلى حد ما لدى المراتب الدنيا وواعية لدى المراتب العليا ـ عرف أن قيادة هتلر الحربية تخلت عن أولوية السياسة لمصلحة حسم عسكري شامل». حدثت مناقشة الوضع، التي استشهدنا بها، يوم 8 حزيران/ يونيو من سنة 1943، وهو تاريخ من الأهمية بمكان الانتباه إليه، وإلى الوضع الحربي الذي كان قائما آنذاك في الشرق، حيث مني جيش المانيا في بداية العام بأول هزيمة ماحقة في ستالينجراد، كان تفاديها ممكنا، بما أن الاستخبارات عرفت نوايا العدو في الوقت المناسب[84]، كما يؤكد ألبرت براون في دراسة غير منشورة، قبل أن يستنتج ما يأتي[2]: «لم يستخدم الروسي التضليل العملياتي على الإطلاق. وتقتصر نجاحاته المفاجئة الكبرى ـ روستوف، موسكو، ستالينجراد ـ على الحالات، التي لم تصدق فيها القيادة العسكرية الأعلى الاستطلاع اللاسلكي الألماني، واعتقدت أن الروس يمارسون مثل هذا التضليل». في آذار/ مارس من سنة 1943، أعاد ف. مانشتاين القيادي وقوة الاحتياطي العملياتي، الذي كان قد استقدم من الغرب، وضع النقاط

(1) جيهلن: مرجع سابق، ص 99.

(2) وضع النص تحت تصرف المؤلف.

على الحروف من جديد، واستقر خط القتال جنوبي الجبهة الشرقية على الميوس والدونتيز. في هذه الفترة، استخدم مانشتاين معلومات الاستخبارت كأساس لقراراته، وعادت الحرب الروسية إلى التأرجح مرة أخرى، بينما كانت الحرب في أفريقيا تبلغ نهايتها، وألمانيا تتكبد مجددا خسائر فادحة تجعل من المنطقي توقع قيام الحلفاء الغربيين بقفزة نحو البر الأوروبي. في هذا الوضع، عرض جيش روسي قومي القتال إلى جانب الألمان، بشرط واحد هو اعتراف قيادتهم بالمصالح السياسية للقوميين الروس، الذين أرادوا عونها من أجل تحررهم، من دون أن ينحطوا إلى مجرد شعب مساعد لقوة شمولية أخرى.

جاءت عملية منشورات «الشريط الفضي» في سياق هذا الوضع العسكري المتأرجح، بيد أنها لم تكتمل، لأن قيادة القوات المسلحة الألمانية لم ترد لها أن تكتمل. وعلى كل حال، فإنها كانت اختبارا نفسيا للروس، كما اعتقدت شعبة استخبارات مجموعة جيش الجنوب (فون مانشتاين)، في حين كانت نجاحاتها القليلة صرخة تحذير تعلن أن زمن الفارين والأسرى قد ولى، وأن الجيش الأحمر ترسخ واكتسب التجانس، الذي كان ينقصه من قبل، بسبب الانطباع الذي أحدثه انتصار ستالينجراد الكبير، وأنه لن يكون هناك، من الآن فصاعدا، أي فرصة لإنزال الهزيمة به بواسطة وسائل وأدوات عسكرية صرفة. رفض هتلر رؤية هذا الجانب بالذات، بعد أن بلغ عماه بالتدريج درجة المرض. هذا ما كانت تعرفه دائرة صغيرة من المطلعين، تعرضت بصورة مباشرة لعناده. قبل «القلعة»، حذرت الاستخبارات المتخصصة بالعدو من أن التأجيل المتكرر لموعد الهجوم[1]، مكن القيادة السوفياتية من اتخاذ جميع التدابير الدفاعية الضرورية، ومن تعزيز الحشد،

(1) جيهلن، مرجع سابق، ص 86 وما يليها.

الذي كان يستطيع الانتقال إلى الهجوم المعاكس بمجرد توقف الهجوم الألماني.

لم يكن الأمر يدور هنا منذ بعض الوقت حول إدراك هتلر العسكري بوجه عام، بل كان ينصب على استراتيجيته السياسية. صحيح أنه كان يمتلك معرفة عسكرية وذاكرة غير عادية، يستطيع بمعونتهما خداع سامعيه والتأثير فيهم. لكن هذا لم يعد منذ سنة 1941 هو القضية، التي تمحورت خلال الحرب العالمية الثانية حول ضرورة وجود رجل دولة ومحارب، لم يجسد هتلر أيا منهما. مثل هذا الرجل، كان باستطاعته، في الحد الأدنى، التعلم من أخطائه، وكان سيأخذ في اعتباره أيضاً العمل لإيجاد نهاية سياسية للحرب في الوقت المناسب، بدلاً من أن يربط كل شيء بورقة «سلام» يتحقق عبر انتصار حربي، على غرار ما فعله لودندورف سنة 1918. أما من الناحية العسكرية الصرف، فتبين أن القائد الأعلى لقوات ألمانيا المسلحة لم يكن أهلا للقيام بمهامه، بعد سنة 1943: وإلا لترك القرارات الحاسمة على الجبهة لقادته، ولاكتفى بتكليفهم بمهام ممكنة التحقيق، بدلاً من أن يتدخل في القيادة التكتيكية حتى مستوى الأفواج، رغم أنه بقي دوماً بعيدا عن الجبهة. لماذا سرح أفضل قادة جيشه المارشال فون مانشتاين مطلع سنة 1944، عوضاً من أن ينقل إليه الإمرة العليا على الجبهة الشرقية، ويمنحه حرية القيام بالعمليات العسكرية؟. ولماذا رفض أن يصغي إلى استخباراته المتخصصة بالعدو؟. من المحال تفسير تدبيريه هذين بأسباب نفسية فقط، أي بالعناد وادعاء العصمة، مع أنه اتسم بهاتين الصفتين ومال إليهما، ويجب فهم قراراته انطلاقا من انهيار وعيه الذاتي النقدي، نتيجة إساءة استخدامه المتواصل من خلال الوسائل التهييجية. لقد كانت الاستخبارات الألمانية تعمل في فراغ، مع أنها أفضل جهاز استخبارات قيض لجيش ألماني امتلاكه في أي وقت.

أخبار العدو

قام استطلاع اللاسلكي خاصة بإنجازات خارقة، تؤكدها أمثلة أوردها هنا، أخذتها من تقارير لم تطبع بعد ـ لكنها في حوزتي[1] ـ. يورد أحد التقارير نصاً حول الاستعدادات العملاقة، التي قام بها السوفيات قبل هجوم بارانوف نهاية سنة 1944: «جرى هذا الفيلم المأسوي وفق ترسيمة النظام اللاسلكي السوفياتي الروسي، المعروف لدينا منذ سنوات. لكن المشاهدين كانوا عاجزين عن درء الفاجعة، التي كانت في طور الإعداد، ثم انقضت عليهم بقوة رهيبة. وقد عرف الاستطلاع الاستخباري الألماني، الذي كان قد تحسن في هذه الأثناء واكتسب المزيد من المهارة، مرة أخرى العلامات الأكيدة للهجوم المقبل: حشد مهندسي الجيش، مدفعية الجيش، وحدات المدفعية الصاروخية، الذي أظهر في وقت مبكر النقاط التي ستصب عواصفها النارية عليها. ورأى الاستطلاع حشد الجيوش، وتنظيم «الجبهات»، التي تطابقت تقريبا مع مجموعات الجيش الألماني. واستمع إلى المحادثات العملياتية المتحفظة، التي فسرها مقومو السبر والاتصالات، والتقطت أخيراً كما هائلا من الرسائل البرقية والمخابرات الهاتفية، كأنها سربت مئات المتنصتين إلى مقرات السوفيات الرئيسة جميعها». صحيح أن فرق الجبهة والوحدات المدرعة المتحشدة حافظت على صمت لاسلكي تام، لكن قوات الجيش ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية بصورة خاصة لم تكترثا للأمر. وأخيرا، باحت الاتصالات اللاسلكية مع الجبهات المختلفة، التي أجرتها مجموعات استطلاع أرسلت في وقت مبكر إلى ما وراء خطوط الالمان، بالأهداف الحقيقية للعمليات المقبلة. هكذا نشأت من مزق لاسلكية متفرقة صورة هجوم بارانوف الوشيك الكلية.

(1) مخطوط آلة كاتبة في حوزة المؤلف.

اكتملت هذه الصورة في مطلع كانون الثاني/ يناير من سنة 1945. فقد راقب الألمان كيف تقدمت المواقع القتالية إلى الأمام، وكان بإمكانهم التنبؤ بثقة بموعد انفجار العاصفة في الثاني عشر من الشهر ذاته. وقد نقل الجنرال جيهلن هذه المعلومة الفريدة إلى رئيس الأركان العامة العماد جودريان، الذي وعد بتمريرها إلى الجهات الأعلى. غير أن هتلر كان في هذا الوقت في مقر الفوهرر الصغير، «عش النسر»، منشغلا بهجوم الأردين الألماني، الذي لم يحقق النجاح المطلوب. لقد كان اهتمامه مكرسا للغرب، بذريعة أنه تم فعل كل ما هو ضروري لصد الهجمات السوفياتية في الشرق، لمجرد أن المدافعين نزلوا إلى حفرهم وخنادقهم، متجاهلا أن ما كان ممكنا في السابق صار مستحيلا اليوم، وان مجموعة جيش الوسط واجهت منذ صيف 1944 150 فرقة مشاة سوفياتية و45 فرقة مدرعة باثنتين وأربعين وحدة ألمانية كبيرة، وأن نسبة القوى السوفياتية الألمانية بلغت 4.5 إلى 1، فكان من الطبيعي أن تنهار مجموعة جيش الوسط، ويشكل الجيش الأحمر في نهاية آب/ أغسطس من سنة 1944، ثلاثة رؤوس جسور عملياتية كبيرة غرب الفايكسل، هي بارانوف وبالافا وماجوسيف، توقف هجومه فيها في بداية أيلول/ سبتمبر، واستراحت قواته وأخذت قوات استراحة قتالية، استغلها هتلر لإعداد هجوم الأردين، الذي اعتبره المختصون ضربا من جنون مطبق، بما أنه كان يجب اعتبار الشرق من دون أي شك نقطة الثقل، التي يجب استخدام القوى المتوفرة فيها، لأن الخطر الأكبر: العسكري، والسياسي والإنساني، كان يأتي من هناك، لكن هتلر قرر الهجوم في الغرب.

عرفت الاستخبارات المتخصصة بالعدو بعد قليل تفاصيل ما سيجري: في مطلع تشرين الأول/ أكتوبر عرف الاستطلاع الألماني من «مصدر موثوق» بالاستعدادات الجارية لهجوم كبير جديد ينطلق من رؤوس الجسور الثلاثة المذكورة. وكانت عملية إعادة تجميع القوات وتغيير انتشارها من وضع

هجومي إلى وضع دفاعي قد شوشت إلى حد بعيد صورة العدو في شهر تشرين الأول/أكتوبر. أما الآن، فكان الحشد الجديد واضحا، وتم رصد أربع مجموعات جيوش: اثنتان قبالة بروسيا الشرقية، واثنتان بين مودلين وبارانوف. كما كان من الصعب عدم رؤية نقطة الثقل في الجنوب، وكذلك الهدف العملياتي، الذي كان يشير إلى سيليزيا وفي اتجاه برلين. كان الرايش وعاصمته أمام تهديد مميت، وقد وضعت التقارير عن ذلك أمام هتلر، لكنه كان مشغولا بهجوم الأردين، لأنه كان ينتظر منه حسم الحرب. في هذه الأثناء، كانت الغلبة السوفياتية على الفايسكل تزداد خطورة، وما إن جاء يوم 9 كانون الثاني/يناير، حتى كانت نسبة القوى 11 إلى 1 في المشاة، و7 إلى 1 في الدبابات، و20 إلى 1 في المدفعية، فكان التفوق الناري السوفياتي مخيفا. أما في نقاط الثقل، التي كان الهجوم سينطلق منها، فكان هناك 250 مدفعا على كل كيلومتر من الجبهة، وكان ممكنا هنا استكمال نتائج الاستطلاع البرقي بنتائج الاستطلاع الجوي، وقد جاءا بتفاصيل إضافية حول حشد المدفعية وانتشار الوحدات المؤللة والمدرعة، استعدادا للهجوم. بهذه الطريقة، تمت الحيلولة دون حدوث مفاجأة عملياتية، لأن وحدات الجبهة، والدوائر القيادية ورئيس الأركان العامة كانوا يعرفون ما الذي يجب أن يعدوا أنفسهم له. كما أن موعد الهجوم في الثاني عشر من كانون الثاني/يناير كان معروفا بالنسبة لهم، وكان القرار الأخير حول تعزيز القوات بيد هتلر، لكن هتلر فشل، وأزاح معلومات الاستخبارات جانبا بفظاظة. كتب الجنرال جودريان في كتابه «مذكرات جندي»[1] حول هذا قائلا: «سافرت يوم 24 كانون الأول/ديسمبر إلى جيسن، ومن هناك إلى مقر الفوهرر الرئيس، وكان آنذاك «عش النسر» قرب تسيجنبرج في منطقة تاونوس، لأقدم له تقريراً شفهيا

(1) هلينس جودريان: مذكرات جندي، هايدلبرج 1951، ص 247 وما يليها.

يصف التنظيم المعادي ونسبة القوى. . . وكان عمل شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» نموذجيا وموثوقا بصورة مطلقة، لأنني كنت أعرف رئيسه الجنرال جيهلن لفترة طويلة تمكنني من تقويمه وتقويم مساعديه وطرقه في العمل ونتائجها. ولقد أثبت تشخيصه صحته، لكن هتلر رأى الأمور بطريقة مختلفة، وأعلن أن معطيات الشعبة ليست سوى خداع، وأن وحدات المشاة السوفياتية لا تتجاوز في كثيرها سبعة آلاف رجل على أبعد تقدير، والوحدات المدرعة بلا دبابات. ثم صرخ: «هذه أعظم خدعة منذ جنكيزخان»، وتساءل: «من نبش هذه السخافة؟». تقول مذكرات جودريان بعد صفحات قليلة: «في التاسع من كانون الثاني/يناير كنت مجددا في تسيجنبرج، مصمما على عدم التراجع، وعلى وضع هتلر أمام مسؤولياته. قدمت تقريري أمام المجموعة المألوفة المحيطة بهتلر. . . وكان جيهلن قد أعد بعناية فائقة مستنداته حول وضع العدو، وأرفقها بخرائط وصور توضيحية تظهر بالملموس نسبة القوى. غضب هتلر غضبا شديدا، عندما وضعت هذه الأعمال أمامه، وقال إنها «غبية تماما»، وطلب أن احتجز فورا الشخص الذي أعدها في مشفى مجانين. تملكني عندئذ الغضب، وأوضحت له أن هذه الأعمال تعد إنجازا للجنرال جيهلن، أحد أكثر ضباط أركاني اجتهادا، وأنني ما كنت لأقدمها له، لو كنت لا اتبنى ما فيها. وأضفت: إذا كنتم تطلبون وضع الجنرال جيهلن في مشفى مجانين، فعليكم وضعي أنا أيضاً معه، قبل أن ارفض بشدة طلبه استبدال الجنرال جيهلن. بعد هذا انفجرت الزوبعة. . . لم يحقق التقرير أي نجاح عسكري، وكان الأمر مزعجا إلى أبعد حد». رفض هتلر تعزيز الجبهة الشرقية بالقول: «لا أريد فقدان المبادرة التي استعدتها على الجبهة الغربية». لكنه ما إن حل منتصف كانون الثاني/يناير، حتى كان قد أضاع المبادرة في الغرب والجبهة المتماسكة في الشرق، بعد أن انهار الحاجز الضعيف على الفايكسل، وبدأ الجيش الأحمر يتدفق

كالطوفان نحو الغرب، ليمحو بعد قليل حدود الرايش الالماني القديمة. يصف فارليمونت الوضع الجديد بالكلمات الآتية: «... تظهر الأحداث اللاحقة أن قيادة ألمانيا الأعلى لم تضع تصورا إعداديا في حال أخذت العاصفة المرتقبة من الشرق حجما خطيرا»[1].

رفض هتلر ببساطة الاعتقاد بوقوع عاصفة كهذه. ووصف بالـ«خداع الوقح» المعطيات التي قدمت إليه حول قوة الجيش الأحمر ونواياه، مع أنها أعدت بطريقة موثقة ومعززة بالأدلة. ولم يتلق جودريان غير أربع فرق مدرعة لتعزيز الجبهة الشرقية، وعاد إلى سوسن، التي أصبحت من جديد ما كانته عند بداية الحرب: مقرا رئيسا لقيادة الجيش العليا، مصحوبا بتوجيه يفتقر إلى الشعور بالمسؤولية، هو أن على الشرق مساعدة نفسه وتدبير أموره بما لديه.

لماذا أمكن لهذا أن يحدث؟

ثمة ارتباط سببي بين عناد هتلر المتأخر وبين النجاحات الأولى الساحقة، التي أسست «اسطورته». يقول التقرير غير المطبوع[2]: «والحقيقة أن هتلر قدر تقديرا حدسيا صائبا القدرات الحربية والقيمة القتالية لأعدائه الأوائل: البولونيين والفرنسيين، بل إن حدسه كان أكثر صحة من تقديرات مستشاريه العسكريين، التي ارتكزت على تجاربهم المستمدة من الحرب العالمية الأولى». لم يكن بوسع وسائل الاستطلاع السلمي أن تقدم غير إسهامات متواضعة يمكن بمعونتها الحكم على وضع العدو. لكن الأمر اختلف، عندما رمي النرد، وكشفت الأوراق، وتم تخطي فترة التحمية:

(1) فارليمونت: مرجع سابق، ص 526.

(2) مخطوط آلة كاتبة سبق ذكره.

عندئذ، قدمت الاستخبارات المتخصصة بالعدو إلى القيادة العليا الألمانية مستندات من شأنها جعل القيادة الناجحة ممكنة في أصعب الظروف، كانت فعليا مفيدة إلى درجة كبيرة بالنسبة إلى معظم دوائر القيادة، أتاح الاستطلاع الاستخباري الألماني لقيادة الاستخبارات المتخصصة بالعدو عبرها مستندات متميزة، سواء من حيث حجمها أم صدقيتها.

نجحت عمليات الاستخبارات في الشرق خاصة، حيث نمت من العمل المنهجي الصغير لمعالجي المعلومات معارف واضحه، تكاد تخلو من الثغرات وعلى درجة رفيعة من الصدقية، طالت قدرات الاتحاد السوفياتي الحربية، ونواياه التكتيكية والعملياتية، باعتباره العدو الأكثر قوة، الذي قاتله الجيش الألماني في أي وقت. هذه النجاحات كانت متفوقة بمراحل ومن أوجه كثيرة على مثيلتها في الحرب العالمية الأولى، مكنت القيادة من إلقاء نظرة عميقة داخل تطورات سياسية معينة، وتنبأت في الوقت المناسب بخروج إيطاليا من التحالف وبالتغيرات التي عرفها البلقان. إلى هذا، ترجع معرفة القدرة الحربية للولايات المتحدة إلى الشعبة المتخصصة، شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»[85]، التي لم تجمعها، على كل حال، بواسطة عملاء لاسلكي عملوا هناك، بل قدمتها لها الصحافة الأميركية، المفتوحة القلب دوما، وقدمها فرانكو، كما نعلم. هذه المعلومات، لم تحدث بدورها أي أثر لدى قائد الحرب الأعلى للرايش الالماني، الذي تحول «اقتناعه المطلق» بصحة حدسه إلى ضرب من الخرف الفكري في النصف الثاني من الحرب. وعندما سقط سيار الليل، جذب معه الجيش، أو ما كان قد صمد منه، إلى الهاوية، ومعه الرايش والشعب المنهك حتى الموت.

عمل الاستطلاع البرقي، الذي صار اسمه الآن الاستطلاع عن بعد، بالدقة المألوفة وحقق نتائج خارقة، حتى قبل الكارثة الوشيكة مباشرة.

هكذا، استطاع أن يضع خلال أسابيع الحرب الأخيرة من سنة 1945 أمام القيادة الألمانية العليا التاريخ الدقيق للهجوم الكبير الوشيك على برلين، قبل ثماني ساعات من وقوعه. يقول التقرير الذي نمتلكه حرفيا[1]: «في نيسان/ أبريل من سنة 1945، تحدث القائد الأعلى لجيش الحرس المدرع الروسي الثاني في منطقة بريزن، إلى الشرق من برلين، بصورة شخصية مع قادة مجموعاته وأفواجه وطلائع مدرعاته عن المهام الدقيقة، وطرق التقدم، وأزمنته، وتأمين مجنباته، وحمايته الجوية، وعن هدف هجوم الجيش، الذي يكمن في التقدم من شمال برلين إلى شمال بوتسدام، حيث سيتحد مع القوى التي تتقدم جنوب برلين». وقد وصل نبأ هذه المحادثة إلى ملجأ الفوهرر.

ماذا فعلت قيادة الرايش في هذا الوضع؟. لا شيء من الناحية العملية. لقد تركت الأحداث تجرفها، أو أعطت أوامر عبثية إلى جيوش ومجموعات جيوش لا وجود لها إلا على خريطة الفوهرر القتالية، أو قرأ كوبلز وبلز لفوهرره، «كي يواسيه وينعشه»، نصوصا من كتابه المحبب «تاريخ فريدريك الكبير» لكارلايل، أو فرت إلى التنجيم وأشارت إلى برجين تنبآ «بسلسلة من الهجمات المعاكسة تضمران أكثر الضربات شدة، ستحدث في الأشهر الاولى من 1945، وخاصة في النصف الثاني من نيسان/ أبريل، يليها ركود يستمر حتى آب/ أغسطس، شهر السلام، ثم تأتي ثلاث سنوات عجاف بالنسبة لألمانيا، قبل أن تبدأ نهوضا جديدا سنة 1948»[2].

صدقت القيادة هذين البرجين، بينما كانت ترفض خلال أعوام كثيرة

(1) في المجموعة، التي ضمت الإسهامات المكتوبة آنذاك لشعبة التاريخ في كارلسروه (قيادة اللواء هالدر)، لم تذكر أسماء الكتاب ـ باستثناء إسم العقيد خارج الخدمة راندیفیج.

(2) شستر فيلموت: الصراع على أوروبا. بالألمانية، فرانكفورت على الماين 1954، ص 755 وما يليها.

أخبار ومعلومات أوثق المصادر، التي حصل عليها خيرة المتخصصين من الأثير. صحيح أن القيادة ما كانت لتحرز الانتصار بهذه المعلومات، إلا أنه كان يمكن شق طريق العقل السياسي بمعونتها، وهو ما حاولته شعبة «الجيوش الأجنبية شرق» سنة 1942، عندما ألح قادتها على سلام توافقي مع روسيا. لكن سنة 1944 كانت متأخرة جداً لبلوغه.

obeikandl.com

7

صراع الاستخبارات السرية سنة 1944

«أوفر لورد» أو المباغتة الناجحة

هجوم الأردين: السرية الكاملة

الصدمة

معركة الأردين وتهاوي شخصية هتلر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

«أوفرلورد» أو المباغتة الناجحة

عن صراع الاستخبارات السرية سنة 1944

نجح الحلفاء الغربيون نجاحا تاما في الإبقاء على سرية «أوفر لورد»، أي إنزالهم في فرنسا سنة 1944، فكانت القيادة الألمانية تتخبط في العتمة، في كل ما يتعلق بمكانه وتوقيته، وأخذت على حين غرة، عندما حدث في الساعات الأولى من يوم السادس من حزيران/ يونيو سنة 1944 على شواطئ النورماندي[86]. أما حجم المفاجأة التي باغتتها، فيعرفه الشاهد النزيه لهذه الأحداث، الذي يعلم كذلك أن الرد الانتقامي لم يتأخر، وأن مفاجأة الألمان في حزيران/ يونيو تلتها في كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته مفاجأة ربما كانت أكبر للأميركيين، جسدها هجوم الأردين، رغم اختلاف نتائج الهجومين. هكذا، تعتبر سنة 1944 سنة صراع ضخم لأجهزة الاستخبارات السرية، استخدم فيه الجانبان أعظم قدر من خبرتهما في مجال المكافحة، وعرف كلاهما الانتصار والهزيمة في هذا القتال الصامت. ثمة في مكان آخر من هذا الكتاب رد على السؤال: لماذا عنت عملية «أوفرلورد» بالنسبة إلى قيادة أيزنهاور العليا البداية الظافرة لنهاية الحرب العالمية الثانية في أوروبا، بينما لم تكن المفاجأة التكتيكية الألمانية الناجحة في الأردين كافية للحيلولة دون الكارثة النهائية، إن لم تكن قد سرعتها، على الأرجح؟.

تميز الصراع بين أجهزة الاستخبارات على الجانبين بالفشل التام تقريبا

للجاسوسية التقليدية. أما الانتصار، الذي حققته مكافحة التجسس الحليفة، فلم يكن أمرا خارقا، بسبب وفرة ما كان في حوزتها من وسائله وقواه، حتى إن العدد القليل من الجواسيس الألمان، الذين لم يتم كشفهم، أو لم يتحولوا إلى التعاون مع الحلفاء، لم يجرؤوا على استخدام أجهزتهم اللاسلكية، تحاشيا للرصد اللاسلكي الحليف الصارم[1]. هكذا لم يبق للألمان من سبيل إلى معرفة الأوامر التي ترد من أنجلترا غير رصد المقاومة الفرنسية، التي ستقوم بتنفيذها، وكان يوجد دوماً إشارات ملموسة تدل عليها. بالمقابل، يعد فشل الجاسوسية المعادية وراء خطوط الألمان منذ نهاية سنة 1944 أمراً مليئاً بالألغاز، يقول ليو هيب، وكان آنذاك رئيس استخبارات الجيش لدى أركانه العامة، عنه[2]: «أدى هجوم الأردين الألماني إلى مفاجأة العدو بطريقة ندر مثيلها في تاريخ الحرب. ويثير الدهشة هنا أن الحلفاء كان يجب أن يعرفوا قوة وحدات الدبابات الالمانية وأماكن انتشارها، خاصة وأن تفوقهم الجوي كان يتيح لهم حرية حركة كاملة تقريبا، تمكنهم من استطلاع منطقة الرايش، وأنه كان بوسع استخباراتهم السرية تجنيد عدد كبير من العملاء الموثوقين والملائمين، القادرين على القيام بأعمال الرصد العسكري، من بين العمال الأجانب الكثيري العدد الموزعين على ألمانيا بأسرها، وأسرى الحرب العاملين في اقتصادها». هذه الحقيقة تظهر على كل حال ضآلة الأهمية التي عزاها الحلفاء عند نهاية الحرب للتجسس التقليدي.

(1) بحسب فاراجو، مرجع سابق، ص 359، عرف فرع هامبورغ عبر رسالة برقية بعث بها من انجلترا عميله هانسن يوم 15 كانون الثاني سنة 1944 أن أيزنهاور، بصفته القائد الأعلى للقوات الحليفة في أوروبا، سيصل إلى انكلترا يوم 16 كانون الثاني/يناير. في هذه الاثناء، كان هانسن قد تحول منذ وقت طويل إلى متعاون مع الحلفاء.

(2) ليو هيب: الاستطلاع والتضليل اللاسلكي، في مجلة الدفاع العلمية، آذار/مارس 1954، ص 110.

يثير الاهتمام هنا العدد القليل من الجواسيس، الذين كانوا في المراكز القيادية الأعلى، لكنه لم تصدر عنهم أي معلومة حول هجوم الأردين.

كيف عمل الحلفاء والألمان آنذاك، من أجل حجب الإنزال وهجوم الأردين؟. أي وسائل ستر وتضليل استخدما، وأي إهمالات ارتكبها الجانب المقابل وسهلت النجاح في مباغتته؟. نريد تسليط الضوء على هذا الفصل من الحرب العالمية الثانية، الذي توجد مواد كثيرة حوله نجدها في المنشورات المختلفة، التي سنحللها ونلخصها ونغنيها بوثائق إضافية[1]، تتيح لنا معرفة الترابطات الكبرى للحرب. لئن كانت استخبارات الطرفين قد بلغت كمالها في هذه الإنجازات، فإنها قد أظهرت أيضاً حدود إمكاناتها.

«أوفرلورد» والاستخبارات السرية

كانت الحرب العالمية الثانية قد تجاوزت سنة 1944 المرحلة، التي كانت فيها قدرات الطرفين متوازنة إلى حد ما. وكان تفوق الحلفاء في الغرب والشرق وإيطاليا يزداد وضوحا. هذه الحقيقة لعبت دورا محبطا في الأشهر السابقة مباشرة للغزو، حيث واجه ضباط المكافحة في الجيوش ومجموعات الجيوش وأركانهم من رجال الاستخبارات الألمانية، التي لم تضم في العادة أكثر من خمسة إلى سبعة ضباط وقادة خاصين، مجموعة استخبارية حليفة عملاقة، تشكلت خصيصا من أجل أهداف تتعلق بالستر والمكافحة، وضمت لبعض الوقت نيفا وألف شخص دون معطيات أوثق

(1) من «يوميات الحرب لآمر جبهة الغرب». توجد مستنداته جميعها ضمن الأرشيف العسكري في فرايبورغ / الأوب.

حول رتب ونشاط منتسبيها... الخ[1] - ومراكز المكافحة في فرنسا. بوجه الإجمال، يمكن أن يكون قد عمل في مواقع الاستخبارات التابعة للأركان، وفي المكافحة والاستخبارات الألمانية في الغرب قرابة 500 شخص سنة 1944، فضلا عن الجواسيس والمراسلين الكثر نسبيا العاملين في فرنسا، الذين سنخصهم بحديث خاص.

وضع الجانب الحليف خطة مدروسة لحجب عملية «أوفرلورد» وتضليل الألمان، هناك سلسلة شهادات موصوفة حولها، منها، على سبيل المثال، معلومات مهمة نجدها في مذكرات المارشال مونتغمري، وفي التقرير الشامل، الذي كتبه بطريقة رائعة شستر فيلموت بعنوان «الصراع على أوروبا»، وتقرير رايان «يوم القيامة». غير أن الكتاب المتخصص، الذي يهمنا بالدرجة الأولى، هو طبعا مذكرات اللواء كينيث سترونج «رئيس الاستخبارات في الحرب والسلام»، الذي يمدنا بأكثر المعلومات إثارة للاهتمام. تعتبر المعلومات الألمانية حول العمل الاستخباري، الذي تم سنة 1944، شحيحة، إن استثنينا التقرير الغني الذي كتبه أوسكار رايله بعنوان «الجبهة الغربية السرية»[2]. لكنه بقيت هناك سلسلة من الوثائق في يوميات الحرب، دونها آمر جبهة الغرب، تقدم بدورها معطيات إضافية، سنرجع إليها فيما بعد.

تخبرنا مذكرات المارشال مونتغمري[3] أنه ما إن جاءت نهاية شهر آذار/مارس من سنة 1944، حتى كانت قد وضعت جميع تفاصيل «أوفرلورد»: الإسم السري لعملية غزو فرنسا. تقدمت الجيوش المنقولة

(1) فيلموت، مرجع سابق، ص 210 وما يليها. كذلك سترونج: رئيس الاستخبارات، ص 168 وما يليها.

(2) رايله: مرجع سابق، ص 430-445.

(3) مونتغمري، مرجع سابق، س 162.

بفرقها من الدرجة الاولى إلى المواقع الممقررة لها، كي تقوم بالتدريبات الأخيرة على اليوم X، الذي تحدد أول الأمر في الخامس من حزيران/ يونيو. وقد شهد شهر نيسان/ أبريل مناورات بلغت ذروتها بين الثالث والخامس من أيار، عندما جرى «تمرين عام» عملاق شاركت فيه جميع وحدات الهجوم. أما في الثامن والعشرين من نيسان، فقد تم نقل مقر قيادة مونتغمري الرئيس إلى ساوثويك هاوس قرب بورتسماوث، حيث سيكون مقر قيادته العملياتي. في اليوم X كان الجنرال بيل وليامز مكلفا بمتابعة أوضاع العدو لدى مجموعة جيش مونتغمري، وهو خبير في غربلة ما يصله من معلومات، يستبعد قليل الأهمية منها، وينقل إلى قائده الأعلى صورة مطابقة لوضع العدو. وفي الخامس عشر من أيار/ مايو سنة 1944 قدم القائد الأعلى لعملية «أوفرلورد»، الجنرال الأميركي أيزنهاور، في مدرسة سان باولي بلندن نظرة عامة عن خطة الغزو الإجمالية، استمع إليها قادة الدولة والقوات المسلحة بحضور الملك، تركت انطباعا مؤثرا لدى سامعيه.

قوَّم مونتغمري وضع ألمانيا في حينه على النحو الآتي[1]: «تقاتل ألمانيا اليوم على جبهات ثلاث: في روسيا، وإيطاليا والبلقان. وسيكون عليها أن تقاتل قريبا على جبهة رابعة. إنها لن تتحمل هذا على الأمد الطويل. صحيح أن لديها فرقا كثيرة، إلا أنها جميعها ضعيفة، وليس بينها فرقة واحدة كاملة القوة. كما أن مدن ألمانيا ومحافظاتها الصناعية تتحول بفعل الهجمات الجوية المستمرة إلى مناطق مقفرة. وبما أن الغارات ستستمر هذا العام بدرجة متزايدة، فإنه لن يبقى الكثير من مدنها الكبرى في نهاية سنة 1944، وألمانيا مطوقة من جميع الجهات، ويمتلك الحلفاء المبادرة في كل مكان. وفي حين نواصل الهجمات الجوية من دون رحمة، سينتقل الروس إلى

(1) المرجع ذاته، ص 269 وما يليها.

هجمات أخرى، بينما تواصل جبهة البحر المتوسط ضغطها. سيتوقف الكثير على نجاح عمليتنا، الذي سيؤدي في تقديري إلى شل تدريجي لقدرة ألمانيا. وسننجح... إن قمنا بعملنا بصورة صائبة، ولم نرتكب أي خطأ، وستحل نهاية المانيا في اعتقادي نهاية هذه السنة... لدينا المبادرة. والعدو لا يعرف أين ومتى سننزل على الشاطئ». إن ستر هذه الـ «أين» والـ «متى»، وإظهار رغبة عملياتية أخرى غير تلك المقررة حقا، كانا نقطة ثقل الاستعدادات التي سبقت عملية «أوفرلورد»، التي لن يكون لها حظ في تحقيق النجاح الصاعق المطلوب، إذا فشلت المفاجأة التكتيكية، وعجزت الوحدات النازلة على الشاطئ عن توطيد مواقعها ودمج رؤوس جسورها التكتيكية في رأس جسر عملياتي قابل للتوسيع، وأخفق الحلفاء في إقامة مطارات على البر الأوروبي لطائراتهم القاذفة / المقاتلة التكتيكية في أقصر وقت ممكن. هذا الهدف الإجمالي وضع الحلفاء له خطة أعطوها اسما سريا هو «فورتيتود».

اتخذ الحلفاء تدابير أولى لحجب «فورتيتود» بينها: قطع أي اتصال منذ شهر شباط/ فبراير 1944 بين المملكة المتحدة وجمهورية إيرلندا، التي لم تكن في حالة حرب مع ألمانيا، وتمكنت المكافحة الألمانية من إقامة شبكة عملاء فيها، التقطت أخبار إنجلترا وحصلت على معلومات إضافية من خلالها. هذا المصدر أغلقه الحلفاء الآن، مثلما أغلقوا في نيسان/ أبريل شريطا ساحليا عريضا في وجه الزوار، يقع بين واش باي وبين لاندر إند على جانبي فيرث أوف فورث، وفرضوا تقييدات غير مألوفة على الديبلوماسيين الأجانب، الذين منعوا كما منع مراسلوهم من مغادرة البلاد أو دخولها، واخضع بريدهم للرقابة[1]. وزاد قادة «فورتيتود» على ذلك بأن

(1) فيلمونت، مرجع سابق، ص 210.

أعلنوا عن هذه التدابير. أعلمت شعبة «الجيوش الأجنبية غرب» رئيس الأركان العامة بالمستجدات، فنقل معلوماتها إلى هتلر، الذي احدث التقرير تأثيرا غير متوقع عليه، فقد أثار اهتمامه، مع أنه كان لا يأبه كثيراً بنتائج عمل الاستخبارات المتخصصة بالعدو، بل ويرفضها بجلافة. وقد تطرق إلى هذا الموضوع في مناقشة الوضع، التي جرت يوم 6 نيسان/أبريل من سنة 1944، وقال حرفياً: «علي أن أقول بصدق أن القضية التي يمثلها الإنجليز تبدو لي كمسرحية. إن المعلومات الجديدة حول تدابير الحظر التي يتخذونها، وإجراءات المكافحة... الخ، التي يتبجحون بها... هي أشياء لا يقوم بها المرء في الوضع الطبيعي، وهي غير ضرورية إطلاقا عندهم. باستطاعتهم تجميع قواهم هنا، ونستطيع دعوتهم ويستطيعون السفر إلينا. ليس بمقدورنا إطلاقا أن نعرف ما يفعلونه هناك. وليس بوسعي التخلص من الانطباع بأن الأمر ربما كان يتعلق، رغم كل شيء، بمجرد خدعة صفيقة»[1].

لم تكن التدابير المتخذة خدعة، كما اعتقد هتلر، الذي ربما كان يراوده الأمل بكسب ممكن للوقت. لقد كانت جزءاً من مخطط «فورتيتود» العام، الذي كان يستهدف طبعا إغلاق مصادر معلومات الألمان الديبلوماسية والمحايدة. فضلا عن أنه كان للخطة في مجملها هدف مختلف نعرفه اليوم، أريد للتدابير الحصيفة، ولحشد قوات الهجوم الحليفة وتوزيعها أن تخدمه، هو إيهام قيادة الالمان العليا أن الغزو سيستهدف منطقة بادو كاليه، التي ركز الحلفاء عليها حربهم الجوية، ووجهوا 95 ٪ منها ضد أهداف تقع شمال ونهر السين وشرقه[2]، فدمروا جميع الجسور بين باريس والهافر، وأجبروا

(1) مناقشات هتلر للأوضاع. أجزاء بروتوكولية من مؤتمراته العسكرية بين 1942 و1945. شتوتجارت 1962، س 556 (مختصر).

(2) فيلموت، ص 211. يؤكد المؤلف صحة هذه المعطيات، لأنه كان قد نقل آنذاك إلى شعبة استخبارات القيادة العليا غرب.

الألمان على تحويل جميع طرق المواصلات بين شمال غرب ووسط غرب فرنسا. وجعلوها تمر عبر منطقة شرق باريس.

مركزة استخبارات الحلفاء المتخصصة بالعدو

تركزت الاستخبارات المتخصصة بالعدو لدى قيادة الحلفاء العليا في أوروبا، التي كان يرأسها الجنرال أيزنهاور، منذ فترة الإعداد لعملية «أوفرلورد»، في يد واحدة هي يد كينيث سترونج، رئيس استخبارات أيزنهاور منذ شباط/فبراير 1943، تاريخ الضربة التي تلقاها الأميركيون في القصرين بتونس، الذي كان قد جمع خبرات عملية مهمة كرئيس للمكافحة التابعة لقوات بريطانيا المسلحة في الوطن الأم. والآن، في سنة 1944، كان من المناسب إعطاء أيزنهاور، القائد الأعلى الجديد، المجدّ، ولكن القليل الخبرة، شخصية تتولى قيادة استخباراته، تعرف قوات ألمانيا المسلحة وتتقن العمل الاستخباري. هكذا وصل سترونج، بعد وقفة قصيرة في إيطاليا، يوم 23 أيار/مايو إلى مقر أيزنهاور العام في بوش بارك غرب لندن. وقد وصل في الدقيقة الأخيرة، كما يقال، بما أن مناورات التضليل كانت قد بدأت منذ وقت طويل، بقيادة الجنرال وايتلي، الذي تولى إدارتها، لكنه عاد الآن إلى موقعه القديم كنائب لقائد شعبة العمليات في قيادة أوروبا العليا الحليفة.

يقول سترونج عن الاستخبارات، التي استلم قيادتها يوم 23 أيار/مايو 1944[1]: «إن المجموعة التي التقت في القيادة العليا ببوش بارك، ربما كانت أفضل مجموعة أركان حرب استخبارية وجدت في يوم، وأكثرها خبرة، فقد انتمى إليها ضباط من البحرية وسلاح الجو... جاؤوا من جميع الوظائف، وامتلكوا أكثر التجارب الحياتية اختلافا، ومؤهلات وخبرات جعلتهم قادرين

(1) سترونج، ص 165 وما يليها.

على إنجاز مهامهم. ومع أن عددا قليلا منهم كان قادرا على العمل بكامل طاقته خلال سنته الاستخبارية الأولى: الفترة التي يحتاج المرء إليها من أجل امتلاك خلفية المواد الاستخبارية الجوهرية، فإن من حسن الطالع أن معظم أعضاء أركاني كان لديهم خبرة تتجاوز العام ـ وكان لشعبة الاستخبارات في القيادة العليا فرعان مهمان... تولت المجموعة الأولى والأهم منهما معالجة المعلومات حول العدو، أي خططه ونواياه ومصادره المساعدة وتعليمات التعبئة لديه. بينما كانت الثانية، أعني مجموعة المكافحة، مسؤولة عن أمن القوات المسلحة الخاصة. وكانت تخوض حرباً مستمرة ضد الجواسيس والعملاء المعادين، لأن تطهير المنطقة الخلفية من المتجسسين كان عظيم الأهمية سواء بالنسبة لتحضير الهجوم، أم لحماية الإمداد».

يصف سترونج، بعد هذا المقطع، من أين كانت تأتي المعلومات عن العدو، أو كيف كان تركيبها. لم تكن عمليات الحصول على المعلومات مختلفة هنا كثيراً عن تلك التي كان يستخدمها الألمان. طبيعي أن الحلفاء وجدوا في مجموعات المقاومة في فرنسا جواسيس إضافيين، بينما تعرضت قوات المانيا المسلحة لخسارة متزايدة في جواسيسها داخل بريطانيا العظمى، فلم يبق لها من وسيلة غير العمل على تشكيك العدو بقوته الخاصة، أو تشويش صورتها الخاصة لديه، بالإيحاء عبر التضليل اللاسلكي، ورايات قيادية مزورة، وسيارات ذات أرقام تضليلية، وعبر نشر الشائعات بوجود تحركات أو تعزيزات للقوات. وقد أظهر ضابط شعبة الأركان الثالثة المسؤول لدى القيادة العليا غرب، المقدم ماير ـ ديترنج، الذي كان المؤلف قد وضع بإمرته طوال هذه الأشهر، خيالا غير مألوف في هذا المجال. بالمناسبة، كان يراد للترسيمة التالية في الحصول على المعلومات أن تكون فاعلة لحظة وقوع الغزو:

1 ـ الاستطلاع الاستخباري (الاستطلاع اللاسلكي).

2 ـ الوثائق التي يتم غنمها.

3 ـ استجواب الأسرى.

4 ـ الاستطلاع على الجبهة.

5 ـ الاستطلاع الجوي.

6 ـ إذاعة العدو

أما ترتيب الحصول على المعلومات فيكون بحسب أهمية المعلومات ووفرتها في الوضع المعطى.

المقاومة كمصدر معلومات

خلال عمله لدى شعبة الاستخبارات في القيادة العليا غرب، شعر المؤلف بوجود مصدر آخر مهم، لا يتعلق، في واقع الحال، بالحشد المعادي، بل بالأوامر والمعلومات التي كانت تتلقاها القوى داخل فرنسا أو مجموعات حرب العصابات في الجبال من لندن، وكانت مهمة لأمن فرنسا بما كان فيها من معلومات عن الغزو ويوم الإنزال، أو تسمح بمعرفته عن موعدهما ومكانهما. كان ضابط المكافحة المقدم رايله مسؤولا عن جمع هذا النوع من المعلومات، فكان يتعاون عن كثب مع ماير ـ ديترنج، الذي يعد كتابه «جبهة الغرب السرية» مصدرا سخيا للمعلومات حول هذا الجانب من تاريخ العمل الاستخباري[1]. قد نجح رايله في تسريب جواسيس موثوقين إلى صفوف المقاومة، مكنوا الجاسوسية المضادة الألمانية من الإبلاغ يوم 1 حزيران/ يونيو 1944 عن أمر تلقته مجموعات المقاومة الفرنسية من لندن

(1) اعتبره الجنرال ماير ديترنج مصدراً موثوقاً. رايله، ص 442.

obeikandl.com

بإعلان أعلى درجات التأهب القتالي. كما أبلغ المقدم رايله يوم 5 حزيران/ يونيو 1944 في الساعة 19 قيادة الاستخبارات لدى قائد الغرب الأعلى أن قوات الغزو غادرت إنجلترا[1]، لكنه لم يقل شيئاً حول مكان الإنزال، الذي كان غير معروف قدر ما كان مجهولا جواب السؤال: هل هناك إنزال واحد أم إنزالات متعددة؟. بالمناسبة، كان المناخ ووضع القمر وحركة المد والجزر غير ملائمة يوم الخامس من حزيران/ يونيو إلى درجة أثارت الشكوك بإمكانية نجاح الإنزال. هل كان الأمر مجرد خدعة؟. لقد توقع الألمان الغزو يوم 15 أيار، بحيث بدت جميع الشروط ملائمة. وعندما لم يقع، اعتقدوا بحدوثه في موعد لاحق، لكنه متأخر جدا. لذلك سافر رومل يوم الرابع من حزيران/ يونيو للاحتفال بعيد ميلاد أحد أفراد اسرته في أيرلنجن قرب أولم، وأخذ المقدم ديترنج، المختص الرئيس في شؤون العدو لدى القائد الأعلى غرب إجازته في الفترة بين 15/ 5 و6/ 6 / 1944، ولم يرجع إلى عمله إلا مساء السادس من حزيران/ يونيو. وقد ناب عنه أثناء غيابه الرائد دورتنباخ، وكان ضابط المكافحة لدى القيادة العليا غرب الرائد برينك، هو ضابط الارتباط معه. عموما، ضمت شعبة الاستخبارات والمكافحة لدى القيادة العليا غرب تسعة ضباط وقادة خاصين (نورد من قبيل المقارنة عدد الضباط العاملين لدى الشعبة المماثلة في القيادة الأميركية، الذي بلغ نحو مئة ضابط)[2]. نجح الحلفاء، على كل حال، في تحقيق مفاجأة تامة، في ما يتعلق بتوقيت الغزو، وأحرزوا نجاحهم رغم تحذير المقدم رايله. هذا التحذير تكرر كثيراً، وكثيراً ما سمع المرء صرخة «لقد جاء الذئب» وكأنه يسمع الحكاية الخرافية المعروفة، مما سبب ضربا من البلادة لدى القيادة،

(1) المرجع ذاته.

(2) ورد هذا الرقم والمعطيات التالية في رسالة بعث بها الجنرال ديترنج إلى المؤلف.

حتى إن خبير شؤون العدو في ذلك الوقت لدى القيادة العليا غرب لم يمض يوم واحد منذ تولى منصبه في تموز/يوليو من سنة 1943 إلا ووصل فيه إلى مكتبه تحذير واحد أو عدة تحذيرات تعلن وقوع الغزو، فضلا عن تحذيرات بلا عدد وصلت إلى الوحدات المقاتلة. هذا الاهتراء الروحي كان أحد نجاحات الاستخبارات الحليفة، إن صح أن مركزها كان هو الذي ينشره. بالمقابل، أسهمت الإمكانات المحدودة إلى أبعد حد، التي حالت دون التأكد من صحة التحذيرات، في تحويل تقويم التحذيرات إلى مجرد لعبة حظ. إليكم ما كتبه فريدريك هاين، ضابط شعبة الأركان الثالثة لدى الفيلق الرابع والثماني في كتابه «غزو 1944» حول هذا النوس المستمر بين الاسترخاء والاستعداد للقتال: «حبست القوات أنفاسها منذ منتصف نيسان/أبريل، فلم يعد أحد في النهاية يأخذ التحذيرات على محمل الجد، بسبب حالة التبلد التي أحدثتها، إلى أن جاء التحذير يوم السادس من حزيران/يونيو 1944 في صورة قصف[1].

مصادر معلومات الحلفاء

كان الحصول على المعلومات قبل الغزو سهلا نسبيا بالنسبة إلى الحلفاء، على العكس منه لدى القيادة العليا غرب الألمانية. وكانت الظروف الخاصة في فرنسا تجعله متاحا بدرجة وافرة، وعلى حد قول لسترونج، فقد جاء الاستطلاع الجوي، في شروط التفوق الجوي الحليف، «بمعلومات هائلة القيمة»[2] في ما يتعلق بالمرافق الدفاعية في النورماندي خاصة، مكنت القيادة من رسم خرائط وضع تفصيلية، وبينت تغيرات الانتشار المكاني للقوات. بذلك، حصل الحلفاء على نظرة عميقة على مواقع تجمع

(1) فريدريك هاين، مرجع سابق، ص 49.
(2) سترونج، ص 167.

الاحتياطي الذي سيتدخل في المعارك. أما حيث كان هناك غموض، فقد أصدر الحلفاء أوامرهم عبر اللاسلكي إلى مجموعات المقاومة المحلية، التي كانت تتم قيادتها بحزم من لندن، يطلبون فيها إنجاز مهام محددة. بالمناسبة، نستطيع أن نقرأ بين أسطر نص سترونج أن الحلفاء كانوا يرفضون الاعتماد على استخبارات الأنصار وقوى فرنسا الداخل وحدهما، لأنهما كثيراً ما بعثا بمعلومات مضللة، وصلتهما من الألمان، وصدقتا خدعا بصرية أوهمتهما بوجود أركان وقوات، كانت قد لفقتها شعبة المكافحة الثالثة بتوجيه من استخبارات القيادة العليا غرب. يقول سترونج حول هذا الموضوع[1]: «يحب بعض الناس أن يفاجأوا، فلا يمكن الحديث عندئذ عن الجاسوسية إلا في أضيق الحدود. لكنه سيكون من قبيل التضليل أن ننسب إلى العملاء دورا قياديا في الاستخبارات العسكرية خلال أزمنة الحرب. هذا لا يعني أن دورهم قد لا يكون حاسم الأهمية في المكافحة (التجسس)، لكن تجاربي في الاستخبارات العسكرية لا تترك للجاسوس عموما غير مكان متواضع جداً في الحصول على المعلومات، رغم أن شجاعتهم وقدرتهم على الابتكار وصلابتهم غالباً ما تثير إعجابا إنسانيا عميقا، وتوجد بالتأكيد اهتماماً كبيراً بهم، لأسباب إنسانية». لا شك في أن حكم سترونج يرتبط بالتجارب، التي اكتسبها مع العملاء والجواسيس الناشطين في فرنسا قبل الغزو، الذين كانوا يعملون في ظروف مثالية، بالمقارنة مع غيرهم، ويتلقون الدعم من أبناء بلدهم، وقد تلقوا إعدادا عسكريا جيدا، فكان بوسعهم الحصول على معلومات سرية مفيدة، عيبها أن العدد الأكبر منها كان يتم جمعه بصورة متقطعة، إذا ما تأملناه بمنظار الباحث. لم يكن الجاسوس مهما إلا عند قيامه بمهام محلية، كأن يؤكد معلومات الاستطلاع الجوي أو يكملها من خلال

(1) سترونج، ص 17.

قيامه برصد محلي. لا غرو إذن في أن الجواسيس أرسلوا إلى إنجلترا من القش أكثر مما أرسلوا من القمح، شأنهم في ذلك شأن معظم الجواسيس الشعبيين، وأنهم أثقلوا بهذا كثيراً على أجهزة استخبارات الحلفاء، وهذا عيب إضافي يجب أن يكون في حسبان كل جهاز استخبارات يستخدم جواسيس.

هل كان ثمة وضوح في مقر أيزنهاور الرئيس حول قوة وحدات ألمانيا المسلحة في فرنسا وتوزعها؟. لا يقدم سترونج معلومات دقيقة حول الموضوع، بينما يلفت النظر، بالمقابل، حديث شستر عن فرق فون روندشتيدت الستين[1]، التي زعم أنها كانت على أهبة الاستعداد يوم السادس من حزيران/يونيو، في حين لم تكن فرق أيزنهاور الـ 37 في كامل جاهزيتها إلا بعد سبعة أسابيع. هذا كان على كل حال حساب ورقي، لأن الفرق الأنجلو / أميركية كان أقوى قتاليا بكثير من مثيلتها الألمانية. فضلا عن أن المهاجم يستطيع عند تحقيق مفاجأة ناجحة أن يكون بسرعة نقاط ثقل يعبئ فيها قوى محلية متفوقة، ويزيد من قدرته هذه أن يكون مجال النقل الجوي والبحري تحت سيطرته فلا يخاف الإعاقة أو الضربات التي قد يقوم بهما سلاح الجو الألماني. يبدو، على كل حال، أن مناورات التضليل الألمانية تركت أثرا واضحا، ذلك أن رونشتيدت لم يكن يملك يوم 6 حزيران/يونيو 60، بل 54 وحدة كبيرة، بينها قرابة سبع وحدات ثابتة، ربطها افتقارها إلى وسائط النقل بالقطاعات التي كانت تدافع عنها، فاستحال تماماً استخدامها في مواقع أخرى من الجبهة، لكنه من غير المؤكد أن أركان استخبارات سترونج كانت تعرف هذه الحقائق بتفاصيلها[87].

مهما يكن من أمر، فقد حرص الحلفاء على تفادي المغامرة، وكانوا

(1) فيلموت، ص 217.

يعرفون طبعا أن الفرقة الحليفة تمتلك قوة نارية وقتالية أعلى وعددا من المقاتلين أكبر بكثير من مثيلتها الألمانية. بالنظر إلى أنه كان هناك احترام لخبرة الألمان القتالية وللصيت الذائع لقوات ألمانيا المسلحة، استهدفت التدابير الإعدادية في مجملها لحظتين: لحظة المباغتة، التي تمكنهم من تحويل رؤوس جسور تكتيكية بسرعة إلى قواعد عملياتية في فرنسا، واستخدام جميع الوسائل المتاحة لإثارة الانطباع بأن الحلفاء يريدون النزول في مكانين مختلفين من البر الفرنسي، ستكون نقطة ثقلهما في جميع الأحوال با دو كاليه، لأن هذا الانطباع سيتكفل بإبقاء كتلة الجيش الألماني الخامس عشر الرئيسة شمال السين. أما في التصورات الألمانية، فقد بدت الكيفية التي سيتم بها الغزو جد تبسيطية، تقوم على الشروع في عمليات تطويق تنطلق من رأسي الإنزال، ستشمل قوات الدفاع الساحلي، كي تقطع عنها الإمدادات وتبيدها. في الواقع، لم يقرر أيزنهاور القيام بعمليات تطويق، بل أراد تركيز جميع القوى على رأس جسر واحد، يقوم فيما بعد باختراق مجال مفتوح.

حجب مخطط «فورتيتود» هذه الرغبة بجميع الوسائل التي يمكن تصورها، فتم، مثلا تجميع الفرق، التي ستتبع موجة الهجوم الأولى، على طريق دوفر، للتظاهر بوجود جيش غزو على شاطئ القنال. للغرض نفسه، حشد في خليج التايمز ومرافئ إنجلترا الجنوبية الشرقية مجسمات عربات إنزال، بينما بنيت في مطارات كنت وأوستانجليان مجسمات ناقلات شراعية، وأقيم في دوفر مقر قوات كامل، وبنيت بصورة استعراضية في الرؤوس الصخرية المقابلة لبولونيا محطة ضخ أنبوب وقود، سيمد قوات الإنزال بالمحروقات، وأقيمت في كل مكان من جنوب شرق إنجلترا مخازن جديدة ومستودعات عملاقة، ومدت شوارع وبنيت أعداد كبيرة من منشآت التخزين والمرافئ، فضلا عن أن المنطقة كانت تعج بالقوات. من الطبيعي أن الأوامر

فرضت صمتا لاسلكيا صارما، تم التقيد به، فلم تحدث غير خروقات جد قليلة له، وإن انفردت وحدات سلاح الجو باتصالاتها اللاسلكية، عندما كانت تقوم بمهامها، فكانت معظم الأحيان مصدر المعلومات الوحيد بالنسبة إلى استطلاع الألمان اللاسلكي اليقظ، الذي لم ينجح أبدا في معرفة الأمر الأكثر أهمية: أين وكيف نزل الحلفاء على الشاطئ. ثمة قضية غريبة ساعدت الحلفاء على ذلك.

«الجيوش الاجنبية غرب» تخدع نفسها

عرفت القيادة العليا الألمانية واقعتين على درجة عالية من الغرابة، قبل غزو سنة 1944، انصبت أولاهما على القوة المحتملة للقوات التي ستنفذه، ونجمت الثانية عن حدس هتلر. ومع أنهما فريدتان في تاريخ الحروب الحديثة، فإنه لم يكن لهما أي تأثير، أو كان كان لهما تأثير محدود وحسب على مسار الحدث الكبير، أعني معركة فرنسا والهزيمة التي منيت بها القوات المسلحة الألمانية فيها. هاتان الواقعتان يجب أن توصفا بالغريبتين، وقد كان لهما كلتاهما تاريخ سابق.

ظهرت شتاء ومطلع سنة 1944 فرق حليفة وهمية على الخرائط الميدانية «للجيوش الأجنبية غرب»، انتشر شبحها عبر تقاريرها جميعها، بدءا من ذلك الوقت. لماذا نشأ هذا الوهم؟. لم يكن هذا التضليل موجها إلى «اهل العلم»، بل كان هدفه القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية، الذي كان يلاحق بشكوكه منذ وقت طويل معلومات شعبة المكافحة بقيادة كاناريس، التي كانت قد فشلت في سلسلة كاملة من الحالات، مما أدى إلى حلها وحصول الاستخبارات على ثقة هتلر، بضمانة هملر. بما أن هذا كان ميالا إلى رؤية وردية للوضع، وتقدير قوة العدو بأقل مما هي عليه، فقد وجد رئيس «الجيوش الأجنبية غرب»، عقيد الاستخبارات الأمير فون رونه، سببا

يبرر مبالغته في قوة العدو، هو الحيلولة بين هتلر وبين سحب وحدات من الغرب يتطلب الدفاع عنه بقاءها فيه. عندما قدم هملر والاستخبارات صورة متفائلة جداً للوضع في الغرب، فكر القوم بمخرج يحول دون إضعاف الجبهة كثيراً ما اعتمد في تاريخ الاستخبارات السرية: جعل العدو أقوى بفضل عدد من «الفرق الوهمية»، التي لم يكن لها وجود، أو كانت تقاتل في مواقع أخرى من الجبهة. أما خريطة الوضع التي ارتسمت بهذه الطريقة، فاعتبرت من ذلك الوقت فصاعدا صحيحة تماما، وعززت اقتناع القيادة العليا غرب بأن الحلفاء يخططون لإنزال ثان، وأن لديهم وحدات أكثر من كافية لذلك. هكذا حشدت «الجيوش الأجنبية غرب» ما لا يقل عن ثلاثين وحدة كبيرة إضافية، كانت تقف على أهبة الاستعداد على الورق، بعد فترة طويلة من بدء الغزو، على حد قول شستر فيلموت: «برر رئيس الشعبة العقيد ڤون رونه هذا التزوير، الذي قامت به أركانه، بالقول: إذا كانت الاستخبارات ستخفض هذه التقديرات جريا على عادتها، فإن تقريرها الأخير سيكون، بفضل هذه الفرق الوهمية، أقرب إلى الحقيقة. وقد حققت هذه الحيلة هدفها المباشر نهاية شتاء 1944، وعززت نظرة أكثر واقعية إلى الوضع، غير أنه تبين أن تحميل الفرق الشبحية على الخرائط كان أسهل بكثير من التخلص منها، وأنها بلبلت القيادة العليا الألمانية لدى إجراء تقويم للعمليات، طوال أشهر كثيرة بعد اليوم X[1]»، ومارست تأثيرها على الواقع حتى خلال الإنزال ذاته، فقد كان لها نفوذ قوي على تصورات الألمان لنوايا الحلفاء، وأقنعت «فوق» أن العدو قوي إلى درجة يستطيع معها النزول على شاطئين مختلفين وبعيدين بعضهما عن بعض، وأنه سيبدأ بعد ذلك عملية تطويق للألمان:

(1) فيلموت، ص 198. كان العقيد رونه أحد ضحايا العشرين من تموز/يوليو. لذلك لم يمكن الاستماع إلى الأسباب التي جعلته يتصرف بالطريقة التي نعرفها.

وهو ما كان مرجحا أن يقوم به رونشتيدت، لو كان في وضع أيزنهاور. بهذه النظرة، تمسكت القيادة الألمانية حتى احتلال شيبورغ يوم 26 حزيران/ يونيو بفكرة أن با دو كاليه هي نقطة الإنزال الثانية المحتملة، حيث المسافة بين الجزر البريطانية والبر الأوروبي هي الأقل، ومنطقة حوض الرور، قلب ألمانيا الصناعي، هي الأقرب. بذلك، نجحت أركان «فورتيتود» في خداع الألمان حول نوايا جيش الغزو العملياتية، فضلا عن نجاحها في إحداث المفاجأة التكتيكية. مع ذلك، لا يعبر سترونج عن حقيقة الظروف، عندما يكتب[1]: «مهما كانت الأخطاء التي اقترفتها استخبارات الحلفاء خلال الحرب، فإن أيا منها لا يمكن مقارنته بخطأ الألمان الفظيع، وبعجزهم عن معرفة أنه خطأ. لو نقلت القيادة الألمانية فرقها في الأيام الأولى من بادوكاليه إلى النورماندي، حين كان سوء الأحوال الجوية يحول دون بناء الجبهة الحليفة ويعوق الدعم الجوي، لواجه غزو الحلفاء أوقاتا شديدة الصعوبة». فهل كان نقلها ممكنا في الواقع؟. سبقت الإشارة إلى أن جميع جسور السين بين باريس ومصب السين كانت قد دمرت، وأن قسما من فرق الجيش الخامس عشر بالذات كان فرقا ثابتة، فضلا عن أن معظمها كان مقيدا بمواقعه، فكان الوقت اللازم لنقلها إلى النورماندي طويلا إلى درجة أنها كانت ستصل جميعها متأخرة، حتى لو صدرت إليها أوامر التحرك في السادس من حزيران. المسألة الأخرى هي ما إذا كانت القيادة العليا غرب ومقر الفوهرر الرئيس قد عرفا الوضع على حقيقته: في هذه الحالة، ربما كان من الضروري القيام بتحريك فوري للاحتياطي العملياتي، الموجود جنوب السين، الذي كان سيضغط بشدة على وحدات الإنزال الحليف الأولى. لماذا لم يحدث هذا؟. لسبب غريب هو الآتي: في معظم الأحيان،

(1) سترونج، ص 178.

تلعب لحظات غير عقلانية دورا حاسما في الحرب، أو تلعب المصادفة، التي يؤكد كلاوزيفتز عليها بصورة خاصة، هذا الدور.

حدس هتلر

لا بد من تسجيل أمر غريب آخر حدث بالارتباط مع الغزو، ويستحق اهتمام معاصرينا. ينصب الأمر هذه المرة على هتلر شخصيا. في منتصف نيسان/أبريل، قبل أسابيع ثمانية من بدء الإنزال، حدث ما أقلق قيادة الحلفاء العليا، التي عرفت عبر استطلاعها الجوي أن العدو يزرع المناطق، التي ستنزل فيها موجات المظليين الأولى بما كان يسمى «هليون رومل»، وهي أعمدة وخوازيق تغرس بقوة في الأرض. ما الذي حدث؟. هل باح أحد بخطة الغزو؟. لم تكشف التحقيقات والتدقيقات عن مواقع رخوة[1]، وإن كانت المكافحة الألمانية تعرف من عملائها القليلين، الذين لا زالوا يتمتعون بحرية الحركة، أن هناك تجمعات سفن وقوات لا تني تتعزز منذ مطلع سنة 1944. لكن المكافحة لم تستطع الرد بأي صورة من الصور على سؤال القيادة العليا غرب ومجموعة الجيش (ب)، التابع للمارشال رومل: متى، أين، وبأي قوى سيتم الإنزال. لم ينجح أي جاسوس ألماني في التغلغل إلى الأركان الحليفة العليا، فلم يكن بوسع أحد غير مكافحة الجاسوسية العسكرية الإبلاغ عن واقعة «أن قيادات أجهزة الاستخبارات المعادية، المرابطة في لندن، تحاول منذ مطلع سنة 1943 استطلاع منطقة باريس ومنها في اتجاه كاين وشيربورغ، باستخدام قوى تلفت قدرتها الأنظار»[2]. توصل إلى هذه النتيجة الجلية من قوموا المهام التجسسية، التي كلفت لندن بها عملاءها في فرنسا، وعرفت المكافحة عنها بواسطة عملائها في مجموعات

(1) فيلموت، ص 212 وما يليها.

(2) رايله، ص 432.

المقاومة الفرنسية، وتم طبعا إبلاغ قيادة الجيش العليا و«الجيوش الأجنبية غرب» بها، عبر ضباط استخبارات القيادة العليا غرب.

هل وضعت هذه المعلومات جميعها أمام هتلر، وهل أولاها اهتمامه من دون استثناء أي واحدة منها؟. لم يعد ممكنا التأكد من ذلك بصورة قاطعة، وإن كان القائد الأعلى أصدر مطلع نيسان/أبريل سنة 1944 واحدا من إيعازاته الغريبة، وكان الأخير في الحرب العالمية الثانية: تبعه أمر صدر عنه يطلب تعزيز شاطئ النورماندي بالسرعة القصوى[1]. ربما كانت اوراق «شيشرون» هي التي دفعته إلى إصدار أمره، لكنه من الثابت أنه لم يكن هناك إلى اللحظة غير أربع فرق مشاة، تقف وراءها فرقتا تدخل احتياطيتان، في المنطقة الواقعة بين مصب السين وأفرانش عند أقدام شبه جزيرة كوتانتان. إلى هذا، كانت فرقة دبابات الـ إس إس الثانية عشرة (شبيبة هتلر) مرابطة بين السين والأورن كاحتياطي عملياتي. هذا الوضع ما لبث أن تغير حتى مطلع حزيران/يونيو 1944: عندما تلقى الدفاع الساحلي من مصب السين إلى كوتانس نحو سبع فرق مشاة، انتشرت وراءها الفرقة الحادية والعشرون المدرعة، مدعومة بفوج مظليين وكتيبة تدخل سريع. إلى جانب وحدات روسية رابطت بين كوتانس وأفرانش، من مجموعة الجيش الرابع والثمانين التابعة لجنرال المدفعية إيريش ماركس[2]، الذي كان يعتبر قائدا بارزا. بينما رابطت في البروتانيه فرقة المشاة السابعة والسبعون حديثة التشكيل، وكانت

(1) فارلينمونت، ص 438.

(2) أجرى المؤلف قبل الغزو محادثات مطولة متكررة مع رئيسه السابق لدى قيادة الجيش الثامن عشر العليا، الذي أصيب بجروح شديدة مع بداية حرب روسيا سنة 1941 وقطعت ساقه جنرال المدفعية إيريش ماركوس، وهو الآن جنرال قائد للمجموعة 84 في النورماندي. لا بد أن ألاحظ هنا أنه في خريف سنة 1943 نظم العقيد ماير ـ ديترينج لضباط استخبارات مجموعة الجيش (ب) مناورة على الخرائط ترتكز على حدوث إنزال حليف على شاطئ النورماندي.

الفرقة المدرعة، التي أعيد تشكيلها في أيار/مايو من سنة 1944 منتشرة في المنطقة جنوب غرب شارتر، كجزء من الاحتياطي الاستراتيجي الموجود في المناطق الخلفية. لقد قام هتلر ببعض التدابير، لكنه تبع في ذلك غريزته أكثر من أجهزة استخباراته، علما بأنه لم يكن هناك جهاز استخبارات مركزي في أركان قيادة القوات المسلحة، يقبل المقارنة ولو من بعيد بجهاز سترونج التابع لقيادة الحلفاء العليا في أوروبا. وكان يوجد موقع استخباري، لكن الضابط المتخصص بمعالجة المعلومات فيه، لم يشارك في مناقشات الوضع اليومية، التي يجريها الفوهرر، ولم يستقبله القائد الأعلى كي يستمع إلى التقرير الدوري منه[88]. بدورها، افتقرت المكافحة وشعب «الجيوش الأجنبية» إلى رأس موحد، ولم يكن لدى المكافحة جهاز تقويم خاص بها، فكان جهاز الاستخبارات الألمانية في الحرب العالمية الثانية كلياً بالمعنى الحرفي «فوق». من جانبه، لم يكن لدى القائد الأعلى غرب غير شعبة استخبارات / قيادة عليا، عرفت بالتأكيد أن الغزو آتٍ، لكنها لم تعرف بدقة يوم 5 حزيران/يونيو: متى وأين وكيف سيقع. والحق، لم يتوقع أي موقع قيادي باستثناء رايله قدوم قوات الغزو يوم السادس من حزيران/يونيو. أما هتلر، فقد غط في النوم على البرجهوف فوق برشتسجادن إلى وقت متقدم من قبل الظهر، ولم يوقظه الجنرال يودل، عضو ما كان يسمى المستشارية الصغيرة، مع أنه كان على بعد نصف ساعة منه بالسيارة.

في مقر رومل الرئيس من 4 إلى 6 حزيران/يونيو 1944

«انقلب المناخ يوم الرابع من حزيران/يونيو إلى أمطار ورياح غربية عاصفة... غادر رومل مبكرا في السادسة صباحا إلى المانيا. وقال حول لحظة سفره: يقل القلق من احتمال حدوث غزو في الفترة بين المغادرة والرجوع، لأن الأحوال الجوية ستكون غير ملائمة إلى أبعد حد في الأيام

التالية، والاستطلاع الجوي لم يقدم أي شيء يشير إلى وجود إنزال مباشر وشيك. وكان قد ناقش قبل سفره مع شبايدل، رئيس أركان مجموعة الجيش (ب)، تفاصيل التدابير التي يجب اتخاذها في حال وقوع هجوم، وأعد الرجلان بعناية لاستنفار القوات وأركانها، علما بأن القدرات الدفاعية كانت قد ازدادت بدرجة كبيرة خلال الأشهر الخمسة ونصف من عمله في الغرب، من دون أن تكون قد انتهت بعد، ففي حين كان زرع الألغام جاريا على قدم وساق، لم يكن قد بدأ بعد تقريبا بناء عوائق متقدمة في مواقع كثيرة، وكانت النقطة الأكثر ضعفا في مجمل الدفاع تكمن في أن الفرق المدرعة لم تكن قد اقتربت بعد إلى المسافة اللازمة وراء «حزام رومل»، التي تمكنها من التدخل الفوري لدى وقوع هجوم، وتقديم المساندة المطلوبة للمشاة». هذا ما كتبه نائب الأميرال السابق فريدريك روجه، أميرال البحرية الحربية في حينه لدى مجموعة جيش رومل، في مذكراته «رومل والغزو»[1]، قبل أن يضيف: «لم يكن هناك صباح الخامس من حزيران/ يونيو 1944 ما يشير إلى أن قرار الهجوم قد اتخذ على الجانب الآخر من القنال، وأن أرمادا عملاقة شرعت تتحرك، وأن العاصفة ستهب على قلعة أوروبا. كان كل واحد في مقر مجموعة الجيش (ب) يقوم بخدمته كما في الأيام الهادئة... وكان شبايدل قد دعا مجموعة مهمة إلى العشاء، كالكاتب أرنست يونجر، الذي كان يخدم كمقدم لدى القائد العسكري، والقنصل العام بفايفر، الذي امضى سنوات كثيرة في روسيا بعد سنة 1926، وكان سنة 1940 في إيطاليا و1942 في الجزائر، حيث سجن، ثم عاد قبل فترة قصيرة من الولايات المتحدة، والعقيد ليس، الذي كان في القيادة العليا للجيش، وأصيب كقائد فوج بجراح شديدة جداً في روسيا، والمراسل الحربي ريتر فون شرام، وصهر شبايدل الدكتور هورست، العامل لدى الإدارة

(1) فريدريك روجه: رومل والغزو، ص 166 وما يليها.

العسكرية... وكان الحوار حيويا إلى أبعد حد، دار حول إيطاليا، روسيا وسياسة فرنسا... ونواقص هتلر، والظروف في الولايات المتحدة وموضوعات أخرى كثيرة. بعد تناول طعام العشاء، قمنا بنزهة على الأقدام عبر الحديقة، ونحن نواصل النقاش». سيدخل المؤلف هنا ذكرياته الخاصة: ذهب معظم السادة الذين ذكرت أسماؤهم بعد النزهة إلى غرفة الطعام، ليواصلوا سمرهم الحار، الذي انفرد به أساسا العقيد ليس، وحكى عن براوشيتش وهالدر وماكنزن العجوز. في هذه الأثناء، اصطحب شبايدل إرنست يونجر ودكتور هورست وشرام إلى مكتبه. بعد قليل وضع كتاب السلام ليونجر على الطاولة، التي كنا قد جلسنا حولها، فرحبنا بتصوره بأصوات مكتومة وتداولنا في خياراته. قبل منتصف الليل بقليل، عاد يونجر وبفايفر إلى باريس، بينما واصلنا نحن حديثنا، الذي وجه شبايدل خلاله نقدا شديد الحدة إلى هتلر وألمح إلى أن وقت تحرير ألمانيا منه قد حان. لم يتحدث أحد عن الغزو، في الساعات الأخيرة قبل الإنزال الأول، التي تحركت خلالها أرمادا مخيفة للهجوم على قلعة أوروبا، من دون أن نعلم به. كان رئيس أركان مجموعة جيش رومل يتحدث عن السلام ولا شيء سواه، كما نسيت من جانبي الحرب خلال هذا الحديث...

بعد منتصف الليل بساعة، كان القلق باديا للعيان في قصر لاروش - غيويون، حيث اختلف الجو تماما. حين رن الهاتف لدى شبايدل، ذهبت إلى غرفة الاستقبال، حيث كان الضابط المرافق يؤدي عمله ؛ مددت يدي والتقطت بطريقة ميكانيكية رسالة لاسلكية كانت أمامه على الطاولة، فوجدت أنها تتضمن إلى جانب بلاغ عسكري قصير الأبيات العجيبة الحزينة من قصيدة الشتاء لفيرلين، التي تبدأ بالكلمات التالية: «التأوهات الطويلة لكمانات الخريف». ذلك كان البيت الأول، تلاه البيت الثاني في البرقية، الذي قال نصه: «تجرح قلبي برتابتها الطويلة». ما معنى هذا؟. سألت

الضابط المرافق مستغربا. فرد بلهجة ساخرة «إنه الغزو». بعد ذلك بقليل، في الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة، جاء شبايدل من غرفته، هادئا ومتماسكا كعادته. وكانت شعبة قيادة الجيش السابع في لومان قد أبلغت للتو عن إسقاط مظليين على الشاطئ الشرقي لشبه جزيرة كوتانتان. «هل هذا هو الغزو؟». سألت شبايدل، الذي أجابني بهدوء: «من الممكن أن نكون حيال مناورة تضليلية»، وأضاف «مهما يكن من أمر، فقد بدأت اللعبة».

ثم حدث أمر غريب: كان يجب أن يعرف مقر الفوهرر الرئيس في هذا الوقت أن الغزو بدأ. صحيح أنه لم يعلن عنه أي جاسوس أو أي جهاز استخبارات متخصص بالعدو. لكن مقر الفوهرر الرئيس عرف في الخامس من حزيران/يونيو بطريقة أخرى أن الغزو وشيك الوقوع، بوصول أبيات فرلين ومعناها في الوقت الصحيح إلى الجنرال يودل، رئيس أركان القوات المسلحة[1].

أنبأ موقع المكافحة في الجيش الخامس عشر قيادته بالخبر، ولفت نظرها إلى تعميم البيت الثاني منذ ليلة الرابع من حزيران/يونيو وهذا كان أمراً حاسماً، لأن الجواسيس، الذين تم تسريبهم إلى المقاومة، نقلوا إلى الألمان معنى البيت، وهو أن الغزو سيبدأ بعد ثمان وأربعين ساعة. بعد تلقيه الخبر، أمر العماد فون سالموث، قائد الجيش الخامس عشر، بإعلان حالة الاستنفار القصوى. لماذا لم يتم تحذير الجيش السابع، المرابط على ساحل النورماندي غرب مصب نهر أورنه؟. هذا ما لا يعرفه أحد. وتبقى مجهولة كذلك الأسباب التي جعلت رئيس أركان القوات المسلحة يمتنع عن إيلاء أي أهمية تذكر لنبأ الغزو، الذي وصله بعد ظهر الخامس من حزيران/يونيو. هل ارتبط هذا التجاهل بالأزمة حول المكافحة، التي تدهورت إنجازاتها

(1) نتابع هنا كتاب فارليمونت، ص 432 وما يليها.

تدهورا مستمرا في مجرى الحرب، إلى أن غدت غير مرضية البتة، وجعلت نقطة ثقل جمع المعلومات تذهب إلى وسطاء آخرين ووسائل أخرى؟. كانت الحاجة، في النصف الثاني من الحرب، قوية بدرجة غير مسبوقة إلى مكافحة الجاسوسية، أي إلى شعبة المكافحة بمواقعها الخارجية وجاسوسيتها المضادة، والتي كانت الجهة الوحيدة في فرنسا، التي أرسلت تحذيرا مسبقا حول الغزو، كما يتضح من تسلسل الأحداث الزمني[1].

1/ 6/ 1944: نحو الساعة 18: يلتقط الرصد اللاسلكي في فندق لاتسيا، مقر المكافحة الرئيس في فرنسا، 26 رسالة برقية لإذاعة BBC، تتضمن أوامر كثيرة بإعلان أعلى درجات الاستعداد القتالي.

5 حزيران/ يونيو: الساعة 18: نشر أبيات فيرلين، ومنها البيت الثاني.

19.30: يبلغ المقدم رايله، مدير الموقع 3 غرب في استطلاع الجبهة، الرائد برينك، نائب ضابط شعبة الأركان الثالثة الغائب في إجازة، كتابيا وشفهيا أن الرسائل، التي تم بثها نحو الساعة 18 من يوم 5 حزيران/ يونيو، تعني: «أن الغزو قد بدأ، وأن عليهم الانتقال فورا إلى تنفيذ المهام المسندة إليهم في اليوم إكس». وقد تم إبلاغ ضابط المكافحة في القيادة العليا للجيش الخامس عشر في شمال فرنسا بالنبأ مباشرة أو في الوقت نفسه، فلماذا لم تبلّغ القيادة العليا للجيش السابع، التي كانت الإمرة لها على ساحل النورماندي؟. الجواب واضح: لأن الجميع كانوا متأكدين من أن نقطة ثقل الإنزال ستكون على شاطئ القنال.

تحتل أهمية خاصة هنا شهادة الجنرال فارليمونت، نائب رئيس شعبة القيادة في الأركان العامة للقوات المسلحة، الذي كتب في مذكراته[2]:

(1) رايله، ص 442.

(2) فارليمنونت: ص 432.

«عشية الغزو، في الخامس من حزيران/يونيو سنة 1944، لم يكن المقر الرئيس الألماني متأكدا على الإطلاق من أن وقوع حدث الحرب الحاسم صار مباشرا، فقد فشل الاستطلاع في اكتشاف أكثر من خمسة آلاف سفينة، كانت تتحرك منذ اربع وعشرين ساعة عبر القنال في اتجاه شاطئ النورماندي، ولم ير أي تقويم للوضع، سواء أجراه رومل أو رونشتيدت أو رئاسة أركان القوات المسلحة، أن الأحوال الجوية والمد والجزر يجعلان الإنزال محتملا في الوقت التالي... في ظل العمى، الذي أصاب مراتب القيادة الألمانية في سائر مستوياتها، بسبب الدونية الكاملة لسلاحها الجوي، يبدو أمرا عصيا على الفهم أن لا تقيم هذه وزنا لإشارات جهاز المكافحة التحذيرية، التي وصلتها في الوقت الملائم - حسب علم المؤلف -. ألم يكن معروفا في دائرة الحظر الثانية أن «صمتا لاسلكيا» تاما يسود منذ بضعة أيام في منطقة الحشد الإنجليزية الجنوبية، وأن هذا أمر مألوف، شأنه شأن الإشارات التي تستخدم للتضليل، عندما يكون ثمة هجوم وشيك؟. ألم يعرف أحد أنه وصل منذ كانون الثاني/يناير سنة 1944 إلى الأميرال كاناريس نص رسالة برقية قيل إن الإذاعات الإنجليزية ستبثها قبل الغزو بقليل، لتكون إشارة تحذير موجهة إلى المقاومة الفرنسية، هو بيتا شعر فيرلين؟.

بعد الأخبار الدقيقة حول الإنزال المظلي على شاطئ النورماندي، لم يعتبر أحد الأحداث «مأسوية»، كما يقال في حالات كهذه. هذا ما تؤكده التسجيلات التالية في اليوميات الهاتفية لضابط شعبة الأركان الثالثة، التابع للقائد الأعلى غرب، وهي مدونات أصلية:

6/ 6/ 1944: مخابرة من ضابط الخدمة: توجد قفزات مظلية على شبه جزيرة كونتانان قرب كاين جنوب مصب السين. ومواعين شحن بحري في مصب أورنه.

02.05: مخابرة من ضابط أول في الأركان العامة: تعتبر الحالة هادئة مؤقتا. القيادة العامة للجيش 84 اعلنت الاستنفار من الدرجة الثانية.

0.300: مخابرة من الرائد دورتنباخ لدى مجموعة الجيش (ب): رئيس مجموعة الجيش (ب) يعتبر الوضع هادئا جدا. ثمة إمكانية لوقوع خطأ يتعلق بقفز أطقم طائرات بالمظلات.

03.05: مخابرة من الرائد ڤون شاپر/الرائد دورتنباخ: طائرات كثيرة تطير ببطء فوق جزر القنال.

03.10: مخابرة قائد الاستطلاع الاستخباري الشعبة الخامسة المقدم ريختر / المقدم هايلمان: رسائل مشفرة كثيرة بدرجة لافتة في الساعات الأخيرة. فضلا عن رسالتين عملياتيتين عاجلتين في شبكة البحرية، ورسالة في شبكة الجيش.

03.15: مقدم الأركان الثالث شتاوبڤاسر (مجموعة الجيش ب) / الرائد دورتنباخ: إعلام حول الأخبار المتوفرة إلى الآن.

03.19: قيادة الجيش الأول العليا (جنوب فرنسا) تبلغ الرائد دورتنباخ أن الوضع هادئ.

03.50: قائد الاستطلاع الاستخباري، الشعبة الخامسة المقدم ريختر / المقدم هايلمان: الاتصالات اللاسلكية في إنجلترا تضعف ببطء منذ الساعة 02.00. الحالة في الساعة 10.50: منذ 02.35 اختفت اتصالات القيادة اللاسلكية فجأة (بعد تعميم الرسالة العملياتية الملحة). الاتصالات على الموجات القصيرة عادية على الأرجح.

03.50: مخابرة الرائد دورتنباخ / المقدم جوتزه: قصف شيربورج، الإنزال سيتم في مصب أورنه.

04.50: مخابرة الرائد دورتنباخ إلى «الجيوش الأجنبية غرب» (المقدم فيتسر): يعلن الرائد كل ما تم الإبلاغ عنه إلى الآن. ليس الوضع جديا وخطير.

استمر الأمر أكثر من خمس ساعات أخرى، قبل أن تعرف القيادة العليا غرب حقيقة ما كان يجري. لقد نجحت مفاجأة القوات المسلحة الألمانية، ليس بسبب البحر المضطرب وحده، الذي لم يتوقع أي «خبير» حدوث إنزال فيه، ولم تتوقعه أيضاً البحرية بالذات. صحيح أن الإنزال في قوة ريح تبلغ 7 درجات، كان مخاطرة غير مألوفة، لكن هذه المخاطرة بالذات هي التي حسمت الأمر في النهاية. كما أن الأحوال الجوية السيئة هي التي جعلت الاستطلاع الجوي، المقيد بدرجة غير مألوفة، أعمى تماما، وشلت الاستطلاع البحري. هكذا خرج جهاز الاستخبارات الألماني المتخصص بالعدو تكتيكيا من المعركة مع بدء الغزو، واصيبت القيادة الالمانية العليا والأعلى عمليا بالعمى، وغدت «صماء» بسبب الصمت اللاسلكي، الذي كان يسود «هناك». وعلى كل حال، فإن الاستطلاع الالماني كان يجلب منذ أشهر معلومات قليلة القيمة حول الحشد في جنوب إنجلترا، بعكس ما كان يحصل عليه من معلومات حول الهجمات السوفياتية: أما السبب، فهو أن الناس في إنجلترا كانوا يستخدمون الهاتف، بينما كان استخدامه مقيدا جداً لدى الروس.

هذه العوامل مجتمعة، كانت كارثية بالنسبة للتقويم العملياتي للوضع، فأتت مناورات تمويه وحجب «عملية فورتيتود» أكلها هنا أيضاً. ومع أن الدفاع على شاطئ النورماندي كان قد تعزز في ما يخص بالقوات، إلا أن القائمين عليه صدقوا أطروحته، التي رأت: أن الغزو الرئيس سيتم على شواطيء القنال، فاستنفرت الجيش الخامس عشر، بينما اكتفت مجموعة

ماركس على النورماندي بإعلان استنفار من الدرجة الثانية. لقد أخطأ الألمان في قراءة نوايا العدو الحقيقية، وعجزوا عن كشفها، فكان عليهم الانتظار، ريثما تكشف نفسها بنفسها، وخسروا بذلك وقتا ثمينا يستحيل تعويضه، هو ليلة السادس من حزيران/ يونيو 1944، التي كان ممكنا فيها وحدها القيام بتحركات كبيرة للقوات وشن هجمات مضادة بوحدات قوية. في هذه الحالة، كان يجب أخذ نار مدفعية سفن العدو الثقيلة الرادعة بالحسبان، التي غرق فيها فيما بعد الهجوم المضاد للفرقة 21 المدرعة.

بقيت كتلة جيش العماد فون سالموث الخامس عشر، بفرق مشاته الأربع عشرة، التي كان نصفها ثابتا وغير قابل للاستخدام العملياتي، مجمدة في شمال فرنسا. لئن كان من غير الممكن تجاهل نقاط التشابه بين الوظيفة التعطيلية لخط ماجينو سنة 1940 ولجدار الأطلسي سنة 1944، فإنه لا بد من القول أيضاً إن ما حسم الأمور هو في نهاية الأمر التضليل المنهجي، الذي مورس على عملية «فورتيتود». عندما أرسلت قيادة الجيش الخامس عشر العليا بعض الفرق المتحركة ذات القدرة القتالية العالية إلى جبهة النورماندي، كانت خطوتها متأخرة جدا، لأن الحلفاء كانوا قد أقاموا رأس إنزال، وسعوه بعد حين إلى قاعدة عملياتية برية، ثم عمقوه وأقاموا فيه مطارات لطائراتهم القاذفة المقاتلة. وبعد المرافئ الصنعية، كسبوا باستيلائهم على شيربورج مرفأ كامل البناء، تمكنوا من وضعه في الخدمة بعد بعض الوقت. بفضل هذه النجاحات، حقق الأميركيون في نهاية تموز/ يوليو اختراقا في اتجاه الجنوب، بعد معارك شديدة بدا فيها تفوقهم المتنوع الأوجه على الفرق الألمانية، التي كانت أدنى قوة وصعبة التحريك في كتلتها الأكبر، تفوق زادته سيطرة طيرانهم الجوية المطلقة. لم يشأ هتلر تصديق هذا، حتى بعد كارثة فاليز وإخلاء فرنسا الشبيه بالهرب، الذي حدث بعدها مباشرة، وإلا لما شن في

كانون الأول/ديسمبر من سنة 1944 هجوم الأردين، الذي قدم فرصة للاستخبارات الالمانية مكنتها من ممارسة عمليات خداع وحجب وستر، فاقت في حذقها ما عرفته عملية «فورتيتود»، لم يفها تاريخ الحرب في إطاره العام حقها إلى يومنا هذا، باستثناء ما جاء في دراسة في الخارج المحايد، ظهرت في دار نشر تكاد تكون غير معروفة[89].

obeikandl.com

الفصل الثاني

هجوم الأردين: السرية الكاملة

الانتقام لـ «أوفرلورد»

نجح غزو 1944، المسمى أوفرلورد، في أن يكون مفاجأة للألمان، بل انه نجح بإتقان قل نظيره في تاريخ الحرب. لكن هجوم الأردين الألماني، الذي وقع في العام نفسه، تفوق عليه، في كل ما يتعلق بهذا الجانب، حتى ليجوز القول مع شيء من التقييد: إن أجهزة الاستخبارات العدوة في الغرب بزت بعضها البعض مرة أخرى في سنة الحرب قبل الأخيرة، فخدع الحلفاء الألمان أول الأمر، ثم خدع الألمان الحلفاء. غير أن الظروف الألمانية كانت مختلفة في أحد جوانبها عن ظروف الطرف المقابل، ذلك أنه لم يوجد في القوات المسلحة الألمانية أو في أركان قيادتها رئيس حقيقي للاستخبارات المتخصصة بالعدو، مثلما كان الأمر في أركان أيزنهاور. ولم يوضع الإعداد الاستخباري لهجوم الأردين الألماني في أواخر سنة 1944 بين أيدي أركان خاصة كبيرة مثلما وضعت مثلا عملية «فورتيتود»، بل ألقي عبئها بالأحرى على عاتق شعبة نائب رئيس الأركان للعمليات (جيش) في أركان قيادة القوات المسلحة، التي تحمل قادتها المسؤولية عنها، وخاصة منهم ضابط شعبة الأركان الثالثة السابق لدى القائد الأعلى غرب، ثم عقيد الأركان العامة فيلهلم ماير ـ ديترينج، الذي وظف خبرة سنوات استخبارية أربع، ليجعل من هجوم الأردين مفاجأة ناجحة. ثمة أيضاً حافز تعويضي غير واعٍ ربما لعب

دوره في اللعبة، هو الرغبة في محو جرح السادس من حزيران/ يونيو 1944 بطريقة تشبه على وجه التقريب ما حدث بعد سقطة بداية حرب 1914، التي جعلت من الجنرال اللاحق فيلجيبل أستاذ الاتصالات الاستخبارية العملياتية، والمؤسس الحقيقي للاستطلاع البرقي الألماني.

كان التحضير لهجوم الأردين الألماني نسيج وحده في كل ما يتعلق بالسرية والتمويه، والحجب. وهو إنجاز ثمنته دراسة وثائقية كتبها سويسري هو ضابط الاستخبارات والمكافحة المقدم في الأركان العامة ف. شاوفلبرجر[1]، وتعتبر برهانا على تضامن المتخصصين الأوربيين في هذا المجال.

قدم شاوفلبرجر لدراسته بنظرة عامة، ثم أورد تغطية وثائقية تفصيلية للتدابير التي اتخذت من أجل إضفاء السرية على تحضيرات الألمان للهجوم، وحققتها بالفعل، بما أنه لم يكن هناك، في كانون الثاني/ يناير من سنة 1944، مواقع ألمانية رخوة، بدءا من أركان قيادة القوات المسلحة مرورا بقيادتها العليا وصولا إلى الأركان العامة للقائد الأعلى غرب ولمجموعة الجيش ب، وكذلك لدى الأركان المشتركة في الهجوم لجيش الـ إس إس السادس المدرع، وللجيشين المدرعين الخامس والسابع. هذه حقيقة يجب التأكيد عليها، فأين كان هنا الخونة والجواسيس والعملاء؟. إنهم لم يكونوا في الأركان العليا، ولم يكن بوسعهم أن يكونوا فيها. وأين كان الجواسيس الصغار، الذين كانوا يتسكعون على الأرجح وراء خطوط الألمان؟. إنهم لم يعرفوا إلا القليل، وعرفوا غالباً أشياء ضللتهم. وكان مؤلف هذا الكتاب، المراسل الحربي فون شرام، الذي نقل آنذاك إلى رئاسة أركان القوات المسلحة وألحق بالعماد يودل كضابط مرافق، شاهدا على تدابير السرية هذه قبل الهجوم، فقد عاشها عن كثب، ورآها بأعين مقر الفوهرر الرئيس الصغير

(1) انظر فهرس المراجع.

المسمى «عش النسر» في تاونوس، مثلما رأى الانهيار الجسدي والفكري السريع للقائد الأعلى خلال الهجوم، وعقب فشله.

السرية

ربما حدث ما سأقوله مطلع تشرين أول/أكتوبر من 1944. كنا لا نزال آنذاك في مقر الفوهرر الرئيس في بروسيا الشرقية، عندما اكتشفت في غرفة عمليات يودل خريطة كبيرة المقياس لمنطقة الإيفل ـ أردين. لقد بدا وكأنها استخدمت قبل فترة قصيرة، ثم ركنت جانبا. تأملني يودل، ثم ابتسم ووضع إصبعه على فمه. فيما بعد، علمت أن من اطلعوا على التحضيرات ألزموا بصمت أشد. حسب توجيه أصدرته القيادة العليا للقوات المسلحة يوم 19/ 1/ 1940، وقعته المكافحة باعتبارها جهة مسؤولة عنه، كانت اللائحة التالية ملزمة بالنسبة للتخطيطات العملياتية[1]:

إن الضباط، الذين يكلفون بمعالجة نوايا وتدابير عملياتية، يجب أن يعينوا كل مرة بأسمائهم من قبل قادتهم. أما عددهم فيجب أن يكون محدودا قدر الإمكان في كل حالة من الحالات، ويجب أن يحدد بعد تدقيق مفعم بالمسؤولية. ويخضع الضباط الذين يقع الاختيار عليهم للالتزامات الخاصة الآتية المتعلقة بالسرية:

أ) التقيد من دون قيد أو شرط بالصمت، حتى تجاه الضباط في مكان عملهم، ممن لا يتم اختيارهم بالإسم كمشاركين.

ب) التقيد بالصمت تجاه الرؤساء في مواقع ودوائر العمل الأخرى، وتجاه الأقرباء والأصدقاء... الخ.

(1) أخذت مجمل الاوامر والتعليمات، التي سيتم الاستشهاد بها هنا، بحرفيتها عن دراسة شاوفلبرجر.

ج) الإعلان عن أي خروج عن القواعد يصلهم علم عنه.

د) التكتم على الأوامر التي تتعلق بتدابير ونوايا عملياتية وتتضمن معطيات حول هدفها وغايتها، وخاصة عند إصدارها إلى مواقع دنيا. والتخلي عن ذكر معطيات حول مواعيد تنفيذها.

ثم ذهبت الجهة الآمرة خطوة أخرى، في أمر صدر يوم 1/ 11/ 1944 وكرسته قيادة القوات المسلحة / وأركانها (قسم العمليات ـ جيش) لهجوم الأردين، فقالت ـ بين أشياء أخرى ـ:

«يجب تحديد دائرة المشاركين، الذين سينخرطون انخراطا تاما في العملية (بمن فيهم صف الضباط، والجنود والمساعدات لدى الأركان) بالاسم... كما يجب إلزامهم خطيا بنواظم العمل. أما الضباط من خارج هذه الدائرة، المطلوبون للعمل (أسلحة خاصة) فيسمح بإدخالهم فيه عند قيامهم بجلب مستندات، على أن لا يعرفوا حجم العملية وتوقيتها وقصدها... تشفر الرسائل البرقية وتعتبر قضية قيادية مبدئيا». وقد كان على رئيس استخبارات القيادة العليا غرب، العميد أوبرهويزر، توقيع الالتزام الآتي حول سرية عملية «مارتن»، الإسم السري الأصلي لهجوم الأردين:

«أطلعني رئيس الأركان العامة للقيادة العليا غرب اليوم على السمات الكبرى لنوايا مجموعة الجيش (ب)، ولفت نظري بإلحاح شديد إلى الأهمية الخاصة للسرية المطلقة تجاه أي شخص، بمن في ذلك رئيس أركاني. وفرض علي التكتم الأقصى بخصوص التدابير المطلوبة في المجال الاستخباري. وإنني لأعي أن أي خرق للالتزام المفروض علي سيواجه بأقصى العقوبات، التي تصل إلى الإعدام».[1]

(1) شاوفلبرجر، ص 30.

إلى ذلك، أمرت قيادة القوات المسلحة / ورئاسة أركانها أن تتم معالجة «نوبة الحراسة على الراين» - الإسم السري النهائي للهجوم - في قاعات خاصة، وأن يتم حفظ الوثائق والخرائط في أماكن منفصلة، بل إنها ذهبت في النهاية إلى درجة إصدار توجيه بكتابة الأوامر التمهيدية للعملية بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن الطريقة المعتمدة حاليا في كتابتها، تغفل، قبل كل شيء، المعطيات المتعلقة بنوايا القيادة. إلى أن يقول بند آخر:

«تصدر أوامر العملية الكاملة في وقت متأخر قدر الإمكان، ويجب، عوضا عن ذلك، الإكثار من الأوامر الأولية، على أن تخلو تماماً من ذكر ما يتعلق بالنوايا، وتقتصر على التفاصيل الضرورية لتحضيرها تكتيكيا وتقنيا». وقد باح الأمر الصادر عن رئيس الأركان العامة للقائد الأعلى غرب بهدف هذه التدابير، حين قال:

«من الضروري أن يضع كل ضابط أركان، من حيث المبدأ، السؤال الآتي أمام عينيه، حين يقوم بإعطاء الأوامر ونقلها: ما الضرر الذي يمكن أن يحدث، لو عرف العدو بالأمر ؟».

أخيراً، تم تغيير كلمة التعارف، فقد بدأ التحضير للهجوم، كما سبق أن قلنا، تحت إسم تعارف هو «مارتين»، ثم أصدرت الأركان العامة للقوات المسلحة يوم 1/ 11/ 1944 التوجيه الآتي:

«كلمة التعارف بالنسبة للعملية هي «نوبة الحراسة على الراين». تحتفظ القيادة العليا للقوات المسلحة ورئاسة أركانها بحق تغيير كلمة التعارف بعد حين». كان الهدف من «الحراسة على الراين» الإيهام بوجود عملية دفاعية، أو بإجراء حشد من أجل عملية كهذه. وقد جاء في البند الأول من إعلانات الالتزام، التي أمر بها يوم 10/24 رئيس أركان القيادة العليا غرب، العميد فيستفال، ما يلي: «أعلمت أن المعركة الدفاعية في الغرب تتطلب أعلى

درجات السرية، من أجل حمايتها، وأن جميع أنواع الاتصالات الهاتفية حول «مارتين» ممنوعة. أما البند (و) فيقول: «إن أي خيانة تنجم عن الإهمال، كالمسامرة الهاتفية حول «مارتين» تعني عقوبة الإعدام».

نقل الأوامر

أثبتت مجريات الحرب العالمية الثانية أن نقل الأوامر يمكن أن يكون أحد نقاط ضعف السرية، ففي العاشر من كانون الثاني/ يناير سنة 1940 هبطت طائرة بريد محملة بأوامر وتعليمات الحشد «للحال أصفر» اضطراريا في بلجيكا، وفي سنة 1943 هبطت طائرة فيزلر شتورش في ساماندان في أنجادين السويسرية وعليها معطيات مهمة حول سلاح الجو الألماني. لذلك، تم منذ 12/ 7/ 1942 تقييد نقل المعلومات بواسطة الطائرات، وصدر أمر بإبقاء الاسلحة مهيأة للرمي والمواد الحارقة جاهزة للاشتعال، عند نقل أشياء سرية في السيارات. إلى هذا، كان استخدام الهاتف للحديث عن مقاصد عملياتية ممنوعا بصرامة. وفي الأول من تشرين الأول/ أكتوبر أمر القائد الأعلى غرب بمراقبة غير دورية لجميع الاتصالات الهاتفية في أركانه الخاصة، بواسطة ضابط شعبة الأركان الثالثة / وضابط مكافحة التجسس، حيث كان عليهما إمساك دفتر خاص بالمراقبة، على أن يتم للتو قطع اتصال من يقومون بانتهاك خطير للسرية، والإبلاغ عنهم.

أما بالنسبة إلى نقل المعلومات لاسلكيا، فقد أصدر رئيس الاستخبارات غرب آنذاك العميد جيملر يوم 29/ 2/ 1944 التوجيه الآتي، الذي يمثل نوعا من تقويم يشمل التجارب التي تم اكتسابها خلال الحرب، أنشره هنا بنصه الحرفي، لا سيما وأنه تم التذكير به مرة أخرى قبل هجوم الأردين[1]:

(1) شاوفلبرجر، ص 36 وما يليها.

«يعمل استطلاع العدو اللاسلكي عن بعد، تماماً مثلما نعمل نحن، بأساليب الرصد، وتحديد الاتجاهات والمواقع، والتقويم، والكشف، وفك الشيفرات. وهو في وضع يمكنه من تحديد مواقع لاسلكي قياداتنا بدرجة عالية جداً من الدقة، وفي حالتي الثبات والحركة، أما تحديد الاتجاه النقطي فغير ممكن.

ويقوم الاستطلاع المعادي أساسا بعمليات قنص للإذاعات الناطقة وللنصوص الصريحة ضمن ألويتنا. فإن نجح في استغلال أنشطتنا اللاسلكية لاستخلاص استنتاجات حول مقاصدنا، تكون إذاعتنا عندئذ قد أضرت أكثر مما أفادت.

لعل أحد أكثر الأمثلة شهرة على ذلك الحديث الصريح عن انتشارنا استعدادا لمشروع القلعة صيف 1943، الذي عرف الاستطلاع اللاسلكي الروسي منه بوضع قواتنا وحدد مواقعها، كما تؤكد مستندات وقعت في أيدينا قبل بدء الهجوم، وهو انتشار كان على النحو الآتي: القيادة العليا للجيش الثاني، القيادة العامة للجيش الثالث عشر، ويأتمر بإمرتها الفرقتان 6 و7 والفرقة الأولى المدرعة، وفرقة الـ إس إس المدرعة «أدولف هتلر» و«رأس الأموات». على العكس من ذلك، ظل انتشار الجيش السابع عشر قرب وجنوب كريمنتشوج، استعدادا لعبور الدنيبر، سريا بالنسبة إلى الروس بعد معركة أومان في آب/أغسطس من سنة 1941، وكذلك انطلاق الجيش الأول المدرع من رأس الجسر، نتيجة الصمت اللاسلكي، الذي التزم به الجيش السابع عشر والجيش المدرع الأول خلال تقدمهما وانتشارهما». وقد تم التذكير هنا مرة أخرى بضرورة التقيد الشديد بالانضباط اللاسلكي، والتأكيد «أن استخدام اللاسلكي في المعركة والحركة لا مسوغ لهما، إلا عندما تنقطع الاتصالات السلكية، أو يعجز استطلاع العدو الاستخباري عن

تقديم صورة موثوقة حوله، بسبب تبدل الأوضاع المستمر. في هذه الحالة حصرا، يكون اللاسلكي مفيدا ولا يلحق بنا الضرر، فنستخدمه».

التعامل مع الوثائق

إلى جانب اللاسلكي، كانت الأوراق التي يتم غنمها واحدة من أهم وأوثق مصادر معلومات الاستخبارات المتخصصة بالعدو، خلال الحرب العالمية الثانية. ولطالما فكر كل طرف قبل الحرب في طرق تمنع وقوع الأوامر العملياتية والخرائط الميدانية في يد العدو، حتى إن الفوهرر أصدر يوم 12/ 7/ 1942 أمرا بمنع اصطحابها عند القيام بأسفار على الجبهة، يشمل دفاتر الملاحظات، واليوميات، والرسائل، التي تتضمن ملاحظات مهمة بالنسبة إلى العدو. في روسيا، استطاع الألمان معظم الأحيان استخلاص استنتاجات قيمة من أوراق غنموها. وأورد أمر يومي صدر يوم 21/ 4/ 1944 عن القيادة العليا غرب مثالا على ذلك، دوّن خلاله صف ضابط، بناء على محادثة شارك فيها، ملاحظات حول الخسائر في الضباط والاحتياطي المتوفر منهم، أبقاها بحوزته، ثم وقعت ووثائق أخرى في يد العدو خلال إغارة قامت بها دباباته، فقدمت له معلومات على درجة كبيرة من الأهمية. بدوره، غنم الجانب الألماني تقريراً عن وضع احد الجيوش الكندية، كان بمثابة تأكيد لقيمة الملاحظات السابق ذكرها، وحافزا لزيادة المنع تشددا، ولإعلان أن الضابط المهمل يمكن أن يتعرض لمحاكمة ميدانية.

تدابير التمويه

لم يكن هذا كله غير أوامر سلبية، أريد بها الحيلولة دون معرفة العدو بالنوايا الألمانية، أكان ذلك من خلال اللاسلكي، أو اعترافات الأسرى، أو الأوراق التي قد يغنمها. لكنه اتخذت، فضلا عن ذلك، التدابير الأكثر

تنوعا، لتضليل العدو في كل ما يتعلق بمقاصد الألمان، ووضعت خطة تمويه خاصة، عبر عن فكرتها الرئيس بأمر صدر يوم 5/ 11/ 1944:

يأمر الفوهرر بما يأتي:

الفكرة الرئيسة للتمويه:

«تتوقع القيادة الألمانية وقوع هجوم كبير هذا العام ضد خط كولن / بون. ستشكل، لضرب مجنبة هذا الاختراق المعادي من الشمال والجنوب، مجموعتا هجوم مضاد قويتان، الأولى شمال غرب كولن والثانية في الإيفل. لذا، يجب أن ينصب الاهتمام عند تنفيذ التمويه على ستر القوى المحتشدة في الإيفل، والإيحاء بوجود عدد أكبر من القوات في منطقة شمال غرب كولن، مما هو موجود فيها فعليا»[1].

ثم أصدر رئيس أركان القائد الأعلى غرب، بالتطابق مع هذا، أمرا يوم 14 تشرين الأول/أكتوبر حول تفاصيل تضليل العدو، جاء في بنده الأول:

«يجب، بدءا من 20/ 11/ 1944، الإيحاء بوجود جيش محتشد في منطقة رايدت / يوليس / كولن قوامه من 8 إلى 10 فرق»

وحدد الأمر بدقة قيادات «جيش الأشباح» العامة، وأرقام دباباته، وفرق المدرعات والمشاة التابعة لها. وقال في بنده الثاني:

من أجل تضليل العدو، يجب تطبيق ما يأتي:

أ) التضليل باللاسلكي، أقله حتى مستوى قيادة فرقة.

ب) التضليل بالقوات: كإيراد عناوين خاطئة، ورفع أعلام مزورة، ووضع علامات تعارف ونصب إشارات طرق جديدة.

(1) شاوفلبرجر، ص 40 وما يليها.

ت) التضليل بالنقل: استخدام كادر مسبق الطلب، إشارات مزورة على قطارات النقل والإمداد، نداءات وإعلانات خاطئة في محطات القطارات، لوحات مضللة فيها وفي مراكز التوجيه والتأهيل على الجبهة... الخ.

ث) التضليل بالمدفعية المضادة للطائرات: إطلاق نيران مدفعية مضادة أقوى على طائرات الاستطلاع المعادية في منطقة التضليل.

ج) قطاعات الجبهة:

إبلاغ معلومات تفصيلية حول الحشد التضليلي بواسطة الجبهة مباشرة.

د) التضليل بالمكافحة:

إبلاغ أوامر حشد خاطئة، ونقل مستندات مزورة حول تنظيم القوات وخطط النقل والتموين.

ثمة هنا، إذن، مناورة تضليلية تم التفكير بأدق تفاصيلها. وقد ذكرت القيادات العليا بصورة متكررة الأركان، والدوائر، والقوات التابعة لها بضرورة اتخاذ تدابير تضليلية تتعلق بنواياها الخاصة، للحيلولة دون وقوع خيانة يرتكبها من يفرون إلى العدو.

وقد أصدر رئيس اتصالات استخبارات القوات المسلحة في قيادتها العليا أمرا دقيقا حول التضليل باللاسلكي قبل شن أي هجوم، قرر فيه، بين أمور أخرى[1]:

تؤمر تلك الدوائر والوحدات القيادية، التي لن تستخدم في الجبهة الدفاعية، بالتزام صمت لاسلكي من اللحظة التي تتقدم فيها إلى المنطقة جنوب خط كولن / آخن، وتؤمر كذلك بوقف اتصالاتها اللاسلكية التدريبية المسموح بها.

(1) شاوفلبرجر، ص 42 وما يليها.

يفرض بدءا من اليوم إكس ناقص 3 على وجه التقريب تقييد لاسلكي مفاجئ أقصى على الوحدات شمال خط كولن / آخن. ويفرض قدر المستطاع تقييد مماثل على اتصالات القوات البرقية أيضاً.

كان التضليل الصوتي في ساحة المعركة جديدا كل الجدة، لم يسبق أن طبق حسب علمي بصورة منهجية قبل ذاك. لجعله ممكنا، طورت شعبة الدعاية في القيادة العليا للقوات المسلحة اسطوانات خاصة بالحاكي تستخدم مكبرات صوت القوات، فتثير الوهم بوجود دبابات، وقوافل سيارة، وسيارات ثقيلة آيبة وذاهبة، وعمليات إفراغ تجهيزات هندسية... الخ.

وكان هناك أيضاً إسطوانات ضجيج قيد التحضير.

تدابير تضليل خاصة بالحشد من أجل الهجوم

لم يسمح للوحدات التي تقدمت لشن الهجوم، ووصلت بعد العاشر من تشرين الأول/أكتوبر إلى منطقة انتشارها، باستخدام إشارات مفتوحة، وكان عليها حجب مواقعها القتالية بعناية، والامتناع بدءا من 20 تشرين الثاني/نوفمبر عن القيام بأي نشاط استطلاعي بالقوات، لتحاشى تبديد عامل المفاجأة، إذا ما حدثت خسائر وسقط أسرى في يد العدو. إضافة إلى ذلك، تم في الأيام الأخيرة السابقة للهجوم سحب المراكز القتالية المتقدمة، التي كان هناك خطر من أن تكشف. وصدرت الأوامر بإبلاغ القيادة بأسرع الطرق الممكنة عن أي مفقود أو فار، وكان على الأركان العليا، التي تستشكف الأرض على الخط الأمامي، أن تزيل عن بذاتها أي إشارات (زينة المعاطف، أو خط التوشية الأحمر على البنطال)، أو أن تحجبها. أخيرا، ذكر أمر القيادة العليا للقوات، الصادر يوم 1/ 11 باتخاذ أقصى تدابير الحيطة والحذر عند وضع الخرائط، وقرر إصدار الخرائط الخطرة قبل أيام قليلة من اليوم إكس.

الحشد من أجل الهجوم

كان الحشد هو أكبر مشكلات السرية عند الإعداد لهجوم الأردين، بالنظر إلى صعوبة حجبه عن العدو. بيد أن الألمان كانوا يستطيعون تضليل العدو ومنعه من معرفة حقيقة مقاصدهم، لذلك قال أمر صدر يوم 5/ 11/ 1944 عن القيادة العليا للقوات المسلحة بصدد تحركات الحشد:[1] «تنفذ جميع المسيرات، التي تتجه نحو الجبهة، في الليل. ويجب القيام بحجب المسيرات التي تتجه من منطقة شمال غرب كولن إلى منطقة الانتشار الأصلية لعملية «حراسة على الراين». ويجب أن تحافظ منطقة شمال غرب كولن، التي سيتم إخلاؤها، على صورة منطقة تشهد انتشارا وتحركات كثيفة للقوات. وتنظم القيادة العليا غرب مسيرات تأخذ أشكالا استرخائية في منطقة شمال غرب كولن، بعد سحب قوات الهجوم منها». في الختام، تم إيلاء اهتمام خاص لتقدم القوات التالي إلى مواقع الهجوم الأصلية، حيث يجب في اليوم الرابع قبل الهجوم تجميع مجمل الوحدات والقوات في المناطق المخصصة «للحشد التدخلي»، على أن تجر الخيول المدفعية الخفيفية والمتوسطة إلى مواقعها، بمعونة قوات خيالة خاصة تابعة للألوية الثابتة، لتفادي ضجيج المحركات على مقربة من الجبهة. أما إدخال المدفعية الثقيلة فيتم وفق خطة خاصة تستخدم تدابير تؤدي إلى حجب الضجيج، منها تنظيم طلعات جوية يقوم بها سلاح الجو على مجمل جبهة الغرب خلال الدخول الليلي لوحدات هجوم الأردين.

خضعت هذه التدابير جميعها لرقابة صارمة، وتلقت جيوش مجموعة الجيش (ب)، التي نفذت الهجوم، ضباطا متخصصين في مراقبة عمليات

(1) شاوفلبرجر، ص 53.

الستر، لديهم تفويض بمنع أي اتصال نهاري قد يلفت الأنظار، وبالتدخل بفظاظة، إن اقتضى الأمر. واهتمت مواقع تنصت وجهت أجهزتها إلى الجبهة الصديقة بالأصوات المشبوهة لدى إدخال المدفعية بالسيارات وجلب الذخيرة، وسهرت على تحاشي أي اتصال لا لزوم له. لقد كان يجب أن تبدو منطقة الحشد بأسرها خالية قدر الإمكان من القوات، فينجح الحجب والتضليل وتنجح معهما المفاجأة. والحق، إن هجوم الأردين وقع على الأميركيين وقوع صاعقة سقطت من سماء صافية. ولم يشوش أثره المباغت غير مشروع «تدخل»، قام على استخدام تضليلي لقوات سرية ترتدي بذات العدو. يقول شاوفلبرجر[1]: » كان على فوج الدبابات 150، الذي تنكر من رأسه إلى أخمص قدميه في ثياب جنود أميركيين، مكلفا بتأمين جسر غير مدمر على نهر الماس إلى حين وصول طلائع القوات الألمانية المهاجمة، وبإثارة الاضطراب والفوضى لدى الأميركيين. وقد تسبب تسليح وحدة على هذا القدر من القوة بتجهيزات أميركية كان الألمان قد غنموها، بمصاعب كبيرة. وقد فشل الهجوم الكبير ضد جسر الماس، بل ولم يصل الهجوم في أي مكان إلى النهر، بينما أحرزت وحدات قتالية صغيرة تنكرت في ثياب جنود يركبون سيارات جيب أميركية، نجاحات مذهلة، بما أن الشك الذي انتشر بين الأميركيين أضر بشدة بطريقة قيادتهم للمعركة في سائر أصعدتها». ماذا قال الشهود على الجانب الآخر حول فاعلية تدابير السرية والستر والتضليل الألمانية؟. فوجئ القائد الأعلى البريطاني المارشال مونتغمري بنبأ الاستنفار بينما كان يلعب الغولف في آيندهوفن، فطار عائدا إلى مقر قيادته المتقدم في تسونهوفن[2]. أصاب الهجوم، الذي أخذ شكل إغارة، جبهة الجيش الأول الأميركي (العميد

(1) شاوفلبرجر، ص 22.

(2) مارشال مونتغمري: مذكرات، الجزء الثامن عشر، فصل: المعركة في الأردين». ص 344 وما يليها.

هودجز) أساسا، التي انتشر فيها الفيلق الثامن الأميركي، وكانت قليلة القوات في منطقة الأردين، كما كان الألمان يعرفون، وحدثت ثغرة عميقة فيها حتى مساء السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر. لم يكن أيزنهاور أو مونتغمري يعتقدان بإمكانية وقوع هجوم ألماني كبير، لأن «الوسيلة الوحيدة، التي أراد الحلفاء معرفة ما يجري بواسطتها كانت الاستطلاع الجوي، وهذا أصيب بالشلل خلال الأيام الحاسمة السابقة للهجوم، بسبب سوء الأحوال الجوية. بينما لم تصلهم معلومات بواسطة عملاء ينشطون وراء الجبهة الألمانية، كتلك التي كانت تصلهم بوفرة كبيرة في فرنسا، لأن الجبهة كانت جميعها تقريبا على الأراضي الألمانية»[1]

يلخص شستر فيلموت حكمه على النجاح الألماني المفاجئ في الوصف الآتي[2]: «عندما بدأ هجوم الأردين، رد الحلفاء بالدهشة وعدم التصديق، لأنهم كانوا قد اعتادوا كثيراً فكرة أن قوات ألمانيا المسلحة توشك أن تنهار، فلم يعتقدوا بقدرتها على شن هجوم من الحجم، الذي رسمته البلاغات الأولى. ثم تمزقت بعد ذلك الاتصالات، وحلت الشائعات محل الأخبار... ثم ما لبثت أنباء يناقض بعضها بعضا عن بعض القطاعات، صحبها نقص كامل في المعلومات عن قطاعات أخرى، أن أثارت القلق والحيرة في المناطق الخلفية، وخاصة في مقر قيادة الجيش الأميركي الأول، الذي اضطر قائدة إلى الاعتراف ليلة الثامن عشر من كانون الأول/ ديسمبر «أن خط العدو لا يسمح بتحديده، لأن الجبهة في تغير مستمر ومجرياتها غامضة إلى حد ما». ويضيف تقرير أورده فيلموت: «لم يستطع الجنرالات والآمرون من القادة الحصول على معلومات تمكنهم من جمع مزق اللعبة

(1) هيرمان يونجه: هجوم الأردين 1944/ 1945، ص 148.

(2) شستر فيلموت: الصراع على أوروبا، فرانكفورت على الماين 1954، ص 629 وما يليها.

المحيرة في لوحة عامة. وملأت القوات المتراجعة الطرق وسدت دروب التعزيزات الذاهبة إلى الجبهة. وكان الهلع يسيطر لبعض الوقت على الوحدات، بمجرد أن يشيع بينها أن الألمان قادمون... فكانت تتخلى عندئذ عن تجهيزات كثيرة صالحة للعمل وفي أفضل حال».

أثبتت تدابير السرية والستر والخداع جدارتها، مثلما سبق لها أن أثبتت جدارتها عند التحضير لعملية «أوفر لورد» مطلع العام. لذلك، من الضروري طرح اسئلة تتجاوز هذه النقطة، هي: أين كانت الجاسوسية الحليفة الناجحة؟. ماذا حدث لاستطلاع الجبهة؟. وأين كانت يقظة القوات العاملة في الخط الأمامي؟. لم تنتهك السرية على الجانب الألماني قبل هجوم الأردين، فلم يوجد أي فار أو خائن، ولم يوجد أي عميل لاسلكي في المنطقة الخلفية باستطاعته التنبيه إلى الخطر الداهم من خلال معطيات ملموسة. لم يكن هناك منطقة رخوة واحدة، سواء في قيادة القوات المسلحة العليا أم في رئاسة أركانها. و لم يفش مدير الرايش بورمان أي سر بدوره، أو يوصله إلى الخارج، رغم أنه كان قد انضم إلى هتلر في مقره الرئيس في «عش النسر». لقد تكتم القوم في مراكز ومواقع ودوائر القيادة، ولم يبوحوا بأي سر، وفشلت سائر وسائل الأجهزة الاستخبارية الأخرى، نتيجة الاستخدام الواعي والمنهجي لتدابير ووسائل مضادة ومجربة، واجهت الاستطلاع اللاسلكي بالخداع اللاسلكي، وأقوال الفارين والأسرى المحتملين بالتضليل بالقوات، واستطلاع الجبهة المعادي بستر الحشد وتقسيمه إلى منطقتين: واحدة مورس فيها الخداع والأخرى الستر، فأثبت التجسس التقليدي عجزه التام في مواجهة هذا النظام من العناصر المساعدة المدروسة. سيبقى هجوم الأردين الألماني في كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1944 مثالا في تاريخ الحرب، يشهد على الذكاء والسرية والانضباط إبان تحضير العمليات الكبيرة، مع أنه فشل، كما تقول الوثائق والتحليلات المتوفرة جميعها.

obeikandl.com

الفصل الثالث

الصدمة

وصفنا كيف فاجأ الإنزال القيادة الألمانية في السادس من حزيران/ يونيو سنة 1944، وحاولنا أن نعيد بالتفصيل رسم تدابير الحلفاء، التي أفضت إلى هذه المفاجأة. لكن صراع أجهزة الاستخبارات، الذي ميز سنة الحرب ما قبل الأخيرة في الغرب، يتطلب أيضاً عرض المفاجأة التي أصابت الحلفاء، نتيجة هجوم الأردين الألماني. هنا، تبدو بعض الأمور متساوية، رغم أن الفروق المبدئية هي التي تفرض نفسها، بطبيعة الحال، خاصة وأن القيادة العليا غرب كانت تأخذ في اعتبارها سنة 1944 إمكانية قيام الحلفاء بإنزال - عاجلا أم آجلاً - وأنها أعدت نفسها لمواجهته. أما هجوم الأردين فقد نزل على الأميركيين نزول صاعقة من سماء صافية، أو فلنقل من سماء لم يبد عليها أنها تضمر عاصفة هجومية.

كانت القوات الألمانية تقاتل في خريف سنة 1944 على الأرض الألمانية. ذلك جفف مصادر المعلومات، التي كانت تتدفق بغزارة في فرنسا، حيث كان السكان المحليون يغذونها، من جهة أخرى، فعلت السرية والستر والخداع فعلها هنا، مثلما فعلت فعلها لدى إنزال الحلفاء في النورماندي. غير أنه لم يكن هناك في الأردين بحر يفصل العدوين، فكانت المسألة الحاسمة بالنسبة لتأثير العمل المفاجئ خلال الأسابيع الأولى التالية للسادس من كانون الأول/ ديسمبر، هي افتقار قسم من الأميركيين الذين

قاتلوا على جبهة الأردين، إلى الخبرة العسكرية، واعتقاد العدد الأكبر من القادة باستحالة وقوع هجوم ألماني كبير. بالمقابل، كان جهاز الاستخبارات في قيادة أيزنهاور أكثر واقعية، حين أشار في تقويم وضع أرسله يوم 14 كانون الأول/ديسمبر إلى مجموعات الجيش جميعها، إلى إمكانية قيام الألمان بشن هجوم تخفيفي في منطقة الأردين، مستندا في تحذيره إلى معرفته بوجود احتياطي عملياتي كان هتلر قد جمعه في الفترة المنصرمة[1]. رغم ذلك، حدثت صدمة في مقر قيادة الحلفاء، عند وقوع الهجوم، وصفها جنرال الاستخبارات السابق سترونج بطريقة لا تعرف المجاملة.

كان مقر أيزنهاور الرئيس نهاية سنة 1944 في فرساي. وكان السادس عشر من كانون الأول/ديسمبر يوما شديد البرودة، سماؤه مغطاة بغيوم منخفضة، جعلت الاستطلاع الجوي مستحيلا. تلقى الجنرال سترونج قبل وقت قصير من تناول طعام الإفطار، تقارير حول هجوم ألماني في الأردين، لكنه لم يعرها أهتماماً كبيراً أول الأمر، من نمط الاهتمام الذي تم إيلاؤه للأخبار الأولى حول القفزات المظلية وما تبعها من إنزالات في النورماندي خلال السادس من حزيران/يونيو سنة 1944. كان الألمان قد بدأوا للتو هجوما تخفيفيا محليا. بينما دار الحديث في المؤتمر اليومي عند أيزنهاور، الذي شارك فيه الجنرال برادلي، وبيدل سميث وبول والمارشال الجوي تيدر والجنرال شباتس، حول قضايا ومسائل أخرى، تتعلق بهجوم جديد للحلفاء، قبل أن يتغير الأمر. يقول سترونج، وكان مشاركا في المؤتمر:

«كان بيدل سميث يسأل برادلي عن الفرص التي يعطيها للهجوم الشمالي، وما إذا كان سينجح في احتلال سدود نهر الروير، عندما تم استدعاؤه على عجل. كان نائبي الجنرال بيتس يقف بالباب، وهو عادة رجل

(1) سترونج، ص 195.

هادئ ورصين، لكنه بدا هذه المرة مزعزعا وقلقا جدا... وكان جديده ينصب على الأردين... حيث تحدثت التقارير التي تلقيناها عن وقوع هجمات ألمانية عنيفة تغطي مناطق واسعة، ضد الخطوط الأميركية. كانت الأخبار جزئية ومتناقضة، كما هو شأنها دوماً قبل بلوغ المعركة مداها الكامل واتضاح نوايا العدو. وقد سدد الألمان ضربتهم ضد ذلك الجزء من الجبهة، الذي حافظ عليه عدد قليل جداً من الجنود الأميركيين، افتقروا فضلا عن ذلك إلى الخبرة القتالية، وتأكدت مشاركة عدد من الفرق الألمانية في العملية، كبير بدرجة غير عادية»[1].

اتضح، في الأيام التالية، لمقر قيادة أيزنهاور الرئيس أن الأمر يتعلق بهجوم كبير أعدته يد ألمانية طويلة. لم يكن أحد ينتظر حدوث شيء كهذا، بينما عمل الألمان كل ما يلزم لإبقاء استعداداتهم سرية. يقول الخبير سترونج حول هذا الجانب: «استخدم الألمان جميع الخدع الممكنة، للإبقاء على سرية مقاصدهم أو لسترها، فأطلقوا تسميات خاطئة على تشكيلاتهم، وأعادوا ترقيمها. وانتجوا في مناطق معينة وحلا اصطناعياً، لإيهام قواتنا أن وحدات النقل الألمانية ووسائطها قد غادرتها. وتبادلوا رسائل مشفرة بين دوائر قيادية وهمية، ونفذوا تحركات الوحدات الضرورية للهجوم ليلا، وغطوا الطرق بالقش للتخفيف من ضجيج الآليات. واتخذوا تدابير وقائية لتحاشي وقوع خيانة لخططهم. وسحبوا مجموعات الاستكشاف. وحين كنا نقبض على أسرى، كان هؤلاء يقدمون معلومات مضللة حتى لقادة فرقنا، وأرسلوا منذ بضعة أسابيع فرقا جديدة أو أعيد تشكيلها إلى منطقة الأردين، حيث كانت تبلغ قوتها القتالية العددية، وتتدرب وتتلقى تعليماتها، قبل أن تنقل إلى قطاعات مضطربة من الجبهة، فتحل محلها فرق أخرى، كل هذا

(1) سترونج، ص 196 وما يليها.

من أجل جعلنا نعزز اعتقادنا أن الأمر يتعلق بمنطقة تدريب، وتبديد شكوكنا حول ما يحدث. كما تم توزيع الفرق المخصصة للهجوم على قرى متفرقة، فصار من الصعب معرفة انتشارها الحقيقي»[1].

ما إن جاء يوم السابع عشر من كانون الأول/ديسمبر، حتى كان مقر أيزنهاور الرئيس متأكداً من أنه تعرض للخداع، وأن الألمان نجحوا في إحداث مفاجأة عملياتية، جعلت الصحافة الأميركية، اليقظة والنقدية، تتهم القيادة الأميركية العليا بالعجز عن جمع المعلومات، «وتطالب بقطع بعض الرؤوس». في الحقيقة، سمح جهاز الاستخبارات الحليف بخداعه، مثلما سبق لجهاز الاستخبارات الألماني أن سمح بخداعه في السادس من حزيران/يونيو سنة 1944. في مساء يوم الهجوم الثاني، بينت المعلومات الآتية من الجبهة أن 25 فرقة ألمانية تشارك فيه، وأن بعضها قام باختراق عميق لخطوط الحلفاء.

«ذلك كان أكثر بكثير من هجوم تخفيفي، من النمط الذي كنا نتوقعه»[2].

في الثامن عشر من كانون الأول/ديسمبر جاء وفد فرنسي بقيادة الجنرال جوان إلى مقر أيزنهاور الرئيس، فصحبه بيدل سميث إلى غرفة الخرائط، لإعلامه بالوضع الراهن. يقول سترونج حرفيا: «بينما كنا نسير بمحاذاة الممرات، لاحظت أن الفرنسيين ينظرون باهتمام إلى داخل مكاتبنا. أخيرا، قال أحد الجنرالات لي: «لماذا لا تحزمون أمتعتكم؟. ألا تتخذون ترتيبات للانسحاب؟.». ذلك لم يكن كلاما جديا، بطبيعة الحال، لكنه كان يعبر عن ذكريات حملة سنة 1940 في الغرب، التي فرضت نفسها قسرا هذه الأيام.

(1) سترونج، ص 198.
(2) سترونج، ص 201.

سافر أيزنهاور يوم الثلاثاء في التاسع عشر من كانون الأول/ديسمبر إلى مقر قيادته المتقدم في فردان، حيث كان جميع قادة مجموعات الجيوش الحليفة قد حضروا شخصيا، باستثناء مونتغمري، الذي أرسل نائبا عنه. «كانت قاعة المؤتمر مزدحمة، وكان الجو متوترا. ومثلما هو الحال عند حدوث نكسات، وقعت تباينات في الرأي بين الحلفاء، وصدرت أحكام مختلفة كل الاختلاف حول الوضع. في هذه الأثناء، كان أيزنهاور محافظا على رباطة جأشه وهدوئه، وأعطى التوجيهات الضرورية بتأن وتفكير، جاعلا هدفه الأول فك الطوق عن القوات الأميركية المحاصرة في الباستونيه. مع ذلك، فإن المقر الرئيس لم يكن قد سيطر بعد على الوضع في منطقة الاختراق». عندما عاد الجنرال سترونج إلى فرساي، بعد انتهاء المؤتمر في فردان، وجد أخبارا سيئة على مكتبه، صارت مثيرة للقلق عند منتصف الليل إلى حد أجبر رئيس أركان أيزنهاور، الجنرال بيدل سميث، على مغادرة فراشه. لقد وقعت الصدمة ولم يعد هناك أي سبب لإنكارها، مثلما حاول هذا أو ذاك أن يفعل في فردان، إذ كانت مجموعة جيش الشمال بأسرها تعاني أشد المعاناة[90]. استنفرت جميع قوات المناطق المجاورة للخرق، من أجل شن هجمات على مجنبة المهاجم المتقدم، الذي كان يريد الوصول إلى نهر الماس. هل كان يجب إسناد الإمرة في الشمال لمونتغمري الشديد الحذر؟. يقرأ الخبير لدى سترونج، الذي نتابعه هنا، بين الأسطر[1]، ويعلم أنه كان هناك خلافات في الرأي حول هذا الموضوع، وأنه ربما حدثت مشادات كلامية بسببه. وقد أفهم بيدل سميث، بلغته المقتضبة ومظهره الذي يشبه الدب، الجنرال سترونج أنه والجنرال البريطاني وايتلي لم يعودا مقبولين ضمن أركان أيزنهاور.» وفي اليوم التالي، صدر الأمر بإعفائنا من منصبينا، وبإعادتنا إلى

(1) سترونج، ص 207.

إنجلترا». هذا كلام واضح المعنى، وإن لم يفصح سميث عنه صراحة، وهو أن صدمة الأخبار السيئة جعلته مصمما على الانفصال عن رئيس الاستخبارات البريطاني[91].

من الضروري هنا التذكير بالاستخبارات الألمانية قبل هجوم الأردين وخلاله. حسب التقرير غير المطبوع، الذي بحوزتي[1]، نجحت استخبارات ألمانيا في تحقيق نتائج على قدر كبير من الأهمية. يقول التقرير: «كان من الضروري، قبل الهجوم المباغت، التأكد من أن العدو لم يلاحظ شيئاً عن النوايا الألمانية، في ظل تقيد الجيوش المتأهبة بصمت لاسلكي تام. من جانبها، كانت الاستخبارات الألمانية تعرف تمام المعرفة التنظيم المعادي، وتعلم أن قوى الأميركيين أقل عددا من قوى ألمانيا في قطاعات الجبهة التي ستتعرض للهجوم، وتعرف أن العدو لم يتخذ أي ترتيبات دفاعية خاصة أو يستنفر قواته الاحتياطية. صباح يوم الهجوم الأول، في السادس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1944، أكد نص برقية صدرت عن قطاع الجيش الأول الأميركي المفاجأة، وقال: «إن الألمان فاجأوا الاميركيين وهم نيام». ثم تلت ذلك أنباء ومعطيات حول التراجع الأميركي، والمدى الذي وصلت إليه طلائع الدبابات الألمانية في توغلها، والخسائر الفادحة التي حلت بالحلفاء». هذا ما يقوله التقرير. ومع ذلك، فإن نجاح الاستخبارات الألمانية الأكبر، كان كشف شبكة جديدة للشرطة العسكرية الأميركية، بعد أيام من بدء الهجوم، حيث إن وحدات كبيرة من الشرطة العسكرية كانت تعمل في هذه المرحلة من المعركة عند جميع تقاطعات الطرق ومحطات القطار في المناطق الفرنسية / البلجيكية الخلفية، وقامت بإرسال معلومات متلاحقة عن التحركات الكبيرة للقوات، واستخدمت في ذلك نصا شفريا سهل الفك،

(1) التقرير في حوزة المؤلف.

خالطه كثير من النصوص الواضحة، التي كان القصد منها بلوغ تفاهم سريع بين المتخاطبين. هكذا عرفت الاستخبارات الألمانية المتخصصة بالعدو بمعلومات تفصيلية وافية عن أنواع القوات، وطلائع المسيرات الحربية، وسرعتها، وطول قوافل الوحدات الأميركية المتدفقة على المعركة، أوضحت منذ اليوم الرابع لمعركة الأردين أنها لم تكن وحدات تفتقر إلى كل شيء، استنفرت على عجل وجمعت كيفما اتفق، بل كانت وحدات نخبة، وأنه تم إفراغ قطاعات أخرى من الجبهة من القوات التي كانت مرابطة فيها، لأن الأميركيين كانوا على ثقة من أن القوة القتالية للألمان، التي أصابها الضعف منذ وقت طويل، لا تسمح بشن هجمات في قطاعات الجبهة الأخرى، مهما كانت ضعيفة.

تبدد الضباب الشتوي على جبهة الغرب يوم 23 كانون الأول/ديسمبر، وحل محله مناخ واضح مشمس، جعل بوسع الحلفاء استخدام تفوقهم الجوي من جديد. كان هجوم الأردين قد بلغ ذروته وتجاوزها في هذه الأثناء، وكانت الصدمة العملياتية قد فعلت فعلها طوال أيام ثمانية، وحققت نجاحات أولية مهمة، خاصة لدى الجيش المدرع الخامس بقيادة الجنرال فون مانتويفل، وكانت طلائع الهجوم الألماني قد اقتربت في اليوم المذكور إلى كيلومترات قليلة من الماس، بين دينانت وجيفه، حيث بقيت من دون حراك، بسبب نفاد محروقاتها. مع الرابع والعشرين من الشهر، بدأت كفة المعركة تميل لمصلحة الحلفاء، ثم انتصرت في النهاية الأفواج الأقوى، والأسلحة الأفضل. وتم تخطي الصدمة، التي هزت في السابع عشر من الشهر مقر القيادة الأميركية الرئيس، وحدث ما خشي وقوعه منذ البداية قادة الجبهة المجربون من الألمان: لم تعد موازين القوى والعوامل الأخرى جميعها قابلة للمقارنة بما كان موجودا سنة 1940، ولم يعد الانتصار الصاعق الذي تحقق آنذاك قابلا للتكرار. صحيح أن حدس القائد الأعلى للقوات

المسلحة الألمانية عرف الموقع الأضعف في الجبهة الأميركية، وأن أركان قيادة هذه القوات أعدت بمهارة لا مثيل لها المفاجأة العملياتية في الأردين، ونجحت في تحقيقها، إلا أنه كان قد تم بلوغ حدود الممكن بعد ثمانية أيام من القتال، في حين طالب هتلر مرة أخرى بالمستحيل، بسبب التشويش المتعاظم الذي أصاب قدرته على الحكم، الذي قيض للمؤلف أن يكون شاهدا عن كثب عليه، مثلما قيض له في السابق ان يكون شاهدا على تدابير الستر والحجب على الجانب الألماني، التي شملت أيضاً مقر الفوهرر الرئيس. لنعد الآن مجددا إلى معركة الأردين والصدمة التي سببتها للأميركيين، ولنأخذ بالاعتبار اللحظة الخاصة، التي تجلب معها خطر المفاجآت الشريرة على الدوام، ألا وهي خمود رصد العدو وتراخي اليقظة. لقد تكررت قبل الغزو صرخة تقول: جاء الذئب، لكنه لم يأت. وحين جاء أخيراً وانطلقت الصرخة، لم تجد من يصدقها. ثمة لحظة أخرى شهدها هجوم الأردين، جعلت اليقظة تتلاشى، تجسدت في قناعة الحلفاء بأن الألمان هزموا وبلغوا نهاية قواهم. هكذا، تم تجاهل علامات الحياة لدى عدو لا زال خطرا. هذا ما يشهد عليه سترونج، الذي كتب في مذكراته[1]: «عرفت بعد الحرب أن قادة ألوية أميركيين كثيرين وغيرهم تلقوا إشارات أكيدة أكثر من تلك التي وصلت إلينا في القيادة العليا، تشير إلى ما كان الجانب الألماني يعده لنا. هذه المعلومات المتفرقة لم تصل إلينا إطلاقا لأسباب مختلفة. ولو كنا سمعنا على سبيل المثال أن سيدة هاربة تحدث قبل يومين أو ثلاثة من الهجوم عن تحشدات قوات ألمانية وراء خط سيغفريد. ولو وضعت في أيدينا على الفور تلك الوثيقة التي غنمتها قواتنا، وتشير إلى حدوث تغيرات واسعة في خطط الحشد الألمانية، وحجبت عنا إلى ما بعد

(1) سترونج، ص 221.

الهجوم. ولو عرفنا بوصول طوابير سيارات نقل خلال ليليتين سبقتا السادس عشر من كانون الثاني/يناير، وهي تشعل أضواءها الكاشفة، في انتهاك صريح لتدابير الحيطة لدى الألمان، لكانت النتيجة مختلفة تماما. والحق، إن التدقيقات اللاحقة أثبتت بدورها أن تقارير استخبارات الجيش الأميركي الأول كانت مليئة بإشارات إلى الهجوم، تم استخلاصها من رصد خطوط الألمان الأمامية. لو أضيف هذا كله إلى ما تلقته القيادة العليا من مصادر أخرى، لكانت المعلومات الاستخبارية قوية الحجة إلى درجة مكنتنا من إفقاد العدو مفاجأته التكتيكية، التي خطط لها بعناية»[92].

أخيرا، يصل سترونج إلى حكم نهائي حول الجنون، الذي مثله بالأساس هجوم الأردين، عندما يقول: «لم يعتقد أحد في أي وقت أنهم سيكونون مستعدين لتعريض منطقة الرور ذات الأهمية الحياتية بالنسبة لهم، لهجوم حليف، وأنهم سيحشدون قواتهم كلها، بما في ذلك الاحتياطية منها، لشن هجوم كبير، وحيد ويائس، على منطقة الأردين قليلة السكان. لو تلقينا من أكثر المصادر صدقية مواد تؤكد بصورة دامغة أن الألمان يخططون لهجوم كهذا، لقلنا إن وسائلهم المساعدة وتدريبهم لا يكفيان لإحراز انتصار، ولكنا على حق في قولنا»[1].

لم يكن سترونج على حق، عندما تحدث عن «الألمان»، الذين كانوا قد فقدوا قوتهم السياسية والعسكرية منذ وقت طويل، فلم يكن يوجد في ألمانيا غير إرادة واحدة هي إرادة هتلر، الذي تحول إلى أسطورة، ونصف إله، و«أعظم قائد عسكري على مر العصور»، بعد الانتصار المفاجئ والساحق في الغرب سنة 1940. وكان يقرر كل شيء بمفرده، وقرر بمفرده أيضاً، حتى عندما ضيع جميع المعايير الصحيحة، وصار اضطراب عقله جليا

(1) سترونج، ص 246.

للعيان. هذا ما رآه وعرفه الرجال، الذي تجمعوا من أجل إزالته بالقوة يوم 20 تموز/يوليو سنة 1944. وعندما نجا، غدت استراتيجية العبث الورقة النهائية، التي لعبها وأدت إلى إفناء الرايش الألماني.

obeikandl.com

34. فرتز كولبه.

35. إليسًا بازنا آلياس سيسرو في السفارة البريطانية في أنقرة.

obeikan.com

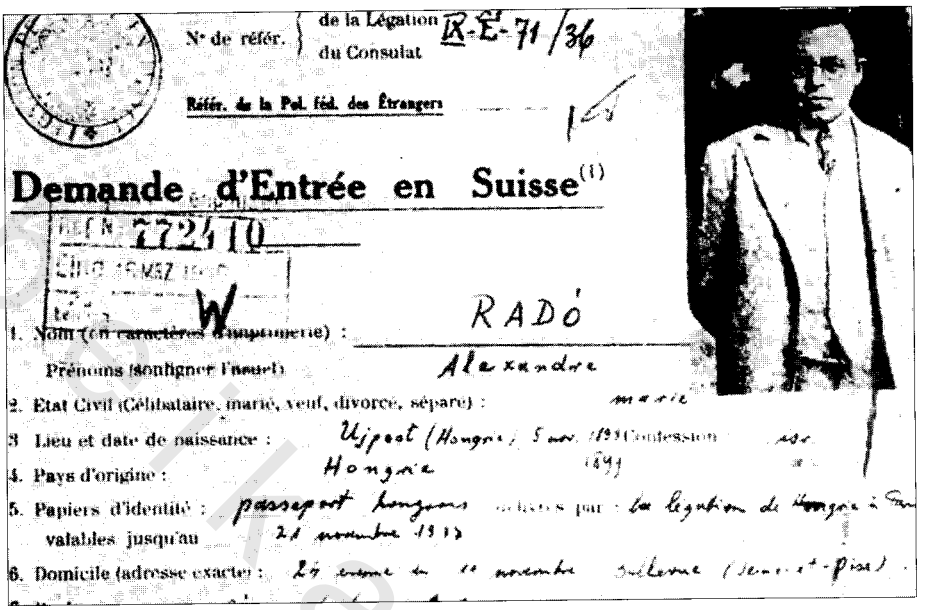

N° de référ. } de la Légation du Consulat R-E-71/36

Référ. de la Pol. féd. des Étrangers

Demande d'Entrée en Suisse(1)

1. Nom (en caractères d'imprimerie) : RADÓ
   Prénoms (soulignez l'usuel) Alexandre
2. Etat Civil (Célibataire, marié, veuf, divorcé, séparé) : marié
3. Lieu et date de naissance : Ujpest (Hongrie), 5 mai 1899 Confession
4. Pays d'origine : Hongrie
5. Papiers d'identité : passeport hongrois délivré par : la Légation de Hongrie à
   valables jusqu'au 21 novembre 1943
6. Domicile (adresse exacte) : La femme le 11 novembre suivant (Genève-Plage)

36. ألكسندر (ساندرو) رادو رئيس الشبكة السوفياتية في سويسرة من 1938 إلى 1943.

37. رودولف روسلر، مدير دار فيتانوفا للنشر في لوزرن، حصل في ربيع 1942 على معلومات هامة من ألكسندر رادو.

38. هارّو شولتز – بويزن.

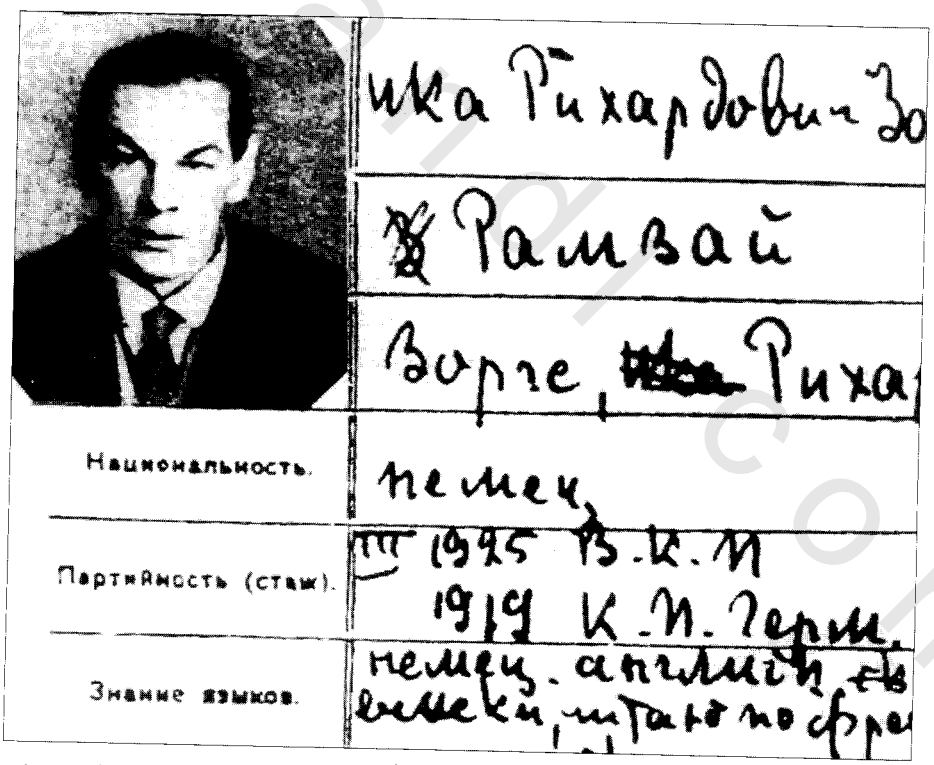

39. ريتشارد سورج، مراسل جريدة فرانكفورتر تسايتُنغ في فرنوست وموسكو وجاسوس في اليابان.

40. هانس ـ تيلو شميدت، عميل هام في خدمات الاستخبارات الفرنسية.

42. باول تومِل.

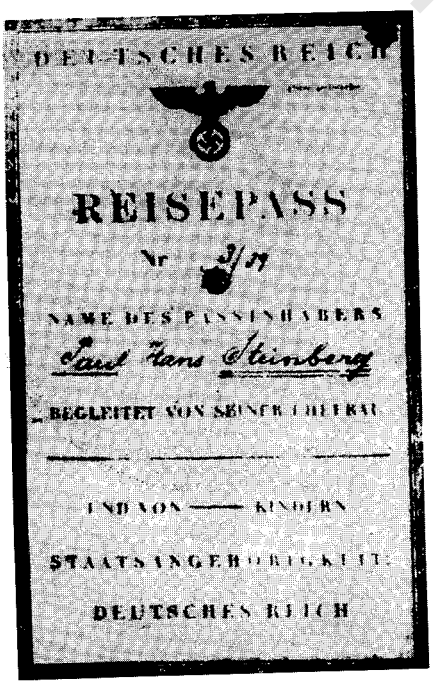

41. جواز سفر الدكتور باول هـ. شتاينبرغ، الاسم المستعار لباول تومِل.

الفصل الرابع

معركة الأردين وتهاوي شخصية هتلر

كان الإعداد الاستخباري لمعركة الأردين انتقاما للمفاجأة، التي مثلها غزو سنة 1944 بالنسبة إلى قوات ألمانيا المسلحة في الغرب، أخذ شكل صدمة غير مسبوقة بالنسبة إلى الحلفاء، الذين لم يحسبوا أي حساب لها على الإطلاق، وأثارت قلق قيادتهم العليا طوال أيام ثمانية، سبقت زوال خطر الاختراق الألماني. هذا ما قلناه في الفصول السابقة. غير أن الهجوم الألماني الكبير الأخير كانت له نتيجة أخرى إضافية، لم يعرها تاريخ الحرب كامل اهتمامه، تتعلق بأثره على هتلر نفسه، الذي أعد الهجوم بعناية ووضع أعظم آماله فيه[1]، وعندما فشل، أصيب بضرر لا يقبل الإصلاح ليس فقط في وضعه الفيزيائي، وإنما في تكوينه الروحي قبل كل شيء. هذه هي الكيفية، التي يجب أن نرى في ضوئها أحداث الغرب عند منعطف سنة 1944 / 1945، فالإجهاد فوق البشري، الذي سببه توتر معركة الأردين إيجابا وسلباً بالنسبة إلى هتلر، دمره بصورة تامة ونهائية، وجعله يسقط منذ كانون الثاني/يناير سنة 1945 في سبات عقلي متزايد، نجم عن انهيار أمله الأخير،

(1) انظر أيضا ألبرت شبير: ذكريات، برلين 1969، ص 422 وما يليها: «أوضح هتلر مرة أخرى نحو نهاية تشرين الثاني/نوفمبر، أنه يعلق كل شيء على هذا الهجوم. وبما أنه كان متأكدا من نجاحه، فقد أضاف بارتياح أنه محاولته الأخيرة، فإن فشل، فإنني لا أرى أي فرصة بعد لوضع نهاية مناسبة للحرب... لكننا سننجح، قال مواصلا حديثه، قبل أن يضيع للتو في تصورات فضفاضة وغير واقعية...».

لم يخرج منه إلا لساعات قليلة فقط، حين كان يتلقى علاجا بالإبر والأدوية على يد دكتور مول، دون أن يعود إلى الواقع السياسي والعسكري، أو يتخلى عن سلوكه المفعم بالكراهية حيال جهاز الاستخبارات المتخصص بالعدو، الذي انتهى بإعفاء جيهلن المفاجئ من الخدمة[1].

استطاع المؤلف، وكان آنذاك المراسل فون شرام، أن يراقب عن كثب تهاوي شخصية هتلر، حين ذهب إلى «عش النسر» في تاونوس، أصغر مقرات الفوهرر، الذي كان «المعلم» ـ لقب هتلر قي مقر قيادته الرئيس ـ، المحطم جسديا قد انتقل إليه مطلع كانون الأول/ ديسمبر سنة 1944، ليتركه في كانون الثاني/ يناير وقد تحول إلى رجل مسن، انطفأت جذوة الحياة فيه. هاتان الصورتان تمثلان أمام ناظري بطريقة لا تنسى. صحيح أن هتلر كان مريضا سنة 1944، غير أن مرضه لم يحل بينه وبين التفكير بهجوم الأردين، الذي أعده شخصيا وقاده، فأعقب فشله انهياره الروحي والجسدي التام، الذي عجز الأطباء إلى اليوم عن إيجاد وصف مرضي مألوف له[2]. لذلك، يستطيع المرء الاكتفاء إلى إشعار آخر بالتشخيص البسيط، الذي ينصب في جميع الأحوال على واقعة أن هتلر دمر قوات ألمانيا المسلحة بفعل الإفراط الدائم في إجهادها، مثلما دمر وجوده ذاته بفعل الإفراط الدائم في تحميل نفسه ما لا تحتمل. فهو لم يترك لنفسه فرصة لالتقاط الأنفاس ولو مرة واحدة، ولم يعرف يوم راحة واحدا، أو يأخذ إجازة من مسؤولياته العليا،

(1) راينهارد جيهلن: الخدمة. ذكريات 1942-1971، ماينز ـ فيسبادن 1974، ص 117: «أعفيت يوم 9/ 4/ 1945 من منصبي كرئيس لشعبة الجيوش الأجنبية شرق...».

(2) يقدم بيتر بام في: زمن إنسان واحد، ميونيخ 1972، ص 272 تشخيصا علميا يقول: «عصاب فصامي كبحي مصحوب بأفكار وهمية تضفي عليه أهمية مبالغا فيها». أما مرجعي النفسي فهو توماس ريجاو / الذي مر كمساعد للمستشار السري بومكه في ميونيخ بالمدرسة العليا لعلم النفس الكلاسيكي».

منذ بداية حملة روسيا يوم 22 حزيران/يونيو 1941، فدمر جسده وعقله، مثلما بدا بوضوح بعد فشل هجوم الأردين.

وصول سري

كان مبنى الملجأ الصغير مخفيا في الغابة قرب تسيجنبرج. وقد بني سنة 1939 / 1940، وتمت تسويته اليوم بالأرض. ومع أنه لم يستخدم في حملة الغرب[1]، فإنه صار في منعطف سنة 1944 / 1945 مقر الفوهرر الرئيس في قوات ألمانيا المسلحة، أدار القائد الأعلى لمناطق واسعة من وسط أوروبا تمتد من رودوس إلى النرويج، وأول وآخر فوهرر «للرايش الألماني الكبير»، هجوم الأردين منه، فكان عمله اليائس الأخير هذا فعلا أمل أن يحول مجرى الحرب العالمية الثانية، لذلك، ربط به مصير الاحتياطي العملياتي المتاح كله. كان «عش النسر» مكانا تاريخيا، فهو مقر الفوهرر الرئيس الوحيد على الأرض الألمانية، إلى جانب «عش الصخور» في الإيفل، فليته تم الحفاظ عليه ليكون نصبا تحذيريا للأجيال. لقد كان أصغر وأكثر المقرات تواضعا، التي تم بناؤها في الحرب العالمية الثانية من أجل هتلر. وقد قدر لي أن أعرف معظمها، خلال قيامي بالمهام المختلفة، كـ «وكر الذئب» في بروسيا الشرقية، وهو مدينة فوق وتحت أرضية فيها دوائر ثلاث محظورة ومحطة قطار خاصة بها، مخبأة كلها في الهوخفالد ـ

(1) شبير، ص 184: «عرفت بعض المعلومات حول نوايا هتلر الأخرى، رغم السرية التي أحيطت بها، عندما أعطاني سنة 1939 مهمة بناء مقر رئيس في غرب ألمانيا. لهذا الغرض، قمنا بتحديث تسيجنبرج، وهو مقر سيد إقطاعي من زمن جوته، يقع على منحدرات التاونوس قرب ناوهايم، وزودناه بملاجئ. بعدما انتهى البناء، وتم إنفاق الملايين، ومدت خطوط هاتف لمئات الكيلومترات، وركبت فيه أحدث وسائل الاتصال، أعلن هتلر أن المقر الرئيس مترف جدا في نظره، وأنه يريد أن تكون له حياة بسيطة في الحرب، لذلك يجب أن يقام له مسكن في الإيفل، يناسب أزمنة الحرب».

الغابة العليا -، يقع ملجأ الفوهرر، المكان الأكثر قدسية بين جميع أمكنتها في الدائرة المحظورة الأولى، وقد شهد يوم 20 تموز/ يوليو 1944 محاولة اغتياله، التي نجا منها بجراح بسيطة. و«فيرفولف» إلى الشمال من فينيسيا في أوكرانيا، وهو تجمع ملاجئ وبيوت عسكرية في أرض غابية، سكنه هتلر صيف 1942، وأقام سنة 1943 مرات قصيرة متعددة فيه، قبل أن يذهب إلى بيرشتسجادن، حيث الهدوء، أو إلى «وكر الذئب»[93]. وكان هناك أخيراً مبنى فسيح وآمن في مارجيفال قرب سواسون في شمال فرنسا، زاره هتلر يوم 17 حزيران/ يونيو سنة 1944 لفترة جد قصيرة، لكنه لم ينتقل إليه مطلقا، رغم أنه بني من أجل المعركة في الغرب. سكن هتلر «عش النسر» ومارس منه عمله القيادي من بداية كانون الأول/ ديسمبر 1944 وحتى منتصف كانون الثاني/ يناير سنة 1945، وفيه عايشنا انهياره عن كثب.

بني «حصن النسر» في سنة الحرب الأولى، قبل الانتصار الصاعق في الغرب. يؤكد هذا الغطاء الاسمنتي المتواضع للملجأ، الذي لا يقبل المقارنة مع ما بني من ملاجئ فيما بعد. كان المبنى، الواقع عند أسفل واد على بعد كيلومترين تقريبا إلى الشمال الغربي من موقع قصر تسيجنبرج في التاونوس، صغيرا إلى درجة أنه لم يكن يتسع إلا للحاشية المقربة جدا، التي كانت تتألف من المارشال كايتل والعماد يودل مع بعض المساعدين وضباط الأركان - وكنت المرافق الرئيس ليودل - ولهتلر نفسه ولقائد مجموعات الـ إس إس شاوب، ولطباخة طعام نباتي، وللخدم الشخصيين وقائد مجموعات الـ إس إس فيجلاين، ضابط الارتباط مع هملر وسلاح الـ إس إس ومرافقته، ولمدير الرايش بورمان مع اركان صغيرة، وللسفير هيفيل كمبعوث لفون ريبنتروب ووزارة الخارجية. إلى جانب هؤلاء، كان هناك أيضاً بعض العاملات والعاملين في السكرتيريا، وكوادر متخصصة بالهاتف من القوات المسلحة. وكان الطبيب الشخصي مودل يأتي يوميا، لكنه لم يسكن أبدا في المبنى، حسب ما أتذكر.

وصلنا إلى المكان في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1944[94]. كانت المجموعة الثانية التابعة لمقر الفوهرر الرئيس، التي كنت أنتمي إليها، قد غادرت برلين ـ شلاختنزي سراً في غسق المساء، داخل سيارة أعدت لهذا الغرض، أوصلتنا بعد منتصف الليل بقليل إلى محطة قطار مهجورة قرب آيزناخ، حيث ركبنا سيارات باص صغيرة كانت بانتظارنا وتابعنا سفرنا نحو الغرب وسط الضباب الليلي. لم يكن بيننا من يعرف هدف الرحلة، سوى قائد المجموعة. وصلنا، في غبش الفجر، إلى أرض جبلية مغطاة بالغابات، وحين توقفنا عند قعر واد قيل إننا بلغنا هدفنا. دخلنا إلى الأقسام الضيقة المخصصة لنا في الملجأ، حيث صدر إلينا الأمر بعدم مغادرتها. كان من غير الجائز أن يعرف أحد بوجود مقر رئيس في تاونوس للقائد الأعلى للقوات الألمانية المسلحة، يحضر فيه بدرجة قصوى من السرية هجوم الأردين.

ماذا كان وضع هتلر؟. في الخريف، راجت في «وكر الذئب» شائعات تقول إنه مريض، ويعاني من متاعب في الكبد. ترى، من كان يستطيع التأكد من ذلك، وقد عزل الفوهرر نفسه عزلا تاما في الدائرة المحرمة الأولى، بينما كانت الأسئلة المباشرة عن وضعه ممنوعة. فيما بعد، سمعنا أنه شفي ويحضر بنشاط لإحدى العمليات، تسمى «حراسة على الراين». لم يكن هتلر مرئيا أول الأمر بالنسبة لنا في «حصن النسر» أيضاً. لكنه أبان لنا عن نفسه في الأيام التالية لوصولنا، بطريقة غير مباشرة أفزعتنا، بما أنها كانت تتعلق بستر المقر.

كان على مستخدمي السيارات جميعهم، سواء كانوا قادمين من الجبهة أو من تسيجنبرج، المقر الحالي الرئيس للقائد الأعلى غرب، أو من قيادة الجيش العليا، التي كانت في ذلك الوقت داخل ثكنة في جيسن، أخذ طريق

جانبية طويلة ومحددة بدقة عبر التاونوس، قبل أن يركنوا سياراتهم في موقع مغطى داخل الغابة، على الجانب الآخر من قعر الوادي، على بعد نحو نصف كيلومتر من المبنى. لم يكن الاقتراب من «عش النسر» مسموحا به إلا سيرا على الأقدام، على أن يأتي القادمون فرادى، أو أزواجاً في أعلى حد. ولم يكن من الجائز أن يشي أي طريق أو أي حركة سير بوجود المبنى. ذلك كان جزءا من خطة عامة تفرض تقيدا صارما بالسرية، غير أن القدوم والرواح الحتميان شقا بعد قليل دربا في قعر الوادي، ظهر بوضوح متعاظم بمرور الوقت، كانت آثار الأقدام تتضح عليه بوضوح أشد، عندما يسقط ثلج رطب.

لهذا السبب، أصدر هتلر أمرا بدا غريبا في نظر البعض، يرمي إلى تغيير صورة المنطقة. ولكن كيف؟. إلى جانب كتيبة الحراسة، التي قدمها لواء من الجيش هو «ألمانيا العظمى»، كان في المقر كتيبة عمل خاصة به، من السهل تكليفها ببناء طريق مغطاة في الغابة، كانت بدورها طريقا التفافية. لكن «المعلم» أمر بشيء آخر: يجب إجراء تغيير في قعر الوادي يخفي زوار «عش النسر» عن أعين المتطفلين والفضوليين على الأرض، ويمنع الرؤية من الجو. ذلك كان «أمر الفوهرر»، وأمر الفوهرر شيء مقدس. ذات ليلة، عج قعر الوادي بأشكال غامضة، وفي صباح اليوم التالي كان التغيير قد حدث بضربة سحر: لقد تغيرت المنطقة كثيراً، فهل كان التدبير صائبا؟. كانت طائرات الاستطلاع المعادية تحلق يوميا فوق التاونوس، فإن لاحظت التغيير قام الحلفاء بإسقاط سجادة قنابل عليه، وعجزت ملاجئه القديمة عن الصمود. بعد التغيير، صرنا نتوقع القصف الجوي بعد كل صفارة إنذار، غير أن الأمور سارت هنا أيضاً على غير ما توقعنا، فلم يتعرض «عش النسر»، بل تعرضت الغابات والفراغات المحيطة، وفيما بعد مكان وقصر تسيجنبرج، لهجمات الطيران المعادي[95]. وقد فاجأتني القنابل، خلال إحدى المسيرات

الليلية إلى جوتسموله، موقع العقيد ستروفه قائد المقر، وهي تسقط مطلقة صفيرا حادا، قبل أن تنفجر محدثة دويا هائلا، تبعه صدى متدرج استمر فترة طويلة. في هجوم لاحق، لم يصب مقر الفوهرر، بل أصيب قصر تسيجنبرج، مقر القائد الأعلى غرب واحترق بكامله[1].

أخذت كتيبة البناء احتياطات مبكرة ضد احتمال تدمير القصر، فأقامت سنة 1939 ملاجئ واسعة في أرضه الصخرية، وبنت مركزا لإدارة العمليات القتالية، يمكن بلوغه بقفزة واحدة من درج القصر الداخلي. لذا، لم يصب أي إنسان فيه، رغم ما نزل به من حريق ودمار.

قبل اقتراب الأميركيين، الذين أجبروها على الانسحاب، كانت أركان القيادة العليا غرب تجلس في هذا المقر الحصين ضد القنابل وكأنها في قصر أبراهام، بعكس ما كان الأمر عليه في مقر أركان كايتل ويودل في برلين، حيث لم يكن لغرف عملهم الواقعة على كرونبرنسناليه في برلين داهليم غير أقبية تسندها دعائم خشبية، وملجأ اسمنتي صغير مخصص للوثائق السرية.

ذات مرة، خلت أن القيامة قامت، حين سقطت قربي ألغام جوية معادية ذات دوي مخيف، أحدثت حفرا عملاقة في غابة كيفر المقابلة.

ماذا كان سيحدث، لو ان القنابل الثقيلة، التي سقطت مطلع كانون

(1) انظر في ما يتعلق بقصر تسيجنبرج هانس رودلف كورتس أيضا: سويسرا كمركز معلومات. سويسرا في استخبارات الحرب العالمية الثانية. فراونفيلد وشتوتجارت 1972، ص 20: «وقد عرفنا أيضاً في وقت مبكر عبر خط آخر قيم ـ ضابط استخبارات في مقر الفوهرر الرئيس ـ معلومات حول تنقلات مهمة، فعرفنا على سبيل المثال عن قرب نقل مقر الفوهرر إلى تسيجنبرج، الذي تم قبل بدء حملة الغرب». لكنه لم يتم أبدا شغل تسيجنبرج، بل شغل «عش الصخور» في الإيفل. ربما يكون دالس قد عرف سنة 1944 / 1945 من احد جواسيسه بنية الانتقال إلى مقر الفوهرر المزعوم في تسيجنبرج، الذي وجهت ضده هجمات جوية شديدة.

الثاني/يناير على «عش النسر» حطمته؟. لقد نجا هتلر مرة أخرى، رغم أن وضعه الجسدي كان يزداد سوءاً باضطراد، مثلما تأكد لي منذ أيام الهجوم الأولى. كان يوجد خلف المقر قطعة من الغابة أحيطت بأسلاك، تحرسها مواقع ثابتة ودوريات متحركة ؛ ولأن كثافة أشجار الغابة كانت قليلة هنا، فقد نشرت شبكات التمويه فيها، فكنت أرى بعد ظهر تلك الأيام الشتوية، عندما لا تمطر أو يسقط الثلج، كائنا محني الظهر بعض الشيء وهو يجرجر أقدامه، وقد رفع ياقة المعطف الرمادي اللون إلى أعلى، ودفن يديه في جيوبه. تلك كانت فترة «نقاهة» القائد الأعلى و«المعلم»، الذي يحرسه رجلا إس إس يحرصان على إخفاء نفسيهما وراء الأشجار، والبقاء بعيدين بعض الشيء عنه، وقد علقا رشاشيهما على كتفيهما استعدادا لإطلاق النار. ذات يوم، حمل يودل، وكنت مرافقه الشخصي، خلال نزهته خبراً مهماً من الاستطلاع اللاسلكي، فرأيت عن قرب وجها رمادي اللون، امَّحت معالمه وبرزت منه عينان جاحظتان تفيضان عذابا، لا يجمع جامع بالرجل الذي عرفته في لقاءات سنوات الحرب الأولى. رفع هتلر رأسه وبقي واقفا، بينما قرأ يودل نبأ الاضطراب الذي دب في صفوف الأميركيين، المأخوذين على حين غرة، وصرخات النجدة التي أطلقوها والتقطها قسم التنصت اللاسلكي. بدا وجه هتلر جامدا لا يتغير، لكن عينيه امتلأتا فجأة بالحياة والتمعتا «هذا جيد»، قال فجأة، ثم استدار مواصلا جرجرة قدميه. في المكتب، قال لي يودل، بعد لحظة صمت: «لا تخدع نفسك، فإرادته ليست محطمة، وليس بوسع أحد تخطيه، وهذا الهجوم هو هجومه». فشل هجوم هتلر الكبير الأخير، وعرفنا ليلة عيد الميلاد، في 24 كانون الأول/ديسمبر، أنه لم يعد هناك أمل. صار العيد، الذي أقمناه في الطاحون عند العقيد ستروفه «حزينا»، رغم ما بذله من جهد كي يجعله مرحا[96]. لم تنطلق أي أغنية، بذريعة أننا لا نريد كشف موقعنا، وأن عمليات القصف الجوي الليلية

تكاثرت تلك الليلة. لم يعد هتلر يقوم بنزهاته،وقيل إنه عزل نفسه مذ بدأت أخبار جبهة الأردين تزداد سوءا. هل كانت إرادته غير محطمة الآن أيضاً؟. تحدثت بصراحة مع أحد ضباط أركان يودل عن المأزق الذي آلت إليه معركة الأردين، وتساءلت: ألم يكن ممكنا توقع أن اليد العليا ستكون في نهاية الأمر للأميركيين، أصحاب الأفواج الأقوى، حتى إن نجحت المفاجأة؟. أعطاني الرائد (ب) الحق، وأكد أن أرادة هتلر لم تتحطم، ثم أضاف مفكرا: إرادته أم عناده؟. وأسر إلي أن «المعلم» يخطط لهجوم جديد، ستنفذه فرق إس.إس سحبت من الجبهة الغربية، ميدانه هنغاريا. دهشت، أردت أن أعرف لماذا هنغاريا بالذات؟. «هذه قيادة الحرب المتقابلة القطبية، التي يتحدث الجنرال شيرف عنها دوما».

«قيادة حرب متقابلة القطبية؟. ما معنى هذا؟» سألت محدثي.

«نقيض القيادة المألوفة، الأكاديمية!».

«حتى إن كانت عبثية؟».

«حتى عندما تكون كذلك ولأنها ستكون كذلك». «ولكن لماذا نختار ما هو عبثي بالذات؟».

«لأن أحدا لا يتوقعه، ولأنه ربما أدت مفاجآته إلى نجاح نهائي». لم أستوعب طوال أيام كثيرة هذه المحادثة، ولم أتمكن من الوصول إلى شيء ذي جدوى مع «قيادة الحرب متقابلة القطبية». ثم قدر لي أن أعيش خلال الأيام الأخيرة من إقامتنا في «عش النسر» حدثا إضافيا، شغلني وأقلقني.

ما هو وضع القوى العقلية «للرجل الأول في الدولة»، للدكتاتور الذي يتعلق به مصيرنا جميعا؟. علمت، عندما كنا في «عش النسر»، بيأس شاهد عيان، عرف «المعلم» وكان على مقربة منه أكثر من أي شخص آخر، هو

قائد الهجوم الرئيس لينجه، مرافقه الشخصي، وخادمه، كما كان يسمى في الماضي. كنا نلتقي أحياناً مساء في المطعم الصغير البارد. وكان لينجه يعرف كيف يروي أحاديثه بطريقة تثير الاهتمام، خاصة وأنه كان صريحا ويثق بي. ذات مرة، كنا وحيدين تماما، عندما بدأ يتحدث، تحدوه رغبة واضحة في الإفصاح عن مكنونات نفسه. كان حديثه يدور حول المعلم، وقد وصف بصوت منخفض وضعه، الذي بدأ يتدهور بتسارع منذ ليلة الميلاد.

«إنه بالكاد ينام. ولم يعد يتحدث معي. وهو يجلس ساعات طويلة متكوِّماً على نفسه، وعيناه مثبتتان حتى ساعات الصباح على الزاوية. ماذا يحدث، وإلى متى سيبقى على هذه الحال؟. سألت لينجه، فهز كتفيه. عندما أضفت: لكنه لا زال يعرف ما يريد، قال: «نعم، ما دام الطب يساعد والإبر تؤثر، فإن الأمور تعاود سيرتها العادية من جديد، لساعات قليلة فقط». لاحظت أن لينجه لا يطيق ذكر الدكتور مول، ومعظم «شيوخ» مقر الفوهرر. «كيف سينتهي هذا»؟. سألني في النهاية: «بصورة سيئة»، أجبت باختصار. «هذه هي نهايتنا»، قال لينجه بمرارة: «لقد خشيت ذلك منذ وقت طويل، لكنني واثق الآن أنها نهايتنا». لم يعد لينجه مؤمنا بهتلر، وبعبقرية الفوهرر، وبالأسلحة العجائبية وحدس القائد الأعلى المنقذ، الذي «لم يعد غير مجرد رجل مريض». بعد أيام قليلة تركنا «عش النسر» بطريقة أقرب إلى الهرب. حدث ذلك قبل فترة قصيرة من 15 كانون الثاني/ يناير 1945. كان الروس قد حققوا اختراقا قرب بارانوف، وتدفقوا بقوة هائلة وكتل متدافعة نحو الغرب. وعندما وصلنا إلى برلين، كانوا قد بلغوا حدود الرايش القديمة وتجاوزوها، وكان الاحتياطي العملياتي، الذي كنا بأمس الحاجة إليه من أجل الدفاع عن الرايش، قد جرى تدميره في الأردين، حيث كان الهجوم مجرد مفاجأة ونجاح أوليين، لكنه فشل في نهاية الأمر، مع أن أحدا لم يخنه.

لكل ما يستحق

بعد العودة من «عش النسر»، رجعت إلى هيئة أركان رئيس قوات الدعاية، اللواء فون فيدل، الذي كان ومعسكره في سوسن جنوب برلين. وكنت أسافر يومياً إلى شارع كرونبرينساليه، حيث يودل، لأضع أمامه مسودة تقرير القيادة العليا للقوات المسلحة، لكنني غالباً ما كنت أبقى هناك بسبب الغارات الجوية أو صفارات الإنذار. ذات مرة، وبينما كنت في الطريق، أصابت سجادة قنابل المعسكر وعرضته لدمار شديد، وأحدثت فيه خسائر. لكن قذيفة طائشة سقطت أمام البراكة، التي كنت أسكنها، ورشقتها بالرمل دون أن تسبب أي أضرار فيها. في هذه الأثناء، كان يودل قد غدا سكوتا تماماً في برلين، وقد لاحظت في شباط/فبراير أثناء تحرير تقارير القوات المسلحة إصراره على قول الحقيقة، قدر المستطاع، ليتمكن المدنيون من الجلاء عن المواقع المهددة في الوقت المناسب. وكانوا في الماضي يلجأون إلى جمل عمومية، حين تقع أزمات، كان العماد يعلق عليها بحكمة فريدريك الكبير، التي تقول «عندما تقع الحرب، تكون الحقيقة أول قتلاها». لكنه كان اليوم يقول الحقيقة حيثما يستطيع، رغم أنها كانت لا تفتأ تزداد مرارة، لأنه كان قد أقلع منذ وقت طويل عن التعلق بأي أمل، وشرع يعاني بصمت، حتى إن سكرتيرة كانت تعرفه منذ وقت طويل قالت لي بصوت هامس، حين دخل ذات مرة إلى مكتبه بعينين حمراوين: «لقد أمضى من جديد الليل كله وهو يبكي». كنا نعلق آنذاك آمالنا كلها على يودل، الذي كان يجب أن يتولى قيادة الحرب بدلا من هتلر المريض، فيضع لها نهاية سريعة قدر المستطاع، بالتخلي عن المواقع الخارجية العبثية، وتركيز القوى جميعها للدفاع عن الرايش، على غرار ما أراد اللواء بيك القيام به في 20 تموز/يوليو 1944[1].

(1) انظر أيضا فيلهلم فون شرام: انتفاضة الجنرالات (العشرين من تموز/يوليو في باريس) =

لكن هذا كان يشترط قبل كل شيء العودة لدى اتخاذ القرارات، إلى التقاليد المجربة، والانطلاق من واقع العدو. وقد كلفني فيديل بإعداد دراسة حول هذا الموضوع أقدمها إلى يودل، الرجل الأكثر أهمية في قيادة أركان القوات المسلحة. وبالفعل، كتبت الدراسة المذكورة خلال يومين تحت عنوان «معرفة وعلم العدو»، وهي مشكلة كانت قد شغلتني بصورة جدية منذ سنة 1939، أثناء تدريبي في الاستخبارات المتخصصة بالعدو. وافق فيدل على الدراسة ورحب بها، لكنه طلب إلي، بما عرف عنه من انضباط وتقيد بأصول الجندية، عرضها على خبير نكن جميعنا له احتراما خاصا، ليراجعها ويكملها، إذا تطلب الأمر. هذا الخبير كان اللواء جيهلن، رئيس شعبة «الجيوش الأجنبية شرق». وقد نفذت مطلع آذار/مارس من سنة 1945 ما أمرني به فون فيديل.

ثم انقطعت أخبار هذه الدراسة تماماً .كان الوضع العام يسوء بسرعة، وكنا نغرق في الهموم، لأن الحرب كانت تدور منذ وقت طويل على الأرض الألمانية، وشقاء الشعب يتعاظم كل يوم، بل كل ساعة، بينما يقف مئات آلاف الجنود الألمان على أتم استعداد في الدنمارك والنرويج وجزر القنال والحصون البحرية الفرنسية ورودوس، أو يجدون أنفسهم في ضرب من حجر ذاتي طوعي، كما كان حال مجموعة الجيش شمال في كورلاند. بلغ الإرهاق، الذي حل بي نتيجة هذا التطور، درجة من الشدة أصبت معها بنوبة قلبية في نهاية آذار/مارس سنة 1944، فأمرني الأطباء بالتزام الهدوء، وأرسلني يودل للنقاهة

= الطبعة الرابعة، ميونيخ 1964، ص 86: «بعد ظهر 20 من تموز/يوليو 1944 قال اللواء بيك على الهاتف مخاطباً المارشال فون كلوجه: علينا مواصلة الحرب، لكنها يجب أن تدار أخيراً من أناس يفهمون شيئاً عنها. أما «العمل الرسمي» الأول لبيك، فكان إصدار أمر إلى مجموعة جيش الشمال، التي كانت مهددة بالتطويق، بالتراجع إلى نهر الدونا».

في فندق «شيفسمايستر» على بحيرة كونيويه، التابع لقيادة أركان القوات المسلحة. هكذا عشت نهاية الحرب في بلاد بيرشتسجادن، ثم في منطقة سالزبورج، التي لجأت إليها قيادة أركان القوات المسلحة جنوب. وكنت قد توليت في هذه الأثناء قيادة وحدة إمداد في دورفجاشتاين، ونجوت أول الأمر من الاعتقال، وبقيت حراً حتى نهاية شهر حزيران/يونيو من سنة 1945.

لكنني سرعان ما وقعت في الأسر، ثم جاءت سنوات الفاقة، والبناء، ودراسة الأحداث التاريخية. كنت قد نسيت منذ وقت طويل دراسة 1945 حول «معرفة وعلم العدو». وفي سنة 1966، بعد واحد وعشرين عاما من نهاية الحرب، كنت أطير وزوجتي إلى إقامة دراسية تستمر فصلا واحدا في الولايات المتحدة الأميركية، تكفلت ابنتي المتزوجة في بنسلفانيا بتكاليفها. وقد ذهبت بطبيعة الحال إلى العاصمة واشنطن، وقمت بزيارة المدراء المسؤولين في الأرشيف القومي، الذين أعلنوا للتو استعدادهم لدعم أبحاثي في التاريخ المعاصر، ووجدت في ريتشارد باور، المولود في كروميخ بشفابن البافارية، مستشارا معوانا وخبيرا عارفا، اصطحبنا عبر مستودعات الكساندريا، التي ضمت الوثائق الحربية الألمانية، وحافظت على وثائق لا يحدها بصر، هي العمل الحياتي الذي أنجزته أجيال كاملة من المؤرخين المجدين. لم يكن سهلا أن يتعامل المرء مع هذه الوفرة الهائلة من الوثائق، ولم يكن الحصول على نظرة عامة حولها ممكنا إلا بمساعدة «الفهارس». عندئذ، حدث ما لم يكن متوقعا، فقد عثرت أثناء دراسة «فهارس» الجمعية التاريخية الأميركية / لجنة دراسة وثائق الحرب، على اسمي بالمصادفة، مدونا ضمن سجلات المقرات الرئيسة لقيادة الجيش الألماني العليا، ووجدت دراسة «معرفة وعلم العدو» ورد جيهلن الموجه إلي. لم تصلني الدراسة والرد عليها آنذاك، بل وقعتا غنيمة في يد الأميركيين المتقدمين، لكنهما كانتا هنا، بعد أن عبرتا المحيط بالسفن، لتخزنا في ألكساندريا.

كانت النسخة الآن في متناول يدي[1]، وأيقنت أن كتابة الدراسة لم تكن من دون جدوى. صحيح أنها ما كانت لتغير شيئاً في مآل الحرب، إلا أنها حفزت أبحاثي حول الاستخبارات المتخصصة بالعدو، وحول المعارف الاستخبارية التي يجب استخلاصها من الحرب العالمية الثانية، والتي سجلتها في الدراسة استنادا إلى تجاربي كراصد ومراسل، وكان أكثرها إثارة للاهتمام تلك التي تتعلق بـ«حصن الألب» ومصير برلين سنة 1945.

(1) النسخة بحوزة المؤلف. أما أن رسالة جيهلن لم تصلني، فتفسرها ظروف نهاية الحرب، خاصة وأن الأقسام الأولى من «الجيوش الأجنبية شرق» كانت قد نقلت في 15 شباط/فبراير 1945 إلى باد رايشنهال.

obeikandl.com

8

برلين ضاعت في سويسرا

ضياع وحيرة

المعزل والاستخبارات

استخبارات أميركا ومرحلة الحرب النهائية

اضطراب وعي هتلر

حلقات بحث التاريخ المعاصر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

ضياع وحيرة

كان صراع الاستخبارات في أوروبا بين سنتي 1937 ـ 1945 نسيج ذاته في تاريخ العالم. وقد ترتبت غرابته الخاصة ليس فقط على حجم «الأجهزة» غير المسبوق، بل كذلك على منهجية عملية تحولت إلى علم حقيقي، كانت له جوانب مظلمة بالطبع، لم تقتصر فقط على وفرة المعلومات، التي يتم جمعها، بل شملت قبل كل شيء نهاية الحرب وفصل «حصن الألب»، الذي قيض له أن يفضي إلى أشكال مختلفة من الضياع والحيرة، لأسباب بينها اشتغال كثرة كاثرة من «المخبرين»، المكلفين وعير المكلفين، في هذه الأعمال، وقيامهم «بتوريد المعلومات».

لنقل منذ البداية: إن الاستخبارات الحليفة وقعت مع «حصن الألب» في الغلطة الأكثر شؤما في تاريخها. فقد طاردت شبحا لم ينشأ عن «ألعاب استخبارية» ما، بل نجم أول الأمر عن إشارة إلى احتمال أنه من سويسرا. أن تكون سويسرا مصدر هذه الإشارة، هو أمر سهل التوضيح، أما القضية التي انصبت عليها، والبواعث التي كانت وراء «اللعبة اللاسلكية» ولفتت الأنظار إلى «حصن الألب»، فهي شيء لن يمكن إيضاحه على الأرجح، لأن جميع من شاركوا فيه، وكانوا مستعدين اليوم ربما لقول الحقيقة، قد فارقوا الحياة.

عرض تاريخ «حصن الألب» مرات متعددة[1]، لكنه عرض دوماً كحدث معزول، ومن دون تحليل دقيق للمعلومات الاستخبارية حوله، وحول بواعثه، ومن دون عرض نتائجه بالنسبة للسياسة الدولية بصورة خاصة. خضعت الاستخبارات الغربية في نصف العام الأخير من الحرب العالمية الثانية أكثر فأكثر لسحر أسطورة «حصن الألب»، وبدأت خرافتها تملي، بدءا من نهاية آذار/ مارس سنة 1945، قرارات قائد القوات الحليفة الأعلى في أوروبا، الجنرال أيزنهاور، الذي بدلاً من أن يتقدم نحو برلين، كما كان التخطيط المحكم يتطلب، تخلى عنها وانعطف بالكتلة الكبرى من جيش أميركا نحو الجنوب والجنوب الشرقي، ليحطم بقوته المتفوقة آخر مقاومة يائسة مزعومة للنازيين. في هذه الأثناء، كان الأميركيون قد احتلوا رأس جسر عبر نهر الإلبه ووطدوه، وكانت برلين يومي 12 و 13 نيسان/ أبريل على بعد يومين بالدبابات، فلم يكن على أيزنهاور غير مد يده لأخذها، خاصة بعد خبرة الأسبوعين الأخيرين، التي بينت كم ضعفت مقاومة الألمان للحلفاء بعد إخلاء حوض الرور وانتحار المارشال مودل، وكم كان قتال وحداتهم، التي لا تزال سليمة بعض الشيء، شرسا في الشرق.

ليس تاريخ «حصن الألب» ذاته غير واحدة من شناعات الحرب، التي ضللت كل من تعامل معها، من أيزنهاور إلى هتلر، الذي أعطى الأمر ببنائه في شهر نيسان/ أبريل، إلى بورمان، الذي كان على علم بهذه الفرصة الاخيرة منذ أيلول/ سبتمبر سنة 1944. وعلى كل حال، فقد تعلق الأمر على هذا الجانب بمهزلة كان المرء يستطيع أن يستمع إلى ضحك شيطاني وراءها، وتعلق على الجانب الآخر بمأساة تاريخية عالمية، جعلت السلام الحقيقي مستحيلا، وشطرت غرب ألمانيا إلى قسمين.

(1) قبل كل شيء لدى رودني مينو، وكذلك راوخشتاينر، ص 239--244.

عند «إلقاء نظرة عامة على سائر الظروف» (كلاوزيفيتز)، تلفت النظر واقعة مهمة هي أنه بينما كان أيزنهاور ينصرف عن برلين كهدف رئيس، لأسباب عسكرية صرفة، كان اللاعب المقابل ستالين يقوم بكل ما في وسعه للإيحاء بقلة اهتمام الاتحاد السوفياتي بها، ولاستثارة مزيد من التركيز الأميركي على «حصن الألب»، كما سنبين بالتفصيل فيما بعد.

من أين، ومتى وكيف ولماذا جاءت الإشارة الاستخبارية الأولى إلى احتمال وجود «حصن الألب»؟. علينا طرح هذه الأسئلة المبدئية قبل أي بحث. إن مصدر المعلومة محدد بوضوح: لقد جاءت من سويسرا، وبوسعنا تحديد اسم صاحبها: إنه «المفوض الخاص» للرئيس روزفلت وعضو مكتب المخابرات الاستراتيجية «آلن ولش دالس»، الذي جاء إلى سويسرا المحايدة، المطوقة تطويقا تاما آنذاك من قبل قوى المحور، في تشرين الثاني سنة 1942 «لحظة بدأ مصير الحرب يتحول لمصلحة الحلفاء». كتب دالس في كتابه «مؤامرة في ألمانيا»[1] يقول: كمنت إحدى المهام التي طرحتها واشنطن عليَّ في معرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات حول الحركات السرية المعادية للنازية داخل ألمانيا». وقد كسب دالس بعد حين مصدرين مهمين للمعلومات هما: هانس بيرند جيزيفيوس، أحد أهم الرجال في حلقة المقاومة المحيطة باللواء بيك، ونائب القنصل في قنصلية ألمانيا العامة في زيوريخ. في حين يعلمنا بالمصدر الثاني هانس رودلف كورتس، الناطق في حينه باسم الجيش السويسري، الذي ذكر ما يلي في دراسته «سويسرا كمركز معلومات»[2]: «أقام دالس في سويسرا علاقات مع شخصيات نافذة، وكان يعقد لقاءات دورية خاصة مع الرائد هاوسمان، يتم خلالها تبادل الأفكار حول الوضع.

(1) ألن ولش دالس: مؤامرة في ألمانيا. نيويورك 1947. الطبعة الألمانية، كاسل 1949.
(2) كورتس، ص 59.

هذه المداولات، التي جرت دوماً على وجه التقريب في منزل الناشر الزيوريخي هانس أوبرخت، كانت ضربا من تقويم مشترك للوضع، عرفت الديبلوماسي الأميركي بطريقة النظر الأوروبية إلى الأمور». يجب علينا اعتبار هذه الجملة نوعا من مفتاح. صحيح أن الأمر يتعلق هنا أيضاً بتخمينات، لكننا نؤمن بشرعيته، ما دام العارفون بحقيقته قد ماتوا جميعهم.

كان تقويم الوضع الكبير خلال سنوات الحرب الأخيرة مختلفا في أوروبا عنه لدى الكتلة الأكبر من الأميركيين. كان الأوروبيون، بمن فيهم السويسريون، يريدون أن لا يكسب السوفيات الروس نفوذا كبيراً في المجال الغربي. وكانت لديهم، على العكس من روزفلت وأتباعه، تحفظات قوية على ستالين خاصة، رفض أيزنهاور الاعتراف بها عشية نهاية الحرب. وبما أن القيادة السوفياتية كانت تعرف هذا، فإنها لم تترك وسيلة إلا واستخدمتها لتركيز اهتمام الأميركيين على «حصن الألب»، فتعينت استراتيجيتها في المرحلة الحاسمة من الحرب العالمية الثانية بسعيها هذا. انفرد الإنجليز، كأوروبيين، بكشف خطأ قرارات حليفهم الفائق القوة، ورضخوا لضغوطه الفائقة الشدة ـ رغم ما كانوا يعرفون ـ مثلما فعل المارشال مانشتاين حيال ضغوط هتلر.

انفرد دالس في سويسرا بتبني وجهة النظر الأوروبية، ويتضح من كتابه «مؤامرة في ألمانيا» أنه كان متعاطفا مع ألمانيا الأخرى[1]، وإن كان لم ير إمكانية لمساعدتها. وقد اعتقد أن صيغة كازابلانكا القدرية عن «الاستسلام غيرالمشروط» كانت خطيئة سياسية وبسيكولوجية جسيمة، أجبرت قسوتها الألمان على التضامن الطوعي في ما بينهم، فليس مستبعدا أن تكون برقيته خريف سنة 1944 أرادت تنبيه «الألمان الآخرين» (غيرالنازيين ـ المعرب) إلى

(1) دالس، المرجع السابق.

إمكانية أرادت عرضها عليهم، تمكنهم عمليا من تفادي خطر استسلام غير مشروط.

من المؤكد أنه كانت لا تزال هناك في 1944 بعض الفرص لانتهاج استراتيجية دفاعية عقلانية: فقد كانت هناك تحصينات ثابتة دائمة وأخرى في طور البناء على الطرف الجنوبي من الألب، وكذلك في التيرول الجنوبي إلى برينر. وكان واضحا أيضاً أنه يتم منذ خريف 1944 نقل مراكز خدمة متزايدة العدد من عاصمة الرايش الآفلة إلى وسط ألمانيا ثم إلى باڤاريا - وأخيرا، كان سيتفق تماماً مع صورة هتلر أن يموت في بيرشتسجادن، بعد أن يكون قد أطلق آخر رصاصة. وكان مؤكدا إلى حد ما، أو ممكنا ومحتملا، أن بعض مستودعات ومخازن المواد الغذائية قد نقلت إلى الألب. ولكن هل كان لدى القوات المسلحة الألمانية القدرة على إقامة معزل آمن، يستحق هذا الاسم؟. وهل كانت مؤهلة لإبداء مقاومة منظمة فيه، تطيل أمد الحرب من خلالها؟. هذا السؤال الرئيس لم يطرحه ضباط الاستخبارات في المقرات الرئيسة، ولم يتحول إلى موضوع لعمليات استطلاع منهجية، فوصلوا إلى قرارات خاطئة تماما، وتاليا إلى أخطاء استراتيجية يستحيل تصحيحها، وتجاهلوا قبل هذا وذاك أولوية العوامل السياسية المطلقة في المرحلة النهائية من الحرب العالمية الثانية، أو أزاحوها جانبا.

تحولت الاستخبارات السرية الغربية إلى ضحية للمضاربات، وخصت مخاوفها مما قد يفعله قادة النازية في اللحظة الأخيرة بفسحة أكبر من تلك التي خصصتها للتأكد على أرض الواقع من الأنباء والإمكانات، حيث كان يجب أن يوجد مرة أخرى جواسيس من الطراز التقليدي في المكان عينه، مدربون عسكريا ولا يسمحون لأحد بخداعهم، ويستعلمون حتى أدق التفاصيل عن الواقع الفعلي لـ«حصن الألب»، وعن كيفية إمداده بالأسلحة

والمؤن والذخائر، وحال القوات الألمانية الموجودة فيه. عندئذ، كانت قيادة القوات الحليفة في أوروبا وفي البنتاغون ستعرف أن الأمر لم يكن يتعلق بواقع، بل بوهم استراتيجي، وستجد حتما عددا كافيا من الكشافين المدربين عسكريا في المقاومة النمسوية المتصاعدة. وكانت ستنحي الشبح جانبا، وستقبل وجهة النظر البريطانية: وفيها أن برلين هي القضية الرئيسة.

إنذار الصحافة العالمية

نستطيع اعتبار 3 شباط/فبراير سنة 1945 يوم تعبئة الرأي العام الأميركي العامة في قضية «حصن الألب». ففي هذا اليوم قد نشرت النيويورك تايمز، الجريدة التي يعتقد رأي سنة واسعة الانتشار أنها أكثر صحف العام معرفة، مقالة تحذيرية عن الموضوع، لم تكن تقريراً كتبه مراسل أوروبي، بل موقف خبير الجريدة العالمية الأول في الشؤون العسكرية هانسون بالدوين[1]، الذي تنبأ، أو رأى من واجبه أن يتنبأ، باستمرار القتال في ألمانيا بعد سقوط برلين، وزعم أنه سيتركز في منطقة الألب، الذي أعدته الحكومة النازية ليكون معزلا قوميا آمنا وجهزته بكل ما يلزم. بذلك تلقى الجنرال مارشال في البنتاغون، والجنرال أيزنهاور في القيادة الحليفة ما يصح تسميته طلقة أمام الرأس، لأنهما كانا في مواجهة صوت يقرر معتقدات الرأي العام في أميركا، لا يسعهم تجاهله ببساطة. يستطيع المرء أن يتصور النقاشات التي أطلقتها المقالة في المقرات الغربية الرئيسة، وأن يفكر أيضاً بدوائرها التي انتشرت في صحافة العالم المتعاطفة مع الحلفاء. لقد تسببت رمية حجر في إطلاق كرة ثلج، فبدأت الجرائد الكبيرة تكتب حول «حصن الألب»

(1) مينو، ص 34.

المزعوم، كأنه صدرت إليها كلمة سر. وأذاعت وكالة الاسوشييتدبرس من موسكو تصريح دوائر عسكرية سوفياتية تقول إن الألمان يعدون لدفاع شديد عن الألب[1]. وأخبرت «الديلي ووركر» جريدة الشيوعيين الأميركيين اليومية، عن هجمات ألمانية مسعورة لفك الحصار عن بودابست، لخوفهم من هجوم روسي على «حصنهم الألبي». وأضافت إن العمليات قرب ستراسبورج مكرسة للدفاع عن الجبهة الأمامية لحصن الألب ضد الغرب[2]. وكانت المجلة الأميركية «كولييه» قد كتبت قبل فترة عن الاستعدادات لحرب العصابات في سالوكامرجوت يقوم بها كالتنبرونر، رئيس مكتب أمن الرايش الألماني الرئيس. وامتلأ عدد كبير من الصحف الغربية والصديقة للولايات المتحدة بتقارير مماثلة.

اتخذت الصحافة الإنجليزية موقفا يتسم بالتحفظ، وكانت أكثر شكا في ما يتعلق بمعزل الألب من الأميركيين، الاسرع إلى تصديق كل ما يصل إلى أسماعهم. انفردت المجلة الاسبوعية الإنجليزية «سفير» بكتابة مقالة في شباط/ فبراير سنة 1945 حول «حصن الألب»، قالت فيه بين أشياء أخرى[3]: «يتخذ الألمان استعدادات عسكرية كبيرة لجعل هذا المعزل في وضع دفاعي قوي، وخاصة منه المنطقة الجبلية، التي تمتد من أرلبرج إلى سالزبورج، حيث تفرغ القطارات المدافع والوقود والمواد الغذائية والذخيرة في لانجن على أرلبرج، وفي إيمنشتات. وهناك ما يكفي من الاسباب للاعتقاد بأن الارض الجبلية الواسعة تحول نفسها إلى قلعة حربية، يأمل النازيون المتعصبون أن يتمكنوا من الصمود فيها، إلى أن تعلن أوروبا المتعبة من الحرب استعدادها لهذا الشكل أو ذاك من التفاوض. هكذا تحول في شباط/

(1) المصدر ذاته، ص 30.
(2) كونج، ص35.
(3) مينو، ص 34.

فبراير من سنة 1945 شبح «حصن الألب» إلى كابوس أقلق العالم الغربي، وخاصة منه أميركا، بينما أكب جهاز الاستخبارات المتخصص بالعدو على هذه المشكلة، تحت ضغط الرأي العام.

obeikandl.com

الفصل الثاني

المعزل والاستخبارات

ثمة وفرة من المعلومات في ما قاله كورنيليوس رايان: العارف الممتاز بسنوات الحرب الأخيرة، عن الصورة الاستخبارية، التي كانت لدى قيادة القوات الحليفة في أوروبا خلال الأشهر الأولى من سنة 1945، عن «حصن الألب»[1]. وكان هناك في غرفة الخرائط الواسعة، وهي أقرب الغرف إلى مكاتب أيزنهاور، خريطة كبيرة تغطيها إضافات ملونة كثيرة اجتذبت اهتمام القائد الأعلى بصورة متكررة. إنها كانت خريطة الوضع، التي رسمها بعناية وحرص جهاز الاستخبارات، وكتب عليها «الحصن القومي بحسب تقارير العملاء». أظهرت الخريطة المنطقة التي تبلغ نحو 35 الف كيلومتر مربع، وتشمل الألب البافارية وأقساماً من التيرول وسالزبورج، فضلا عن الألب الإيطالي الشمالي، وجعلت مركزها مقر الفوهرر الرئيس في أوبرسالزبورج و«عش النسر» في بيرشتيسجادن. «كانت الخريطة مغطاة بكاملها بعلامات حمراء، تبين أنواع المرافق الدفاعية المختلفة، ومستودعات الذخيرة، والوقود، ومخازن الغازات السامة، والمواد الغذائية، ومحطات الإرسال الإذاعي، ومولدات الطاقة، والقواعد العسكرية المزودة بأماكن لإيواء الجنود، والمراكز القتالية والتحصينات ـ من مواقع المدافع المسلحة بالاسمنت إلى الملاجئ الإسمنتية العملاقة ـ وحتى المصانع تحت الأرضية،

(1) رايان، ص 156 وما يليها.

الحصينة ضد القنابل». وكانت تضاف يوميا علامات جديدة إلى الخريطة. صحيح أنها كانت تحمل جميعها ملاحظة تقول «معلومات غير مؤكدة»، إلا أن أحدا في قيادة القوات الحليفة في أوروبا لم يشك بوجود «حصن الألب»، بل إن جهاز الاستخبارات ما انفك يتلقى تقارير تبدو خليقة بالتصديق، تقول إن هتلر والقادة النازيين، الذين انكفأوا شأن كالتنبرونر إلى الألب، سيدافعون إلى آخر طلقة عن الحصن القومي، وإنهم سيموتون فيه، إذا تطلب الأمر. بدورها، اكتسبت قاعدة عمليات حرب العصابات المحتملة في فيرفولف أهمية خطره، وفق تقارير كثيرة.

كان البنتاغون في واشنطن أشد تأثرا بهذه المعلومات من القيادة الحليفة في اوروبا: لا شك في أنه كان للتقارير المتواترة، التي كانت ترد من «مكتب الاستخبارات الاستراتيجية» في سويسرا، إسهامها الخاص في ذلك. وزاد الطين بلة أنه صدرت في الثاني عشر من شباط/فبراير دراسة تلوم من لا يولون اهتماماً خاصا للحصن النازي الأخير، كما صدر توجيه يلفت أنظار قادة الجبهة وصولا إلى قادة الفرق إلى خطر مقاومة ألمانية أخيرة يائسة في الألب. ونفخ رجال الاستخبارات العاملون في سويسرا في هذه النار خلال الفترة الأخيرة، على حد قول رايان، الذي كتب يقول: «أرسل عملاء الحلفاء في سويسرا يوم السادس عشر من شباط/فبراير تقريراً إلى واشنطن، مصدره ملحقون عسكريون محايدون في برلين، يقول[1]: يعد النازيون أنفسهم من دون أي شك لقتال قاس، يريدون خوضه انطلاقا من «حصن الألب»، ستكون قواعد متصلة بعضها ببعض عبر سكك حديد تحت أرضية، تضم مخزوناً يكفي أشهراً كثيرة، ويحوي أفضل الذخائر وكل ما لدى الألمان من غازات سامة على وجه التقريب. أما الأشخاص، الذين شاركوا

(1) المصدر ذاته، ص 157 وما يليها.

في بناء المرافق السرية، فسيكون مصيرهم جميعهم القتل، بمن في ذلك المدنيون، ممن سيكونون هناك عند بداية المعارك». حسب توجيه البنتاغون هذا، ظهر في النصف الثاني من آذار/مارس سنة 1945 شبح «حصن الألب» في جميع تقويمات الوضع الميداني على وجه التقريب، التي قام بها الجيش الأميركي. وهكذا، بدا المحلل الرئيس للاستخبارات المتخصصة بالعدو لدى الجيش السابع الأميركي، العقيد ويليام كوين، قانعا أشد القناعة أن هتلر يعد لمعزل قومي هناك براهين دامغة على وجوده. وقد قرأ رئيس شعبة العمليات في قيادة القوات الحليفة الجنرال بول هذا التحليل يوم 3 نيسان/أبريل ووجده معقولا تماماً، رغم تأكيد استخبارات مجموعة الجيش السادس الحليفة أن المستلزمات المادية والبشرية لـ«حصن ألب» قد دمرت وانتهى أمرها، بقوة الوقائع العسكرية: أي هزائم الألمان الدائمة. بدوره، بقي رجل الاستخبارات الأعلى لدى القيادة الحليفة، الجنرال المعروف جداً من قبلنا كينيث سترونج، على شكوكه في مسألة الحصن.

مقاومة بريطانية

كان جهاز الاستخبارات البريطاني الوحيد الذي بقي بعيدا عن هذه التشويشات خلال أشهر الحرب الأخيرة. لقد اتخذ سياسة انتظارية وحافظ عليها، فلم يحول القائد الأعلى لمجموعة الجيش الحادي والعشرين المارشال مونتغمري عينيه لحظة واحدة عن الهدف السياسي النهائي للحرب. وقد كتب في مذكراته[1]: «لم يفهم الأميركيون أن من غير المجدي كسب الحرب عسكريا، إن كنا سنخسرها سياسيا. لقد كان علينا تحمل نتائج وجهة النظر الغريبة هذه من يوم استسلام الألمان، للعلم، فإننا نتحملها اليوم أيضاً.

(1) المرجع ذاته، ص 373.

ليست الحرب غير أداة للسياسة. وما إن تظهر إمكانية كسبها عسكريا، حتى يصير على وجهات النظر السياسية التأثير في مجرياتها. وقد كان واضحا في خريف سنة 1944 أن الطريقة التي تعالج بها الأمور ستترك آثارا تتجاوز كثيراً نهاية الحرب، وكان لدي آنذاك الانطباع بأننا كنا على أفضل طريق يفضي إلى «تبديد» القضية، وأعتقد أننا فعلنا هذا حقا». ثمة حافز بدد نتائج نهاية الحرب بالنسبة إلى الحلفاء الغربيين وتاليا بالنسبة إلى العالم الحر. إنه شبح «حصن الألب» أو بقول أدق: التأثير الذي كسبه هذا الشبح على الاستراتيجية النهائية للحرب العالمية الثانية في أوروبا. فكيف حدث هذا؟. يقول المارشال البريطاني اللاحق في مذكراته[1]: «بعد عبور الراين، ناقشت خططنا العملياتية المستقبلية مع أيزنهاور، خلال محادثات كثيرة. كنت أرى على الدوام أن برلين هي الهدف الرئيس، فهي مركز ألمانيا السياسي، فإن تمكنا من بلوغها قبل الروس، أصبحت الأمور أسهل بالنسبة لنا في السنوات التالية للحرب. ونحن نتذكر أن أيزنهاور تبنى في رسالته إلي بتاريخ 15 أيلول/ سبتمبر 1944 رأيي حول الأهمية الكبرى للعاصمة الألمانية، وقال: «إن الهدف الرئيس هو طبعا برلين». وليس هناك أي شك من وجهة نظري في أنه يجب علينا استخدام كامل قوتنا وجميع وسائلنا من أجل تحقيق تقدم سريع نحوها». لماذا غير أيزنهاور رأيه، وغدت برلين فيما بعد غير مهمة في نظره؟. ماذا جرى داخله منذ عبر الحلفاء الراين بهجومهم المباغت على جسر ريماجان يوم 7 آذار/ مارس 1945؟. نحن نعرف اليوم أن الأمر الذي حسم موقفه كان أرجحية وجهات النظر العسكرية، أو بقول آخر: أولوية الاستراتيجية العسكرية على السياسية. من جانبها، دعمت واشنطن موقف القائد الأعلى، لأن القيادة السياسية العليا للولايات المتحدة أخفقت بدورها،

(1) المرجع ذاته، ص 371 وما يليها.

ليس فقط بسبب الموت المفاجئ للرئيس روزفلت يوم 21 نيسان/أبريل 1945. كتب مونتغمري[1] في مذكراته: «لو أن القادة السياسيين الغربيين مارسوا قيادة الحرب العليا بصورة صحيحة، وأصدروا توجيهات ملائمة إلى أعلى القادة العسكريين، لكان باستطاعتنا احتلال المدن الثلاث (برلين، فيينا، براغ) قبل الروس». لم يكن هناك توجيهات كهذه، وعجز تشرشل، الذي كان على صواب، عن فرض رأيه في مواجهة الأميركيين. بذلك نشأ فراغ في التصور الاستراتيجي، استطاع شبح «حصن الألب» التغلغل إليه، لفرض سحره بقوة متزايدة على الواقع. بالإضافة إلى أن ستالين عمل عن وعي لترسيخ هذا الهدف، كما سنرى لاحقا.

بلغت الأمور نهايتها في الحادي والثلاثين من آذار/مارس سنة 1945، حين أرسل أيزنهاور برقية إلى مونتغمري تقول في جملتها الأخيرة: «لا بد أنك لاحظت أنني لم أذكر برلين إطلاقا. هذا المكان ليس في رأيي غير مفهوم جغرافي، وأنا لم أهتم يوما بأشياء كهذه. إن هدفي هو إبادة قوات العدو المسلحة وكسر قدرته على المقاومة». يعلق مونتغمري، كاستراتيجي يفكر سياسيا، على ذلك قائلا: «لقد ضاعت برلين منا في آب/أغسطس من سنة 1944، عندما أهملنا بعد انتصار النورماندي وضع خطة عملياتية عاقلة». بدلاً من وضع خطة كهذه، برز لدى أيزنهاور ومارشال بصورة حتمية تقريبا ذلك الذي اخترع اسطورة «حصن الألب». وبالمناسبة، لقد فعلت موسكو وفعل ستالين شخصيا كل شيء، من أجل تعزيز إيمان الأميركيين بقراراتهم الخاطئة.

2 المرجع ذاته، ص 372.

ستالين يخدع أيزنهاور

أرسلت يوم 28 آذار/ مارس الساعة 16 برقية مشفرة إلى موسكو[1]، كانت رسالة شخصية من أيزنهاور إلى المارشال ستالين بصفته القائد الأعلى للحلفاء السوفيات، يخبره فيها عن نواياه ويقترح أن تتحد القوات المسلحة الأميركية مع الجيوش السوفياتية عند خط أيرفورت / لايبزيج / درسدن، لتشق قوات ألمانيا المسلحة إلى قسمين. «إنني عازم على توجيه قوتي الضاربة الرئيسة إلى هذا الخط. وأرى أن من الضروري، لتحقيق اتحاد سريع قدر المستطاع مع قواتكم، شن هجوم جديد في منطقة ريجنسبرج / لينز، يستهدف في الوقت نفسه الحيلولة دون تعزيز المقاومة الألمانية في الحصن الألماني الجنوبي». وقد كتب أيزنهاور بالمعنى ذاته إلى مارشال ومونتغمري.

عبرت الأركان العامة الأميركية، أي البنتاغون، يوم السبت، الحادي والثلاثين من آذار/ مارس عن ثقتها التامة بأيزنهاور. لكن تشرشل كان له رأي مختلف: فقد أرسل قبل الساعة 19 بقليل برقية إلى القائد الأعلى في أوروبا يقول فيها[2]: «إذا كان العدو لا يستطيع الصمود لفترة طويلة بعد، حسب ما يبدو أنكم تعتقدون... فلماذا لا نعبر الإلبه ونتقدم بعيدا قدر الإمكان نحو الشرق؟. إن هذا سيكون على قدر عظيم من الأهمية سياسيا، بعد أن تأكد أن الجيش الروسي سيحتل فيينا ويقتحم النمسا. إذا كنا سنترك برلين بمحض اختيارنا للروس، مع أنها في متناول أيدينا، فإن هذا سيعزز اعتقادهم بأنهم قاموا بكل شيء بمفردهم، بالمناسبة، لم تفقد برلين أهميتها العسكرية، فكم بالحري أهميتها السياسية... وما دامت في يد الألمان، فإنها تكون من وجهة نظري أهم نقطة في ألمانيا». هذا ما كان يعرفه ستالين أيضاً ـ وقد

(1) رايان، المرجع السابق، ص 160 وما يليها.
(2) المرجع ذاته، ص 18.

تصرف بما يتفق معه، وعلى طريقته. طبيعي أن رسالة أيزنهاور أرضته، وأنه فعل كل ما يلزم لإبعاده عن برلين، ودعم خططه ونواياه[1]. وقد أخبر ديم، سفير أميركا، وآشر، سفير بريطانيا، اللذين نقلا إليه رسالة أيزنهاور، أنه يعتقد بدوره أن المقاومة الأخيرة، التي سيبديها العدو، ستتركز في جنوب تشيكوسلوفاكيا وبافاريا. وأردف أنه سيتحدث عن أهدافه العملياتية الخاصة بعد مناقشتها مع قادة الجبهات. لكنه كان قد قرر في الواقع الانتقال بالسرعة الممكنة إلى الهجوم الحاسم، واحتلال برلين بالجيش السوفياتي بمفرده، فكان في مصلحته، إذن، أن تتحول كتلة الجيش الأميركي نحو الجنوب والجنوب الشرقي، لكسر المقاومة الأخيرة في «حصن ألمانيا الجنوبي». كانت السرعة مطلوبة، وقد طلب ستالين، بعد محادثته مع السفيرين، حضور مارشالي الاتحاد السوفياتي جوكوف وكونييف إلى موسكو فورا، ليتدارس معهما عملية احتلال عاصمة الرايش.

بعد يومين، أبرق ستالين إلى أيزنهاور[2]: «تلقيت برقيتكم بتاريخ 28 آذار/ مارس. إن خطتكم، التي تستهدف شق القوات الألمانية عبر الاتحاد مع القوات السوفياتية المسلحة، تتفق تماماً مع خطة القيادة السوفياتية العليا». وكان ستالين موافقا أيضاً على أن يتم الاتحاد في منطقة لايبزيج / دريسدن، لأن «القوات المسلحة السوفياتية ستنفذ هجومها الرئيس في هذا الاتجاه». أما موعد الهجوم، فذكر «النصف الثاني من أيار/ مايو تقريبا». وبرلين؟. قدم ستالين نفسه في صورة من لا تهمه برلين: «لقد فقدت برلين أهميتها الاستراتيجية السابقة»، وغدت قليلة الأهمية إلى درجة أن القيادة العليا السوفياتية ستستخدم قوات من الخط الثاني في الهجوم عليها.

(1) المرجع السابق، ص 18.
(2) المرجع ذاته، ص 194.

obeikandl.com

الفصل الثالث

جهاز الاستخبارات الأميركي ومرحلة الحرب النهائية

بعد التخلي عن برلين، اتخذ أيزنهاور في نهاية آذار/ مارس سنة 1945 قراراً بتقدم الكتلة الرئيسة من الجيوش الأميركية في اتجاه بافاريا والنمسا. ذلك كان قرار الحرب الأخير الكبير، وكان مثقلا أكثر من أي قرار آخر عرفته بالنتائج المأسوية. أما أنه تخلى عن برلين للروس، فقد بدا مبررا تماماً من الناحية العسكرية: إذ كان هؤلاء يقاتلون في هذا الوقت على نهر الأودر، على بعد 65 كيلومترا فقط من العاصمة الألمانية، بينما كانت الجيوش الأميركية تعمل لإيقاع مجموعة جيش مودل الألمانية في ستالينغراد جديدة على نهر الرور، على مسافة 450 كيلومترا من برلين. هذه الذريعة الكمية تتجاهل العامل النفسي الأكثر أهمية، فبينما كان الألمان يقاتلون الروس بشراسة وعناد، ويستخدمون كتلة قواتهم التي لا تزال صالحة للقتال، كانت المقاومة ضد الحلفاء الغربيين قليلة. لذا، بلغت وحدات أميركية متقدمة يوم 13 نيسان/ أبريل نهر الإلبه بين باربي وفيتنبرج، ولم يكن من الصعب، بتوفر دعم ومعاونة القيادة، قطع يومي المسير اللذين كانا يفصلانها عن العاصمة. إلى هذا، لم يبدأ الهجوم السوفياتي على برلين إلا يوم 16 نيسان/ أبريل، قبل تسعة أيام من التقاء قوات أميركية وروسية قرب تارغاو على الإلبه. بذلك، صار الاتحاد السوفياتي المنتصر الحقيقي في الحرب العالمية الثانية.

أسهمت تحليلات الاستخبارات وتقاريرها بقسط وافر، إن لم يكن حاسما، في القرارات الخاطئة والمأسوية، التي اتخذها الأميركيون سنة 1945. ويثير الاهتمام في هذا السياق التقويم الذي أجراه الجيش الأميركي السابع، الذي كان يقاتل على ميمنة القوات، يوم 25 آذار/مارس للوضع (وكان قائده العميد باتش)، وقال إن «من غير المؤكد أن الألمان شكلوا في «حصن الألب» وحدات نخبة تتكون بصورة رئيسة من الـ إس إس وقوات جبلية، تضم مئتين إلى ثلاثمئة ألف رجل». وانه «تم نقل مواد تسليحية إلى الحصن، وأن قطارات طويلة تذهب إليه كل أسبوع منذ الأول من شباط/فبراير سنة 1945، تحمل أنواعا جديدة من المدافع، وأنه تم بناء مصنع طائرات تحت أرضي لإنتاج مقاتلات مسر شميدت». تكدست تقارير مشابهة في مكاتب استخبارات الجيوش الأخرى أيضاً، وقال تقويم حول وضع العدو أجرته القيادة العليا الحليفة في أوروبا يوم 11 آذار/مارس ما يلي[1]: «علينا أن نأخذ نظريا في اعتبارنا أن من يمسكون حاليا بالسلطة في ألمانيا سينسحبون إلى هذا «الحصن»، الذي تخصه معطياته الطبيعية بمزايا كبيرة، وتحميه أشد الأسلحة السرية فاعلية، ليكون نقطة انطلاق انبعاثهم الجديد. . . . يبدو أن الطموح الرئيس للسياسة الدفاعية الألمانية منصب على تأمين منطقة الألب. . .».

لا عجب أن يتخذ رئيس أركان القوات المسلحة الأميركية الجنرال مارشال قراراته النهائية بناء على تقارير كهذه، وأن يستخلص المحصلة الإجمالية لتحليلات وأخبار عملاء الاستخبارات، كما وصلته من سويسرا خاصة، ويعطي أيزنهاور الضوء الأخضر في شكل سؤال[2]: «ما رأيك في

(1) المرجع ذاته، ص 159.
(2) المرجع ذاته، ص 159.

شن هجوم سريع على خطوط نورنبرج ـ لينز أو كارلسروه ـ ميونيخ؟. أفكر بعملية سريعة، تمنع بناء مناطق مقاومة منظمة. وهناك من يرى أن الأرض الجبلية في الجنوب يجب أن تكون هدف عملية كهذه».

احتل الأميركيون نورنبرج يوم 20 نيسان/أبريل، بينما كانوا في حالة تقدم سريع نحو الشرق والجنوب. كانت برلين قد ركنت جانبا في هذه الأثناء، بمعنى الكلمة الحرفي. وكانوا يؤمنون في مقر أيزنهاور الرئيس وفي أركانات الجيش أنهم سيخوضون معارك شديدة حول الألب البافاري والنمسوي. ويعتقدون أنه حان وقت إعلام الرأي العام بالوضع الجديد، لذلك عقد في اليوم المذكور مؤتمر صحفي في باريس، أداره رئيس أركان القائد الأعلى، الجنرال بيدل سميث شخصيا.

كان مطلوبا تنوير الرأي العام حول سبب إحجام الجيش عن التقدم نحو برلين، أي حول معزل الألب، بغض النظر عن صحة الأخبار حوله أو خطئها. وقد رجا سميث سامعيه أن يحافظوا على أقصى قدر من السرية، عندما قال[1]: «نحن لا نعرف الكثير حول هذا المعزل. وإن كنا نعرف أن الألمان نقلوا ما استطاعوا نقله من قوات وأسلحة إلى منطقة جنوب ألمانيا والألب البافاري. إننا لا نعرف بعد ما قد نواجهه هناك، وإن كنا بدأنا نعتقد مع ذلك أنه سيكون أكثر بكثير مما كنا نتوقع بالأصل... عندما سنصل إلى هناك في الجنوب، سنجد على الأغلب مرافق تحت أرضية أكثر بكثير مما كنا نعتقد». هذه الإشارة مهمة جدا، لكونها تستند على تضليل متعمد مارسته أجهزة الاستخبارات الحليفة. لإيضاح هذا الجانب، لا بد من عودة أخرى إلى الماضي.

(1) استشهاد بحسب مونج، ص 36.

لم تبق الأخبار الأولى حول احتمال وجود معزل نازي، التي وصلت من سويسرا إلى الحلفاء في أيلول/سبتمبر من سنة 1944، سرا اقتصر عليهم، فقد عرفه أيضاً الموقع الخارجي للاستخبارات الألمانية في بريجنز من أعمال فورارلبرج، وأوصل المعلومة إلى هوفر، قائد محافظة التيرول، الذي أدرك للتو أهميته بالنسبة إلى الجانب الألماني، رغم أنه كانت لديه شكوك جدية حول إمكانية مواصلة المقاومة عسكريا بعد خسارة بقية منطقة الرايش، على حد ما قاله هو نفسه للمؤلف فيما بعد[1]. لكن هوفر كان يدرك، بالمقابل، الفرص السياسية التي يتيحها رهان محتمل على المفاوضات في نهاية الحرب. وقد فكر بالطريقة ذاتها رئيس مكتب أمن الرايش الرئيس كالتنبرونر، بعد أن أخذ علما بالمذكرة الأميركية من سويسرا. لم يكن كالتنبرونر وهوفر من أنصار القتال حتى الطلقة الأخيرة، وكانا قد توقفا منذ وقت طويل عن التعلق بأوهام «النصر النهائي». لهذا السبب بالذات قاما بكل شيء من أجل بناء «تحصينات»، حيث استطاعا إلى ذلك سبيلا، لتضليل استخبارات الحلفاء بتدابيرهما الوهمية، وهو ما نجحا في تحقيقه بكل وضوح، ذلك أنهما حرصا على ظهور الجيولوجيين وخبراء النسف بالديناميت ووحدات الهندسة بطريقة تلفت الأنظار، في كل مكان من التيرول ومنطقة سالزبورج، فترتب على خداعهما ما شاع من تقارير حول مخازن مؤن تحت أرضية، وورش ومصانع... الخ.

كان الأميركيون يعتقدون آنذاك أن هتلر سينسحب إلى هذا المعزل، كي يقاتل إلى آخر رمق، أسوة بما يطالب قواته به. يؤكد هذا قول فالتر بيدل سميث في مؤتمره الصحافي الباريسي: «ما دام هتلر أو أي واحد من معاونيه يستطيع أن يقف على صخرة قرب سالزبورج، ليعلنوا أنهم هم الألمان

(1) في الأسر في «بيت آلاسكا»، الذي كتب هوفر فيه تقريراً حول «حصن الألب» بطلب من الأميركيين.

الأحرار. ومادامت الوحدات الألمانية، التي بقيت متماسكة بطريقة ما، تتلقى بواسطة الإذاعة أوامره التي تحثها على مواصلة القتال، وتعدها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، فإن هذه القوات ستحاول الدفاع عن نفسها. إذا كنا نريد إيصال هذه الحرب إلى نهايتها، وبسرعة، يجب ان يكون هدفنا التالي جعل هذا المعزل غير مؤذ بالنسبة لنا. وقد صدرت الأوامر التي تتفق مع ذلك». لا مراء في أن أقوال بيدل سميث كانت نتاج تفكير دقيق. وان قرار الهجوم على «حصن الألب» عوض التقدم نحو برلين اتخذ جزئيا تحت ضغط الرأي العام في الولايات المتحدة، الذي كانت النيويورك تايمز أول من عبأه. لكن القرار كان أيضاً وليد تحليل إجمالي قامت بها استخبارات القيادة العليا المتخصصة بالعدو، قيل فيه[1]: «تبدو السمة الغالبة على تكتيك الدفاع الألماني وكأنها ترمي إلى تأمين منطقة الألب... التي تجعلها طبيعتها الارضية عصية على الاحتلال... وتشير الدلائل جميعها إلى أن أعدادا كبيرة من وحدات الـ إس إس ووحدات أخرى مختارة سحبت وفق خطة محكمة وبأعداد كبيرة إلى النمسا... وأن أكثر مكاتب وشخصيات النظام النازي أهمية قد استقروا في المعزل». ثم يقول التحليل، بطريقة عاطفية تقريبا: «بدفاع الطبيعة والأسلحة السرية الأكثر فاعلية، التي تم اختراعها عنه، ستنجو القوى التي قادت ألمانيا إلى الآن، وستعد لبعثها مجدداً منه، حيث يتم إنتاج الأسلحة والذخائر في مصانع مضادة للقنابل، وتكدس المواد الغذائية والتجهيزات في مغائر تحت أرضية عملاقة، ويتلقى جحفل تم اختياره من الشبان بالدرجة الأولى تدريبا خاصا على الحرب الصغيرة، بحيث يمكن أن يتشكل بهذه الطريقة جيش سري كامل، سيتم استخدامه وقيادته لهدف أوحد هو: تحرير ألمانيا من قوات الاحتلال». خدم مؤتمر باريس الصحفي في

(1) شستر فيلموت: الصراع على أوروبا، ص 754.

العشرين من نيسان/أبريل 1945 أغراضا دعائية أيضاً. يبدو أن الجنرال سترونج لم يؤيد هذه الرؤية، مثلما يلمح في مذكراته، لأنها حملت الكثير من صفات رومانسية الغرب المتوحش، ولم تأخذ في اعتبارها تعب الجيش الألماني، بما في ذلك وحدات الـ إس إس، من الحرب، الذي ما لبث أن ظهر خلال معارك شباط/فبراير في هنجاريا. والحق، أنه لم يكن هناك، باستثناء قبضة من كبار النازيين المتورطين والانتحاريين اليائسين، ترى في الدفاع الألبي فرصة أخيرة لإطالة حياتها والاحتفاظ بالسلطة لبعض الوقت، عسى أن تخرج سالمة منها.

مهما يكن من أمر، لم تنقل الاستخبارات الحليفة، وعلى رأسها استخبارات أميركا، الواقع على حقيقته، مع أنه هذه مهمتها الرئيسة. وتشير سائر الدلائل إلى أنها انساقت بالأحرى وراء الأحكام المسبقة. وزاد الطين بلة بالنسبة لها أنها لم تمتلك في هذه المرحلة النهائية من الحرب جاسوسا أو متعاونا في قيادة القوات الألمانية المسلحة أو في محيط هتلر، وإلا لكان الحلفاء عرفوا الحقائق بصورة أفضل. إلى هذا، لم تعلم القيادة الحليفة في الوقت المناسب بواقعة بقاء هتلر في برلين وعدم فراره إلى بيرشتسجادن، وإلا لكان تخليها عن برلين غير مفهوم على الإطلاق. هكذا كان هجوم 500 قاذفة من طراز ليبراتور قبل ظهر يوم 25 نيسان/أبريل على أوبرسالزبرج ومحيطها مجرد ضربة في الماء: صحيح أن محطة الجبل إصيبت إصابة مباشرة ودمرت، وأن قصر جورينج وبيت بورمان الريفي تحولا إلى ركام واحترقا تماما، وأن أماكن إيواء الـ إس.إس والبلاترهوف ونزل فاخنفيلد، الذي كتب هتلر فيه جزءا من كتاب كفاحي، قد احترقت، لكن هذا كله لم يكن له أي معنى غير الاستعراض.

نهاية حرب الفرص المهملة

سمح مارشال وأيزنهاور بخداعهما وخدعا نفسيهما بنفسيهما. بذلك، قيض لمضاربة تأملية ظهرت في سويسرا أن تصنع تاريخ العالم، وإبعاد قوة الولايات المتحدة العالمية عن برلين، التي كان يجب أن تبقى هدفها الرئيس، حسب جميع الاعتبارات السياسية، مع انه تعاظمت في النصف الأول من نيسان/أبريل حظوظ الأميركيين في الوصول قبل الروس إلى العاصمة الألمانية، وتنامت بمرور كل يوم من ايام تقدمهم العاصف، الذي قام به على الجبهة بين هانوفر وكوبورج سبع وعشرون فرقة في كامل قوتها القتالية، انخرطت في سباق حقيقي نحو الشرق، وأبلغت يوميا أنها لا تواجه أي مقاومة باستثناء بعض موانع الدبابات، إلى أن وصلت مساء الحادي عشر من نيسان/أبريل وحدة استطلاع قوية تابعة للجيش التاسع إلى مقربة من ماجدبورج على نهر الإلبة. كتب برادلي في مذكراته يقول[1]: «أرجح أنه كان بوسعنا آنذاك بلوغ برلين، لو كنا عازمين على تحمل الخسائر، التي سنتكبدها فيها. في ذلك التاريخ، لم يكن جوكوف قد عبر نهر الأودر بعد، وكانت برلين تقع في الوسط تقريبا بين قواتنا وقواته». بعد يوم من ذلك، في الثاني عشر من نيسان/أبريل، توفي روزفلت. ثم التقت القوات الأميركية والسوفياتية في الخامس والعشرين من الشهر قرب تورغاو على نهر الإلبة، لكن الفرقة الأميركية 83 كانت قد أنشأت قبل إثني عشر يوما من ذلك رأس جسر عميق شرقي النهر، ووضعت، عند الجسر الحربي، الذي أقامته وحدات الهندسة الأميركية في وقت قياسي، لوحة على شرف الرئيس الأميركي الجديد، كتب عليها «جسر ترومان، بوابة برلين، تحية صغيرة من فرقة المشاة الثالثة والثمانين».

(1) مرجع سابق، ص 517.

فيما بعد، جرت محادثة مأسوية بين برادلي وأيزنهاور، الذي سأله: «كم سيكلفنا احتلال برلين من خسائر؟»، فرد قائلاً: «أعتقد أنها ستبلغ قرابة مئة ألف قتيل وجريح». لم يكن هذا التقدير مبنيا على معلومات موثوقة، بل كان اعتباطيا. لكنه كمن وراء قرار أيزنهاور الأخير، وجعل فتح بوابة برلين انطلاقا رأس جسر باربي ضربا من العبث. أعلم أيزنهاور مساء الرابع عشر من نيسان/أبريل واشنطن بخططه، من مقره في ريمز، وهي[1]: 1: «التمسك بجبهة قوية في القطاع الأوسط على نهر الإلبة، وهذا معناه الوقوف عملياً عند النهر. 2: بدء عمليات في اتجاه لوبك والدنمارك. و3: القيام بهجوم قوي نحو الجنوب، للقاء القوات السوفياتية في وادي الدون، وتحطيم «حصن الألب». بما أن التقدم نحو برلين يتوقف على نتائج هذه العمليات الثلاث، فإنني لم أضعه في اعتباري»، هذا ما قاله أيزنهاور في ختام برقيته.

هكذا تركت برلين نهائيا للروس. وتبين أن عصاب حصن الألب الذي أصاب الأميركيين كان أقوى محددات سلوكهم عند نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد فشلت استخباراتهم فشلا ذريعا في مسألة برلين الحاسمة.

(1) رايان، ص 263.

الفصل الرابع

اضطراب وعي هتلر

عجزت استخبارات الولايات المتحدة الأميركية عن بلوغ الحقيقة في سياق مهم آخر هو وضع هتلر الصحي. وهذا برهان إضافي يؤكد أنه لم يوجد رجل ثقة حليف في مقر الفوهرر الرئيس. كانت واشنطن ورايمز تعتبران هتلر، حتى نيسان/أبريل 1945، «قائداً» مقررا شديد التصميم، مع أنه كان قد اختفى من الوجود منذ وقت طويل. لكن ضباط الاستخبارات الأميركيين كانوا يجهلون هذه الواقعة، مثلما غابت عنهم من قبل واقعة هجوم الأردين، الذي شوش فشله عقل الدكتاتور الألماني إلى درجة أنه رفض ببساطة رؤية الأخطار القاتلة، التي كانت تنقض عليه وعلى الرايش، رغم المعلومات الدقيقة، التي كانت تصله بصورة خاصة من شعبة «الجيوش الأجنبية شرق». ولم يدرك، بالمقابل، ماهية الفرص الأخيرة المتاحة لألمانيا. لقد تحولت إرادته الشيطانية إلى عناد، بينما كان يترك الأشياء تجري على هواها. وحتى محيطه المقرب، الذي خضع منذ وقت طويل لغواياته ورضخ له، لم يحل بينه وبين الوضع الذي آل إليه.

لم توجد مهزلة التضييع والاضطراب قرب نهاية الحرب في مقر الحلفاء الغربيين وحدهم، بل وجدت في مقر الفوهرر الألماني أيضاً، حيث كانت نتائجها أشد سوءا من مثيلتها هناك. ترى، أليست مهزلة فريدة من نوعها في التاريخ أن يعلم قائد محافظة التيرول هوفر بأسطورة «حصن الألب» من تقرير

سري أميركي صدر عن سويسرا خريف سنة 1944، التقطته الأجهزة الألمانية؟. لقد أدرك للتو الفرصة، فرصة الممكنات السياسية لا العسكرية، التي تقدمها، وعرف أن الرايش سيستسلم عاجلاً أم آجلاً، فمن المحتمل أن يصير هذا المعزل نوعا من الرهن، لا يستطيع أن يستخدم، ولا يجوز أن يستخدم، لإطالة الحرب، لكنه يمكن أن يحول دون استسلام المهزوم للمنتصر، يفعل به ما يريد. أكد فرانس هوفر هذه الفكرة مراراً وتكرارا، عندما التقينا به في الأسر. كان يقول: «تصوروا لو أن يودل جاء إلى رايمز وفي يده رهن «حصن الألب» الذي لم يتم احتلاله بعد. إنه ما كان ليحصل بالتأكيد على تنازلات سياسية، لكنه كان يحتمل أن يحسّن مصير جنود القوات المسلحة». لم يعرف أحد في أركان القوات المسلحة الألمانية حتى آذار/ مارس من سنة 1945 أن عصاب حصن الالب أصاب الأميركيين. ولم يفهم أحد شيئاً من مذكرة محافظ التيرول هوفر، الذي أشار إليه كفرصة أخيرة، وبقي ما اعتبر في حينه «تقدمة إلى الفوهرر» عند مدير الرايش بورمان، الذي كان يجب أن يقدمه إليه، إلا أنه لم يجرؤ على إيصاله، بعد أن انتهى الإعداد لهجوم الأردين وتم الشروع به. ومنعته كوابح من تقديمه اليه بعد فشل الهجوم، رغم أن هوفر كان يذكّره به أسبوعيا. كانت المذكرة تحمل بين سطورها الإقرار بالهزيمة، التي كان عقل هتلر المشوش يرفض تصديق وقوعها. وقد أهملت، لأن بورمان، المنافق والقليل الذكاء لم يفهم ربما الفرصة التي يتيحها «الحصن»، فكان أن جاءت الإشارة الحاسمة من جهة أخرى.

كان الملحق العسكري السابق في الولايات المتحدة الأميركية من سنة 1939 وحتى انفجار الحرب سنة 1941، الجنرال فرايهر فون بوتيشر، هو الذي حرك المسألة[1]. فقد تلقى بعد عودته إلى ألمانيا تكليفا من القيادة العليا

(1) راوخنشتاينر، ص 242.

للقوات المسلحة بكتابة تقارير دورية عن نوايا أميركا، تميزت دوماً عن غيرها بمضمونها الواقعي ومعطياتها الدقيقة، فكانت لهذا السبب محل دراسة مدققة وواسعة[1]. لم يحصل الجنرال على معلوماته من عملاء أو جواسيس تركهم في الولايات المتحدة، بل أخذها من صحافة أميركا والصحافة الغربية، التي عرف كيف يقومها بطريقة رجل الاستخبارات الكلاسيكية، التي أثبت أنهما مثيرة للاهتمام، معطاءة وعلى قدر عظيم من الأهمية.

قدم بوتيشر تقريراً جديداً في آذار/مارس من سنة 1945، ذكر أخبار الصحافة حول عصاب المعزل لدى الأميركيين. أثار التقرير اهتمام العماد يودل، رئيس أركان حرب القوات المسلحة، فأخبر هتلر به. عندئذ، لم يعد بورمان يستطيع الاحتفاظ لفترة أطول بمذكرة هوفر، وأعلم هتلر بها أيضاً. يبدو أن الحجج أقنعت «المعلم»، الذي اهتم فجأة بـ«حصن الألب»، ولكن مع التردد، الذي ميز الفترة الأخيرة من حياته، وأدى إلى بقاء الوضع على حاله حتى التاسع من نيسان/أبريل، عندما دعي هوفر إلى برلين، ليقدم تقريراً إلى هتلر شخصيا، بعد أكثر من نصف سنة من الانتظار. من جانبه، طار كالتنبرنر أيضاً إلى لقاء حواري في برلين.

نظمت محاورتان في ديوان الرايش وملجأ الفوهرر، شارك فيهما كايتل ويودل وهوفر وكالتنبرنر وسواهم من شخصيات الرايش النافذة. وكان من الضروري طبقا لطبيعة هتلر أن يتم التأكيد في هذه المناسبة على القدرات العسكرية، التي يتيحها «الحصن»، ويتم السكوت عن أبعاده السياسية. أخيراً، تم إقناع هتلر بفائدة «حصن الألب»[2]، وصدرت في الخامس عشر من نيسان/أبريل أوامر إعدادية أولى لبناء نظام دفاع دائري. وصدر في

(1) راوخنشتاينر: المرجع ذاته، وكذلك بيرسي إرنست شرام، ص 1801.

(2) راوخنشتاينر، ص 242.

العشرين منه، وهو يوم ميلاد هتلر السادس والخمسين والأخير، «قرار الفوهرر» باستكمال بناء دفاع «حصن الألب». هذه «الفكرة» التي ظهرت في سويسرا خلال أيلول/سبتمبر من سنة 1944، وكانت مجرد فكرة تأملية، كسبت بعد سبعة أشهر المعني الرئيس بها، فكان هذا بالتأكيد إحدى مهازل تاريخ العالم.

جاء «قرار الفوهرر» متأخراً جداً: فقد احتل الأميركيون نورنبرج في العشرين من نيسان/أبريل، وقاموا بتقدم مريح نحو الجنوب والجنوب الشرقي. صحيح أن الفترة حتى نهاية نيسان/أبريل كانت تكفي لإقامة بعض الموانع المضادة للدبابات شمال رويته في التيرول، وعلى الفيرنباس في الشارنيتسركلاوزه، وجبل تسيرلر ومنطقة كوفشتاين وقرب أونكن، لكنه لا معنى للحديث عن «حصن» متماسك، فلا التحصينات القليلة ولا المدافعين الذين فقدوا إرادة القتال، كان بوسعهما إيقاف طلائع الدبابات الأميركية فترة أطول، بما تمتلكه من قوة نارية وهجومية: تغلغلت طلائع الجيش السابع الأميركي، وخاصة منها الفرقة 103، في الأول من أيار/مايو قرب شارنيتس في التيرول، دون أن تواجه بمقاومة مؤثرة. وفي الرابع من الشهر ذاته مرت الدبابات الأولى التابعة للجيش الخامس عشر الأميركي عبر سالزبورج، وتقدمت في اليوم التالي نحو بيرشتسجادن، حيث لم تطلق غير رصاصات قليلة، أثناء احتلال «آخر معبد نازي». واتحدت ليلة الثالث إلى الرابع من أيار/مايو طلائع مجموعتي الجيشين الحليفين الخامس عشر والسادس قرب شتيرسنج، في قلب «حصن الألب»، الذي انكشف أمره كشبح، وتأكد أن المعلومات حول بنائه وقوته القتالية كانت خاطئة ومبالغا بها إلى أبعد حد.

حصيلة «حصن الألب»

من المؤكد اليوم أنه وجد في نهاية الحرب العالمية الثانية شبح قيض له

أن يصنع تاريخا عالميا، ويشارك في صياغة وأوروبا المستقبل وتطورها، ويشغل الأميركيين أكثر من الألمان، الذين منعهم جوبلز (وزير دعاية النازية ـ المعرّب) من الحديث عنه، حين عرف ما كتبته الصحافة الأجنبية عنه. كان الشبح فكرة مضاربة ظهرت في بلد محايد، يشبه فكرة المعزل القومي الذي يمثله، سرعان ما تحول إلى سبب أثار عصابا حقيقيا في الصحافة الغربية، ثم في مقرات القيادة العسكرية الأميركية، التي تعرضت لضغوط رأيها العام. تحولت الفكرة المضاربة والاحتمالية في نهاية آذار/مارس 1945 إلى عامل قرر استراتيجية الحلفاء الغربيين النهائية، وجعل الأميركيين يتوقفون على نهر الإلبة، وفي رأس جسر باربي، قبل أن يرسلوا قوتهم الرئيسة إلى الجنوب والجنوب الغربي، ليحكموا المقاومة المتوهمة للنازيين على حوافي الألب وفي قلبه، عوضاً من أن يتقدموا إلى برلين، التي كانت قريبة وفي متناول أيديهم. هنا، ارتكبت الاستخبارات الحليفة أكبر غلطة في الحرب العالمية الثانية، لأنها لم تول العوامل النفسية الاهتمام الضروري، وبالغت في تقدير هتلر، الذي كانت شخصيته قد انهارت في ذلك الوقت، وأفرطا في تجاهل تعب الجنود الألمان من الحرب، الذين كانوا لا يستطيعون ولا يريدون الاستمرار فيها، ما لم يقاتلوا من أجل حياتهم، مثلما فعلوا في مواجهة السوفيات. انفرد الانجليز، بغريزتهم السياسية السليمة بإدراك الأهمية السياسية لعاصمة ألمانيا بالنسبة لزمن ما بعد الحرب. إلا أنهم لم يتمكنوا من فرض نظرتهم في مواجهة البراعماتية العسكرية الصرف لحلفائهم، الذين امتلكوا القدرات المادية الحاسمة.

هذه حصيلة رؤية نقدية لعمل استخبارات الولايات المتحدة في أوروبا في نهاية الحرب العالمية الثانية، الذي يجب على المستويات العليا الأميركية التفكير في أهميته، واستخلاص العبر منه. لا شك في أن الاستخبارات الألمانية المتخصصة بالعدو أنجزت أعمالا عظيمة، لكنها لم تصل، مع ذلك،

إلى «القاعد فوق»، وكانت المؤسسة العسكرية التي وعت قرابتها الخاصة مع المجالين النفسي والسياسي، من دون أن تنجح في تحقيق اختراق في أي منهما. ثمة أمر غريب آخر من الضروري الإشارة إليه، هو أن من درس الصحافة الدولية وخاصة منها الأميركية في ألمانيا وقومها بعناية لم يكن «أستاذا في الجاسوسية» بل ملحقا عسكريا ضليعا، عرف النفسية الأميركية وقدم معلومات إلى هيئة أركان القوات المسلحة عن «عصاب المعزل» لدى الأميركيين، ورأى أنه كان الفرصة الأخيرة في آذار/ مارس من سنة 1945، ليس لأن الحرب كان يمكن إطالتها بواسطته، بل لأنه وضع شيئاً في يد الألمان بوسعهم المقايضة عليه، عند استسلامهم. لكن ورقة كهذه كانت تجعل من الحتمي اتخاذ مصفوفة تدابير كاملة، كالتخلي عن الدفاع الغبي عن خط الإلبة ضد الأميركيين، وتركيز جميع القوات، القادرة على القتال، في منطقة الألب. عندئذ، كانت ألمانيا ستمتلك شيئاً تستطيع المقايضة عليه.

بيد أننا نصطدم هنا بهتلر، الذي كان عقله المشوش عاجزا عن اتخاذ قرارات سريعة ومتكاملة، وأرجأ الحسم إلى منتصف نيسان/ أبريل، فتأخر الوقت وضاعت آخر الفرص[98].

من المعلوم أن العماد يودل قال بعد توقيع صك الاستسلام في رايمز الساعة الثانية والدقيقة الحادية والأربعين من السابع من أيار/ مايو سنة 1945[1]: «أيها السيد الجنرال، بهذا التوقيع يكون الشعب الألماني والقوات المسلحة الألمانية قد وضعا ازدهارهما وهلاكهما في يد المنتصر. وقد عملا وتحملا في هذه الحرب، التي استمرت لأكثر من خمس سنوات، أكثر مما عمل وتحمل أي شعب آخر في هذا العالم. وليس لدي ما أعبر عنه في هذه الساعة غير الأمل بأن يعاملهما المنتصر بمروءة وكرم».

(1) استشهاد مأخوذ من تولاند، مرجع سابق، ص 551.

الفصل الخامس

حلقات بحث التاريخ المعاصر

ماذا جرى للاستخبارات السرية ولتاريخها؟. لم تنقطع تماماً معلومات المؤلف بالاستسلام غير المشروط في أيار/مايو من سنة 1945، بل أضيفت إليها بالأحرى معلومات جديدة. صحيح أن المخبر الحربي كان يستطيع اكتساب الكثير من الفهم وجمع الكثير من الخبرة لدى الدوائر القيادية الأعلى، التي خدم فيها، إلا أنه كان لا يزال هناك ثغرات في فهمه وخبرته، وافتقر إلى نظرة عامة شاملة، وكان عليه أن يقوم بأبحاث لاحقة تتسم بالمواظبة، بعد فاصل زمني كبير بينه وبين ما عاشه من أحداث. أما الخطوة الأولى والأكثر أهمية في الوقت نفسه على هذا الطريق، فكانت خطوة عبر معسكرات الاعتقال. وكانت قد جمعتني «جاذبية المرجعية» بشخصيات تستطيع تقديم معلومات مهمة، من أول مصدر، تتعلق ليس فقط بهتلر وسلوكه، بل كذلك بعلاقته بالحقيقة وجهاز الاستخبارات، وبالظروف المرافقة لمرضه وبنتائجها. من جانبي، كنت قادرا أنا نفسي على إعطاء بعض المعلومات ولعب دور توضيحي، لأن شخصيات قيادية كثيرة في الرايش الثالث لم تر «قائدها» ورئيس وزرائها منذ سنة 1941، ناهيك عن التحدث معه، وهو الذي كان منطويا على نفسه ومنعزلا في مقراته.

بدأت حلقات بحث التاريخ المعاصر بلقاءات لا تنسى، عقدت في

شهري أيار/ مايو وحزيران/ يونيو من سنة 1945. هكذا التقيت في وادي جاشتاينر طبيب أسنان هتلر البروفسور هوجو بلاشكه، الذي تبين لنا في الأسر أنه طبيب مفيد لأسناننا المريضة، وخلص بعضنا من آلامه بأدوات صنعها بنفسه. وقد روى أنه كانت لـ«المعلم» أفكاره حول طب الأسنان، وأنه طور نظرية حول العناية بالأسنان من خلال التغذية. وقال إن ذلك كان واحدة من علامات جنونة. جرت المقابلة الثانية، التي تمت صيف سنة 1945، واستمرت فترة قصيرة، مع رئيس الدولة السلوفاكية السابق جوزيف تيزو، رجل الدين الكاثوليكي، الذي حكى بدوره كثيراً عن هتلر، في خليط غريب يضم الإعجاب إلى الخوف الشديد. التقيت تيزو وغيره من الشخصيات العالمية المهمة في علّية ثكنة فرايزنجر للمدفعية، وهي معسكر خاص نقلت إليه بعد المرور بمعسكر الجوع إيبلينج ومعسكر الأركان في جارميش .وكان تيزو قد اعتقد ذات مرة، أن هتلر النمسوي سيبني وسط أوروبا، طبقا لرؤية فريدرش ناومان، أي كاتحاد فيدرالي يضم الشعوب، سيكون لأعضائه الحرية في تقرير نمط تطورهم السياسي الداخلي. وزعم أنه حقق شيئاً من هذا بالنسبة إلى سلوفاكيا. ولأنه عرف أن الأميركيين سيسلمونه، فقد قرر الاستسلام لقدره، وإن كان أفول الغرب المسيحي، الذي يراه ماثلا أمام عينيه، هو الذي كان يقلقه. لقد أحجم هذا الكاهن الشريف دوماً عن التفوه بما يسيء للألمان، بعكس حلفاء سابقين كانوا لا يخفون كرههم لنا.

لم أبق فترة طويلة في فرايزينج، لكنني أدين لإقامتي هناك بمعرفة أورون هاله، استاذ التاريخ الأحدث في جامعة الدولة بفرجينيا، الأميركي من أصل اسكتلندي، النحيل، طيب السريرة وواسع المعرفة، الذي قبل بطريقة ودية المراسل الحربي اليائس، لأنه كان قد قرأ تقاريره جميعها. لقد كان أمرا منعشاً أن أجري أحاديث صريحة معه، لمعرفة أسباب الهزيمة والكارثة الألمانية. وكان قد نشر مطلع سنة 1948 دراسة عن أدولف هتلر كقائد

عسكري في مجلة فرجينيا كلوارترلي ريفيو، ظهرت ترجمة ألمانية لها[1]، تنتسب إلى السياق الكبير لتحليلنا النقدي، وتنطلق من كلاوزيفيتز - وهو أمر نادر الحدوث بالنسبة إلى أميركي -، لتصل في مقطعيها الأولين إلى استخلاصات نهائية. يكتب هاله[2]:

«أكد كلاوزيفيتز، أذكى استراتيجي وفيلسوف حربي حديث، أن الاخبار، التي يمكن للمرء الحصول عليها في الحرب، يتناقض قسم كبير منها بعضه مع بعض، وأن جزءا كبيراً منها يكون خاطئا، وجزؤها الأكبر مشكوكا فيه إلى حد ما». هذه الأنواع الثلاثة جميعها يمكن ربطها بمضاربات ومزاعم دارت في أوساط الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية حول ما إذا كانت قوات ألمانيا المسلحة توجه وفق الأسس الاستراتيجية للأركان العامة الألمانية أو من خلال «حدس هتلر المعصوم». بل إنه تم التأكيد في بعض الدوائر على أن الأفكار الاستراتيجية، التي شكلت أساس الحملات الألمانية، هي ما أوحى به إلى هتلر والأركان العامة الألمانية خبير الاستراتيجيات السياسية هاوسهوفر. ومع أن الدوائر العسكرية المتخصصة لم تر خطورة في هذه الدراسة، فإن البروفسور ومعهد السياسات الاستراتيجية، الذي عمل فيه، كانا على قائمة «الأهداف»، التي فحصها جهاز الاستخبارات وفتشها بدقة بعد الحرب.

أدى استسلام ألمانيا إلى وقوع الشخصيات العسكرية الأعلى ومعظم الوثائق العسكرية الرسمية بين أيدي الأميركيين والإنجليز. وقد أكد المصدران كلاهما أن هتلر هو الذي اتخذ القرارات الأكثر أهمية خلال طور الحرب

(1) أورون هاله: هتلر كقائد عسكري. في قسم الخارج والموضوعات، التابع لخدمة تقارير الصحف في جنوب غرب ألمانيا. شتوتجارت، 1948.

(2) هاله، المرجع ذاته.

الأول، وأنه خلال طورها الثاني بين 1942 وحتى 1945 لم يكتف باتخاذ قراراتها الاستراتيجية وحدها، بل مارس كذلك الإمرة الشخصية المباشرة على الجيوش المقاتلة في مختلف قطاعات الحرب: وأن سائر النجاحات الاستراتيجية لسنوات الحرب الأولى، والجهود والأخطاء الاستراتيجية للفترة التالية لها، ترجع إليه وحده». أخيرا، يصل هاله في نهاية دراسته إلى النتيجة الآتية: «في ظل وقت عمل يبلغ يوميا (قرابة) 24 ساعة، والعيش على طعام نباتي، والتهييج الذي تسببه الحقن اليومية التي كان يزرقه بها طبيبه الخاص دكتور مورل، تحول الرجل تدريجيا إلى حطام روحي وجسدي، فقد في النهاية القدرة على اتخاذ القرارات. وقد لاحظ شبير، وزير الإنتاج الحربي، الذي كان على صلة وثيقة معه حتى نهاية الحرب، أنه أظهر «عدم ثقة في النفس وحيرة معذبة عند اتخاذ قرارات» حول القضايا، التي تصرف حيالها بالأمس بثقة ذاتية لا تراعي أي اعتبار». هذا ما قاله هاله، الذي كان قد استمع إلى رأي جميع الشخصيات الألمانية النافذة حول هذا الموضوع. أما أنا، فأرى أن انهيار هتلر النهائي كان من نتائج فشل هجوم الأردين ؛ فحل في الأشهر الأخيرة محل الجرأة على اتخاذ القرار تردد عززه عناد لا يقبل الإصلاح.

أدين للبرفيسور هاله بإرسالي إلى معسكر خاص هو «بيت ألاسكا» قرب أوبر روسل في تاونوس. وكنت قد وضعت قبل إرسالي إليه في حبس انفرادي شديد وتعرضت لتحقيق دقيق استمر 28 يوماً خرجت منه من دون أن توجه إلي تهمة ارتكاب جرائم حرب. ثم نقلت إلى «بيت ألاسكا». لم تكن الحالة سيئة في هذه الـ«ألاسكا»، التي سميت كذلك لأن من كانوا يوضعون فيها كانوا كمن يوضع في ثلاجة، ولأنه كان لدى القيادة الأميركية العليا في أوروبا اهتمام خاص بهم، لأسباب مختلفة. كان «نصاب» البيت دائم التغير، عدا «فصيلة» كبيرة بقيت فيه، فرضت أسباب تتعلق بحجم المكان أن لا

يتجاوز عددها خمسين معتقلا، لجميعهم على وجه التقريب أسماء معروفة، وإن كان بعضهم يخفيها في ثياب مهترئة أو بذات عسكرية جعلتهم يبدون في نظر من يراهم كمتشردين. كان البيت مصحا لمعلمات فرانكفورت، كثير الزوايا فسيح الغرف، بقاعة طعام ملحقة به تستخدم أيضاً كقاعة محاضرات. وكان أمامه حديقة، ووراءه بستان فاكهة وأرض مغطاة بالعشب، كنا نستطيع التنزه فيها قدر ما نريد. وكان هناك مكتبة جيدة في متناول أيدينا.

تكون «النصاب» من فئات كثيرة، شكلت مصدر معلومات مهمة لا ينضب، خص «الرايش الثالث» بها «رفاقه من الشعب»، بمن في ذلك وزراؤه ومارشالاته. كانت قيادة الجيش ممثلة في البيت ـ بين آخرين ـ من خلال المارشال فرايهر فون فايكس والعماد ليندمان، والقيادة العليا للجيش ممثلة بالجنرال هويزنجر والعقيد بونين، وقد سبق لهم جميعهم أن تعرضوا لهذا القدر أو ذاك من نقمة الرايش الثالث. كما تقاسمت لفترة طويلة الغرفة ذاتها مع العميد جيرد فون شفيرين، آخر قائد للفرقة 101 المدرعة، التي قاتلت في الغرب[99]. وتمثلت «آخر» قيادة للرايش في الأمير فون شفيرين ـ كروسيج، وزير خارجية الأميرال دونيتز. إلى هذا، كان هناك رئيس المترجمين باول شميدت، الذي جعل المؤتمرات الدولية، التي عقدت زمن هتلر، تضج بالحياة بفضل تقاريره. وكان هناك أيضاً مرافق هتلر السابق، المقدم خارج الخدمة فيدمان، وأخيراً القنصل العام في سان فرانسيسكو، الذي كان مصدراً أول لمعلومات ثرية.

إضافة إلى هؤلاء، كان هناك الأطباء الذين عالجوا هتلر، أو اهتموا بصورة مباشرة أو غير مباشرة بصحته: طبيب الأذن والأنف والحنجرة دكتور جيزينج، وطبيب رئاسة أركان جبهة الغرب دكتور هانس ـ كارل فون هاسلباخ، اللذان خضنا نقاشات كثيرة معهما، والبرفيسور بلاشكه، طبيب

أسناننا الحالي العالي التأهيل، الذي انصب عمله في السابق على فك هتلر. أما هانه رايتش، السيدة الوحيدة في دائرتنا، أو «الدجاجة في السلة»، كما كان يلقبها بمرح المارشال فون فايكس، فقد حكت لي قصصا مذهلة عن أيام مستشارية الرايش الأخيرة، السابقة لانتحار هتلر: وكانت قد اصطحبت آخر قائد لسلاح الجو الألماني بعد عزل جورينج يوم 13 نيسان/ أبريل 1945، المارشال ريتر فون شرايم، بالطائرة إلى برلين، وأخرجته منها في ظروف مليئة بالمخاطرات والمغامرات أصيب خلالها بجراح، قبل أن يضع حدا لحياته بعد الاستسلام.

بعد الإفراج عني في منتصف 1946، مرت سنوات كثيرة، قبل أن تكتمل صورة هتلر لدي وتغدو شفافة، بسبب استحالة تطبيق معايير تقليدية عليه، ولأن مساره وإنجازاته وشناعاته تتخطى جميع المعايير، الصالحة حتى الآن. لذلك، من غير الممكن بعد إصدار حكم نهائي عليه، أو رسم صورة نهائية له في هذا الكتاب، إلا من خلال أحداث جزئية، تشبه قطع الموزاييك الصغيرة، وإن كان ثمة أمر واحد مؤكد، هو أن عبقريته «السوداء»، التي لا شك فيها، اندثرت بسبب افتقاره إلى معايير، وعلاقته بفن الممكن، وهو نتاج علاقة موروثة مع الحقيقة، التي لم يحملها هو يوما على محمل الجد، ما تؤكد سيرة حياته كلها. ترى، ألا يفسر هذا إصراره الدائم على رفض معلومات جهاز الاستخبارات الألماني المتخصص بالعدو، التي كانت نتاج عمل علمي ومطابقة للحقيقة !. ورفضه الاعتراف بغير العالم، الذي صنعه خياله ووافق تصوراته، وفر إليه فرارا نهائيا في أواخر أيامه !. أما رجل الحرب هتلر، فلا مفر من قياسه بمسطرة تلك المتطلبات، التي تضعها فلسفة الحرب الكلاسيكية، بدلاً من قياسه بمواهبه العسكرية، الكبيرة بهذا القدر او ذاك. وعلى كل حال، من الضروري أن نقول هنا بوضوح: إن قدرات قائد قوات ألمانيا المسلحة الأعلى لم تكن في مستوى يمكنه من مواجهة مهام

الحرب على جبهتين، التي بدأت سنة 1941، وسرعان ما تخطت قدراته الفكرية والعملية. وقد حددت حوارات بيت ألاسكا الكثيرة سبب هذه المعلومات، التي، بقدر ما كان المرء يتعمق فيها، بقدر ما كانت بعض الأمور تبدو له غير مؤكدة، باستثناء أمر واحد هو أن رجلا واحدا تملكته غريزة مستعرة إلى العدوان أطلق الحرب العالمية الثانية من عقالها، وأنه كانت لديه أهداف محددة يريد تحقيقها، مثلما كان لديه تصور استراتيجي حولها. لكن هذا الرجل هو نفسه من نسف ما كان قابلا للتحقيق، فدمر نفسه وقوات ألمانيا المسلحة الممتازة، أداة نهمه الذي لا نهاية له إلى السلطة، ودمر الرايش الألماني.

احتجزت من خريف سنة 1945 إلى حزيران/يونيو من سنة 1946 في «بيت ألاسكا». تلك كانت «فترة نقاهة» بالنسبة إلي كمراسل حربي، حظي خلالها بمقابلات غنية وكثيرة، منها على سبيل المثال تلك التي أجراها مع وزير الدولة الدكتور أوتو مايسنر، رئيس ديوان الرئاسة في حكومات إيبرت، ثم هندنبورج وهتلر، وكذلك مع المستشار الصناعي روشلنج، الذي أعلمه شتاء سنة 1945 بوجود خطط لبناء قطار اسطواني إنزلاقي، بدا له آنذاك وهمياً تماماً، وأخيراً مع فريتس توسن، الذي كان يحب التنزه معه، ـ ولم يكن يرتدي حتى في الشتاء غير قبعة من قش وحذاء أصفر مدبب الرأس ـ ويحكي بسخرية عن الرايش الثالث، بينما كانت عيناه البنيتان الجاحظتان تلتمعان أحياناً بخبث ذكي. كان جيزلهر فيرز الصحافي، وهانس يوهست المسرحي، الذي كان يقرأ لنا من مسرحيته توماس بين، ضيفين عابرين في «بيت ألاسكا». أما بالنسبة إلى قريبي في الاسم المؤرخ بيرسي إرنست شرام وإليّ، وقد كنا على اتصال نشط خلال خدمتنا المشتركة في أركان القوات المسلحة، فإن هذا المعسكر الخاص كان ضربة حظ هائلة. أخيرا، كان هناك لقاء ودي مع مؤرخي البحرية الحربية الثلاثة، الأميرالات جلاديش،

وآسمان وشبندلر، ولقاء متجدد مع قائد شعبتي السابق في القيادة العليا للقوات المسلحة العقيد الدكتور كورت هيسه وزوجته السيدة في، التي كانت تعتني آنذاك بزوجها، الأعمى تقريباً.

خرجت من الأسر في تموز/يوليو سنة 1946. كنت الآن حراً، ولكن مثقلا بدين ثقيل هو تجاوز ماضي الحرب، التي جلست أمام منصتها وكأنني في مقصورة، على حد تعبير صديق لي. ثم وظفت عمرا كاملا على وجه التقريب في بحث وتفسير وإضاءة هذا التاريخ المعاصر. وأمعنت الفكر في ما عرفته أول الأمر في الأركانات العليا بين 1939 و 1945، ثم في بيت ألاسكا، قبل أن أجعل منه أساس هذا الكتاب. بيد أنني أتذكر بامتنان خاص رجلاً أفهمني الطبيعة الروسية، هو جنرال الفرسان إرنست كوسترينج، الذي كثيراً ما التقيته وحاورته في السنوات اللاحقة، بما أنه سكن بعد الحرب في شيمجاو. كان سترونج يرى كارثة 1945 على النحو الآتي: كان هتلر وستالين متشابهين، وكانا عنيفين ومطلقين ساما شعبيهما مر العذاب. لكنهما مثّلا كذلك تحديا بالنسبة إلى شعبيهما، المدعوين لتحرير نفسيهما من طغيانهما ـ ولتبادل المساعدة في كفاحهما -. لكن الألمان أضاعوا هذه الفرصة tsil l'l hgHk Hk التاريخية سنة 1941 في روسيا، فاستمرت الستالينية. وستمر مئة سنة قبل أن نعرف النتائج البعيدة الغور، التي نجمت عن ذلك ليس فقط بالنسبة إلى ألمانيا وروسيا، بل كذلك بالنسبة إلى الغرب، والحضارة، وتاريخ العالم، والمجتمع البشري.

9

جهاز الاستخبارات في الشرق

طريقة عمل شعبة الجيوش الأجنبية شرق
وثيقة (مقطع): الاستخبارات في الشرق

obeikandl.com

obeikandl.com

طريقة عمل شعبة الجيوش الأجنبية شرق

في تقرير وضعه اللواء السابق راينهاردت جيهلن وضباط أركان آخرون بتكليف من الجيش الأميركي، اعتبر العمل الاستخباري في الشرق خدمة قامت بها شعبة الأركان الثالثة هناك. أقدم في ما يأتي مقاطع من قسم من هذه الدراسة الشاملة (266 صفحة)، ينصب على طريقة عمل شعبة الجيوش الأجنبية شرق (مناهج تقويم الاستخبارات الألمانية في الشرق). مع بدء حملة روسيا في 22 حزيران/ يونيو 1941، تولت مجموعات الجيش الألمانية والوحدات التابعة لها من جيوش وفيالق وفرق جمع المعلومات عن العدو وتقويم أوضاعه. وأسندت مسؤولية هذا العمل إلى ضباط الشعبة الثالثة الأركان (ضباط شعبة الأركان الثالثة للمهام الخاصة)، الذين كانوا في الوقت نفسه ضباط مكافحة، مسؤولين عن معالجة وتوجيه مواقع الحصول على المعلومات، التابعة لشعبة المكافحة بقيادة الأدميرال كاناريس. وكان لكل مجموعة جيش قيادة استطلاع جبهة أولى وثانية وثالثة.

أولى = جمع معلومات عسكرية.

ثانية = مسؤولة عن التخريب والأنشطة الهدامة، وتندرج تحتها الاتصالات مع الأقليات الإتنية، كالاتصالات مع أوكرانيا على سبيل المثال، التي كانت مصدر معلومات استخبارية قيمة عن العدو.

ثالثة = التجسس المضاد ومكافحة الجاسوسية، وتلعب هنا دورا مهما

مناورات تضليل العدو بواسطة عملائه، الذين تم كشفهم.

إلى جانب قيادات استطلاع الجبهة التابعة لمجموعة الجيش، كانت الجيوش تردف بمجموعات استطلاع جبهة. وكان يتم بطريقة مشابهة تنظيم استخدام شعب أفواج وكتائب الاستخبارات والاستطلاع اللاسلكي. كما كان تنظيم الاستطلاع الجوي، الفائق الأهمية، يتفق مع هذه الأشكال التنظيمية، مع أن الأمر لم يكن يخلو هنا من احتكاكات، نجمت عن اعتماد الجيش على التعاون مع سلاح الجو، الذي قد تحول بقيادة مارشال الرايش هيرمان جورينج إلى قسم مستقل من القوات المسلحة. في العادة، كان ضابط شعبة الأركان الثالثة لدى مجموعة الجيش عقيدا في الأركان، وكان لدى الجيش رائدا في الأركان، بينما استخدمت أعداد متزايدة من ضباط الاحتياط لدى الفرق، بعد مرورهم بفترة تدريب قصيرة لدى شعبة الجيوش الأجنبية شرق في بوزن، يعرفون خلالها بعض الأشياء حول ما يجب عليهم القيام به.

كان رصد العدو على الجبهة، أي لدى الفرق، قليل التعقيد نسبيا. كان الجيش السوفياتي يعمل بطريقة منهجية جدا، فسهل هذا معرفة مقاصده بالرصد: فإن اعتمر جنوده خوذاتهم، وجب توقع هجوم وشيك يقومون به، وإذا اعتمروا قبعات ميدانية، كان معنى هذا أنهم لن يهاجموا، وإذا وضعوا كمامات الغاز، كانوا في حالة دفاع، وإذا حملوا عتاد الهجوم دون كمامات الغاز، كان ثمة هجوم قريب، فإن رصدوا في حالة توتر وهم يركضون عبر المنطقة التي تتعرض لقصف الألمان، كان معنى هذا أنه وصلتهم تعزيزات جديدة، وأنهم على وشك القيام بهجوم[100].

لم يتمتع ضابط شعبة الأركان الثالثة الألماني بالمكانة التي كانت تخصه بها القوات المسلحة في البلدان الأخرى. يظهر هذا من التسمية: فهو لدى القوات المسلحة الأنجلوساكسونية وفي فرنسا ضابط شعبة الأركان الثانية،

الذي يعالج وضع العدو في أركان الجيش. وهو أعلى في الهرمية العسكرية من ضابط شعبة الأركان الثالثة، ضابط شعبة العمليات. بينما هو لا يأتي في قوات ألمانيا المسلحة بعد رئيس شعبة العمليات ورئيس المقر. تؤكد مقارنة الرتب بدورها الأهمية الأكبر، التي يحتلها تقويم العدو لدى قوات الدول الأخرى المسلحة، فقد كان الضابط الثاني في مجموعة الجيش الأنجلوساكسوني جنرالا، ولدى الجيوش عقيدا، بينما كان جيهلن، رئيس شعبة أركان الجيوش الأجنبية شرق عقيدا، ولم يرفع إلى رتبة عميد إلا في 1/ 12/ 1944. في حين كان خصمه، «راينهارد جيهلن» الجيش الأحمر، ليونيد أونيانوف لواء[101].

تؤكد المقارنة العددية أيضاً الأهمية الأكبر، التي كانت الجيوش الأخرى تخص بها وضع العدو: فقد كان ملاك أركان ضباط الاستخبارات في مجموعة جيش ألمانية يقتصر عادة على 13 ضابطا و18 مساعد ضابط وجندي. أما لدى مجموعة جيش أميركية فكان يتكون من 53 ضابطا ومساعد ضابط وجندي، أي من ضعف عدد الألمان تقريبا.

كانت أركان ضباط الاستخبارات / المكافحة تتكون لدى مجموعة الجيش من:

مجموعة أولى: معالجة وضع العدو.

مجموعة ثانية: استخدام وحدات مزيفة من أجل المكافحة.

مجموعة ثالثة: مراقبة الرسائل.

مجموعة رابعة: شرطة ميدانية سرية.

مجموعة خامسة: الدعاية.

وكانت أركان الجيوش والفرق الاستخبارية / المكافحة منظمة بطريقة مماثلة. تؤكد الموافقة على لائحة الخدمة في الجيش (= سرية) 92: «دليل

الخدمة في جهاز الأركان العامة خلال الحرب» القسم الأول والثاني، في الاول من آب/ أغسطس 1939، وعلى لائحة الخدمة رقم 89 سنة 1941 «جهاز الاستخبارات المتخصص بالعدو»، بطريقة صريحة أن على ضابط شعبة الأركان الثالثة معالجة أوضاع العدو، مع بقاء تحديد مسؤولية الشعبة من اختصاص الآمر أو القائد أو / ورئيس الأركان، مع خضوع ضابط الشعبة لضابط الأركان الأول، المكلف بالقيادة. هذا يعني أن كل آمر وقائد ورئيس أركان وضابط أول يتمتع بصلاحية رفض مشروع تقرير ضابط الاستخبارات عن وضع العدو، ويستطيع إعطاءه الأمر بوضع صياغة أخرى له. وإذن، فإن قائد القوات المسلحة والجيش الأعلى كان يتصرف بطريقة تتفق تمام الاتفاق مع بنود لائحتي الخدمة، حين كان يرفض التقويم المقدم إليه عن العدو.

بدوره، يعتبر جيهلن في دراسته أنه كان أمرا طبيعيا تماماً «أن لا يلزم رئيس الأركان العامة نفسه بتقويم وضع العدو».

نلاحظ، عندما ننظر إلى الماضي، أن هذا الإجراء أعفى ضابط شعبة الأركان الثالثة، الذي يعالج وضع العدو، من المسؤولية، وحتم أن يصير تقويم وضعه أداة كثيراً ما استخدمها الآمرون والقادة لطلب قدرات بشرية، ودبابات، ووقود، وذخائر إضافية. يسمح هذا لنا بفهم الوضع الصعب، الذي كانت شعبة الجيوش الأجنبية شرق تواجهه كل يوم، من أجل صياغة تحليل موضوعي ومطابق بعض الشيء لوضع العدو الحقيقي[102].

واجهت القيادة السوفياتية بدورها مصاعب تتعلق بهذه المشكلة. يصف جنرال الجيش سيرجي شتيمنكو، رئيس إدارة العمليات في الأركان العامة للجيش الأحمر منذ سنة 1943، خطأ جنرال الجيش فاتوتين، قائد الجبهة الجنوبية الغربية الأعلى (= مجموعة جيش)، الذي «حشر جميع المعلومات في روايته الخاصة»[103].

إلى هذا، كان قادة مجموعات الجيوش الألمانية يقاومون، عندما يشعرون بالغبن تجاه تقويمات شعبة الجيوش الأجنبية شرق، أو كانت هذه مغايرة لآرائهم. وقد كتب المارشال فون بوك، القائد الأعلى لمجموعة جيش الجنوب، يوم 4/ 3/ 1942 في يومياته: تقول شعبة الجيوش الأجنبية شرق في تقريرعن الوضع، كتبته بتاريخ 2/ 3، أن الهجمات جنوب إسيوم لا تشكل هجوما كبيراً بقيادة موحدة، بل هو مجرد أعمال متفرقة. تهاجم جنوب إسيوم عشرون فرقة مشاة، وخمس فرق حرس وعشر فرق فرسان على جبهة لا يتجاوز عرضها 120 كيلومترا، تمحور نشاطهم فيها على نقاط ثقل معينة؛ فلا بد من إبلاغ قيادة الجيش أن تصور شعبة الجيوش الأجنبية شرق «يتناقض أشد التناقض مع تقويمي». وأوضح رئيس الأركان العامة هالدر للمارشال خلال محادثة هاتفية مع فون بوك أن تقرير الشعبة، الذي شكا منه، كان «تعيساً» بعض الشيء»[104].

ليس معروفا بعد إن كان هذا «العطل» من الأسباب، التي أدت إلى استبدال العقيد كينزل، رئيس الشعبة، يوم 20 آذار/ مارس سنة 1942، بالمقدم جيهلن. يزعم المطلعون على حقيقة الأمور أن التقويمات غير المتفائلة حول أوضاع العدو لم تكن سبب تغيير رئيس الشعبة، الذي استبدل لأنه كان يغادر مكتبه معظم الأحيان عند نهاية الدوام الرسمي، ليذهب إلى صديقته الشقراء وهو ينفث دخان غليونه من فمه بسعادة، مارا خلال ذلك تحت شباك رئيس الأركان، الذي يعمل إلى آخر الليل، وكان يجيب عن اسئلة هالدر بأقوال مثل «نحن لا نعرف هذا. . . فمن الأفضل أن نسأل ستالين ذاته». وهي أجوبة كانت تستفز هالدر، الذي لم يكن معروفا بميله إلى الدعابة[105].

نصح رئيس شعبة العمليات اللواء أدولف هويزنجر رئيس الأركان العامة برئيس مجموعة الشرق الخاصة به راينهارد جيهلن، الذي كان قد كتب عنه في رسالة إلى زوجته: «والسيد جيهلن مجتهد جدا»[106].

تولى جيهلن الشعبة يوم 1 نيسان/أبريل 1942، وكان بين معاونيه آنذاك الرائد في الاستخبارات جيرهارد فيسل، الذي صار خلال الحرب مقدما ورئيس أركانه ونائبه، وقاد الشعبة في صيف سنة 1944 الحرج، لأن جيهلن غاب أسابيع كثيرة بسبب المرض، بينما أباد هجوم الجيش الأحمر مجموعة جيش الوسط، وحدثت محاولة العشرين من تموز/يوليو (محاولة اغتيال هتلر ـ المعرب)، التي نجت الشعبة من ذيولها بسلام، ملاحقات وتحقيقات قامت بها شرطة الدولة السرية (الغستابو)، مع أن والد فيسل، وهو كاهن بروتستانتي، كان في هذه الأثناء نزيل معسكر الاعتقال بوخنفالد، قبل أن يخرج منه بمعونة مندوب الجيش لدى الفوهرر، الرائد إنجل، الذي روى أن هتلر قال: من غير الجائز أبدا أن يسجن ألماني اسمه فيسل في معسكر اعتقال[107].

نقل المقدم فيسل كضابط في شعبة الأركان الثالثة إلى مجموعة جيش فايكسل، عندما تم تكوينها في كانون الثاني/يناير من سنة 1945. لكنه عاد في نيسان/أبريل سنة 1945 إلى شعبة الجيوش الأجنبية شرق في تسوسن، وصار بعد تسريح جيهلن في 10 نيسان/أبريل 1945 رئيسها المكلف بقيادتها. وقد كتب الكثير، بقلم جيهلن وآخرين، عن عمله كقائد للشعبة، فلا داعي هنا لمزيد من الكتابة عنه[108].

استسلم جيهلن ومعاونوه في شعبة الجيوش الاجنبية شرق يوم 21 أيار/مايو 1945 لقوات أميركا المسلحة، بعد أن جاؤوا، كل بمفرده، من أفران ألم الثلاثة العالية. لم يعرف الأميركيون أول الأمر ماذا يفعلون بجيهلن[109]. صحيح أن دليل ضباط الأركان العامة الألمان، الذي أصدره مكتب الاستخبارات المضادة التابع للقيادة العليا الحليفة في آذار/مارس 1945 في لندن، وكان بحوزة جميع الوحدات الحليفة، ذكر اسم جيهلن، لكنه ذكره

كعقيد، وخلا من أي معلومة حول موقعه الأخير، واكتفى بالقول إنه كان سنة 1939 ضابط أركان أول في الفرقة 213 مشاة. هكذا مر بعض الوقت قبل أن يتم إحضاره إلى معسكر التحقيق التابع للجيش السابع في أوجسبرج - بيرنكيلر. وقد وجه جيهلن، في الرابع من حزيران/يونيو سنة 1945، سؤالا خطيا إلى المارشال فون بوك، أقدم ضابط ألماني في المعسكر إن كان يستطيع الإدلاء باعترافات عن الجيش الروسي، فجاءه الجواب بالموافقة[110].

هكذا نشأت في معسكر التحقيق المدونات الأولى، التي وضعها جيهلن لمصلحة الجيش الأميركي، وهي:

15 حزيران/يونيو 1945: «أهداف روسيا السياسية العسكرية في أوروبا». «لمحة موجزة عن تدابير الروس لتمويه وحجب حشود وتحركات قواتهم». 21 حزيران/يونيو 1945: «ملاحظات حول الجيش الأحمر - القيادة والتكتيكات». (بالإنجليزية).

24 حزيران/يونيو 1945: «ملاحظات حول الجيش الأحمر - الاستخبارات والأمن «(بالإنجليزية).

26 حزيران/يونيو: «تنظيم وحدات الجيش الأحمر» (بالإنجليزية).

1 تموز/يوليو 1945: «علامات على استعدادات الروس لشن هجوم كبير» (بالإنجليزية).

عندئذ، أدرك ضباط الاستخبارات الأميركيون أي خبير وقع في أيديهم، ونقلوا جيهلن إلى فيسبادن، حيث وضعوه في مركز تحقيق القوات الأميركية على المسرح الأوروبي، وكتب تقريراً شاملاً هو «جهاز الاستخبارات شرق»، وضع له عنوانا بالإنجليزية هو: «جهاز الاستخبارات الألماني في حملة روسيا»[111].

وضع جيلهن الدراسة ذات الصفحات الـ 266 بمعونة مساعديه في شعبة الجيوش الأجنبية شرق كالمقدمين فيسل وهانس هاينريشس. وكان الأميركيون قد أحضروا هؤلاء إلى فيسبادن بناء على رغبة جيهلن، وكانوا قبل ذلك موزعين على معسكرات تحقيق وأسرى حرب مختلفة.

وقد كتب الأقسام المتعلقة بطريقة عمل ضباط استخبارات مجموعة الجيش والجيوش العقيد كونراد شتيبهاوس، ضابط الأركان السابق في مجموعات الجيش جنوب، الذي خصه بيتر بان في كتابه «الراية الخفية» (1952) بنص أدبي رائع. ونقحها الرائد لوتجندورف، ضابط شعبة الأركان الثالثة في الجيش الثامن، ووزير دفاع النمسا اللاحق.

قومت لجنة من الضباط الأميركيين والإنجليز والكنديين التقرير والوثائق التي غنمتها من شعبتي الجيوش الأجنبية شرق وغرب، وتوصلت إلى النتائج الآتية:

«بقي جيهلن حتى نهاية الحرب رئيس شعبة الجيوش الأجنبية شرق، وغدا خبيرا في الاستخبارات وتنظيم المعارك والشخصية الأبرز في هذا المجال... ويرجع الفارق الملحوظ بين فاعلية شعبتي الجيوش الأجنبية شرق وغرب إلى شخصيته البارزة، فضلا عن الدعم الذي تلقته شعبته، من اجل تلبية متطلبات الجيش الألماني في المجال الاستخباري»[112].

تم بتاريخ 1/ 3/ 1943 استبدال شعبة رئيس الجيوش الأجنبية غرب، العقيد ليس. وكان الإنجاز الرئيس الذي قامت شعبته به هو تحليل سلوك القائد الأعلى للجيوش الفرنسية جاملان أثناء الهجوم الألماني في الغرب (الحالة أصفر)، ومواقع مرابطة الجيوش الفرنسية.

قال بروفيسور جامعة هارفارد، إرنست ماي، في كتابه «انتصار غريب، احتلال هتلر لفرنسا» (نيويورك 2000). «حسب علمي، لم يسبق خلال تاريخ البشر أن مارس محلل جهاز استخباري مثل هذا التأثير على حدث كبير»[113]:

H. Dv. g. 14
M. Dv. Nr. 168
L. Dv. g. 14

Prüf-Nr. 9872

Geheim!

Schlüsselanleitung
zur
Schlüsselmaschine Enigma

Vom 13. 1. 40

Nachdruck mit eingeklebten Deckblättern Nr. 1–8

Berlin 1940
Gedruckt in der Reichsdruckerei

43. جنود ألمان مع مرسلة شيفرة.

44. موديل (ب) لجهاز كاتب مرسل.

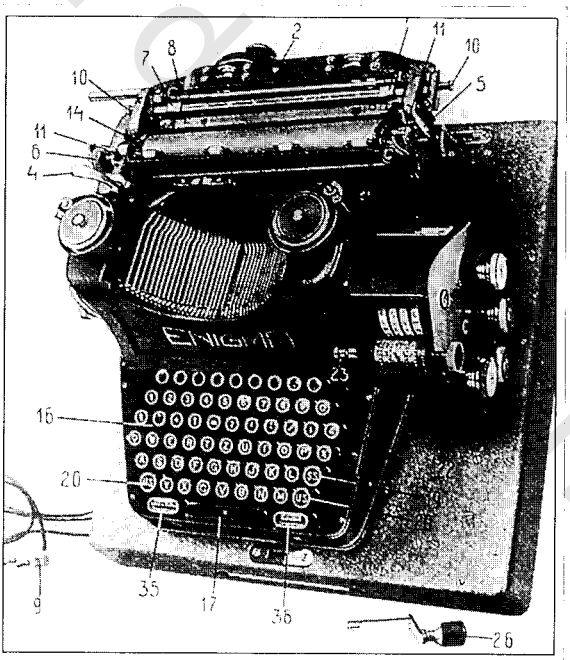

2 Wagen-Befestigungsschraube
3 Zeilenschalthebel
5 Papierauslöser
6 Lasche für den Walzenfreilauf (Stechwalze)
7 Randsteller
8 Fächeranschlag und Arretierknopf für Zeilenbegrenzung bei »Chiffrieren«, »Dechiffrieren« und »Klarschrift«
9 Stecker
10 Kordelschraube zum Herausnehmen des Wagens
11 Griffe für die Wagenauslösung
14 Hebel zum Herausnehmen der Walze
16 Tastenfeld
17 Weiterschalttaste
19 SS-Taste
20 US-Taste
22 Zählwerk
23 Glatter Knopf links vom Zählwerk
26 Kurbel
35 Taste »Umschaltung für Zahlen, Zeichen und Zwischenraum«
36 Taste »Umschaltung für Buchstaben«

45. في بلتشلي بارك في باكنغهامشاير في بريطانيا: مركز فك الشيفرة.

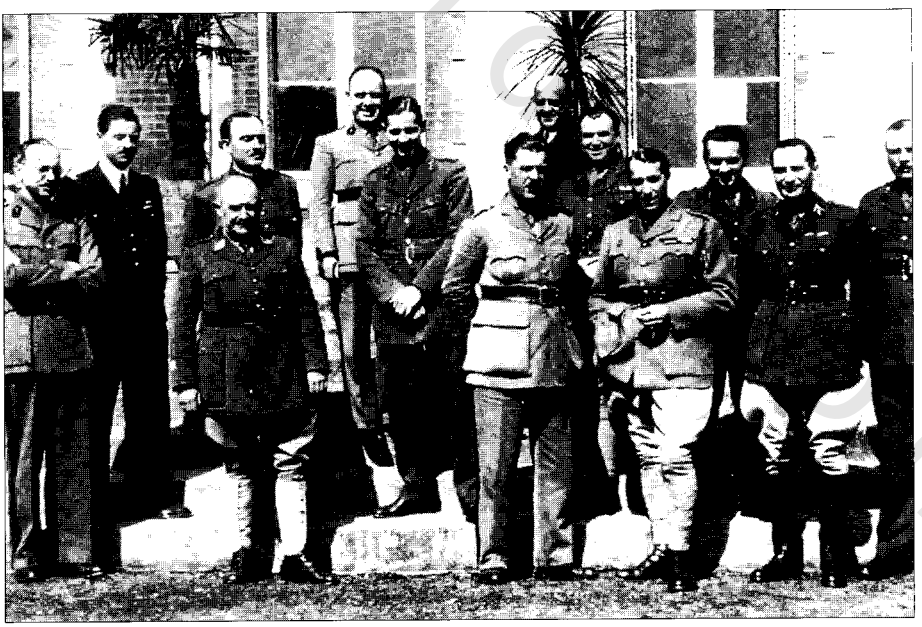

46. خبراء بولونيون وفرنسيون في فك الشيفرة في مركز بلتشلي بارك.

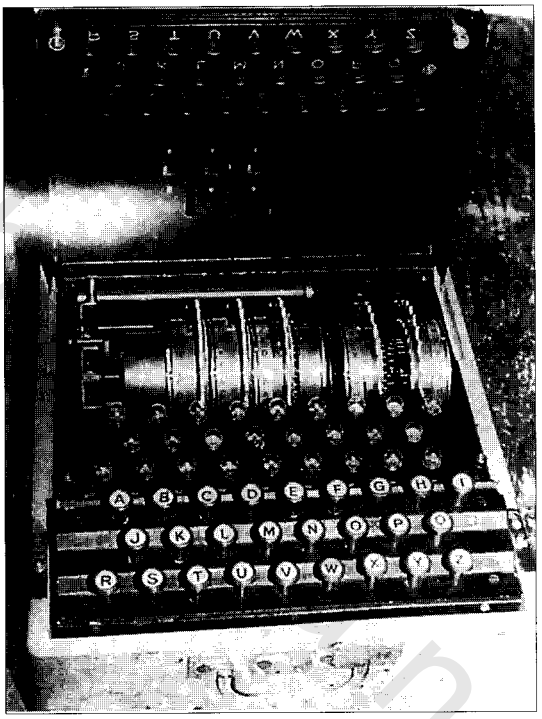

47. جهاز إرسال بولوني سنة 1939.

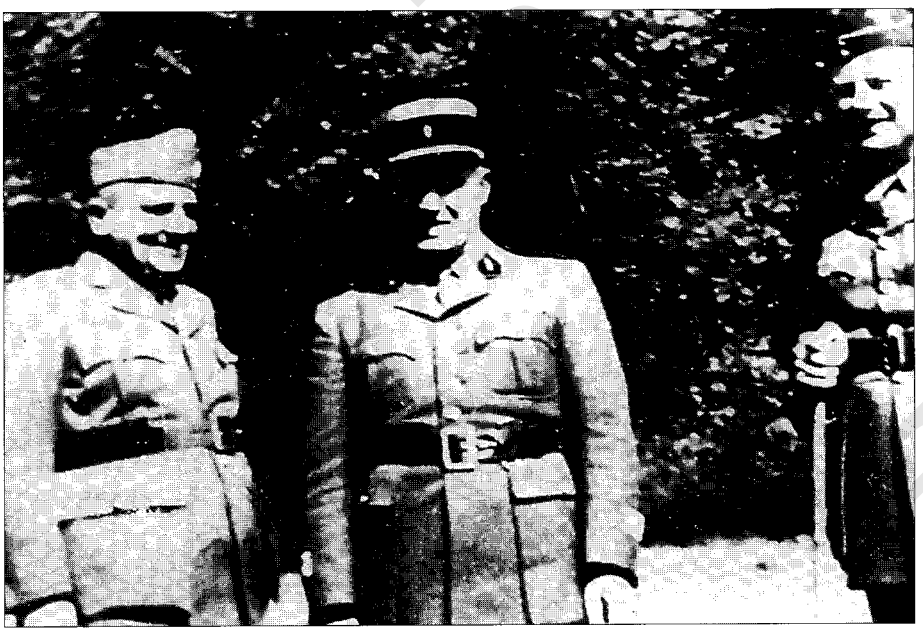

48. رئيس الاستخبارات البولونية (إلى اليسار) ومساعديه.

49. الكوماندر آلستر دنيستون مدرِّب في مركز بلتشلي بارك البريطاني.

50. تشرشل مع رئيس الأركان البريطاني هوارد آلن بروك وفيلد مارشال مونتغومري.

obeikandl.com

الوثيقة (مقطع)

جهاز الاستخبارات في الشرق

. . .

قادت شعبة الجيوش الأجنبية شرق في الأركان العامة للجيش عمل جهاز الاستخبارات في الشرق.

وكانت تابعة بصورة مباشرة لرئيس الأركان العامة للجيش، وعملت بتعاون وثيق مع شعبة العمليات. وقد انقسم الجزء الذي اختص منها بروسيا إلى مجموعات ثلاث:

المجموعة الأولى (مجموعة القيادة)، وكان عملها تقويم الوضع في إطار يومي، بالتعاون الوثيق مع شعبة العمليات. لذا، كان تنظيمها مماثلا لتنظيم القسم المختص بالشرق في شعبة العمليات، حيث كان يجب أن يتعاون كل مختص في إحدى الشعبتين مع مثيله في الأخرى.

المجموعة الثانية (روسيا)، وقد عالجت المسائل المتعلقة بوضع العدو العام والتي تتجاوز الإطار اليومي.

المجموعة الثالثة (مجموعة المترجمين) التي كان عليها الإفادة من مواد أجنبية اللغة (التحقيق مع الأسرى، غنائم تتكون من وثائق خطية، إذاعة، صحافة، أدب).

. . .

سنصف فيما يلي العمل التقويمي، الذي تنجزه المجموعات المختلفة، التابعة لشعبة الجيوش الأجنبية شرق.

تعالج المجموعة الأولى، في إطار التطور اليومي للوضع، مجمل وضع العدو، الموجود أمام الجبهة الشرقية الألمانية، في تلك القطاعات، التي كانت تقاتل فيها وحدات روسية ورومانية وبلغارية. أما مهمة

المجموعة فكانت الحصول على صورة يومية عن وضع العدو (يسمونها: خريطة وضع العدو)، وتفسير حال قواه باستخدام جميع مصادر المعلومات الاستخبارية، ووضع أسس لتقويم نواياه. يرأس قائد المجموعة، الذي ألحق به ضابط ارتباط تابع لقيادة الاستطلاع الاستخباري، عددا من الأقسام، يعالج كل واحد منها، بوجه عام، وضع العدو المواجه لكل مجموعة جيش ألمانية. بينما وجب على قسم آخر معالجة حركات المقاومة الوطنية في عمق روسيا، والتدابير الخاصة التي يجب أتخاذها لخداع العدو. وقد قاد كل قسم ضابط من الأركان العامة، ألحق به ضابطان مساعدان... أما المستندات والأخبار الواردة، فكان رئيس المجموعة يلقي نظرة عامة قصيرة عليها، ثم يرسلها إلى القسم، الذي تتعلق بمجموعة الجيش التابع له، فتضع الأقسام تقويمها، وتقدم بحضور ضابط الأركان الأول (القيادة) ورئيس المجموعة، تقريراً شفهياً يومياً حول صورة العدو إلى رئيس الشعبة («التقرير الصباحي» في الساعة العاشرة و«المسائي» في الساعة 22)، الذي كان يتلوهما بعد ذلك أمام رئيس الأركان العامة.

وكان عمل المجموعة الأولى يقوم على المستندات الآتية:

مستندات مجموعات الجيش: التي تقدم معطيات حول العمليات القتالية ورصد العدو بواسطة قواتها، ومعلومات عن «انتشار القوات» حصلت عليها من الأسرى، وعن تغير صورة القوى، ونتائج الاستطلاع الجوي والاستخباري، واعترافات الأسرى، والأوراق التي تم غنمها، ونتائج استطلاع قوات المدفعية.

وكانت مجموعة الجيش تقدم بلاغين هاتفيين يوميا عن أخبارها ومعلوماتها، يتم الصباحي منهما بين الساعة 8 و9، والمسائي بين الساعة 19 و20، على أن تنهي قوات الجبهة الأول نحو الساعة 6، والثاني نحو

الساعة 16. هذه المعلومات، كانت تبلغ من ضابط إلى آخر(وتسجل على الخريطة)، وتطبع في الوقت نفسه على الآلة الكاتبة بواسطة معاونة أركان تشارك في الاستماع عبر سماعة رأسية. إلى جانب المهام المذكورة سابقا، تضمن «البلاغ المسائي» بصفته القسم الثاني من التقرير، تقويما قصيرا لوضع العدو» ينجزه ضابط شعبة الأركان الثالثة في مجموعة الجيش، وتقويمات ضباط الاستخبارات في أركان الجيش.

أما الجيوش، التي كان عليها تقديم بلاغ صباحي ومسائي إلى مجموعة الجيش، التي هي تابعة لها، فكان من واجبها أن ترسل، فضلا عن ذلك، «بلاغا برقيا يوميا» مباشرة إلى قيادة الجيش العليا، شعبة الجيوش الأجنبية شرق، على أن يصل إليها حتى الساعة الثامنة من صباح كل يوم، يلخص أهم المعلومات عن العدو، التي تم الحصول عليها ذلك اليوم في قطاع الجيش. بينما كانت المعطيات الدقيقة ـ تحقيقات تفصيلية مع الأسرى، الوثائق التي غنمت... الخ، ترسل، عند اللزوم، بالطريق الرسمي الكتابي.

كانت مجموعة الجيش تبعث كل عشرة أيام بلاغا بالهاتف عن المدفعية، يتضمن صورة عن مدفعية العدو مأخوذة من نتائج استطلاع القوات، ويشمل النقاط الآتية: عدد بطاريات المدفعية المعادية التي تم استطلاعها أمام قطاع كل فيلق، موزعة على:

بطاريات خفيفة

بطاريات ثقيلة

قواذف صاروخية

مع زيادتها أو نقصانها خلال أيام البلاغ اليومي العشرة الأخيرة، ونقاط الثقل البارزة على قطاعات الفيلق المختلفة.

. . .

إلى جانب البلاغات المحددة التوقيت، كانت مجموعة الجيش تبلغ بصورة دائمة عن الأحداث المهمة، خاصة عند وقوع عمليات كبرى. كما كانت تتم محادثة هاتفية يومية واحدة على الأقل حول الوضع بين رئيس المجموعة ـ أو الأقسام وبين ضابط شعبة الأركان الثالثة في مجموعة الجيش.

نتائج الاستطلاع الجوي والعمل المشترك مع أجهزة السلاح الجوي

من أجل تنظيم العمل المشترك مع السلاح الجوي، والإبلاغ عن نتائج الاستطلاع الجوي وجمعها، ألحق بشعبة الجيوش الأجنبية شرق بوصفها هيئة ارتباط ضابط شعبة أركان ثالثة من سلاح الجو، أدمجت به شعبة مكلفة بإعداد صور جوية برسم الأركان. هنا، كانت تتجمع نتائج الاستطلاع، والبلاغات والتوجيهات حول تصور سلاح الجو، التي كانت تأتي من ضابط شعبة الأركان الثالثة الجوي في مجموعات الجيش، وضباط استخبارات الأساطيل الجوية في الشرق، ومن شعبة «الاسلحة الجوية الأجنبية شرق» لدى قيادة سلاح الجو العليا.

كان ضابط شعبة الأركان الثالثة يمد شعبة الجيوش الأجنبية شرق، استنادا إلى البلاغات التي تردها، بمستندات حول:

الاستطلاع الجوي العملياتي (تحركات القوات، عددها، الدبابات، الجسور، المدفعية). نشاط طياري العدو، الاستطلاع الجوي المعادي، حشد سلاح الجو العدو وقوته، عدد المطارات، بناؤها، نقاط تمركز وثقل مدفعية العدو المضادة للطائرات.

. . .

نتيجة للتمويه البارع للتحركات الروسية، كانت صور الاستطلاع

الجوي اليومي على الجبهات الثابتة تقدم إشارات غير كافية غالباً حول نوايا العدو، وعن الدرجة التي وصلت إليها تحضيراته، ونقاط ثقل قوته... الخ. بالمقابل، كان جمع عمليات الرصد يسمح على المدى الطويل باستخلاص استنتاجات قيمة معظم الأحيان. لهذا، كان ضابط الاستخبارات الجوي يقوم بجمع التحركات والدبابات، التي تم استطلاعها خلال قرابة أسبوع، في خريطة، تشير بأسهم إلى التحركات، وبالعلامة التكتيكية إلى الدبابات، فكانت كثافة الأسهم وكثرة العلامات تعكس بيانيا ما تمثله من علاقات عددية. هذا العرض كان يقدم دوماً إشارات واضحة إلى نقاط الثقل والحشد، عندما يكون هناك استعدادات هجومية معادية. أما نتائج استطلاع المدفعية المعادية من الجو، فكانت تجمع كل عشرة أيام مرة، وتحمّل على خريطة خاصة، ليمكن مقارنتها بنتائج الاستطلاع المدفعي، الذي تبلغ عنه مجموعة الجيش مرة كل عشرة أيام.

وقد تم، في ما يتعلق بحجم الطلعات المعادية، وكثافة وعمق الاستطلاع الجوي المعادي، إقرار خريطة كانت تستكمل بصورة يومية، تقدم إشارات إلى وضع نقاط الثقل واتجاهات العمليات.

كانت شعبة الأسلحة الجوية الأجنبية شرق، التابعة لقيادة سلاح الجو العليا، تصدر كل اربعة عشر يوما بظرف سنة خريطة تبين حشد قوات سلاح الجو الروسي، تتضمن عرضا للوحدات الطائرة والتنظيم الأرضي (هو من حيث الجوهر نتيجة استطلاع سلاح الجو). هذه الخريطة كانت تقدم في الغالب صورة تامة عن الحشد الجوي المعادي، لأن لاسلكي الطائرات المعادية كان يعمل حتى في أوقات الهدوء، بسبب كبر مساحات روسيا.

كان ضابط شعبة الأركان الثالثة في سلاح الجو يبلغ رئيس الشعبة،

وضابط الأركان الأول، وقادة المجموعات والأقسام في المجموعة الاولى، بالتغيرات التي تحدث يوميا في ما يتعلق بحشد وحدات الطيارين المعادية، التي كانت تجمع كل أربعة عشر يوما على خريطة خاصة، تبرز ما كان يقع من تغيرات كبيرة، وانتقالات في تشكل نقاط الثقل الخاصة بسلاح الجو، وتعطى بهذا الطريقة إشارات مفيدة عند تقويم الوضع الأرضي.

إلى جانب تقويم المستندات، التي كان يقدمها ضابط شعبة الأركان الثالثة في سلاح الجو، كان هناك عمل مشترك وثيق جداً مع شعبة «الأسلحة الجوية الأجنبية شرق» لدى قيادة سلاح الجو العليا، يمتد ليشمل تقويم نوايا العدو بصورة خاصة. لهذا، كانت تجري محادثة هاتفية يومية بين قائد المجموعة الأولى، وفي الحالات المهمة بين رئيس الشعبة أو ضابط الأركان الأول، ورئيس شعبة «أسلحة الجو الأجنبية شرق»، يتم فيها تبادل الأفكار حول صورة العدو. بما أن سلاح الجو الروسي استخدم في كتلته الأكبر لدعم القوات الأرضية، نشأ تعاون مشترك وثيق بين الوضعين الأرضي والجوي. وبالنظر إلى أنه ألحق بكل قيادة جبهة جيش جوي روسي، كان مجال استخدام هذا الجيش يشير بوضوح إلى قطاع قيادة الجبهة التي يتبع لها. كما قدمت نقاط ثقل سلاح الجو، التي أمكن معرفتها بوضوح تام من خلال إشغال المطارات وبنائها، دليلا لا لبس فيه بالنسبة إلى نقاط الثقل الأرضية.

. . .

الاستطلاع الاستخباري

كان الإبلاغ عن نتائج الاستطلاع الاستخباري يتم بواسطة ضابط الارتباط، الملحق بالمجموعة الأولى من ادارة الاستطلاع الاستخباري لدى قيادة الجيش العليا. وكان هذا الضابط يتلقى حتى الساعة 18 من كل يوم

إعلاما أوليا شفهيا حول نتائج الاستطلاع في اليوم المعني، يتلوه أمام قائد المجموعة وقادة الأقسام باعتباره أرضية التقرير الذي ستتم قراءته أمام رئيس الشعبة. إلى هذا، كانت إدارة الاستطلاع الاستخباري تلخص نتائج الاستطلاع اليومية كتابيا. هذا «الوضع الاستطلاعي الاستخباري كانت تبلغ به شعبة الجيوش الأجنبية شرق قبل الساعة 22 من كل يوم، ليشكل أرضية تقويم أوسع يتم خلال الليل، وتوجها تتقيد به شعبة العمليات. وقد قامت مجموعات الجيش بدورها بالإبلاغ عن أكثر نتائج الاستطلاع الاستخباري أهمية من خلال بلاغيها الصباحي والمسائي، فإذا ما ظهرت هنا فروق مع بلاغات إدارة الاستطلاع الاستخباري، أمكن توضيحها، أو اتخذ رئيس الشعبة في أسوأ الحالات قرارا بشأن إعادة تقويمها.

بلاغات العملاء

كانت البلاغات الواردة من استطلاع الجبهة أو من العملاء إلى مكتب أمن الرايش الرئيس، تذهب أول الأمر إلى المجموعة الثانية، المكلفة عموما بمعالجتها. كانت بلاغات العملاء تلك تنصب على وضع العدو اليومي. وكانت المجموعة الثانية ترسلها إلى رئيس الشعبة، وقائد المجموعة الأولى، وأقسام المجموعة الأولى في شكل ملخص يومي.

نشاط العملاء المعادين

شكلت نتائج استطلاع نشاط عملاء العدو ومهامه أحد أهم مستندات تقويم النوايا العملياتية المعادية بوجه الإجمال. أما المعلومات حول نشاط العملاء المعادين فكان يتم الحصول عليها من خلال الاستطلاع الاستخباري واستطلاع شعبة الجبهة الثالثة، في حين كانت النقاط التالية على جانب كبيبر من الأهمية، عند تقويم نوايا العدو: وقت النشاط ومكانه، الجهة التي كلفت به، مهمة العميل. وكانت إدارة الاستطلاع الاستخباري

واستطلاع شعبة الجبهة الثالثة تقوم بالإبلاغ بصورة مستمرة عن هذه النقاط. فضلا عن هذا، كان يصدر كل عشرة أيام عن استطلاع شعبة الجبهة الثالثة بلاغ تلخيصي حول نشاط عملاء العدو. وكان تقويم البلاغات يتم من قبل قسم ضابط الأركان الثاني (بادن)، الذي لديه خريطة يتضح منها توقيت مكان ونشاط من اعطي التكليف ونشاطه، بينما كانت المعطيات حول مهمة العملاء تتضمن شرحا لها. أما مكان العملاء، الذين يتم توجيههم من قبل الجبهات المختلفة، فكان يعطي، خاصة قبل وقوع عمليات كبيرة، إشارات واضحة في الغالب إلى الاتجاهات الرئيسة منها. في حين كانت نقاط ثقل الجبهة بمجموعها تظهر من نقاط الثقل الواضحة لنشاط العملاء، وأمكنة استخدام الذين توجههم منهم مباشرة أركان الجيش الأحمر العامة.

الصحافة المعادية، الإذاعة والجهاز الديبلوماسي البرقي

كان أحد العاملين كضابط ركن أول يقوم بتقويم المستندات السياسية / العسكرية الصادرة عن جهاز الديبلوماسية البرقي، قبل أن يلخص أهم نتائجها كتابيا ويرسل ملخصا يوميا عنها إلى رئيس المجموعة الأولى.

وكانت إدارة الاستطلاع الاستخباري تقوم بالاستماع المنهجي للإذاعات المعادية والمحايدة، وتعد يوميا ملخصا خطيا بنتائجها، ترسله إلى رئيس شعبة الجيوش الأجنبية شرق، حيث كانت الأخبار الروسية تحتل أهمية خاصة لدى توضيح صورة العدو، خاصة عند نجاحه في تحقيق انتصارات كبيرة. عندئذ، كان القادة المشاركون في القتال يذكرون بأسمائهم الصريحة، وهو ما كان يؤكد ـ أو يكمل ـ المعلومات الآتية من مصادر أخرى حول انتشار القوات المعادية.

. . .

كما سبق أن ذكرنا، كان هناك عمل مشترك وثيق بين معالجي

المجموعة الأولى المتخصصين وشعبة العمليات. وكان يتم تبادل مستمر لنتائج الاستطلاع حول العدو والنوايا الصديقة بين رؤساء الأقسام في الشعبتين، لمواءمة نتائج استطلاع العدو مع التدابير الخاصة (الصديقة). وكان ضابط الأركان الأول في شعبة الجيوش الأجنبية شرق يشارك في المحاضرات الصباحية لشعبة العمليات.

...

كانت العمليات القتالية المعادية على الجبهة، والتغيرات في الوحدات المعادية تلخص خطيا كل يوم في «تقرير وضع العدو شرق»، الذي كان يضع مسودته رؤساء الأقسام ويطبع كل ليلة بعد مراجعته من قبل مديرها، ويوزع على مجموعات الجيوش وعلى الجيوش في الشرق، وعلى إدرات الخدمة في شعبة العمليات وقيادة الجيش وقيادة القوات المسلحة العليا وقيادة البحرية الحربية العليا، ذات العلاقة بمعالجة أوضاع العدو.

...

لامتلاك نظرة عامة في كل وقت على عدد الوحدات المعادية، المقابلة لمجموعات الجيوش الألمانية، وعلى قوتها القتالية، تم تسجيل الوقائع يوميا على قصاصات منفصلة تقدمها أقسام المجموعة الأولى إلى السجلات. هنا، كانت القدرة القتالية تحدد في ضوء اعترافات الأسرى، والوثائق التي تغنم، والاستطلاع اللاسلكي، وكانت قدرة وحدات الرماة تتحدد حسب المستندات المتعلقة بقوتها العددية، والوحدات المدرعة على أساس قوة دباباتها. وكانت السجلات تصدر يوميا تقريراً إجماليا يتضمن عدد وحدات العدو المقابلة لمجموعات الجيوش الألمانية، مقسمة إلى وحدات في الجبهة، واحتياطي قريب منها، واحتياطي منتشر في العمق،

مع بيان بقدراتها القتالية. إلى هذا، كانت تعد يوميا مقارنة بين الوحدات الألمانية والمعادية.

...

برز قسم ضابط الأركان الثاني من المجموعة الأولى من الشعبة المتخصصة بحرب العصابات الروسية وراء الجبهة الألمانية. مع تراجع الجبهة إلى الأراضي الألمانية، تم تصغير القسم، الذي أعطي مهمة مزدوجة هي: معالجة حركات المقاومة الوطنية وراء الأعداء الروس، والقيام بتدابير لخداع العدو وتضليله. وقد عالج القسم، في إطار حركات المقاومة،الأنصار الروس «الخضر»، ومجموعات المقاومة البولونية، وحركات الأنصار الأوكرانية، وحركات القرم والقوقاز والشرق الأقصى والبلقان... الخ. إن قيمة هذه الحركات وتأثيرها يجب أن يقوما بطريقة واقعية. وعلى كل حال، فإنها عديمة الأهمية الآن، ولن تكتسب أي أهمية ما لم يحدث تبدل ملائم في الوضع الدولي ووضع روسيا الداخلي.

خلال فترة عمل الأنصار وراء الجبهة الألمانية، كان يتم إصدار تقرير يومي عن «حالة العصابات»، استنادا إلى البلاغات الواردة من مجموعات الجيوش، الاستطلاع اللاسلكي، استطلاع الجبهة (الشعبة الثالثة = شرطة الجبهة السرية). هذا التقرير كان يستكمل بخريطة شهرية تبين «نقاط ثقل العصابات»، ومناطق نشاطها. إلى هذا، كان التقويم يمتد ليشمل الإحاطة الموثقة بالعصابات الجديدة، وبظروف قيادتها، وطريقة قتالها وتنظيمها وعملها، وكذلك بتطور مكافحتها.

كان جزء من خداع العدو يتم عبر برقيات العملاء، الذين يقدمهم مكتب أمن الرايش الرئيس، وجزء آخر بواسطة تدابير خاصة تفضي إلى قيام إطار واقعي يمكن أن يستخدم لتحقيق الخداع اللاسلكي، وبواسطة

الاستطلاع الجوي، والعملاء، الذين ينشرون الشائعات ويقومون بعمليات انتشار كاذبة... الخ. أما تنفيذ تدابير الخداع الأكبر، التي تستغرق فترات زمنية أطول وتحدث ضمن أطر أكبر، فقد رفضت الشعبة دوماً القيام بها خلال السنوات الأخيرة، بسبب وضعها العملياتي الخاص. لهذا السبب، لم يتم كسب خبرات جديدة في هذا المضمار.

تميز عمل المجموعة الثانية (مجمل روسيا والبلطيق) عن عمل المجموعة الأولى (مجموعة القيادة)، المكلفة بمعالجة إطار الوضع اليومي والمؤهلة للعمل بسرعة كبيرة وفق منهجية ثابتة، بقدرتها على تقديم عمل يتسم بعلمية أكبر. أما تحديد كيفية تعامل المعالج مع المهام والمشكلات التي يكلف بها، فكان يترك له إلى حد بعيد، ويتكيف مع نمط المستندات المتوفرة بين يديه، وتلك التي يجب عليه الحصول عليها. وإن كان يطلب منه هنا أيضاً الرد خلال ساعتين على أي سؤال يتعلق بالمعارف التي يجمعها.

ترأس قائد المجموعة الثانية أقساما كثيرة، تعالج بطرق مختلفة مجالات مهامها المختلفة، فكان للقسم 2 أ مهام ثلاث، إلى جانب المهام الخاصة التي يكلف بها من حالة لأخرى، هي:

النظر في بلاغات استطلاع الجبهة، والبلاغات السياسية والأخبار الصحافية واعترافات الأسرى من أجل الإفادة منها في المجموعة الاولى، وتقديم تقويم تلخيصي لها يمتد على فترات زمنية أطول.

المتابعة الدائمة لقدرات الروس البشرية، ولخسائرهم وللتعويض عنها.

المتابعة الدائمة للوضع الروسي في الشرق الأقصى ومنطقة ما وراء البايكال.

حول (أ) تم تزويد جميع البلاغات، المتعلقة بالوضع اليومي أو بأخبار مهمة، بتعليق في معظم الأحيان، وصدرت في ملخص يومي غير مطبوع يرسل إلى جميع الإدارات المهتمة في الشعبة، مع تزويد كل بلاغ بخبر جار. وكان رئيس الشعبة يقرر في التقرير المسائي أي بلاغات يجب إرسالها برقيا إلى مجموعات الجيوش. إلى هذا، تم تسجيل البلاغات على بطاقات مختلفة، تحفظها فترات زمنية تتفق والهدف من تقويمها، تستخدم عند إجراء التقويم الشهري الكبير لنوايا العدو العملياتية.

حول ب) كان حساب قدرات الروس البشرية ومتابعة خسائرهم وتعويضها يتم وفق الأسس ذاتها تقريبا، التي تقوم عليها الحسابات والتقديرات الإحصائية، مع إقصاء مصادر الخطأ قدر المستطاع. أما نقطة انطلاق الحسابات، فكانت إحصاء 1939، الذي أكدت نتائجه سلسلة مستندات غنمها الألمان في بداية حملة روسيا. وكان من الضروري مراعاة حركة السكان حتى سنة 1944، الطبيعية منها وتلك التي ترتبت على التغيرات السياسية، إلى جانب خسائر الحرب التي لا تعوض، وكذلك تناقص وتزايد القدرات الدفاعية من خلال ضياع واسترداد المناطق المحتلة في الشرق. وقد فصلت عن هذا القدرات الدفاعية التي يمكن أن يجعلها الروس صالحة للاستخدام في بولونيا وبلدان البلقان.

حول ث) تمت متابعة الوضع العسكري الروسي في الشرق الأقصى لغرضين: جمع وتقويم مواد تبين انتشار القوات الروسية في الشرق الأقصى وما وراء البايكال، ومستندات عن الوضع السياسي / العسكري، وخاصة منه علاقات روسيا باليابان والصين. إلا أن الأخبار شحت هنا وتناقصت صدقيتها أكثر فأكثر منذ أيلول/سبتمبر 1944، فصار من الصعب اعتبار المستندات التي تم الحصول عليها أكيدة، لا سيما وأنها كانت تستند في قسمها الأكبر إلى مصادر ديبلوماسية.

كان على القسم 2 ب معالجة جميع العناصر الجوهرية بالنسبة لتقويم القوات الروسية المسلحة أو للوضع العسكري، لكنها لا تتعلق بتراتبها وتنظيمها وتدريبها وقيادتها. وكان من صميم مهام هذا القسم معرفة مزاج الجيش والشعب، ووضع تغذيتهما، وبعض القضايا السياسية الخاصة، وقضايا التربية، والخدمة الداخلية، ومفوضية الشعب للشؤون الداخلية. . . الخ .، وكانت النتائج تجمع عادة في «تقرير شهري» مخصص للقيادة. أما مصادر الحكم على وضع مزاج وتغذية الجيش والشعب الروسيين فكانت بظرف سنة كمية كبيرة تم غنمها من البريد الميداني، وأقوال الأسرى، وتقويمات صحافية تم التعامل معها بحذر كبير.

كان على القسم 2 ث إدارة القيود والسجلات، التي ملأت نحو 30000 بطاقة مكنتها من إلقاء نظرة عامة في أي وقت على الأفواج والفرق والوحدات الروسية، ودوائر قيادتها، وعلى مجموعات الجيوش، والملفات الشخصية بدءا من قادة الفرق فما فوق، وأرقام البريد الميداني، ووحدات بلدان البلقان. وكان على القسم إجراء «حساب قوى»، أي قائمة عددية دقيقة بالوحدات الروسية المواجهة هذا اليوم للجبهة الألمانية، مع حسابات تتعلق بقيمتها القتالية. كما كانت القيمة القتالية لكل وحدة تحدد يوميا من قبل القسم المعني، التابع للمجموعة الأولى، وتبلغ إلى السجلات، اعتمادا على بلاغات القوات. فضلا عن ذلك، كان على السجلات إجراء «مقارنة يومية عددية للقوى» الألمانية والروسية في قطاعات مجموعات الجيوش. احتلت السجلات أهمية خاصة، بوصفها أداة ملائمة للإحصاء وتاليا لـ«ذاكرة» الشعبة، لذلك كان ت ملاكها الوظيفي ينتقى بعناية خاصة. كان إجراء حسابات الإحصاءات العسكرية، التي تحتاج القيادة إليها، مهمة القسم 2 ث، ينجزها عند الضرورة بالتعاون مع القسم 2 أ، حين يتعلق الأمر بالقدرات البشرية، ومع القسم 2 د، متى لعب عدد الدبابات دوراً فيها. وقد استخدمت الرسوم

البيانية على نطاق واسع في جميع هذه الأعمال. إلى ذلك، كان بين مهام القسم 2 ث التعاون مع العاملين في أقسام التدريب لجمع ومعالجة معلومات تتعلق بتنظيم الوحدات الروسية، وتراتبات قواتها، وتسليحها، تجمع نتائجها ضمن إصدار دوري يأخذ شكل مطبوعة تتضمن «لمحة عامة عن وحدات القوات المسلحة السوفياتية الروسية»، و«لمحة عامة حول دوائر قيادة القوات السوفياتية الروسية، و«لمحة عامة حول قادة السوفيات الروس السامين». عالج القسم 2 د قدرات روسيا التسليحية الملموسة، التي احتلت صناعة الدبابات مكانة خاصة فيها، لأسباب عسكرية مفهومة. كان رئيس القسم هو في الوقت نفسه معالج الشؤون الروسية لدى مكتب الاقتصاد الميداني، مما وحد عمل المكتب والجيوش الأجنبية شرق، ومكنهما من استخدام أجهزة القسم الآخر. تمت معالجة قضية الدبابات من جانبين: حساب عدد الدبابات في الوحدات المدرعة، بناء على بلاغات القدرة القتالية التي تصدرها القوات، وحساب إنتاجها، وحجم خسائرها. وكان الفارق بين الحسابين يبين حدود الخطأ المحتملة. وقد أمكن تقديم نتائج أكثر دقة في الأشهر الأخيرة، انطلاقا من تقويم عدد مصانع إنتاج الدبابات في نهاية الحرب.

عالج القسم 2 وتكتيك الجيش الروسي وتدريبه، وكان مزوداً بضابط أركان على درجة رفيعة من التأهيل، من مهامه إيصال ما يعلمه عن طرق قتال الروس إلى القوات الألمانية بالسرعة الممكنة. وقد حدث هذا أول الأمر عبر نشر «تقويمات أو تجارب قصيرة» ضمن «الأخبار المتفرقة لجهاز الاستخبارات شرق». ثم صدرت فيما بعد دراسات تفصيلية حول القضايا المهمة، ظهرت ككتابات منفصلة. وكان المعالج في هذا القسم على علاقة مع شعبة التدريب، التي كان عليها استخلاص الاستنتاجات الضرورية منها بالنسبة إلى الجانب الألماني. لم يكن منهج عمل القسم 2 و محدداً بصورة مسبقة تفصيلية، لأنه كان يعمل بطريقة مدرسية صرفة.

. . .

كانت مهمة المجموعة الثالثة (مجموعة المترجمين) تنحصر في جعل المواد أجنبية اللغة قابلة للتقويم، والقيام بدور استشاري في القضايا المتعلقة بالطبيعة الروسية، وإعداد الدعاية القتالية ضد الروس داخل الشعبة، وكتابة المواد باللغات الأجنبية. كانت معرفة الغنائم الخطية أجنبية اللغة تتطلب نوعا من الغربلة والتقويم الأولي، جعل من الضروري شغل الأقسام بقوى مؤهلة عسكريا. . . وكان القسم قد تأسس بسبب نواقص ظهرت في الدعاية الحربية الألمانية، وكلف بتقديم مقترحات تتعلق باستخدام المواد الواردة فيها. وإذا كانت أفكار كثيرة جيدة قد اصطدمت برفض قاطع من الجهة الأعلى، فإن بعض الاقتراحات لقيت مع ذلك قبولا واسعا لدى ألمان مسؤولين في الإدارات المختصة عن الدعاية الحربية. . . .

أشرفت المجموعة 3 على معسكر التحقيق، الذي كفل ظروف حياة ملائمة جداً للاسرى، جعلت بالإمكان الإفادة منهم. وكان يرأس المعسكر قائد ألماني وآخر روسي.

اقتصرت منطقة عمل المجموعة الرابعة على البلاد الاسكندينافية، وخاصة منها السويد وفنلندا، بعد الهدنة الروسية الفنلندية. هذه المجموعة عملت بأسلوب سلمي صرف حتى في أحلك الظروف، لأن العمل الاستخباري ضد السويد كان ممنوعا بحد ذاته، والمواد الآتية من المصادر المختلفة تجمع بطريقة متعبة. من هنا، كان من الصعب جداً اعتبار هذا العمل عالي القيمة أو كاملا، شأنه في ذلك شأن المواد التي تم جمعها في الفترة الأخيرة عن فنلندا.

ضمت المجموعة 5 مكتب الخرائط والصور والمصورات الضوئية. وكان الأول يضم 18 موظفا خبيرا بالخرائط، ينجزون في الليل الأعمال الفنية التمهيدية لطباعة خريطة الوضع، التي تصدر كل صباح.

obeikandl.com

ملخص

تحولات الاستخبارات السرية
في القرن العشرين

يدور هذا الكتاب بالدرجة الأولى حول الاستخبارات السرية في الحرب العالمية الثانية، وحول وسائلها ومناهجها، ونجاحاتها وإخفاقاتها، التي تركت أثرها في الأحداث الحربية. لكنه كانت ولا تزال هناك أجهزة استخبارات تعمل في السلام أيضاً، كما يعرف كل إنسان، وبذلك تبدأ بالنسبة إلى كثير من معاصرينا مشكلة الاستخبارات بالمطلق، ممن يسألون أنفسهم عن الغاية من وجود الاستخبارات، إن ما دامت كلمات وشعارات كالتعايش والتفاهم والوئام متداولة دوليا، وكان القادة السياسيون لا يفتأون يؤكدون نواياهم السلمية بعضهم لبعض. هنا، يكون السؤال محقا إلى أبعد حد، وتغدو المطالبة بضرورة إلغاء الاستخبارات السرية في أزمنة السلم مفهومة، ما دامت ستزول بزوالها أسباب كثيرة للاستياء المتبادل.

في هذه المناسبة، من غير الجائز أن نتجاهل واقعة أنه لا يوجد فقط جانب يومي وظاهري للسياسة، بل لها جانب ليلي وخفي أيضاً، فالسياسة لا تقتصر، والحق يقال، على ما يقال علنا من خطب مبهجة وتأكيدات متبادلة للإرادة الحسنة: تعلمنا التجارب التاريخية، التي راكمناها بوفرة في هذا القرن، أن من الحكمة، والضروري جدا، معاودة طرح سؤال متشكك حول

obeikandl.com

ما يكمن وراء الكلمات، وما هي خطط ونوايا الجانب الآخر الحقيقية على المدى البعيد؟. وماذا كانت تنوي هذه أو تلك من الحكومات، وما التدابير التي يجب على حكومتنا اتخاذها لحماية أمن دولتنا وهيئتنا المجتمعية؟. السياسة الخارجية هي دوماً معادلة من مجهول واحد على الأقل، وهو يختفي في جانبها الليلي، ويبقى في الظلام، فلا يقدر المرء أن يعرف المفاجآت الخبيثة، التي يمكن أن تنطلق فجأة من هذا الظلام، ولا بد أن يبقى حذراً ومستعداً.

تتحمل قيادة الدولة، أي الحكومة، المسؤولية عن هذا الوجه الليلي من السياسة أيضاً. لذلك، لا يستطيع أي رئيس، أو مستشار، أو وزير الشعور بالسعادة لوجود هذا الجانب المظلم والمجهول الكبير، ولا يقدر أن يقول ببساطة لنفسه ولشعبه: ما أجهله لا يثير قلقي. لا توجد سياسة خارجية مؤثرة ليست اليقظة الدائمة قانونها الأعلى، وليس هناك سياسة داخلية لا تهدف إلى حماية دستورها الشرعي من أعدائها. ومن غير الجائز أن يكون لخداع الآخرين والذات مكان في هذين الحقلين. من هنا، ليس بمستطاع أي حكومة أن تستغني حتى خلال السلام عن إدخال خطط ومقاصد الجانب الآخر ضمن خبرتها، وكذلك ما تريده وتستطيعه هي ذاتها، كما قال العماد فون سيكت بتبسيط لا يجارى، وهو صحيح اليوم بالمعنى السياسي والعسكري، وبالمعنى الاقتصادي أيضاً. وهكذا، سيكون من واجب كل حكومة الحصول على معلومات موثوقة حول ما يريده الآخرون ويقدرون عليه، لتكون مستعدة له عند تغير الأحوال. ولا يقصِّر في هذا إلا الساسة الذين يفتقرون إلى الشعور بالمسؤولية.

ليست وكالات الاستخبارات السرية، المسماة أجهزة الاستخبارات، غير أداة تضيء الجانب المظلم من التواصل السياسي الدولي، تستخدم

لتقصي والوسائل والمشاريع الحقيقية للحكومات الأجنبية ومعرفة نواياها، وتكشف الخلفيات والوقائع الخفية وتبلغ حكومتها عنها. أما الأخبار، التي تجمعها بطريقتها الخاصة، فلها على الداوم طابع هجومي ودفاعي في آن معا، هو تحديدا ضبط التكتيك السياسي الخاص بما يتفق معها، وحماية الدولة والهيئة المجتمعية من الضرر، وتجنيبها المفاجآت. بما أن الاستخبارات تنشغل بالجانب المظلم من السياسة، فإنها تجد نفسها مجبرة على العمل في الظلام، وتتقصى سرا ما يبقيه الجانب الآخر سريا، وتموه نفسها قدر الإمكان. طبيعي أن الاستخبارات ستنهمك بظرف سنة على الدوام في أعمال مكافحة، تعيق وصول عملاء أجانب إلى أسرار الدولة، وخاصة منها الأسرار العسكرية والتقنية. من المعلوم أن هذه المهمة هي التي أعطت مجموعة العمل مكافحة / الخارج في القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية اسمها، رغم أن واحدة فقط من شعبها، هي الثالثة، كانت مكلفة بإنجازها. بينما كانت شعبتها الأولى متخصصة «بالخدمات السرية»، أي بالجاسوسية، والثانية مكلفة بأعمال التخريب والتآمر. لم يعد معمولا اليوم بهذا التنظيم في استخبارات جمهورية ألمانيا الاتحادية، التي تقتصر وظائفها على العمل الاستخباري وحماية الدستور والقوات المسلحة، وتحمل طابعا دفاعيا صرفا.

مشكلة الاستخبارات

من الواضح أن «الرأس»، أي مركز القيادة والتفكير، الذي تنطلق منه الأفعال وتوجه العمليات، هو الشيء الرئيس في أي جهاز استخبارات. وقد كان له على الدوام وظيفتان ينجزهما في وقت واحد، من الضروري إمعان النظر فيهما جيدا، هما: التلقي وإعادة الصياغة، اللذان يشملان: كسب الأخبار أو الحصول عليها، ثم جمعها وأخيراً تقويمها، ويتوج بتحليل مستمر للأوضاع، هو منتج العمل النهائي والشيء الرئيس فيه: هنا، يتم فرز القش،

الذي يكثر في عمل اجهزة الاستخبارات، عن القمح، وتتم بلورة الأمور الرئيسة، فيمكن للمنتج النهائي من هذه اللحظة فصاعدا أن يخدم الحكومة بصفته معلومة صحيحة، هي أرضية أمينة يقوم عليها تكتيك سياساتها الخارجية وقراراتها السياسية العملياتية. ليس من عمل أجهزة الاستخبارات ـ مفهومة بطريقة صحيحة ـ ممارسة أو اكتساب تأثير مباشر في هذين المجالين، وإن كان يحق لها -في أحسن الأحوال، الإقناع وتقديم التوصيات. وللعلم، فإن الجهاز الاستخباري لا يحتاج إلى «رأس» و«رئيس» فقط، بل يحتاج كذلك إلى «أيد وأرجل». إنه يحتاج إلى عملاء و« شعب عادي»، ويكون عملاؤه ووكلاؤه، الذين يوجد أنواع مختلفة منهم، يقومون بالحصول على المعلومات وإبلاغ الجهاز بها. أخيراً يوجد «الشعب العادي»، «الثقاة من الرجال»، «الجديرون بالثقة»، الذين يبحثون دوماً عن معلومات لا يكفون عن تقصيها، فلا يستطيع أي جهاز استخباري الاستغناء تماماً عنهم، حتى في العصر التكنولوجي، الذي يقدم إمكانات لجمع المعلومات لا تخطر ببال. وعلى كل حال، فإن مهام رجال الثقة هؤلاء ليست اليوم ما كانته بالأمس: فهم يستخدمون في أجهزة استخبارية تدار بعقلانية وبطرق اقتصادية رشيدة، ويؤدون مهامَّ محددة وينجزون وظائف رقابية معينة.

ثمة، كما نعرف، أسباب نفسية قوية تكمن وراء هذا كله: فالعميل ورجل الثقة يمتلكان علاقة إشكالية بالحقيقة، ترجع إلى نشاطهما، الذي يتم في الظلمة أو العتمة نصف المظلمة. بينما لا تكون علاقتهما بالخبرة، التي يحصلان عليها، في أحسن حال دوما، حتى عندما يتم إعدادهما في مدارس ودورات تأهيلية خاصة. رغم هذا، تدل التجربة على وجود ضرب من تضامن بين قادة العملاء المهرة وهذا «الشعب العادي»، يتم فيه التمييز بين «مجرب» و«موثوق» و«غير موثوق»، رغم أنه لا يوجد جهاز استخباري حصين ضد وجود عاملين منفلتين فيه، يعملون لجهتين ويقبضون منهما.

يجند الطرف الآخر عددا غير قليل من هؤلاء، عندما يقبض عليهم. ويروي تاريخ أجهزة الاستخبارات قصصا وحكايات مغامرة قاموا بها في السلم والحرب، تفوق عجائبيتها من حين لآخر أي قصة «خيال علمي». يوجد عادة عميل ورجل ثقة مقابل كل مخبر يخدم المعسكر الآخر، ويمارس الخيانة الوطنية أو يدفع آخرين إلى ممارستها، بالشراء أو الابتزاز. إن أضمن طرق الحصول على أسرار الجانب الآخر هو في الوقت نفسه أطولها: إنه العميل الواعد، الذي يتم تسريبه إلى صفوف العدو من دون أن يلاحظه أحد، ويرتقي في عمله طوال سنوات، قبل أن يبلغ المركز المأمول بأسراره ومعلوماته. وليس مثال جيوم (جاسوس ألماني شرقي صار مدير مكتب مستشار ألمانيا الغربية ويلي براندت، لعب كشفه دورا كبيراً في استقالته ـ المعرّب) غير أحد الأمثلة «الكلاسيكية» هنا.

هذا المثال المثير هو في الوقت نفسه مثال تعليمي مليء بالعبر بالنسبة إلى الحكام والقادة السياسيين، الذين يجب عليهم الإفادة من الأجهزة، وأن يراقبوها سياسيا، ويعرفوا أساليبها، وما تقوم به من عمليات تخريب واختراق، ومخاطر الخيانة الوطنية الناجمة عن الإهمال، التي يتعرضون لها هم انفسهم، بالنظر إلى أن كل من له علاقة بقضايا سرية ترتبط بالدولة والجيش يصير مدار اهتمام الطرف الآخر، الذي يمكن أن «يدقق» في نقاط ضعفه وذنوبه وشهواته. إن الحياة الشخصية المضطربة للعاملين المهمين في السكرتاريا، أو لمراتب الدوائر السياسية العليا، تحمل دوماً مخاطر جسيمة على أمن الدولة.

ثمة اليوم إمكانات مفتوحة، لم تكن متاحة من قبل، تتيح لأجهزة الاستخبارات الحصول على المعلومات. يتعلق الأمر هنا بارتكاب الخيانة الوطنية عبر نشاط معلوماتي أيديولوجي الدوافع، هو الحافز الثالث، الذي

يشجع العمل لمصلحة الجهة الأخرى، إلى جانب الشراء والابتزاز. منذ صعود الأيديولوجية الشيوعية ثم الفاشية والنازية، تعاطف أشخاص من «معسكر» ما مع المعسكر الآخر، «المعادي»، ونقلوا إليه معلومات سرية ووثائق. من المعروف أن مارجريت بوفيري كرست مكتبة كاملة لهذه الظاهرة[1]، لاحقت فيها أشكال تجسدها المختلفة.

بعد العميل، الذي يسرب إلى صفوف الأعداء، يحتل أهمية خاصة المخبر العامل في مركز الاستخبارات المعادي، الذي وجد دوما، وأجبر الأجهزة جميعها على اتخاذ تدابير خاصة تحمي بها نفسها منه، أو تمكنها من كسبه. أما دوافع هؤلاء الخونة فيمكن أن تكون من طبيعة خاصة إلى أبعد حد، بينها كره النظام السياسي الذي يخدمونه. غير أن هؤلاء يواجهون بمرور الوقت صعوبة متزايدة في الحفاظ على سرية وضعهم، فيلتحقون، عندئذ، بالجانب الآخر ويكونون على قدر كبير من القيمة، ولو لوقت معين، خاصة إذا جاؤوا وفي حوزتهم قوائم بأسماء عملاء العدو. مع ذلك، فإن تأثير هاتين النتيجتين نادرا ما يكون مديدا، بسبب التغير الدائم في كوادر الاستخبارات ووسائلها وطرائقها، الذي يجعلها بحاجة إلى أرضية علمية وطيدة في عملها، وإلى رؤوس تعمل بطريقة علمية في مراكزها، يزيد من أهميتها أن أجهزة الاستخبارات ستتطلع دوماً إلى جعل تبعيتها للعملاء والجواسيس، أي «للشعب العادي»، قليلة قدر المستطاع.

العمل الاستخباري كعلم

بالتوافق مع نزعة العصر، وانطلاقا من ضرورة داخلية، شهد الجيلان

(1) مارجريت بوفيري: الخيانة في القرن العشرين، الأجزاء من 1 إلى 4. راينبيك 1955 – 1960.

الأخيران تغيرات قوية في أجهزة الاستخبارات: التي تطورت في سياق القرن العشرين من حرفة تخشى الأضواء إلى نظام علمي، علم موضوعه العدو، في الحرب، ونوايا وقدرات الحكومات والقوات المسلحة الأجنبية في الهدنة، التي حلت منذ سنة 1945 محل السلام. هذا السياق زاد أهمية المراكز، التي توجه وتراقب وتعقلن العمل، وتعطي المهام وتكتشف مصادر جديدة للمعلومات. إلى جانب الطريقة القديمة في الحصول على المعلومات من خلال صلات شخصية، اكتسبت وسائل أخرى أهمية متزايدة باضطراد في العصر العلمي، قد لا يدرك الهاوي قيمتها المعلوماتية، مع أنها تتيح لنا الحصول على معارف عالية القيمة، نذكر بها هنا، هي قبل كل شيء:

1 ـ الأدبيات الجغرافية والسياسية والتاريخية والإحصائية حول البلدان الأجنبية.

2 ـ النشرات الدائمة: الصحف والمجلات، الكتب والمجلات المتخصصة. طبيعي أن هذه أكثر سخاء في بلدان العالم الحر منها في العالم الشيوعي، مع أنها تقدم حتى هناك إشارات إلى القارئ النابه، تتضمن معارف مهمة.

3 ـ المحادثات الاستخبارية ذات المظهر البريء، التي تتم في البلدان الأجنبية، وتخالطها أسئلة هادفة.

4 ـ تقارير السفراء والملحقين العسكريين، التي ليست جاسوسية بالمعنى المألوف، لكنها تعطينا صورة عامة حول ما يجري، وتقدم لنا إطارا عاما، كما يقال.

5 ـ معلومات سرية يقدمها المتعاطفون، ووثائق يتم الحصول عليها، ونظرات نلقيها على محاضر جلسات ولقاءات.

6 ـ نتائج الاستطلاع الجوي، التي نحصل عليها في السلام أيضاً، وكانت وسيلتها في السابق طائرات خاصة، أما اليوم فيتم جمعها عبر الأقمار الصناعية، وأخيرا

7 ـ الاستطلاع الاستخباري، رصد وتقويم الاتصالات اللاسلكية، وممارسة رقابة الكترونية للأحداث والوقائع في بلدان أجنبية، فضلاً عن رصد الاتصالات الهاتفية داخل البلد الخاص، الذي لا بد منه، ما دام أمن الدولة يسمو على مصالح الفرد الخاصة.

هذه المجالات السبعة هي اليوم الأداة العلمية الرئيسة لاكتساب المعلومات في السلام، التي حلت أكثر فأكثر محل الجاسوسية، ومحل التقصي عبر الجواسيس. يضاف إليها هنا أجهزة التنصت الصغيرة، التي تسمى «البق»، وتستخدم بصورة خاصة في المعسكر الشيوعي، ولا يكون لها غير أهمية محدودة، عندما يتخذ المرء موقفا يتسم بالحذر والحيطة منها.

نكرر القول باختصار: ترتكز أجهزة الاستخبارات في العصر التقني ـ العلمي على أسس مغايرة للأسس التي قامت عليها زمن الأجداد. إنها لم تعد تتلقى معلوماتها معظم الأحيان من الجاسوسية الشخصية، بما يصحبها من ظواهر مشكوك بها كـ«الجنس والجريمة»، مع أنه لا يمكن الاستغناء اليوم أيضاً عن الجواسيس والمخبرين الشخصيين، لوجود أسئلة لا يجاب عنها غالباً إلا في عين المكان. وإن كان كل جهاز استخبارات حديث يبقى معنيا بالوسائل جميعها، ما دام هدفه تحليل وضع الدول الاجنبية ومعرفة خططها وإمكاناتها السياسية، وإعلام حكومته بكل ما يتعلق بها.

مراحل تاريخية خمس لتطور الاستخبارات

بلغ العمل الاستخباري وضعه الراهن عبر طريق طويلة، كانت مفروشة

بالنجاحات والإخفاقات. ثمة طبعا تاريخ تطور خاص بالاستخبارات، كان ولا زال مشمولا بتغير وتحول دائمين. إنه تطور له تاريخه الخاص، الذي يمكننا تمييز خمس مراحل متباينة فيه، خلال القرن العشرين وحتى يومنا، تعينت كل واحدة منها بنقاط ثقل خاصة بها.

أما المرحلة الأولى، فهي مرحلة الجاسوسية التقليدية، مرحلة التجسس الفردي والشخصي والخيانة الوطنية المكثفة. وقد طبعت التصور الشائع عن الاستخبارات السرية بطابعها، الذي لا زال فاعلا إلى يومنا، وتمحورت حول خيانة الأسرار العسكرية. وكان وجهها الأبرز قبل الحرب العالمية الأولى العقيد ريدل، رئيس مكتب الاستطلاع في مركز الاستخبارات، وضابط الأركان العامة الملكية القيصرية، الذي أفشى أسرار خطط التقدم العسكري النمسوي / المجري إلى الروس، بعد أن أفسدته ميوله الجنسية المثلية وديونه المرتفعة. وكان ماتا هاري الوجه المفتاحي الثاني في الحرب، وقد أعدمها الفرنسيون رميا بالرصاص كجاسوسة ألمانية، التصقت بها قصص مختلفة روتها الأفلام والتقارير الصحافية.

يهتم كتابنا بالمرحلة الثانية أساسا، التي تشمل الفترة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية، وتتسم بتقدم تقنية الاتصالات، وإضفاء طابع موضوعي على أساليب جمع المعلومات، وطابع علمي على عمل المراكز، وبالإضاءة المنهجية لقدرات الجيوش والبحريات وأسلحة الجو الأجنبية، ولنواياها المحتملة. أما على الصعيد العسكري في ألمانيا، فنجد القيادة العليا لكل قسم من أقسام القوات المسلحة مكلفة بجمع المعلومات بمعونة شعبة «الجيوش الأجنبية»... الخ، وشعبة الأركان الثالثة في الأركان العامة للوحدات، بينما يختلف تركيب شعبة حماية القيادة العليا للقوات المسلحة عن ذلك. تتشابه بنية الاستخبارات الفرنسية بمكتبها الثاني

ومكتب الاستعلامات مع التنظيم الألماني، وتتشابه معه أيضاً بنية جهاز الاستخبارات التابع للأركان العامة البريطانية والاستخبارات السرية، حيث يعتبر تدبير وجمع المعلومات وتقويمها وتحليلها أموراً حاسمة في كل مكان.

تميزت المرحلة الثانية بتراجع الجاسوسية من الطراز القديم، رغم أنه تمت ممارستها بكل الوسائل أول الأمر. إلا أنها ستصاب بالشلل على يد شرطة البلدان الشمولية السرية، وسيجد ممثلوها أنفسهم مجبرين على الهرب منها. لذلك كانت ألمانيا ترصد من سويسرا والبلدان الغربية، والاتحاد السوفياتي من دول البلطيق وهنغاريا ورومانيا، بعائد تناقصت نتائجه بمرور الوقت، وخاصة منها تلك التي جاءت بها المكافحة الألمانية، التي تم تحييدها تماماً قبل الغزو سنة 1944، مثلما تم تحييد وتضليل الجاسوسية الغربية قبل هجوم الأردين، مما جعله مفاجأة تامة بالنسبة إلى الحلفاء. رجحت في طور الحرب الأخير من سنة 194 كفة الخيانة الوطنية بدوافع أيديولوجية، بحيث يمكننا التحدث عن إفشاء كامل لأسرار العسكرية الألمانية.

التطور بعد 1945

لم يقيض لاستبعاد الجاسوسية، الذي عرفته الحرب العالمية الثانية، أن يستمر لفترة طويلة، فقد عادت من جديد بعد نهاية الحرب مباشرة، لهدف قيض له أن يقرر التطور اللاحق لتاريخ العالم. ذلك أن الاتحاد السوفياتي رجع إلى هجومه الاستخباري السري، الذي استخدمه ضد أقوى حلفائه آنذاك: الولايات المتحدة الأميركية. حدث هذا سنة 1945، فبدأت به المرحلة الثالثة من تاريخ الاستخبارات في القرن العشرين.

كانت أميركا تحتكر سنة 1945 السلاح النووي، وكان كسر هذا

الاحتكار هدف السوفيات، الذين قرروا التجسس على أسرار إنتاج الأسلحة الذرية، وإيصالها إلى موسكو. وقد جاءت المبادرة لذلك من ستالين شخصيا، فأعدت الخطة وتقررت طريقة التنفيذ بدهاء. واستخدمت إدارة الاستخبارات العليا لدى الجيش الأحمر قادة عملاء على درجة عالية من التأهيل ومخبرين تمكنت من شرائهم، وخاصة المتعاطفين معها لأسباب أيديولوجية من العاملين في المختبرات النووية الغربية. وقد سجل العقيد السوفياتي الأسطوري رودلف آب/ أغسطسل اسمه في تاريخ أجهزة الاستخبارات، بسبب حسن إدارته للعملاء، وسجل روزنبرج وجرينجلاس اسميهما كعالمين أفشيا بأسرار، ودخلت أسماء هاري جولد، د.كلاوس فوكس، ونان ماي وبرونو بونتيكورفو تاريخ الأجهزة السرية بسبب إفصاحهما عن «معلومات علمية». هؤلاء جميعا يمكنهم التباهي بأنهم غيروا بنشاطهم العالم، وصنعوا تاريخه. إن العالم الواحد، قد انقسم، وتم كسر احتكار أميركا النووي في وقت مبكر، وبدأ الاستقطاب في القوى العالمية، الذي ساد سنوات الحرب الباردة.

تعتبر حقبة هذه الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي المرحلة الرابعة من التطور التاريخي لاستخبارات القرن العشرين، الذي لم يبق فيه شيء من العالم الواحد، والسلام العالمي، والسلام الأميركي. لقد بدأت الحرب في الظلام من جديد في اللحظة ذاتها، التي صمتت فيها الأسلحة التقليدية. غير أنها لم تبق حرباً من طرف واحد، لأنها انكشفت مع فرار إيجور جوزنكو إلى الغرب ومن تبعه فيما بعد، ولأنه كان هناك جوع لا يرتوي إلى المعلومات من البلدان الأخرى.

هذا الجوع إلى المعلومات نقله الاتحاد السوفياتي بعد الحرب إلى الدول التابعة له، وكان لدى معظمها أجهزة استخبارات من الطراز

السوفياتي، تقوم بمهام هجومية إلى أبعد حد، وفي المقدمة منها استخبارات جمهورية ألمانيا الديموقراطية. هنا، لم يعد الأمر يتعلق بالتجسس على أسرار عسكرية، بل تحولت الجاسوسية إلى عمل شامل، هو سمة المرحلة الخامسة، التي نعيشها اليوم.

التجسس الشامل

تعتبر التجارب التي كان على جمهورية ألمانيا الاتحادية المرور بها في السنوات الأخيرة مميزة بالنسبة إلى المرحلة الخامسة من تاريخ تطور الاستخبارات في القرن العشرين، التي تعتبر مرحلة تجسس شامل. شمل الجوع إلى المعلومات لدى الكتلة الشيوعية الجميع وكل شيء. ورغم الجهود الأكثر نبلا، التي بذلتها الحكومات الغربية من أجل الانفراج وكسر حدة التناقضات، فإن هذا المجال لم يشهد أي استرخاء في الهجوم الاستخباري السوفياتي، بل حدث العكس، ووصل الأمر إلى حد تسريب عميل إلى مكتب المستشار الألماني ؛ وليت الأمر وقف هنا، إذ تشير حالات أخرى متفاقمة من الجاسوسية الشرقية إلى أن جمهورية ألمانيا الاتحادية تحولت إلى ميدان تجسس شامل، وإلى موقع يعج بآلاف العملاء الشرقيين، الموجودين في كل موقع من مواقع السياسة والحكومة والاتحادات والنقابات، وكل غرفة من غرف السكرتاريا والمعامل ومراكز البحث والمخابر، بل ان التجسس على المصانع تطور إلى حرفة متخصصة شاملة. أما عدد هؤلاء العملاء السريون فهو كبير كعدد المخبرين المتطوعين والغافلين والواعين، الذين يرفدهم عدد غير معروف من العملاء المحتملين والصامتين، ممن يقومون بمهام محددة بدقة، وسيتم تنشيطهم عند وقوع الحرب، أو هم في الطريق إلى مراكز يجمعون فيها المعلومات التجسسية المطلوبة. هؤلاء المجهولون الكبار والصغار يجلسون في الوزارات، وغرف

السكرتاريا، ومكاتب الإدارة والتقنية والرسم، ويثرون وزارة أمن الدولة في برلين - بانكوف، بسيل معلومات جديدة لا يتوقف. انتقل مركز ثقل التجسس، في المرحلة الخامسة، من المجال العسكري إلى المجالات السياسية والاقتصادية والتقنية.

تغطي الجاسوسية الشرقية آخر وضع بلغته العلوم الطبيعية في الغرب، وعمل الأحزاب والاتحادات، والأحداث الاقتصادية. إنها تريد ببساطة معرفة كل شيء، في حين لا يجد الطرف الآخر صعوبة في اختراق جمهورية ألمانيا الاتحادية، التي تفتقر إلى شرطة دولة سرية كلية الحضور، ويستخدم مواطنوها اللغة ذاتها المستخدمة شرق ألمانيا، وتربطهم صلات قربى بمواطني الدولة الألمانية الأخرى، ويجهل رأيها العام طرق الجاسوسية وطرقها ووسائلها، ويفتقر إلى اليقظة الضرورية حيال الأعمال التجسسية المعادية، هذا إذا لم نقل: إن كتلته الأكبر عديمة الاكتراث وساذجة. صحيح أنها تقرأ روايات وتشاهد أفلاماً عن الجاسوسية، تحفل بالفضول والإثارة، لكنها لا تطرح على نفسها أسئلة حول المخاطر والتهديدات المحتملة، الناجمة عن الجاسوسية، بالنسبة إلى أمن الدولة الألمانية.

من الضروري قول كلمة إضافية حول الجاسوسية العسكرية والتجسس على أسرار عسكرية. إن أهميتها تتراجع، ولم يعد اهتمامها ينصب على انتشار القوات، بل يستهدف قبل كل شيء على الأسلحة الحديثة ومنظومات الأسلحة وتطورها. إلى هذا، غدا الفضاء المجال الذي يمكننا من إخضاع تحركات القوات لرقابة دائمة، والذي يفيد الطرفان منه في الرصد المتبادل، وجعل المفاجآت مستحيلة الوقوع. هذا الاستطلاع الجوي من طراز جديد كشف عن إمكانات غير محدودة، أدت إلى بلوغ البصريات والتصوير عن بعد درجة من الكمال يكشف معها أصغر الأشياء، ويعرف جميع أنواع التغير التي قد تصيب الهيئات الأرضية.

نقطة الاستخبارات الحساسة

هناك نقطة في الجهاز الاستخباري السري تبقى حساسة على الدوام، يلخصها السؤال حول ما إذا كانت المعلومة التي تم الحصول عليها، أو تحليل الوضع الذي تم إجراؤه، سـ«يصلان» فعلا إلى «فوق»، وسيحظيان بالاهتمام، وسيتم استخلاص النتائج الضرورية منهما. إن أفضل جهاز استخبارات يمكن أن يعمل في فراغ، هذا ما حدث إبان الحرب العالمية الثانية بسبب هتلر: الذي رفض الاهتمام بنتائج الاستطلاع الجوي، رغم أنها كانت تقدم معلومات سريعة، دقيقة، وكاملة معظم الأحيان عن العدو وتحركات قواته، كما رفض أن تؤثر تحليلات الأوضاع، التي كانت تجريها شعبة «الجيوش الأجنبية شرق»، في قراراته، أو تحددها. هكذا ضاعت إنجازات الاستخبارات الألمانية. وتبدد إنجاز قيادة القوات المسلحة الأعظم سنة 1944، لأن المفاجأة الناجحة لم تكن كافية بمفردها لإحراز النجاح النهائي، في ظل موازين القوى التي كانت قائمة آنذاك. بالمقابل، بالغ الحلفاء الغربيون في تقدير معلومات استخبارية ظنوها أكيدة، وسمحوا عند نهاية الحرب في سنة 1945، بحرفهم عن هدفهم الأصلي برلين، من خلال «حصن ألب» توهموا وجوده. وللعلم، فإن أشياء كهذه ستحدث دوما، لأنها متأصلة في النواقص والعيوب اللصيقة بالطبيعة البشرية. بالمناسبة، يمكن بالتأكيد تقييد عدد وحجم ونتائج الإخفاقات تقييدا شديدا في هذا المجال، إذا ما رأينا في التاريخ معلما لنا، يضع بصورة متكررة أمام أعيننا ما هو ضروري وصحيح في الوضع الملموس، ويواجه به الإهمال، الذي يقود إلى الهلاك.

عبر الحرب العالمية الثانية الباقية

ثمة عبر علينا استخلاصها من الحرب العالمية الثانية، لأنها عصارة

تجاربها، نوردها في ما يأتي:

1 ـ يعتبر استخدام الاستخبارات، مثله مثل قيادة الدولة وإدارة الحرب، فنا يتعين بالسياسة ويرتكز على أرضية علمية. فلا بد أن يتحرر من أي تفكير رغبي، ويكون يقظا حيال التضليل والخداع الذاتي.

2 ـ ليس الحصول على المعلومات السرية غير مجال جزئي وحسب من العمل الاستخباري، الذي يجب أن يعرف كيف يستنفد إمكانات تدبير المعلومات جميعها، التي يتيحها الأدب ووسائل الإعلام بأنواعها المختلفة، والأحاديث الاستعلامية والإمكانات التقنية الجديدة.

3 ـ ثمة أمر حاسم الأهمية هو وجود «رأس» موحد لأجهزة الاستخبارات ودوائر الأمن جميعها، ينسق ويقوم ويحلل ويخبر الحكومة بانتظام بالمعارف التي تم الحصول عليها. ولا بد أن يكون التعاون وثيقا هنا.

إلى ذلك، لا مفر من تعريف الرأي العام بالقضايا الاستخبارية، لأنه يمكن كشف جميع الجواسيس على وجه التقريب، عندما يكون الرأي العام يقظا. نذكر هنا بالمدبرة المنزلية السيدة روزن، التي كشفت خائن بلده العقيد السويدي فينرشتروم. ثمة دوماً أخطاء يرتكبها الجواسيس، تتكفل بكشفهم، خاصة وأنه لمواطني الدولة في المجتمع الحر التزامات مغايرة لالتزامات مواطن الدول الشمولية، حيث لشرطة الدولة السرية بأجهزتها المختلفة حضور كلي.

تعتبر «التعبئة الأخلاقية» إحدى مستلزمات أمن الدولة، وضرورة ازدادت أهميتها باضطراد. ينتمي إلى هذه التعبئة الوعي السياسي العام وإدراك المسؤولية المشتركة. «اليقظة هي ثمن الحرية!»: هذا الشعار لا يصلح فقط للشراكة في حلف شمال الأطلسي، بل ينطبق أيضاً على جميع مواطني الدولة الواعين، فالحرية لها ثمن علينا دفعه، يكمن في مقاومة البدايات، ورفض إخضاع حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وشعورنا

وفكرنا، لإملاءات موظفي أي نظام. أليس لنا طريقتنا الخاصة، تاريخنا الخاص، وبذلك التزامنا التاريخي العالمي؟. يعتبر جهاز الاستخبارات اليوم حارسا ميدانيا وموقعا متقدما في ميدان الدفاع عن هذه القيم.

obeikandl.com

كلمة أخيرة

آلة الترميز «إنيجما»

بقلم ليو هيب: عميد خارج الخدمة[1]

حاول رجال الدولة والقادة الميدانيون، منذ أقدم الأزمنة، استخدام شيفرة سرية لحماية الأخبار من نظرات غير المفوضين بمعرفتها، أكانت أوامر أم بلاغات أم معلومات مهمة من مختلف الأنواع. لم يكن جايوس يوليوس قيصر، بالشيفرة السرية التي حملت اسمه، أول من فعل هذا، لكنه كان أشهرهم من دون شك.

بمرور الزمن، نشأت في الدول المختلفة، وخاصة في القوى العظمى،

(1) بعد مناصب متنوعة في قيادة الأركان العامة، كان هيب -بين أشياء أخرى - رئيس أركان فيلق، وغدا في آب/أغسطس من سنة 1944 رئيس أركان استخبارات الجيش ونائب جنرال سلاح الإشارة البرت يراون. بعد توحيد قيادة الجيش وقيادة القوات المسلحة وتقسيم قيادة القوات المسلحة إلى قيادة عليا شمال وقيادة عليا جنوب في آذار/مارس من سنة 1945، تولى هيب قيادة اتصالات استخبارات القوات المسلحة لدى القيادة العليا جنوب في منطقة بيرشتيسجادن / بادرايشنهال. أنهى هيب خدمته في الجيش الاتحادي كعميد وجنرال آمر للفيلق الرابع في أولم.

obeikandl.com

أجهزة خدمة خاصة على هذا الشكل أو ذاك، مهمتها وضع شيفرة سرية خاصة بها، وفك رموز الشيفرات السرية الأجنبية.

وقد جسد هذه الأجهزة في الرايش الألماني بعد الحرب العالمية الأولى مكتب الترميز في وزارة الخارجية ومركز ترميز قيادة الجيش، الذي كان مندمجا في جهاز الاستخبارات السري (المكافحة). وقد تحول المركز الأخير قبل الحرب العالمية الثانية، بوصفه شعبة ترميز من «المكافحة»، إلى مجموعة خدمة اتصالات قيادة القوات المسلحة في أركان قيادتها العليا.

استخدم في الاتصالات اللاسلكية الديبلوماسية والعسكرية العامة حتى العشرينيات من القرن الماضي ما كان يعرف بالشيفرة السرية اليدوية أو طريقة التشفير اليدوية. لكن الرايش الألماني بدأ في غمرة الحرب العالمية الأولى يطور آلات ترميز (تشفير) جديدة. وفي نحو سنة 1928 أدخل جيش الرايش إلى الخدمة آلة تشفير أسماها إنيجما (كلمة يونانية تعني الأحجية)، وهي جهاز مفاتيح نصف أوتوماتيكي، طبق ما عرف بطريقة الاستبدال، واستخدمه حتى نهاية الحرب العالمية الثانية القيادة العسكرية العليا، وجميع فروع القوات المسلحة، وانتشر حتى مستوى فرقة في الجيش، وتم تحسينه بمرور الوقت من خلال تجهيزات إضافية ملائمة.

اعتبرت «الإنيجما» عند إدخالها إلى الخدمة آلة ذات متانة تشفيرية رفيعة. لكن الجانب الألماني أدرك في مرحلة مبكرة نسبيا أن «حصانتها ليست مؤكدة»، واعتبر أن فك رموز الرسائل البرقية التي تم تشفيرها بواسطتها أمر ممكن، في حال توفر شروط محددة. ثم أيد القسم المختص بمراقبة موثوقية الشيفرة السرية الخاصة لدى شعبة التميز في شهادة حررها نحو سنة 1944 سحب «الإنيجما» من التداول. لكنه لم يتوفر آنذاك بديلا أفضل، رغم بذل جهد دائم لابتكار أجهزة جديدة. هذا الظرف جعل الألمان يحاولون حتى

نهاية الحرب وضع لوائح تطبيقية محددة، كانت لا تني تعدل وتزداد تشددا، لمنع العدو من فك شيفرتهم في وقت مبكر.

استخدمت القوات المسلحة إلى جانب الـ«إنيجما» الإضافة (ج) إلى المبرق، التي استعملت كجهاز تشفير من قبل الدوائر القيادية العليا في الرسائل والاتصالات اللاسلكية. هذه الإضافة (ج) كانت، بقدر ما هو معروف اليوم، عصية على الاختراق[114].

اقتصرت اتصالات القوات المسلحة اللاسلكية خلال الحرب العالمية الثانية على ميدان القتال أساسا. وكانت تموه أو تحجب بواسطة تدابير تمويه ولوائح تخاطب ضعيفة الحماية ضد الاستطلاع اللاسلكي المعادي، لكنها اعتبرت مرضية رغم ذلك، بما أن الأخبار التي يتم تبادلها كانت تتغير بسرعة تبعا لمجريات ميدان المعارك، كما كان ممكنا ترجمتها إلى أفعال حربية. اشتغل الجانب الألماني لتطوير لغة تشفير صالحة للاستخدام الميداني، إلا أنه لم يتم بلوغ نتيجة قابلة للتطبيق حتى نهاية الحرب.

لم تكتف وزارة الخارجية باستعمال الـ«إنيجما» في اتصالاتها الديبلوماسية البرقية، بل عملت بشيفرة سرية أخرى كانت «حصانتها ليست مؤكدة»، لكنها لم تكن ملائمة للقوات المسلحة، بسبب حجم اتصالاتها البرقية الهائل، والتغير المفاجئ والمتكرر لمواقعها وعلاقات الإمرة فيها.

أخبرتنا إصدارات فرنسية وبريطانية وأميركية قبل بضع سنوات أنه كان باستطاعة البريطانيين منذ سنة 1941 فك برقيات القوات المسلحة الألمانية، التي كانت تشفر بواسطة الـ«إنيجما»، وأن هذا كان يتم في وقت ملائم إلى درجة أن القيادة العسكرية كانت تتمكن من تقويم ما فيها من معلومات، واستخدامها في قراراتها.

كان من الصعب على الجانب الألماني، الذي فاجأته هذه الإصدارات، فحصها والتأكد من صحتها، بسبب افتقاره إلى مستنداتها الأصلية أول الأمر.

بعد أكثر من ثلاثين عاما على نهاية الحرب العالمية الثانية، فتح البريطانيون الآن أراشيفهم بصورة جزئية. كما التقى سنة 1978 عارفون بالخبايا وضباط ومؤرخون، بينهم عدد كبير ممن شاركوا مباشرة في الحرب العالمية، في ندوة مشتركة كبيرة عقدت في جمهورية ألمانيا الاتحادية، لتبادل الخبرات والاستنتاجات.

لن يشك أي مراقب نقدي ألماني، من الآن فصاعدا، في واقعة أن الجانب الآخر تمكن في مرحلة مبكرة جداً من فك شيفرة آلة «إنيجما»، التي اعتبرتها القيادة العملياتية والتكتيكية الألمانية موثوقة نسبيا حتى نهاية الحرب، وأنه كان بوسع البريطانيين فك رموز تلك الرسائل البرقية العسكرية الألمانية، التي كان استطلاعهم البرقي يلتقطها.

عندما يطرح السؤال حول أسباب نجاح الحلفاء في فك شيفرة الرسائل البرقية لـ «إنيجما»، نستطيع إيراد ما يأتي:

- الخيانة التي ارتكبها قبل الحرب العالمية الثانية ألمان عملوا مع أجهزة الاستخبارات المعادية، وأوصلوا مستندات حول بناء الآلة التقني (وتذكر الأدبيات تفاصيلها).
- الانتهاك الفظ جزئيا، الذي مارسته المراكز اللاسلكية في القوات المسلحة الألمانية تجاه اللوائح التطبيقية المتعلقة باستخدام «إنيجما». نشير، من أجل توضيح هذه النقطة، إلى أن تدريب كوادر سلاح الإشارة لم يكن على ذلك القدر من الجدية، الذي عرفه في ما مضى، بسبب التوسع الهائل للقوات المسلحة قبل الحرب العالمية الثانية، وخاصة بعدها.
- المعارف الكبيرة والإنجازات البارزة لأجهزة فك الشيفرة البولونية والفرنسية والبريطانية. إلى هذا، فإن جهاز فك الشيفرة البريطاني، الذي يجب أن نعزو إليه بصورة حصرية تقريبا النجاحات الفعلية لفك الشيفرة الألمانية خلال الحرب، حظي بدعم هائل من أعلى المواقع السياسية

والعسكرية، فتمكن من بناء منظمة شاملة، رفيعة القيمة علميا وتقنيا، بل إنه نجح آنذاك في بناء آلة حسابية شبيهة بالكمبيوتر أسماها البريطانيون «القنبلة»، كانت في وضع يمكنها من إجراء عمليات حسابية كبيرة بسرعة ودقة غير مسبوقتين حتى ذلك الحين.

- الحفاظ على السرية المطلقة في كل ما يتعلق بطريقة عملها ونتائجها، حتى إنه لم تنشر أي معلومات عنها إلا بعد أكثر من 25 سنة على نهاية الحرب. كما تشير جميع الظواهر إلى أن البريطانيين لم يخبروا حلفاءهم السوفيات بنجاحهم في فك شيفرة الـ«إنيجما»[115]. ليس معروفا، بالمقابل، ما إذا كان هؤلاء قد نجحوا بدورهم في فك شيفرة الرسائل البرقية الألمانية، التي كان يتم إرسالها بواسطة الـ«إنيجما».

لدى إجراء مقارنة نقدية، يبدو أداء الجانب الألماني سيئا أول الأمر خلال صراع أجهزته الخاصة بفك الشيفرات ضد الحلفاء الغربيين. بيد أن بحثا متأنيا سرعان ما سيثبت أن هذا الجهاز أحرز بدوره نجاحات مرموقة في فك الرسائل البرقية العسكرية والديبلوماسية المعادية، وأن الجهات المتخصصة في الدول المعادية أخفقت آنذاك في بناء آلات تشفير حصينة للاستخدام العسكري. وإنه لأمر مؤسف جداً أن لا توجد بعد دراسة شاملة، موثوقة علميا وقائمة على وثائق أصلية، حول طريقة عمل ونتائج ونجاحات جهاز فك الشيفرات الألماني.

ثمة تأكيد نجده في كتابات كثيرة، يزعم أن نجاحات جهاز فك الشيفرات البريطاني كانت حاسمة بالنسبة إلى مآل الحرب العالمية الثانية. هذا الزعم مبالغ به من دون شك، ذلك أنه إلى جانب الاستطلاع الأرضي والجوي، وكذلك الاستخبارات السرية، كان الاستطلاع اللاسلكي مع جهاز فك التشفير مصدرا واحدا فحسب، وإن كان وفير العائد، من مصادر الحصول على المعلومات حول العدو. إلى هذا، يجب أن نأخذ في الحسبان

أن القوات الألمانية المسلحة كانت تمتلك حتى اليوم الأخير من الحرب العالمية الثانية شبكة سلكية ممتازة غطت سائر الجبهات على وجه التقريب. وكانت الفيالق المدرعة تتصل بصورة يومية تقريبا مع القيادة العليا بالهاتف، خلال حرب الحركة السريعة، لأنه كان ممنوعا إصدار الأوامر والبلاغات المهمة عبر اللاسلكي، عندما تتوفر الاتصالات السلكية. إن شعار رئيس اتصالات القوات المسلحة، جنرال سلاح الإشارة إيريش فيلجيبل، الذي يقول «الإبراق خيانة وطنية»، كان متأصلا في دم ولحم كل قائد في سلاح الإشارة. كان فيلجيبل يعرف تمام المعرفة لماذا قال هذا التأكيد المقتضب، فهو لم يكن فقط خبير لاسلكي مجرباً، بل كان كذلك خبير استطلاع لاسلكي محنكاً، مثلما كان ذات مرة قائد مركز التشفير في قيادة الجيش. إلى هذا، فإن التعليمات العملياتية بعيدة المدى، التي كانت توسم غالباً بدرجة من السرية تجعل منها شيئاً «خاصا بالرئيس»، لم ترسل مطلقا باللاسلكي، ولم ترسل عموما بالهاتف، بل كانت ترسل بالبريد. نذكر هنا بهجوم الأردين، الذي كان مفاجأة تامة بالنسبة إلى الحلفاء. صحيح أن هذه الأسس انتهكت هنا أو هناك، كما كانت هناك ظروف خاصة في ميادين قتال معينة مثل شمال أفريقيا، حتمت استخدام اللاسلكي في الاتصالات كما في عمليات جوية وبحرية معينة.

لا تمس هذه الملاحظات التقييدية بالإنجازات البارزة لخبراء بولونيا وفرنسا وبريطانيا في الشيفرات السرية خلال تلك الفترة. إن أهمية عملها بالنسبة لإدارة الحرب الحليفة، والضرر الذي سببته للجانب الألماني، كانا هائلين بالتأكيد. وتشير المستندات المتوفرة حتى الآن إلى أن نجاحات جهاز فك الشيفرة البريطاني كانت عظيمة بصورة خاصة في رصد وفك شيفرة إتصالات الألمان اللاسلكية قبل وبعد شمال أفريقيا، وفي معارك المواكبة التي عرفها المحيط الأطلسي.

ملحق

المتنصت عليهم في الكوت لورين 1916/1915

فهرس العمليات وأسماء التغطية

اختصارات

الأدب الأحدث حول الملاحظات

الخرائط والوثائق

obeikandl.com

obeikandl.com

المتنصت عليهم في الكوت لورين 1916/1915

1

كانت حرب المواقع على الكوت لورين، وفي مرتفعات الماس بين الماس والموزل، التي جرت مطلع سنة 1915 واستمرت حتى صيف سنة 1916، التدريب الذي خصعنا له استعدادا لمعركة اسلحة لا تعرف الرحمة، كما تبين فيما بعد. كنا آنذاك فتيانا وكذلك كانت الحرب فتية أيضاً. وكنا نتحرق لخوض المغامرات الكبرى المرتقبة. مهما يكن من أمر، فإنه لم يكن بوسع المرء العثور على مغامرة على مرتفعات الماس، حيث كانت الجبهة قد استقرت منذ وقت طويل، ما لم يبحث عنها. كانت الحرب حاضرة في كل مكان، كما يقال، وكانت حرب المواقع قد ترسخت: خمسة أيام هدوء، في مكان بعيد وراء الجبهة معظم الأحيان، في قرية لوترنجية رمادية اللون، تعقبها خمسة أيام استنفار في معسكر يقع داخل غابة، تليها أيام خمسة من القتال على خط جبهة الأول، ضمن أحد الأفواج على الدوام. هكذا سارت الأمور من شهر لآخر. كانت المواقع قد تطورت إلى نظام مدافن، كان من الضروري تعزيز مخابئه بصورة دائمة، لمواجهة تزايد دقة رمي المدفعية الفرنسية وفاعليتها، وكانت قد حفرت سراديب منجمية أيضاً في الأرض الصخرية. خمسون إلى ستون قذيفة يوميا، من عيار خفيف غالباً، وبعض الإغارات الليلية والصدامات النارية بالرشاشات، ذلك ما كانته الحرب آنذاك

في قطاعات كثيرة من الجبهة، بين مرتفع كومبر إلى سان ميهيل ومن هنا إلى غابة الكهنة قرب جسر الموسون على نهر الموزل.

انفردت «زاوية كلاينهانز» في غابة بوشوت، التي حملناها إسم قائد فوجنا، بكونها نقطة اشتعال معارك الخنادق. هنا، كانت تجري حرب ألغام لا تنقطع تقريبا فوق وتحت الأرض. وكانت الخنادق والحفر على مرمى حجر في مواجهة بعضها البعض. وقد انخرط القناصة في مبارزات مثيرة لطالما أفضت إلى نهايات قاتلة، من وراء سواترهم الفولاذية بفتحاتها الضيقة، المخصصة للرؤية، القائمة بين متاريس من أكياس الرمل. كانت الألغام أكثر ما نخشاه: بعد فرقعة ضعيفة، كنا نراها وهي تترنح في الهواء، فإن كان المرء سريع البديهة، قفز إلى المخبأ التالي قبل أن تنفجر محدثة دويا يصم الآذان، يجعل الأرض تهتز وتمور. لذلك، كان الجنود يواصلون بحمية بناء المواقع، وكانت الخنادق تزداد عمقا، وتقام خنادق انتقال جديدة، وترتق مراراً وتكرارا في الليل العوائق السلكية المدمرة، فإن صعدت، عندئذ، في الجو رصاصة مضيئة وهي تئز، وجب على المرء أن يتجمد ويتحول إلى عمود من ملح.

كنا نرى القليل من الفرنسيين، فالحرب كانت غير شخصية. لكننا غالباً ما كنا نسمعهم يتحدثون، بسرعة وغرابة وأصوات مكتومة، عندما نكون في الخندق، الذي يمكن انطلاقا منه إلقاء قنابل يدوية على الحفر المعادية. ثم إنه كان هناك في أحد قطاعات الجبهة شارع يلتوي قرب حافة غابة: عندما كان المرء يزحف من خندقه، ويتقدم عليه بضع مئات من الأمتار إلى الأمام، كان يرى فسحة بعيدة بين الأدغال نزولا إلى فو ـ لي بالميه، المكان الصغير، الذي نزل به دمار قليل. عندئذ، كان المرء يرى بالمنظار الكائنات الزرقاء كالأفق، في مجموعات قرب مطابخهم الميدانية، أو هم يلعبون

الورق، أو يجلسون من دون حراك في الشمس. كان ينطلق هناك أيضاً نداء من حين لآخر، ولم تكن أي طلقة من جانبنا تخدش ذلك السكون، لأنه كان يجب علينا الاقتصاد في الذخيرة. هنا، بدت الحرب غالباً وكأنها نائمة. وفي بعض الليالي، كان يسود هدوء عميق، بعد إطلاق رصاصة من بندقية حارس وارتطامها بهدفها.

ثمة حدث واحد على مرتفعات الماس كان مثار خوف عام: إنه التبديل. عندما كانت الكتائب تتقدم ليلا إلى المواقع، أو ترجع إلى مقرات الاستراحة، كانت تتلقى «صواعق»، وهي إغارات نارية غاضبة تستهدف الطرق الغابية، التي تمر غالباً على بعد كيلومترات كثيرة وراء الجبهة. هكذا كانت كثيراً ما تحدث خسائر، تصير ثقيلة أحياناً، عندما كانت القنابل تصيب قافلة تسير. كانت مطابخ الميدان وعمليات نقل الذخيرة مهددة بصورة خاصة. طبيعي أن طريق الغابة الكبير، الذي كان يقود حتى فردان، كان غالباً ما يتعرض لنيران إزعاج، لكن القنابل كانت تتساقط كالمطر في ليالي التبديل.

2

كان الفرنسيون يعرفون متى يتم التبديل عندنا. هذا أمر أكيد. وقد أصابوا بنيرانهم المكثفة مواضع حساسة منا، في أوقات محددة. ولكن من أين عرفوا بهذه الدقة مواعيد مجيء القوات البديلة ومغادرتها؟. لقد تغير الدور، وانتقل المرء من خمسة إلى أربعة ثم إلى ستة أيام، لكن هذا لم يساعد أبدا: لقد كان واضحا أنهم يتلقون دوماً خبرا صحيحاً وفي الوقت المناسب، فيطلقون النار. ولكن ومن أين كانت تأتي المعلومات وكيف كانت تبلغ؟. كانت الإجابة في متناول اليد: لا بد أنه كان هناك جواسيس، فرنسيون بطبيعة الحال، يتجسسون ويتنصتون علينا، ويبلغون عن كل تحرك

مقرر للقوات. يتعلق الأمر إذن بمدنيين فرنسيين، ولكن أي مدنيين؟. لقد كنا نستطيع عدهم على أصابعنا العشرة في منطقة فرقتنا: ذلك أن قرية دومبيير كانت قد أخليت منذ وقت طويل من المدنيين، ولم يكن هناك قرى أخرى في قطاعنا وصولا إلى منحدرات الكوت لورين، التي كانت تذكرنا بالألب أو بالشبيسآرت: حيث كانت تقع هاتوشاتل، مقر الاستراحة بالفسحة البعيدة التي تتيحها لأنظارنا عبر سهل الفوفر، ولم يكن هناك غير «فراخ الدوري» مع أمهاتها المشلولات، ولم نر خلال أسابيع طويلة مدنيا واحدا، بل فقط أدغال وجنود ميدان رماديي اللون، يمشطون الغابات ولا يجدون مع ذلك جاسوسا أو فارا واحدا من الجبهة. لقد كنا نتخبط في العتمة تماما.

إذا كان الأمر لا يتعلق إذن بمدنيين يتجسسون عندنا، فلا بد أنهم كانوا بالتأكيد جنودا فرنسيين، يعرفون المنطقة جيدا. صحيح أن الجبهة كانت مغلقة على طولها بموانع من الأسلاك الشائكة والألغام، تزايدت كثافتها إلى أن غدت غير قابلة للاختراق، لكنه كان يجب إبقاء ممرات ودروب مفتوحة أمام مجموعات الرصد التابعة لنا، ولم يكن هناك حراس موزعون على كل مكان بكثافة توزعهم في «زاوية كلاينهانز». كانت دورياتنا تتوغل بعمق بين فينة وأخرى وراء الخطوط الفرنسية، فلم لا يتوغل الفرنسيون بعمق وراء خطوطنا؟. ألم يكن هناك في هذه المنطقة بعض من يتحدثون الألمانية؟. ألم يخدم ألزاسيون ولوترنجيون في الجيش الألماني، قبل أن يفروا في الحرب إلى الفرنسيين؟. لقد انتشر هوس الجاسوسية، عندما لم تتراجع الإغارات النارية على تبديل قواتنا، بل تزايدت حدتها. تبعت الشائعات الخوف، والأفعال الموزونة، فمنع الضباط من الذهاب إلى القطاع المجاور، إن كانوا لا يعرفونه هناك. لأن القوم كانوا يتحدثون هنا البافارية أو البفالزية، وفي الجانب الآخر من حدود الفرقة اليمنى السيليزية، ولأن اللهجة السيليزية العليا كانت تجاور لهجة جيرهارد هاوبتمان، أو «الفاسر بولاكيش»، أي لغة

الحدود الألمانية / البولونية. هنا، كان من الحماقة المزاح مع البافاريين، الذين كانوا يلقون القبض على أي شخص يتحدث هذه اللغة. وقد أطلقت النار على ضابط من هندسة الخنادق ضل طريقه، وتعرض آخر من أركان الفرقة ومرافقه لاستجواب مضن، لمجرد أنه كان يضع رباط عنق غريب الشكل. طبيعي أن من اعتقلوه زعموا أنهم رأوا إشارات ضوئية، وأن الناس كانوا يتهمون بعضهم البعض، لكنه لم يتم القبض على جاسوس واحد. لقد كنا في مواجهة لغز.

. . . إلى أن وشى الفرنسيون بأنفسهم ذات يوم. لقد كان هذا ممكنا أيضاً في هذه الحالة النموذجية ذات الأهمية التاريخية. والحق أن تقرير الجيش الفرنسي هو الذي قادنا إلى الأثر الصحيح: ذات يوم شتوي صافٍ من أيام كانون الأول/ديسمبر سنة 1915، تلقت «زاوية كلاينهاينز» قصفا متواصلا شاركت فيه جميع أنواع المدفعية على طول القطاع، كما أتذكر. لم يدم القصف وقتا طويلا جدا، لكن نتائجه كانت مدمرة: فقد مسحت الحفر الأمامية تقريبا، وطمرت سلسلة ملاجئ أرضية، ودمرت مواقع رشاشات، وسحقت القنابل المباشرة هذا الخندق أو ذاك. لكن الخسائر بقيت قليلة نسبيا، وظلت دعائم الحفر في وضع دفاعي جيد، وهو ما تم إبلاغه هاتفيا على الفور «إلى الأعلى». وقد لفت الأنظار أن الهجوم، الذي كان منتظرا بعد نهاية القصف، لم يقع.

في اليوم التالي، قرأنا نصا في تقرير الجيش الفرنسي يقول: «أحرزت نيران مدفعيتنا المركزة أفضل النجاحات التي يمكن تحقيقها في غابة بوشو. وكان بوسع رصادنا الخاصين ملاحظة. . . الخ». لعب الفأر في عب قادة الكتائب على الجبهة، الذين قرأوا التقرير: طبيعي أنهم تحدثوا بالهاتف حوله. ما معنى «رصادنا الخاصين؟». لقد كانت «زاوية كلاينهانز» بالذات

صعبة الرصد، فهي وسط الغابة، التي لم يكن قد بقي منها الآن على كل حال غير جذوع الأشجار، لكنها كانت رغم ذلك بمنأى عن الرؤية من أي جانب. أي رصاد كان يوجد، إلى جانب من نعرفهم منهم؟. لمعت فجأة فكرة في رأس ضابط الاستخبارات، الذي قرأ تقرير الجيش الفرنسي: هؤلاء الرصاد الخاصون كانوا يستمعون إلينا، حيث الحفر أقرب ما تكون بعضها إلى بعض. لا بد أنهم يستطيعون الدخول إلى محادثاتنا الهاتفية، ولكن كيف وأين؟. قبل هذا، كانت قد صدرت تعليمات عامة مصحوبة بأمر يومي من قيادة الفرقة يقيِّدان استخدام الهاتف قدر المستطاع في الخط الأول، فإن كان لا بد من استخدامه في حالات الضرورة، فمع كلمات وأسماء سرية. لقد بدا هذا لنا آنذاك بلا معنى، بل وأمرا يدعو إلى الضحك. لكننا صحونا الآن، وابتكرنا كلمات سرية مختلفة الأنواع كي لا نشي بأنفسنا. لقد تواصلت الإغارات بالنار على تبديل القوات، واستمر القبض على دوريات الحراسة، وتواصل سحر النار، عندما كان ضباط كبار يعلنون رغبتهم في زيارة الخط الأمامي، لكن هذا كله لم يعد مؤكدا ومنتظما كما في السابق.

تم، صيف 1916، إلقاؤنا في أتون معركة فيردان، فبدت لنا عندئذ حرب المواقع بين الماس والموزل كنزهة مريحة.

3

انقضى قرن تقريبا، قبل أن يرفع الستار عن هذه الجاسوسية من دون عملاء. فقد ترجم إلى الألمانية تقرير نشر في شكل كتاب، عنوان أصله الفرنسي «الاستماع أمام فردان»، والترجمة الألمانية «خفارة استماع أمام فردان»، وكان من الأفضل ترجمته بـ«في موقع تنصت...». لقد كتبه الإعلامي الفرنسي بيير أندريو، الذي أفاد من ملاحظات الكابتن هنري موران. وقد صار الكتاب، بأثر رجعي، قراءة مسلية ومليئة بالعبر بالنسبة إلى

المعنيين بالأمر، وهم فوجنا الرابع، وكتيبتنا البافارية الثامنة، وفرقتنا الثالثة والثلاثون، الاحتياطي الرئيس السابق لميتز، بل وقطاع شعبة جيش فون شترانس بكامله آنذاك. كان الفرنسيون يتنصتون فعلا على مخابراتنا الهاتفية، وهم يخبروننا الآن كم عرفوا، ويقدمون لنا محادثات كثيرة بنصها الحرفي. ليس بوسع المرء غير أن يعجب لهذا كله. فقد كان حوار جرى يوم 21 أيار/مايو مميزا بالنسبة إلى حقيقة أن الفرنسيين كانوا يعرفون كما بالأمس عن تبديل قواتنا، كما كانوا يعرفون رطاناتنا في حينه. وقد تم تدوين الحوار من قبل مواقع التنصت الفرنسية على الجراند ترانشيه على الشكل الآتي:

13.30: «هل تعرف كيف يتم التبديل؟. أعني في أي تتابع؟.

يصرخ صوت ثالث في الجهاز: «من الذي تحدث هنا عن تبديل؟. لا يجوز الحديث عن التبديل على الهاتف. من هذا الولد الغبي، هذا البهيم؟.

«لقد سأل كيف يتم التبديل. . . »

«من أنت ؟»

«العريف كو. . . ».

«التحق فورا بمقر القيادة، مفهوم ؟».

«أمركم سيدي». مثل هذه الأعطال، الكثيرة التكرار، كانت هدف الفرنسيين ممن يتنصتون علينا. ولم يساعد في هذا السياق كثيراً أننا استخدمنا بصورة مبدئية منذ صيف 1915 أسماء تغطية وكلمات سرية، أساءت تقدير ذكاء الجانب الآخر، الذي كان يكتشف في معظم الأحيان معانيها الحقيقية بسرعة. وقد سجل التقرير كلمات التغطية، التي كانت المدفعية الألمانية تستعملها في آذار/مارس من سنة 1916:

«جهاز» يعني مدفعاً

«صفيحة» تعني هدفاً.

«صورة» تعني قنبلة.

«لقطة» تعني النار.

«المصور» يعني الراصد.

«الإضاءة» تعني الرصد.

«وقف الحديث مؤقتا» يعني وقف النار مؤقتا.

وعندما يقال: «ليس هناك اليوم شوكولاته»، فهذا يعني أن «المدفعية لن تطلق النار». وحين يسأل: هل نشعل غليونا صغيرا ؟» فهذا يعني إطلاق لغم!.

4

بعد التبديل، كانت زيارات الرؤساء من ذوي المراكز العليا أكثر ما يثير الخوف في قطاعات الجراند ترانشيه وغابة بوشو وغابة الفرسان، لأنه كان يوجد بصورة منتظمة عندئذ «صواعق»، حتى في ساعات الصباح المبكرة، التي كان يسود فيها غالباً الهدوء، احتراما لقهوة الصباح. يحل تقرير أرديو هذا اللغز من ألغاز المعلومات السريعة، الآتية من مصدر موثوق. هكذا يسجل مركز التنصت على الجراند ترانشيه يوم 21 تموز/يوليو سنة 1916 الساعة 6 صباحا الحديث اليتي:

«من يهتف ؟ صف الضابط سب... من على الهاتف ؟ نعم... حسنا، اسمع ! سيأتي صباح اليوم حيوان كبير، فلا بد من تنظيف الموقع وكل شيء. إصغ إلي، أنه حيوان كبير... تماما، كثور السهول ! مفهوم؟».

«تمام»

«حسنا، ستبلغ هذا، أليس كذلك ؟».

طبعا، شم الجانب الألماني رائحة ما يجري بالتدريج. في 16 نيسان/أبريل من سنة 1916 أصدر رئيس الأركان العامة للجيش الميداني رسالة سرية حول جهاز التنصت المعادي، تقول بين أشياء أخرى حول الكادر الفرنسي: «يتم انتقاء المتنصتين بأعلى قدر من العناية، وهم يتحدثون الألمانية بطلاقة، ويمتلكون قدرة كبيرة على استخدام أجهزة التنصت، ويعلمون أن أي انتهاك للسرية من قبلهم ستلاحقه المحاكم العسكرية كإفشاء للأسرار العسكرية، ويقدمون أنفسهم للجنود الآخرين كجنود عاديين يستخدمون الهاتف». هذا الكتاب السري وقع في أيدينا قبل فردان، شأنه في ذلك شأن أمر قائد الفوج بتاريخ 16 نيسان/أبريل 1916، الذي يقول إلى جانب أشياء أخرى:

«ثمة حافز يدفعني إلى الإشارة مجددا إلى كتاب فيلق الجيش الصادر بتاريخ 12 آذار/مارس 1916، الذي يمنع أي محادثة هاتفية في المنطقة الواقعة أمام مقر قتال الفوج... وأشير فضلا عن هذا إلى أمر الفوج، الذي يلزم المتخاطبين هاتفيا بالتقيد بذلك، وألفت أنظارهم إلى إطاعته، وأعلن أنه سيتم قطع أحاديثهم الهاتفية عند الضرورة».

5

أدت هذه الأوامر والتعليمات إلى زيادة صعوبة «الجاسوسية بلا عملاء» الفرنسية. لكن هذه الحالة النموذجية أظهرت أيضاً كم تعمل الاستخبارات بالذكاء، ولماذا تحمل اسمه باللغة الإنجليزية، وأكدت أن بين مقوماتها حدة الذهن والقدرة على الربط، وحركية الأفكار، التي لا تفشل حتى عندما تكون الطرق المألوفة مسدودة. هذا ما كان قد برهن عليه الكابتن موران، بواسطة

أجهزة التنصت التابعة له، وأثبته كذلك ضباط أركان ألمان في وقت متأخر، يرجح أنهم أفادوا من الفرنسيين ومن تقرير أندريو، وتعلموا أشياء تتجاوزه، لأن التجارب في هذا المضمار دولية الطابع، ليس بوسع أي سرية حمايتها، علما بأن الأمر يتعلق هنا على كل حال بمن يأخذها في حسبانه ويتفوق على غيره في تقويمها.

●

بدا لبرهة وكأنه تم إغلاق «مصدر الفرنسيين الموثوق» بفضل التعليمات الألمانية، التي منعت استخدام الهاتف في الخطوط الأمامية إلا في حالات الضرورة القصوى. لكن دوائر الخدمة الألمانية لم تضع في اعتبارها الغوايات، التي تتسبب التقنية بها، وأنه حين يكون ثمة جهاز هاتف، فإن المرء يستخدمه لأغراض خاصة وليس لاغراض وظيفية. وما هي الخطورة، إذا سأل المرء مثلا عن الأحوال، أو دعا رفاق الحرب إلى لحم أرنب مشوي، أو ثرثر بمنتهى البساطة قليلا. ثمة شيء كان من المحال تفاديه في «محادثات تافهة» كهذه، كذكر الأسماء وتغير الشركاء بوتيرة معينة، مما كان يقدم إشارات ذات مغزى بدوره. هكذا يبدأ الكتاب الفرنسي بالقول: «إن كل رتبة كان يتم تمييزها وتسجيلها في قوائم. وإذا كان بعض الضباط الألمان، الذين قاتلوا في قطاعات مراكز التنصت (كالمؤلف مثلا) سيقرأون هذا الكتاب اليوم، فإنهم سيصابون من دون شك بالدهشة، لكون محادثاتهم جميعها قد سجلت، ولأن الفرنسيين كانوا يعرفون في أيام معينة ما إذا كان هؤلاء سيسافرون في إجازة، وسيتناولون في طعام الغداء الكرنب أم لحم العجل مع الجزر الأحمر، ولأن أجهزة التنصت الفرنسية كانت تعرف من مصدر أكيد ما كانوا يسمونه «مزاج القطعات». أما تقاريرها الشاملة والدورية، التي أعاد الكتاب طباعة بعضها، فهي تبز أي ماتا هاري.

فضلا عن هذا، أفادت الاستخبارات الفرنسية من التنسيق مع «مصادر أكيدة» أخرى، كانت مليئة بالعبر في ما يتعلق بسائر التطورات اللاحقة، هي:

1 ـ التنظيم السلمي للجيش الألماني، الذي كان معروفا بوجه عام.

2 ـ رتب الجيشين الملكي البروسي والملكي البافاري، التي كان بمستطاع المرء شراؤها من جميع المكتبات.

3 ـ معرفة اللهجات الألمانية المختلفة.

هذه المستندات أثبتت أنها أداة عون من أول طراز بالنسبة إلى العاملين في قسم التنصت، كما يتضح من التقرير. وقد دعمها بطريقة مفعمة بالذكاء والتفهم المكتب الثاني التابع للجيش الثاني بإمرة المارشال اللاحق بيتان، الذي لم يعامل المتصنتين كموظفين تابعين بل عاملهم كاختصاصيين، تمكنوا من مواصلة عملهم بنجاح، حتى عندما تزايدت المحادثات الهاتفية الألمانية ندرة، وتناقصت المعطيات التكتيكية المباشرة في مضمونها. وإن كان الامر قد تغير بعد بدء هجوم الألمان الكبير شمال فيردان يوم 24 شباط/ فبراير 1916، الذي جعل من الأهمية بمكان معرفة تحركات القوات الكبرى في الوقت المناسب. والحق، أن أقسام التنصت عرفت بسرعة أن الاستعدادات الهجومية، التي كنا نقوم بها بطريقة استعراضية في قطاعاتنا، لم تكن غير خدعة، وأنه ليست لدينا القوة الكافية لشن هجوم على مرتفعات الماس في كومبر قرب ميهيل، مع أننا كنا نحن «الاستراتيجيين الشبان» نعتقد أن من الأفضل شن الهجوم هنا، لأن هجومنا من شأنه أن يوصلنا بسهولة إلى سهل الماس، ويضيق الخناق على فيردان المحاصرة. لكن هذا لم يحدث ولم يكن ممكن الحدوث، كما علم في الوقت المناسب قسم التنصت لدى الجيش الثاني الفرنسي.

تمكن الموقع الخاص في غابة بوشو من تخطي جميع تدابير الألمان

السرية، وأرسل الخبر التالي عن الكتيبة التي كنت أنتمي إليها: «تم ليلة 19 / 20 نيسان/ أبريل استبدال كتيبة المشاة البافارية الرابعة، المرابطة منذ أكثر من ثمانية أشهر في قاطع بوشو، بكتيبة أخرى لم نتمكن بعد من تحديدها عن كثب. ويبدو أن القوات التي احتلت مواقعها في غابة بوشو ليلة 19/ 20 نيسان/ أبريل قد استبدلت ليلة السادس والعشرين بقوات جديدة: لم نلاحظ منذئذ أي تبديل في قوات المشاة». لئن كان كتيبة المشاة البافارية الرابعة معروفة، فإن الكتيبة الثامنة لم تكن مجهولة بدورها، فقد تبعت للفوج البافاري الثامن، الذي كان يرابط زمن السلم في ميتز. كما تم التأكد من وجود فوج القواذف البروسي السابع على ميمنة كتيبة المشاة البافارية الرابعة، كما يخبرنا أندريو، ومعه طبعا الفرقة التي كان تابعا لها. إن معرفة الكتائب ترجع بصورة جوهرية إلى أسمائها الخاصة، التي كانت تتكرر الآن أيضاً في المحادثات الهاتفية، وكذلك إلى اللهجات المختلفة، التي استخدمها المتخاطبون الألمان. ويؤكد تاريخ كتيبة المشاة البافارية الرابعة دقة مواعيد الاستبدال المذكورة.

كان لنجاح قسم التنصت الفرنسي نتائج لاحقة أخرى، فقد أدى إلى امتناع الجيوش زمن السلم عن نشر قوائم برتب ملاكاتها، وتنظيماتها، لجعل التجسس والاستطلاع أكثر صعوبة. وكما حدث دوماً لدى تنفيذ هذه المهمة، فقد تم اختراع تقنيات جديدة واستخدامها، بما أن العمل الاستخباري لم يكن يوما مجرد جاسوسية بالمعنى الدارج، أو حتى بمعنى الشائعات، بل هو فن يستند إلى أرضية علمية، سبق الفرنسيون إليه غيرهم، وطبقوه أول الأمر في الكوت لورين سنة 1915 / 1916، قبل أن يتعلم الألمان أيضاً من تجربتهم هذه.

●

اقتبس الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى التصنت وطرقه، فلعب دورا في المجال التكتيكي بصورة خاصة، وعاد أول الأمر بنتائج تكتيكية وحسب. غير أن التفاصيل التكتيكية المتنوعة كثيراً ما كانت تكشف النوايا العملياتية، وتبين من خلالها الوضع الاستراتيجي العام. كما كان من المحال الاستغناء عنه، بما هو صورة تعكس نفسية وتكوين وطريقة تصرف الوحدات المعادية، علما بأن إمكانات استعماله كانت محدودة، بما أنه اشترط استقرار الجبهات، وارتبط بتجهيزات يستحيل مثلا تركيبها في حفرة فردان المقفرة، يتطلب تشغيلها بفاعلية أن تكون الخنادق في جميع الأحوال قريبة في مواجهة بعضها. لم يكن الاستماع ممكنا في حرب الحركة، لذا، كان اللاسلكي مصدر المعلومات الأكيد، وكان التنصت على اللاسلكي، ومكافحة اللاسلكي، جاسوسية بلا عملاء. وقد بدأ هذا الفصل الخفي يثير اهتمامي آنذاك، على الكوت لورين.

بدأت الجاسوسية بلا عملاء مع تقنية المعلومات، التي اكتشفتها كوسيلة يستطيع المرء اعتصارها والتغلغل إليها. لم يحدث هذا سنة 1915 لأول مرة في الكوت لورين، لكنه حدث بالتأكيد لأول مرة بطريقة رفيعة الفاعلية في الحرب، ثم تم الإعلان عنه والتعريف به. وقد أثار اهتمامنا لأول مرة، عندما كنا نكتشف أثناء الدوريات الليلية أن حرابا فرنسية غرست في الأرض قرب خنادقنا، وقد ربطها سلك مع الخطوط المعادية. كان هذا كافيا، مع توفر التقوية الملائمة، لتمكينهم من سماع أحاديثنا، كما علمنا فيما بعد، مع أنه بدا أمرا معقدا في الممارسة. وقد استخدم تقنيو المعلومات عندنا طاقاتهم كلها في سبيل ابتكار وسائط مضادة، تعطل عمليا جهاز الاستماع خلال الحرب، إلى أن أزاحه في النهاية اللاسلكي بشيفراته، التي ما فتئت تزداد تعقيدا.

●

تكاملت هاتان الوسيلتان خلال الحرب العالمية الأولى، مثلما تتكامل دوماً جميع إمكانات الاستقصاء السري. هذا ما يخبرنا به أندريو أيضاً، وإن تعلق الأمر هذه المرة بالجبهة بين الضفة اليسرى للماس والأرغو، مطلع سنة 1917.

استطاع مترجم المكتب الثاني في الجيش الفرنسي الثاني في سويي فك شيفرة رسالة لاسلكية قال نصها: «وصلت فرقة الحرس البديلة الثانية إلى فوزييه». هذا النبأ واجهته شكوك قوية. بعد يومين، كانت رسالة برقية ثانية تم فك شيفرتها تعلن أن ستناي هي مقر قيادة الفرقة. ذلك كان أمرا مكشوفا إلى درجة تقرر معها طرح سؤال استفساري فوري على المقر الرئيس الكبير. وقد حدث نوع من الإحباط، لأن المستندات المتوفرة كانت تقول إن فرقة الحرس الثانية سحبت من الفلاندرنن، بعد معارك عنيفة خاضتها هناك، وإنها ترابط الآن في بلجيكا في ميدان تدريب القوات المسمى بيفرلو. وبما أن فترة الراحة كانت تبلغ، حسب الخبرة، أربعة عشر يوما في أقل تقدير، فقد كان جليا أن النبأ جاء من عميل في بلجيكا، لكنه من المحتمل أن يكون نقله قد استغرق وقتا طويلا، بما أن مستندات المقر العام والرسالة البرقية، التي تم فك شيفرتها، اكدت أن الفرقة كانت الآن في مواجهة الجيش الثاني، فهل كان النبأ صحيحاً أم تزويرا هادفا تم تشفيره بصورة سطحية متعمدة؟. مهما يكن من أمر، كان هناك قول مقابل قول.

جاء النبأ الصحيح مرة أخرى من جهاز الاستماع الذي جاء بالنبأ الصحيح من مصدر أكيد: فالأحاديث التي جرت على الجانب الألماني وتم الاستماع إليها، تضمنت أرقام الألوية الثلاثة التابعة لفرقة الحرس الثانية. وبما أن موقع الاستماع لم يكن يعرف الفرقة ذاتها، فقد احتفل المكتب

الثاني بالانتصار، حين تم إبلاغه عنها، خاصة وأنه كان يعرف أرقام ألويتها الثلاثة. بالمقابل، تبين أن مستندات المقر الرئيس قديمة، لسبب جلي هو أن الجاسوسية من الطراز القديم كانت تعمل ببطء، وأن ما حصل عليه الهاتف واللاسلكي كان وحده راهنا. لقد أفصح اتجاه التطور هنا عن نفسه بوضوح لأول مرة.

تحولت معايشاتي لجهاز التنصت الفرنسي على مرتفعات الماس سنة 1915/ 1916 إلى حافز دفعني في فترة لاحقة إلى التعامل بتفصيل وإسهاب مع أساليب جمع المعلومات السرية في الحرب، سواء بهذه الطريقة أو بالطرق المشابهة، وإن كنت قد قمت بذلك لأول مرة بعد سنوات من الحرب العالمية الثانية وكارثة 1945.

انتهت فترتنا على مرتفعات الماس مطلع آب/ أغسطس سنة 1916، وانتهى معها زمن حرب المواقع. لقد كنا إلى ذلك الوقت مجرد جيران لمعركة فردان، كما يقال، هز القصف العنيف، الذي كان يسمع كهدير مظلم، أيامهم ولياليهم منذ نهاية شباط/ فبراير 1916. لكن الأمور بلغت ما كنا نتوقعه بحدس غامض: حين تحولنا نحن أيضاً إلى مقاتلين في «جهنم فردان» الرهيبة، مع أننا كنا نعتقد في آذار/ مارس أن المعركة التي بدأت للتو يمكن أن تقود إلى نجاحات سريعة، وكنا شهودا على الطريقة التي أخلى الفرنسيون بها سهل فوفر وتراجعوا إلى مرتفعات الماس، وتابعنا من أنف جبل هاتون شاتيل، بالمنظار وأجهزة الرصد البصري، تقدم قواتنا واستيلاءها على القرى واحدة بعد أخرى. بينما كانت سلالم الهجوم جاهزة في خنادقنا، وكنا ننتظر أمر الانقضاض في طوابير هجومية على تل الماس القريب، لكن انتظارنا كان ضربا من العبث، لأن نجاح هجمات الجانبين كان يتضاءل كل شهر في الشمال، بينما كانت أضاحيهم الدموية تتعاظم.

هل كانت السنة ونصف السنة من حرب المواقع بلا جدوى؟. لقد كان لدينا وقت كاف لتعويد أنفسنا على الحرب، وظهر من العسكريين المحاربون. وكنا قد شممنا رائحة البارود، وتلقينا مرات متجددة دوماً عمادة النار الأسطورية. وكان بمقدورنا اكتساب حضور الذهن وسط الخطر. وترسيخ أقدامنا عبر تجارب الأهلية الأولى، وتصليب معدننا في النار. كنا نعرف بعضنا البعض، ونعلم أن كل واحد منا يحتاج إلى الآخر، لكننا كنا نعرف أيضاً، حين خلفنا وراءنا أدغال غابات الكوت لورين، أن زمن الحرب الرومانسية، حرب البيئة المليئة بالمغامرات، قد ولى إلى غير رجعة. هنا كان الفرد والشخص يعد شيئاً، فكيف كان الأمر في ميدان الحفر، في نار القنابل، التي لا ينقطع انهمارها؟. لا زلت أستغرب اليوم أيضاً، كم كانت قليلة الأفكار التي صنعناها نحن الأصغر سنا لأنفسنا حول ما كان يجري، وكيف كنا نعيش اللحظة ونحدسها، غير راغبين في معرفة ما كان ينتظرنا بعد.

حول طبعة سنة 2002 الجديدة

(هانس بوشلر)

1 ـ قسمت سنة 1938 في أركان الجيش العامة شعبة «الجيوش الأجنبية» إلى «جيوش أجنبية غرب (الشعبة الرابعة)، وجيوش أجنبية شرق (الشعبة 12). أما مراكز التقويم، فيجب أن نذكر هنا منها:

ـ مكتب اقتصاد الحرب في القيادة العليا للقوات المسلحة.

حسب تعليمات الخدمة، الموجهة إلى رئيس شعبة الاقتصاد الحربي في مكتب اقتصاد الحرب، كان من واجبه القيام ـ بين أشياء أخرى ـ بالمهام الآتية: رصد حالة الاقتصاد الحربي لدى العدو، وكذلك لدى الدول الحليفة واقتراح التوصيات المطلوبة، التي يجب إصدارها إلى فروع القوات المسلحة من أجل إعداد الحرب الاقتصادية وخوضها. (انظر: بيرسي و .شرام: يوميات الحرب لقيادة القوات المسلحة، 1940 ـ 1941. الجزء الثاني. هيرشينج 1982، ص 894).

ـ مجموعة عمل مكتب الخارج لدى مكتب الخارج / المكافحة / وله المهام الآتية: حسب تعليمات الخدمة عن ترتيب قيادة الحرب في القيادة العليا للقوات المسلحة، إصدار 1-3-1939: يعالج السياسة الخارجية وقضايا القوات المسلحة لدى الدول الأجنبية.

ـ جمع البلاغات والأنباء العسكرية وغربتها (بيرسي و.شرام المصدر السابق، ص 886).

2 ـ تأسست مكافحة اللاسلكي مطلع سنة 1940 في برلين (خبر شخصي من السيد زورجنفرايه بتاريخ 28 -11 ـ 1988).

3 ـ عند بداية الحرب تحولت مجموعة عمل الخارج / المكافحة إلى مكتب الخارج / المكافحة مع مجموعتي عمل إحداهما متخصصة بالخارج والأخرى بالمكافحة. وعند حل المكتب بتاريخ 1 حزيران/ يونيو 1944 انتقلت الشعب (زد) (إدارة) والشعبة

الثالثة إلى مكتب أمن الرايش الرئيس، بينما شكلت الشعبتان الأولى والثانية مكتب ميل بقيادة العقيد في الاستخبارات جورج هانسن. وبعد اعتقال الأخير وإعدامه في 20 تموز/ يوليو تولى جنرال الـ إس.إس فالتر شلينبرج المكتب بالإضافة إلى عمله كرئيس للمكتب الرابع المتخصص بالأنباء الخارجية. لم يمس هذا التنظيم بقيادات استطلاع الجبهة، التي بقيت تابعة كالسابق إلى مجموعات الجيوش وقادة القوات المسلحة المعنيين. بينما انتقلت مجموعة عمل الخارج إلى قيادة القوات المسلحة العليا، التي ألحق بها بصورة إضافية مجموعة ملحقي الجيش لدى قيادة الجيش العليا.

4 ـ راقب «مكتب الأبحاث» الاتصالات الهاتفية للمثليات الأجنبية في برلين. وكانت قيادة القوات المسلحة العليا مهتمة أشد الاهتمام بإبلاغ الملحقين العسكريين بمضمونها. وقد خضعت صناعة السلاح السوفياتية لرقابة دائمة أيضاً، لأن مصانعها البعيدة بعضها عن بعض كانت تتواصل عن طريق اللاسلكي. (جونتر ف.جيلرمان. . . وتنصتوا من أجل هتلر، بون 1991، ص 147). ثمة دائرة أخرى عملت في إطار جمع المعلومات عن العدو هي «مركز أبحاث مؤسسة أبحاث بريد الرايش الألماني». وقد نجحت منذ سنة 1942 في فك رموز الاتصالات البعيدة بين لندن وواشنطن، وهو ما مكنها من معرفة مضمون معظم المحادثات التي تمت بين تشرشل وروزفلت، واحتلت أهمية استراتيجية بينها محادثة يوم 29/ 7/ 1943، التي تحدثا فيها حول المفاوضات السرية بين الحلفاء والحكومة الإيطالية. هذه المحادثة حذرت القيادة الألمانية، ومكنتها من اتخاذ تدابير عسكرية ملائمة في وقت مناسب (اسمها الأصلي عملية آلاريش، وصار اسمها منذ 8/ 8/ 1943 «محور»، قبل أن يعلن الجنرال أيزنهاور يوم 8/ 9/ 1943 عقد اتفاقية الهدنة مع إيطاليا. لاستكمال الصورة، لا بد من ذكر وزارة الخارجية بمكتبها المتخصص بالمعلومات ومراكز الخدمة التابعة لها المتخصصة بالمعلومات السرية وتحليلها، وحملت الرموز 1زد و بيرس زد. وقد عمل هذان المركزان من سنة 1919 إلى سنة 1945، دون أن يعرف الكثير عن نشاطها ونتائج عملها، وصدر أمر عند نهاية الحرب بتدمير موادها جميعها. هكذا تم وضع تسعين حاوية معدنية في قصر بورجشايدونجن (فرايبورج / انترشتوت)، إلى أن استولى الإنجليز عليها يوم 7 أيار/ مايو 1945 ونقلوها بالطائرة إلى لندن. ولم تتم إعادتها إلى الأراشيف الألمانية حتى الآن. هناك شحنة قطار كاملة من المواد تتضمن مجموعة كاملة من البلاغات المشفرة اختفت في القطاع الشرقي السابق من ألمانيا، لا يعرف أحد أين هي. (ميخائيل فون دير مويلن: أنباء من الاراشيف السياسية لوزارة خارجية ألمانيا، في رسائل إخبارية لحلقة عمل تاريخ أجهزة الاستخبارات المحدودة، شتاء 1997، المجلد 5 رقم 2، ص 4-8).

5 ـ كان الجنرال جيهلن نفسه وراء البرهان على صحة بلاغات الوضع اليومية التي أرسلتها

«شعبة الجيوش الأجنبية شرق» إلى شعبة عمليات الجيش (جنرال هويزنجر) أو إلى رئيس أركان الجيش. فقد أمر جيهلن أركانه في كانون الثاني/ يناير سنة 1945 (!) بكتابة تقرير مرفق بخرائط عن الوضع. وتم اختيار بلاغات الوضع وحدها، التي كانت تتفق بعض الشيء مع وضع العدو الفعلي.

وقد وصف هاينس هونه في كتابه «حرب في الظلام» (ميونيخ 1985، ص 455) هذا «كعرض للذات».

بعد استعادة قسم كبير من مخلفات الجيش الألماني، بما في ذلك تقارير شعبة الجيوش الأجنبية، صار بوسع مدير أرشيف ألمانيا الاتحادي ـ والأرشيف العسكري في فرايبورغ العقيد خارج الخدمة مانفريد كيهرينج نشرها في كتابه ستالينجراد، تحليل ووثائق معركة (شتوتجارت 1974، الطبعة الثانية، 1979)، حيث انتقد بشدة تقارير الوضع التي صدرت عن شعبة الجيوش الأجنبية شرق.

وجه هانس ـ ديتريش فيلهلم بدوره نقدا حادا إلى تنبؤات شعبة الجيوش الأجنبية شرق (هانس ـ ديتريش فيلهلم ولويس دو جونج: اسطورتان من الرايش الثالث، شتوتجارت 1964).

6 ـ يقصد بوسائل الاستطلاع الإلكتروني الرادار، وجهاز المسح اللاسلكي الألماني، وألازديك، وهو اختصار لـ اللجنة الحليفة لتقصي عمليات كشف الغواصات، ولجنة البحث الحليفة لتحديد مواقع الغواصات الألمانية. وقد سمي باسم اللجنة (الأزديك) الجهاز الذي طورته لتحديد مواقع الغواصات الألمانية الغائصة بواسطة نبضات تحت مائية عالية التردد (بيتر بادفيلد: حرب الغواصات. برلين 1996، ص 484).

في مذكراته بتاريخ 8 /6/ 1943 اعترف رئيس إدارة الحرب البحرية في سلاح البحرية الألماني: «أن الغواصة، حامل هذا النمط الرئيس من خوض الحرب (مقاتلة قوافل المواكبة) قد فقدت الكثير من قدرتها القتالية نتيجة لمكافحة الغواصات لدى العدو، التي تم حفزها بتعبئة جميع القوى، التي عبرت عن نفسها قبل كل شيء من خلال عمل سلاح الجو، بعد اختراع أسلحة تحت مائية من أنواع جديدة وبلوغ قدرة غير مسبوقة على تحديد مواقع الغواصات». (يوميات الحرب، القيادة العليا للقوات المسلحة، 1943، الجزء الثاني، ص 1435).

وقد أمر دونيتز بوقف استخدام الغواصات في شمال الأطلسي يوم 23 أيار/ مايو، بعد أن فقدت في هذا الشهر وحده 47 غواصة ألمانية.

أما ما لم تعرفه إدارة الحرب البحرية وقيادة القوات المسلحة الألمانية فهو أن

مكتب التشفير البريطاني في بلتشلي بارك نجح مطلع سنة 1943 نجاحا تاما في حل رسائل الغواصات البرقية وقيادتها .» القرش، ذلك كان اسم عملية فك الشيفرة، لم يعن فقط نهاية معركة الأطلسي، بل عنى كذلك أن الغزو (أي نقل القوات والأسلحة من أميركا) يمكن أن يتم عبر الأطلسي من دون تهديد يذكر من جانب الغواصات الألمانية. (ميخائيل سميث: المحطة . X لندن 1998، ص 117).

7 ـ إن زعم جيهلن أنه لم يعمل فعليا لصالح القائد الأعلى للقوات المسلحة، بعد استبدال هالدر، يمكن أن يكون مجرد خرافة، أراد أن يحافظ بواسطتها على بعض المسافة الشخصية عن هتلر. بينما كان الوضع من الناحية التنظيمية، مختلفا كل الاختلاف عن ذلك: فقد شكل رئيس أركان الجيش هالدر في تشرين الأول/أكتوبر سنة 1938 من الشعبة الثالثة «الجيوش الأجنبية» الشعبة الثالثة المسماة «الجيوش الأجنبية غرب» والشعبة الثانية عشرة المسماة «الجيوش الأجنبية شرق»، ووضع على رأسهما رئيس المقر الرابع الجنرال تيبلزكيرش. وفي الرابع والعشرين من كانون الأول/ديسمبر تم استبدال الجنرال هالدر بجنرال المشاة كورت تسايسلر كرئيس أركان عامة، فما كان منه إلا أن ألغى منصب رئيس المقر الرابع من جديد (9/ 11/ 1942)، بحجة الرغبة في إقامة صلة مباشرة مع رؤساء شعب الأركان (دايڤيد كاهن: جواسيس هتلر. لندن 1978، ص 391–392).

من قبيل التوضيح: كان على شعبتي الأركان العامة «الجيوش الأجنبية غرب» و«الجيوش الأجنبية شرق» تقويم وضع العدو وإبلاغ تقويماتهما إلى رئيس الأركان العامة للجيش ورئيس أركان القوات المسلحة العامة. وهذان كانا يلقيان تقارير شفهية حول مضمون البلاغات أمام القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة آدولف هتلر، أو كانا لا يلقيانها، عندما لا يجدان ضرورة لذلك. بينما كان قادة الشعب يشاركون في مناقشة الوضع، عندما كان هتلر يرغب في ذلك. ولم يكن لقائدي الشعبتين أي تأثير على هذا التدبير.

8 ـ ليس من الصواب مقارنة الجنرال جيهلن بالجنرال كينيث سترونج، الذي كان له كعضو في الأركان حق الدخول على الجنرال أيزنهاور، القائد الأعلى للقوات الحليفة في أوروبا. أما هتلر فكان يحتل منصب مستشار الرايش والقائد الأعلى للجيش والقائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية.

9 ـ قصة مارتين بورمان، التي ينشرها راينهارد جيهلن في كتابه الذي يحمل عنوان «الخدمة»، ربما كانت كذبة مقصودة، لكن جيهلن صدقها (راينهارد جيهلن: الخدمة، ماينز 1971، ص 48 وما يليها).

10 ـ نجح جهاز الاستخبارات التشيكوسلوفاكي بقيادة العقيد موارفيش في الاحتفاظ

بواحد من أهم العملاء في ألمانيا في الفترة بين 1936 و 1942. إنه باول توميل، عضو مركز المكافحة في درسدن، الذي عرض خدماته على الاستخبارات التشيكوسلوفاكية. بعد فرار قيادة هذا الجهاز إلى لندن تولت الاستخبارات البريطانية أمر أ-54، اسمه لدى التشيك. لكن بوليس الدولة الألمانية السري ألقى القبض عليه في آذار/مارس من سنة 1942، ولا يعرف أحد ماذا كان مصيره اللاحق. انظر الوصف المسهب لتوميل في كتاب يانوش بيلكالكفيتش: جواسيس، عملاء، جنود. ميونيخ 1988، ص 132 وما يليها.

11 ـ كان الجنرال إيڤان تيرنتيفيتش بيريسبكين رئيس سلاح الإشارة في الجيش الأحمر وتولى منصبه هذا طوال الحرب. وبما أنه كان بالأصل مفوضا شعبيا (وزير) لشؤون البريد والاتصالات البعيدة، فقد أسندت إليه يوم 23 تموز/يوليو 1941 الإدارة العامة لوسائل الاتصال في الجيش الأحمر. نشر بيريسبكين سنة 1965 في موسكو كتابه سلاح الإشارة السوفياتية في الحرب الوطنية العظمى (فولكر ديتليف هايدون: الاستطلاع الاستخباري (شرق) ولاسلكي الجيش السوفياتي الروسي حتى 1945. فرايبورغ 1985، ص 203 -283). سمي بيريسبكين سنة 1944 مارشال الاتحاد السوفياتي (ميخائيل موزوروف: صقور الكرملين، ميونيخ 1982، ص 244).

12 ـ حسب أحدث المعلومات، لم يكن موريس ـ هنري جوشيه رئيس استخبارات رفيع الكفاءة، وهذا ما تؤكده آراء الضباط الفرنسيين السامين (إيرنيست ر.ماي: انتصار غريب، استيلاء هتلر على فرنسا، نيويورك 2000، ص 362).

13 ـ كانت «المبالغات» في تقدير قوة القوات المسلحة الألمانية وطاقة ألمانيا الحربية مقصودة. بهذه الأرقام، كان يراد حث البرلمان والحكومة الفرنسية على التصديق على موازنات ذات مبالغ مالية مرتفعة، تنفق على التسليح الفرنسي .(إيرنيست ر. ماي: انتصار غريب، استيلاء هتلر على فرنسا. نيويورك 2000، ص 138 وما يليها).

14 ـ كان الرائد ستيلين عضوا في لجنة وقف إطلاق النار الفرنسية بعد انهيار فرنسا (يوميات حرب قيادة القوات المسلحة العليا 1940/ 1941، الجزء الثاني ص 984). لم يكتف جهاز الاستخبارات الفرنسي إطلاقا بتقرير نائب الملحق العسكري الجوي. وكان لديه فضلا عنه مصدر في مركز جيد داخل وزارة طيران الرايش .(فيليب نايتلي: تاريخ الجاسوسية في القرن العشرين. برلين 1999، ص 89). على عكس الفرنسيين استهانت «جمعية الاستخبارات» البريطانية بقوة سلاح الجو الألماني استهانة شديدة، (ڤيسلي ك. فرك: موقف الاستخبارات من سلاح جو ألمانيا وصناعة قواها الجوية 1933 -1939، في: الجريدة التاريخية، الجزء 52، لندن 1982، ص 640). لم يكن الرائد ستيلين الشخص الوحيد، الذي قدم سلاح الجو الألماني المعلومات طوعا له حول التسليح

الجوي، فقد حدث شيء مماثل مع الطيار الأميركي الشهير شاري ليندبرج، الذي كانت الاستخبارات الأميركية قد أرسلته إلى ألمانيا سنة 1936 و1937، لجمع معلومات بخصوص سلاح الجو الألماني الجديد. وقد صدق بدوره الأرقام المبالغ بها (بارتون فالي: تغطية إعادة تسليح ألمانيا 1919 ـ 1939 خيبات وأفكار خاطئة، في: جريدة الدراسات التاريخية، آذار/مارس 1982، ص 9-39).

15 ـ كان للاستخبارات الإنجليزية، التي سميت م 16 أيضاً، نقاط قوتها وكذلك نقاط ضعفها. ولو لم تكن هناك الإنجازات العظيمة لخبراء فك الشيفرات في بلتشلي بارك، لكان من الصعوبة بمكان إعطاءها علامة جيدة. «اتسمت فترة الاستخبارات بين الحربين العالميتين بغلبة الهواية على الاحتراف والتبجح، لذلك تجاهلته وتفادته مراكز حكومية مهمة» (فيليب نايتلي: تاريخ الاستخبارات في القرن العشرين. برلين 1990، ص 91). وقد كتب جون كولفيل، سكرتير تشرشل الخاص، في يومياته يوم الأربعاء 7 آب/أغسطس 1940 ما يأتي: «. . . أما أن الاستخبارات تمكنت من الاستيلاء على 13 مليون جنيه كانت مخبأة في فناء أحد البنوك في فرنسا المحتلة، كانت مخصصة لتمويل دوغول، فهو أمر يؤكد أن وجود الاستخبارات ليس ضربا من العبث!». جون كولقيل: داوننج ستريت، يوميات1939 -1945. برلين 1991، ص 155).

16 ـ تأسست سنة 1936 في بريطانيا العظمى «لجنة الارتباط الاستخباري»، التي تولى إدراتها عند نشوب الحرب ويليام كافنديش -بنتينك، دوق بورتلاند اللاحق. وكانت فروع القوات المسلحة ممثلة في اللجنة، وكذلك وزارة الخارجية ومكتب الاستخبارات السرية، (الاستخبارات الداخلية ومكافحة التجسس) ووزارة إدارة الحرب الاقتصادية. أما مهمة اللجنة، فكانت تنسيق جميع العمليات الاستخبارية، وتقويم نتائجها، وتوزيعها على الحكومة ومراكز القيادة (فيليب نايتلي: مصدر سابق، ص 111).

17 ـ كان ممنوعا في بريطانيا العظمى، منذ تأسيس الاستخبارات البريطانية والمكتب السري الرسمي، إعلان اسم مدير مكتب الاستخبارات السرية. وكان يسمى تقليديا السيد (ث)، حسب الأحرف الهجائية الأولى من اسم رئيسه الأول مانفيلد سميث ـ كومينج. هذه الطريقة في الحفاظ على السرية استمرت إلى منتصف السبعينيات من القرن الماضي، من هنا لم يكن كينيث سترونج يستطيع ذكر اسم رئيس مكتب الاستخبارات السرية في كتبه، لأن ذكره كان محظورا.

في الرابع من تشرين الأول/أكتوبر 1939 توفي الأميرال هوج سنكلير، الذي كان قد أدار مكتب الاستخبارات السرية طوال 14 عاما، فعينت الوزارة خلفا له نائبه آنذاك العقيد ستيوارت منزيس، الذي حافظ على منصبه حتى سنة 1951 وصار السير ستيوارت.

(نايجل فيست: ألعاب الاستخبارات. لندن 1989، ص 128).

18 ـ جاءت المعلومات الحاسمة عن سلاح الجو الألماني خلال «المعركة حول إنجلترا» من بلتشلي بارك. الذي كان قد نجح في وقت مناسب في فك شيفرة سلاح الجو الألماني، واستطاع أن يعرف بهذه الطريقة أوامر القتال الألمانية (أنظر الملاحظة رقم 19).

19 ـ يحتاج فصل «الإنجازات الأكثر أهمية للاستخبارات البريطانية بين سنتي 1939 و1943» إلى تكملة تلخصه وتصححه. مثلما جاء في الملاحظة حول الطبعة السادسة، أدى الفتح الجزئي للوثائق البريطانية وخاصة منها تلك المتعلقة بنشاط ونجاح البريطانيين في فك شيفرات الرسائل البرقية الألمانية والإيطالية واليابانية إلى معلومات جديدة، لم تكن متاحة للمؤلف. إن إرسال كافنديش ـ بنتينك كأول سفير بريطاني في بولونيا بعد الحرب لم يتم لأن الاستخبارات نجحت في تقديم تنبؤات صحيحة دوماً تحت قيادته. لم يكن الأمر هكذا بأي حال، الأصح أن تعيينه سفيرا في وارسو كان علامة على الشكر الكبير، الذي كانت بريطانيا العظمى مدينة به لبولونيا بسبب إنجازاتها الاستخبارية، فقد نجحت حتى قبل انفجار الحرب العالمية الثانية في تقليد آلة التشفير «إنيجما»، التي كانت قوات ألمانيا المسلحة تستخدمها، وفكت شيفرات بعض الرسائل البرقية. وكانت الإنيجما قد اعتمدت يوم 27 تموز/ يوليو 1935 كآلة تشفير للقوات المسلحة والجيش والبحرية الحربية وسلاح الجو. وقد حصل البولونيون على معلومات مهمة بالتعاون مع الاستخبارات الفرنسية، التي كان لديها هنا أيضاً موظف يحتل موقعا جيدا في مركز تشفير القيادة العليا للقوات المسلحة، كانت ذات أهمية حاسمة بالنسبة إلى نجاح بريطانيا في فك شيفرات البرقيات الألمانية. لذلك، كانت بريطانيا ملزمة بتقديم الشكر والعرفان لإنجازات الاستخبارات البولونية، التي كانت حكومة المنفى في لندن قد بنتها بسرعة وفاعلية. هذا المكتب البولوني لم يعمل في بولونيا وحدها، بل عمل كذلك مع أسرى الحرب وعمال السخرة البولونيين في الرايش الألماني.

تم في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1940 إبلاغ وزارة الخارجية البريطانية رئيس الوزراء تشرشل بقرار ألمانيا التخلي عن عملية فيلكس، أي احتلال جبل طارق. يرجع أحد أسباب هذا الإبلاغ إلى واقعة أن المعلومة لم تصل عن طريق الاستخبارات، لأن السفير البريطاني في مدريد، السير صامويل هواره، لم يوافق على تأسيس مقر لمكتب الاستخبارات السرية في إسبانيا، ولأن مكتب الاستخبارات لم ينجح في تغيير هذا القرار. لذلك كان المكتب موجودا خلال الحرب كلها في لشبونة وحدها من شبه الجزيرة الأيبيرية.

تم يوم 22 أيار/مايو 1940 فك مدونة سلاح الجو الألماني الشيفرية، وقد أطلق بلنتشلي بارك على الاتصالات البرقية المكشوفة لقب «أحمر»، علما بأنه تم فك مدونة سلاح الجو الشيفرية حتى نهاية الحرب من دون أي مشكلات. كان «أحمر» على درجة عظيمة من الأهمية بالنسبة إلى الحكومة البريطانية، لأن ما عرفته من خلاله لم يتعلق فقط بشؤون سلاح الجو وحده، بالنظر إلى أن سلاح الجو استخدم هذا المفتاح في اتصالاته مع فروع القوات المسلحة الأخرى والجيش والبحرية الحربية. إليكم بعض الأمثلة:

ـ أرسل العماد رومل إلى مقر الفوهرر الرئيس بالطريق الرسمي تقريراً عن قائده الأعلى الجنرال فيلد مارشال كيسلرنج. بما أن الأخير كان ضابطا في سلاح الجو، فقد تم استخدام شيفرة السلاح الجوي (الأحمر).

ـ عرفت الحكومة البريطانية والعسكريون البريطانيون تمام المعرفة بعملية استخدام المظليين بقيادة الجنرال شتودنت لاحتلال كريت (عملية ميركور)، من خلال «الأحمر»، لأن وحدات المظليين كانت تابعة لسلاح الجو، لذلك كانت النتيجة إلحاق خسائر فادحة جداً بالجانب الألماني.

ـ كانت قوافل إمداد فيلق أفريقيا الألماني تحتاج إلى حماية بواسطة المطاردات الألمانية. وقد عرف البريطانيون بفضل «الأحمر» أماكن تجمع القوافل، ومتى ستبحر وأي اتجاه ستأخذ.

ـ أدى فك شيفرات أوامر القتال الألمانية إلى جعل الإنزال وإدارة الحرب في إيطاليا أسهل بصورة جوهرية.

ـ خلال المعركة حول إنجلترا، عرف البريطانيون بفضل «الأحمر» وقت الهجوم، عدد القاذفات والمطاردات، والأهداف التي ستهاجم والرقم الحقيقي للخسائر، التي تعرض لها سلاح الجو الألماني خلال الهجمات.

هذه المعارف، إلى جانب استخدام أجهزة راداراتها الحديثة، مكنت سلاح الجو البريطاني من تركيز قوته الدفاعية في الوقت المناسب. أما عملية غزو إنجلترا (أسد البحر)، التي خططت القيادة الألمانية لها منذ حزيران/يونيو 1940، فقد أرجأها هتلر في أواسط أيلول/سبتمبر 1940 إلى زمن غير محدد. لكنه كان يجب الإبقاء على وهم الإنزال بواسطة القيام بعمليات نقل خاصة تبعث الشعور بالخطر لدى العدو. يوم 17 أيلول/سبتمبر سنة 1940 فك بلتشلي بارك برقية أرسلتها فرقة المظليين السابعة إلى الوحدات التابعة لها تأمرها بوقف تمارين الإنزال. هذا الأمر اعتبره تشرشل علامة على التخلي عن الإنزال. وقد مكنت هذه المعلومة وغيرها تشرشل من إرسال فرقتين نجتا من الهزيمة في

فرنسا إلى شمال أفريقيا في شهر أيلول/ سبتمبر ذاته.

تم الإبلاغ أيضاً عن عملية «بربروسا». لكن الحكومة البريطانية احتاجت إلى وقت طويل قبل أن تؤمن جديا بإمكانية وقوع هجوم على الاتحاد السوفياتي، وتعد نفسها له. لقد وصلتها معلومات أولى في خريف 1940 من مكتب الاستخبارات السري، الذي كان لديه مخبرون ينتمون إلى نبلاء بلدان بحر البلطيق، حيث كانت تدور أحاديث حول قرب عودتهم مع قوات ألمانيا المسلحة إلى ممتلكاتهم هناك. وكانت المكافحة وغيرها من أجهزة الاستخبارات قد شرعت تجند آنذاك مترجمين يتقنون اللغة الروسية، كما تم كشف تنقلات القوات من قبل الاستخبارات البولونية، وفي منطقة حكومة فيشي في فرنسا، ومن خلال البرقيات التي فكت شيفرتها بواسطة «الأحمر»، وكذلك سكك الرايش الألماني الحديد، التي كانت تستخدم الإنيجما. لكن استعداد هتلر للحرب على جبهتين بدا غير قابل للتصديق أول الأمر. وحتى مع تقدير لندن بأن الجيش السوفياتي ضعيف، واعتقادها أن القوات المسلحة الألمانية ستدخل موسكو خلال أسبوعين على أبعد تقدير، فإن الإنجليز واظبوا على اعتبار أنفسهم عدو هتلر الرئيس. وقد ذهبت الظنون، التي كانت تراود لندن، إلى أن ألمانيا ستحشد قواتها كي تجبر الإتحاد السوفياتي على تزويدها بكميات أكبر من مواد خام تمس حاجتها إليها، وأن الأمر قد يصل إلى حد القيام باختراق لأوكرانيا، بهدف الهجوم على بريطانيا العظمى في الشرق الأدنى.

في الثالث والعشرين من أيار/ مايو 1941 قالت لجنة الارتباط الاستخباري في دراستها: «نوايا ألمانيا تجاه روسيا»، إنها لا تؤمن بهجوم ألماني، وإن ما يحدث يقتصر على الابتزاز والتهديد ولا هدف له غير انتزاع تنازلات اقتصادية سوفياتية. وقد أنهت اللجنة تقويمها بملاحظة تقول: حسب الوضع الاستخباري الراهن، يرجح أن يكون الاتفاق بين الجانبين هو الاحتمال الأكبر.

تراكمت في أيار/ مايو وحزيران/ يونيو البرقيات التي فك «الأحمر» شيفرتها، التي كانت تشير أكثر فأكثر إلى قرب وقوع هجوم وشيك:

ـ 27 أيار/ مايو 1940: فيلق الطيران الثاني يطلب خرائط لليتوانيا ولاتفيا وبولونيا وشمال شرق رومانيا.

ـ 31 أيار/ مايو 1940: يتم إلحاق فيلق الطيران الخامس بالأسطول الجوي الرابع.

ـ مطلع حزيران/ يونيو 1940 «يؤكد» الأحمر أن الأسطول الجوي الثاني نقل من شمال فرنسا إلى الشرق.

ـ 10 حزيران/ يونيو 1940: يأمر هيرمان جورينج قادة جميع وحدات سلاح الجو

المرابطة في الشرق بالقدوم يوم 15 حزيران/ يونيو إلى كارينهال.

وفي السادس عشر من حزيران/ يونيو يخبر السفير البريطاني في موسكو الوزارة في لندن أن روسيا تستطيع الصمود في الحرب لفترة أطول من ثلاثة إلى أربعة أسابيع.

وقد تم تعيين أميرال الاحتياط روسكو هيلنكوتر مديراً للاستخبارات المركزية بصورة مبكرة لأن سلفه الجنرال هيوت فاندنبرج كان ضابط سلاح جو، ولأنه كان من الضروري أن يتولى هذا المنصب من جديد ضابط من البحرية. لم يكن هيلنكوتر نائب الملحق البحري ثم ملحقا بحريا في باريس وفيشي وحسب، بل كان بعد ذلك مديراً لجهاز الاستخبارات في أركان القائد الأعلى لأسطول المحيط الهادي، الأميرال نيميتز. وقد غدا هيلنكوتر رئيس الاستخبارات المركزية بين 1/ 5/ 1947 و 7/ 10/ 1950.

(داهمز: الحرب العالمية الثانية بالنص والصورة. ميونيخ 1989. وكذلك هينسلي، توماس و رانسوم ونايت: الاستخبارات البريطانية والحرب العالمية الثانية، ثلاثة أجزاء. لندن 1979 ـ 1984.

دايفيد كاهن: التقاط إنيجما. السباق لكسر شيفرة الغواصات الألمانية. بوسطن 1991.

إيجبرت كيزر: «عملية أسد البحر». خطة غزو إنجلترا. ايسلنج ـ ميونيخ 1987.

فيليب نايتلي: تاريخ الجاسوسية في القرن العشرين. برلين 1990.

هاينس ماجنهايمر: استراتيجية ألمانيا العسكرية 1935 -1945. ميونيخ 1997.

يانوش بيكالكيفيتش: رومل والاستخبارات في شمال أفريقيا 1941 ـ 1943. ميونيخ 1984.

يورجنروهر، إيبرهارد ييكل (الناشر): الاستطلاع البرقي ودوره في الحرب العالمية الثانية. شتوتجارت 1979.

ميخائيل ساليفسكي: إدارة الحرب البحرية الألمانية 1935 ـ 1945. الجزء الأول: 1935 ـ 1941. فرانكفورت على نهر الماين.

بيرسي شرام (الناشر): يوميات الحرب للقيادة العليا للقوات المسلحة 1940 ـ 1945، 8 أجزاء. طبعة هرشنج الشعبية 1982.

ميخائيل سميث: المحطة X. محطمو الشيفرة في بارك بلتشلي. لندن 1998.

حول الأميرال هيلنكوتر:

سجلات الحرب الباردة لدى المخابرات المركزية. تحرير ميخائيل فيرنر. المخابرات المركزية في إدارة هاري ترومان. واشنطن 1994.

مركز دراسات الاستخبارات، المخابرات المركزية: مدراء المخابرات المركزية ونوابهم. واشنطن 1998.

العلاقات الخارجية للولايات المتحدة 1945 ـ 1950. بروز مؤسسة الاستخبارات. واشنطن 1996).

20 ـ كان المكتب (ها)، باسمه المستعار «بيلاطوس»، على درجة رفيعة من الإنتاجية. وقد أمد الاستخبارات السويسرية بآلاف كثيرة من الأخبار والتقارير خلال سنوات الحرب. إلى جانب الأخبار الصحيحة، الممتازة جزئيا، لم يكن المكتب حصينا ضد الأخبار الخاطئة.

كان لهوزامان اتصالات في سلسلة من العواصم الأوروبية، من هلسنكي إلى مدريد. وقد كتب يوم 5 أيار/مايو سنة 1966 رسالة إلى صحافي سويسري قال فيها: «وعلى سبيل المثال، عندما سافر الأميرال كاناريس، رئيس المكافحة الألمانية، إلى مدريد، ليقابل هناك بسرية تامة رجل ارتباط سويدياً مع الحلفاء، علمت بالنبأ من مدريد، قبل أن يعود كاناريس إلى برلين. كما عرفت أيضاً ما قيل في اللقاء». كانت علاقات هوزامان بشركائه وممولية في استخبارات سويسرا العسكرية ملتبسة جدا. يظهر ذلك من حكم رئيس الأركان السويسري جاكوب هوبر: «ليس المقدم هوزامان شخصا محببا إلي، ويتضارب ميله إلى تأكيد ذاته ونزوعه إلى تعظيم إسهاماته مع دور رئيس شعبة استخبارية، يفترض به التواري قدر المستطاع عن أنظار الخارج. لكنه كان يمسك بمعظم الخيوط الممتدة نحو ألمانيا، ولم يكن هناك أي شك في وطنيته» (بيير ـ تيو براونشفايج: سلك سري نحو برلين. زيوريخ 1984. ص 102 وما يليها).

21 ـ لم يقم اللواء أوستر اتصالا مباشرا مع خط «الفايكنج». أما نائبه والمتحدث باسم حركة المقاومة العسكرية الألمانية فكان نائب القنصل في السفارة الألمانية في بيرن وعضو المكافحة هانس بيرند جيزيفيوس، الذي كان أيضاً رجل ارتباط المقاومة مع آلن دالس، ممثل جهاز الاستخبارات الأميركية في بيرن (هاينس هونه: الحرب في الظلام. ميونيخ 1985، ص 471).

22 ـ أدلى بيير ـ تيو براونشفايج بقول مثير للاهتمام حول حلقة ضباط القوات المسلحة، التي كانت تمد الاستخبارات العسكرية السويسرية بالمعلومات. فقد كتب قائلا: «وكان هناك بعض الضباط المهمين، خاصة في دوائر القوات المسلحة النمسوية

السابقة، الذين بقوا نمسويين رغم انتقالهم إلى الجيش الألماني، وأخلصوا لسويسرا «(بيير - تيو براونشفايج: سلك سيري نحو برلين. زيوريخ 1984، ص 123).

23 - بدأ خط «الفايكنج»، الذي أقامه ماكس فايبل، رئيس مركز جمع المعلومات الأول تحت اسم سري هو «ريجي»، عمله في مكتب «بفالز» في بال، وكان مديره المقدم إميل هيبرلي، الذي عمل كموظف مدني مديرا لشرطة كانتون بال السياسية. تلقت سويسرا أواسط آذار/مارس سنة 1940 بواسطة خط «الفايكنج» خطة الهجوم الألماني على اسكندينافيا (عملية «تمرين الفيزر»)، وفي 30 نيسان/أبريل 1940 نبأ عن بدء حملة الغرب الوشيكة، وفي 1 أيار/مايو 1941 نبأ الحملة ضد روسيا (بيير - تيو براونشفايج: مرجع سابق، ص 43).

إن واحدا من أهم مصادر معلومات الاستخبارات السويسرية، الذي أمدها بمعلومات على درجة خاصة من القيمة حول التحركات العملياتية للقوات الألمانية، كان يجلس في مقر الفوهرر الرئيس (المراجع ذاته، ص 43).

بوجه عام، حافظت سويسرا رسميا على سياستها المحايدة حتى مطلع سنة 1944. ثم تغيرت الظروف، مع توقع هزيمة ألمانيا، فزادت الاستخبارات العسكرية السويسرية تعاونها زيادة مستمرة مع الاستخبارات الحليفة. كانت سويسرا تخشى تغلغل القوات الألمانية في حالة وقوع نهاية فوضوية للحرب، وآمنت فضلا عن ذلك لفترة طويلة بالتصور الألماني لـ«حصن ألب» سيقوم على حدودها الشرقية. وقد استهانت الاستخبارات السويسرية، المتعاونة مع الاستخبارات الحليفة، بقدرات مجموعات المقاومة النمسوية والإيطالية، التي كانت تعمل انطلاقا من أراضيها. وكان ماكس فايبل يتوقع الحصول، في مقابل ذلك، على معلومات حليفة عن الوضع السياسي والعسكري في ألمانيا. (جيرالد شتايناخر: جنوب التيرول والاستخبارات السرية 1943 - 1945. إينسبروك 2000، ص 84 وما يليها).

هبطت «الفيزلر شتروش» (بركب طائر من رجلين) يوم 19 / 3/ 1943 سالمة في سامدان (جاندان) (بيكالكيفيتش: سويسرا على حافة الحرب. ميونيخ 1997، ص 350).

24 - كان هناك بالتأكيد عملاء في أوساط الفنانين والممثلين، عرفت منهم الممثلة السينمائية أولغا تشيخوفا، التي جندها بيريا، رئيس الاستخبارات السوفياتية، شخصيا. (خبر من البروفيسور وجنرال الاستخبارات السوفياتية المتقاعد ليف بيزيمنسكي. موسكو، ندوة حلقة عمل تاريخ أجهزة الاستخبارات في توتسينج بتاريخ 13/ 5/ 1995).

25 ـ طرد دكتور ماير من برلين، حيث كان مراسلا لجريدة زيوريخ الجديدة. خلال الحرب استدعي إلى الخدمة برتبة مقدم، وقاد المركز الخارجي «أوتو» التابع لمركز جمع المعلومات الأول في زيوريخ. وكان زوار مهمون قادمون من الرايش يقصدون مكتبه، منهم صفي هاينريش هملر المحامي كارل لانجبين، وسمير رئيس الأركان العامة الجنرال هالدر المحامي أيتشايت. (هاينس هونه: مرجع سابق، ص 407).

تغير كارل لانجبين من اشتراكي قومي سابق إلى عدو لدود للنازية. وانتسب إلى حلقة البرفيسور هاوسهوفر. وقد دفع حياته ثمنا لمحاولة ربط هملر بالمقاومة (أولريش شلي: لا سلام لألمانيا. ميونيخ 1994، ص 303).

كان المحامي إيتشايت على صلة مع موقع المكافحة (أست) في ميونيخ، ونفذ من حين لآخر مهام لمصلحته (المرجع ذاته، ص 147).

26 ـ لم ينته التعاون بين الحلفاء الغربيين والاتحاد السوفياتي في خريف سنة 1943. فقد تم تنسيق الغزو سنة 1944 وهجوم الصيف السوفياتي، الذي استهدف بصورة رئيسة مجموعة الجيش وسط، لمنع القيادة الألمانية من نقل قوى من جبهة إلى أخرى (هينسلي: الاستخبارات البريطانية في الحرب العالمية الثانية، الجزء الثالث، القسم الثاني ص 281).

لم تصل أهم معلومات الاستخبارات الحليفة من دوائر الـ إس .إس. وكان يعمل لمصلحة آلن دالس في بيرن ـ بين آخرين ـ هانس بيرند جيزيفيوس، وفيلموت فيتين، العامل في المكافحة ونائب القنصل في سفارة ألمانيا ببرن، وقبل كل شيء فريتز كولبه، أكثر مصادر المعلومات أهمية، الذي عمل في وزارة الخارجية ببرلين.

كان فريتز كولبه (اسمه الحركي جورج وود) هو الذي كشف الجاسوس الألماني «شيشرون» في أنقرة .(جيرهارد فاينبرج في: رسائل أخبار حلقة عمل تاريخ الاستخبارات، رقم 2، شتاء 1999، ص 28).

27 ـ اختار الفوهرر يوم 22 شباط/فبراير سنة 1940 رودرت (عش الصخر كمقر رئيس له، لأنه كان معروفا في هذا الوقت أنه لن يمكن الانتهاء من تجهيزات الأخبار التقنية في «عش النسر» تسيجنبرج في موعد يسبق الهجوم (فرانس سايدلر، ديتر تسايجارت: مقرات الفوهرر الرئيسة. ميونيخ 2000، ص 164).

28 ـ يجب أن تذكر فنلندا، التي كان لها جهاز استخبارات صغير وفاعل، وحققت إنجازات طيبة في مجال الاستطلاع اللاسلكي أيضاً. (هاينس بوناتز: استطلاع البحرية الألمانية اللاسلكي 1914 -1945. درامشتات 1970، ص 90).

29 ـ استخدمت جميع الأطراف ضباطا خلال الحرب العالمية الثانية بقصد القيام بمهام استخبارية وراء خطوط العدو. نذكر على الجانب الألماني عمليات «براندنبرج» و«ناختيجال» و«بيرجمان». (جيرت بوشهايت: الاستخبارات السرية الألمانية. ميونيخ 1966، ص 307 وما يليها).

أسس الإنجليز يوم 22 تموز/يوليو سنة 1940 تنفيذية العمليات الخاصة، التي كلفها تشرشل بـ «إشعال أوروبا» (فيليب نايتلي: تاريخ الجاسوسية... الخ، ص 114 وما يليها).

وكانت شعبة العمليات الخاصة في مكتب استخبارات الولايات المتحدة للخدمات الاستراتيجية مكلفة بتنفيذ مهام مشابهة في أوروبا وآسيا (مكتب الشؤون العامة: المخابرات المركزية، مكتب الخدمات الاستراتيجية، وكالة أميركا الاستخبارية الأولى. واشنطن 2000، ص 16 وما يليها).

30 ـ أخطأ دالين خطأ فادحا بحكمه هذا. لم يكن هناك رجل دولة أكثر شكا بالآخرين من ستالين. وهذا ينطبق أيضاً وبالضبط على أجهزة استخباراته، التي أمر بإعدام رؤسائها رميا بالرصاص كبرسين وجوكوف.

وقد كتب حاشية على تقرير أرسله شولتسه ـ بويزن يوم 16 حزيران/يونيو سنة 1941 حول الهجوم الألماني الوشيك على الاتحاد السوفياتي، يقول فيها: «أعيدوا مخبركم من سلاح الجو الألماني إلى أمه العاهرة، فهو ليس مخبرا. إنه مضلل». كما رفض إشارات ريتشارد زورجه إلى بربروسا، التي كان قد بعث بها من طوكيو، باعتبارها تضليلاً «دبر كذاب، لديه بضعة مصانع ومواخير في اليابان، حيث يعيش حياة هانئة» (كريستوفر أندرو، فاسيلي ميتروخين: كتاب ال ك.ج.ب الأسود». برلين 1999، ص 138 وما يليها).

31 ـ لا بد من ذكر السويد في هذا السياق.

32 ـ تبنى ريتر فون شرام فكرة الاستغناء من الآن فصاعدا عن «رجال الثقة، والجواسيس والعملاء» في دراسته «معرفة وعلم العدو». وقد كتب جيهلن، رئيس الجيوش الأجنبية شرق، يوم 14/ 3/ 1945 عن موقفه تجاه هذه المسألة: «على عكس ما عبرتم عنه من وجهة نظر في دراستكم، سيكون للجاسوسية أهمية كبيرة حتى في الحرب الحديثة». (هانس ـ هاينريش فيلهلم: تنبؤات شعبة الجيوش الأجنبية شرق 1942 ـ 1945. شتوتجارت 1974، ص 43).

33 ـ لا يتفق زعم المؤلف مع الحقيقة. في دليل قوات الاتحاد السوفياتي المسلحة، الذي أصدرته شعبة الجيوش الأجنبية شرق يوم 1 كانون الثاني/يناير سنة 1941

يوجد اعتراف صريح أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً عن التنظيم الحربي السوفياتي (بيرند فيجنر (الناشر): طريقان إلى موسكو. ميونيخ 1991، ص 176).

انظر أيضاً نقد تقويم وضع العدو، الذي قامت به شعبة الجيوش الأجنبية شرق، في: هانس ـ هاينريش فيلهلم: تنبؤات شعبة الجيوش... الخ، ص 43 وما يليها).

34 ـ بعد فترة قصيرة من إعلان هتلر الحرب على الولايات المتحدة نقل فرع أميركا من شعبة الجيوش الأجنبية غرب إلى شعبة الجيوش الأجنبية شرق. وبعد نزول الحلفاء في شمال أفريقيا في تشرين أول/أكتوبر سنة 1942 عاد فرع أميركا إلى شعبة الجيوش الأجنبية غرب (دايڤيد كاهن: جواسيس هتلر. لندن 1978، ص 424).

35 ـ ينصب الأمر عند الحديث عن المصدر الألماني المذكور في موسكو، الذي ينشر جيهلن نبأ عنه في كتابه الخدمة (ص 72/ 73) على المصدر «ماكس». وقد اتضح بعد الحرب أن ماكس كان عميلا سوفياتيا مزدوجا (المرجع ذاته، ص 312 وما يليها).

36 ـ كان جيهلن مساعدا لرئيس الأركان العامة من حزيران/يونيو إلى تشرين الأول/أكتوبر 1940. وكان من تشرين الثاني/نوفمبر 1940 إلى آذار/مارس 1942 قائد المجموعة شرق في شعبة عمليات الأركان العامة. ثم تولى يوم 1/ 4/ 1942 قيادة شعبة الجيوش الأجنبية شرق (راينهارد جيهلن: الخدمة. ماينز 1971، ص 422).

37 ـ كان جيهلن في حزيران/يونيو / تموز/يوليو سنة 1944، أي خلال انتفاضة 20 تموز/يوليو، في المشفى، وبعده مباشرة في إجازة نقاهة. وكانت شعبة الجيوش الأجنبية شرق الشعبة الوحيدة في الأركان العامة، التي بقيت بمعزل عن تحقيقات ومداهمات بوليس الدولة السري بعد 20 تموز/يوليو. (خبر شفهي للرئيس المتقاعد جيرهارد فيسل، في تموز/يوليو 1944 ضابط أركان أول في شعبة الجيوش الأجنبية شرق ونائب رئيس الشعبة).

38 ـ إلى هذا، كان على شعبة الجيوش الأجنبية غرب وضع خطة هجوم محتمل على جبل طارق، وتدخل في اتجاه شمال أفريقيا وسوريا.

39 ـ حطمت شبكة رادو في تشرين الأول/أكتوبر من سنة 1943 على يد الشرطة الاتحادية السويسرية، بناء على إشارات من جهاز الاستخبارات. وقد حكم في موسكو بعد الحرب بعشر سنوات سجن على ساندور رادو، وكذلك على تريبر، «الزعيم الكبير» لد«روته كابيله». رغم ذلك، زعم مؤرخون سوفيات فيما بعد أن المعلومات كانت على درجة عظيمة من القيمة بالنسبة إلى الجيش الأحمر. في الحقيقة، مارست المعارف الاستخبارية تأثيرا كبيراً على العمليات العسكرية، إلا بعد اعتقال تريبر وتحطيم منظمته. (كريستوفر أندرو، فريتو كولبه، الاسم السري جورج وود (تابع الملاحظة رقم 26).

40 ـ كان لقب مبعوث الرئيس روزفلت الخاص تعبيرا قصد به تمويه نشاط آلن دالس الاستخباري، الذي عاش في بيرن ممثلا لوكالة استخبارات الولايات المتحدة. وقد أفرجت السلطات الأميركية سنة 2000 عن 1200 تقرير ووضعتها تحت تصرف الرأي العام، كان آلن دالس قد كتبها بناء على معلومات فريتز كولبه، وأوصلها إلى واشنطن. (رسائل إخبارية حول تسجيلات جرائم حرب النازي لمجموعة العمل المشتركة. واشنطن آب/ أغسطس 2000، ص 3 و 5).

41 ـ تراجعت الاعتقالات والتصفيات بعد 1938، لكنها لم تتوقف تماماً حتى بداية الحرب. قبل فترة قصيرة من 22 حزيران/ يونيو سنة 1941، تم اعتقال مجموعة من القادة العسكريين وإعدام، بينها قائد منطقة البلطيق العسكرية، ورئيس الإدارة الرئيسة للقوات المسلحة، ورئيس الإدارة الرئيسة للدفاع الجوي .(بيرند فيجنر: مرجع سابق، ص 389 وما يليها).

42 ـ يتضح من تقرير نشر سنة 1989 في موسكو، أن مفوضية الشعب للشؤون الداخلية كانت ستتدبر أمرها دون «مساعدة» هايدريش. لكن مواد هايدريش عززت صدقية الاتهامات التي لفقتها المفوضية ضد توخا تشفيسكي وغيره من كبار القادة العسكريين .(المرجع ذاته، ص 404).

43 ـ كان اسم يان كارلوفيتش بيرسين الأصلي هو بيتريس كيزيس، ابن القن الليتواني، الذي انتمى إلى الحركة البلشفية منذ سنة 1921، وصار يوم 23 آذار/ مارس رئيس الاستخبارات العسكرية (هاينس هونه، مرجع سابق، ص 265).

44 ـ كان ريتشارد زورجه أحد أهم العملاء، الذين تم كسبهم لاستخبارات بيرسين. (كريستوفر اندرو، فاسيلي ميتروخين: مرجع سابق، ص 65).

45 ـ زود جهاز الاستخبارات العسكرية السوفياتي مجموعة شولتسه / بويزن بأجهزة لاسلكي، يصل إرسالها إلى بريست / ليتوفسك. عندما اشتدت حاجة السوفيات إلى معلومات من عملائهم، كانت القوات الألمانية تحتل بريست / ليتوفسك .(خبر من لواء الـ ك.ج.ب المتقاعد سيرجي كوندارشيف خلال ندوة لحلقة عمل تاريخ أجهزة الاستخبارات في توتسينج يوم 13/ 5/ 1995).

46 ـ جند ألكسندر كوروتكوف ألياس ايردبرج، نائب رئيس مقر الـ ك.ج.ب في السفارة السوفياتية في برلين هارو شولتسه ـ بويزن (الاسم السري «شتار شينا = العظيم) وحلقة العملاء التابعة له، وقادهما. بعد إغلاق السفارة يوم 22 حزيران/ يونيو 1941 تولت الاستخبارات العسكرية الاتصالات معه. لكن هذا لم ينجح على كل حال (تابع الملاحظة

رقم 45) (كريستوفر أندرو، فاسيلي ميتروخين: مرجع سابق، ص 137).

47 ـ كان روسلر (= لوسي) هو المورد الرئيس للمعلومات العسكرية. لقد تلقى معلوماته بالدرجة الأولى من الاستخبارات العسكرية السويسرية، وكانت تتألف أساسا من تحقيقات مع فارين ومعتقلين ألمان. وقد توصلت المخابرات المركزية الأميركية في كتابها الروته كابيله، تاريخ المخابرات المركزية الأميركية حول شبكة الاستخبارات والجاسوسية السوفياتية في غرب أوروبا 1936 ـ 1945، واشنطن 1979، إلى النتيجة الآتية: «من المحتمل أن المصادر الألمانية كانت ترسل معلوماتها إلى الأركان السويسرية العامة، التي كانت تمد بدورها روسلر بها، ليرسلها من جانبه إلى السوفيات (ص 345) (هاينس هونه، مرجع سابق، ص 411).

«فيرتر» كان يعني قوات ألمانيا المسلحة، و«أولجا» = القيادة العليا لسلاح الجو و«آنا» = وزارة الخارجية.

48 ـ كان اسم تايلور الحقيقي هو شنايدر. وكان محرر الكتابات الخاصة، التي ينشرها روسلر. وهو لم يبلغ رادو إلا سنة 1942 أنه يتلقى المعلومات من صديق ألماني = لوسي = (المرجع نفسه، ص 409).

49 ـ لم يترك مقر رادو يموت جوعا، بل خربته الشرطة الاتحادية السويسرية في تشرين الأول/أكتوبر سنة 1943، وألقت القبض على أعضائه (تابع الملاحظة رقم 39).

50 ـ يرجع تحسن الاستطلاع البرقي السوفياتي إلى الأسباب الآتية: بعد استسلام الجيش السادس في ستالينجراد سقطت في أيدي السوفييت أجهزة إنيجما، ومستندات سرية عن اللاسلكي، وقبل كل شيء خبراء ألمان في اللاسلكي. إلى هذا، تلقى السوفييت في إطار اتفاقية الإعارة والتأجير ما مجموعه 35 جهاز لاسلكي من أميركا وبريطانيا. بدعم من خبراء ألمان في التشفير، نجح الاستطلاع اللاسلكي السوفييتي في تحقيق تقدم كبير في تحديد مواقع اللاسلكي، وتقويم المواد الإخبارية وفك شيفرات نصوص بسيطة مكتوبة بخط اليد. فضلا عن هذا، نجح السوفييت في امتلاك رسائل برقية تم فك شيفرتها لسلاح الجو الألماني، حصل عليها عميل لد ك.ج.ب في بلتشلي بارك. هذا كله ترك بصماته في صيف 1943 على معركة كورسك (المرجع ذاته، ص 151).

51 ـ لم تعد المقارنات، التي أجراها المؤلف انطلاقا من معارف زمنه، صالحة في ضوء المعارف الجديدة: فـ«المدير» كان في الحقيقة سيدة اسمها بولياكوفا، لكنها كانت مسؤولة فقط عن عمليات «الروته كابيله». نقصد هنا مدير الاستخبارات العسكرية، وكان

اسمها الرسمي منذ سنة 1943: الإدارة الاستخبارية الرئيسة للأركان العامة للقوات المسلحة السوفييتية، واختصارها GRU. بعد تغييرات متعددة، عين ستالين الجنرال فيودور فيودوروفيتش كوزنتسيف مديرا لها في نيسان/أبريل من سنة 1943.

كان بيرسين هو الذي أسس شبكات التجسس المعروفة للإدارة، وهي «الروته كابيله» وريتشارد زورجه في طوكيو. ربما كان هذا هو السبب، الذي جعل ستالين يشك كثيراً بالمعلومات التي كانت تصل عن طريقهما، قبل أن يأمر في نهاية الأمر بإعدام بيرسين رميا بالرصاص.

يمكن مقارنة الإدارة السوفياتية بشعبة مكافحة كاناريس، فقد كانت تتجمع هنا أيضاً استخبارات الجيش والطيران والبحرية، وكان لرئيسيهما كليهما مشكلات كبيرة مع أجهزة الاستخبارات السياسية في بلديهما: المكافحة مع الاستخبارات، والإدارة مع الـ ك.ج.ب.

كان للقوات المسلحة الغربية أجهزة استخبارات مستقلة خاصة بالجيش وسلاح الجو والبحرية. وقد وضع الإنجليز فوقها لجنة ارتباط الاستخبارات بوصفها جهة تنسيقية، وهو نظام أخذت به الولايات المتحدة خلال الحرب.

من غير الممكن مقارنة اللواء كينيث سترونج برئيسي شعبتي الجيوش الأجنبية شرق والجيوش الأجنبية غرب (سبق أن قلت هذا في الملاحظة الثامنة). أما آلن دالس فلا يمكن مقارنته على الإطلاق بالأسماء السابق ذكرها. فقد كان كمندوب للاستخبارات في بيرن ناجحا جداً في الحصول على معلومات من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا والبلقان. ولم تكن له أي صلة من أي نوع كان بالاستطلاع اللاسلكي.

52 ـ من الضروري، لفهم وضع الجيوش الأجنبية، أن نعرج بسرعة على التغيرات الرئيسة، التي تسبب بها عزل قائد الجيش الأعلى الفيلد مارشال ڤون براوشيتش وتولي القيادة من قبل هتلر يوم 19/ 9/ 1941، وعزل رئيس أركان الجيش هالدر يوم 24 / 9/ 1942. منذ هذا التاريخ، اقتصر عمل رئاسة أركان الجيش على المهام القيادية في الشرق، أما بقية ميادين القتال مثل فنلندا والغرب ومنطقة البحر الأبيض المتوسط بما فيها شمال أفريقيا والجنوب الشرقي والبلقان واليونان فكانت مسؤولية أركان قيادة القوات المسلحة بقيادة العماد يودل.

وقد كان مألوفا حتى استبدال هالدر، عند مناقشة «الوضع مع الفرهرر» أن يقدم العماد يودل تقريراً عن الوضع العام، قبل أن يقدم رئيس الأركان تقريره عن الوضع في الشرق. وقد فرض الجنرال تسايسلر، خلف هالدر، أن يلقي هو تقريره عن الوضع في الشرق، قبل أن يحاضر يودل عن الوضع في ساحات المعارك الأخرى. كانت مهمة

الجيوش الأجنبية شرق معالجة وضع العدو في المنطقة، التي كانت من اختصاص رئيس أركان الجيش، وكانت توضع تحت تصرفه هنا تقارير مجموعات الجيش حول وضع العدو، وبلاغات استطلاع الجبهة شرق، الصادرة عن المكافحة، إذا كانت تقارير وضع العدو لمجموعات الجيش لم تعالجها بعد.

بدوره، اقتصر عمل شعبة الجيوش الأجنبية غرب على خدمة رئيس أركان قيادة القوات المسلحة العماد يودل. انتقل العقيد ليس يوم 1/ 3/ 1943، وحل محله العميد ألكسيس بارون فون رونه، الذي أعدم شنقا لعلاقته بحركة 20 تموز/ يوليو، فحل محله العقيد فيلي بوركلاين كرئيس للشعبة.

أما بالنسبة إلى المكافحة، التي بقيت ملحقة بقيادة القوات المسلحة العليا، فلم تغير هذه الإجراءات شيئاً من وضعها. وقد تأسس استطلاع الجبهة في الشرق مع نشوب الحرب ضد روسيا، وتوزعت قياداته على مجموعات الجيش ووحدات استطلاع الجيش في الجبهة.

53 ـ لا يتفق مطلقا مع الحقائق القول إن هتلر لم يكن مهتما بوضع العدو. يؤكد المؤلف هذا الزعم مراراً وتكرارا، لكن زعمه يجافي الوضع الحقيقي. تذكر يوميات حرب قيادة القوات المسلحة العامة حالات متعددة أبدى هتلر خلالها اهتماماً شديدا بوضع العدو، منها على سبيل المثال إنزال الحلفاء المفاجئ في شمال أفريقيا (يوميات الحرب، القيادة العليا للقوات المسلحة 1942، الجزء الثالث، ص 918). والواقع أن هتلر كان مطمورا بالمعلومات والأخبار: من وزارة الخارجية، ومن رئيس صحافة الرايش د. ديتريش، وبالمختارات من الصحافة الأجنبية... الخ. وكان يقرأ نحو ثماني ساعات في اليوم تقارير ومذكرات، بالإضافة إلى محاضرتين يوميا عن وضع العدو، في حين يهاتف شخصيا رؤساء مجموعات الجيوش أو يأمر بإرسال تقاريرهم إليه. وكان يعرف تماماً العمل الاستخباري (دايڤيد كاهن: جواسيس هتلر، ص 536).

عندما يذكر المؤلف ستالين وأيزنهاور بحق كمهتمين بالعمل الاستخباري، فإنه ينسى وينستون تشرشل، الذي كان لا يقل اهتماماً عنهما به.

إن الجملة الآتية، التي تجعل من كاناريس وأوستر فاشلين، بسبب نقص اهتمام هتلر المزعوم بالعمل الاستخباري، لا تفي الرجلين حقهما.

54 ـ في حالات متعددة، حققت الجاسوسية الكلاسيكية المستلزمات الضرورية لنجاح الاستطلاع اللاسلكي. وهذه بعض الأمثلة: حصلت المكافحة سنة 1935 على مدونة فرنسية بحرية، تمكن استطلاع البحرية الحربية من قراءتها قبل بعض الوقت

.(هاينس بوناتس: استطلاع البحرية الألمانية 1914 ـ 1945. دارمشتات 1970، ص 93).

وكان هانس ـ تيلو شميدت، موظف مركز التشفير في قيادة القوات المسلحة العليا، قد زود الاستخبارات الفرنسية بين 1931 و1940 بمستندات حول آلة التشفير الألمانية أنيجما ونظام التشفير الألماني، بما في ذلك تعليمات استخدام إنيجما ومدخل إلى مفاتيحها (دايفيد كاهن: التقاط إنيجما. بوسطن 1991، ص 58 وما يليها).

وتلقى الاتحاد السوفييتي عبر عميله في بلتشلي بارك جون كيرنكروس (الاسم السري ليست) إشارات قيمة حول إدارة الحرب الألمانية في الشرق، كان البريطانيون في بلتشلي بارك قد فكوا شيفراتها، احتلت أهمية خاصة فيها رسائل سلاح الجو البرقية، التي تم فك رموزها، ودفعت الجيش الأحمر إلى توجيه ضربات وقائية مكثفة ضد المطارات الألمانية، خلال معركة كورسك، دمر خلالها أكثر من 500 طائرة ألمانية. (كريستوفر أندرو، فاسيلي ميتروخين: كتاب الـ ك.ج.ب الأسود، برلين 1999، ص 176).

بعد نهاية الحرب بفترة قصيرة حول بلتشلي بارك أنشطته نحو فك شيفرات الرسائل البرقية السوفييتية. وكان عليه أن يعلم الآن أن السوفيات يستخدمون عددا كبيراً من آلات إنيجما، كانوا قد غنموه من الألمان، لكنهم شفروه بفضل إرشادات كيرنكروس بطريقة عجز البريطانيون عن فكها (ميخائيل سميث: المحطة X. لندن 1998، ص 175).

55 ـ تابع الملاحظة رقم 53.

إن كتلة «الأخبار الموثوقة» كانت تعالج من خلال تقويمات أوضاع العدو لمجموعات الجيش أو في الجيوش الأجنبية. أما المعلومات المهمة، التي كانت تقدم إلى قيادة القوات المسلحة، فكانت توسم بعلامة تشير إلى أنها «خبر موثوق». في سنة 1944، وخلال ترقب الغزو، سأل هتلر استطلاع استخبارات البحرية اللاسلكي عن المفاتيح البريطانية التي يستطيع قراءتها. وقد وجب على الاستطلاع الاعتراف أنه لا يمكن قراءة النظامين الأكثر أهمية .(يورجن روهر، إيبررهارد يكل: مرجع سابق، ص 27).

56 ـ يوجد ثمة إشارة في مقدمة الطبعة السادسة (سنة 2001) إلى أن المؤلف لم يكن عارفا بنجاحات الاستطلاع الألماني («الترا»)، التي أخفتها الحكومة البريطانية حتى منتصف السبعينيات من القرن الماضي. تقدم المستندات المنشورة منذ ذلك التاريخ حول بلتشلي بارك صورة مختلفة كل الاختلاف عن هذه النجاحات. أنظر الملاحظتين 6 و 19).

57 ـ التقطت مجموعة الجيش شمال 46342 رسالة لاسلكية مشفرة بين 1/ 5/ 1943 و 31/ 5/ 1944، تمكنت من فك شيفرة 13122 رسالة منها (دايفيد كاهن: مرجع سابق،

ص 205).

58 ـ الملاحظتان 53 و 55.

59 ـ الملاحظتان 53 و 55.

60 ـ نجح مكتب الاقتصاد الميداني في فك شيفرات الأرقام المتسلسلة للأسلحة، وللدبابات والطائرات... الخ السوفييتية. هكذا كان ممكنا تحديد رقم إنتاج النموذج الذي يتم غنمه أو تدميره، والمصنع الذي أنتجه، وسنة وشهر صنعه. تلك كانت مساعدة قيمة لشعبة الجيوش الأجنبية شرق عند قيامها بوضع تقديرات لخزين واحتياطي أسلحة الجيش الأحمر .(دايڤيد كاهن: مرجع سابق، ص 378).

61 ـ نزل يوم 25 شباط/فبراير 1941 إلى شاطئ طرابلس القسم الأول من الكتيبة الثالثة الملازم أول سيبوم) لشعبة الاستخبارات 56 (يانوش بيكالكيفيتش: رومل والاستخبارات في شمال أفريقيا 1941 -1943. ميونيخ 1984، ص 40). وفي 24 نيسان/أبريل نزلت إلى الشاطئ في طرابلس الأقسام الأخيرة من الكتيبة بقيادة الملازم أول سيبوم. وكانت كتيبة اللاسلكي قد استخدمت سنتي 1941 / 1942 لرصد إنجلترا لاسلكيا انطلاقا من الهافر، علما بأن سيبوم وكتيبته كانا قد قاتلا خلال حملة فرنسا ضمن فرقة رومل السابعة المدرعة (المرجع ذاته، ص 52).

منذ مطلع حزيران/يونيو سنة 1942 تمكن الاستطلاع اللاسلكي للجيش الثامن البريطاني من كشف كتيبة تنصت سيبوم الكثيرة الاتصالات البرقية، وتحديد موقعها.

أما الرسائل اللاسلكية، التي تم فك رموزها في بلتشلي بارك ووضعت أمام القائد الأعلى للشرق الأوسط، فجعلت الإنجليز يعرفون أن الكتيبة هي أهم مصدر معلومات لدى رومل (المرجع ذاته: ص 135)

62 ـ لم تعد كتيبة التنصت التابعة لفيلق أفريقيا قادرة منذ 27 أيلول/سبتمبر 1941 على التقاط وفك رموز الرسائل اللاسلكية، التي كانت تصدر عن الملحق العسكري الأميركي في القاهرة، العقيد فيلرز. أما التقاط الرسائل فقد تم بواسطة مراكز تنصت الجيش على البيجنتس والتروينبريتسن قرب برلين، ثم كانت ترسل إلى القيادة العليا للقوات المسلحة / قسم الشيفرة، لفك رموزها، قبل أن تصل إلى رومل. وكان العقيد فيلرز يبعث بتقارير يومية عن أوضاع الجيش الثامن البريطاني، يذكر فيها كل ما يتعلق بقوته القتالية وتسليحه وتعزيزاته وخططه الميدانية. (المرجع نفسه، ص 78).

في الرابع والعشرين من حزيران/يونيو 1942، لفت بلتشلي بارك نظر القيادة العليا في القاهرة إلى تقرير إنيجما يقول إن الإنجليز تعرضوا لهزيمة حاسمة، حسب تقدير

الملحق العسكري الأميركي في القاهرة (المرجع نفسه، ص 140).

يوم 29 حزيران/ يونيو، انقطعت فجأة اتصالات العقيد اللاسلكية، لأن قسم الشيفرة في القيادة لم ينجح في فك الشيفرة الجديدة، التي اعتمدها الجيش الأميركي. (المرجع ذاته، ص 143).

63 ـ في نهاية حزيران/ يونيو، دفع المقدم سيبوم كتيبته بعيدا نحو الأمام، فصار موقعها على البحر مباشرة. أما السبب فكان ضمان استقبال واضح وخالي من التشويش لاتصالات العدو الأكثر أهمية.

في العاشر من حزيران/ يونيو 1942 تم القضاء على الموقع بواسطة عملية كوماندو قام بها فوج المشاة السادس والعشرين الأسترالي، خص بها الكتيبة. وقد سقط المقدم سيبوم ونائبه و71 صف ضابط في الأسر، وغنم الأستراليون تجهيزات الكتيبة كاملة وجميع مستنداتها على وجه التقريب، وهي تبين طريقة عملها وتنظيمها، إلى جانب أكداس من الورق هي رسائل برقية إنجليزية تم فك شيفراتها (المرجع ذاته، ص 158).

64 ـ تمت المصادقة يوم 25 تموز/ يوليو سنة 1942 في لندن على عملية «تورش»، أعني الإنزال الحليف في مراكش والجزائر. وقد تم الإنزال يوم 7/ 8 تشرين أول/ أكتوبر 1942 تحت قيادة الجنرال أيزنهاور، دون أن يمثل مفاجأة تامة للقيادة الألمانية .(هاينس ماجنهايمر: استراتيجية ألمانيا العسكرية 1940/ 1945. ميونيخ 1997، ص 196).

ليس لمصير كتيبة سيبوم، التابعة لفيلق أفريقيا، علاقة بالإنزال الحليف في مراكش والجزائر. لقد كانت مهمتها رصد الجيش الثامن البريطاني، الذي كان يعمل انطلاقا من القاهرة. كانت إدارة الحرب البحرية هي التي اكتشفت يوم 3/ 11/ 1942، عبر محطة الرصد التابعة لها في الجزيرة، امتلاء ميناء جبل طارق بالسفن الحربية وناقلات الجند. كما أبلغ القائد الأعلى جنوب (المارشال كيسيلرينج) عن وجود هذه السفن، بعد أن وصلته صور الاستطلاع الجوي الألماني للمرفأ (يوميات الحرب / القيادة العليا للقوات المسلحة 1942، الجزء الثاني، ص 901 وما يليها). أما أن هتلر لم يصدق نبأ الإنزال بسبب الغواصات الألمانية، فهو أمر لا تؤكده أدبيات الحرب والمستندات الموثقة. كتب مدون يوميات الحرب في القيادة العليا للقوات المسلحة جاينر يوم 5 تشرين أول/ أكتوبر 1942: «يشعر الفوهرر بالقلق مجددا بسبب أخبار جديدة كثيرة بعث بها العملاء، ترى أن الإنجليز قد يقومون بمحاولات إنزال في الغرب» المرجع ذاته، ص 794). هذا «القلق المتجدد» ارتبط بمحاولة الإنجليز القيام بإنزال في ديبه على الشاطئ الفرنسي للقنال يوم 19/ 8/ 1942.

65 ـ كان جيهلن في هذا الوقت عقيدا في الشعبة الثالثة بالأركان. وقد رفع إلى جنرال يوم 1 كانون الأول/ديسمبر سنة 1944. ينتقد هانس ـ هاينريش فيلهلم «الهجوم السوفييتي الذي تم التنبؤ به مسبقا»، في كتابه: تنبؤات شعبة الجيوش الأجنبية شرق 1942 -1945. شتوتجارت 1974، ص 56 وما يليها).

66 ـ لم يكن الفوهرر وحده هو الذي لم يكلف بمهام تقصي واستطلاع .بدورها، لم تكلف القيادة العليا للقوات المسلحة والجيش بمهام كهذه أو كلفت بها مرات نادرة. أما شعبتا الجيوش الأجنبية شرق وغرب، التابعتان للأركان العامة، فقد اكتفتا بالتعبير عن رغبات وبطرح استفسارات. كما ترك النظام الاستخباري جمع المعلومات عن العدو لمجموعات الجيوش والوحدات التابعة لها (جيش، فرقة). وقد أوضح العميد فارليمونت، نائب رئيس أركان قيادة القوات المسلحة: «أن معلومات العملاء، التي كانت متاحة للقيادة العليا للقوات المسلحة، كانت تصلها عموما من خلال مصفاة شعبة الجيوش الأجنبية غرب وحدها». (يوميات الحرب، الجزء الثاني، ص 797). هكذا كان الوضع أيضاً في ما يتعلق بمعلومات الاستطلاع البرقي.

67 ـ كان الرصد عند مضيق جبل طارق يستطيع مراقبة حركة السفن وحدها، لكنه لم يكن يستطيع، بطبيعة الحال، تحديد وحدات القوات الموجودة هناك.

68 ـ تابع الملاحظة رقم 39.

تمت عملية الشرطة الاتحادية السويسرية بناء على وشاية قدمها لها عميل لمكتب الأمن الألماني.

69 ـ راقبت دوائر اللاسلكي والقياس والسبر التابعة لبريد الرايش الألماني الاتصالات اللاسلكية في منطقة الرايش. وكان من صلاحيات البريد أيضاً تسجيل هواة اللاسلكي ومنحهم الرخص .أما مراكز اللاسلكي غير الشرعية، فكانت الشرطة تلاحقها، وتقضي عليها. لم يصبح الجنرال المتقاعد وقائد مجموعات الـ إس.إس إيرنست زاكس مديرا لنادي هواة الراديو الألماني إلا سنة 1940. وقد ترأسه قبله الأميرالان دكتور جروس وجيبهارد (خبر مكتوب من هانس زورجنفراي (تشرين ثاني/نوفمبر 1988).

70 ـ هناك ملخص قصير موثق حول الـ«روته كابيله» في كتاب يانوش بيكالكيفيتش: تاريخ الجاسوسية في العام. ميونيخ، 1988، ص 398 وما يليها).

71 ـ أسس قائد الفرقاطة المهندس أوتوشمولنسكه مكافحة اللاسلكي مطلع سنة 1940 (خبر مكتوب من هانس زورجنفراي (تشرين أول/أكتوبر 1988).

72 ـ حدثت العملية التي يصفها الجنرال براون، بعد أن تم بنجاح فك شيفرة

التقارير، التي كان يرسلها مبعوث أميركا في بيرن. وكان وجود النصوص الحرفية لرسائل بعث بها هتلر إلى موسوليني مفاجأة كبيرة لقيادة القوات المسلحة الألمانية، التي اعتقدت بوجود خيوط تمتد من وزارة الخارجية الإيطالية إلى الطرف الآخر (يوميات الحرب: مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 1800). ليس من المستبعد أن مصدر آلن دالس، جورج وود (فريتز كولبه) هو الذي أوصل التقارير. فقد أرسل عددا من التقارير كبيراً إلى درجة طرحت جعلت دالس يحار في كيفية إرسال معلوماته جميعها باللاسلكي إلى واشنطن بوسائله الشيفرية الخاصة، علما بأن قسم الشيفرة في القيادة العليا للقوات المسلحة عجز عن فك شيفرة اتصالاته اللاسلكية.

73 ـ كانت الشرطة الميدانية السرية مسؤولة عن القبض على عملاء اللاسلكي في المناطق المحتلة من قبل القوات الألمانية المسلحة، والقضاء عليهم.

74 ـ تابع الملاحظة رقم 39 و47.

75 –طلب قائد رايات الـ إس.إس آنذاك ورئيس الاستخبارات الخارجية في مكتب الأمن هاينس جوست 150 بذة عسكرية بولونية من أجل العملية، وأسلحة وهويات عسكرية بولونية (هاينس هونه: كاناريس. وطني مشكوك في أمره. ميونيخ 1976، ص 323 وما يليها).

76 ـ هذه العملية عند ممر يابلونكا نفذها منتسبون إلى الشعبة الثانية في المكافحة (المرجع ذاته، ص 321 وما يليها).

77 ـ كان الملحق العسكري الألماني في موسكو الجنرال كوسترينج نائبه العقيد كريبس يوم 7 أيار/مايو 1941 عن الفوهرر. وقد أوضحا: «أن الجيش السوفييتي لم يتحسن بصورة جوهرية، وأنه يفتقر إلى هيئة قيادية جيدة». (يوميات الحرب 1940 / 1941، الجزء الثاني، ص 393).

78 ـ كان تقدير الجيش السوفييتي أدنى من ذلك لدى القوات المسلحة البريطانية. تابع الملاحظة رقم 19.

79 ـ منذ فتح السوفييت أرشيفهم بصورة جزئية أيضاً، وجعلت بالإمكان عقد مقارنة مع الجانب الآخر عند بداية الحرب يوم 22 حزيران/يونيو 1941، لم يعد ممكنا الحديث أن الجيش الألماني وشعبة الجيوش الأجنبية «كانا يتخبطان في الظلام». رغم النواقص والعيوب في جمع المعلومات وتقويمها، كانت صورة العدو بمجملها تتفق حتى عمق 300 كيلومتر مع الواقع. (هاينس ماجنهايمر: مرجع سابق، ص 95).

80 ـ تقدم المعلومات الحديثة والأحدث، التي تم الحصول عليها بعد الفتح

الجزئي لأراشيف السوفييت، صورة مختلفة تمام الاختلاف. فقد ارتطمت الجيوش الألمانية عند بداية الحرب بالحشد السوفييتي وتوغلت فيه، وحسب العقيدة العسكرية السوفييتية، التي كان معمولا بها آنذاك، كان يجب نقل المعركة الدفاعية إلى منطقة المعتدي. أنظر فصل «الحرب الوقائية أو حرب المهاجمين» في هاينس ماجنهايمر: مرجع سابق).

81 ـ لم يكن في أي وقت عملاء في مركز قيادات العدو. انظر الملاحظة رقم 35.

82 ـ تابع الملاحظة رقم 81.

83 ـ يوجد نقد لتقويم شعبة الجيوش الأجنبية شرق لوضع العدو قبل معركة ستالينجراد. تابع الملاحظة رقم 5.

84 ـ تابع الملاحظة رقم 5.

85 ـ تابع الملاحظة رقم 34.

86 ـ من غير الممكن الحديث عن السرية التامة للغزو الحليف. فقد توقعت قيادة القوات المسلحة وقوعه. (هاينس ماجنهايمر: مرجع سابق، ص 285 وما يليها).

87 ـ احتلت أهمية كبيرة على الجانب الألماني «مساجلة الدبابات»، التي انعكست بقوة على القيادة العملياتية للحرب. هذا الجدال بين المارشال رومل، القائد الأعلى لمجموعة الجيش (ب)، والجنرال جاير ڤون شڤيبنبورگ، قائد المجموعة المدرعة غرب، انصب آنذاك على طلب رومل توزيع كل ما يمكن توزيعه من دبابات وفرق مدرعة على اقرب مواقع ممكنة من الشاطئ، لرميها في مواجهة العدو النازل وهو في أكثر حالاته ضعفا، بينما أراد الجنرال جراي، بالمقابل، وضع قوى مدرعة قليلة في مناطق القتال الأمامية، كي يمكن فيما بعد، عندما تتضح نقاط ثقل الإنزال المعادي، الضرب بكل ما لدى الألمان من قوة. وبما أنه لم يتخذ قرار حول الأمر، فقد وجد القائد الأعلى غرب المارشال فون رونشتيدت حلا وسطا، ووضع ثلاث فرق مدرعة فقط تحت إمرة رومل، من أجل منطقة شمال اللوار بأسرها. (المرجع ذاته، ص 287 وما يليها).

88 ـ مثلما أعدت شعبة الجيوش الأجنبية شرق تقريرها حول وضع العدو، وأوصلته إلى الفوهرر عبر رئيس أركان الجيش، هكذا فعلت شعبة الجيوش الأجنبية غرب عبر أركان قيادة القوات المسلحة (جنرال يودل). إنه أمر مسلم به إذن أن هتلر كان يطلع بصورة دورية على وضع العدو غرب. أما الجهة الاستخبارية المذكورة هنا، فكانت تنتمي إلى شعبة الدفاع البري، التي أعيدت تسميها في 1 كانون الثاني/ يناير 1942، وصار اسمها نائب رئيس مكتب قيادة القوات المسلحة جنرال المدفعية فالتر فارليمونت. (يوميات

الحرب، الجزء الثاني، ص 1759).

89 ـ بدأت الحكومة البريطانية سنة 1977 بالإفراج الجزئي عن الرسائل اللاسلكية، التي تم فك شيفرتها في بلتشلي بارك. منذ هذا الوقت، صار معروفا الحجم الكامل لعملية الخداع الكبرى المسماة «فورتيتود»، التي لعبت دورا حاسما في نجاح الإنزال. لم تكن هذه الوقائع معروفة للمؤلف، لذلك قمت في ما يأتي بتصحيح واستكمال الأحداث الموصوفة في فصل «أوفرلورد أو المفاجأة الناجحة»، انطلاقا من نظرتنا الحالية.

في أيار/مايو 1941 كانت الرقابة الكاملة على الاتصالات اللاسلكية للعملاء الألمان الذين تعاونوا أيضاً مع الإنجليز أحد أهم مستلزمات نجاح مناورة الخداع «فورتيتود». وقد نجح التضليل لأن بلتشلي بارك فك منذ سنة 1940 الشيفرة اليدوية، التي كان يستخدمها عملاء ألمانيا جميعهم. كما نجح بلتشلي بارك في خريف 1940 في قراءة مفتاح الـ«إنيجما» المخصص للمكافحة. وكان هذا المفتاح يستخدم من قبل المكافحة في برلين في اتصالاتها مع مراكزها في الخارج، المسماة «مراكز تنظيم الحرب» (ومنها على سبيل المثال مدريد وأنقرة وبوينوس آيريس... الخ). لكنها كانت تستخدمه أيضاً في اتصالها مع مراكزها في هامبورج وباريس... الخ، حيث كانت الاتصالات تتم عبر اللاسلكي، وكانت بلتشلي بارك تقرأ رسائلها جميعها.

مثال: لنفترض أن عميلا يعمل في بريطانيا العظمى اتصل بمركز المكافحة، الذي يتبع له عبر اللاسلكي، مستخدما نصا مشفرا بواسطة المفتاح اليدوي، وليكن هذا المركز في هامبورج أو مدريد، حيث يتم فك شيفرة النص ويزود بمعلومات إضافية عن مصدره ويرسل عبر الـ«أنيجما»، بعد أن يشفر من جديد، إلى مركز المكافحة في برلين باللاسلكي. منذ كانون الأول/ديسمبر من سنة 1941 كانت بلتشلي بارك تقرأ النصين واستفسارات المركز في برلين حول المصدر ودرجة صدقيته، وتقومهما.

هكذا نجح جهاز الاستخبارات البريطاني الداخلي (م15) بمعونة بلتشلي بارك بالتعرف على جميع عملاء ألمانيا في بريطانيا العظمى أو بإلقاء القبض عليهم، وبتجنيد من اعتبره منهم مناسبا لأغراضه كعميل مزدوج، أو بمحاكمته وشنقه. وهذا أمر كانت له أهميته، لأنه كان يحول دون معرفة المكافحة في برلين بحقيقة ما يحدث. هكذا بنت الاستخبارات البريطانية شبكة من العملاء الألمان الحقيقيين والمتخيلين، تكفلت بتزويد المكافحة الألمانية بالمعلومات. أما الهدف فكان تعزيز صدقية العملاء لدى المكافحة والحفاظ عليها، وتقديم صورة خاطئة عن الوضع، تحول دون بروز شكوك لدى المكافحة وشعبة الجيوش الأجنبية غرب. كانت بلتشلي بارك عنصراً لا يمكن الاستغناء عنه لعملية «دبلكروس» هذه، لأنه كان يراقب اتصالات العملاء اللاسلكية ويقرأ ردود

أفعال المكافحة على أخبارهم.

في مطلع سنة 1944 بدأ العقيد فيلد، المسؤول عن «فورتيتود» الإعداد في مقر الجنرال أيزنهاور الرئيس لعملية الخداع الكبرى:

«فورتيتود شمال»، وكان يراد بها الإيحاء بوجود جيش بريطاني رابع في سكوتلندا، لإيهام الألمان بوجود تهديد للنرويج، فلا يسحبون أي وحدات من هناك ويرسلونها إلى فرنسا.

«فورتيتود جنوب» وهي أكثر المناورات التضليلية أهمية، وكان يراد بها الإيحاء بوجود مجموعة جيش أميركية أولى بقيادة الجنرال الأميركي باتون، ستنطلق من جنوب - شرق إنجلترا لتقوم بالإنزال الثاني والأهم على الشاطئ الفرنسي للقنال، بهدف منع الجيش الخامس عشر الألماني، المرابط في هذه المنطقة، من الهجوم على منطقة الإنزال الحقيقي في النورماندي. وقد حققت «فورتيتود جنوب» غرضها هذا، فقد بقيت فرق هذا الجيش على أهبة الاستعداد في مواقعها، بانتظار الإنزال الثاني، الذي لم يحدث.

وكان الجنرال أيزنهاور قد واجه العقيد فيلد بالطلب التالي: «احرص على أن لا يعترض الجيش الخامس عشر الألماني طريقي في اليومين الأولين. لا أطلب منك أكثر من هذا». كتب الجنرال فارليمونت في ملاحظة لأركان قيادة القوات المسلحة بتاريخ 20 أيلول/ سبتمبر 1944: «16 حزيران/ يونيو... تتعثر إجراءاتنا الخاصة بسبب جاهزية العبور لدى مجموعة الجيش الأميركي الأولى، التي ترابط في جنوب شرق إنجلترا ويرجح أن تشن هجوما ضد الجيش الخامس عشر». (يوميات الحرب، الجزء الأول، ص 456).

وكان هناك قسم آخر من «فورتيتود» يسمى «تسيبيلين»، هو المناورة التضليلية، التي انطلقت من القاهرة، وكان هدفها منع القيادة الألمانية من سحب أي فرق من البلقان، عند بداية الغزو. وهو ما حدث بالفعل.

نفذت كذلك مناورات تضليلية تجاه شبه الجزيرة الأيبيرية. يذكر ملخص أركان قيادة القوات المسلحة يوم 19/ 6/ 1944: «أمرا بإيقاف التحضيرات ذات الصلة بعمل ألماني في شبه الجزيرة الأيبيرية لردع إنزال عدو على شاطئ إسبانيا الشمالي» (المرجع ذاته، ص 457).

(أوفه برامر: مكافحة الجاسوسية و«مكتب المعلومات السري». مركز المكافحة X في هامبورغ 1935 -1945. فرايبورج 1989.

أنطوني كيف براون: حراس الأكاذيب. نيويورك 1977.

هيلموت جونتر دامس: الحرب العالمية الثانية. ميونيخ 1999.

ف. هينسلي، و. توماس، ث رانسوم، ر. نايت: الاستخبارات البريطانية في الحرب العالمية الثانية، الجزء الثالث، لندن 1984.

هاينس ماجنهايمر: استراتيجية ألمانيا العسكرية 1935 -1945. ميونيخ 1997.

يانوس بيكالكيفيتش: تاريخ الجاسوسية العالمي. ميونيخ 1988.

يورجن روهر، إيبرهارد يكل (الناشر): استطلاع اللاسلكي ودوره في الحرب العالمية الثانية. شتوتجارت 1979.

بيرسي شرام (الناشر): يوميات الحرب للقيادة العليا للقوات المسلحة 1940 – 1941. الجزء الأول. هيرشينج 1982.

ميخائيل سميث: المحطة . X محطمو الشيفرة في بلتشلي بارك. لندن 1998.

90 ـ يتبنى المؤرخون الأنجلوساكسون وجهة نظر تقول إن قادة الجيوش الحليفة وضباط استخباراتهم عودوا أنفسهم كثيراً على تلقي تقارير «ألترا» بصورة يومية، أو على أخذ ما يرد فيها بعين الاعتبار. وكانت «ألترا» تختفي ببساطة، عندما يفرض الجانب الألماني على نفسه صمتا لاسلكيا. (يورجن روهر، إيبرهارد يكل: استطلاع اللاسلكي ودوره في الحرب العالمية الثانية، ص 277). كان القياديون من العاملين في بلتشلي بارك يرون الأمر بصورة مختلفة: فقد طار مندوبان عنها إلى مقر القائد الأعلى للقوات الحليفة الجنرال أيزنهاور في باريس، وأخبروا الجنرال سترونج، ضابط الاستخبارات الملحق به، بوجود علامات على قرب وقوع هجوم كبير للألمان في الأردين. وقد أوضح كينيث سترونج قائلا: «هذا هي طريقتنا في قراءة ما يجري: تقع أمامنا مباشرة الجبهة، وهي تمتد من بحر الشمال إلى سويسرا، ويخسر الألمان كل يوم إحدى فرقهم فيها، وهم لا يستطيعون تحمل هذا، ولن يلبثوا أن ينهاروا». لم تكن الإشارات، التي تدل على أن الألمان يخططون لهجوم مضاد كبير، واضحة بالقدر، الذي تمت ملاحظته في حالات «ألترا» الأخرى. مع ذلك، لم يكن هذا خطأ أجهزة جمع المعلومات، بل كان خطأ تحليل طويل الأمد لنوايا الألمان، نشأ عن الاقتناع بأن الحرب انتهت عمليا. بعد أسابيع ثلاثة، بدأ هجوم الأردين. أما أوضح علاماته، فكان فك شيفرة رسالة برقية ديبلوماسية يابانية مرسلة من برلين إلى طوكيو، وقد حمل فكها في بلتشلي بارك اسما رمزيا هو «ماجيك». تحدث اليابانيون عن الهجوم المقبل، وكانت التقارير التي وصلت إلى «ألترا» تبين بجلاء أن بقايا الفرق المدرعة الألمانية نقلت من بلاد الراين إلى بلجيكا. لكن أقوى العلامات على الهجوم المقبل كان واقعة أن طائرة الـ م.إي 262 (أول طائرة نفاثة) كانت

تقوم بطلعات استطلاعية يومية فوق منطقة الأردين (ميخائيل سميث، مرجع سابق، ص 168 وما يليها).

91 ـ بقي الجنرال سترونج رئيس الاستخبارات في هيئة أركان أيزنهاور حتى استسلام قوات ألمانيا المسلحة. ومن المؤكد أنه ذكر نفسه بالطريقة التي صار بها في شهر شباط/فبراير من سنة 1943 ضابط استخبارات أيزنهاور في شمال أفريقيا، فبعد معركة ممر القصرين يوم 20 / 2/ 1943، التي انتهت بخسائر فادحة جداً على الجانب الأميركي، طلب أيزنهاور التغيير الفوري لضابط استخباراته البريجادير البريطاني موكلر ـ فريمان، فكان خلفه الجنرال كينيث سترونج (يانوش ببيكالكيفيتش: رومل وأجهزة الاستخبارات في شمال أفريقيا 1941 –1943. ميونيخ 1984، ص 219).

92 ـ وضعت بلتشلي بارك تقريراً فيما بعد، يثبت وقوع قيادة القوات الحليفة في أوروبا ووزارة الطيران البريطانية في أخطاء وإهمالات أثناء تقويم وضع العدو (ميخائيل سميث، مرجع سابق، ص 169).

93 ـ استخدم هتلر «فيرفولف» (أيشنهاين) ثلاث مرات فقط:

ـ من 16 تموز/يوليو إلى 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1942، تخللتها رحلة إلى برلين امتدت من 27 أيلول/سبتمبر إلى 4 تشرين الأول/أكتوبر 1942.

ـ من 19 شباط/فبراير إلى 13 آذار/مارس 1943، عدا الفترة من 22 إلى 25 شباط/فبراير 1943.

ـ يوم 27 آب/أغسطس 1943 (فرانز سايدلر، ديتر تسايجرت: مقرات الفوهرر الرئيسة، ميونيخ 2000، ص 299).

في تشرين أول/أكتوبر من سنة 1943 استخدم مارشال فون مانشتاين المنشأة لإيواء المقر الرئيس لمجموعة الجيش جنوب. وفي يوم 28 كانون الأول/ديسمبر أمر الفوهرر بنسف «فيرفولف» (المرجع السابق، ص 235).

94 ـ بقي الفوهرر من 11 كانون الأول/ديسمبر إلى 15 كانون الثاني/يناير 1945 في «عش النسر». سافرت الهيئة الميدانية لأركان قيادة القوات المسلحة يوم 15 كانون الأول/ديسمبر 1944 إلى الغرب بالقطار الخاص «فرانكن»، ونزلت في ثكنة فريدبرج على بعد عشرة كيلومترات من مكان هتلر. بينما حل المارشال كايتل والعماد يودل وأركانهما الشخصية في ما كان يسمى بيت ضيوف أركان قيادة القوات المسلحة في «عش النسر». (المرجع السابق، ص 154).

95 ـ تركزت الهجمات الجوية ضد قصر تسيجنبرج على المقر الرئيس للقائد العام

غرب، وكان حتى التاسع من آذار/ مارس 1945 المارشال فون رونشتيدت. أما خلفه، فكان المارشال كيسلرينج، الذي وصل إلى عش النسر ليلة العاشر من آذار/ مارس 1945. في 19 آذار/ مارس هاجم الطيران الأميركي المكان والقصر، وحدثت غارات أخرى يوم 21 أو 24 من الشهر نفسه. وفي 27 غادر كيسلرينج موقعه القتالي، ووصلت فرقة المشاة الأميركية 76 إلى تسيجنبرج ليلة 30 / 31 آذار/ مارس 1945 (المرجع ذاته، ص 160).

96 ـ كان العقيد شتريفه قائد مقر الفوهرر الرئيس (المرجع ذاته، ص 310).

97 ـ لم تنقل فقط أقسام من شعبة الجيوش الأجنبية شرق إلى بادرايشنهال، بل نقلت كذلك أقسام أخرى من قيادة الجيش العليا.

98 ـ ثمة خلفيات أخرى للأحداث التي يصفها المؤلف، اتضحت في الآونة الأخيرة، أعرضها باختصار في ما يأتي...

يخبرنا الجنرال جيهلن في كتابه «الخدمة» عن معرفته بالمستندات التي تم الحصول عليها من «شيشرون»، وتقول إن الأميركيين سيتخلون عن تورينجن مقابل الحصول على نصف برلين الغربي كمنطقة احتلال أميركية. (راينهارد جيهلن: مرجع سابق، ص 137).

في ذلك الوقت، كان «شيشرون» قد انكشف منذ فترة طويلة، ولم يعد موجودا كعميل ألماني. والواقع، أن الأمر يتعلق هنا بخطة الحلفاء تقسيم ألمانيا إلى مناطق احتلال وبرلين إلى قطاعات محتلة. هذه الخطة كان قد تم الوصول إليها سنة 1944 في لندن من قبل بريطانيا العظمى والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. ثم انضم إليها دوغول فيما بعد، عقب احتجاجات عنيفة، وحصل على منطقة احتلال وقطاع في برلين. هذه الخطة «إيكليبس»، التي يظن أن الألمان غنموا أجزاء منها على الأقل خلال هجوم لأردين، أرسلت شعبة الجيوش الأجنبية غرب نسخة منها إلى شعبة الجيوش الأجنبية شرق. بذلك كان تقسيم ألمانيا مسألة مقررة. لا بد من أخذ هذا بعين الاعتبار، عند تقويم قرار أيزنهاور القيام بانعطافته الشهيرة نحو الجنوب.

في النصف الثاني من سنة 1945 حدثت خلافات شديدة جداً بين الجنرال أيزنهاور والمارشال مونتجمري حول قيادة الحرب، دارت من حيث المبدأ حول وجهات نظر أملتها عليهما اعتبارات تتعلق بالمكانة عبرت عن نفسها بالسؤال التالي: أي واحدة من الأمتين هي التي ستقوم بتسديد الطعنة القاتلة إلى النظام النازي؟. كتب المارشال البريطاني السير ألان بروك يوم 2/ 1/ 1945 يقول: «يقترح تشرشل استراتيجيات يراد لها أن تضمن بقاء القوات البريطانية في دائرة الضوء، على حساب الأميركيين إذا ما اقتضى الأمر». (كلاوس ديتمر هنكه: الاحتلال الأميركي لألمانيا. ميونيخ 1995، ص 381).

عندما بلغ الجيش السوفييتي في نهاية كانون الثاني/يناير منطقة الأودر الأوسط، بدأت أركان قيادة القوات المسلحة والجيش والبحرية الحربية وسلاح الجو، وكذلك سلطات الرايش، بتخفيض عديدها وملاكاتها في برلين تخفيضا شديدا .فذهبت البحرية الحربية تقليديا نحو الشمال، واتجه القسم الأكبر من الأركان والدوائر نحو الجنوب (فالتر لوده ـ نويرات: حكومة دونيتز، ليوني 1980، ص 27). ونقلت قيادة القوات المسلحة وقيادة الجيش العليا الكتلة الرئيسة من أركانها ووحداتها إلى منطقة بيرشتسجادن ـ رايشنهال. وكان لا بد من بناء ثكنات ومبانٍ إدارية كثيرة العدد هنا، نتيجة إقامة هتلر المتكررة في بيرشتسجادن، لإعداد تقارير الوضع من أجل الفوهرر في المكان عينه، التي كانت تقدمها القيادة العليا للقوات المسلحة وقيادة الجيش العليا وقيادة البحرية العليا والقيادة العليا لسلاح الجو. وقد أكد أمر الفوهرر، الصادر بتاريخ 5 نيسان/أبريل 1945 حول التنظيم الأوامر في منطقتين شمالية وجنوبية، إذا ما حدث انقطاع في التواصل الأرضي في وسط ألمانيا (يوميات الحرب، الجزء الثاني، ص 1587 وما يليها) ما كان قد حدث فعليا من انتقالات إلى خارج عاصمة الرايش منذ نهاية كانون الثاني/يناير سنة 1945. لا جدال في أن الحلفاء، وخاصة بلتشلي بارك، قد عرفوا هذه التطورات في طور مبكر، بفضل الاتصالات اللاسلكية المتزايدة والبرقيات التي كانت تبثها، وعلموا بتشكل أركان عسكرية كبيرة في شلزفيج ـ هولشتاين، وأكثر من ذلك في منطقة بيرشتسجادن، فضلا عن تكون أركانات لدوائر الرايش الأخرى. وطبيعي أن صورة الوضع، التي كان يمكن استخلاصها من الاتصالات اللاسلكية، كانت تعكس ما يحدث على الأرض، لا سيما وأن بلتشلي بارك استطاع منذ 1943 فك شيفرة الرسائل البرقية عن بعد بين مقر الفوهرر الرئيس والقيادات العليا لمجموعات الجيش، وقراءتها. هذه العملية جرت تحت اسم سري هو «فيش» (ميخائيل سميث: مرجع سابق، ص 140 وما يليها). وفي 11/ 12 نيسان/أبريل تشاور الجنرال أيزنهاور مع جنرالاته برادلي وباتون وهودجز، وفي 14 نيسان/أبريل وضع خطة رؤساء الأركان المشتركة، التي جعلت هدفها إتمام هزيمة الألمان في أقصر وقت ممكن. وقررت أن تتقدم الجيوش في الشمال (مونتجمري) إلى لوبيك، لتعزل الدنمارك والنرويج، حيث كانت توجد فرق ألمانية. بينما كان على الجيوش ترسيخ مواقعها على نهري الإلبة والموندە، في حين تتقدم الوحدات المقاتلة في الجنوب نزولا على نهر الدون، عبر نورنبرج ـ ريجنسبورج ولينز، لتقيم اتصالا مع الجيش الأحمر. لم يكن هناك اعتراضات من رؤساء الأركان المشتركة، لأن مجموعات الجيوش 21 و12و16 تلقت يوم 15 نيسان/أبريل أوامر بالتنفيذ (كلاوس ديتمار هنكه: الاحتلال الأميركي لألمانيا، ميونيخ 1995، ص 790).

في هذه اللحظة، لم يكن هتلر قد قرر بعد البقاء في برلين. وكان مخططا أن ينتقل

يوم 20 نيسان/أبريل بالطائرة إلى المنطقة الجنوبية. وكان قد تم التحضير لنقل قيادات أركان القوات المسلحة المتبقية في برلين بالطائرة إلى الجنوب أيضاً. وفي 22 نيسان/أبريل قرر هتلر البقاء بصورة نهائية في برلين (يوميا الحرب، الجزء الثاني، ص 1756).

99 ـ صحيح: 116 فرقة مدرعة.

100 ـ دايثيد كاهن: الاستخبارات في الحرب العالمية الثانية: جريدة تاريخ الاستخبارات، صيف 2001، المجلد الأول، العدد الأول، هامبورج 2001، ص 2).

101 ـ ميخائيل موروتزوف: صقور الكرملين، ميونيخ 1982، ص 288.

102 ـ ثمة عرض تفصيلي حول هذه المشكلة في: هانس ـ ديتريش فيلهلم: تنبؤات شعبة الجيوش الأجنبية شرق 1942 -1945. شتوتجارت 1974، ص 28-30.

103 ـ سيرجي ماتيجيفيتش شتيمنكو: في الأركان العامة، برلين 1974، ص 112 وما يليها. جنرال جيش نيقولاي فيدوروفيتش فاتوتين، المنتصر في معركة كورسك، كان يعد واحدا من أكفأ جنرالات الاتحاد السوفييتي .خلال زيارة إلى الجبهة، تورط في معركة نارية عنيفة مع مقاتلين أوكرانيين من أجل الحرية وأصيب بجراح شديدة. ثم توفي يوم 15 نيسان/أبريل 1944. (جورجي جوكوف، ذكريات وأفكار. شتوتجارت، 1969، ص 501 وما يليها).

104 ـ كلاوس جيربيه (الناشر) الجنرال فيلد مارشال فيدور فون بوك. بين الواجب والعصيان. يوميات الحرب. ميونيخ 1995، ص 390.

105 ـ خبر شخصي من العقيد في شعبة الأركان الثالثة (الاستخبارات) لودندورف (أيلول/ سبتمبر 1986).

106 ـ خبر شخصي من المدير العلمي الدكتور جورج ماير. فرايبورغ، آذار/مارس 1994.

107 ـ خبر شخصي من الرئيس المتقاعد جيرهارد فيسل.

108 ـ ثمة وصف جدي لذلك في: راينهارد جيهلن: الخدمة .ماينز 1971، وبشيء أكبر من التفصيل وتواريخ مختلفة في: راينهارد جيهلن: الخدمة (بالإنجليزية) نيويورك 1972. هيرمان سولينج / هاينس هونه: بولاخ من الداخل. هامبورج 1971. ماري إلين ريز: منظمة جيهلن، برلين 1992.

109 ـ أنظر وصف جيهلن التفصيلي للأحداث في الأيام الأولى لوقوعه في الأسر في كتاب ماري إيلن ريز: منظمة جيهلن، برلين 1992، ص 83 وما يليها.

51. إلباس عميل ثياب إلـ إس إس قبل إرساله إلى ألمانيا.

52. نماذج دبابات مطاطية لخداع الاستطلاع الجوي الألماني وقد تم نشرها على ضفاف القناة البريطانية قبل الغزو.

obeikandl.com

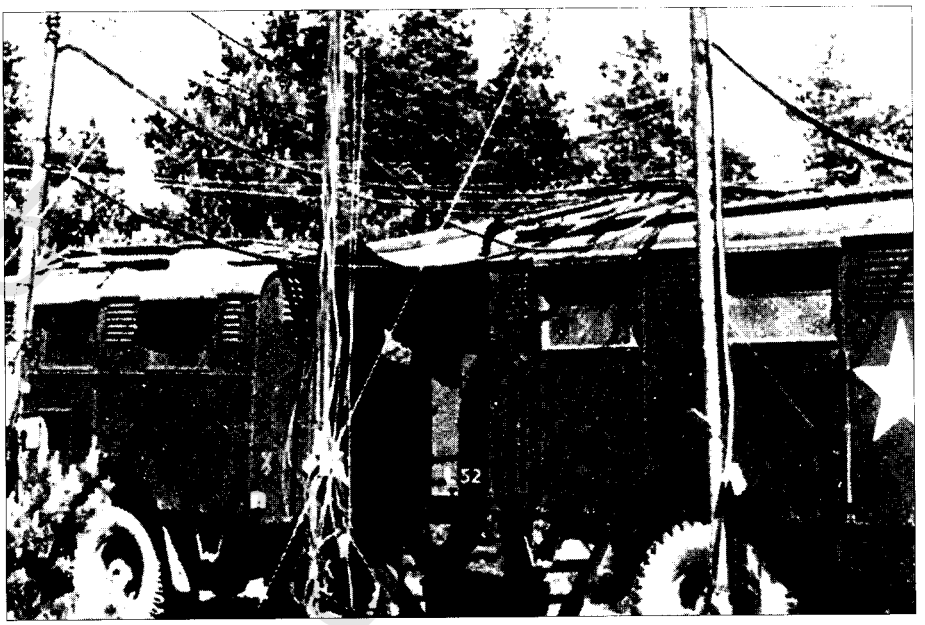

53. موقع برقي للإيحاء بوجود مجموعة جيش وهمية بقيادة الجنرال باتون.

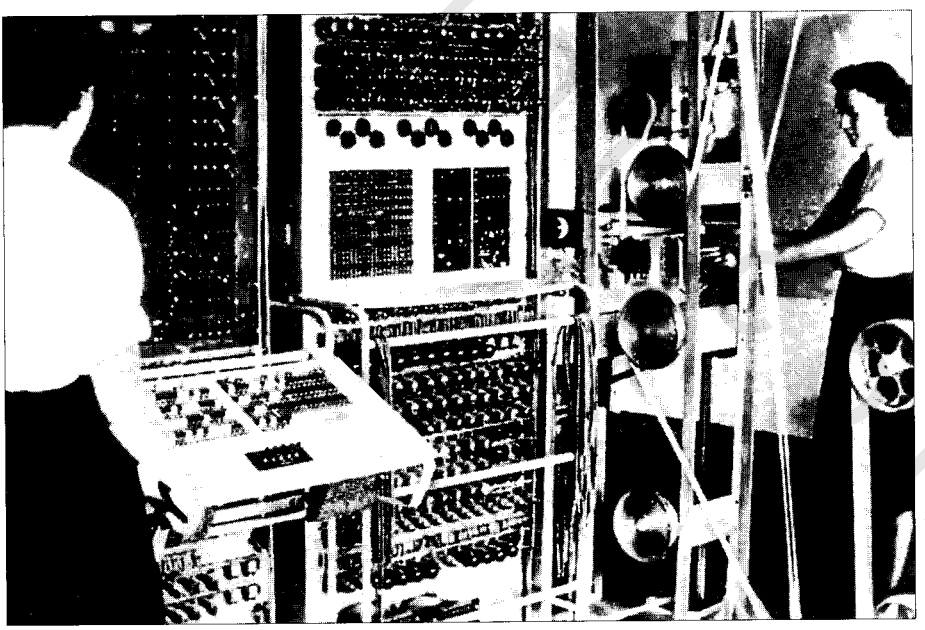

54. «كولوسوس» آلة فك الشيفرة في حديقة بلنتشلي المخصصة لفك الشيفرة الألمانية.

55. المقدم سيبوم، رئيس كتيبة التنصت الثالثة في شمال أفريقيا.

56. عربة مموهة تابعة للكتيبة التنصت الثالثة، التي أمدت رومل بمعلومات مهمة عن العدو.

57. جنرال هاينس جودريان في عربته القيادية المزودة بجهاز إنيجما سنة 1940.

58. «مكتب التشفير» البريطاني خلال مؤتمر يالطا عام 1945.

110 ـ جورج ماير (الناشر) الجنرال فيلد مارشال ريتر فون ليب، ملاحظات دفتر يوميات وتقويمات للوضع من حربين عالميتين. شتوتجارت 1976، ص 79.

111 ـ يوجد هذا التقرير، الذي يسمى أيضاً التقرير التحقيقي الأول للاستخبارات الخاصة في الأراشيف القومية، واشنطن / مجموعة التسجيلات 165، تحقيقات عن سجناء الحرب، وتاريخه 22/ 7/ 1945.

112 ـ نشر في: الاستخبارات العسكرية الألمانية 1939 ـ 1945. قسم الاستخبارات العسكرية. إدارة الحرب الأميركية، واشنطن 1984.

113 ـ إيرنيست ماي: انتصار غريب، احتلال هتلر لفرنسا، نيويورك 2000، ص 268.

114 ـ تبين أن هذه الإضافة ج لم تكن حصينة بدورها. وقد نجح بلتشلي بارك بواسطة الاسم الشيفري «فيش» في قراءة البرقيات اللاسلكية. أنظر الملاحظة رقم 98.

115 ـ كان ونستون تشرشل وراء إصدار تعليمات صارمة تمنع إبلاغ أخبار «أولترا» (إنيجما) و«ماجيك» (مفتاح الديبلوماسيين الياباني، الذي غالباً ما استخدمه السفراء والملحقون العسكريون في برلين) التي تم فك شيفرتها، دون تغييرها .لذلك لا يجد المرء في وثائق وزارات الحلفاء الغربيين وأركانهم العسكرية أي إشارة إلى «أولترا» أو «ماجيك»، كما لا يجد أي بلاغ على الإطلاق من بلتشلي بارك. لقد كانت جميع البلاغات تتعرض لعملية إعادة صياغة، تستر تماماً مصدرها، قبل إرسالها إلى الأركان من أجل تقويمها. أما المصادر التي كانت تذكر، فكانت على النحو الآتي: مصدر وثيق في القيادة العليا لقوات ألمانيا المسلحة. أسرى، اعتراف، ديبلوماسي ألماني، رقابة بريدية... الخ.

وعند الإرسال إلى موسكو، كان يتم التقيد الصارم بحجب المصدر، لأن البريطانيين كانوا يعرفون عبر «أولترا» أن الاستطلاع اللاسلكي الألماني حل جزئيا مفاتيح اللاسلكي السوفييتي. وكان على بلتشلي بارك الحيلولة بجميع الوسائل دون أن يفضي حل شيفرات الرسائل اللاسلكية السوفييتية، التي تتضمن معلومات «أولترا» إلى معرفة القوات المسلحة الألمانية أنه تم حل مفاتيح شيفرتها الخاصة.

أما واقعة أن الألمان فكوا مفاتيح سوفييتية، فلم يخبر البريطانيون حلفاءهم بها (يورغن روهر، إيبرهارد يكل (الناشر) مرجع سابق، ص 393 وما يليها).

obeikandl.com

الوثائق، والجداول والخرائط

obeikandl.com

obeikandl.com

ANLAGE 8

Taktische Zusammenarbeit der Nachrichten-Aufklärung mit den Kommandostellen des Heeres

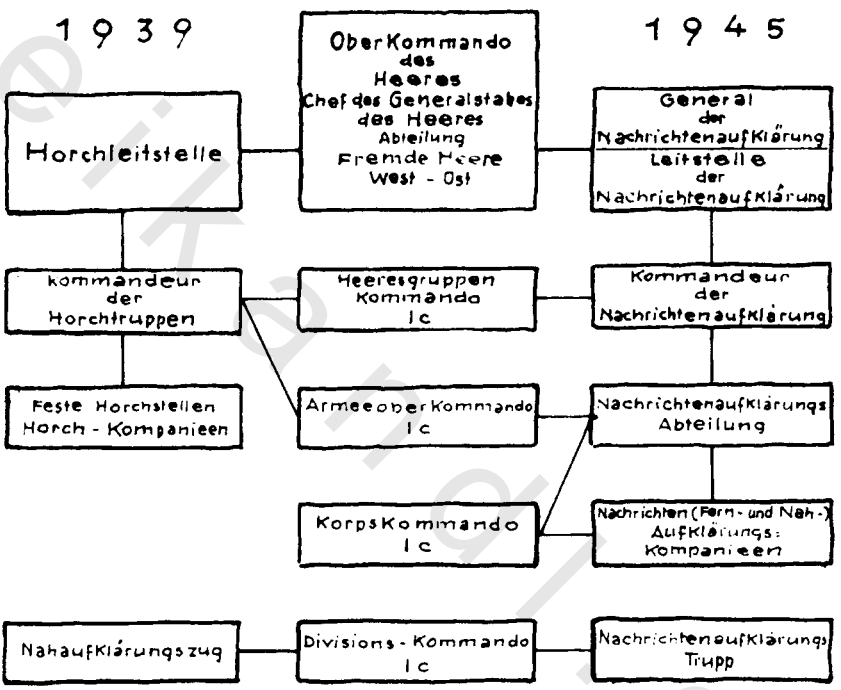

Die Unterstellung der Dienststellen und Einheiten der Nachrichtenaufklärung unter den Chef des Heeresnachrichtenwesens und die Nachrichtenführer der Kommandobehörden ist hier nicht berücksichtigt.

Braun 1950

Oberkommando der Wehrmacht
WFSt/Abt. L Nr. 33264/40 g.K.Chefs.
Geheime Kommandosache

FHQu, den 6. September 1940
7 Ausfertigungen
4. Ausfertigung

Betr.: Unterlagen für den Nachrichtendienst
Bezug: Abw. III Nr. 398/40 g.K. v. 26. 8. 40
OKH GenStdH Op.Abt. Ia Nr. 150231/40 g.K. v. 2. 9. 40

An
Ausl./Abw.

Der Ostraum wird in den kommenden Wochen stärker belegt werden. Bis Ende Oktober soll der aus anliegender Karte ersichtliche Stand erreicht sein.

Aus diesen Umgruppierungen darf in Rußland nicht der Eindruck entstehen, daß wir eine Ostoffensive vorbereiten. Andererseits wird Rußland erkennen, daß starke und hochwertige deutsche Truppen im Gouvernment, in den Ostprovinzen sowie im Protektorat liegen und soll daraus den Schluß ziehen, daß wir unsere Interessen — namentlich auf dem Balkan — gegen russischen Zugriff jederzeit mit starken Kräften schützen können.

Für die Arbeit des eigenen Nachrichtendienstes sowie für die Beantwortung von Fragen des russischen Nachrichtendienstes gelten folgende *Richtlinien:*

1. Die jeweilige *Gesamtstärke* der deutschen Truppen im Osten ist nach Möglichkeit dadurch zu verschleiern, daß Nachrichten über einen häufigen Wechsel der dortigen Heeresverbände gegeben werden. Dieser ist mit Verlegung in Ausbildungslager, Umformierungen usw. zu begründen.
2. Es ist der Eindruck zu erwecken, daß der Schwerpunkt der Belegung im *südlichen* Gouvernment, im Protektorat und in der Ostmark liegt, und daß die Belegung im Norden verhältnismäßig gering ist.
3. Bei Angaben über die *Ausrüstungslage* der Verbände, besonders der Panzer-Divisionen, ist erforderlichenfalls zu übertreiben.
4. Durch geeignete Nachrichten ist der Eindruck zu erwecken, daß nach Beendigung des Westfeldzuges der Flakschutz im Osten wesentlich verstärkt worden ist und an allen wichtigen Objekten aus franz. Beutematerial dauernd weiter verstärkt wird.
5. Über Verbesserungen an *Bahnen, Straßen, Flugplätzen usw.* ist anzugeben, daß die Arbeit sich in normalen Grenzen halte, durch den Ausbau der neugewonnenen Ostgebiete bedingt sind und vor allem dem Wirtschaftsverkehr dienen.

Inwieweit zutreffende Einzelangaben, z. B. über Regimentsnummern, Standortbelegung usw. der Abwehr für die Gegenspionage zur Verfügung gestellt werden, entscheidet OKH.

Der Chef des Oberkommandos der Wehrmacht
I. A.
gez. Jodl
F.d.R.
Hauptmann

[folgt Verteiler]

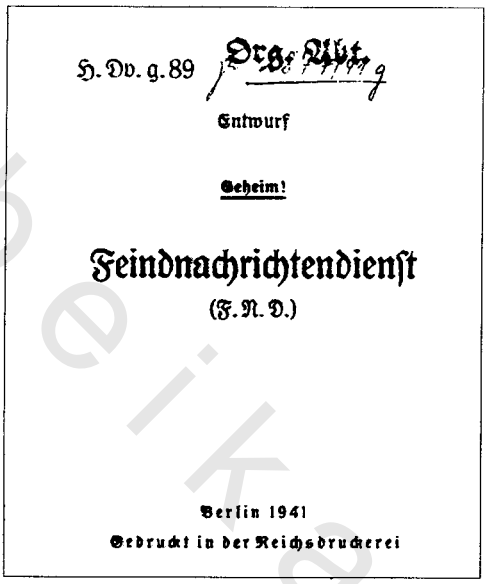

H. Dv. g. 89 Org. Abt. 9

Entwurf

Geheim!

Feindnachrichtendienst

(F. N. D.)

Berlin 1941

Gedruckt in der Reichsdruckerei

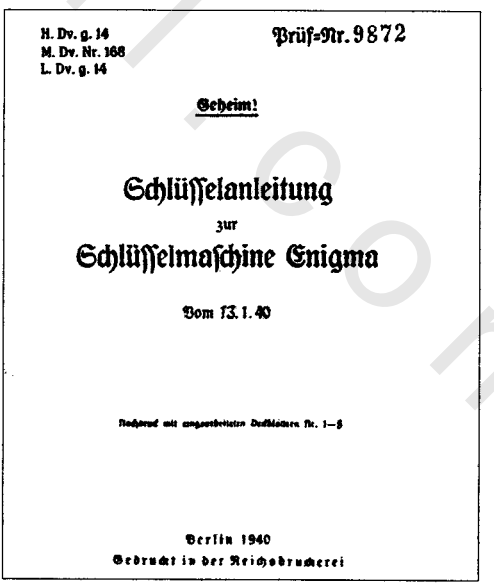

H. Dv. g. 14
M. Dv. Nr. 168
L. Dv. g. 14

Prüf-Nr. 9872

Geheim!

Schlüsselanleitung

zur

Schlüsselmaschine Enigma

Vom 13. 1. 40

Nachdruck mit ausgearbeiteten Druckblättern Nr. 1—8

Berlin 1940

Gedruckt in der Reichsdruckerei

obeikandl.com

»Ich befehle:

1. Es ist ein einheitlicher deutscher geheimer Meldedienst zu schaffen.

2. Mit der Führung dieses deutschen Meldedienstes beauftrage ich den Reichsführer SS.

3. Soweit hierdurch der militärische Nachrichten- und Abwehrdienst berührt wird, treffen der Reichsführer SS und der Chef OKW die notwendigen Maßnahmen im beiderseitigen Einvernehmen.

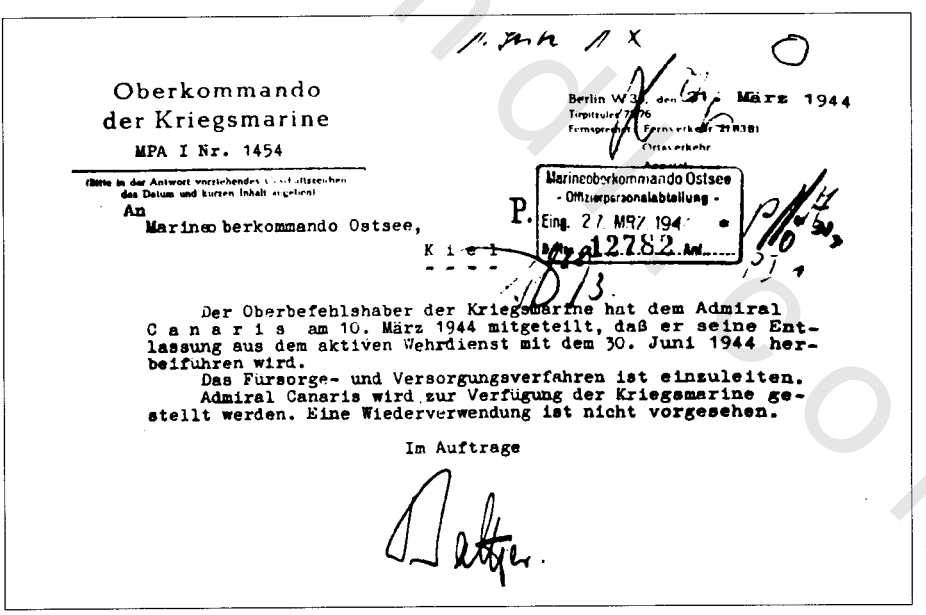

Oberkommando
der Kriegsmarine

MPA I Nr. 1454

(Bitte in der Antwort vorstehendes Geschäftszeichen und das Datum und kurzen Inhalt angeben)

An
Marineoberkommando Ostsee,

K i e l

Berlin W 35, den 21. März 1944
Tirpitzufer 72/76
Fernsprecher: Fernverkehr 21 91 81
Ortsverkehr

Marineoberkommando Ostsee
- Offizierpersonalabteilung -
Eing. 27 MRZ 1944
Anl. 12782

Der Oberbefehlshaber der Kriegsmarine hat dem Admiral C a n a r i s am 10. März 1944 mitgeteilt, daß er seine Entlassung aus dem aktiven Wehrdienst mit dem 30. Juni 1944 herbeiführen wird.

Das Fürsorge- und Versorgungsverfahren ist einzuleiten.

Admiral Canaris wird zur Verfügung der Kriegsmarine gestellt werden. Eine Wiederverwendung ist nicht vorgesehen.

Im Auftrage

Fremde Heere Ost H.Qu., den 15. 7. 1942

Kurze Beurteilung der Feindlage vom 15. 7. 42

Nach Abwehrmeldung bisher als zuverlässig erwiesener Quelle wurde in der Nacht zum 13. 7. der Militärrat in Moskau beendet. Die Meldung besagt:

Militärrat in Moskau, u. a. anwesend Schaposchnikow, Molotow, Woroschilow und der englische, amerikanische und chinesische Militärattaché, in der Nacht zum 13. 7. beendet.

Schaposchnikow erklärte Rückzug bis zur Wolga, so daß die Deutschen den Winter an der Wolga verbringen müssen. Beim Rückzug soll alles vernichtet und sämtliche Industrien nach dem Ural und Sibirien evakuiert werden. England erbat eine Unterstützung für Ägypten. Man gab zur Antwort, daß nicht so viel Mannschaftsreserven vorhanden seien, als angenommen würde. Außerdem mache sich Mangel an Flugzeugen, Panzern und Geschützen bemerkbar, was vor allem darauf zurückzuführen sei, daß ein Teil des für Rußland bestimmten und nach Basra gelieferten Materials England für Ägypten zur Verfügung gestellt wurde.

An zwei Stellen sollen Angriffe versucht werden, einmal nördlich Orel, zum anderen nördlich Woronesch; dabei sollen Luftflotte und Panzertruppen eingesetzt werden. Zur Ablenkung soll ein Stoß bei Kalinin geführt werden. Stalingrad, Noworossijsk und der Kaukasus sollen gehalten werden.

Die Entwicklung des Gesamtfeindbildes in den letzten Tagen läßt die Meldung glaubhaft erscheinen. Nach der vor H.Gr. A und B entstandenen Lage dürfte mit Ausweichen zunächst hinter Don-Linie, bei weiterem Vorstoß hinter Wolga-Linie unter Festhalten des Nordkaukasusgebietes, des Brückenkopfes Stalingrad und — bei deutschem Angriff aus Bereich der H.Gr. Mitte — des Gebietes von Tula—Moskau—Kalinin zu rechnen sein.

Ob darüber hinaus eine großräumige Ausweichbewegung auch bei Mitte und Nord für den Fall des Übergangs dieser Heeresgruppen zum Angriff unter Ausnutzung einer etwa gegebenen für uns überraschend günstigen Entwicklung ins Auge gefaßt ist, ist nicht erkennbar.

Im Entwurf gez. Gehlen
F.d.R.
gez. Herre
Major i. G.

Entwurf

Oberkommando des Heeres
Generalstab des Heeres
Abt Fremde Heere Ost (IIb4)
Nr. 257 / 43 g.Kdos.

H. Qu., den 12. 4. 1943

Geheime Kommandosache

2 Ausfertigungen
2.Ausfertigung.

Betr.: Wehrwirtschaftliche Berichte des Forschungsamtes.

Anlagen: ohne.

An

A W A (Sonderreferat)
z.Hd. von Herrn Rentschler

B e r l i n W 35
Tirpitz-Ufer 75-76
Zimmer 314 e-f (hochpart.)

Die Berichte des Forschungsamtes "Einzelheiten zur wirtschaftlichen und innerorganisatorischen Lage der Sowjetunion" und "Beiträge zur Beurteilung der wirtschaftlichen Lage der Sowjetunion" bilden eine sehr wertvolle Ergänzung der übrigen, aus anderen Nachrichtenquellen stammenden Unterlagen auf wehrwirtschaftlichem Gebiet.

Da der überwiegend größte Teil dieses wertvollen Materials aus dem innerrussischen Funkverkehr bisher leider nur aus einem der Wirtschaftsgebiete - dem mittelasiatischen Raum - stammt, erscheint es bei der Wichtigkeit aller wehrwirtschaftlichen Fragen sehr wünschenswert, auch den Funkverkehr der Gebiete an der mittleren Wolga, des Urals und Westsibiriens zu erfassen. Ob sich das technisch und organisatorisch ermöglichen läßt, kann von hier aus natürlich nicht beurteilt werden.

Was die Auswertung der Einzelnachrichten und die Beurteilung der wehrwirtschaftlichen Lage der Sowjetunion anbelangt, so ist die enge Fühlungnahme des Forschungsamtes mit dem Wehrwirtschaftsstab / Ausland des O.K.W. sehr zu begrüßen, da letzterer die Möglichkeit der Überprüfung und des Vergleichs mit anderen Unterlagen hat. Außerdem wird dadurch einerseits vermieden, daß die naturgemäß für die Sowjetunion zur negativen Charakter tragenden Nachrichten des Funkverkehrs eine Verallgemeinerung finden, wovor ja auch in den Berichten des Forschungsamtes wiederholt besonders gewarnt wurde, und andererseits eine übereinstimmende Beurteilung der wehrwirtschaftlichen Gesamtlage der Sowjetunion gewährleistet.

I. A.

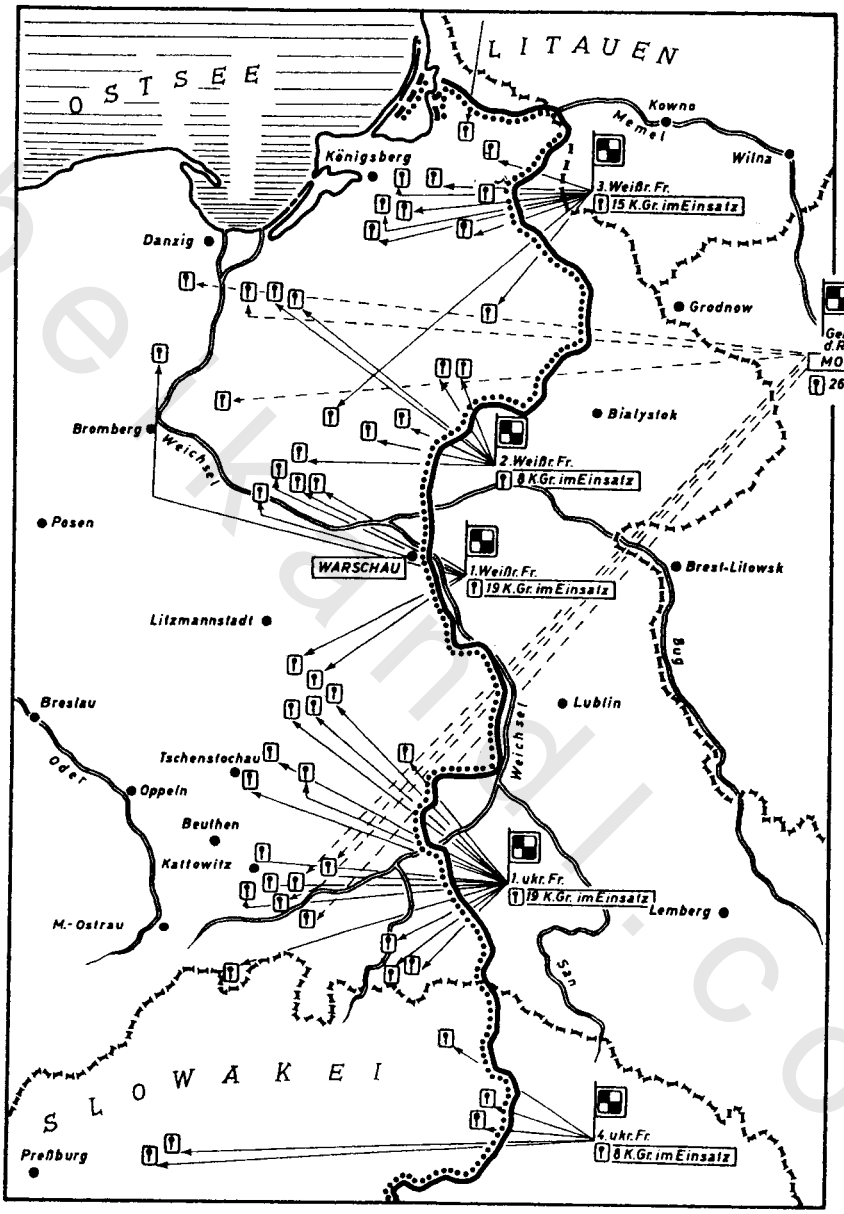
OSTSEE
LITAUEN
Kowno
Memel
Wilna
Königsberg
3.Weißr.Fr.
15 K.Gr. im Einsatz
Danzig
Grodnow
Gen.Stab.
d.R.A. in
MOSKAU
26 K.Gr. im
Einsatz
Bromberg
Weichsel
Bialystok
2.Weißr.Fr.
8 K.Gr. im Einsatz
Posen
WARSCHAU
1.Weißr.Fr.
19 K.Gr. im Einsatz
Brest-Litowsk
Litzmannstadt
Bug
Breslau
Lublin
Oder
Tschenstochau
Weichsel
Oppeln
Beuthen
Kattowitz
1.ukr.Fr.
19 K.Gr. im Einsatz
Lemberg
M.-Ostrau
San
SLOWAKEI
4.ukr.Fr.
8 K.Gr. im Einsatz
Preßburg

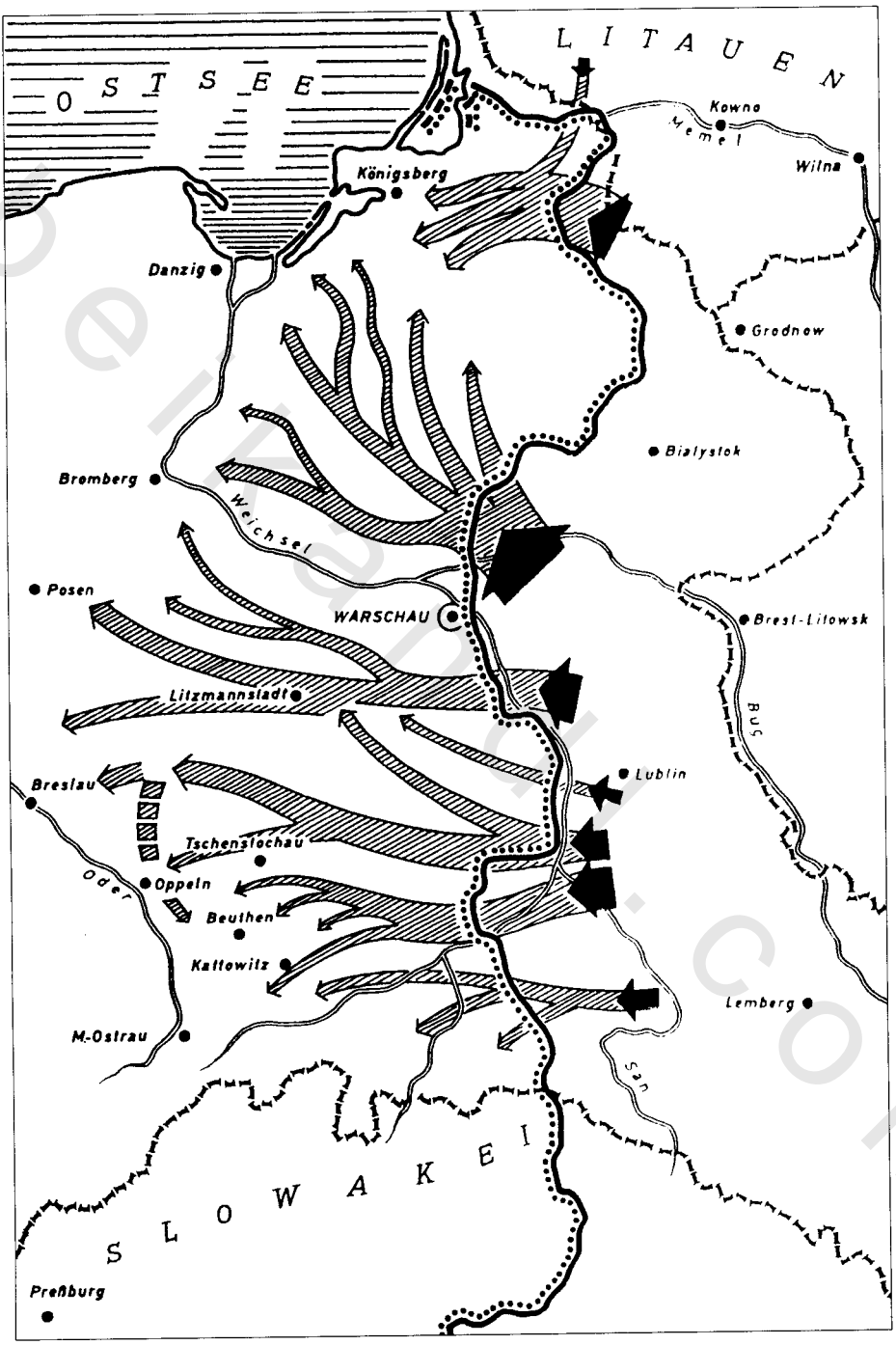
OSTSEE
LITAUEN
Kowno
Memel
Wilna
Königsberg
Danzig
Grodnow
Bialystok
Bromberg
Weichsel
Posen
WARSCHAU
Brest-Litowsk
Litzmannstadt
Bug
Lublin
Breslau
Tschenstochau
Oppeln
Oder
Beuthen
Kattowitz
Lemberg
M.-Ostrau
San
SLOWAKEI
Preßburg

Geheime Kommandosache

W/Chi

VN

Sofort an Chef Chi zurück!
Weitergabe, auch innerhalb des Hauses, selbst in veränderter Form und mit Verschleierung der Quelle, verboten!

Nr. 1482/12.44(USA)
.12.44(wif-thd2)
g. 27.12.44

29.Dezember 1944

Betrifft: GROSSBRITANNIEN - Ernennung eines USA-Beraters für die Londoner Polenregierung

Von: Staatsdepartement Washington
An: USA-Konsulat Tunis
Nr.56

23.12. 2200 h.
Marcel E.Malige wird zum Berater für Wirtschaftsangelegenheiten bei der jetzt in London aufgestellten polnischen Regierung ernannt. Er hat die Reise bei Eintreffen seines Nachfolgers anzutreten und zwecks Rücksprache beim Staatsdepartement über Washington zu reisen. Diese Versetzung geschieht weder auf sein Ansuchen hin noch zwecks seiner persönlichen Annehmlichkeit.

Seine Beförderungskosten und Tagegelder von Tunis nach London und während seines Aufenthalts in Washington D.C. sowie die direkten Beförderungskosten und Tagegelder für seine Familie und die Transportkosten für seine Privatsachen werden entsprechend den Reisevorschriften genehmigt. Die Reise wird für jegliche geeignet erscheinende Route und für jedes verfügbare Verkehrsmittel einschließlich Militärflugzeug genehmigt. Tagegelder werden für die Zeit der Rücksprache gemäß Anmerkung 15, Abrechnungssatz E, gewährt. Die Kosten sind unter "1 950 515, 001, Beförderungsgelder für den Auswärtigen Dienst 1945" zu verbuchen.

Reichen Sie einen Voranschlag ein, und melden Sie die tatsächlichen Daten.

Stettinius.

Geheime Reichssache!

1. Dies ist ein Staatsgeheimnis im Sinne des RStGB. (Bei barer Landesverrat) in der Fassung des Gesetzes vom 24.4.1934
2. Nur für die vom RFM verpflichteten und zum Empfang hierher dem Personen bestimmt und diesen gegen Empfangsbescheinigung auszuhändigen.
3. Beförderung nur in doppeltem Umschlag und durch Kurier oder Vertrauensperson
4. Verschaltung oder Kenntnisnahme im Wortlaut oder Verstellung von Auszügen im Wortlaut verboten
5. Empfänger haftet für sichere Aufbewahrung im Geheimschrank, Kassenschrank und Wächter. Verstoß bestrafen nicht öffentliche Strafen nach sich.

(12A) v.dae./Ry. **Forschungsamt** 19. März 1945.

W450237

Abkommen der Schweiz mit den Alliierten über die Regelung schweizerischer Verkehrsfragen.

Einsatz von täglich 3 schweizerischen Zügen zwischen Cerbère und Genf.

Benutzung des Hafens von Toulon durch schweizerische Schiffe.

Das Politische Departement in Bern verständigt am 14.3.45 die schweizerische Gesandtschaft in Lissabon, dass das mit den Alliierten getroffene Abkommen den Betrieb von täglich 3 Zügen zwischen Cerbère und Genf mit je 600 t Ladung vorsehe. Die schweizerischen Schiffe könnten in Zukunft den Hafen von Toulon benutzen, doch seien die Umschlagsmöglichkeiten auf 400 t täglich beschränkt. Der Eisenbahnverkehr in Frankreich werde mit schweizerischen Waggons und Lokomotiven durchgeführt werden. Die Alliierten Regierungen gewährten der Schweiz weiterhin das Kontingent und die Navicerts für Lebensmittel im Rahmen der früher bezogenen Mengen. Ferner habe die Schweiz für verschiedene industrielle Rohstoffe neue Quoten erlangt. Da die Transportmittel im Augenblick nicht ausreichten, werde für den Transport von Waren nach der Schweiz eine Vorrangliste aufgestellt.

Das mit den Alliierten getroffene Abkommen erstreckte sich ausserdem auf verschiedene Finanzangelegenheiten und Fragen bezüglich des Warentransits durch die Schweiz nach Deutschland, Italien und umgekehrt sowie auf die wirtschaftlichen Beziehungen zum Reich.

(Vergl. E 8/209/ 3.45 Eing.:17.3.)

جوزيف ستالين
لجنة الدولة للدفاع
مقر القائد الأعلى
مفوضية الشعب للداخلية
قوات الحدود
مناطق قوات الحدود
شعب قوات الحدود
قطاعات قوات الحدود
القوات الداخلية
الميليشيا
الاحتياط
فرق وأفواج قوات مفوضية الشعب للداخلية
كتائب الحرس
أفواج الحرس
مفوضية الشعب لأمن الدولة
إدارة الخارج
البعثات من الخارج
المقرات الخارجية
شبكات التجسس الخارجية
إدارة الأمن الداخلي
الإدارات في الجمهوريات
الإدارات على مستوى المحافظ
الإدارات على مستوى الديبلوماسيات
أركان الأنصار المركزية
شعبة الاستعلام
شعب الاستعلام لدى القيادات العليا للجبهات
مجموعات عملياتية لدى أركان الجيوش
مجموعات عملياتية في مناطق العدو
شبكات العملاء مجاميع الأنصار
مفوضية الشعب للدفاع
الإدارة العامة للتجسس المضاء ومكافحة الجاسوسية
شعب الجبهات والجيوش
شعب الفرق والألوية
الإدارة العامة للتجسس المضاء ومكافحة الجاسوسية
شعب الجبهات والجيوش
شعب الفرق والألوية
الأركان العامة للجيش الأحمر
إدارة الاستطلاع العامة
المقرات الخارجية
شعب الجبهات والجيوش
شعب الفرق والألوية
شبكات الجاسوسية الخارجية

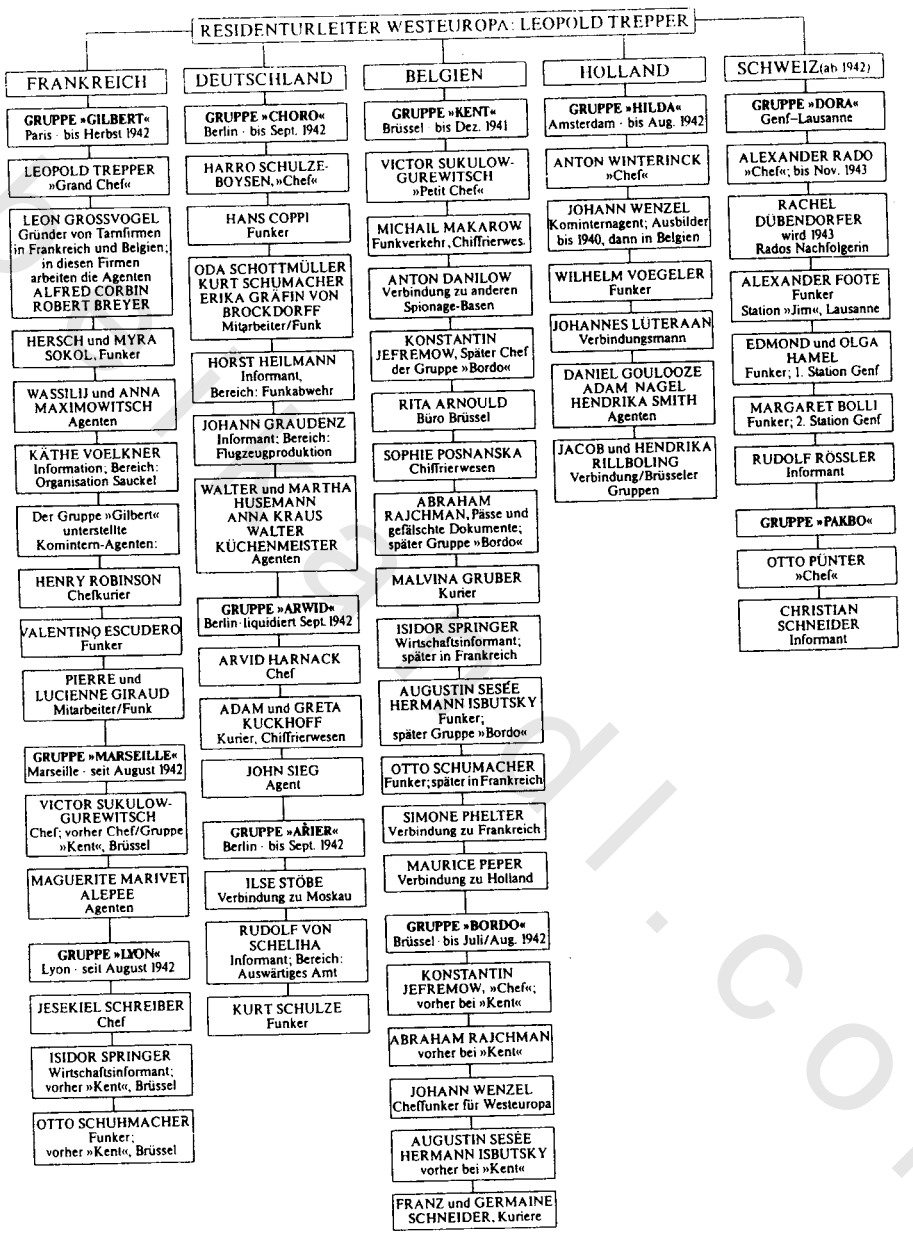
RESIDENTURLEITER WESTEUROPA: LEOPOLD TREPPER
FRANKREICH
GRUPPE »GILBERT«
Paris · bis Herbst 1942
LEOPOLD TREPPER
»Grand Chef«
LEON GROSSVOGEL
Gründer von Tarnfirmen in Frankreich und Belgien; in diesen Firmen arbeiten die Agenten
ALFRED CORBIN
ROBERT BREYER
HERSCH und MYRA SOKOL, Funker
WASSILIJ und ANNA MAXIMOWITSCH
Agenten
KÄTHE VOELKNER
Information; Bereich: Organisation Sauckel
Der Gruppe »Gilbert« unterstellte Komintern-Agenten:
HENRY ROBINSON
Chefkurier
VALENTINO ESCUDERO
Funker
PIERRE und LUCIENNE GIRAUD
Mitarbeiter/Funk
GRUPPE »MARSEILLE«
Marseille · seit August 1942
VICTOR SUKULOW-GUREWITSCH
Chef; vorher Chef/Gruppe »Kent«, Brüssel
MAGUERITE MARIVET
ALEPEE
Agenten
GRUPPE »LYON«
Lyon · seit August 1942
JESEKIEL SCHREIBER
Chef
ISIDOR SPRINGER
Wirtschaftsinformant; vorher »Kent«, Brüssel
OTTO SCHUHMACHER
Funker; vorher »Kent«, Brüssel
DEUTSCHLAND
GRUPPE »CHORO«
Berlin · bis Sept. 1942
HARRO SCHULZE-BOYSEN, »Chef«
HANS COPPI
Funker
ODA SCHOTTMÜLLER
KURT SCHUMACHER
ERIKA GRÄFIN VON BROCKDORFF
Mitarbeiter/Funk
HORST HEILMANN
Informant, Bereich: Funkabwehr
JOHANN GRAUDENZ
Informant; Bereich: Flugzeugproduktion
WALTER und MARTHA HUSEMANN
ANNA KRAUS
WALTER KÜCHENMEISTER
Agenten
GRUPPE »ARWID«
Berlin · liquidiert Sept. 1942
ARVID HARNACK
Chef
ADAM und GRETA KUCKHOFF
Kurier, Chiffrierwesen
JOHN SIEG
Agent
GRUPPE »ARIER«
Berlin · bis Sept. 1942
ILSE STÖBE
Verbindung zu Moskau
RUDOLF VON SCHELIHA
Informant; Bereich: Auswärtiges Amt
KURT SCHULZE
Funker
BELGIEN
GRUPPE »KENT«
Brüssel · bis Dez. 1941
VICTOR SUKULOW-GUREWITSCH
»Petit Chef«
MICHAIL MAKAROW
Funkverkehr, Chiffrierwes.
ANTON DANILOW
Verbindung zu anderen Spionage-Basen
KONSTANTIN JEFREMOW, Später Chef der Gruppe »Bordo«
RITA ARNOULD
Büro Brüssel
SOPHIE POSNANSKA
Chiffrierwesen
ABRAHAM RAJCHMAN, Pässe und gefälschte Dokumente; später Gruppe »Bordo«
MALVINA GRUBER
Kurier
ISIDOR SPRINGER
Wirtschaftsinformant; später in Frankreich
AUGUSTIN SESÉE
HERMANN ISBUTSKY
Funker; später Gruppe »Bordo«
OTTO SCHUMACHER
Funker; später in Frankreich
SIMONE PHELTER
Verbindung zu Frankreich
MAURICE PEPER
Verbindung zu Holland
GRUPPE »BORDO«
Brüssel · bis Juli/Aug. 1942
KONSTANTIN JEFREMOW, »Chef«; vorher bei »Kent«
ABRAHAM RAJCHMAN
vorher bei »Kent«
JOHANN WENZEL
Cheffunker für Westeuropa
AUGUSTIN SESÉE
HERMANN ISBUTSKY
vorher bei »Kent«
FRANZ und GERMAINE SCHNEIDER, Kuriere
HOLLAND
GRUPPE »HILDA«
Amsterdam · bis Aug. 1942
ANTON WINTERINCK
»Chef«
JOHANN WENZEL
Kominternagent; Ausbilder bis 1940, dann in Belgien
WILHELM VOEGELER
Funker
JOHANNES LÜTERAAN
Verbindungsmann
DANIEL GOULOOZE
ADAM NAGEL
HENDRIKA SMITH
Agenten
JACOB und HENDRIKA RILLBOLING
Verbindung/Brüsseler Gruppen
SCHWEIZ (ab 1942)
GRUPPE »DORA«
Genf–Lausanne
ALEXANDER RADO
»Chef«; bis Nov. 1943
RACHEL DÜBENDORFER
wird 1943 Rados Nachfolgerin
ALEXANDER FOOTE
Funker
Station »Jim«, Lausanne
EDMOND und OLGA HAMEL
Funker; 1. Station Genf
MARGARET BOLLI
Funker; 2. Station Genf
RUDOLF RÖSSLER
Informant
GRUPPE »PAKBO«
OTTO PÜNTER
»Chef«
CHRISTIAN SCHNEIDER
Informant

Der Chef der Sicherheitspolizei und des SD

IV A 2 - B.Nr. 330/42gRs -

Diese in der Antwort anzuführenden Geschäftszeichen u. Datum angeben

Berlin SW 11, den 24. Dezember 19 42.

Prinz-Albrecht-Straße 8

Fernsprecher: Ortsverkehr: 12 00 40 · Fernverkehr: 12 84 21

Schnellbrief

Geheime Reichssache!

An

den Reichsführer-SS und Chef der Deutschen Polizei,

Feld-Kommandostelle.

-.-.-.-.-.-.-.-.-.-.-.

Betrifft: Rote Kapelle.

Bezug: Meine laufende Berichterstattung, zuletzt vom 12.12.1942 - IV A 2 - B.Nr. 330/42gRs -.

Nach dem augenblicklichen Stand der Ermittlungen ergibt sich für den Aufbau der "Roten Kapelle" in Frankreich folgendes Gesamtbild:

Dem Grand-Chef alias "Gilbert" stand als persönlicher technischer Sekretär der Funktionär

"André II" (D u b o i s)

zur Seite, der über eigenes Funkprogramm, einen Chiffrierschlüssel und Kurierverbindungen verfügte. Er konnte inzwischen ausgehoben werden. Außer seinem technischen Sekretär unterstanden dem Grand-Chef 7 technisch selbständige Gruppen, die gleichfalls eigene Funkanweisung, Schlüssel und Kurierverbindungen hatten. Im einzelnen handelt es sich um folgende:

Anlage 731

243

Oberbefehlshaber West
(Oberkommando Heeresgruppe D)
Ic/AO Nr. 929/44 g.Kdos

H.Qu., den 6.4.1944

Betr.: "Rote Kapelle"

4 Ausfertigungen
.Ausfertigung

An

Befehlshaber der Sicherheitspolizei
und des SD in Frankreich
z.Hd.Kriminalrat P a n a w i t z

Nachrichtl.: Oberkommando Heeresgruppe B
Leitstelle Abwehr III F West

Folgendes Material wird für "Rote Kapelle" freigegeben:

Wirkliche Lage (nur für H.Gr.B und im Entwurf):	
	1) In Südholland und an der Scheldemündung konnten folgende Truppen festgestellt werden:
richtig	In Dordrecht Pioniere und Nachschubtruppen, die zur 719. Div. gehören.
Schnelle Abt.512 in Breda schon wiederholt als Div. dargestellt.	In Breda und Rosendaal Infanterie, MG - und Radfahrtruppen der 512. Div., die in diesem Raum wiederholt bestätigt ist.
9.Lw.Feld-Div., früher auf W cheren, jetzt bei Thourout	Nördl. der Scheldemündung bei Woensdrecht Jäger-Regiment 37, gehört zur 19. Div. Diese Div. lag bisher auf Insel Walcheren und ist vor kurzem an die Scheldemündung verlegt. Auf Walcheren liegt jetzt eine neue
165.Res.Div.	Inf.Div., die noch nicht identifisiert werden konnte. Junge und mittlere Jahrgänge, gut ausgerüstet, starke Artl., aber wenig mot. Fahrzeuge.
Ost-Batl.600	In der alten Festung Hulst südl. der Scheldemündung ein russ.Freiwilligenverband mit deutschen Offz. und Uffz.
712.Div. im Raum Neuzen - Zeebrügge	In Walsoorden, Neuzen und Hoofdplaat Inf. und Artl. des 712.Div.

Gen.Kdo.I.SS-Pz.-Korps

2) In Brüssel Panzertruppen der SS. Offiziere und Mannschaften mit dem Ärmelstreifen der Leibstandarte "Adolf Hitler".

12.SS-Pz.Div. nach Evreux - Laigle

3) Die SS-Pz.Div. in Beverloo, starker Verband mit vielen schweren Panzern, wurde Anfang April über Brüssel in Richtung Alost - Courtrai abtransportiert. In Beverloo werden neue Truppen erwartet.

Auszug aus einer von Ob.West freigegebenen echten Verratsmeldung des engl.-holl. ND mit Änderungen

4) Befestigungen an der belgischen Küste sind sehr stark.

In Knocke ist der Bahnhof befestigt wie ein Fort. Im Bahnhof steht eine schwere Battr. in starken Bunkern. Vor dem Bahnhof kleinkalibr. Panzerabwehrkanonen und Flak in Betonständen. Rundherum Minen und Stacheldraht. An den Eingängen der Strassen zur Stadt starke Tanksperren aus Beton mit Eisenträgern. Unbebautes Gelände überall vermint.

In Ostende eine schwere Battr. vor dem Seebahnhof. Auf beiden Seiten des Hafeneinganges enorm starke Bunker. Alle nach der Seeseite laufenden Strassen durch schwere Tanksperren abgesperrt. Viele betonierte MG-Nester und Betonstände für Panzerabwehrgeschütze. Stärkste Befestigungen an Postgebäude, kolossale Betonstände mit Schießscharten, alle Zugänge durch Tanksperren, Drahthindernisse und Minen gesperrt. Häuser am Seedeich teils gesprengt teils vermint. Vom Königl.Palais bis zum Royal Palace Hotel ausgedehntes System von Schützengräben, unterirdischen Gängen und Betonwerken. Hippodrom durch Betonpfähle, Drahtsperren und Minen für Luftlandungen unbrauchbar gemacht.

- 3 -

An der Küste zwischen Ostende und Knocke sind die Befestigungen in ähnlichem Zustand. Es ist dort in den letzten Monaten enorm gearbeitet worden. Die Verteidigungswerke reichen teilweise bis tief ins Hinterland.

5) Die ganze Gegend an der belgisch-französischen Küste ist stark mit Truppen belegt, besonders auf französischem Gebiet von Lille und Arras bis zur Küste. Truppen aller Waffengattungen, viel schwere Artillerie, Panzer und Panzerabwehrwaffen. Alle beobachteten Artilleriestellungen in schweren Betonbunkern. Gelände in der Nähe der Küste meilenweit überschwemmt und überall vermint.

Folgende Truppen konnten identifiziert werden:

In Montreuil 49.Div.(242.bei Mittelmeer). 344.stimmt, in diesem Raum schon mehrfach gemeldet. Südl. der Somme 24?. Div.(48.bei Dixmuiden).

242.Div. in Montreuil, 344.Div. bei Berck, 48. Div. an der Sommemündung.

Kampfgruppe der 9.Pz.Div.

Weitere Kampfgruppe der 9.Pz. Div. (2.SS-Pz.-Div. bei Montreuil).

Im rückwärtigen Gebiet liegen Panzerdivisionen. Eine Pz.Div. ist mit Sicherheit zwischen Abbéville und Malencourt festgestellt, eine weitere Pz.Div. der SS (wahrscheinlich 2.SS-Pz.Div.) zwischen Arras und Lens. Mehrfach bestätigt und zuverlässig.

179.Res.Pz.Div. 179.Pz.Div.auf Anordnung OKH mehrfach in der Bretagne gemeldet). 21.Pz.Div. stimmt

6) Bereits gemeldete 79. Pz.Div. bis Mitte März bei Rennes bestätigt, um diese Zeit durch 21. Pz.Div. abgelöst, die bis dahin bei Evreux lag. Bei 21. Pz.Div. grosse Anzahl schwerer und schwerster Panzer und modernste Waffen. 79. Pz.Div. soll jetzt zwischen Evreux und Mantes liegen.

Bei Pontoise und Meulan 9?.

21.Pz.Div.teils über Brüssel, teils über Nancy nach Rennes

7) 20. - 25.5. lief ein Transport eines starken SS-Panzerverbandes in ca. 70 Zügen aus Deutschland über Brüssel - Lille in Richtung Amiens. Als Transportziel wurde der Raum von St.Lô südl. Cherbourg angegeben.

Aktion unter Führung von General Brehmer.

Zusatz für BdS:
Meldung kann durch Schilderungen von Einzelheiten ergänzt werden

8) Zwischen Limoges und Perigeux haben die Deutschen den Kampf gegen die Partisanen planmässig aufgenommen. Mehrere Regimenter mit mot. Artillerie und Panzerfahrzeugen sind hierfür eingesetzt. Die Partisanen wehren sich heldenhaft und haben starke Verluste. Die Kämpfe dauern an.

1 Komp. Gebirgsjäger in St.Etienne

9) In den Pyrenäen im Raum St.Etienne - St.Jean Pied de Port liegen neuerdings Gebirgstruppen; Gebirgsjäger und Gebirgsartillerie mit Edelweiss an der Mütze. Es scheint sich um eine neue Division zu handeln, deren Stab in Cambo - les Bains liegt.

Stab 276.Div. in Aufstellung

10) Von der Mittelmeerküste wird gemeldet, dass die SS-Panzerdivision, die bei Nimes lag, vor kurzem nach dem Osten abtransportiert wurde. Sie wurde durch eine Panzer-Div. des Heeres ersetzt, deren Nummer noch nicht zuverlässig festgestellt werden konnte. Es soll sich um die 155. Pz.Div. handeln. Wird noch nachgeprüft.

9.SS-Pz.-Div. nach Lemberg

155.Res.Pz.Div.
(demnächst 9.Pz.Div.)

Vorstehendes Material ist allmählich und mit verschiedenen Quellenangaben zu verwerten. Um Mitteilung der abgegangenen Nachrichten im Wortlaut wird gebeten.

Für den Oberbefehlshaber West
(Oberkommando Heeresgruppe D)
Der Chef des Generalstabes

ТЕЛЕГРАММА вх.№ 89084

Токио 11 40 I июня 41
17 45 I июня 41

Токио, 30 мая 1941 г.

Берлин информировал своего посла в Японии ОТТ, что немецкое наступление против СССР начнется во второй половине июня.

Наиболее сильный удар будет нанесен левым флангом германской армии.

ОТТ совершенно уверен, что война скоро начнется, поэтому он потребовал от военного атташе не посылать никаких важных сообщений через территорию СССР.

Технический департамент германских воздушных сил в Токио получил указание возвратиться в Германию.

РАМЗАЙ

Dieses Buch entschlüsselt mir viele geheimnisvolle Aktionen unserer ehemaligen Gegner, für die wir im Hauptquartier niemals eine Erklärung fanden. Ich erinnere mich noch, wie Hitler seinen Marschällen und mir immer wieder in lehrhaften Wendungen erklärte, daß wir in diesem Krieg den besten Geheim-Code hätten, den Menschen überhaupt erfinden könnten...

Das Buch von Winterbotham ist für mich eines der überraschendsten Bücher gewesen, die ich überhaupt über den Zweiten Weltkrieg gelesen habe. Nun haben also die Alliierten vom ersten bis zum letzten Tage einen guten Teil unserer geheimsten Absichten und am sorgfältigsten gehüteten Pläne gekannt, ohne daß sie einen Spion oder Agenten bemühen mußten. Für mich ist das wieder eine Demonstration, wie sehr der Verlauf der modernen Kriege durch die Technik mitbestimmt wird.

Albert Speer

This note on the use of Ultra is written from the point of view of a British consumer. It should not be necessary to stress the value of the material in shaping the general intelligence of the war. Yet it should be emphasised from the outset that the material was dangerously valuable not only because we might lose it but also because it seemed the answer to an intelligence Officer's prayer. Yet by providing this answer it was liable to save the recipient from doing intelligence. Instead of being the best, it tended to become the only, source. There was a tendency at all times to await the next message and, often, to be fascinated by the authenticity of the information into failing to think whether it was significant at the particular level at which it was being considered. To be "Flivo-minded" at an Army HQ was permissible: at an Army Group it was to forget one's proper function. Probably essential wood was ignored because of the variety of interesting trees on view. The information purveyed was so remarkable that it tended, particularly if one were tired or overbusy, to engulf not only all other sources but that very commonsense which forms the basis of intelligence. Out for ourselves, as a cover for the source, sometimes gave us a reputation for ability which made us feel extremely dishonest. Yet it is contended that very few Armies ever went to battle better informed of their enemy, and it is recognised by those who ostensibly provided the information that they were but useful hyphens between the real producers at Bletchley Park and the real consumer, the soldier in the field whose life was made that much easier by the product.

/s/ E. T. WILLIAMS
Brigadier

5 October 1945

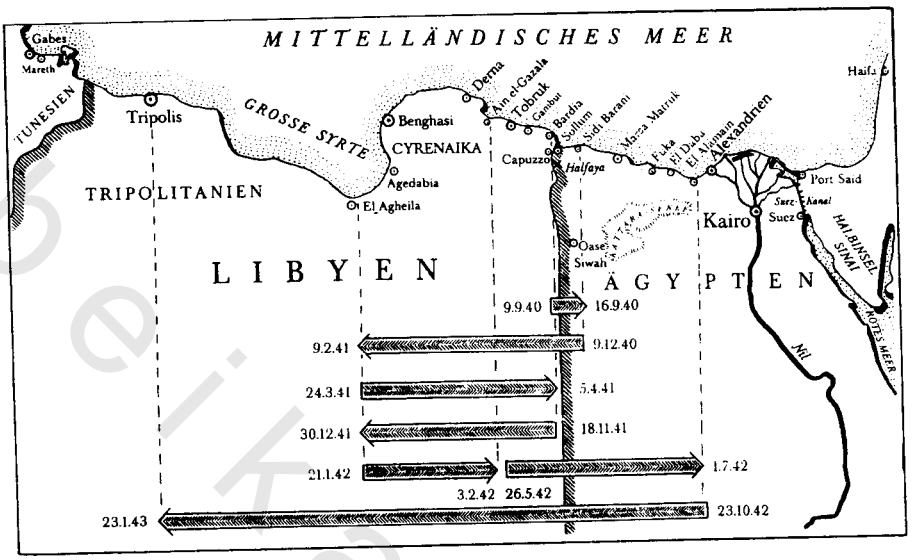

Berchkompanie
3. / Nr. 50

O.U., den 3. Juli 1941.

Funklagemeldung Nr. 2/VII.

(2.7. 0000 Uhr – 2.7. 2400 Uhr).

I. Ägypten.

a) Westliche Wüste.

Verlegung der gesamten Aufkl.Abt. 11. Husaren in Gegend Sidi Barani hat sich nicht bestätigt. Anscheinend werden einzelne Schwadronen in gegenseitiger Ablösung dorthin verlegt. Z.Zt. ist die Schwadron DOKY dort festgestellt.

Aufkl. Schwadron BACO hat anscheinend Spähtrupps bis zur Strasse Bardia – Tobruk vorgeschoben, die von dort Meldungen geben.

Support Group meldet an 7. Pz. Div. eine fdl. Batterie zu drei 10,5 cm Geschützen erkannt oel 526 336.

b) Tobruk – Front.

Keine Feststellungen.

Das ist m. E. ganz
ausgeschlossen. Die Meldung von Baco
fand bei Brit. Suleiman

Verteiler wie bisher.

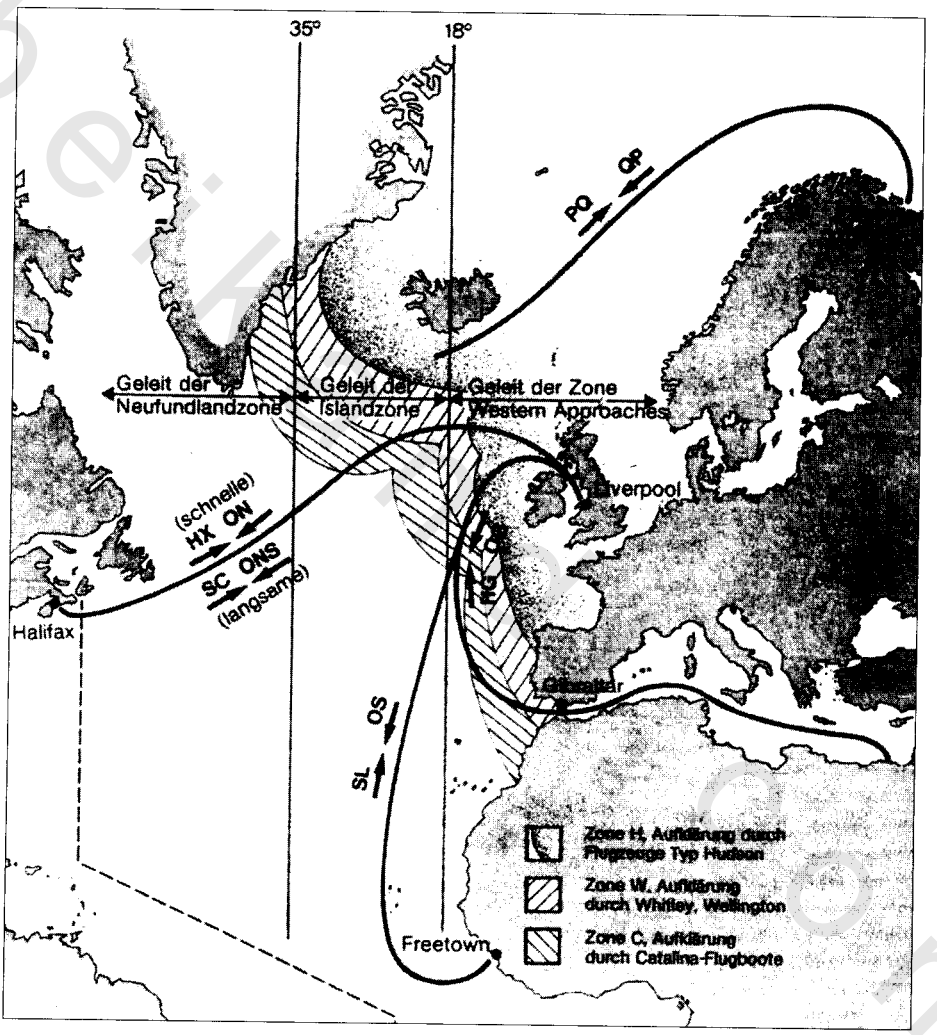
35°
18°
PQ
QP
Island
Geleit der Neufundlandzone
Geleit der Islandzone
Geleit der Zone Western Approaches
Liverpool
(schnelle)
HX ON
SC ONS
(langsame)
Halifax
OS
SL
Gibraltar
Freetown
Zone H, Aufklärung durch Flugzeuge Typ Hudson
Zone W, Aufklärung durch Whitley, Wellington
Zone C, Aufklärung durch Catalina-Flugboote

E N G L A N D
1. Armee (amerik.)
2. Armee (engl.)
DER KANAL
BRETAGNE
ARGONNEN
CHAMPAGNE
Frontverlauf am:
6.6.44
12.6.44
25.7.44
1.8.44
7.8.44
17.8.44
25.8.44
15.10.44

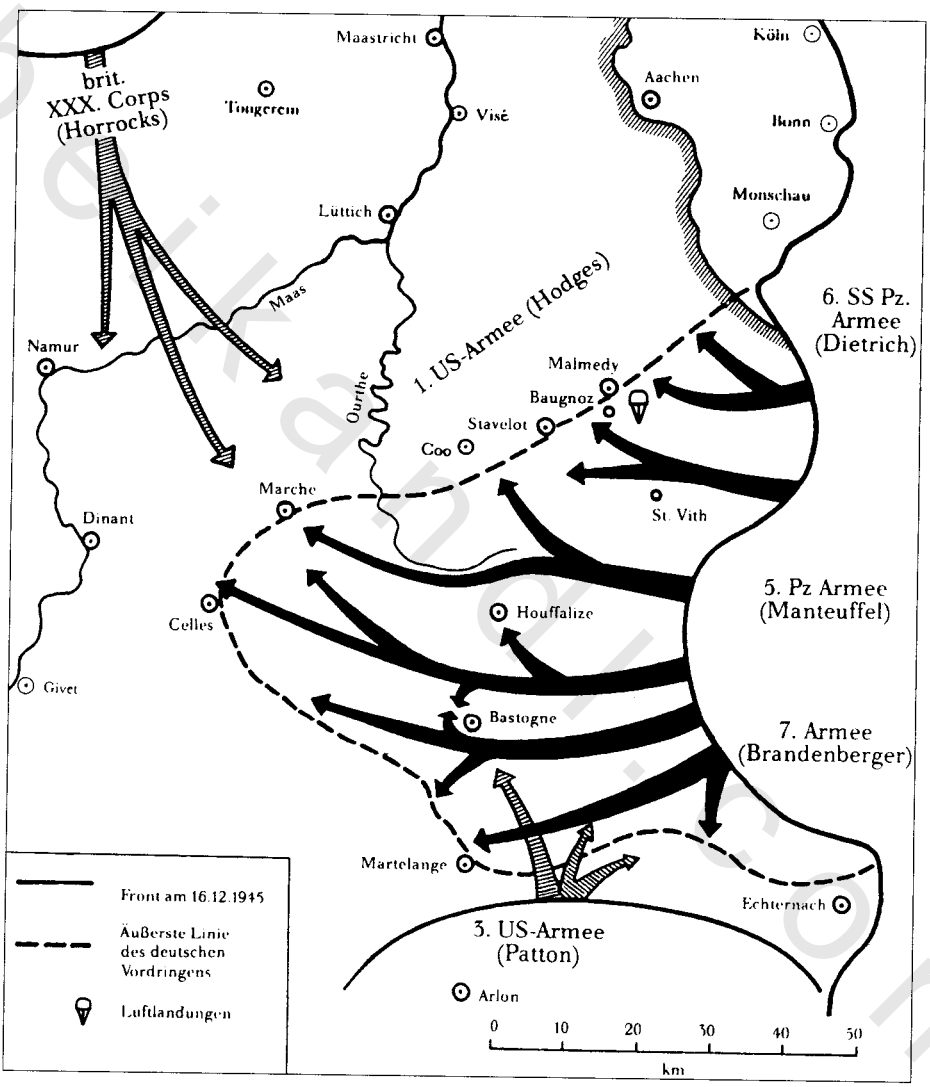
brit.
XXX. Corps
(Horrocks)
Tongeren
Maastricht
Visé
Lüttich
Maas
Namur
Dinant
Givet
Marche
Celles
Ourthe
1. US-Armee (Hodges)
Malmedy
Baugnoz
Stavelot
Coo
St. Vith
Houffalize
Bastogne
Martelange
Arlon
Aachen
Köln
Bonn
Monschau
6. SS Pz.
Armee
(Dietrich)
5. Pz Armee
(Manteuffel)
7. Armee
(Brandenberger)
3. US-Armee
(Patton)
Echternach
Front am 16.12.1945
Äußerste Linie
des deutschen
Vordringens
Luftlandungen
0 10 20 30 40 50
km

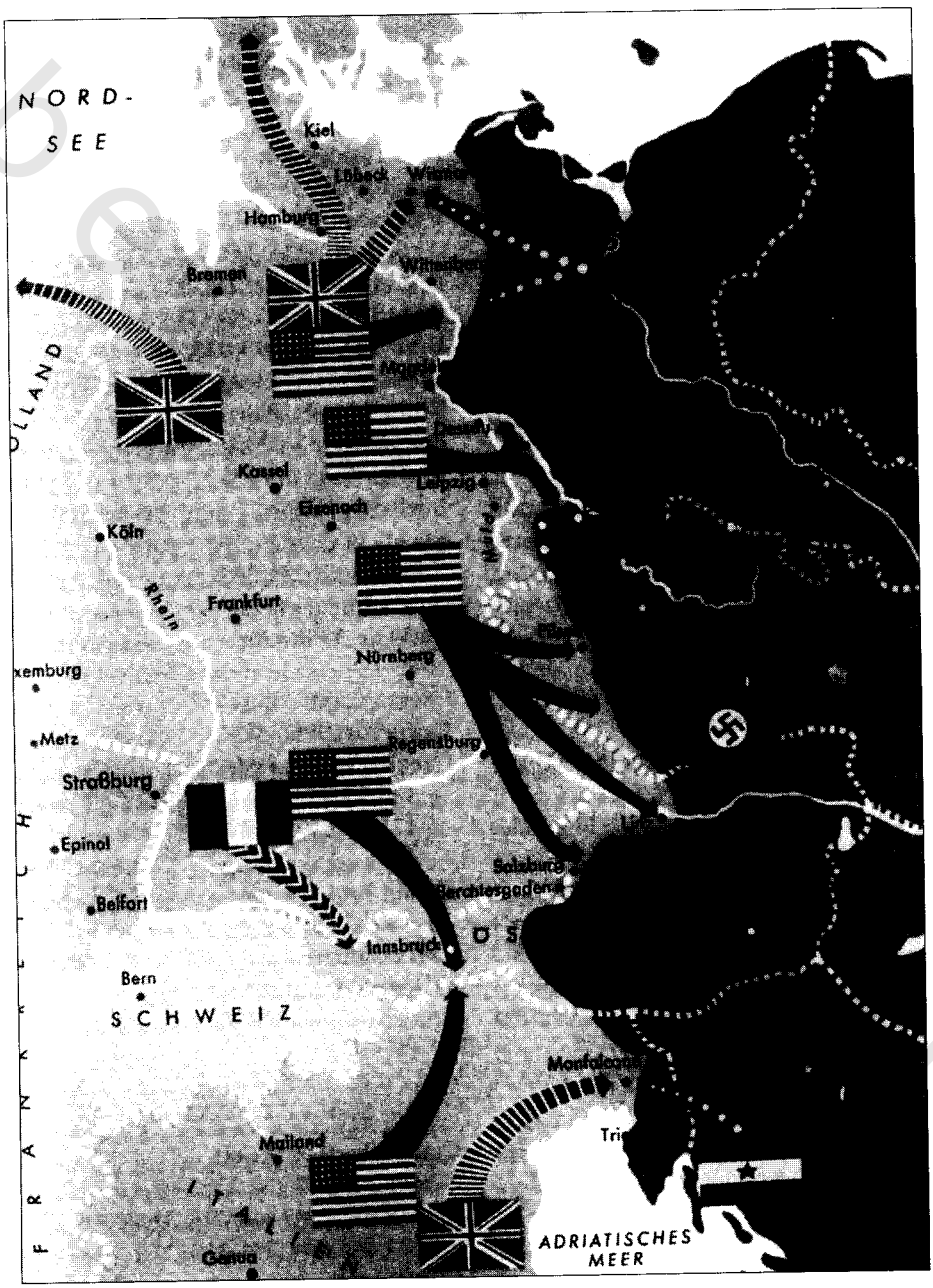
NORD-
SEE
Kiel
Lübeck
Hamburg
Bremen
Kassel
Köln
Rhein
Frankfurt
Nürnberg
Metz
Straßburg
Epinal
Belfort
Innsbruck
Bern
SCHWEIZ
Regensburg
Mailand
Genua
ADRIATISCHES
MEER